

محمّد حسنين هيكل

كلام فى السّياسة

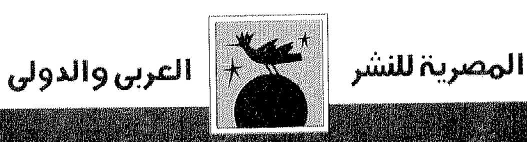
قضايا ورجال : وجهات نظر

(مع بدايات القرن الواحد والعشرين)





المصرية للنشر



العربى والدولى

كلام فى السياسة

كلام فى السياسة

قضايا ورجال : وجهات نظر

مع بدايات القرن الواحد والعشرين

الطبعة الأولى : فبراير ٢٠٠٠م
الطبعة الثانية : مارس ٢٠٠٠م
الطبعة الثالثة : مايو ٢٠٠٠م
الطبعة الرابعة : سبتمبر ٢٠٠٠م
الطبعة الخامسة : يناير ٢٠٠١م
الطبعة السادسة : نوفمبر ٢٠٠١م
الطبعة السابعة : نوفمبر ٢٠٠٢م

رقم الإيداع : ٢٠٠١/٣٧٧٥
الترقيم الدولى: I.S.B.N 977 - 5999 - 00 - 6

© الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
- رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى : e-mail: info@alkotob.com

تصميم الغلاف والإخراج:
للفنان حلمى التونى
الرسوم:
للفنان محمد حجى

محمّد حسنين هيكل

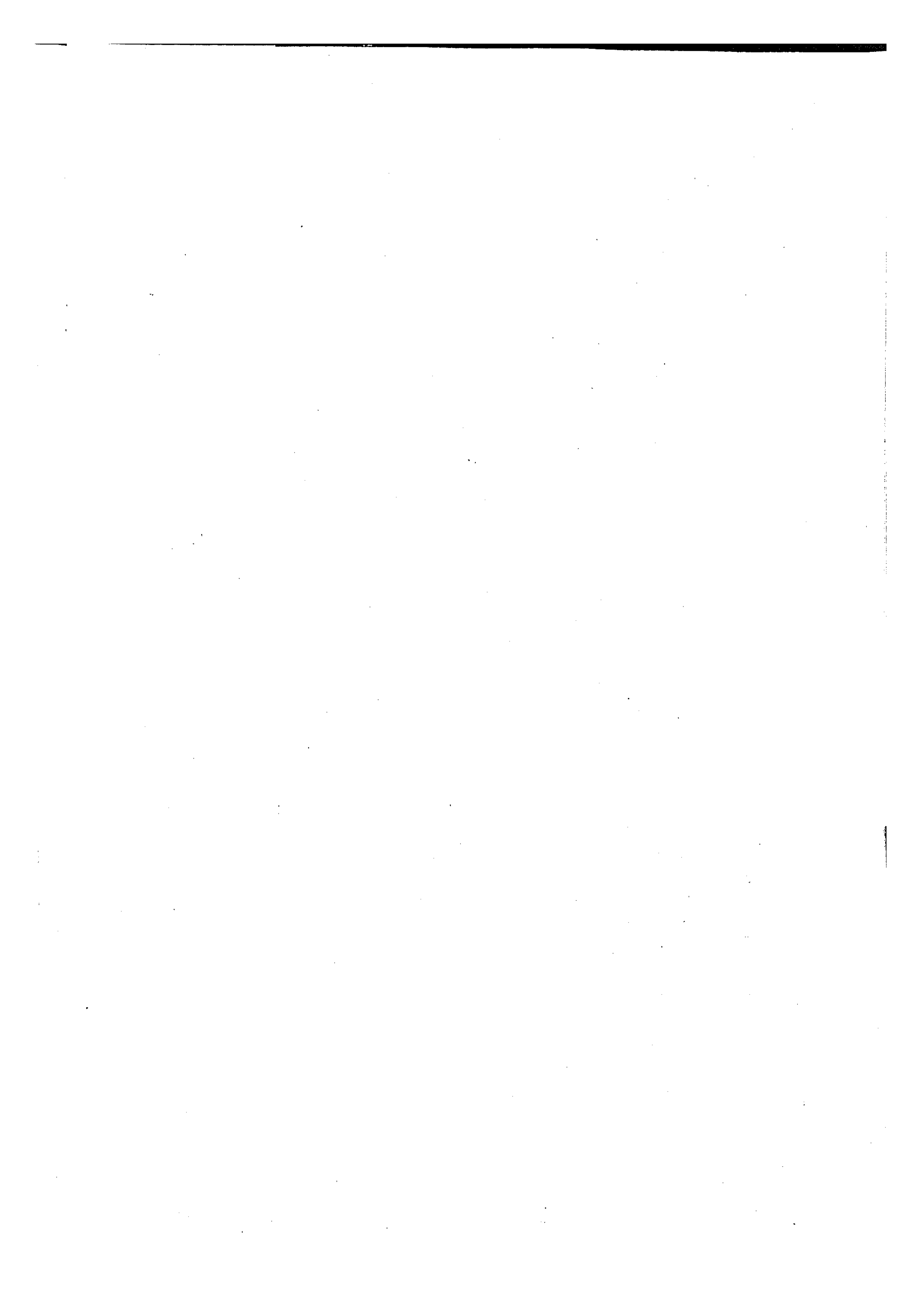


كلام فى السياسة

قضايا ورجال : وجهات نظر
(مع بدايات القرن الواحد والعشرين)




المصرية للنشر العربى والدولى



مُقــــدمة

سياق هذا الكتاب فصول كَتَبْتها طوال سنة ١٩٩٩ ــ وأول سنة ٢٠٠٠ ــ لمجلة «وجهات نظر»، وهى مجلة عزيزة علىّ لأسباب مُتَعَدِّدة تتعلق بالفكرة وتنفيذها، دون أن تَتَّصِل بِهَوى أو بمصلحة. فلست مُساهِماً فى الشركة التى تَصْدُر عنها «وجهات نظر»، ولا عُضواً فى مجلس إدارتها، ولا مُشارِكاً مُعَيَّناً فى هيئة تحريرها ــ لكنى صديقٌ مُتَحَمِّسٌ يعتقد أن النَّظَرَ فى أحوال العالم العربى يستوجب الآن ارتحالا مرة أخرى إلى الكتاب، سواء كان الكتاب حروفاً مطبوعة فى صفحة، أو وَمَضات تَلْمَعُ على شاشة. وقد تأكَّدَ لدَىَّ ظَنٌّ بأن ظروفاً وعصوراً طارئة جَرَّتْنا جميعاً وراءها لاهثين بحيث انفكت السُّفُن عن مراسيها، وأخذتها الرياح إلى بَعيد دون أن تتحكم فى سيرها دِقّة، أو يهديها نجم، أو تساعدها خريطة .

وخطر لى والأمة على أبواب ألفية ثالثة من التقويم الميلادى المصطلح عليه فى زماننا العالمى ــ أننا نحتاج إلى وَقفة لإطالة التفكير ولإعمالِ العَقل فى أناة .

وقد تَمَنَّيْتُها وَقفة نتأمَّل فيها دون أن نتعَطَّل، ونُراجِع فيها دون أن نتكَبَّر، ونتعَمَّق ــ ولو قليلاً دون أن نَغْرَق ــ ذلك أن الاندفاع الذى يسوقنا الآن إلى حيث لا نعرف خطرٌ، والاستمرار فيه سباقٌ نحو كارثة ــ ومجال الأفكار هو الأفُق الرَحب، و«الكتاب» ــ كما كان على طولِ مَسار الحضارة ــ لا زال مُسْتَوْدَع الرُؤى ومَخزون التَجارِب .

□ □ □

ولقد كان الاسم الأصلى لـ«وجهات نظر» هو : «الكُتُب» ــ تعبيراً عن ضرورة عودة «من نوعٍ ما» إلى الأصول، وإلى المنابع، وإلى المرجعيات القادرة على التصويب والتصحيح والتدقيق، فالتقدم ليس تناولاً على عَجَل لأدوات العصر

بتَصَوُّرِ أن الحصول عليها كافٍ، فمثل ذلك وَهْمٌ، لأن أدوات العصر قريبة شَبَهٍ من السلاح، لا بد لمالكه أن يحسن استعماله ويَتَدَرَّب عليه، وإلا فإنه لو تَصَرَّف دون استعداد ـــ أضاع نفسه مُنْتَحِراً قبل أن يعمل إرادته مُقاتِلاً.

وكانت الفكرة الرئيسية من المجلة أن تكون رُجوعاً إلى الكِتاب، تَقترِب منه، وتَحوم حَوْله، وتَمد يدها إليه، وفى نفس الوقت لا يكون تناولها للكُتُب عن طريق مجرد عرضها، وهو ما تفعله معظم المجلات من هذا النوع فى العالم، ولكن يكون «الكتاب» إلى جانب عَرْضِه مَدْخَلاً فسيحاً إلى موضوعه، يبرز أهميته إذا استطاع، ويُضيفُ إلى وِعائِه إذا تَمَكَّن.

ثم كان أن العنوان الفرعى «وجهات نظر» غلب على العنوان الأصلى «الكُتُب»، وكان ذلك معقولاً ومقبولاً، والسَبَبُ المَحسوس ربما دون أن يكون مَقْصوداً أن لا تَتَبَدّى العودة إلى الأصول والمنابع والمرجعيات ـــ عودة مدرسية توحى بالرسوب وبضرورة إعادة المنهج من أول الأبجدية، لأن مثل ذلك إهدارٌ لجهدٍ ولزَمَنٍ فى تجربة الأمة لا تَقْتَضيه الظروف حتى وإن استوجبت هذه الظروف إعادة النظر والفكر، أى أن نَوْعاً من العَوْدة يمكن أن يَحدُث دون أن يكون مَعناه الحُكم بالضياع على عُمْرٍ وعلى حياة.

والحقيقة أن الزملاء والأصدقاء الذين قاموا على مشروع «الكُتُب : وجهات نظر» استطاعوا فى فترة قصيرة ـــ لم تَزِد على عامٍ واحد ـــ أن يضعوا علامة تشير إلى الطريق الذى قَرَّروا السير عليه، وأن يرسموا خَطاً بعد هذه العلامة مَشَت عليه المجلة عَدَداً وراء عَدَدٍ نحو غايةٍ بَدَت جديرة بالاهتمام ـــ وجديرة بالاحترام.

□ □ □

ولقد حاوَلْتُ مع هؤلاء الزملاء والأصدقاء، من موقع المُناصِر المُتَحَمِّس كما أسْلَفْت، وقَدَّرْتُ أن يكون أول إسهامى فى جهدهم فصولاً عن «القضايا والرجال» سايَرَت وقائع سنة كاملة (فبراير ١٩٩٩ - فبراير ٢٠٠٠) وشواغل أيامها، وشخوص بعض أبطالها، وكانت النتيجة أسفاراً فى اتجاهات عديدة وأزمِنة قريبة وبعيدة.

وكان طموحى فيما حاوَلْت أن أُجَرِّبَ كتابة المقال «المستطرد» «المسترسل» narrative article، وهو نوع من المقال جديد على الصحافة العربية، يَذهَب كاتبُه مع موضوعه على الخطوط الرئيسية وعلى الخطوط الفرعية، ويَنْتَقل من كليات المسائل إلى تفاصيلها، ويربط ما بين الحوادث الكبرى المُوَجِّهة للتاريخ وما بين النزعات الإنسانية للبشر، وهُم مادة التاريخ كما هُم صُنّاعه فى نفس الوقت.

والفكرة الأساسية فى المقال «المستطرد» «المسترسل» أنه مَكانٌ وَسَطٌ بين المقال المَألوف وبين الكتاب، فهو — أى المقال «المستطرد» «المسترسل» — أطول من المقال وأقصر من الكتاب، وهدفه أن يمسك بموضوعٍ مُعَيَّنٍ ويستوفيه قدر ما هو ممكن، واضِعاً فيه إذا استطاع سُرْعَة إيقاع المقال وسِعَة إحاطة الكتاب.

ولقد جَرَّبْت ...

وربما أضَفْتُ أن «التجربة» هى الحق الطبيعى لكل هؤلاء الذين وَصَلَ بهم الزَمَنُ إلى حيث أصبح فى مقدورهم أن يَقولوا لأنفُسِهم وللناس أن «مُسْتَقْبَلَهُم وراءَهُم»، وبالتالى فهُم على استعداد أكثر من غيرهم لأن يَتَحَمَّلوا ما لا يستطيع أن يَتَحَمَّلَه أولئك المُضطرّين إلى رؤية أن «مُسْتَقْبَلَهُم أمامَهُم» وما يَقتَضيه ذلك من تكاليف وضرائب.

وعلى سبيل المثال فإن عَدَداً لا بأسَ به من أكبر الصحفيين والكُتّاب فى العالم وَصَلوا إلى مَراحِل تَرَكوا فيها زحام الجرائد الكبيرة وطوابير المُتَسابِقين إلى صفحاتها، وذَهَبوا إلى مواقِع للنشر مختلفة تملك حَقَّ اختيار قارئها دون أن تُلِحَّ عليه بالإثارة أو غيرها من لوافِت الانتباه صاخبة صارخة.

فَعَلَ ذلك عَميدُ الكُتّاب الصحفيين فى القرن العشرين وهو «والتر ليبمان»، الذى تَرَكَ جريدة الـ«نيويورك تيمس» إلى مجلة الـ«نيويوركر»، فقد أحَسَّ الرَجُل «وقد تَحَرَّرَ من حوافِز السَبْق والتسابُق — أنه يستطيع «الآن» أن يَكْتُبَ، ويُجَرِّبَ طريقاً جديداً هو طريق المقال «المستطرد» «المسترسل»، والذى يظهَر فيه وكأنه يَتَحَدَّث، وكأنه يمشى، وكأنه يَتَجَوَّل بعيداً إلى حيث يأخذه موضوعه مفتوحاً وطليقاً».

وفعلَهُ آخرون من أمثال «كنجزلى مارتن» و«ريمون آرون» و«وليَم ريس موج» رئيس تحرير «التيمس» السابق الذى وَصَلَ إلى إصدارِ مجلة يَكتب فيها مَقالاً «مستطردا» «مسترسلاً» عن الكُتُبِ القديمة وطبعاتها المُعَتَّقة، وبينها ما صَدَرَ قبل ثلاثة أو أربعة قرون.

□ □ □

لعلى أمشى من هنا لأقول أن المقال «المستطرد» ـــ أو نَوْعاً منه ـــ يستعيد الآن مكانته فى الصحافة العالمية نتيجةً لتَطوُّرٍ طبيعى استغرق القرن الماضى ـــ القرن العِشرين ـــ بطولِه.

ففى بداية ذلك القرن كان «ألفريد هارمزوورث» الصحفى البريطانى ـــ والذى عُرِفَ فيما بعد وعندما بَلَغَ القِمَّة باسم اللورد «نورثكليف» ـــ هو صاحب فِكرة تجربة المقال ـــ والخَبَر ـــ السَرِيع، وكانت فِكرَتُه أن أى مقال ـــ أو خَبَر ـــ لا يجوز أن يزيد على مائتى وخمسين كلمة على أكثر تقدير، وقد جَرَّبَ فِكرَتَه عَمَلِياً فى جريدة الـ«ديلى ميل» وكان نجاحها هائلاً. وكان «هارمزوورث» فى تَصَوُّراتِه يَسْتَوْحى النموذج الأمريكى فى الحياة، متأثرا بذلك المجتمع الذى أغرم بالسرعة، من الخطوة السريعة إلى الوجبة السريعة ـــ ثم سحب ذلك الغرام أيضا على المعلومات والفكر.

كان المجتمع الأمريكى قد طَوَّرَ فكرة «الساندويتش» ـــ وقد بدأت فى إنجلترا ـــ إلى السُجُقِّ المَسْلوق «الهوت دوج» ـــ وإلى الدَجاج المَقلى «الكنتاكى تشيكن» ـــ وإلى اللحم المَفروم «الهامبورجر» الذى مَثَّلَته فى النهاية مُنتَجات «ماك دونالد» صَغيراً كان أو كبيراً.

ورأى «هارمزوورث» أن المقالات والأخبار يجب أن تأخذ نفس النموذج : «ساندويتش» ـــ «هوت دوج» ـــ «كنتاكى تشيكن» ـــ «هامبورجر» ـــ «ماك دونالد» صغيراً أو كبيراً ـــ لأن ذلك هو إيقاع العصر ورائحته ومذاقه .

ثم حَدَثَ ما يَحدُث دائماً، وهو أن كل طارئ أو مُسْتَحدَث يَسْتَنفِد زمانه لأن أحوالاً أخرى تَفرِض نفسها .

□ □ □

وأتذكر أننى واجهت هذه الأحوال الأخرى فى لندن سنة ١٩٧٩ حينما كان ارتباطى بجريدة «الصنداى تيمس» أوثق. وقتها كان النشر فى مصر مستحيلاً بالنسبة لى فى حين أفسَحَ العالم الخارجى صَدرَه وصَبرَه (وكنت مُصَمِّماً على الإقامة فى مصر وفى مُتَناوَلِ قوانينها ــ ذاهباً عائداً حيث تَستَدعينى الضرورات ــ مُراعِياً أن لا تطول فترة غيابى فى أى سَفَر عن شهر واحد مهما كان فى ذلك من عَنَاء).

وفى ربيع سنة ١٩٧٩ كنت فى مُهِمَّة فى إيران أجرى حديثاً مع قائد ثورتها الأسطورى «آية الله روح الله موسَوى الخمينى». وحين عُدتُ بعدها إلى لندن شاركت فى اجتماع لمجلس تحرير هذه الجريدة العريقة، وكان رئيس تحريرها فى ذلك الوقت «هارولد إيفانز» وهو واحد من أبرَز صَحَفِيّى القرن العشرين.

وفى أثناء المناقشات ومجلس التحرير يُرَتِّب للعَدَدِ الجديد من «الصنداى تيمس»، سألت «هارولد إيفانز» : «ما هو حجم المساحة التى سوف يعطيها لمقالى وفيه الحديث مع «الخمينى» فى عَدَدِ الأحَد القادم (٢٣ ديسمبر ١٩٧٩)؟» ـ وبدوره فإن «هارولد إيفانز» سألنى عن تقديرى ؟ وقلت متسائلاً : «ألفين ــ ألفين وخمسمائة كلمة» (كان ذلك حجم مقالى الأسبوعى «بصراحة» الذى كنت أكتُبُه لـ«الأهرام»)، وكان تعليق «هارولد إيفانز» على الفور : «لماذا تُريد خَنق الموضوع ؟»، ثم كان اقتراحه إذا كان هناك من المادة ما فيه الكفاية أن يكون مقالى ضِعف الحجم الذى قلت به، أى خَمسة آلاف كلمة ــ وهكذا كان.

لكنى ذلك اليوم وبعد الاجتماع، أردت أن أثير مسألة الاتجاهات الطارئة على الصحافة، وكان الرأى السائد فى المناقشات وقد أدارها السير «دنيس هاملتون» رئيس مجلس إدارة مجموعة صُحُف «التيمس» فى ذلك الوقت : أن ذلك الزمان الذى وَضَعَ فيه «هارمزوورث» ــ اللورد «نورثكليف» ــ قاعِدَتَه الشهيرة عن طولِ المقال ــ والخَبَر ــ فى حدود ٢٥٠ كلمة ــ قد انتهى، فذلك الحجم السريع (حجم الساندويتش وأخواته) أخَذَه التلفزيون خصوصاً بعد التجربة الهائلة التى قام بها «تيد تيرنر» عندما أنشأ وكالة الـ«C.N.N.» سنة ١٩٨٠.

كان الصَحَفى القدير «فرانك جايلز» ــ وقد خَلَفَ «هارولد إيفانز» على رئاسة

تحرير «الصنداي تيمس» بعد اختيار «هارولد» لرئاسة تحرير «التيمس» — هو الذى تَوَلى تلخيص مُجمَل مناقشاتنا فى النهاية ، وكان عَرضُه : أن الوَمضة السريعة الآن للصورة وليس للكلمة ، ذلك أن أى مُهْتَم بالشأن العام سوف يُتابِع الخَبَرَ صورا مُتَلاحِقة على الشاشات المُضيئة ، لكنه يريد من الكلمة أن تَذهَب إلى ما وراء الصور وأن تقول له على مَهْل ما الذى يجرى ؟ ولماذا ؟ وكيف ؟ ومَن ؟ وأين ؟ ومَتى ؟ — وأن تَروى ذلك له على مَهْل لأن ذلك دَوْرها فى العصر الإلكترونى .

وبالتالى فإن شاشة التلفزيون هى وَمضة الخَبَر تَعرِض مَشاهِد ما حَدَث .

وأما الكلمة فى جريدة فإنها حِكاية وتَفصيل ما وراء الخَبَر تَروى ما لا تستطيع الصُوَر أن تَصِفَهُ خصوصاً من الدَخائِل والمَشاعِر .

وهنا عاد المقال «المستطرد» يَحتَل مكانته، وعُرِفت الصُحُف التى تَهْتَم به فعلا بوَصفِ «صحافة القيمة».

والشاهِد أن الصحافة العَرَبِيَّة عَرَفت مدرسة «هارمزوورث» («نورثكليف») التى عرفها العالم عن طريق الـ«ديلى ميل» سنة ١٩٠٠ حين ظَهَرَت فى القاهرة مع جريدة «أخبار اليوم» سنة ١٩٤٥ ، ثم كان أن هذه الصحافة فَرَضَت نفسها ومنطِقَها على القارئ العَرَبى الذى تَقَبَّلَها راضِياً إلى زَمَنٍ طويل .

وظنى أن الخَبَرَ السريع والمقال السريع لم يستطيعا البقاء فى الصحافة العربية حتى الآن إلا لأن التلفزيون لم يَقُم بدَوْرِه فى «الومضة السريعة بالخَبَر والفِكرة»، والسَبَب ـ فى الغالب ـ أن التلفزيون فى العالم العَرَبى ، وبصفة عامة ، ما زال مِلك الحكومات أو تحت سيطَرَتِها، وبالتالى فهو خَبَر مُتَكَرِّر ومقال مُتَكَرِّر لا يقول شيئاً ولا يَتَحَرَّك من مكانه — وهو مُمِلٌّ لأنه لا يزيد فى سطوره واقِعةً أو لَمحَة ، وإنما يَمضُغ الحوادث والمعانى دون بَلْعٍ ودون هَضْم ، على طريقة مَضغ اللِبان!

لكن المقال المستطرد شيء آخر — عائدٌ فيما أظن إلى مكانه الطبيعى فى «صحافة القيمة» العربية كما عاد فى «صحافة القيمة» فى أمريكا وأوروبا .

□ □ □

وكما أسْلَفتُ ــ فقد حاوَلتُ فى تجربة «وجهات نظر» أن أقَدِّم نموذجاً للمقال «المستطرد».

وعندما عَرَضَت «الشركة المصرية للنشر العربى والدولى» أن تصدر مجموعة فصول السنة الأولى (فبراير ١٩٩٩ ــ فبراير ٢٠٠٠) على شكل كتاب ، فقد وَجَدْتُ أن العَرْضَ يتيح لى أن أضع فكرة المقال «المستطرد» «المسترسل» فى إطارٍ مُحَدَّدٍ يُقَدِّم نفسه للناس ، يرون فيه رأيهم ، ويحكمون له أو عليه وِفق ما يُقَدِّرون.

وفى المُبْتَدأ وفى المُنتَهى فإن كل تَجْرِبة لها قاضٍ طبيعى يَنظُر ويَحْكُم .

محمد حسنين هيكل





كليتون وستار

السياسة والقانون والحب
والحرب فى عصور مختلفة

كلينتون وستار(*)

السياسة والقانون والحب والحرب فى عصور مختلفة

[١]

مع أواخر شهر ديسمبر وأوائل شهر يناير من كل عام، ينتظر كل مشتغل بالصحافة خصوصا - أو بالإعلام عموما - نتائج اختيارات محررى مجلة «تايم» الأمريكية الشهيرة لشخصية «رجل العام». وهذه الاختيارات تتحول دائما إلى خبر تتناقله وكالات الأنباء، وتبرزه نشرات الإذاعة والتليفزيون، وتحتفى به الصفحات الأولى للجرائد.

وفى بعض الأحيان يكون الاهتمام باختيارات مجلة «تايم» لشخصية «رجل العام» ملفتا فى حينه بأكثر مما هو بالنسبة لاختيارات لجنة جائزة «نوبل»، وأسباب ذلك أن القواعد التى يجرى عليها الاختيار لشخصية «رجل العام» متاحة فى موضوعاتها ونجومها لعلم جميع الناس، فالموضوعات متصلة بالجارى من شئونهم - والنجوم هم من يرونهم صورة ويسمعونهم صوتا فى حياة كل يوم - ثم إن القضايا الموجبة للاهتمام هى الشائع والذائع بين الكافة بدون الادعاء بعلم بعيد عن مقدرة استيعابهم أو بخلق فنى يرونه غريبا عما ألفوه، ثم يقال لهم إن ذلك العلم مفتاح المستقبل أو إن هذا الخلق الفنى موجة الزمن القادم - وكذلك فإن الإجراءات التى تتم بها اختيارات شخصية «رجل العام» مفتوحة بغير كهنوت أو طقوس - وأخيرا فإن الاعتبارات المؤثرة على الحكام صحفية مكشوفة لا تتداخل معها كثيرا تحيزات الأهواء السياسية والعقائدية وحتى الدعائية! وبالتالى فإن عملية الاختيار وإن بقيت فى يد محررى مجلة «تايم» تظل قابلة لنوع من

(*) فبراير ١٩٩٩.
إحالة إلى مجلس النواب الأمريكى
تقرير المدعى المستقل: كينيث ستار
واشنطن: مطبوعات وزارة العدل، ١٩٩٨.

الديمقراطية بالمشاركة عندما يقع النشر ويجرى الحوار بقدر من المساواة بين الأطراف تحققه الألفة بالموضوعات وبالنجوم، والمعرفة بالقواعد وبالإجراءات.

ولعل الفارق الأكبر بين اختيارات مجلة «تايم» لشخصية «رجل العام» واختيارات لجنة جائزة «نوبل» لمن يحصلون عليها هو أن شخصية «رجل العام» التفاتة يوم واحد، وأما جائزة «نوبل» فهى بقاء عنيد مع الأيام.

□ □ □

وفى هذه المرة: أواخر شهر ديسمبر ١٩٩٨ وأوائل شهر يناير عام ١٩٩٩ ـ فعلت مجلة «تايم» شيئا لا تفعله فى العادة (وإن كانت لجنة «نوبل» تكرره مرات).

فتقاليد مجلة «تايم» منذ بدأت فى اختياراتها لشخصية «رجل العام» ـ تصل فى نهاية عمليات تنقية وتصفية إلى شخصية واحدة: رجل أو امرأة، ثم تقدم المجلة اختيارها عنوانا واحدا وحيدا على رؤية محرريها لأحداث عالم بأسره وسنة بأكملها (فى حين أن لجنة «نوبل» تعطى جائزتها مرات لأكثر من شخص واحد، ومرات لأكثر من شخصين ـ كما فعلت فى جائزة السلام مناصفة بين الرئيس المصرى «أنور السادات» ورئيس الوزراء الإسرائيلى «مناحم بيجين» ـ وكما فعلت مثالثة ـ بين «إسحاق رابين» و «شيمون بيريز» و «ياسر عرفات»!).

هذه المرة ١٩٩٨ ـ ١٩٩٩ فعلت مجلة «تايم» ما لا تفعله فى العادة عندما اختارت شخصية «رجل العام» ـ رجلين وليس واحدا ـ ثم وضعت على غلافها صورتين ملتصقتين للرئيس الأمريكى «ويليام جيفرسون كلينتون» وللمدعى العام المستقل «كينيث ستار» الذى تولى التحقيق فيما نسب للرئيس من تصرفات ثم أصدر تقريرا كان عنوانه رتيبا إلى درجة الملل ـ نصه:

«إحالة إلى مجلس النواب

إلحاقا بالقرار ٢٨ ـ البند ٥٩٥ (س)

مقدم من مكتب المدعى العام المستقل

بتاريخ ٩ سبتمبر ١٩٩٨»

لكنه إذا كان الملل عنوانا للتقرير ـ فإن تأثيره كان بقوة تفجير نووى اختلف كل شىء بعده عما كان قبله ـ سياسيا على الأقل!

ولابد من الاعتراف أن مجلة «تايم» كانت ذكية في اختيارها لشخصية «رجل العام» وذكية في الطريقة التي أعلنت بها هذا الاختيار: رأسان على غلاف واحد: «كلينتون» و «ستار»!

لأن الرجلين بالفعل قضية واحدة ـ من البداية إلى النهاية، ومن الوقائع إلى الملابسات، ومن النتائج إلى التداعيات.

كلاهما بحكم الشكل بعد حكم الفعل وجه مختلف لذات العملة ــ بكل ما تمثله في الزمن وفي الوزن.

● كانت القضية التي جمعت بين الرجلين هي شاغل الدنيا وحديث أهلها صباح مساء بلا توقف وبلا فاصل من أي نوع طوال سنة ١٩٩٨ (وبعدها ولزمن يطول)، وقد أدت بالمجتمع الأمريكي (مالئ العصر ومالك قراره) إلى أن يصبح مسرحا في الهواء الطلق لمشاهد ومشاعر وحوارات ـ من أغرب ما عرف المسرح ـ مسرح التاريخ أو مسرح الفن، وفي الوقت نفسه فإن هذه القضية أدت بسكان الأرض جميعا إلى أن يصبحوا جماهير متفرجين على هذا المسرح في الهواء الطلق، مشدودين بالنظر إليه، مأخوذين بما يجري عليه، ومبهورين بسماع حواره، وقد اندمجوا مع كل شيء فيه مما هو جار أمامهم إلى درجة أن بعضهم لم يتنبه إلى أن متفرجين آخرين إلى جوارهم أصيبوا بالمتناثر والطائش من عنف مسرح الهواء الطلق، ووقعوا في أماكنهم ضحايا لفرقعات كان مفروضا أن تقتصر على المسرح لكن انفلات الأحداث وصل بهذه الفرقعات إلى من لا ذنب لهم فيها غير الوقوف أمام عرض مسرحي ـ تاريخي وفني ـ لا يسبقه مثيل ولا يقف بجانبه نظير!

كان ذلك شأن القضية الواحدة التي جمعت بين الرجلين.

● وأما عن الجمع بين صورتيهما على غلاف مجلة «تايم» ملتصقتين كوجهين لذات العملة فقد كانت الدلالات والرموز وعلاقات الأشياء هنا كثيرة!

دلالة ورمز وعلاقة ثنائيات مشهورة مثل: الجريمة والعقاب ـ والخطيئة والتوبة ـ والذنوب وكفارة الذنوب.

ولعل لغة الرموز تحمل هنا أيضا إشارة إلى وجهي العملة وما يمثله كل منهما ـ زمنا ووزنا.

أولهما: وجه العملة الذي يحوي الصورة (رسم ـ يمكن أن يتغير ـ وهو السياسة).

والثانى: وجه العملة الذى يحوى النقش (كتابة تشير إلى القيمة يتطور ولا يتغير - وهو القانون).

وتلك إشارة بلغة الرموز سوف تظهر معانيها أكثر مع تتابع مراحل القضية.

وكانت هناك إلى جانب الدلالات والرموز وعلاقات الأشياء - إضافات بالمفارقات غريبة من واقع أن المجرم أحيانا نجم، والخطيئة مرات لها جاذبية، والذنب على وجوه بعض الناس يمكن أن يطل على الآخرين ومعه ابتسامة آسرة! (وذلك حال «كلينتون»).

ثم إن العقاب، والتوبة، وكفارة الذنوب، وهى وجوه من الحق تكون فى بعض الظروف جادة إلى درجة الصرامة، حازمة إلى درجة الكآبة، داعية إلى الجنة بعصا غليظة كما يقول مثل روسى شائع! (وذلك حال «ستار»).

[٢]

إن تقرير المدعى العام المستقل «كينيث ستار» والذى اختار له صاحبه عنوان «إحالة إلى مجلس النواب - إلحاقا بالقرار ٢٨ البند ٥٩٥ (س)» - وثيقة من نوع فريد لاتصالها بشخصية العام، وصورة العام، وقضية العام، وحوار العام، وبكل ما يخطر على البال منسوبا إلى عام ١٩٩٨ وما بعده أيضا.

والشاهد أن هناك باستمرار طريقتين لقراءة أى وثيقة، وربما لقراءة ما دون الوثائق من ملفات وأوراق خصوصا فى مجال السياسة.

● الطريقة الأولى هى قراءة الوثائق - أو الملفات والأوراق - بعين الفضول رغبة فى معرفة ما هو خاف أو محجوب - وهذا النوع من القراءة أشبه ما يكون بسفر الطائرات عبر القارات والمحيطات، والمسافر الناظر من النافذة مأخوذ بكتل السحاب تحته، وقمم الجبال تطاوله، والبحار والصحارى مترامية أمامه، والرقع الخضراء تذكره بين حين وآخر بالعلاقة بين الإنسان والطبيعة - لكن راكب الطائرة يغادر مقعده بعد رحلته ثم تنسحب المشاهد من ذاكرته وتبتعد وتشحب حتى تغيب.

● أما الطريقة الثانية فى القراءة فهى أشبه ما تكون بالسفر على الأرض وبالأقدام تمسح السطح وتحلل تربته، وتنفذ إلى العمق وتدرس تركيبته، وتلامس الجو وتقيس

حرارته، ثم تمشى على التضاريس تتأمل البحر والشاطئ، وتفحص الصخر والرمل، وتصنف الحيوان والنبات، وتتقصى السلالات والأنساب، حتى تصل إلى تحديد مسار واضح لحياة إنسان حى أو حكاية حدث جرى.

ومع أن العصر هو عصر السفر بالطائرات - وبالتالى عصر القراءة السريعة - فإن العصر هو أيضا عصر الحقائق - وبالتالى عصر المشى على الأقدام!

والحاصل أنه لا ينفذ إلى العصور من لم يتزود بالأصول، كما أن الانطلاق إلى الفضاء لا يتحقق إلا من قاعدة على أرض صلبة!

□ □ □

إن تقرير المدعى العام المستقل «كينيث ستار» وثيقة جرى التعامل معها فى الغالب بأسلوب السفر بالطائرات، سريعا سريعا مع إيقاع العصر، وفى الغالب فإن التقرير قُرئ عنه أكثر مما قُرئ منه، والنتيجة التى خرج بها معظم الناس أن التقرير فى مجمله قصة علاقة جنسية بين رجل وامرأة، وأما التفاصيل الكثيرة حول ذلك فمزيج من عناصر مثيرة جعلت منه قصة صحفية من الطراز الأول، وهذا هو سر اهتمام الناس سواء فى الولايات المتحدة أو خارجها! وتلك بداية المسألة ونهايتها، وليس هناك شىء آخر!

وربما لا يغيب عن البال أن هذا النوع من المنطق وراءه مدرسة فى علوم وفنون الإعلام لها أساتذتها ولها أتباعها وأنصارها.

وفى حافظة دروسى المهنية أننى حضرت فى كلية الصحافة بجامعة كولومبيا فى نيويورك دورة تركزت المحاضرات فيها حول موضوع واحد هو: «الخبر الصحفى وعناصره». ووقف أحد المحاضرين يوما فى قاعة الدرس يعدد أمام سامعيه ما اعتبره ضروريا للخبر المثالى فى رأيه، وكان قوله ضمن ما قال: «إن الخبر المثير هو ذلك الذى يحتوى على أشياء من خمسة عناصر:

شىء من الملكية (Royalty)- وشىء من الدين - وشىء من الجنس - وشىء من الجريمة - وشىء من الغموض!

ثم قال الأستاذ المحاضر ما مؤداه: «إنه توصل إلى صيغة خبر يستطيع أن يقدمها باعتبارها نموذجا مختصرا ومستكملا للخبر المثالى الأقدر على الإثارة. وقدم الأستاذ المحاضر صيغته المثالية على النحو التالى:

«إن الملكة صاحت، يا إلهى، إن الأميرة حامل، فمن الذى فعلها؟».

ثم مضى فى الشرح والتفصيل فقال:

«حين بدأ الخبر بذكر الملكة، فإنه استدعى شيئا من الملكية، وحين نادى «يا إلهى» فإنه استدعى شيئا من الدين، وحين قرر على لسان الملكة أن ابنتها حامل فإنه استدعى شيئا من الجنس، وأخيرا فإنه حين تساءل «من فعلها؟» استدعى شيئا من السر والغموض والجريمة أيضا»!

□ □ □

والظاهر أن أساتذة هذه المدرسة فى الصحافة وأتباعها وقراءها يجدونها أقرب إلى إيقاع العصر، وهى على مثاله سريعة مثيرة وفوارة - لكنه من حسن الحظ أن فى صحافة العالم مدارس أخرى لها وجهات نظر تختلف.

ومن الضرورى ملاحظة أن ذلك «الشىء من الجنس» الذى يصنع القصة المثيرة ويستولى على الاهتمام - وفقا لمعايير أستاذ كلية الصحافة فى جامعة كولومبيا - هو أبسط ما فى تقرير «ستار»، ثم أنه ليس الأولى بالقراءة فيه رغم أنه من أول نظرة يستغرق المساحة الأكبر من أوراقه وملحقاته وهى بآلاف الصفحات!

[وبمعايير الأستاذ المحاضر فى جامعة كولومبيا، فإن عناصر الخبر المثالى فى رأيه كانت متواجدة جميعا فى قضية «كلينتون» و«ستار»:

- كان هناك ذلك «الشىء» من الملكية (البيت الأبيض والرئيس على نحو ما).

- وكان هناك ذلك «الشىء» من الجنس (كثير جدا منه) باعتبار أن «كلينتون» هو «الأميرة» التى صرخت الملكة بأنها حامل (والملكة التى صرخت هى الكونجرس!).

- وكان هناك ذلك «الشىء» من السر والغموض والجريمة (وكان هناك منها ما هو أكثر من الكفاية على طول طريق «كلينتون» من عاصمة ولاية أركنساس إلى عاصمة الاتحاد الأمريكى فى واشنطن).

- وكان هناك ذلك «الشىء» من الدين (لأن «كلينتون» مارس علاقته مع «مونيكا» بطريقة معينة بدا له أن الكتاب المقدس لم يشر إليها كفعل خطيئة).]

على أن الداعى إلى التأمل أن ذلك «الشىء» من الجنس كان هو - بالتحديد - العنصر

الذى توقف أمامه الرئيس «كلينتون» نفسه ومعه زوجته ووراءهما كل طاقم البيت الأبيض وكل مجموعة مستشاريهم وكل خبراء العلاقات العامة الذين احتشدوا وراء «الرجل الأول» و«السيدة الأولى» فى أمريكا، وكان ذلك للوهلة الأولى غريبا لكن شيئا من التدقيق يكشف أنه كان قصدا مقصودا لتغطية «شىء» آخر غير الجنس.

□ □ □

إن الرئيس «كلينتون» كان أول من اختار هذا العنصر (الجنس) للتركيز عليه مبكرا عندما كان حاكما لولاية «أركنساس» ومرشحا لرئاسة الولايات المتحدة، وفى ذلك الوقت تسربت إلى الصحافة أخبار عن علاقة استمرت أكثر من عشر سنوات بين الحاكم المرشح للرئاسة - وبين مغنية ممثلة فى ناد ليلى اسمها «جنيفر فلاورز»، وقد قررت «جنيفر» أن تكشف أسرار ما تعرفه عن الحاكم المرشح حينما راح يتباعد عنها متخوفا من أن استمرار علاقته بها قد يؤثر على فرص نجاحه. وعندما باحت «جنيفر» أنكر «بيل»، ثم لم يلبث أن اضطر إلى الاعتراف بعدما قدمت عشيقته المجروحة تسجيلات بصوته وكتابات بخطه تؤكد صدق قولها. ولم تكن معرفة «جنيفر» بالحاكم مقصورة على ما يمكن توقعه، والسبب أنه «ورأسه على المخدة» كما قالت «فضفض لها بالكثير من أسرار السياسة والساسة بمن فيهم زوجته».

لكن «كلينتون» تحت ضغط الفضيحة اختار أن يركز على الجنس وحده وحسابه أنه إذا اعترف «هنا» - استغنى عن الاعتراف «هناك».

بمعنى أنه إذا اعترف بما جرى على «المرتبة» تجنب الاعتراف بما فضفض على «المخدة»!

وبهذا المنهج فى الدفاع وقف «كلينتون» يقول: «نعم، إننى حزين لأنى سببت لعائلتى آلاما لم يكن لها داع وأعرف أنها تركت أثرا على حياتى الزوجية، لكن ملايين الأمريكيين الذين يسمعوننى الليلة يعرفون ما أتحدث عنه، ويقدرون أسباب الضعف الإنسانى فيه، وتلك ليست ميزة أدعيها أو عيبا أنفرد به، فالبشر يبقون فى كل الأحوال بشرا لهم هفواتهم الشخصية. لكن السؤال الذى ينبغى على أمريكا أن تجيب عليه هو: هل يمكن لهفوة شخصية أن تمنع رجلا مؤهلا وقادرا من أداء واجبه وتحقيق برنامجه؟»!!

□ □ □

ومنذ بداية التسعينيات حينما ظهر «بيل كلينتون» مرشحا للرئاسة أمام «جورج بوش» وحتى نهاية هذه الحقبة ورئاسة «كلينتون» تقترب من ختامها - فإن القصة متكررة والنغم عائد باستمرار.

«جنيفر فلاورز» - «بولا جونز» - «كاثلين ويلى» - «إليانور مونديل» - ثم «مونيكا لوينسكى» - وكثيرات بالمئات طبقا لما قالته «مونيكا لوينسكى» نقلا عن الرئيس الذى ذكر لها ذلك متباهيا بجاذبيته التى لا تقاوم والتى تستسلم لها أى امرأة تقع عيناها عليه - دون محاولة منه» !

وفى كل مرة من هذه المرات كان يبدو أن الجنس منحنى ضمن منحنيات أخرى فى القصة، لكن دفاع «كلينتون» عن نفسه، وكذلك دفاع أسرته ومستشاريه وخبراء علاقاته العامة كان يركز على الجنس وحده باعتبار أن نفيه بالضعف الإنسانى وحده يكفى لتبرئة الرئيس بسماحة أنه «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر»!

وكانت الفكرة فى الاعتراف بالخطيئة منهجا للدفاع عن «كلينتون» سهلة وبسيطة، ذلك أنه إذا كانت العلاقة الجنسية خارج الزواج ذنبا، فالغفران فى يد الزوجة وبعدها الأسرة، فإذا غفروا جميعا لم يبق للآخرين كلام إلا إذا كانت لهم مقاصد خفية غير الذنب المعلن والمغفور له من أصحاب الحق فى الحساب عنه.

وفى كل مرة وبعد كل اعتراف بالخطيئة كانت السيدة «هيلارى كلينتون» تظهر فى الصورة مغاضبة لزوجها، ثم تعود فتظهر معاتبة، وأخيرا تظهر وقد أحاط خصرها بذراعه «عودة إلى أيام الحب وندما على نسيان العهد»، وينزل الستار على المشهد ولو مؤقتا - وحتى تشتعل الرغبة مرة أخرى فى صدر الرئيس ثم يلمع لهبها فى عينيه، وكثيرا ما حدث، والكارثة أنه تكرر حتى أصبح لا يثير قلقا من أحد لدرجة أن صحيفة «نيويورك تيمس» وهى الصحيفة الأكثر وقارا بين صحف الشاطئ الشرقى للولايات المتحدة كتبت افتتاحية تقول فيها «ربما يكون الصواب ألا يتدخل أحد فى الحياة الخاصة لبيل كلينتون إلا إذا قام فى ممارساته بعملية هتك عرض بالقوة لأنه فى هذه الحالة يصبح مخالفا للقانون»!

[٣]

إن الجنس والقوة (السلطة أو النفوذ) كانا رفيقين حميمين على طول التاريخ الإنسانى، وتلك ظاهرة يمكن تفسيرها طبيعيا، وكان وزير خارجية الولايات المتحدة الشهير الدكتور «هنرى كيسنجر» - ولا يزال - صاحب نظرية سمعتها منه، وقد روى أنه عرفها بالدرس وتأكدت له بالتجربة. قال إنه «عرف بالدرس أن القوة عنصر جاذبية لا يقاوم ولكنه لم يتصور إلى أى مدى إلا حين أصبح مستشارا للأمن القومى للرئيس، ثم وزيرا للخارجية، ثم نجما فى السياسة الدولية، وحينئذ اكتشف أن لديه عوامل إثارة لم يعرفها عن نفسه من قبل، ثم اكتشف أن لديه موارد طاقة لم يكن متنبها إلى وجودها فيه».

وقال هنرى كيسنجر إنه «بعد أن ترك السلطة وابتعد عن الأضواء راح يحس أن قوة سحره تقل، وكان مستعدا أن يعزو ذلك إلى تقدمه فى السن لولا أنه تذكر من أيام شبابه الباكر وقبل الصعود إلى القمة أن تأثيره أو تفاعله مع هذا التأثير لم يكن متدفقا إلى هذا الحد» !

وربما لا يكون هناك تجاوز فى القول بأن التاريخ الإنسانى على طوله صراع بدرجة رئيسية على ثلاثة أسباب: القوة - والثروة - والجمال - ونلاحظ أن هذه الأسباب الثلاثة التى تشير إليها علوم الصراع فى العصر الحديث ليست بعيدة كل البعد عن مطلب الكمال فى دعوة فلاسفة الإغريق - و«أفلاطون» فى المقدمة منهم - وحين كان توصيفهم لسعى الإنسانية بأنه محاولة لإدراك «الحق» و«الخير» و«الجمال» .

و«الحق» فى دعوة الفلسفة الإغريقية ليس منعزلا عن «القوة» فى منطق الصراع الحديث، فليس هناك «حق» تتم كفالته بغير «قوة» تحميه، سواء كانت القوة شريعة سماوية، أو قانونا وضعه البشر - بمعنى أن هناك فى نهاية المطاف نارًا وحريقًا لعصاة الشريعة وهناك سجونا (ومشانق أيضا) للخارجين على القانون.

و«الخير» له وضع مشابه، فلا يمكن للخير أن يتوافر لكل الناس سواء ما هو معنوى منه أو ماهو مادى - إلا إذا كان هناك فائض من القيمة فى مجال التقوى يسمو بمشاعر البشر، وفائض من القيمة فى مجال العمل يستر حاجة كل الناس.

وأما العنصر الثالث فى أسباب الصراع أو دعوة الفلسفة الإغريقية وهو «الجمال» فلم يقع عليه خلاف، وخصوصا لو استبعدنا فى هذا السياق تجليات الجمال فى الطبيعة وفى

الحقيقة وفى المعنى وركزنا ولو مؤقتا على الجمال الحسى - الذى يستولى على قلوب الرجال والنساء ويستبد بهم ملهما أو مثيرا، مريحا أو مستفزا!

□ □ □

وإذا قبلنا هذا السياق فإن صفحات التاريخ فى الغالب الأعم ثلاث: صفحة عن طلب الغلبة بالقوة مع الحق أو ضده، وصفحة عن طلب الثروة بصرف النظر عن اختلاف وسائلها وغاياتها، وصفحة عن جاذبية الجمال وإن اختلفت المقاييس وتفاوتت مواقع النظر فيه.

والصفحات الثلاث ليست مقطوعة عن بعضها أو منفصلة وإنما هناك على نحو ما سياق واصل بينها وجامع بين أطرافها.

إن الصراع بين روما والإسكندرية قديما لم يكن معزولا عن قصص الغرام بين «يوليوس قيصر» وبين «كليوباتره»، ولا عن قصص الغرام التى أعقبتها بين «مارك أنتونى» - المشارك فى قتل «يوليوس قيصر» - و«كليوباتره» بذاتها.

ولم يكن الصراع فى قلب أوروبا مع بداية العصر الحديث بعيدا عن نزوات «نابليون» و«جوزيفين» الأرملة اللعوب قبله وبعده، ولا عن زواج «نابليون» بـ «مارى لويز» أميرة عائلة الـ «هابسبورج» الأرستقراطية، ولا عن ثورة بولندا التى قدم زعماؤها لـ «نابليون» جميلة جميلاتهم «ماريا فالفسكا» حتى يرضى الوحش عن بولندا ويحمى استقلالها.

ومن المفارقات أن «نابليون» فى نهاية حياته أقام علاقة مع ممثلة باريسية صارخة الجمال اشتهرت على المسرح باسم «مدموازيل جورج». وبعد هزيمة نابليون فإن «مدموازيل جورج» استطاعت أن تثير مشاعر القائد الإنجليزى المنتصر عليه فى معركة «واترلو» الدوق «ولنجتون». وكان حكمها على الرجلين من تجربتها قولها: «لقد ظهر لى أن الأكفأ فى الحب هو نفسه الأكفأ فى الحرب»!

(وذلك تأكيد جديد لنظرية «كيسنجر»).

وكان عصر الملكة «فيكتوريا» - الذى استغرق معظم القرن التاسع عشر - هو ذروة العظمة فى تاريخ الإمبراطورية البريطانية وقمة صعودها وغناها، وكان اسم «فيكتوريا» ملكة بريطانيا وإمبراطورة الهند اختزالا لأبهة عصر بأكمله أطلق عليه وصف العصر الفيكتورى ليكون عنوانا على جلال المُلك، كما هو عنوان على سلوك مجتمع تصور نفسه نموذجا يُحتذى للبشرية فى التمسك بالفضيلة والتقاليد، وبشروط التحضر إلى درجة التزمت.

ثم اتضح أن «فيكتوريا» بعد وفاة زوجها الأمير«ألبرت» أقامت علاقة مستمرة ومستقرة مع خادم الإسطبل الملكى «جون براون»، وأنها أنجبت منه طفلة تقرر التستر عليها وإخفاؤها لدى أسرة فى ألمانيا!

ويجرى الآن فى لندن - استلهاما من القصة - إنتاج فيلم سينمائى بعنوان«مسز براون»!(زوجة خادم الإسطبل). وفى أثناء البحث عن المادة التاريخية للفيلم جرى العثور على ربطة خطابات وجهتها «فيكتوريا» إلى خادم الإسطبل، والمزعج أن «براون» كان شبه أمِّى لا يحسن الكتابة أو القراءة!

وفى الأزمنة القريبة فإن «فرانكلين روزفلت» وهو قائد التحالف الغربى الكبير فيها وقع وسط طوفان الحرب - أسير غرام مع السكرتيرة الاجتماعية لزوجته «إليانورا»، وقد لفظ أنفاسه الأخيرة ممسكا بيد عشيقته فى بيته الريفى فى «بارك لين» . وكان الزعيم الألمانى «أدولف هتلر» على الناحية الأخرى من الصراع العالمى الكبير ملهوفا على «إيفا براون» التى عاشت معه طول الحرب فى «عش النسر» وهو بيته على قمم جبال «برختسجادن» فى بافاريا. وكان زعيم إيطاليا «بنيتو موسولينى» غارقا لشوشته فى غرام «كلارا بتاتشى»، وقد لقى مصرعه معها فى ميلانو حين قبض عليهما ثوار شيوعيون وقتلوهما سحلا ثم علقوا الجثتين من خطاف جزار فى محطة بنزين. وكان «دوايت أيزنهاور» - وهو قائد جيوش الغرب فى الميدان - على علاقة بمتطوعة إنجليزية تقود سيارته. وبعد الحرب العالمية الثانية فإن تورط «أنتونى إيدن» فى معركة السويس لم يكن بعيدا عن رغبته فى إثبات قدرته أمام «كلاريسا» التى تزوجها فى نهاية عمره بفارق فى السن يصل إلى ثلاثين سنة!

وكان السقوط النهائى لحزب المحافظين البريطانى فى منتصف الستينيات بسبب فضائح عن علاقة قامت بين «دوروثى» زوجة رئيس الوزراء «هارولد ماكميلان» واللورد «بوثبى» وهو نجم اجتماعى عاطل اضطر «ماكميلان» إلى تعيينه وزيرا فى حكومته تحت ضغط زوجته الليدى «دوروثى»، وعلى مرأى من العيون الناقدة والساخرة لمجلس وزرائه!

وكانت خاتمة فضائح العهد انكشاف علاقة «كريستين كيلر» وهى بائعة هوى بوزير الحربية البريطانى «جون بروفيومو»، والمأزق أنها كانت على علاقة فى نفس الوقت مع الملحق العسكرى السوفيتى فى لندن الكولونيل «يفجينى إيفانوف».

ولم تقم لحزب المحافظين قائمة بعد ذلك إلا عندما ظهرت «مارجريت ثاتشر» التى شهد كثيرون من أصدقائها أنها كانت تستعمل دلالها الأنثوى - دون تفريط - فى التأثير على محيطها السياسى. وكان الرئيس «فرانسوا ميتران» يشعر بنوع من الجاذبية المكبوتة تجاه رئيسة الوزراء البريطانية «مارجريت ثاتشر»، وقد سمعته مرة يقول«إن هذه المرأة فيها شىء مُغْرٍ يصعب تجاهله حتى وهى تصرخ بأعلى صوتها فى أى مناقشة سياسية..». ويستطرد «ميتران» : «شفتا مارجريت مثل شفتا مارلين مونرو معبأتان بالإثارة، لكن عينيها مثل عينى الإمبراطور الرومانى كاليجولا يطق منهما الشرر» !

لكن ذلك كله، حتى القريب زمنيا منه - جرى فى عصور مختلفة. عصور كان يمكن فيها الاحتفاظ بسر والتستر على فضيحة !

□ □ □

إن «بيل كلينتون» و«مونيكا لوينسكى» ليسا رأس صفحة التاريخ فى العلاقة بين رجل لديه القوة وامرأة لديها الجاذبية (فى عينيه بصرف النظر عنها فى عيون آخرين غيره). بل لعل«بيل كلينتون» و«مونيكا لوينسكى» هما ذيل القائمة التاريخية والأكثر بعدا عن رأسها، وقد جاء دورهما فى نهاية طريق مال طول الوقت مع توالى العصور، ثم انتهى إلى منحدر هوت عليه علاقة الرجل القوى والمرأة المرغوبة !

إن هذا المنحدر الذى بانت حركته أسرع فى الولايات المتحدة الأمريكية عنه فى غيرها يمكن رصده عند رئاسة «جون كنيدى» الذى تصادف مع بداية عهده عدد من المستجدات الواعدة بتغييرات واسعة بغير حدود وبغير ضوابط، ولعلها ليست مصادفة أن شعار حملة «كنيدى» الانتخابية وشعار إدارته كان عبارة «الحدود الجديدة» «The New Frontiers».

وكان وصول «كنيدى» إلى البيت الأبيض ثورة شباب(وكان هو نفسه يقول«إننى أول رئيس أمريكى وُلدَ فى القرن العشرين!)

وكان وصول «كنيدى» إلى البيت الأبيض ثورة غِنى (فقد كان أول مرشح للرئاسة تتكفل ثروة أبيه بتكاليف حملته الانتخابية).

وكان وصول «كنيدى» إلى البيت الأبيض أخيرا ثورة جمال(حسّى) (وقد اعتُبِرَت زوجته «جاكلين» تجسيدا لمقاييس الجمال فى الستينيات مركزة فى امرأة واحدة !)

وبالتوازى مع ذلك - وربما أهم وأبقى منه - فقد توافق وصول كنيدى إلى البيت

الأبيض مع بداية ثورة فادحة الخطورة هى ثورة الصور المتمثلة فى التلفزيون الذى قُدِّر له فيما تلى من تطوره أن يركب الأقمار الصناعية وأن يدخل بها عبر كل القارات، وعبر كل الحدود، وعبر كل الأسوار والجدران!

□ □ □

وعلى أى حال فإن قصة «جون كنيدى» وعائلته كانت إعادة فى العصر الحديث لقصص عائلة «بورجيا» فى أواخر القرون الوسطى فى إيطاليا وهى أسرة مجنونة بجمع الذهب وتكديس الثروة طلبا للمُلك - وكان بين أفرادها بابا فى الفاتيكان ارتكب الخطيئة مع ابنته «لوكريتشيا» (!)، وهذه الأميرة دست السم لعشاقها من القُواد والكرادلة - وكان لذات البابا ابن غير شرعى(«سيزار») تآمر على أبيه وخلفه على عرش«سان بيتر» !

إن نفس المشاهد تقريبا تكررت مع عائلة «كنيدى»، فالعائلة جمعت ثروة طائلة من المضاربة والتهريب والتعامل خفية مع عصابات المافيا، ثم كانت الثروة التى تركزت فى يد الأب «جوزيف كنيدى» سبيله إلى شراء التأثير السياسى(وغير السياسى أيضا)، وكانت أمواله هى التى حملت ابنه إلى البيت الأبيض. وقد دخل «جون» إلى البيت الأبيض وفى يده زوجته الجميلة «جاكلين»، لكن غرائزه كانت مسكونة بامرأة أخرى هى نجمة الإغراء الأشهر فى القرن كله«مارلين مونرو»، وبنزوة نجمة راحت «مارلين مونرو» تلح على «كنيدى» أن يعترف بعلاقته بها وتهدده بإذاعة سره، ولم يتورع «كنيدى» عن إصدار الأمر بقتلها، والغريب أن الذى تولى تدبير القتل - مستعينا بعناصر من المافيا - شقيقه «روبرت» وهو وقتها المدعى العام - أى وزير العدل - لكن «روبرت» قبل أن ينفذ «أمر القتل» لم يتورع عن غواية المرأة التى كُلِّف بتصفيتها وأقام علاقة معها، وبعدها وليس قبلها حضر بنفسه عملية حقنها بإبرة تحمل سما لضمان صمتها وبحيث يكون الصمت أبديا![1]

---

(١) تقرير لمكتب التحقيقات الفيدرالى مقدم إلى مدير المكتب «إدجار هوفر»، قدمه إليه مساعده «كورتنى إيفانز» الذى شارك فى متابعة جريمة انتحار — قتل — «مارلين مونرو». وجاء فى التقرير أن الذى أشرف على تنظيف مسرح الجريمة من وجود «روبرت كنيدى» كان هو بنفسه الممثل «بيتر لوفورد»، وهو زوج «باتريشيا» شقيقة «جون» و«روبرت كنيدى». وكان «جون كنيدى» وكذلك «روبرت كنيدى» قد قابلا «مارلين مونرو» لأول مرة فى بيت شقيقتهما.

وقد روى الواقعة أيضا «سيمور هيرش» الصحفى الكبير الذى اشتهر بتحقيقاته الدقيقة فى عدد من الموضوعات الحساسة (بما فيها تسليح إسرائيل النووى) وكان ذلك فى كتابه المهم «الوجه المظلم من كاميلوت». كذلك فقد وردت تفاصيل كثيرة عن حضور «روبرت كنيدى» لعملية حقن «مارلين مونرو» بالسم فى كتاب «دافيد هايمان» على فصل يمتد من صفحة ٣٠٤ إلى ٣٢٥.

والغريب أن سجلات البيت الأبيض الرسمية تشير إلى الحفلات الحمراء الصاخبة التى كان الرئيس «كنيدى» يدعو إليها حول حمام السباحة فى البيت الأبيض وتتوافق مواعيدها ـ دون مصادفة ـ مع أوقات لا تكون فيها زوجته «جاكلين» موجودة فى واشنطن.

لكن «جاكلين» بدورها ـ وإن اعتبرت نموذجا لجمال عصرها وأناقته ـ لم تكن تمثالا للصلاح والكمال فى أى عصر. والشاهد أن المؤرخ المعتمد لكتابة قصة حياتها وهو «دافيد هايمان» الذى ألف عنها كتابه المشهور «امرأة اسمها جاكى» أذاع لأول مرة وجود علاقة بينها وبين «روبرت كنيدى» شقيق زوجها، وكان توصل «هايمان» إلى معرفة هذه الحقيقة هو الذى دفعه بعد ذلك إلى تقصى السر أكثر بكتاب عن حياة «روبرت كنيدى» صدر أخيرا وفيه اهتم بنشأة العلاقة بين «روبرت» و«جاكلين» أرملة أخيه وكيف تطورت، كما روى فى فصل مهم عنوانه «من صداقة إلى علاقة» . وحسب روايته فقد كانا يلتقيان كل ليلة فى بيتها فى «جورج تاون»، ثم بدأ الناس يتهامسون، وكان أن انتقلت «جاكلين» إلى شقة فى عمارة بالشارع الخامس فى نيويورك لتلتقى بـ «روبرت» وسط زحام مدينة صاخبة بدلا من واشنطن وهى شبه ضاحية هادئة يعرف فيها كل الناس كل صباح ماذا فعل الآخرون فيها طوال الليل!ـ ويرى «دافيد هايمان» أن اغتيال «روبرت كنيدى» بعد قصة علاقته بـ «جاكلين كنيدى» أرملة شقيقه الذى اغتيل قبله «جون كنيدى» ـ كان واحدا من الدوافع التى جعلت «جاكلين» تبيع نفسها بعد شهور بـ «عقد مسجَّل» للمليونير اليونانى «أوناسيس».

إن فضائح عائلة «بورجيا» ظلت مخبأة ومكتومة فى عصرها، فى حين أن فضائح عائلة «كنيدى» كانت معروفة فى زمانها، لكن نفوذ الأسرة وصداقة الرئيس الشخصية بعدد من الرجال المهمين فى مجال الإعلام، وبينهم «بن برادلى» رئيس تحرير الـ «واشنطن بوست» و«سكوت رستون» رئيس تحرير الـ «نيويورك تيمس»، إلى جانب مهارة «بيير سالنجر» سكرتيره الصحفى ـ تكفلت بدرجة من حصر الفضيحة وتطويقها.

وكان ذلك كله قبل أيام «بيل كلينتون» و«مونيكا لوينسكى» .

والفارق بين الأيام السابقة والأيام اللاحقة أن عصر الصور، أو عصر التلفزيون كان فى طفولته أيام «كنيدى» و«جاكلين»، وأما أيام «كلينتون» و«لوينسكى» فإن عصر الصور، أو عصر التلفزيون، بلغ عنفوان سطوته ولم تعد مفاتيحه فى يد رجلين أو ثلاثة، ثم إن كل

شاشة فضية أصبحت نافذة يندفع منها مائة قمر صناعى فى أقل من ثانية بمجرد لمسة على زر!!

□ □ □

ولم يكن عالم الصور هو المارد الوحيد الذى خرج يصرخ من قمقمه. وإنما كان الجن الخارجين من القماقم كُثُر.

* ثورة الصور صاحبتها ثورة فى الاكتشافات العلمية - خصوصا فى مجالات الفضاء والهندسة الوراثية - أحدثت لدى كثيرين - ممن ضعف يقينهم - شروخا فى بنيان الإيمان، وبالتالى فإن أمتن الروادع المعنوية لشهوات البشر وهن رباطها!

* ثورة الصور أيضا صاحبها نوع من التمرد الفردى على المجتمعات فى طلب التخفف من التقاليد الموروثة، وطلب الحق فى التجربة مهما كانت محاذيرها، وطلب السماح بالتحلل من أثقال ساد الظن بزوال دواعيها، وهكذا تصدعت مؤسسة الأسرة، وانحل الرباط الاجتماعى، وترهل تأثير الثقافة الحافظة للوعى وللمعنى!

* ثورة الصور صاحبتها فى مجال البحث الطبى ثورة فى العقاقير بدأت فى الستينيات من حبوب منع الحمل ووصلت فى التسعينيات إلى الـ «فياجرا»، ومعنى ذلك أن الموانع الواقعية - بعد الروادع المعنوية - بدت تعسفا رأته بعض المجتمعات شبيها بحزام العفة القديم المصنوع من الحديد - غير صحى وغير إنسانى.

□ □ □

وعلى الذرى العالية من تدافع هذه الموجات وهذه التوترات جاء «بيل كلينتون» وجاءت معه «مونيكا لوينسكى»، وكان إسهامه الهائل فى هذه العصور الهائجة المائجة أنه جعل اللامعقول ممكنا، واللامقبول عاديا، والمسكوت عنه سواء بقيود القانون أو الأخلاق أو التقاليد، أو حتى الأدب والحياء - عالى الصوت مجلجلا ومزغردا.

وربما أن تاريخ التطور الاجتماعى والأخلاقى للبشرية سوف يسجل لعصر «كلينتون» أنه حذف من لغة الحوار العادى لعامة الناس أى محظور على ما يقال وما لا يقال، فعندما يدافع رئيس أكبر دولة فى العالم والتاريخ عن تصرفاته أمام هيئة محلفين كبرى وتحت القسم ويكون قوله: «إن مونيكا أتت فعلا جنسيا معه - وأما هو فإنه لم يرتكب فعلا معها»!

[... إذن فنحن أمام استهانة بمعنى الكلام!]

وحين يضيف محاميه في شرح المقصود بأن مونيكا«ارتكبت الفعل لأنها استعملت شفتيها، وأما هو فلم يرتكبه لأن سيجاره هو الذى لامسها، وليس هو شخصيا»!

[... إذن فنحن أمام استباحة لحرمة المعانى!]

وفى التاريخ القديم كانت «كليوباتره» صاحبة أهم أنف وهو أنف أوقع الإمبراطورية الرومانية في صراعات قادت في النهاية إلى سقوطها.

وفى العصر الحديث فإن «مونيكا لوينسكى» هى الآن صاحبة أهم شفتين. عليهما ضاعت سلطة رئيس، وشرعية عهد، وهيبة بلد، وسمعة إمبراطورية آلت إليها شئون عالم كامل: أرضه وفضاؤه ومصائره!

[٤]

عندما بدأ المدعى المستقل «كينيث ستار» تحقيقاته فيما أحاله إليه مجلس النواب الأمريكى بشأن تصرفات منسوبة إلى الرئيس «ويليام جيفرسون كلينتون» كانت العلاقات الجنسية أبعد ما تكون عن اهتمامه: لم تكن في تكليفه بقرار إحالة التحقيق عليه، ولا كانت على جدول أعماله، ولا خطر له أو لهيئة المحلفين الخاصة التى تشكلت إلى جانبه أنهم فى يوم من الأيام سوف يقتربون من سؤال يخدش الحياء أو يخرج عن حد اللياقة.

ولم يكن «كينيث ستار» يشعر بعداء من أى نوع إزاء «كلينتون»، فالرئيس هو - تقريبا - الذى اختاره ليكون محققا مستقلا فيما نُسب إليه. والذى حدث هو أن وزيرة العدل «جانيت رينو» عرضت على رئيسها ثلاثة أسماء مرشحة لمهمة التحقيق معه، وكان «كلينتون» هو الذى أشار بترجيح اختيار «ستار»، وبالفعل فإن مجلس النواب عيّنه، وبموافقة الأعضاء الديمقراطيين فيه وهم حزب الرئيس.

وكان موضوع التحقيق الأساسى الذى كُلِّف به القاضى «ستار» هو «ما ذُكِر عن تصرفات مالية للرئيس عندما كان حاكما لولاية «أركنساس»، ومدى استفادة حملاته الانتخابية من أموال جُمعت بطرق تحمل مظان استغلال النفوذ»!

ومن هذه النقطة بدأ القاضى «ستار» تحقيقاته، لكنه لم يلبث إلا شهورا فى مهمته حتى تبيّن، ثم تيقّن يوما بعد يوم أنه دخل إلى غابة وحوش مفترسة، تسكن أدغالا متشابكة تحجب نور الشمس، وأنه إذا كان دخول الغابة خطرا فإن الخروج منها معجزة.

وباختصار ودون غَرَق فى برك أو مستنقعات التفاصيل الكثيرة للتحقيق - فإن القاضى «ستار» تبين وتيقن خلال السنة الأولى من الوقائع التالية: (نقلا عن محاضر تحقيقاته):

١- أن «كلينتون» وهو حاكم ولاية «أركنساس» - عرف بعملية تهريب كميات من الكوكايين مصدرها كولومبيا وقيمتها أكثر من ٧٥٠ مليون دولار، وكان تهريبها إلى ولايته عن طريق مطار «مينا» القريب من عاصمتها «ليتل روك» وأنه لم يتخذ أى إجراءات، بل إن هناك ما يشير إلى أن حملته الانتخابية حصلت فى مقابل السكوت على عدة ملايين (غير محددة بالضبط) من الدولارات وُضعت تحت تصرف إدارة الحملة وتحت تصرف «كلينتون» نفسه.

٢ - أنه أثناء قيامه بمنصب حاكم ولاية «أركنساس» أسبغ حمايته على مشروع عقارى ضخم رأسماله سبعمائة مليون دولار تقوم به شركة تكونت حديثا اسمها «شركة أركنساس لتمويل التنمية» وعُرفت اختصارا بحروف .A.D.F.A.

وكانت الملابسات المحيطة بإنشاء هذه الشركة محفوفة بشكوك:

- أولها: أن مكتب المحاماة الذى قام بالإدارة القانونية لشئونها كان «مكتب روز للمحاماة» فى ليتل روك، وذلك مكتب كانت السيدة «هيلارى كلينتون» شريكة رئيسية فيه، وقد لوحظ أن أتعابها عن تسجيل عقد واحد لشركة «أركنساس لتمويل التنمية» (وهو جهد لم يستغرق أكثر من بضع ساعات) وصلت إلى شيك بمائة ألف دولار (وهى زوجة حاكم الولاية).

- أن السيدة «هيلارى كلينتون» تقاضت أتعابا أخرى كثيرة تفوق ما قدره الخبراء عن أى جهد مثيل لمحام مشهور أكثر منها، لكنه عندما طلب القاضى «ستار» بيان مفردات غير ذلك من المبالغ المدفوعة إلى السيدة «هيلارى كلينتون» عن طريق شركة «أركنساس لتمويل التنمية» كان الرد بأن المستندات فُقدت من الملفات ولم يُعثر لها على أثر.

- ثم اتضح مما بقى فى بعض الملفات أن عددا من أصدقاء الحاكم «كلينتون» ومستشاريه حصلوا من شركة «أركنساس لتمويل التنمية» على قروض لم يثبت أنهم سددوها، ثم شاع أن جزءا من هذه القروض وجد طريقه إلى «كلينتون»، أو إلى أصدقاء مقربين منه، أو إلى صندوق حملته الانتخابية دون إعلان وبالمخالفة للقانون!

والذى أثار الظنون أن الذى رتب لهذه القروض كان «مكتب روز للمحاماة»، أى السيدة «هيلارى كلينتون» وشريكها فى المكتب «فنسنت فوستر» الذى انتقل مع عائلة كلينتون الحاكم ثم الرئيس ـ من «أركنساس» إلى البيت الأبيض حيث تولى منصب المستشار القانونى للرئيس (ومن المزعج أن بعض الأنباء الصحفية، كما أن بعض التحقيقات التى جرت فى الولاية قبل «ستار» وقبل الانتقال إلى واشنطن ـ راحت تشير إلى «أن العلاقة بين «فنسنت» و«هيلارى» أعمق من مجرد الشراكة فى مكتب محاماة»!)

ـ ثم تكشف للقاضى «ستار» أن «كلينتون» بعد انتقاله إلى واشنطن أصدر قرارا بعفو رئاسى عن صديق له اسمه «دان لاستر»، وكان اسم هذا الصديق قد تردد مرات فى عمليات تهريب الكوكايين، وفوق ذلك فإن شريكا لـ «دان لاستر» اسمه «باتس توماسون» عُيِّن فى الإدارة التنفيذية للبيت الأبيض وكان لا يزال فى هذا الموقع حين بدأ القاضى «ستار» تحقيقاته فى قضية «وايت ووتر».

إن القاضى «ستار» وقف بالدهشة عند هذه الوقائع ـ لكنه لم يجد طريقا ينفذ منه إلى خباياها لأنه وجد أمامه حاجزين:

ـ حائطًا من الصمت يصد الذين يعرفون دخائل الوقائع عن الكلام فيها.

ـ وحائلاً من خنادق تحصنت فيها كتائب من المحامين تزودت بكل ذريعة، وتحوطت لأى سؤال، والنتيجة أن المحقق لم يجد ثغرة، وراوده إحساس على نحو ما بأن الصمت والإخفاء سياسة مقصودة ثم أنها مؤيدة بسلطة لا يُرد لها أمر!

□ □ □

وفى ذلك التوقيت بدأ عنصر الجنس أول دخوله إلى مجال تحقيقات القاضى «ستار»، فقد أحيلت إليه بتكليف من «جانيت رينو» وزيرة العدل ـ قضية «بولا جونز» وهى موظفة الاستقبال التى اتهمت الرئيس «كلينتون» حينما كان حاكما لولاية «أركنساس» بالتحرش الجنسى حين استدعاها بواسطة حارسه الخاص «فرجيسون» إلى جناحه فى أحد الفنادق بعد أن لمحها على مكتبها أثناء دخوله، ثم طلب منها دون أية مقدمات أن تمارس معه نوعا معينا من الجنس، ثم لم ينتظر! وقالت هى أنها فوجئت بما جرى، ثم أفاقت مندفعة فى غضب إلى خارج جناح حاكم الولاية تصرخ باتهامه.

وكان الذى لفت نظر القاضى «ستار» حين أحيلت إليه القضية أن المحامين عن «كلينتون» حاولوا التفاوض مع «بولا جونز» كى تتنازل عن دعواها ضد الحاكم الذى أصبح رئيسا، وحين رفضت فقد بدأ إغراؤها بتوفير عمل مُجز لها، ولما أصرت على الرفض جرى تهديدها بـ«تكسير ساقيها الجميلتين» كما قال لها مجهول على التليفون، ولما وجدت مناصرين لقضيتها إذا بالمحامين عن الرئيس يدفعون أمام المحكمة بعدم جواز محاكمته فى قضية مدنية أثناء وجوده فى السلطة لأن ذلك يؤثر على هيبة الرئاسة.

وعندما بدأ «ستار» فى القيام باستطلاع مبدئى قبل التحقيق فإنه فوجئ بحوار مكتوب فى تقرير مقدم إليه من أحد مساعديه يذكر فيه أنه حين تحدث فى القضية مع أحد المحامين عن الرئيس قال له المحامى:

ـ هل تتصور أن الرئيس يمكن أن يلتفت حتى بمجرد نظرة إلى فتاة مثل «بولا جونز»؟ ورد عليه مساعد «ستار» بسؤاله«إنه إذا كان ذلك صحيحا فلماذا أرسل إليها الرئيس حارسه الخاص «فيرجسون» يستدعيها إلى جناحه، وقد شهد الحارس تحت القسم بأنه فعل؟»، وقال محامى «كلينتون» : «إن الحارس يكذب، ولو كان كلينتون يريد الفتاة لأعطاها ٢٠ دولارا لتسعى مهرولة إلى جناحه لأن ذلك «سعرها»؟» ورد مساعد «ستار» «إنه إذا كان الأمر كذلك فلماذا تعرضون عليها الآن أكثر من نصف مليون دولار لكى تتنازل عن دعواها؟!»».

....

....

[يوم ١٢ يناير الماضى أرسل محامو الرئيس «كلينتون» إلى «بولا جونز» شيكا بمبلغ ثمانمائة وخمسين ألف دولار لكى تتنازل عن دعواها ضد «كلينتون».

ومن المفارقات أن نصف مليون دولار من قيمة هذا الشيك دَبَّرها الرئيس «كلينتون» وباقى قيمة الشيك وقدرها ثلاثمائة وخمسون ألف دولار دَبَّرتها السيدة «هيلارى كلينتون».]

....

....

[٥]

إن القاضى «ستار» لم يكن حتى هذه اللحظة فيما يبدو من سير تحقيقاته قد أعطى لموضوع الجنس كثيرا من وقته، فقد ظن أن الموضوع الأهم فى تحقيقاته هو الجوانب المالية والقانونية فى تصرفات الرئيس ـ لكنه لم يلبث أن وجد نفسه أمام ما هو أخطر:[٢]

اكتشف على سبيل المثال أن عددًا من موظفى ولاية «أركنساس» ممن كانوا مستدعين للشهادة فى التصرفات التى جرت قبل تعيينه (ستار) محققا مستقلا ـ تعرضوا لمصائر مأساوية:

ـ وقعت بينهم ٢١ حالة وفاة.

ـ منها ٨ حالات قُيِّدَت على أنها حالات انتحار.

ـ وكانت هناك حالتان لفتتا النظر فى هذه المصائر المأساوية:

● الأولى أن «كاتى فيرجسون» زوجة الحارس الذى قام باستدعاء «بولا جونز» إلى جناح الحاكم (بيل كلينتون) ماتت فى ظروف غامضة بعد أن سمع منها بعض جيرانها أنها تعرف حقيقة ما جرى وسوف تبوح بها (وقد تكون لذلك دلالة وقد لا تكون، لكنه أمر لافت للنظر).

● والثانية أن «إد ويللى» المدير المالى لحملة «كلينتون» الانتخابية توفى هو الآخر فجأة، وكان هو الرجل الذى يعرف مصادر كل الأموال الواردة إلى الحملة (وهنا أيضا ـ كما هو الحال بالنسبة لـ«كاتى فيرجسون» ـ فإن وفاة «ويللى» المفاجئة قد تكون لها دلالة وقد لا تكون)!

---

(٢) يعتمد هذا الجزء من المقال على أوراق تحقيقات المدعى المستقل «كينيث ستار»، لكنه فى ترتيب الوقائع وربطها اعتمد أيضا على دراسة ميدانية قام بها اللورد «ويليام ريس موج» وهو رئيس تحرير سابق لجريدة «التيمس» البريطانية، وأيضا رئيس سابق لمجلس أمناء هيئة الإذاعة البريطانية. وقد أحس اللورد «موج» بحاسة الصحفى القديم فيه أن أسرار الرئيس «كلينتون» تستفز ملكاته وخبراته. وذهب إلى مواقع الأحداث سائلا ومتقصيا، ثم عاد ليكتب عدة مقالات فى القضية أهمها مقاله الذى نُشر فى جريدة «التيمس» فى عددها الصادر يوم الاثنين ٧ سبتمبر ١٩٩٨ والذى كان عنوانه:

«بكل المعايير : إفلاس أخلاقى
من ليتل روك إلى المكتب البيضاوى
كلينتون يترك وراءه آثارا للاستغلال والفساد».

لكن التوافق فى الحالتين مع تماثل الظروف أعطى أسبابا للشك.

ومرة أخرى فإن القاضى «ستار» وجد نفسه يخبط رأسه فى حائط الصمت الذى عرفه من قبل، ويوشك أن يتعثر فى خنادق كتائب المحامين التى حُفِرت على كل جوانب القضية وأركانها.

□ □ □

وفجأة انفجرت فى البيت الأبيض نفسه فضيحة طارئة اتصلت بوفاة غامضة جديدة، تراوحت الاجتهادات فى شأنها بين القتل والانتحار.

كان الضحية هذه المرة هو «فنسنت فوستر» الشريك القديم لـ«هيلارى كلينتون» فى «مكتب روز للمحاماة» فى «ليتل روك» والذى ذهب مع العائلة إلى البيت الأبيض وأصبح مستشارا قانونيا للرئيس يجلس فى مكتب قريب من المكتب البيضاوى.. قمة السلطة فى واشنطن وقلبها.

وكان شكل الوقائع أن «فوستر» الذى بدا فى أيامه الأخيرة ظاهر الاكتئاب خرج من مكتبه بعد الظهر، وبعد ساعة من الزمن وُجِدَت جثته ممدودة على جانب ممر تحت أشجار حديقة وفى يد الجثة مسدس يوحى بأن صاحبه أطلقه على نفسه بقصد الانتحار!

وكان أخطر ما فى شكل الوقائع أن البيت الأبيض وبعد أن عرف بواسطة بوليس واشنطن بالعثور على جثة «فنسنت فوستر» والمسدس فى يدها ـ لم يأذن بإبلاغ النيابة العامة إلا بعد أكثر من ساعة. وفى هذه الساعة حدثث غرائب، فقد تم رفع ونقل ملفات كثيرة من مكتب «فوستر» قبل وصول مندوب النيابة العامة، وكان الذى قام برفع الملفات ونقلها ـ سيدة البيت الأبيض الأولى «هيلارى كلينتون»!

وبالطبع فإن وكيل النيابة المشرف على فك لغز وفاة «فوستر»، وهل هى قتل أو انتحار ـ مد تحقيقه إلى «أيام ليتل روك» ونشاط مكتب المحاماة الذى جمع بين «هيلارى كلينتون» و«فنسنت فوستر».

□ □ □

وعلى نحو ما فقد شاع فى التحقيق خيط رفيع ـ لكنه ظاهر فى خلفية الشهادات

والأقوال مؤداه أن «فوستر» فيما يبدو أحس أن معاملة شريكته السابقة تغيرت حين انتقل وراء العائلة إلى البيت الأبيض. ثم إنه وجد أن التحقيقات فى الأنشطة القديمة مستمرة، ومع أنه يجرى حصارها إلا أن هناك لدى البعض إصرارا على استكمالها. وفى وقت ما قبل انتحاره بشهور يظهر أن «فوستر» كلف مكتب بوليس سرى خاص يملكه ضابط سابق اسمه «جيرى باركس» بمهمة لحسابه (فوستر) كى يتقصى ويجمع وقائع وأوراق القضايا المتصلة بتصرفات الرئيس «كلينتون» حينما كان حاكما لولاية «أركنساس».

ومن الأغرب أنه بينما رجل البوليس السرى الخاص ماض فى مهمته (بتكليف من «فوستر») إذا بشبكة التلفزيون المحلية تعلن نبأ العثور على «فوستر» نفسه ميتا، وأن موته لم يكن قتلا وإنما انتحارا.

وذُهِل «باركس» وهو يسمع النبأ ونقلت عنه زوجته فيما بعد قوله: «إنه التفت إليها لحظة سماعه النبأ وقال لها بصوت مرتجف «إننى الآن رجل مَيِّت» !.

وشهدت زوجة «باركس» فيما بعد أيضا أن الملف الذى يحوى ما جمعه زوجها من أوراق وتحقيقات متصلة بتصرفات الرئيس كلينتون «سُرِقَ من زوجها، وبعدها بيومين فوجئت بمن يخبرها أن زوجها لقى مصرعه حين أُطلق عليه الرصاص من مسدس كاتم للصوت وهو ينتظر منحنيا على عجلة قيادة سيارته فى نقطة مرور كانت الإشارة فيها حمراء».

وفقدت زوجة «باركس صوابها وراحت تتحدث فى كل مكان وتطلب إجراء تحقيق فى مصرع زوجها. وجرى بالفعل تحقيق انتهى إلى الحفظ باستنتاج غريب هو «أن ولاية أركنساس تضج بنشاط عصابات إجرامية بينها صراعات دموية، ومن المحتمل أن مكتب البوليس السرى الخاص (باركس) تورط على نحو ما فى عمل لحساب إحدى الجماعات وضد أخرى بينها، وهكذا جرت تصفيته فى أجواء «حرب الجريمة فى أركنساس» !.

كانت هذه الوقائع كلها سلسلة متصلة. كل واقعة مؤدية إلى ثانية، وإلى ثالثة... وكان ذلك طبيعيا بالترتيب والتلازم، وعلى قواعد المسرح الإغريقى بوحدة الزمن ووحدة المكان.

ووحدة الزمن ووحدة المكان فى هذه الحالة يؤكدهما أن البطل رجل واحد يُجْرى تصرفاته فى أوقاته. ويجريها حيث كان سواء فى مكتب حاكم ولاية «أركنساس» أو المكتب البيضاوى مقر عمل رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن هذا التسلسل والتوالى، وهذه الوحدة فى الزمان والمكان - فقد كان منطقيا أن تصل هذه القضايا جميعا إلى المحقق المستقل «كينيث ستار»، وأن تجد وزيرة العدل «جانيت رينو» أنها مضطرة إلى إحالتها عليه: قضية «تهريب الكوكايين»، وقضية «شركة أركنساس لتمويل التنمية» ودور «مكتب روز للمحاماة» فيها ومن الذى تقاضى الأموال؟ وكم؟ ومتى؟ ولماذا؟

وما هو حل لغز ٢١ جثة، ثمانية منها موت بالانتحار.

وماذا عن حكاية «بولا جونز»، والحارس الذى أتى بها، وزوجة الحارس، ثم انتحار «فوستر»، ومصرع رجل البوليس السرى الخاص الذى استأجره. وأين ذهبت الأوراق التى كانت مع رجل البوليس الخاص قبل مصرعه بيومين، وأين ذهبت الأوراق التي رُفِعت من مكتب «فوستر» نفسه فى ظرف ساعة من إخطار البيت الأبيض بالعثور على جثته.

والذى حدث بالفعل أن هذه القضايا تجمعت فى مكتب «ستار». ثم - وهذا هو الأهم - إنه مع نهاية سنة ١٩٩٦ كان القاضى «ستار» قد بدأ بتراكم القرائن واتصال الوقائع يشعر يوما بعد يوم بنوع من القلق إزاء الرئيس، لكن الحملة الانتخابية لإعادة ترشيح «كلينتون» كانت قد بدأت، وآثر المدعى المستقل أن يكتم أسباب قلقه لكن اعتقاده راح يتزايد بأنه أمام تصرفات مشبوهة - وأسوأ - على مستوى السلطة العليا فى البلاد تمس الأخلاق، وتمس النزاهة، وتمس هيبة القانون.

ثم، وبعد كل ما جرى وفوق كل ما جرى، اقتحمت الساحة - مرة أخرى! - قضية جديدة ملخص وقائعها أن أكثر من مائتى ملف من الملفات السرية التى يحتفظ بها «مكتب التحقيقات الفيدرالية» عن عدد من أبرز الشخصيات فى الولايات المتحدة - انتقلت من سرية أحد أجهزة الأمن الرئيسية فى الدولة وهو وكالة التحقيقات الفيدرالية - إلى البيت الأبيض الذى تحاصره الفضائح، والذى يحاول وقفها ودفعها بكل وسيلة إلا أن الإلحاح يتزايد على ضرورة كشف الحقائق. وكان وجود محقق مستقل وهيئة محلفين عليا معه إضافة خطيرة إلى الإلحاح خصوصا أنه (المحقق والمحلفين معه) تَوَلَّد لديهم إحساس بالشك - إلى درجة تقارب الاتهام وتعانى الإحباط بسبب الفشل حتى الآن فى الإحاطة بتصرفات الرئيس وإثباتها قانونيا عليه رغم ما يشاهدونه أمامهم من ظلالها وما يشعرون به ملموسا من سلطته فى محاولات للصد والحجب والحيلولة بكل الوسائل دون ظهور الحقيقة!

وعندما تأكد نقل هذه الملفات الشخصية والسرية (مائتان) من مكتب التحقيقات

الفيدرالى إلى البيت الأبيض ثارت ضجة شديدة فى الإعلام الأمريكى وفى الكونجرس، والداعى أن هذه الواقعة لم يكن لها معنى إلا أن البيت الأبيض لديه خطة معينة للتصرف فى حالة الطوارئ، أى فى حالة ما إذا تطور التحقيق مع الرئيس «كلينتون» وأمكن تدعيم الشبهات والشكوك والاتهام بسند من صحيح القانون كاف للإدانة أمام الكونجرس وأمام الرأى العام!

وكانت الخطة مرئية لأن التصرف وإن لم يكن شفافا بطريقة وقوعه، فإنه كان شفافا بظاهر الهدف المقصود منه. وكان الهدف الواضح والذى رآه الجميع هو أن البيت الأبيض يُذَكِّر كل من يعنيهم الأمر أنه قادر على معرفة أسرارهم الخاصة وبأكثر مما يهمهم أن يعرفه الناس. وإنه فى حالة انكشاف أسرار الرئيس فلن تكون هناك حصانة لأسرار غيره!

(وبالفعل وفيما بعد فإن أسرارا مما حوته ملفات مكتب التحقيقات الفيدرالى عن ساسة كان عليهم أن يؤدوا أدوارا بارزة فى مساءلة الرئيس «كلينتون» عن تصرفاته - تسربت فى اللحظة المناسبة وأدت دورها الذى استعد له البيت الأبيض.

● «نيوت جنجريتش» رئيس الأغلبية الجمهورية فى مجلس النواب قبل الانتخابات الأخيرة تَسَرَّب أنه استغل نفوذه وتهرب من الضرائب فى نصف مليون دولار. واضطر «جنجريتش» إلى الإقرار والاعتذار - ثم اضطر «جنجريتش» فيما بعد إلى الانسحاب من رئاسة ما تبقى من مدة مجلس النواب.

● «بوب ليفنجستون» وهو نائب ولاية تكساس ورئيس الأغلبية والذى كان مرشحا للمجلس الجديد اضطر أن يتنحى عن ترشيح نفسه مُقرا بعلاقات غرامية نسبتها إليه أخبار سربتها مصادر مجهولة لم يكن لدى أحد شك فى أنها البيت الأبيض نفسه أو بعض المتصلين به. وفوق العدول عن الترشيح لرئاسة مجلس النواب، وإضافة إلى الإقرار - وإن بالاضطرار - تطوع «ليفنجستون» بإعلان استقالته من عضوية المجلس ذاته داعيا الرئيس «كلينتون» أن يفعل مثله إذا كانت لديه بقية ضمير وبقية احترام للأخلاق أو للقانون.

● «هنرى هايد» رئيس اللجنة القانونية لمجلس النواب تَسَرَّبَت قصة غرام من شبابه. وتوقى الرجل محاولة ابتزازه بشجاعة حين رد بأن تلك ذكريات ثلاثين سنة مضت، وأنه حكى لزوجته عنها من سنوات، وأنه الآن مصمم على رفض الابتزاز.

ومهما يكن، وقبل أن يتسرب ذلك كله، فإن الرأى العام الأمريكى كان يتابع ويتأمل،

ويحاول أن يفهم معنى نقل وثائق سرية شخصية من جهة أمنية حكومية إلى جهة سياسية (حزبية) فى البيت الأبيض.

كان المعنى - كما سبق - واضحا لدى الجميع - لكن هذا المعنى كان أشد وضوحا فى ذهن المدعى العام المستقل وهيئة محلفيه، ومجموعة مساعديه.

والمحصلة أنه مع بداية سنة ١٩٩٨ - أصبح «كينيث ستار» على اقتناع شبه كامل بضرورة تقديم الرئيس إلى المحاكمة بمقتضى قانون الحجر Impeachment، فقد ارتكب - وبأكثر من القدر المتيقن منه - عددا من الجرائم المنصوص عليها فى مواد الدستور التى تنظم إجراء الحجر على الرئيس ومحاكمته بداية من استغلال النفوذ - وحتى ممارسة الابتزاز!

ولكن كيف السبيل إلى الإدانة وجدران الصمت صماء، وخنادق الدفاع حصينة، وحول الخنادق مجموعات قناصة من خبراء العلاقات العامة تملأ كتاباتهم أعمدة الصحف، وتتدافع أصواتهم من محطات الإذاعة، وتطل صورهم من شاشات التلفزيون، والرأى العام مازال متعاطفا مع الرئيس لأسباب متعددة لا علاقة لها بكل القضايا أو التهم، وفى كل الأحوال فإن الأمر ليس سهلا لأن الطرف الآخر - المطلوب إدانته - هو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وفى حالة مثله فإن التهم يجب أن تكون واضحة وضوح الشمس، وعلاقتها بالدستور والقانون لا لبس فيها!

[٦]

وانتهى عام ١٩٩٧ والمدعى المستقل القاضى «ستار» فى حالة شديدة من الإحباط، ومع هذا الشعور بالإحباط فقد راح يتابع زيادة تألق الصورة العامة للرئيس «كلينتون» بينما هو (ستار) على يقين راسخ بأنه أمام عملية تضليل لا مثيل لها فى التجربة الأمريكية، والتضليل الجارى أمامه ليس على مستوى الرأى العام وحده وإنما أيضا على مستوى العدالة.

ويمكن أن يقال إن صراعا من نوع يحتاج إلى محلل نفسانى خبير - نشأ واستحكم بين «كلينتون» و«ستار»، ولعله نوع من الصراع الذى يمكن أن ينشأ بين مشتبه فيه وبين رجل

بوليس تأكد من الاشتباه وبدأ يحوله إلى تهمة راح يبحث عن توثيق أدلتها حتى يستطيع أن يقدمها على ساحة قانون وأمام محكمة عدل.

والمشكلة أن المشتبه فيه شديد البراعة، والمحامين عنه شديدو الكفاءة، ثم إنه بقوة أشياء كثيرة: منها قوة الصور، وقوة الشباب، وقوة المنصب - فإنه (كلينتون) استطاع أن يضع نفسه على أفق لا تصل إليه الرماح والسهام.

وكان حال «ستار» على العكس من ذلك تماما، فهو شخصية محافظة من الأصل، وقد أضافت إليه مهنة القانون مسحة قوية من التزمت، وكانت ممارسته لعمله داخل مكاتب مغلقة وبين ملفات وأوراق كئيبة، ثم إنه كان بعيدا بعدا كاملا عن عالم الصور، فلم يكن مطلوبا منه ولا مسموحا له - من ذات نفسه - أن يجلس أمام العدسات أو يخرج ليعقد المؤتمرات الصحفية. وقد بدا إلحاحه على مطاردة «كلينتون» نوعا من غلاظة الحس وبلادة الشعور لا دافع لهما غير الكراهية والحسد - أو هكذا أوحت الصور.

وفى حين أن كل تصرف لـ«بيل كلينتون» كان حدثا تحت الأضواء - فإن كل تصرف لـ«ستار» كان يتحتم أن يظل فى غرفة مكتومة حتى يتم مهمته ويكتب تقريره - إذا استطاع - وبعدها قد يكون له سبيل آخر.

وكانت المصيبة أن أحدهما يفلت مبتسما باستمرار، وأن الثانى يضغط على أسنانه كمدا ومغتاظا طول الوقت.

□ □ □

وباختصار كان «كلينتون» يتصرف - ولو ظاهريا - بنشوة الاطمئنان إلى أن فى مقدوره أن يفلت من مطاردة رجل عرف أنه يتعقبه، وأدرك أن تحقيقاته كادت تفلت منه حين اختلطت فيها الوقائع مع الشعور بالإحباط مما جعل مطاردة المُدَّعى المستقل تحمل طابع تَقَصُّد شخصى يمكن عند اللزوم كشفه واستغلاله.

وعلى الناحية الأخرى كان «ستار» ما زال مؤمنا بأنه إذا كان للخير أن ينتصر على الشر (وتلك حكمة الشرائع إلهيا ووضعيا) - إذن فإنه سوف يجد طريقة يتغلب بها على كل ما يعترضه من موانع، وحتى على تهمة التَقَصُّد الشخصى التى أُلصقت به.

وكان «ستار» يلخص الموانع التى تقف فى سبيله بأنه أمام متهم يعرف كيف يخفى وجوده فى موقع الجريمة وقت وقوعها - ولديه جيوش من المحامين يغطون على آثاره

حيث هرب ـ وحوله مستشارون يتعاملون مع أية آثار جانبية تركها إهمالا فى موقع الجريمة غير بصماته، أو ملابسات أغفلها محاموه لأنها خارج نطاق اختصاصهم ـ وإضافة إلى ذلك فهو (ستار) أمام سلطة لا يمكن إنكارها ـ وحصانة يصعب تجاهلها لأن المتهم هو الرئيس ـ وهذه السلطة والحصانة تضمن أن تنعقد الألسنة ولا تنفك، وأن يقصر النظر ولا يطول!

وفى هذا المناخ المشحون والمعبأ عثر «كينيث ستار» على حكاية «مونيكا لوينسكى» حملتها إلى مكتبه صديقتها «ليندا تريب» التى كانت موظفة معها فى البيت الأبيض فى بداية علاقتها (مونيكا) مع الرئيس، ثم نُقلت الصديقتان معا إلى البنتاجون (وزارة الدفاع). وكان نقل «مونيكا» من البيت الأبيض قرارا من رئيسة السكرتارية التنفيذية فى البيت الأبيض «نانسى هينريش» التى رأت أن «مونيكا» تدخل أماكن من البيت الأبيض لا يحق لها دخولها، وأنها «خفيفة ثرثارة» ويُستْحسَن إبعادها عن النطاق المحيط بمكتب الرئيس. وأما نقل «ليندا تريب» فقد كان قرارا تأخر تنفيذه لأنها كانت فى وظيفتها بقية باقية فى البيت الأبيض من رئاسة «بوش».

□ □ □

كان القاضى «ستار» قد سمع ـ مثل آخرين فى واشنطن ـ عن وجود فتاة اسمها «مونيكا لوينسكى»، ومعلوماته بصفة عامة أنها بفضل تبرعات والدتها «مارشيا لويس» لحملة «كلينتون» الانتخابية ـ التحقت متدربة فى البيت الأبيض (يوليو سنة ١٩٩٥) ـ ثم إنها فى ظرف أو آخر أقامت علاقة مع الرئيس «كلينتون» (أول مرة فى ١٥ نوفمبر ١٩٩٥)، ثم إنها نُقلت من البيت الأبيض إلى البنتاجون (٦ أبريل ١٩٩٦) ـ وأخيرا فإن علاقتها بالرئيس استمرت بعد ذلك متصلة وحميمة حتى الآن (وظهر فيما بعد أن آخر لقاء مورست فيه العلاقة بين الاثنين وقع فى ٢٩ مارس ١٩٩٧) ومن المفارقات أن ذلك كان بعد عدة شهور من تنبه «ستار» إلى حكاية «مونيكا لوينسكى».

والغالب أنه حتى أوائل يناير ١٩٩٨ ـ ورغم كل ما ترامى إلى سمعه ـ فإن القاضى «ستار» لم يتصور أن قضية «مونيكا» يمكن أن تفيد عمله، والراجح أنه اعتبرها مغامرة أخرى من مغامرات «كلينتون» وأن صاحبتها سوف تنكرها على فرض أن أحدا سألها، مدفوعة إلى ذلك بمشاعرها وبروابط أسرتها بالبيت الأبيض، وكذلك بالرغبة فى تجنب فضيحة علنية!

وفجأة وعلى غير انتظار وقع مكتب «ستار» على «ليندا تريب» صديقة «مونيكا»، وزميلتها فى البيت الأبيض سابقا - ثم فى البنتاجون حينما نُقلت إليه معها.

ولم تكن القصة التى روتها «ليندا تريب» فى مكتب القاضى «ستار» هى مجرد أن صديقتها على علاقة بالرئيس، وإنما كان الأهم أن المحامين فى قضية «بولا جونز» استدعوها للشهادة أمام المحكمة رغبة فى إثبات نوع بالذات من العلاقات الجنسية يُفَضله «كلينتون»، آملين أن يكون فى هذا الإثبات تأكيد لدعوى «بولا جونز» بأنه طلب نفس الشىء منها - وكان أهم ما فى معلومات «ليندا تريب» بعد تفاصيل العلاقة بين صديقتها والرئيس، وعند استدعائها للشهادة فى قضية «بولا جونز»، «أن كلينتون طَلَبَ منها أن تنكر أمام المحكمة علاقتها به، وأن تُصِر على الإنكار حتى تحت القَسَم»!

وبحس القاضى الملهوف تشوقا إلى إشارة تلقف القاضى «ستار» رواية «ليندا تريب» وكلف أحد كبار مساعديه بسؤالها عن مصدر معلوماتها، وكان اعترافها بأنها سمعت هذا الكلام من «مونيكا» نفسها التى تعتبرها أختا أكبر لها، ناصحة وراعية، بحيث أنها تفتح لها قلبها وتُطلق لسانها معها بأكثر مما تفعل مع أى إنسان آخر.

وهنا جاء سؤال «ليندا تريب» عما إذا كانت مستعدة لاستدراج صديقتها إلى شهادة كاملة بكل الوقائع، وتسجيل هذه الشهادة على جهاز صغير يرتبه لها مكتب المدعى المستقل.

وقَبِلَت «ليندا تريب»!

□ □ □

وسوف تظل دوافع «ليندا تريب» إلى أداء الدور الذى قامت به فى القضية ابتداءً من تطوعها بالذهاب إلى مكتب المدعى المستقل وحتى تكليفها باستدراج صديقتها سواء فى أحاديث تليفونية أو مقابلات مباشرة إلى إعادة روايتها وتسجيلها وتقديم الشرائط كلها إلى مكتب القاضى «كينيث ستار» - موضع جدل طويل يتساءل: لماذا؟

● ربما أنه كانت لديها ميول للحزب الجمهورى من أثر خدمتها فى البيت الأبيض أثناء رئاسة «بوش» (وهذا رأى ذهب إليه البعض).

● ربما أنها كانت مُستفَزَّة مما وصل إلى علمها أنه يجرى فى المكتب البيضاوى، وقد أحست بالإهانة فيه ليس فقط لكرامة المكان وهيبته، ولكن أيضا لكرامتها هى كشاهدة

بالمعرفة على هذا الامتهان الذى أحس به آخرون غيرها فى البيت الأبيض وخنعوا بالاستكانة وإيثار السلامة! (وهذا رأى ذهب إليه بعض آخر من المحللين).

● وربما كانت غاضبة لأنها وجدت نفسها تُنْقَل من وظيفة فى البيت الأبيض ألفتها إلى وظيفة أخرى فى البنتاجون بدت موحشة لها، وأحست - صوابا أو خطأ - أنها عوقبت بغير ذنب ووضعت فى سلة واحدة - وقرار واحد - مع «مونيكا لوينسكى»، وبالتالى فإنها نالت العقاب ولم تنل القُرب! (وكان ذلك رأيا وجد أنصارا ومؤيدين).

● ولقد قالت هى أثناء التحقيق أن دوافعها لم تخرج عن دوافع أى مواطن أمريكى يؤمن بالقيم الأمريكية ويُغضبه أن يرى الابتذال والفضيحة أخلاقية وسياسية تلطخ قمة مؤسسة الديمقراطية الأمريكية.

والراجح أن أسباب «ليندا تريب» مزيج من هذا كله!

[٧]

ومن المفارقات أنه كان بين أوائل التسجيلات التى اطلع القاضى «ستار» على نصوصها - حوار بين «ليندا تريب» و«مونيكا لوينسكى» - جرى على ا لنحو التالى:

«مونيكا: تصورى أنه قال لى إنه يريد أن نبتعد لأنى قد أسبب له مشاكل يستغلها خصومه؟!

ليندا: هذا الـ.... (وصف للرئيس لا يمكن طبعه على ورق).

مونيكا: قلت له متى سببت أنا لك أية مشاكل؟!

ليندا: أنت تسببين له المتاعب؟.. هذا الجاحد كان عليه أن يقدم الشكر لنجومه السعيدة!

مونيكا: هى «وساخة» رجل.... (وصف آخر للرئيس لا يمكن طبعه).

ليندا: إنك آخر شخص يمكن أن يسبب له مشاكل... مشاكله كلها من غيرك.. كان عليه أن يشكر نجومه السعيدة لأن فتاة مثلك جاءت إلى حياته... المتاعب جاءته من أخريات، لو أنه قال لإحداهن ما قاله لك للعَنَتْ (... أوصاف تمس أسرة الرئيس).

مونيكا: أ... م ... أ... م).

ومع توالى التسجيلات على مكتب المدعى العام ومع قراءاته لنصوصها قراءة مدققة - فإنه ظن أنه وجد ضالته، وأنه هو - وليس الرئيس «كلينتون» - ينبغى أن يشكر نجومه السعيدة.

كانت الوقائع أمامه تتكشف بأقوال «مونيكا لوينسكى» وقد استفاضت حتى بلغت درجة السيل وأكثر.

ولم تكن القضية أن رجلا أقام علاقة جنس من أى نوع مع امرأة..

ولا قضية أن رجلا فعل ما فعل فى مقر عمله وعلى خطى قليلة من أقرب العاملين معه.

ولا قضية أن مقر الفعل هذا كان المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض.

وإنما كان الأهم أن «مونيكا» التى التقت بـ«كلينتون» بعد أن دُعيت للشهادة أمام هيئة محلفين فى قضية «بولا جونز» - ذكرت فى التسجيلات وبصوتها صراحة أن الرئيس طلب منها إنكار علاقتها به إذا سُئلت عنها، وكان منطقه أن العلاقة بينهما هى علاقة بين اثنين لا يمكن تأكيدها إلا إذا اعترف بها أحدهما، وطالما أن أحدا لم يرهما - وهو ما لم يحدث - إذن فإن أحدا لا يستطيع أن يثبت شيئا إذا لم يكن أحد الطرفين باعترافه دليل الإثبات!

وعرف القاضى «ستار» أنه أخيرا وجد ما استعصى عليه فى قضايا سابقة:

١ - أمامه الآن اعتراف كامل من «مونيكا لوينسكى» بما دار بينها وبين «كلينتون».

٢ - وتحت يده الآن تأكيد من «مونيكا لوينسكى» بأن الرئيس حاول تدريبها بنفسه على ما ينبغى أن تقوله فى شهادتها أمام هيئة المحلفين فى قضية «بولا جونز».

٣ - ولديه هذه اللحظة سجل كامل من نفى «كلينتون» وإنكاره سواء أمام الميكروفونات والعدسات أو أمام هيئة المحلفين فى قضية «بولا جونز» إصرارا على أنه لم تكن بينه وبين «مونيكا لوينسكى» أية علاقة جنسية - وكانت تلك شهادة تحت القَسَم بقول الحق، وكل الحق، ولا شىء غير الحق.

٤ - وأخيرا فإن فى حوزته الآن فستان أزرق لمونيكا لوينسكى كانت ترتديه فى آخر يوم التقت فيه بالرئيس «كلينتون» - وكانت على الفستان بُقَع تستطيع المعامل أن تثبت نسبتها إلى صاحبها!

□ □ □

هكذا حقق «ستار» كل أمانيه بضربة واحدة:

- ضبط المتهم على مسرح الجريمة.

- ولم يكن حول المتهم - فى تلك اللحظات الحميمة - محامون ولا مستشارون ولا خبراء علاقات عامة.

- وكانت بصماته - جيناته - موجودة على فستان أزرق.

- ولم يكن فى مقدور أى سلطة، أو هيبة أى منصب فى المجتمع الأمريكى المفتوح أن تحمى الرئيس أو تُغطى على تصرفاته.

ولم يكن هناك مفر أمام الرئيس من الاعتراف بعد الإنكار.

لكنه ظل مصمما على أنه لم يكذب حين قال إنه لم تكن بينه وبينها علاقة جنسية، ثم قدم فى الدفاع عن نفسه تعريفه للعلاقة الجنسية، بما فى ذلك أنها ارتَكَبَت وهو لم يَرتَكِب: شفتاها أعطته ما اشتهى وذلك جنس. وسيجاره رد لها الجميل وذلك ليس جنسا!

وبعث «ستار» بتقريره إلى الكونجرس، ووضعه مجلس النواب على شبكة الإنترنت بعد أيام.

....

....

[وأتذكر أننى ليلة وضع التقرير على شبكة الإنترنت كنت فى لندن والتقيت على موعد فى صالون فندق «كلاريدج» باثنين من الأصدقاء الأمريكيين القدامى هما المؤرخ الأمريكى الأشهر «آرثر شليزنجر»، ومعه الصحفى ونجم الحوارات التلفزيونية اللامع «رولاند إيفانز». وذهبنا جميعا إلى غرفة «إيفانز» نتابع على التلفزيون بثا مباشرا من واشنطن.

وكان رأى «آرثر شليزنجر» بسرعة: «إن ستار تعسف مع القانون مدعيا أنه يلتزم به».

وكان «رولاند إيفانز» على خلاف معه قائلا إنه «سواء تعسف ستار أو لم يتعسف فإن العاصفة التى هبت على البيت الأبيض سوف تقتلع الرئيس من المكتب البيضاوى»!

وجرى الحوار حول القضية بيننا طويلا ومثيرا!]

[٨]

لقد كانت المشكلة فى تقرير المدعى المستقل «كينيث ستار» أنه بدا تقريرا جنسيا حافلا بمشاهد وتعبيرات وألفاظ لم يتصور أحد أن كتابتها فى تقرير قانونى - أو سياسى - أمر ممكن.

ولم يكن «ستار» وهو يكتب تقريره بمساعدة مجموعة الخبراء الذين أحاطوا به، وهم من خيرة أساتذة القانون - يريد أن يكتب تقريرا على هذه الدرجة من العُرى.

لكن ضرورات الظروف حكمت عليه:

- لقد ضبط المتهم المراوغ أخيرا - وهو يريد أن يبقيه فى المكان الذى ضبطه فيه.

- ولقد ضبطه متلبسا - وهو يريده أن يظل فى حالة التلبس حتى يراه الجميع وأولهم الكونجرس.

- وقد ضبطه وهو يكذب - وهو يريده والكذبة فى مكانها على لسانه.

- وقد ضبطه حانثا باليمين - وهو يريد لصدى صوته حانثا أن يظل مسموعا.

وبما أن واقعة الضبط وتفاصيلها وملابساتها كانت جنسا - فإن المشهد العام فى التقرير كله ظهر جنسا، وبحكم أنه كان وصفا تقريريا للواقعة كما اتضحت أمام القاضى «ستار» ومساعديه.

ومن سوء الحظ أن تقرير «ستار» جاء مُلَبِّيا لكل شروط أستاذ محاضر فى كلية الصحافة بجامعة كولومبيا عن العناصر التى تصنع خبرا مثاليا فى إثارته - والجنس واحد من أهم هذه العناصر.

وهكذا فإن وسائل الإعلام قفزت مباشرة إلى المهم، وتركت وراءها مقدماته. وبمعنى أدق فإن أحدا لم يتوقف أمام الصفحات الخمسين الأولى من تقرير «ستار»، وهى تضم التمهيد الذى حاول أن يشرح به دعواه فى اتهام الرئيس.

إن القاضى «ستار» كان يقول - وقد قال فعلا - إن الذى يهمه فى قضية «مونيكا لوينسكى» ليس كيف تصرف الرئيس معها فى مكتبه، ولكن كيف تصرف الرئيس قبل ذلك إزاء كل اتهام واجهه:

أخفى آثار وجوده فى مسرح الجريمة - أو حاول.

ترك لمحاميه مهمة سد كل الثغرات وراءه - أو حاول.

ترك لخبراء علاقاته العامة أن يغطوا أى قصور فى الدفاع - أو حاول.

واعترف أخيرا حين لم يعد الإنكار يُجْدى، وقد اعترف بالإنسانى ونسى القانونى - أو حاول.

لكن « كلينتون» فى كل حالة من هذه الحالات جَرَّب - قبل الاعتراف - كل الوسائل مع ضحاياه من التهديد إلى الغواية، وقد وجد مجهولين ينفذون له التهديد، واعتمد على أصدقاء له فى التلويح بالغواية، وأول من اعتمد عليه - وفى حالة مغامرات نسائية عديدة - بينها قضية «بولا جونز» - صديقه المحامى الزنجى الشهير «فيرنون جوردان».

....

....

(ولابد من أن أضيف هنا من عندى أننى ذُهِلْت حين عرفت بالأدوار التى قام بها «فيرنون جوردان» وبالذات فى قضية «مونيكا لوينسكى»، فقد التقيت الرجل أكثر من مرة فى مكتبه فى واشنطن ولَفَت نظرى بذكائه وقوة شخصيته، واعتبرته أهم شخصيات السود بين مواطنى الولايات المتحدة.

وقد سألت عددا من أصدقائنا المشتركين فيما بعد: «كيف رضى الرجل، وكيف طاوعته الكبرياء، وقد لمحتها فى حالته واصلة - تقريبا - إلى أن تكون عقدة استعلاء؟ - وكان ردهم أن إغراء ووهج القرب من السلطة العليا جعل «فيرنون جوردان» ينسى ويقبل، ويعبر الحدود بين المقبول وغير المقبول - وكان «فيرنون جوردان» هو الذى دعا «مونيكا لوينسكى» إلى مكتبه ليشترى سكوتها فى المراحل الأولى من القضية وليبحث لها عن عمل بعيدا عن واشنطن، ثم صحبها معه بالفعل لمقابلة مع «ريتشارد هالبرين» نائب رئيس مجلس إدارة شركة «ريفلون» لمستحضرات التجميل، وكان طلبه (بطلب من «كلينتون») إلحاقها بوظيفة عالية المرتب فى الشركة ضمانا لسكوتها وإبعادها عن واشنطن).

فى مقدمة تقريره قال القاضى «ستار» وكرر القول إن ما يريد إثباته على الرئيس ليس واقعة بذاتها ولكن نمطا pattern أو أسلوبا فى التصرف قادرًا على تفسير كل واقعة!

ثم حاول «ستار» أن يعتذر بأن كثرة الحديث عن الجنس وزيادة التفاصيل فيه

مقصودة لإثبات أن الرئيس ارتكب العلاقة الجنسية، ولم تكن «مونيكا» وحدها التى ارتكبتها. وأن توصيف الرئيس لما حدث كذبة - جريمة بشهادة الزور - تضاف إلى ما قبلها وتزيد عليها.

وهو - أى القاضى المستقل - يريد أن يثبت عجز الجريمة عن إسناد الجريمة، وتأكيد أن الحق وحده يسند الحق، فى حين أن ارتفاع كوم الأكاذيب مُؤدٍّ فى نهاية المطاف إلى الوقوع والانفراط، وهذا هو مغزى القضية كلها وعبرتها، وهو القرينة والدليل فيها!

□ □ □

كان اضطرار الرئيس «ويليام جيفرسون كلينتون» للمثول أمام المدعى الخاص وباستدعاء قانونى منه (١٣ سبتمبر ١٩٩٨) أقسى إهانة تلقاها رئيس أمريكى، ثم كان خطابه فى نفس الليلة للشعب الأمريكى أكبر جرح معنوى ألحقه سياسى فى العصر بنفسه!

ومع أن جيوش المحامين والمستشارين وخبراء العلاقات العامة حاولوا كل علومهم وفنونهم - فإنه فى ذلك اليوم لم تكن هناك جدوى من شىء.

وبرغم أن أحد مستشارى الرئيس وهو «جيمس كارافيل» الخبير فى العلاقات العامة راح فى كل برنامج تلفزيونى يتهم «ستار» بأنه مجنون بالجنس، لا يرى غير الجنس، لا يفكر فى غير الجنس، لا يتحدث فى غير الجنس لعُقَد كامنة فى شخصيته - فإن ذلك كله ذلك اليوم - ١٣ سبتمبر - أصيب بالخرس لأن الرئيس بنفسه كان هناك على شاشات التلفزيون يقول للكافة «أنه بالفعل أقام علاقة مشينة مع هذه المرأة - «مِس لوينسكى»». ثم يضيف بعظمة لسانه قائلا للشعب الأمريكى إنه «كذب عليه» وإنه «خدع أسرته: زوجته وابنته وهما أعز عليه من أى إنسان آخر»، وبعد ذلك ترك دمعة تترقرق فى عينيه، وسمح لصوته أن يرتجف بنبرة أسى حاولها اعتذارا. لكن أى مدقق فى الصورة كان يستطيع أن يرى أن رئيس الولايات المتحدة هذه اللحظة : «فأرًا فى مصيدة».

وفى تلك الليلة لم يكن الكونجرس هو الواقف على باب المصيدة، ولا كان السجان هو الإعلام، وإنما كانت مشكلة «كلينتون» الكبرى مع زوجته «هيلارى».

وكانت علاقة «بيل كلينتون» و«هيلارى رودهام» من أغرب العلاقات، وسوف تصبح بالتأكيد موضوع دراسات وتحقيقات بغير نهاية لاستكشاف طبيعتها وحقيقتها.

إنها علاقة بدأت بانجذاب متبادل، لكن الانجذاب لم يكن عاطفيا إلا لفترة محدودة، ثم توارت العاطفة لتفسح مجالا لنوع من الشراكة نازع إلى طموح سياسى كانت حرارته فى قلب الاثنين عند درجة الحريق.

وعند «بيل» فإن الأشواق الحارقة إلى الإلحاح فى الطموح السياسى كان يمكن فهمها.

والغالب أن شرارة الحريق اشتعلت حين صارحته والدته أنها ليست متأكدة بالضبط مَن هو أبوه، ذلك أنها فى وقت حملها به كانت تشرب كثيرا وكانت تقضى لياليها متنقلة. وهكذا أخذ «بيل» اسم «كلينتون» وهو اسم زوج لاحق لوالدته، لكنه هكذا أيضا أصبح هَمُّ الطفل الصغير أن يعطى نفسه طموحا يتفوق به على أى نَسَب فى مجتمع يعطى الفرصة لأى فرد إلى درجة المعجزة!

إن «كلينتون» أحس فى صباه أن خدمة العَلَم فى فيتنام (وقتها) سوف تعطله، فرتب لنفسه تهربا منها، ثم ساعدته الظروف على أن يجد لنفسه مكانا فى جامعة «جورج تاون» بواشنطن، ثم حصل على واحدة من منَح رودس (السير «سيسيل رودس») فى جامعة «أوكسفورد» يدرس فيها القانون لمدة سنتين عاد بعدهما ليلتحق بمكتب محام، ولكن عينه تعلقت بالسياسة التى أحس أنها نفذت إلى بؤرة أحلامه حين ذهب يوما مع مدرسته الثانوية فى رحلة إلى البيت الأبيض وكان له حظ مصافحة «جون كنيدى» رئيس الولايات المتحدة يومئذ والتقاط صورة معه!

وأثناء ممارسة المحاماة، وتدريس القانون فى كلية محلية، التقى «بيل» بـ «هيلارى» وبدأ بينهما عهد ما لبث قليلا حتى تحول إلى عقد كانت «هيلارى» هى الطرف الأقوى فيه لأنها الطرف الأقدر على الفهم.

ومبكرا اكتشفت «هيلارى» نقطة الضعف فى «بيل»، وقد أشارت إليها مرة - على الأقل - فى حديث لها مع «كلارك كليفورد» (وهو عميد المحامين الديمقراطيين ووزير معهم فى أكثر من إدارة).

كان ظنها أن نقطة ضعف زوجها هى استعداده أن يجرى وراء أى إمرأة. يظن أنه بذلك - حسب تحليلها - «ينتقم من أمه التى لم تستطع أن تحدد له من هو أبوه؟».

وكان ذلك «الفهم» لعقدة «كلينتون» هو التبرير الذى قدمته «هيلارى» - لاحقا - لعدد من المقربين سألوها لماذا تسامحت مع زوجها فى عشرات من حالات الخيانة الزوجية وصلت إلى علمها، وألم تكن بذلك تشجعه على التمادى؟ - وربما كان فى تحليل «هيلارى» شىء

من الحق، لكن الحقيقة أن العلاقات بين الاثنين كانت أعقد، فقد تلاقى كلاهما - أو تلاقت العُقَد والعقود بينهما - على السعى إلى درجة الحُمَّى فى طلب القوة وطلب النفوذ، وطلب أشياء كثيرة أخرى غير القوة والنفوذ.

....

....

[وقد ذكر لى سياسى أمريكى بارز - لم يأذن لى فى نسبة قوله إليه - أن قصة «بيل» و«هيلارى» تحتاج إلى قراءة ثانية لقصة «فاوست» التى كتبها شاعر الألمان العظيم «جوته». وقصة «جوته» قصة رجل عقد حلفا مع الشيطان!

وفى رأى السياسى الأمريكى المرموق أن قصة «بيل» و«هيلارى» هى قصة حلف آخر مع الشيطان. الشيطان مع الشيطان، وليس رجلا مع الشيطان!]

....

....

وعندما حقق «بيل» طموحه الأول وأصبح حاكما لولاية «أركنساس» أصبح معروفا أن مكتب زوجته «هيلارى» هو المركز الحساس لأعصاب القرار فى الولاية كلها.

وحين اتسعت أحلام «بيل كلينتون» وتحقق له دخول البيت الأبيض فإن «هيلارى» مشت بجانبه على قدم المساواة خطوة بخطوة على امتداد شارع بنسلفانيا نحو محل إقامتها الجديد.

وفى اليوم التالى وحين ذهب الاثنان إلى الكونجرس للقاء أعضائه على غداء عمل، كان تعليق أحد أعضاء مجلس الشيوخ البارزين وهو «باتريك موينهان» أن الذى لفت نظره فى «بيل» هو شهيته المفتوحة. «لم يترك شيئا وضع أمامه إلا أكله»، وقد وصفه بأنه أقوى «ماكينة أكل» رآها فى عمره. وكان الذى لفت نظره فى «هيلارى» هو اهتمامها برسم خريطة لمواقع التأثير والنفوذ فى الكونجرس، وقد وصفها بأنها ماكينة «تعليب وتغليف سلطة»!

وربما أن شهية «بيل» المفتوحة لالتهام كل شىء لعبت دورها - كذلك - فى مغامراته، فقد انفجرت قضية «جنيفر فلاورز» وهو على عتبات البيت الأبيض، ثم لحقتها قضية «بولا جونز» وهو لم يكد يستقر بعد على مقعده فى المكتب البيضاوى!

لكن «هيلارى» كانت متسامحة وبشواغلها الخاصة - وكذلك بعقلها المهتم بالشراكة فى الرئاسة، وبهذه الروح فإنها لم تلتفت إلى ما كان يحدث أو ما كان يقال، وبالفعل فإنها أولت اهتمامها تلك الأيام لمشروع التأمين الصحى الشامل، وذهبت بنفسها إلى الكونجرس تعرضه وتناقشه فى أواخر شهر يناير ١٩٩٣، وغداة إلقاء زوجها خطابه الأول عن حالة الاتحاد!

□ □ □

ولقد حامت إشاعات كثيرة حول «هيلارى» ومعظمها لم يؤيده دليل قاطع، لكن الإشاعات حول «بيل» وصلت إلى درجة الاتهام، وكان يفلت بالكذب ويهرب، وكانت هى «تُسَجِّل» عليه وتصفح، ثم تتطَوَّع فى اللحظة المناسبة بقيادة الدفاع عنه أمام الرأى العام حتى جاءت فضيحة «مونيكا لوينسكى» وتم ضبط كلينتون» متلبسا فى موقع الجريمة، وفى غيبة من محاميه ومستشاريه، ولم ينفعه الإنكار لأن بصماته كانت على الفستان الأزرق.

ليلتها وكما يشير تقرير لـ «ناشيونال إنكوايرر» - نقلته وكالات الأنباء الكبرى (بينها الـ«أسوشياتد برس» و«رويتر») وشبكات التلفزيون الثلاثة الرئيسية فى الولايات المتحدة - كانت «هيلارى» وحشا هائجا فى البيت الأبيض وقد وصلت إلى حد شتم زوجها، ورد عليها، وقذفته بمصباح ضوء طاش ولم يُصبه.

وعندما ظهرت نتائج التصويت فى مجلس النواب الأمريكى على قرار بالحجر على الرئيس فى مادتين - وصل التوتر بين «هيلارى» و«بيل»[3] إلى حد التشابك بالأيدى، وإلى حد أن الرئيس زعق على حارسه قائلا له : «خذ هذه المرأة الـ .... بعيدا عنى».

(جريدة «التيمس» اللندنية نشرت الوصف الذى استعمله على صفحتها الأولى).

وقال الحارس الذى تلقى أمر الرئيس كما قال غيره فى البيت الأبيض - إن «هيلارى» فقدت أعصابها إلى درجة أنها «لَسَعَت» زوجها قَلَما على وجهه اقتضى استدعاء خبير فى الماكياج ليغطى أثره، وكان استعمال الماكياج ضروريا لأن «كلينتون» كان على موعد بعد قليل مع أعضاء مجلس النواب الديمقراطيين الذين حاولوا - وفشلوا - فى عرقلة قرار الحجر.

---

(٣) طبقا لتقرير منشور فى جريدة «الواشنطن بوست» و«النيويورك تيمس» (وغيرهما) يوم ٢٦ ديسمبر الأخير.

[٩]

إن مشروع القرار الذى أحالته لجنة الشئون القانونية فى مجلس النواب بكامل هيئته والذى كان أساسا لقرار المجلس بالحجر على الرئيس ـ لم يكن قرارا صنعه الحزب الجمهورى وحده، وإنما انضم إليه ثلاثون نائبا من الديمقراطيين (حزب الرئيس).

ولقد كانت المناقشات المفتوحة سواء فى لجنة الشئون القانونية أو فى قاعة المجلس مجتمعا بكامل هيئته ـ درسا هائلا فى الممارسة الديمقراطية. وربما أن مجتمعات العالم الثالث تستطيع أن تتعلم من مناقشات مجلس النواب الأمريكى بأكثر مما تتعلم من تقليد تصرفات «بيل كلينتون» (خصوصا وأن التغطية بالصور فى الولايات المتحدة لها كفاءة السحر، فى حين أن الصور فى العالم الثالث مهزوزة وبدائية !).

كان درس السؤال والجواب فى مناقشات اللجنة والمجلس رائعا.

سؤال : هل يمكن الحجر على رئيس الولايات المتحدة بنزوة جنسية؟

جواب : النزوات الجنسية ذنبه ونحن لا نحاسبه عليها، مع أن هناك إساءة إلى المنصب وإلى الدولة فى الطريقة التى تصرف بها.

سؤال : هى قضية خيانة زوجية، وقد غفرت له أسرته؟

جواب: أسرته تستطيع أن تغفر له الخيانة الزوجية وهذا ليس موضوع الحساب ـ وإنما موضوع الحساب هو أن المسئول الأول عن تنفيذ القانون كذب على هيئة محلفين كبرى بعد أن أقسم اليمين أمامها بأن يقول الحق ـ كل الحق ـ ولا شىء غير الحق.

سؤال : ولكن الرأى العام كله معه، فهل يقف الكونجرس ضد الرأى العام؟

جواب : الكونجرس مسئول عن الدستور والقانون وليس مسئولا عن نتائج استقصاءات الرأى العام.

سؤال : إن الرأى العام فى أغلبيته ضد المدعى المستقل «كينيث ستار»، وهو يرى أن الرجل تقصد الرئيس وطارده، وقد أصبح لذلك شخصية مكروهة؟!

جواب : لا داعى للكلام عن الرجل وهل هو محبوب أو مكروه ـ نحن لا نناقش شخصه. نناقش فقط ما أورده من وقائع ثابتة.

سؤال : إن الشعب عرف كل الحقيقة ومع ذلك أظهر تأييده للرئيس؟

جواب : إن الكونجرس أيضا منتخب من الشعب وإذا كانت استقصاءات الرأى العام تمثل مزاج الشعب هذه اللحظة فإن مهمة الكونجرس هى أن يمثل سلطة الدستور والقانون فى كل لحظة.

سؤال : أليست هناك حُرْمة للحياة الخاصة لأى إنسان حتى ولو كان رئيسا؟ـ أليس صحيحا أن الرؤساء بشر هم أيضا ، وهم أيضا يمكن أن تكون لهم حياة خاصة؟

جواب: الحياة الخاصة لكل مواطن مصونة بالدستور والقانون، لكن أحدا هنا لم يقترب من الرئيس فى غرفة نومه أو غرفة مكتبه ـ رغم أنها ليست المكان الملائم لممارسة الخصوصيات ـ إنما الاقتراب جرى من موقف للرئيس أمام ممثلين للقانون أقسم أمامهم بقول الحق، كل الحق، ولا شىء غير الحق.

وأول مهام الرئيس فى الدستور الأمريكى هى مسئوليته عن حفظ القانون والإلزام بالقانون.

....

....

[وربما تستحق هذه النقطة إضافة أوسع، تلك أن السياسة استخدمت الإعلام بمختلف وسائله كى تصل بخطابها إلى كل الناس حيث يتواجدون، وبالمقابل فإن الإعلام أعطى نفسه الحق فى أن ينقل صورهم من حيث يتواجدون إلى كل الناس.

السياسة أخذت الإعلام إلى أبعد مسافة.

والإعلام دخل فى السياسة إلى أعمق نفاذ.

وهكذا فإن التكنولوجيا التى أعطت للسياسة فرصة التضليل أحيانا ـ انتقمت لنفسها بالحق فى كشف الضلال بالمقابل!].

سؤال: أليس صحيحا أن رئيس الولايات المتحدة هو المُعَبِّر عن دورها فى ظروف وقعت فيها عليها مسئولية قيادة العالم، وأليس ما يحدث للرئيس الآن إساءة إلى الدور القيادى الأمريكى؟

جواب: إن العكس تماما هو الصحيح، والولايات المتحدة ليست واحدة من دول العالم

الثـالث. فـإن قدرة النظام السـياسـى الأمريكى على مـحـاكمـة رئيسـه إذا خـالف القـانون والدستور هى أكبر دليل على قوته، لأن الرئيس لا يصنع الدور الأمريكى ولكنه يُعَبِّر عنه.

وربما أن ما يجرى يؤثر على سلطة الرئيس - ولكن قوة النظام السياسى تُعَوِّض.

وربما أن مـا يجـرى يؤثر على هيبـة الرئاسـة الأمـريكيـة - ولكن قـوة الدولة الأمـريكيـة تُغطى.

سـؤال: هـل يصح فى حق القـوات الأمريكيـة فى الخليج أن يسمع جنودهـا وضـبـاطـهـا بالطريقة التى يتعامل بها الكونجرس مع الرئيس وهو القائد الأعلى للقوات المسلحة؟.

جـواب : وهل كان من اللائق فى حق هذه القـوات أن يتصـرف قـائدهـا الأعلى على النحـو الذى تصـرف به مـع «مونيكا» فى نفس المكان الذى يصـدر منه قـرار الحـرب والسـلام فى العالم كله وليس فى الخليج وحده؟!

□ □ □

كان موقف الرأى العام فى قضية «كلينتون» و«ستار» مُحَيِّرا لكثيرين على اتسـاع الكرة الأرضية. وكان موطن الحيرة أن استقصـاءات الرأى العام تُظْهِر:

١ - أن الرأى العام الأمريكى يعتقد أن الرئيس أقام علاقة جنسية مع «مونيكا».

٢ - وأنه كذب تحت القسم حين أنكرها.

٣ - وأن تفسيره للعلاقة الجنسية (هى ارتَكَبَت وهو لم يرتَكِب) تفسير لم يقنع أحدا.

٤ - وأن الثـقـة فى الرئيس لا تزيد عن ثـلاثين فى المائة من عـدد الأصـوات التى شـاركت فى استقصـاءات كثيرة لقياس الرأى العام.

٥ - أن الرئيس بكل ما فعل يستحق العقاب.

برغم ذلك كله فـإن نسبـة الذين رفـضـوا عـزل الرئيس زادت على ٧٠٪، وكـان رأى هذه الأغلبيـة السـاحـقـة أن عقـاب الرئيس يكفى فيـه اللـوم والتـوبيخ بقسـوة، ثم تركه يكمل مـدة رئاسته.

إن كثـيـرين رأوا فى مـجـمل شـعـور الرأى العـام تجاه الحـجـر على الرئيس لغـزا مليـئـا بالمتناقضـات، واعـتقـادى - وهذا رأيى - أن الشـعب الأمـريكى فى هذه الإشـكاليـة كان شـديد

الوعى وكان موقفه عقلانيا بأكثر مما ظن كثير من المراقبين الذين فسروا موقفه عاطفيا أو مزاجيا.

والأسباب - كما أظن - متعددة:

أولها - أن برنامج «كلينتون» الاجتماعى كان أكثر قبولا عند جماهير الناس من برنامج الحزب الجمهورى. ففى مجال فرص العمل والضمان والتأمين الصحى استطاع «كلينتون» أن يقدم لعامة الشعب الأمريكى كثيرا مما يعد به الاشتراكيون الديمقراطيون، وقريبا مما أطلق عليه وصف «سياسة الطريق الثالث»، أى الرأسمالية بوجه إنسانى تتحمل الدولة دورا فى إبرازه وتأكيده.

ثانيها - أن «كلينتون» وجد تحت تصرفه الموارد التى تسمح له بتنفيذ برنامجه، وذلك نتيجة الوفر الناشىء من انخفاض مستويات سباق السلاح بعد انهيار الاتحاد السوفيتى وانتهاء الحرب الباردة، وقد وصل الخفض ٣٠٪. وهنا فربما أن الفضل فى نجاح برنامج «كلينتون» يعود بالدرجة الأولى إلى الزعماء السوفيت (خصوصا «جورباتشوف» و«يلتسين») الذين ساعدوا على تصفية دولتهم الشيوعية بأكثر مما ضغط عليها خصومها فى المعسكر الرأسمالى.

....

....

[والملاحظ أن هذا الوفر فى تكاليف السلاح بدأ يتأثر، فقد شكت رئاسة أركان الحرب الأمريكية من زيادة الأعباء الواقعة عليها فى السنوات الأخيرة، إذ طلب إليها نشر قوات فى الخليج وفى البلقان - وفى نفس الوقت فقد تأكد لها بتجربة الضربات ضد العراق أن سلاح الصواريخ لا يستطيع أن يحقق هدفا إستراتيجيا، وبالفعل فإن «كلينتون» حول إلى الكونجرس فى أول شهر يناير ١٩٩٩ طلبا بإضافة مائة بليون دولار لخمس سنوات إلى ميزانية الدفاع].

ثالثها - أن موجة التفاؤل التى أعقبت انهيار الاتحاد السوفيتى وانفراد الولايات المتحدة بإدارة شئون العالم أدت - طبقا لتقدير المحلل الاقتصادى الأمريكى المدقق «روبرت صامويلسون»[٤] - إلى إضافة مبلغ ٨ تريليون دولار على قيمة أسهم الشركات فى

---

(٤) ورد الرقم فى مقال كتبه «صامويلسون» فى جريدة «الهيرالد تريبيون» عدد ٣٠ ديسمبر ١٩٩٨.

الولايات المتحدة، وذلك أدى إلى انتعاش غير مسبوق أحس به كل مواطن أمريكى فى السنوات العشر الأخيرة.

رابعها - أنه مع هذا الانتعاش فى السوق الأمريكية نتيجة لجرعات من التفاؤل قوية - فقد أصبح الاستثمار بالدولار مقصدا عالميا، وبالتالى اكتسب الاقتصاد الأمريكى قوة أنه وديعة الاحتياطى المأمون، وفى الوقت نفسه فإنه الاستثمار الأفضل فى المستقبل، وتدَفَّقت نحوه الثروات وكان حجم السوق قادرا على الاستيعاب.

....

....

[وعلى الأرجح فإن هذا الوضع لن يدوم طويلا لأن دخول الـ «يورو» - العملة الأوروبية الموحدة - سوف يخلق وعاءً ماليا هائلا لا يَقِلُّ إن لم يزد عن وعاء الدولار وأكثر منه تماسكا ورصانة].

وخامسها - أن القاضى المستقل «كينيث ستار» لم يستطع بصرامة ملامحه أن يكتسب تعاطف الناس معه. ولقد أقنعهم أن هناك خطأ فادحا على نحو ما فى تصرفات رئيسهم، ولكنه لم يستطع ما هو أكثر بسبب ملامحه المكفهرة ودأبه العنيد، ومطاردته بلا هوادة لضحيته. ولقد خسر لعبة الصور. وتلقى فيها الضربة شبه القاضية من منافسه صاحب الابتسامة التى لا تغيب، وصاحب ملامح البراءة الظاهرة على تقاطيع الوجه طول الوقت كأنها نظرة طفل شقى يريد أن يلعب (ولماذا لا يتركونه يلعب؟!).

وسادسها - أن بين الناس كثيرين يعرفون فى أعماقهم أن خطايا الرئيس المكشوفة من نوع خطاياهم المكتومة. ولعل هؤلاء هم الناس الذين عناهم «كلينتون» حين قال فى أول اعتراف علنى له «إن أعدادا كبيرة من الأمريكيين سوف يفهموننى عندما أقول إننى كذبت لكى أحمى أسرتى وأحمى سمعتى». والشاهد أن هؤلاء جميعا تلقوا رسالة «كلينتون» وفهموا عنه، وغفروا له، وغفروا لأنفسهم معه، ولم يغفروا للمدعى المستقل «كينيث ستار» ولا للكونجرس.

وسابعها - أن رئيس الولايات المتحدة يملك التأثير فى جدول اهتمامات الرأى العام ليس فقط فى أمريكا وإنما فى العالم كله، فلديه من سلطة القرار ومن سعة مجال الاختيار ما يمكنه من تحويل الأنظار كلها من موقع إلى موقع، بمعنى أنه إذا ضاق الحصار على مكتبه

فى البيت الأبيض ذهب إلى الشرق الأوسط لدور صانع السلام فى القدس وغزة - ذهب وذهب معه الإعلام العالمى بأكمله.

وإذا اكتشف أن رئيس وزراء إسرائيل «بنيامين نتانياهو» قد حال بينه وبين دور صانع السلام، ففى مقدوره فى أى لحظة حتى أثناء ركوبه الطائرة من القدس إلى واشنطن أن يقوم بدور صانع الحرب فى العراق، وأن يأخذ الرأى العام الأمريكى وراءه وأن يفرض عليه بدل الصورة التى تسيئه (وهى صورة مجلس النواب يبحث الحجر عليه) صورة تَسُرُّه وتُسليه (وهى صورة بغداد فى الليل يتوهج فيها لهب صواريخ الكروز، ويعوى فى سمائها رعد قاذفات القنابل).

وهكذا تغطى الصور على الصور لأن رئيس الولايات المتحدة يستطيع إعادة ترتيب الأولويات وتحويل الأنظار من حيث لا يريد إلى حيث يريد.

....

....

[ومن الطريف أن حاملة الطائرات الأمريكية «إنتربرايز» الراسية فى الخليج والتى شاركت فى الضربة الأخيرة للعراق - وضعت ضمن برنامجها للترفيه عن جنودها قائمة بالأفلام التى يمكن طلبها لصالة العرض على الحاملة. وفى يوم بداية الضربة كان الفيلم الذى حقق أكبر إقبال عليه هو فيلم "Wag the Dog" وهو فيلم يحكى قصة رئيس أمريكى تعثر فى فضيحة جنسية فجرتها وسائل الإعلام، وقرر الرئيس فى الفيلم أن يُحَوِّل الأنظار عن القضية فقام بإعلان الحرب على «ألبانيا» بادعاء أنها تهدد الأمن القومى!].

....

....

وثامنها - ولعله أهم الأسباب - حتى إذا كان فى ترتيب العدد آخرها - أن الرأى العام الأمريكى أدرك - وإن بالغريزة وحدها - أن الحجر على رئيس للولايات المتحدة قبل نهاية القرن العشرين، مع عزل الرئيس «ريتشارد نيكسون» (فضيحة «ووترجيت») سنة ١٩٧٤ - معناه أن رئيسين للولايات المتحدة تعرضا للطرد من منصبيهما فى مدة ربع قرن، ومعنى ذلك ببساطة أن النظام الدستورى فى الولايات المتحدة الأمريكية مُعَرَّض لحالة من عدم الاستقرار مؤدية إلى تآكل فى دولة المؤسسات الأولى فى هذا العصر وهذا العالم!

....

....

- يظل بعد كل تلك الأسباب وفوقها عامل آخر يخطر ببالى أن الإشارة إليه مفيدة فى حالة ازدياد شعبية «كلينتون» مع زيادة التصاق التُّهَم به، وذلك العامل يتمثل فى أن هناك نوعا من لعبة «شَدّ الحبل»، أو نوعا من «العناد» فى القضية نشأ بين غالبية جماهير الشعب الأمريكى حيث هى من المحيط إلى المحيط وبين السلطة التشريعية المتمثلة فى الكونجرس. والشاهد أن بعض مظاهر الساحة الأمريكية يمكن ترجمته بضيق غالبية بين الجماهير ترى أن الكونجرس أخذ القانون فى يده دون مراعاة لأى اعتبار، مع العلم أن محاكمة رئيس الدولة والبدء بالحجر عليه قضية سياسية، وإذا كان الأمر كذلك فالقانون عنصر ضمن عناصر يؤخذ فى الاعتبار، ولكن توضع بالتوازى معه عوامل لا يمكن غض النظر عنها. ومع التطرف فى المواقف والإجراءات فإن الرأى العام فى غالبه دخل لعبة «شَدّ حبل» أو «عناد» مع الكونجرس.

وأستعمل وصف «عناد» ولا أستعمل وصف «معارضة»، لأن المعارضة لا تتأتى إلا باقتناع مبدئى، والمبادئ كلها فى هذه الحالة ضد «كلينتون»، ولو كان الرأى العام فى حالة معارضة ضد إجراءات الكونجرس لاستجاب فعليا وعمليا لنداءات تكاد تكون مكشوفة صدرت عن البيت الأبيض والمقربين منه تدعو الرأى العام أن يتحرك لنصرة الرئيس إزاء مؤامرات تُدبّر ضد رئاسته. ولو تحرك الرأى العام لرأينا جموعه تزحف إلى مجلس النواب ليلة التصويت بالحجر على الرئيس، وبالتالى لرأينا مشهدا يماثل ما رواه الكاتب الأمريكى الشهير «نورمان ميلر» فى كتابه «جيوش الليل» والذى وصف فيه كيف خرج الرأى العام لمعارضة (معارضة) الحرب فى فيتنام!

ولكنه هذه المرة «عناد» وليس «معارضة».

«شَدّ حبل» بين مواقف لها دوافع مختلفة مع شعور بأن المبادئ لها كرامة فى نفس الوقت!

....

....

وباختصار فإن الرأى العام توصل فى قضية «كلينتون» إلى قناعتين:

الأولى: أنه لا داعى لطرد «كلينتون» ـ الآن ـ من البيت الأبيض لأن سياساته الداخلية فى معظمها مقبولة (حتى وإن قيل إن مسبباتها ليست من صنعه).

والثانية: أن هناك داعيًا لطرد «كلينتون» ـ لاحقا ـ من التاريخ لأن تصرفاته فى مجملها غير معقولة (وهى لا تعطيه حقا ـ حتى مع استعمال الرأفة ـ فى مكان أو مكانة فيه).

هكــــذا!

[١٠]

بقى سؤال مُلِح وتداعيه فى هذا السياق الطويل منطقى:

ماذا لو أن أحدا حاول أن يطبق منهج «كلينتون» السياسى كما استخلصه القاضى المستقل «كينيث ستار» على سياسة الرئيس الأمريكى فى العالم العربى:

ارتكاب خطأ كبير أو جريمة ـ ثم محاولة الخروج من مسرح الخطأ أو الجريمة خفية ـ ثم التغطية على الكذبة بكذبة ـ ثم الاستعانة بجيش من المحامين والخبراء للتغطية ـ ثم استعمال التهديد والضرب، والإغراء والغواية، والعثور على فاعلين مجهولين (أو معروفين) للانتحار أو القتل، وعلى أصدقاء مخلصين للبحث عن وظائف أو مكافآت.

وبتحديد أكثر فإن منهج «كلينتون» السياسى كما استخلصه «ستار» يجعلنا نرى «كلينتون» ونسمعه ونتابع حركته.

ـ هو يريد أن يهرب من أجواء الحصار الخانق حوله فى واشنطن ـ حتى ولو كان سبيله الهرب إلى الأمام (ولهذا يركب طائرته إلى الشرق الأوسط وهو بأحواله الراهنة منطقة مستعدة دواما لأن تكون ملعبا لأى رئيس أمريكى فى أى لعبة يختارها!).

ـ وغطاؤه أنه يريد صنع السلام فى المنطقة (وإذا هو على طول الخط مؤيد مخلص لإسرائيل؛ لأنها وحدها فى الشرق الأوسط تملك أن تساعده داخليا).

ـ ودليل نفيه أنه يريد أن يُؤمّن شعوب المنطقة ضد أى تهديد (ولذلك يضرب العراق وحده بمقولة تصفية أسلحته للدمار الشامل وهو يعرف أنه لم يبق منها شىء، ويطلب من الفلسطينيين فى حضوره وبشهادته إلغاء ميثاقهم الوطنى وهو يعرف أن إلغاءه حصل فعلا قبل سنوات).

ـ وهو يصر على التعمية قائلا إنه يتصرف لصالح العرب والمسلمين (وشاهده «مادلين أولبرايت» وزيرة خارجيته، و« ويليام كوهين» وزير دفاعه. وإذا لم تكن شهادتهم جميعا مصدقة فمن الممكن سؤال «جورج تينيت» مدير وكالة المخابرات المركزية، أو سؤال قائد القيادة المركزية المسئولة عن «عموم بلاد» المنطقة من الخليج إلى المحيط(!) وهو الجنرال «أنتونى زينى»، وكلاهما يعرف!

ـ وهو لم يكن هناك فى سماء العراق ـ أو على أرض السلطة الوطنية (أو حتى فى ليبيا والسودان) وحده ـ وإنما كان معه شريك هو «تونى بلير». وعلى الجميع أن يتذكروا أن بريطانيا أسبق تجربة ـ ومَودة ـ من أمريكا مع العرب!).

ـ وهو يوجه خطابه إلى المسلمين محييا ومهنئا بشهر رمضان، وفى نهاية خطابه يذهب فى المجاملة إلى حد استعمال اللغة العربية قائلا لسامعيه بلسانهم «رمضان كريم» (وهى تَذْكِرة تستدعى غزوة «نابليون» لمصر قبل مائتى سنة عندما دخلها مشهرا للمصريين إسلامه واهتداءه إلى دينهم الحنيف!).

كأن مائتى سنة من التاريخ الحديث ما بين ١٧٩٨ (نابليون) وسنة ١٩٩٨ (كلينتون) هبت دون أن تترك أثرا.

....

....

والمدهش أن عرب تلك الأيام قبل مائتى سنة لم يقبلوا بادعاء «نابليون» ولم يلبثوا أن ثاروا عليه ـ لكن العرب هذه الأيام قبلوا من «كلينتون» وسكتوا عليه!

....

....

إن العرب هذه الأيام لم يوجهوا له تهمة.

وبدوره فإنه لم يعترف.

وكذلك لم يعتذر ما دام أصحاب الشأن لم يَشُكّوا فيه، ولم يَتّهِموه، ولم يطاردوه!

والسبب أن العرب أحسن أدبا من «كينيث ستار»؛ وعلى الأقل فإن وجوههم ليست

عابسة، وملامحهم ليست صارمة وقلوبهم أكثر بياضًا من جليد الشتاء الذى يتساقط الآن على واشنطن.

وفى كل الأحوال فإنهم تَحَوَّلوا - بإرادتهم أو بدونها - إلى متفرجين على عالم من الصور يجرى أمامهم دون توقف، ويشد انتباههم دون ملل، ويستغرقهم بحركاته وألوانه وأصواته إلى حد الطوفان، وذلك لا يمنع أن يتذكر أحدهم بين الحين والآخر أنهم على أبواب القرن الواحد والعشرين، ويفعل كما يفعل المجاذيب فى حى «السيدة زينب» أو «سيدنا الحسين» أثناء زحام رمضان زاعقا: «حَىّ»!



بطرس غالى

بين الوساوس والحظوظ

بطـرس غـالى(*)

بين الوساوس والحظوظ

لم أتوقع أن صديقنا القديم الدكتور بطرس بطرس غالى سوف يكتب كتابا عن تجربته السياسية، لكنه تجاوز ظنونى وإذا هو بدل كتاب واحد كتابان، أولهما وقد ظهر فعلا عن تجربته كوزير مع الرئيس أنور السادات من سنة ١٩٧٧ إلى سنة ١٩٨١، ومع الرئيس حسنى مبارك من سنة ١٩٨١ إلى سنة ١٩٩١ ـ أما الكتاب الثانى وهو عن تجربته كسكرتير عام للأمم المتحدة من سنة ١٩٩١ إلى سنة ١٩٩٦ فلم يظهر بعد، وإن كان بطرس غالى يؤكد أنه فرغ منه فعلا وأن نشره لن يتأخر طويلا !

لماذا لم أتوقع أن يكتب بطرس غالى كتابا أو كتابين، أو حتى ثلاثة ـ لو أراد أن يسجل تجربته فى منصبه الأخير كسكرتير عام لمنظمة «الفرانكوفون»!

لماذا لم أتوقع أن يكتب بطرس غالى، رغم أننى اعتقدت وما زلت أعتقد أن كل إنسان لديه كتاب نائم فى موضع ما من ذاكرته، ولو أنه فكر وراجع بطريقة جدية لعثر على موضوعه. ولو أنه عرف كيف يقترب منه لوجد عنده بالفعل شيئا يستحق أن ينشر، ويستحق أن يُقبِل الناس على قراءته.

إن كل تجربة إنسانية، قصة كاملة تستطيع أن تقدم نفسها فى شكل كتاب. وبطرس غالى تجربة إنسانية حافلة ما بين أستاذ الجامعة الذى يمارس التدريس ويحترف الصحافة، إلى الوزير الذى عاصر فترة مزدحمة بالحوادث وكان فى قلبها، إلى السكرتير العام للأمم المتحدة فى لحظة مهمة سقط فيها النظام الدولى القديم ثنائى

(*) مارس ١٩٩٩.

طريق مصر إلى القدس

بطرس بطرس غالى

القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٧.

القطبية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، ثم بقيت وظهرت على الساحة قوة واحدة هى الولايات المتحدة الأمريكية تحاول إقناع الدنيا بميلاد نظام عالمى جديد، وكان الأمل الشائع - أو لعله الوهم - أن الأمم المتحدة نفسها سوف تكون واجهة ذلك النظام العالمى الجديد.

□ □ □

وإذن فماذا عن رجل عنده بدل التجربة الواحدة ثلاث، وربما أربع ؟

السبب هو أننى - مع تسليمى بأن ذاكرة بطرس غالى تحوى داخلها عددا من الكتب - لم أتوقع أنه سيقدم على الكتابة ويجازف، ويسجل بالقلم على الورق دون أن يفلت منه ما لا يريد البوح به.

إن بطرس غالى وقد زاملنى سبع عشرة سنة فى الأهرام - ليس صدرا مكتوما وليس حنجرة محبوسة، بل العكس فهو حضور منشرح متهلل، وهو راوية حكايات مشوق، وروايته غنية بمؤثرات الصوت واللون والضوء، ثم إنه لمن يعرفونه سريع البديهة، خفيف الظل، مقبل على الحياة. لكنه على نحو أو آخر رجل تداخله وساوس دفينة تهيئ له على الدوام أنه لن يبلغ ما يريد، وأن الظروف المحيطة به تعمل ضده، وأنها الغالبة على مقاديره مهما فعل.

□ □ □

واعتقادى أن بطرس غالى مبالغ فى وساوسه، وظنى أن معظمها من داخله بأكثر مما هى من خارجه، بمعنى أنها من نفسه وليست من ظروفه.

إن وساوس بطرس غالى جارية على لسانه لازمة مستعادة، وهو يجملها فى عبارة سمعها منه كل أصدقائه تقريبا، مؤداها أنه رجل محكوم عليه مقدما ودون استئناف، فهو «مسيحى فى بلد مسلم، وهو من عائلة اشتهرت بالخيانة فى تاريخ مصر، ثم هو متزوج من يهودية»!

وحين نقلت عنه هذه العبارة فى سياق أحد فصول كتابى عن اغتيال الرئيس السادات (خريف الغضب) توقعت أن بطرس سوف يعتب على ما نشرته، لكننا عندما التقينا لأول مرة بعد النشر وبادرته بأنى أتوقع عتابه - وجدته يقول :

«إننى عاتب فعلا ولكن ليس لما نقلت عنى وإنما لأنك اكتفيت به. إن كل ما ذكرته عنى حقائق موضوعية، لكنى انتظرت - وقد عملت معك سنوات طويلة - أن تضيف إليها شيئا من عندك كأن تقول إننى «كفء»، أو إننى «ذكى»، أو أى وصف آخر ينم عن رأيك أنت فىّ».

وأعترف أن بطرس كان ودودا ورقيقا فى ملاحظته، وقد رددت بأن «الحق معه». فهو بالفعل - على المستوى الإنسانى - رجل ذكى بعقله وقلبه معا.

وبرغم اعترافى بأن الحق معه فى عتابه فقد ظللت على اعتقادى بأن كل هذه الوساوس التى يتحدث عنها بطرس غالى ويحسبها حكما مسبقا عليه يعترض طريقه ويعوق تقدمه، ليست مبررة، وبالعكس فالواضح من متابعة حياته أن آلهة الحظ عملت دائما له وفتحت أمامه الطرق، ليس فقط بأكثر مما هيأت له وساوسه، وإنما بأبعد مما زينت له أحلامه فى الأوقات التى كان ينسى فيها نفسه ويترك شراعه للرياح السعيدة.

وربما أن المرة الوحيدة التى أحسست فيها أن ظروف بطرس غالى وقفت فى طريقه كانت سنة ١٩٦٤ حين اقترحت اسمه على الرئيس جمال عبدالناصر ليكون واحدا من أعضاء مجلس الأمة المعينين. وأتذكر أننى قلت للرئيس جمال عبد الناصر كل الحقائق بشأنه وأهمها أنه حفيد بطرس غالى باشا الذى اغتيل بسبب محاولته تجديد امتياز شركة قناة السويس لخمسين سنة إضافية، وأن معظم القوانين الاشتراكية انطبقت عليه وعلى كثيرين فى أسرته، ثم إنه متزوج من سيدة يهودية تنتمى إلى أسرة «نادلر» التى تملك واحدا من أكبر مصانع الحلوى فى الإسكندرية.

ولم يتوقف الرئيس جمال عبد الناصر عند شىء مما قلته، وحسبت اقتراحى مقبولا منه. لكنه فى اليوم التالى اتصل بى مبكرا يسألنى: «هل فاتحت بطرس غالى فى شىء؟» وأجبت بالنفى (فقد علمتنى الظروف دائما ألاَّ أستبق الحوادث إلا حينما تؤكد نفسها أمامى فى يقين لا يداخله شك). وقال: «الحقيقة إن لى الآن رأيا مختلفا».

ثم استطرد جمال عبد الناصر: «كون أنه حفيد بطرس غالى مسألة لا تؤثر فى شىء، فنحن لا نستطيع أن نأخذ الأحفاد بماضى الأجداد.

وكون أن القوانين الاشتراكية انطبقت عليه لا يعنى إخراجه من الحياة العامة، وهو بالفعل أستاذ فى الجامعة، وهو «معكم» فى الأهرام.

وكون أن زوجته يهودية مسألة لا تزعجنى فى حد ذاتها ولا تسبب لى حرجا. لكن

المشكلة ـ كما ظهر من تقرير جاءني ـ أن لها أقارب من الدرجة الثانية على الأقل يعيشون في إسرائيل ويعملون هناك».

وقلت لجمال عبد الناصر إن «تلك مسألة لم أكن أعرفها وأستطيع أن أفهم تردده حيالها رغم اعتقادي أن بطرس يمكن أن يكون عضوا نافعا في مجلس الأمة خصوصا في أعمال اللجان». وكان ذلك ما تصورته له بالفعل، فقد كان صعبا أن أتصوره متكلما أو خطيبا يهز المنبر تحت القبة لأن لغته العربية لغة «خواجات» كما كان يقول بنفسه، ثم إنه واحد من الناس الذين يتجلى أداؤهم داخل قاعة مغلقة، لكن أداءهم يتعطل إذا وقفوا على مسرح مفتوح!

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي اعترضت فيها ظروف بطرس طريقه لكنها لم تعترضه إلا للحظة، وعاد طريقه بعدها كما كان قبلها مفتوحا أمامه بغير عوائق.

□ □ □

إن بطرس غالي (كما روى هو في كتابه صفحة ٨٩) لم يكن في حاجة إلى نبوءة عَرّافٍ من بورما يبشره بحظوظه السعيدة، رغم كل وساوسه الداخلية.

إن آلهة الحظ كانت معه من أول يوم له في الحياة، وهو يذكر ذلك في كتابه، متناثرا على عدة صفحات، لا يكف فيها عن الإشارة إلى أن أسرته كانت في مقدمة نادي المائتي أسرة التي علا شأنها في ظل النفوذ الأجنبي والاحتلال البريطاني لمصر طوال النصف الأخير من القرن التاسع عشر وطوال النصف الأول من القرن العشرين. وهو يقول إن هذه المائتي أسرة احتكرت سلطة الحكومة وثروة البلد، وعاشت على قمة الهرم الاجتماعي المصري في قصورها الموزعة بين أحياء القاهرة الراقية (وقتها!)، وشواطئ الإسكندرية الحالمة (وقتها أيضا!)، ثم مغاني أوروبا وملاهيها ثلاثة أو أربعة أشهر من صيف كل سنة.

وتحت العيون الساهرة لآلهة الحظ فإن بطرس ـ وكما يروي بنفسه ـ مشى من طفولة محاطة بالثراء، إلى صبا عنده كل ما يريد، إلى شباب ينتظره مستقبل لاقاه فعلا عندما عاد من بعثة إلى فرنسا لكي يقوم بالتدريس في جامعة القاهرة، ثم دخل الأهرام في البداية صديقا شخصيا لصاحب أكبر نصيب في الشركة المالكة له وهو «بشارة تقلا». وكان دخوله متقاربا في التوقيت مع الظروف التي عُرِضَت عليّ فيها رئاسة

تحرير الأهرام، وكان «على الشمسى» (باشا) الذى نقل إلىّ العرض، واحدا من أبرز أعضاء مجلس إدارة الشركة المالكة. وكان رأيى قد استقر على القبول شرط أن تكون لى صلاحية مطلقة لا يتدخل فى عملى أحد ـ إلا مجلس الإدارة فى حدود اختصاصه. لكن بشارة تقلا ـ ربما بعد شهرين أو ثلاثة من قيامى على رئاسة تحرير الأهرام ـ جاءنى على استحياء يقول إن لديه طلبين يتمنى لو أجبته إليهما.

كان طلبه الأول أن أعطى صديقا له وهو بطرس غالى فرصة للعمل فى الأهرام الاقتصادى.

وكان طلبه الثانى أن أمنع عدوا له (لطفى الخولى) من دخول الأهرام.

وكان ردى أننى متحمس لقبول طلبه بالنسبة لبطرس غالى، فقد قابلته أثناء دراستى لمشروع الأهرام الاقتصادى وأعتقد أننى على استعداد لترشيحه ـ أمام مجلس الإدارة ـ رئيسا لتحرير الأهرام الاقتصادى وليس محررا فقط. وبالفعل فإننى طلبت مشورة من الإدارة القانونية فى جواز الجمع بين رئاسة تحرير مجلة، وبين العمل فى هيئة التدريس فى الجامعة.

وأما بالنسبة للطلب الثانى الخاص بعدوه (لطفى الخولى والذى كان بشارة تقلا يتهمه بتأجيج النار بينه وبين شقيقته «بتسى» فى ظروف خلافهما على الإرث) فقد قلت إننى قابلت لطفى الخولى قبل يومين فعلا وعرضت عليه أن يعمل محررا فى الأهرام، وبالتالى فإن الأمر سبقه وسبقنى !

وهكذا أصبح بطرس غالى أستاذا فى الجامعة ورئيسا لتحرير الأهرام الاقتصادى، وبعد ذلك رئيسا لتحرير مجلة «السياسة الدولية». وكان الهدف من إصدارها أن تكون مجالا لنشر نتاج مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية الذى أسسته سنة ١٩٦٤ (واكتمل تسجيله سنة ١٩٦٨)، وكذلك أصبح بطرس زميلا وصديقا لسبعة عشر عاما جمعنا فيها الأهرام.

□ □ □

كان تقدمه فى هذه الفترة متصلا، بهدوء ولكن بثقة، ولم يكن هناك ما يستدعى وساوسه الداخلية من «أنه مسيحى فى بلد مسلم»، لأن أقباط مصر حالة مختلفة ونادرة فى التاريخ ذلك أن مصر بلد شد كل مواطنيه إلى الضفاف السمراء لنهره الوحيد، ونسج

حياتهم معا بساطا أخضر اللون تحيط به الرمال الصفراء من الشرق والغرب تحتضنه من كل جانب تحميه وتصد عن كل من فيه. كذلك لم يكن هناك ما يستدعى الوساوس بالنسبة لضلوع عائلته فى الخيانة (حسب قوله)، فالغالب أن بطرس غالى (باشا) لم يكن خائنا وإنما كان سياسيا تَصَرَّف فى عصره بظروف ومعايير ذلك العصر، ثم إنه اجتهد وفق ما رأى، وحتى إذا اختلفت الآراء فى تقييم دوره فإن إيقاظ أشباح الماضى البعيد بضرب المطارق صخب لا لزوم له. وأخيرا فإن الزواج من يهودية وُلِدَت وعاشت حياتها بالكامل فى مصر ليس فيه ما يدعو للاعتذار خصوصا أن زوجته «ليا» بالفعل سيدة متميزة.

كانت آلهة الحظ معه رغم كل وساوسه، وقد سجل لها فى كتابه صنيعها، لكنه سجل ولم يعترف.

وأتذكر عندما كنت أناقش بطرس غالى مستشهدا بما حققه بالفعل فى حياته العملية رغم كل ما تقول به وساوسه الداخلية - أن رده دائما كان «بأن ذلك أتيح له بسبب عمله فى الأهرام». وكنت أقول له إنه يترك أوهامه تغذى وساوسه، فهو قادر داخل الأهرام أو خارجه أن يواصل تقدمه دون عوائق.

وحين قضت ظروف الخلاف السياسى بين الرئيس السادات وبينى أن أترك الأهرام فإن وساوس بطرس أصابته بنوبة اكتئاب أُبلِغت بها، واتصلت أذكره بما كنت أقوله له باستمرار عن وساوسه حين تضخمها أوهامه.

وبالفعل فلم تمض غير أشهر حتى كانت آلهة الحظ تمارس دورها مع بطرس غالى، وقد وضعت أمامه وعلى طبق من فضة هدية لم تكن على باله وقتها، وخصوصا أنها من الأصل لم تكن مقدمة إليه، وإنما جاءته لأن المقصود بها لم يشأ قبولها لأسباب كثيرة متداخلة.

كان المقصود بالهدية هو الدكتور «مجدى وهبة»، وهو نموذج فريد لإنسان ومثقف مصرى كبير لم ينل حقه من العرفان العام الذى كان يستحقه كأستاذ يقل نظيره فى الجامعة المصرية، وكمسئول ملهم ومحرك من وراء الستار لعدد من أهم الإنجازات الثقافية زمن الستينيات فى مصر.

وكان الدكتور «مجدى وهبة» بعد انتهاء مدة خدمته الرسمية قد أعطى وقته للجامعة، وكرَّس اهتمامه للإشراف على بعض رسائل الدكتوراه التى تهمه موضوعاتها كأستاذ فى الأدب الإنجليزى.

وبمحض مصادفة فإن السيدة «جيهان السادات» طلبت إليه أن يكون مشرفا على رسالتها لنيل الدكتوراه، وكانت عن «شيللى» شاعر الرومانسية الإنجليزى الأشهر. والراجح أن «مجدى وهبة» اقترح على طالبته أن تستعين بالدكتور «لويس عوض» وهو الناقد الأدبى للأهرام فى ذلك الوقت، وبالفعل فإن السيدة «جيهان السادات» دعت «لويس عوض» لتقرأ معه وتسمع منه.

لكن الطالبة «جيهان» كانت فى نفس الوقت زوجة رئيس الجمهورية «أنور السادات»، وهكذا فإن الصلة التى قامت بين الطالبة والأستاذ المشرف على رسالتها أنشأت بالصداقة العلمية ما دعاها إلى ترشيح «مجدى وهبة» لمنصب الوزارة، وهو بالتأكيد مستحق له وبجدارة لا تتوافر لكثيرين غيره وخصوصا فى مجالات الفكر والثقافة.

لكن «مجدى وهبة» كان قد وصل بعد تجربة طويلة إلى موقف المثقف المعتزل، وقدم اعتذاره عن الوزارة لتلميذته، وعندما ألحت عليه بمقولة أن العائلات القبطية الكبيرة لابد لها أن تلعب دورها فى نظام زوجها ـ كان اقتراحه عليها أن تفكر فى ترشيح صديقه «بطرس غالى» بدلا منه ـ فهو على خلافه طامح للمنصب مهيأ له وقادر عليه ـ وقبلت منه تلميذته.

كان «مجدى وهبة» صديق عمر لـ«بطرس غالى» رغم أن المسافة بين طبيعة كل منهما واسعة شاسعة، مع تماثل غريب فى الظروف الدينية والعائلية والشخصية بين الاثنين.

□ □ □

وتلك قصة أخرى طويلة، لكن المهم هنا أن هدية الوزارة تحولت من «مجدى وهبة» إلى «بطرس غالى»، وكان التمهيد لها أن يدخل «بطرس غالى» إلى الحزب الوطنى عضوا فى المكتب السياسى، ومن ثم يصبح مؤهلا للنقلة الكبيرة. وقبل شهر واحد من تلك الرحلة الأغرب فى التاريخ المصرى والعربى، وهى رحلة «السادات» إلى القدس سنة ١٩٧٧ ـ وصلت هدية الوزارة إلى «بطرس غالى» فأصبح وزيرا للدولة ملحقا بمكتب رئيس الوزراء «ممدوح سالم»، ومن هنا كان على استعداد لركوب الطائرة إلى القدس بعد أن امتنع «إسماعيل فهمى» عن ركوبها ثم فشل نائبه «محمد رياض» فى اللحاق بها

لسوء فهم وقع فى حوار بينه وبين «حسنى مبارك» نائب الرئيس الذى سأله نيابة عن الرئيس «السادات» إذا كان مستعدا للسفر إلى القدس، وكان رده أنه غير مستعد (وكان يتحدث عن الأوراق الضرورية لرحلة بهذه الدرجة من الخطورة ولم يكن يتحدث عن الرحلة فى حد ذاتها).

وهكذا كان هناك مقعد خال فى الطائرة لوزير، وصعد «بطرس غالى» على سلالم الطائرة وجلس عليه، وبقى جالسا عليه.

وليس مهما أن يكون ذلك فعل مصادفات أو ترتيبا مبيتا من الرئيس «السادات» عندما أدخله الوزارة قبلها بشهر واحد - وإنما المهم أن آلهة الحظ كانت هناك.

□ □ □

وفى تلك الفترة من حياة «بطرس غالى» التقينا عدة مرات وكنت سعيدا من أجله، لكن سعادتى لم تمنع عتابى عليه مرتين: مرة لأنه جر مصر إلى الالتحاق - على نحو ما - بمجموعة الفرانكوفون التى تسيطر عليها فرنسا (بمقولة وحدة الدول الناطقة باللغة الفرنسية)، ومرة أخرى بسبب الإسراع غير المبرر فى عمليات التطبيع مع إسرائيل (وقد أشار هو إلى ذلك فى صفحة ٢٢٢ من كتابه).

ومهما يكن وبرغم المنصب الوزارى فقد كانت الشواهد أمامى موحية بأن وساوس بطرس غالى ظلت معه جالسة بجواره على مقعده الذى طالما تمناه، ولعل هذه الوساوس هى التى دفعته إلى اتخاذ منصب الوزارة قاعدة انطلاق إلى رئاسة منظمة دولية كبيرة، فقد خطر له أنه فى مثل هذا المكان يستطيع الاطمئنان! وفى البداية راودته فكرة أن يصبح أمينا عاما لمنظمة الوحدة الأفريقية، وفى هذه الفترة بدا وكأنه أعاد اكتشاف أفريقيا بالنسبة للسياسة الخارجية المصرية مع أن مصر كانت عضوا مؤسسا لمنظمة الوحدة الأفريقية ومضيفا لقمة أفريقية سنة ١٩٦٤.

لكن الأمانة العامة لمنظمة الوحدة الأفريقية آلت إلى وزير خارجية تانزانيا. وتحولت أنظار بطرس غالى إلى منصب المدير العام لليونسكو (منظمة الثقافة والعلوم التابعة للأمم المتحدة)، ومرة ثانية ضاعت الفرصة من بطرس غالى وحصل عليها وزير الثقافة الإسبانى. ولم تتوقف المحاولات، وإنما تواصلت لمنصب مفوض الأمم المتحدة لشئون اللاجئين بعد أن استقال منه الأمير «صدر الدين أغا خان» الذى شغله متطوعا (بمرتب

رمزى قدره دولار واحد) لأكثر من عشر سنوات ـ لكن العالم وجد لشئون اللاجئين سيدة من اليابان سبقت بطرس غالى وفازت قبله بالجائزة.

ولبعض الوقت بدا وكأن آلهة الحظ نسيت بطرس غالى وتركته يؤقلم نفسه على البقاء فى مصر مهما كانت وساوسه. وبدا أن عملية التأقلم تلك تجرى فعلا، وسمعته أكثر من مرة فى تلك الأيام يطمئن نفسه بقوله «إنه مستريح فى الوزارة مع حسنى مبارك لأنه رئيس لا يغير وزراءه بسهولة أو بسرعة».

وأظنه فى أعماقه كان يشعر أن ذهابه إلى القدس وثيقة تأمين إضافية على منصبه كوزير. ولكنه فى أعماق أعماقه لم يكن قادرا على الاطمئنان بالكامل لضمان تَمَسُّك «حسنى مبارك» الطويل بوزرائه، ولا لقوة وثيقة التأمين الإضافية التى أعطته إياها رحلة القدس!

□ □ □

وفجأة عادت آلهة الحظ إلى بطرس غالى تؤكد له أن الهمس المكبوت من هواجسه نتيجة لوساوسه وصل إلى سمعها وإلى سمع أصدقاء لها آخرين.

كان منصب الأمين العام للأمم المتحدة قد خلا بعد انتهاء مدة الخدمة الثانية لـ«بيريز دى كويلار»، وراحت الدول الأفريقية تطالب أن يكون الأمين العام القادم من أفريقيا إعمالا لمبدأ تداول المنصب بين القارات. وبالفعل فإن الدول دائمة العضوية فى مجلس الأمن وهى صاحبة الكلمة الأولى والأخيرة فى المنظمة الدولية أبدت قبولها بمطلب أفريقيا، ولعل بعضها تصور أن القارة السوداء لن تستطيع العثور على مرشح مناسب، وأنه إذا ظهر مثل هذا المرشح فلن تستطيع دول القارة أن تتفق عليه.

وتقرر على مستوى القمة الأفريقية فى «أبوجا» عاصمة نيجيريا تكليف لجنة خاصة من وزراء الخارجية الأفارقة بوضع قائمة بأسماء خمسة مرشحين تتقدم بهم القارة إلى مجلس الأمن يختار واحدا منهم يطرح اسمه على الجمعية العامة للأمم المتحدة. وكانت وجهة نظر الرؤساء أن ترشيح خمسة يكفل ألاَّ يكون هناك مرشح واحد تعترض عليه الدول الكبرى فيسقط ـ وبذلك يضيع حق أفريقيا.

وعندما عُرضت قائمة المرشحين الخمسة لاحظ بعض الرؤساء أن معظم الأسماء فى القائمة من الدول الأفريقية الناطقة بالإنجليزية (الأنجلوفون) مع غياب واضح

للدول الناطقة بالفرنسية (الفرانكوفون). وفجأة تدخل الرئيس الزائيرى الماريشال «موبوتو» الذى قفز إلى الماريشالية من رتبة نفر ثم عريف فى الجيش غداة استقلال الكونجو.

[وكان طريق «موبوتو» من رتبة نفر إلى رتبة ماريشال قد مَرَّ عبر علاقات غريبة مع شركات احتكار دولية كبرى للماس والنحاس والكوبالت مثلا، ومع وكالات مخابرات غربية متعددة من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية إلى المخابرات الفرنسية الخارجية والتى كان يشرف عليها فى ذلك الوقت مديرها الأسطورى المشغول بأفريقيا، وهو الكونت «ألكسندر دى ميرانش».]

كان تدخل «موبوتو» بصيغة عامة وبصيغة مباشرة :

قال أولا إن هذه القائمة لا بد من تعديلها لكى تضم مرشحين أفارقة من «الفرانكوفون».

ثم أضاف موجها كلامه مباشرة إلى الدكتور بطرس غالى قائلا له : «وأنت يا بيير ألا تريد أن تضيف اسمك إلى القائمة خصوصا وأنت فرانكوفون وأنجلوفون - وعرب فون أيضا ؟»

ويقول الدكتور بطرس غالى وقد روى لى القصة بنفسه «إنه فوجئ باقتراح موبوتو وطلب مهلة لأخذ إذن الرئيس مبارك. وبالفعل حاول الاتصال برئاسة الجمهورية فى القاهرة (بالدكتور «مصطفى الفقى» مدير مكتب الرئيس للمعلومات أيامها) لكن خطوط التليفون من «أبوجا» لم تستجب له، وفى النهاية لم يجد حرجا فى أن يقبل بعرض موبوتو ويترك اسمه على قائمة المرشحين الخمسة، وقد أصبحوا به ستة، على أساس أنه عائد إلى القاهرة وفيها سوف تتاح له الفرصة لاستئذان الرئيس، فإذا وافق فهو خير، وإذا لم يوافق فليس هناك ضرر لأنه يستطيع أن يتصل تليفونيا أو برقيا ويطلب رفع اسمه من القائمة !

□ □ □

وعندما عاد بطرس غالى إلى القاهرة كان هناك تعديل وزارى، فقد انتخب الدكتور عصمت عبد المجيد وزير الخارجية أمينا عاما للجامعة العربية، وأصبح عمرو موسى وزيرا لخارجية مصر بدلا منه.

كان بطرس غالى قد عانى من غموض اختصاصاته كوزير دولة للشئون الخارجية مع كل وزراء الخارجية الذين عمل معهم، وهم محمد إبراهيم كامل، ثم كمال حسن على، ثم عصمت عبد المجيد.

وبرغم أنه تمنى أن يكون وزيرا أصيلا للخارجية فإن المنصب ـ وهو بالتأكيد يستحقه ـ أفلت منه ـ وبرغم المرارة من تخطيه عدة مرات ـ وهى ظاهرة فى مواضع كثيرة من كتابه ـ فإن بطرس غالى كان فى قرارة نفسه يعرف أن ما يريده فى النهاية هو منظمة دولية يرأسها، وهناك فقط تهدأ وتهجع وساوسه.

وعندما عاد من كينشاسا لم يستطع أن يقابل الرئيس مبارك بسرعة، وكتب مذكرة للرئيس أورد فيها عدة رغبات.

الرغبة الأولى أن يجرى تقسيم الاختصاصات بوضوح بينه وبين عمرو موسى.

والرغبة الثانية أن يأخذه الرئيس مبارك معه فى «زيارة دولة» دعى فيها إلى بريطانيا.

والرغبة الثالثة أن يوافق الرئيس على إدراج اسمه فى كشف المرشحين الأفارقة لمنصب الأمين العام للأمم المتحدة، وأن يكتب مجموعة رسائل إلى عدد من الدول الأفريقية والآسيوية يحملها بطرس بنفسه إليهم تزكية لترشيحه.

وكتب الرئيس مبارك بخط يده على المذكرة تأشيرات إزاء كل رغبة :

بخصوص الرغبة الأولى كانت تأشيرة الرئيس مبارك بما معناه أنه يفضل أن يبحث بطرس غالى هذه المسألة (تقسيم الاختصاصات) مع وزير الخارجية الجديد.

وبخصوص الرغبة الثانية كانت تأشيرة الرئيس مبارك بما معناه أنه لا يستطيع فى أول «زيارة دولة» له إلى بريطانيا أن يترك وزير خارجيته الجديد وراءه فى القاهرة وإلا فإنه بذلك يضعف مركزه.

وأما بخصوص الرغبة الثالثة فقد كانت تأشيرة الرئيس مبارك ـ ولعله كان يستشعر الرغبة الدفينة فى نفس وزيره ـ بما معناه «إنه يوافق شرط أن تكون لبطرس فرصة معقولة فى النجاح وإلا تحول الترشيح إلى هزيمة دبلوماسية لا داعى لها».

وكان هناك كثيرون فى مصر يَشُكُّون فى وجود فرصة حقيقية لبطرس غالى رغم أن نشاطه فى تحصيل ما يريد زاد واتصل إلى حد أن ديوان المحاسبات كتب تقريرا

إلى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت يستلفت النظر إلى زيادة الاعتمادات المخصصة لسفريات وزير الدولة للشئون الخارجية فوق أى تقدير متفق عليه.

والحاصل أن القاهرة راحت تدفع التكاليف، وفى نفس الوقت فإن باريس راحت ترسم الخطط وتقوم بالاتصالات، وذلك مما يمكن فهمه وتبريره وقتها لأن بطرس غالى كان أفضل المرشحين الأفارقة بالقطع.

وربما أن آلهة الحظ تدخلت مرة أخرى لصالح بطرس غالى، وعلى تعارض مع وساوسه، ذلك أن الدبلوماسية الأمريكية كانت تراهن على أن أفريقيا لن تستطيع أن تجيء بمرشح مناسب، ثم تتفق دولها عليه. وكان الترتيب الأمريكى اعتمادا على هذا الرهان أن المجال سوف ينفسح فجأة لمرشح آخر حتى إن كان غير أفريقى تدفعه الولايات المتحدة.

وكانت هناك أسماء غير أفريقية تظهر فى الأجواء وقتها، وفى الصدارة منها اسمان : الأمير «صدر الدين أغا خان» (المفوض العام السابق لشئون اللاجئين)، ثم «برايان مالرونى» رئيس وزراء كندا، وكلاهما راغب فى المنصب ومؤهل له.

□ □ □

ثم ظهرت إشارات توحى بوجود تباين فى موقف السياسة الأمريكية حيال هذين الرجلين: ذلك أن البيت الأبيض، ورئيسه «جورج بوش» فى ذلك الوقت، راح يميل إلى ترشيح «صدر الدين أغا خان» وهو صديق قديم له، و«بوش» يعرف كفاءته ويقدرها.

لكن «جيمس بيكر» وزير الخارجية لم يكن يريد «صدر الدين أغا خان» لأسباب أولها أنه لا يريد سكرتيرا عاما للأمم المتحدة يستطيع أن يتصل بالمكتب البيضاوى فى البيت الأبيض من فوق رأس وزير الخارجية ــ وثانيها أن «صدر الدين أغا خان» بمكانته واتصالاته وثروته يستطيع أن يعطى استقلالية لمنصبه قد لا تكون ملائمة من وجهة نظر الدبلوماسية الأمريكية !

وكان «جيمس بيكر» أنشط من «جورج بوش» وخصوصا فى الظروف التى أعقبت حرب الخليج الثانية، وقد بدا أيامها وبعد تلك الحرب وكأن «بيكر» هو المدير المسئول عن المسرح السياسى الدولى.

وفى نفس الوقت فإن «صدر الدين أغا خان» لم يتحرك بالقدر الكافى داعيا لنفسه

فى مجتمع الدول، وربما كان يشعر أن شخصيته هى التى يجب أن تدعو له أكثر من اتصالاته، ومن سوء حظه أنه لم يكن يتمتع بتأييد دولة أو بتجمع إقليمى وراءه لأن جنسيته ظلت ملتبسة بين باكستان وإيران.

أتذكر أننى ناقشت ترشيح الأمير «صدر الدين أغا خان» مع الدكتور بطرس غالى مباشرة عندما حدثنى ذات مرة عن فرصته فى منصب السكرتير العام للأمم المتحدة ابتداء من اقتراح «موبوتو» إلى تأييد «ميتران» إلى موافقة «مبارك»، وقد سألته «إن كان قد اتصل بصدر الدين أغا خان ونسق معه ؟» وكان رده أنه اتصل فعلا بصدر الدين أغا خان الذى قال له «إنه ـ شخصيا ـ لا يطرح نفسه كمرشح لكنه يقبل الترشيح إذا طلبت الدول المعنية منه ذلك، وهو لا يدعو لنفسه وإنما ينتظر دعوة وإذا لم تجئ فهو خارج السباق».

وبمعرفتى الوثيقة بصدر الدين أغا خان فقد حسبت أن يكون ذلك بالفعل موقفه، لأنى سمعته مرات منه واعتبرته غير عملى لأن مجتمع الدول لن يذهب إلى أى رجل مهما كانت قيمته طالبا منه أن يتفضل بترشيح نفسه سكرتيرا عاما للأمم المتحدة، وإنما على هذا الرجل أن يقدم نفسه ويحرك وسائله وصلاته !

□ □ □

وكان بطرس مستعدا، وقال ذلك لصدر الدين أغا خان، ولم يعارض صدر الدين وإنما قال له إن ذلك حقه. ومضى بطرس إلى أبعد من ذلك خطوة فسأل صدر الدين أغا خان أن يساعده لدى صديقه الرئيس «جورج بوش»، ورد صدر الدين أغا خان طبقا لرواية بطرس غالى قائلا : «لماذا تطلب منى أن أساعدك وأنتم من أقرب الأصدقاء إلى أمريكا ؟»

وفى تباين الآراء بين «بوش» و«بيكر» ضعفت حظوظ «صدر الدين أغا خان» و«مالرونى» معا.

وكانت آلهة الحظ ما زالت تعمل لبطرس غالى بالرغم من كل وساوسه !

كان الاعتقاد السائد أن عملية التصويت فى مجلس الأمن لاختيار سكرتير عام للأمم المتحدة سوف تستغرق وقتا طويلا، وكانت لعبة حسابات الأصوات واستبعاد المرشحين بتفويت الفرص عليهم ـ حتى بإهدار الأصوات فى البداية على مرشحين لا أمل لهم ـ على وشك أن تمارس دورها حين حدثت المفاجأة فإذا بطرس غالى يحصل على عدد من

الأصوات يزيد بصوت واحد عما حصل عليه المرشح التالى بعده (حصل على أحد عشر صوتا) !

□ □ □

وكانت وزارة الخارجية الأمريكية غير متحمسة لترشيح بطرس غالى رغم تقديرها لكونه وزير الشئون الخارجية الوحيد الذى رضى بمرافقة الرئيس «السادات» فى زيارته للقدس فى حين اعتذر أو تردد آخرون - وكانت لدى وزارة الخارجية الأمريكية ثلاثة أسباب تبرر فتور حماستها لبطرس غالى :

١ - أن سنه متقدمة، فهو من مواليد ١٩٢١ أى أنه تجاوز السبعين يوم ترشيحه.

٢ - أن العمل فى المرحلة القادمة فى الأمم المتحدة ومع مقولات نظام عالمى جديد يتطلب كفاءة إدارية وليس تجربة أكاديمية.

٣ - أن التقاليد فى اختيار سكرتير عام للأمم المتحدة جرت على أن يكون اختيار السكرتير العام من بلد متباعد عن مشاكل الإقليم الذى يعيش فيه، وليس ذلك حال مصر فى منطقة الشرق الأوسط.

وتوسطت أطراف عدة، وكان أهمها الطرف الفرنسى الذى وضع كل ثقله وراء بطرس غالى، ومع نتيجة التصويت فإن وزير الخارجية الأمريكى قَبِل ترشيح بطرس غالى على أساس وعد يسجله على نفسه بألا يسعى للترشيح لمدة ثانية، وكان لوزير الخارجية الأمريكى ما أراد.

وهكذا وضعت آلهة الحظ فى يد بطرس غالى أكبر جائزة دبلوماسية فى العالم، وكان ذلك كفيلا بتخليصه نهائيا من كل وساوسه. وبدا أن ذلك ممكن من استقراء أول تعليق لبطرس غالى على أحد مهنئيه فى باريس (كان فى العاصمة الفرنسية حين أُعْلِن انتخابه). فقد قال بطرس لهذا المهنئ الأول : «الآن لم يعد فى مقدور أحد أن يقول لى إن «عصمت بك» يريد هذا أو أن «عمرو بك» يريد ذاك، فأنا الآن «بطرس باشا».

وكان التعليق مُعَبِّرا عن إحساس بطرس غالى بالخلاص - وربما بالانعتاق - من وزراء الخارجية الأصليين الذين عمل معهم، كما كان مُعَبِّرا أيضا عن سعادته الغامرة بوصوله أخيرا إلى حلم حياته الذى فاق كل تصوراته !

□ □ □

وهناك فى مكتب السكرتير العام للأمم المتحدة وضع بطرس غالى كتابه الأول «طريق مصر إلى القدس»، وهو قصة تجربته كوزير، وتجربته كعضو أساسى فى وفد الرئيس السادات طوال ما سمى بمسيرة السلام بدءا من المبادرة فى نوفمبر ١٩٧٧ ونهاية بالمنصة فى أكتوبر ١٩٨١.

ولم أكن أتوقع منه أن يكتب كما قلت، ومع ذلك سعدت بشكل ما لأن بطرس غالب وساوسه وتوقعاتى - وغلبها. والحقيقة أن إقدامه على الكتابة كان رغبة وجدتها على غير انتظار متحققة أمامى، والسبب أنى كنت أتمنى صدور شهادة مسجلة عن مسيرة السلام يكتبها واحد من الذين شاركوا فيها وبقوا حتى النهاية إلى خواتيمها.

كان أكثر خوفى ألاّ يكتب من هؤلاء المشاركين أحد، ومن ثم لا يظل مسجلا للتاريخ غير شهادة الذين عارضوا ما سمى بمسيرة السلام وأساءوا الظن بها فى مرحلة أو أخرى، وذلك من شأنه الإخلال بتوازن الموضوع إذ تغيب الفرضية الأصلية فيه ويبقى نقيضها وحده.

ودون تواضع ودون ادعاء لا لزوم لأيهما فقد كنت أول من تشكك وأساء الظن، وأعلن موقفه منذ اتفاقية فك الارتباط الأول، وأكثر من ذلك فإنى توقعت صراحة أن النتيجة الوحيدة التى يمكن أن تنتهى إليها هذه المسيرة بالطريقة التى بدأت بها لن تزيد على صلح منفرد بين مصر وإسرائيل، معظمه لحساب إسرائيل ومعظمه على حساب مصر - ثم فوضى فى مشروع النظام العربى تهدد وجوده من الأساس.

□ □ □

لكن عدد الذين تشككوا وساء ظنهم زاد.

على طريق القدس توقف «إسماعيل فهمى» وقدم استقالته فى اللحظة الأخيرة وعلى عتبة الباب إلى المبادرة.

وعلى طريق كامب دافيد توقف «محمد إبراهيم كامل» وقدم ما أظن أنه أصدق شهادة عن مسيرة السلام ومن قلب المبادرة وعقر دارها.

غير «إسماعيل فهمى» و«محمد إبراهيم كامل» بدأت حركة أحزاب ومؤسسات وهيئات، ثم ارتفعت أصوات رجال من ذوى العزم من أمثال «ممتاز نصار» و«محمود

رياض» و«فتحى رضوان» وغيرهم، والكل يتساءل : ما هى الحقيقة، وما الذى جرى بالضبط، وإلى أين ؟!

لكن الذين واصلوا المسيرة إلى النهاية لزموا الصمت.

والشاهد أن الذين كانوا يستطيعون الكلام من موقع معرفة واطلاع لم يزيدوا على خمسة رجال ليس أكثر، وهم الرئيس «السادات» أولا، والمستشار «أسامة الباز» بعده، ثم الدكتور «مصطفى خليل» رئيس وزرائه فى مرحلة مهمة من «المسيرة»، والمهندس «عثمان أحمد عثمان» وكان دوره فى العملية كلها محسوسا وإن لم يكن ــ بنفس المقدار ــ ملموسا، ثم الدكتور «بطرس بطرس غالى».

والرئيس «السادات» قال ما شاء وكما شاء، ثم مضى إلى رحاب ربه ولم يعد فى مقدوره أن يضيف زيادة.

والمستشار «أسامة الباز» له وضع خاص معقد وحساس، وهو يفرض عليه قيودا ليس معروفا مداها.

والدكتور «مصطفى خليل» عزوف عن الكتابة، وهو فنى ممتاز جذبته السياسة بشدة إلى مجالها، لكنه أول من يدرك أن الكتابة ليست حرفته كما أنها ليست هوايته.

والمهندس «عثمان أحمد عثمان» حريص على إخفاء دوره، ثم إن حالته الصحية غيبت ذاكرته، وحتى إذا عادت هذه الذاكرة فمن المشكوك فيه أن الرجل سوف يتكلم أو يكتب.

وكان الخامس هو الدكتور «بطرس غالى»، ولم أكن أظن أنه سيكتب، لكنه تجاوز ظنونى وفعلها !

□ □ □

وعندما عرفت أن كتاب بطرس غالى على وشك الصدور كان فضولى شديدا إلى نسخة منه، وبالفعل فقد وصلتنى واحدة من تلك النسخ التى ترسل مبكرا للنقاد قبل أن يصدر الكتاب، وهى فى الواقع «بروفة تصحيح» كما يسمونها فى المهنة.

ورحت أقرأ الكتاب باهتمام شديد، وظنى أننا بعد طول الصبر والشك أمام وجهة النظر الأخرى، وكاتبها هو بطرس غالى أستاذ الجامعة، والصحفى المحلل المدقق، والعارف بالدوافع والحقائق والأسرار بحكم القرب والمشاركة.

وتركت نفسى مع الكتاب صباحا كاملا على شاطئ البحر فى الإسكندرية وفرغت منه، ورحت أطيل النظر وأتأمل.

ومضت أيام ثم وصلت النسخة العربية إلى مكتبى فى القاهرة، وعدت إلى قراءة الكتاب مرة أخرى، وإذا رأيى فى الكتاب - أصلا وترجمة - يلخصه سؤال واحد :

- «لماذا كتب ؟»

وكان سؤالى من وجهة نظره هو وليس من وجهة نظرى الشخصية.

من وجهة نظرى الشخصية كان كتاب بطرس غالى يؤكد كل ما لمحته قادما من ساعة فك الارتباط الأول على الخطوط فى سيناء فى ديسمبر سنة ١٩٧٣، ثم ما رأيته محققا مع فك الارتباط الثانى فى سبتمبر سنة ١٩٧٥، ثم ما تأكد لى ولغيرى حين وقعت تلك الزيارة إلى القدس وانتهت إلى مهزلة أو مأساة كامب دافيد فى سبتمبر سنة ١٩٧٩. وأما بالنسبة له هو بطرس غالى فما الذى يقوله هذا الكتاب أو يؤكده، أو ينفيه ؟!

وربما أن كتاب بطرس غالى يوحى بأن آلهة الحظ فيما يبدو اطمأنت على أنها وضعت صاحبها فى مكان فاق وتَفَوَّق على كل أحلامه، وهناك تصورت أنها وقد فعلت له كل ما فعلت - فإنه قادر على أن يدير باله على نفسه وأن يحمل فى يده مهام مستقبله تاركا وساوسه الدفينة فى دواليب ملابسه القديمة فى القاهرة. فهو الآن فى نيويورك، سكرتيرا عاما للأمم المتحدة، مكتبه فى الدور الثامن والثلاثين من مبناها القائم على ضفاف النهر الشرقى، ومسكنه فى ذلك البيت الفخم فى ميدان «ساتون» الجميل، ثم إن صوره فى كل صحيفة وأقواله مع كل نشرة أخبار، وهو مسئول عن ميزانية بالبلايين، وتحت إمرته السياسية قوات تحمل علم الأمم المتحدة الأزرق، ودبابات وطائرات وضباط وجنود متواجدون فى عديد من القارات، وفى مكتبه ومن حوله نخبة من أفضل عقول العالم من كل الجنسيات يعملون مستشارين له أو يرأسون هيئات مستقلة تابعة للأمم المتحدة، وكلهم حاضر تحت تصرفه إذا عَنَّ له أن يسأل فى شىء !

لكن آلهة الحظ - فيما يظهر - كانت متسرعة فى تقديراتها، أو لعلها كانت متفائلة بأكثر من اللازم، أو ربما كانت - وذلك وارد - وقعت فى خطأ يقع فيه الآباء

والأمهات أحيانا إذ يُعَوِّدون أبناءهم زيادة الاتكال عليهم والاعتماد على أنهم فى النهاية وراءهم حرصا عليهم ولهفة.

وهكذا، وفى الغالب - فإن بطرس غالى كتب كتابه الأول ولم تكن آلهة الحظ بجواره، ثم نشره فى غيبتها، وكان ما كان!

□ □ □

من أول نظرة على كتاب بطرس غالى لا يملك أى قارئ غير أن يتحفظ على عنوان الكتاب وعلى إهدائه.

عنوان الكتاب: «طريق مصر إلى القدس»، وكان الأدق والأصدق أن يكون العنوان «طريق السادات إلى القدس» - ذلك أن السادات ذهب لكن مصر حتى هذه اللحظة لم تذهب إلى القدس، وكانت تلك الحقيقة ظاهرة أمام بطرس غالى وكان يكفيه للتأكد منها أن يتذكر أن الأب الأكبر لكنيسته العريقة والتى عاشت تاريخها كله حصنا للوطنية المصرية - وقف شامخا وجليلا يُحَرِّم على المؤمنين فى كنيسته أن يحجوا إلى المدينة المقدسة طالما هى واقعة تحت أسر الاحتلال الإسرائيلى.

كان عليه أيضا أن يتذكر أن رحلة الرئيس السادات إلى القدس كانت بداية المحنة لتلك المدينة المقدسة.

سنة ١٩٦٧ وقعت القدس رهينة للسلاح الإسرائيلى لكنها ظلت محتفظة بروح البطولة أو حتى روح الشهادة، وأما بعد الزيارة - وباستغلالها - فإنها تعرضت للمهانة إلى درجة الانتهاك الإنسانى والتاريخى. وبشهادة كل الأيام والأرقام فإن العدوان على القدس بالاستيطان لم يتحرك وينشط إلا بعد سنة ١٩٧٧ - قبلها كانت إسرائيل تحاذر لأن المستقبل - خصوصا بعد المعركة العظيمة فى أكتوبر سنة ١٩٧٣ - أصبح محفوفا بمخاطر تردع جموح التعصب الصهيونى.

ودون استرسال أكثر من ذلك فى هذه النقطة فلقد كان الأدق والأصدق أن ينسب العنوان مسئولية الطريق إلى من سافر عليه، وكان المسافر هو أنور السادات، وأما مصر فأقصى ما ينسب إليها أنها لم تمنع سفره على الطريق، ولعلها فوق ذلك تمنت له السلامة. على أن تلك حكاية أخرى.

أما التحفظ على الإهداء - بعد التحفظ على العنوان - فداعيه أن الدكتور بطرس غالى

يسلم فى أكثر من موضع فى كتابه بأن جده الأكبر - صوابا كان أو خطأ - واقع فى مصر تحت ظلال من الشك تمس - بحق أو بدون حق - وطنيته. ومع أنى شخصيا لست من أنصار تخوين الرجل كما أوضحت من قبل - فإن ظلال الشك فى الجد كانت أعمق الوساوس فى وعى الحفيد، وقد اعتبرها واحدا من العوائق التى وضعتها المقادير أمام مستقبله مهما فعل.

ومع ذلك فإن بطرس غالى أهدى الكتاب «إلى ذكرى جدى - بطرس غالى باشا - الذى ألهمنى إخلاصه لمصر أن أتبع الطريق دون الالتفات للوراء».

وظنى أن هذا الإهداء لم يكن موفقا، فالوساوس خطرة إذا تحولت إلى مصدر إلهام، ثم إن شجاعة أى إنسان فى التغلب على وساوسه لا تتأتى له بالعناد مع هذه الوساوس، وإنما تتأتى له بسعة صدر تفهم وتتفاهم قبل أن تكابر وتتصادم!

□ □ □

نصل إلى الكتاب وصلبه، بعد عنوانه وإهدائه، وهنا عتابى الشديد، ليس على بطرس غالى، ولكن على آلهة الحظ التى تركته وحده دون أن تقدر بحكمة الآلهة أنه فى موقعه الجديد أشد حاجة إليها مما كان قبله.

بين أسباب عتابى على آلهة الحظ أنها تركت بطرس غالى ضحية سهلة لوساوسه وفريسة فى كل صفحة - وعلى طول ٣٧٠ صفحة - لاستبداد هذه الوساوس وسلطانها.

ومن أفعال هذه الوساوس فإن الكتاب - وصاحبه أستاذ فى الجامعة ورئيس تحرير مجلتين، واحدة فى الاقتصاد والثانية فى السياسة - لا يقدم على الإطلاق خلفية تاريخية أو فكرية أو حتى مناقشة جدية لأية قضية فيما أسماه الكتاب فى السطر الثانى من عنوانه بـ: «قصة الصراع من أجل السلام فى الشرق الأوسط».

والصفحات الأولى من الكتاب بصفة خاصة مزعجة، فآلهة الحظ الغائبة تركت الكتاب يرسم صورة مهزوزة لرجل بدا وكأنه لا يعرف حق نفسه!

□ يُختار وزيرا دون أن يعرف.

□ ويقبل الوزارة دون أن يقول له أحد لأى وزارة اختاروه.

□ وحين أخطروه بعد عدة أيام أنهم اختاروه وزيرا للدولة فإنهم نسوا أن يقولوا له أى اختصاصات أعطوه.

□ وكان شاغله يوم توليه الوزارة هو كيف يؤدى اليمين الدستورية أمام رئيس الجمهورية: «يلبس نظارته أم يخلعها» !

□ وهو يسمع بعد أيام من توليه الوزارة أنه ذاهب إلى إسرائيل مع رئيس الدولة لأن غيره اعتذر وتخلى.

□ وهو يذهب دون أن يعرف أى شىء عن موضوع الرحلة إلى القدس. كيف طرأت كمحاولة لحل صراع إنسانى وحضارى وقومى وإستراتيجى طويل ومعقد ؟ أين بدأت؟ ولأية أهداف تسعى؟ وبأى أسلوب تدار ؟

□ ويجرى تكليفه «نظرا لإعجاب السادات بكتاباتك الفكرية والسياسية ومعرفته باتصالاتك بالدوائر الدولية» (صفحة ١٢ من الكتاب وعلى لسان نائب الرئيس حسنى مبارك) بأن يكتب مشروعا للخطاب الذى ينوى الرئيس السادات إلقاءه فى الكنيست الإسرائيلى وأمام نظر وسمع العالم كله، وهو يشرك معه فى هذه المسئولية صديق عمره (صاحب الهدية الوزارية) الدكتور «مجدى وهبة» ـ لكنه يكتشف وفى الكنيست فقط وأثناء إلقاء السادات لخطابه المرتقب ـ أن الخطاب الذى يسمعه ليس هو الخطاب الذى يعرفه. وهو يستغرب لكنه لا يسأل !

□ ثم يكتشف بعد قليل بذكائه أن المبادرة مقامرة رجل ليست لديه خطة معينة، ليست لديه تصورات واضحة، وليست لديه معلومات متماسكة، وليست لديه ورقة فكر أو عمل واحدة ـ لكنه يقامر، وهو يترك نفسه، يقامر معه، ولا يسأل مثله عن الخسائر ؟ ولا من يدفع حسابها ؟ ولا كيف؟!

□ □ □

وبعض الحكايات التى يرويها الكتاب فى غيبة آلهة الحظ ـ مسلية، لكن دواعى العجب فى مشاهدها حاضرة.

وعلى سبيل المثال ما يرويه الكتاب (فى صفحة ٣١) ـ من أن بعض أعضاء الوفد المصرى المرافق للرئيس السادات إلى القدس اكتشفوا أن عزرا وايزمان وزير الدفاع الإسرائيلى وقتها ـ ورئيس الدولة فى إسرائيل الآن ـ شخصية مؤثرة على القرار لأن

صوته واصل إلى أذن رئيس الوزراء مناحم بيجن، ثم يقررون ـ وبينهم بطرس غالى ـ دعوته إلى مجلس شراب للتأثير عليه !!

والمدهش أننى سمعت الحكاية وكدت أرويها فى الجزء الثانى من كتابى الأخير عن المفاوضات السرية مع إسرائيل. وكان ما سمعته جزءا من حديث على هامش الزيارة دار بين الصحفى الأمريكى «جوزيف كرافت» وبين نائب رئيس وزراء إسرائيل فى ذلك الوقت «سيمحا إيرليخ». وذكر «إيرليخ» لـ«كرافت» ـ طبقا لرواية «كرافت» ـ أن الوفد المصرى راح يسأل باهتمام عن صنف الويسكى الذى يفضله «وايزمان» ؟ وتطوع «إيرليخ» بالإجابة قائلا : إن «عزرا» يفضل «الجونى ووكر ـ بلاك ليبل» ـ وطلب الوفد المصرى عدة زجاجات من هذا الصنف.

لم أرو الحكاية فى كتابى كما قلت لسببين: أولا لأنى سمحت لنفسى بالتشكك فى صدقها رغم أهمية مصدرها وحسن اطلاعه، والحقيقة أنها بدت لى تدبيرا تعثر فى نقطة ما بين التفاهة والبلاهة، وثانيا لأنى تحرجت ـ بعد أن تأكدت ـ فقد تحسبت أن رواية الواقعة ربما تبدو للقارئ إساءة أو تشويها حَرَّضنى عليه اختلاف الرأى.

لكن «طريق مصر إلى القدس» كان أكثر جرأة أو تهورا من مؤلفات سبقته كتبها معارضون للمبادرة. ففى صفحة ١٣ من ذلك الكتاب ترد العبارة التالية بالنص :

«جلسنا ومعنا وايزمان ويادين حول مائدة مستديرة عليها زجاجة ويسكى ودار الحديث بيننا حتى وقت متأخر من الليل، وهكذا كانت زجاجة من الويسكى الأسكتلندى هى بمثابة الخط الساخن الأول للاتصال بين مصر وإسرائيل، إذ كانت هذه الجلسة هى بداية المفاوضات المصرية الإسرائيلية.» !!

(وإذا كانت تلك هى البداية ـ فمن الطبيعى أن تكون هذه هى النهاية !!)

□ □ □

فى غيبة آلهة الحظ ـ يتجرأ الكتاب على صاحبه فإذا الصورة المهزوزة تصبح مفككة أيضا !

فالكتاب يذكر عن صاحبه :

□ أنه حصل على أول وسام له من شيلى على عهد «بينوشيه» الذى يصفه بـ : «أنه

رئيس حكومة رجعية أسقطت التجربة الاشتراكية، وهى تتحمل مسئولية المذابح التى قضت على الحرية فى شيلى» ! (صفحة٤٣)

- وأنه يعرف «أن شاه إيران وحده هو الذى أمد مصر بالنفط أثناء حرب ١٩٧٣» (والصحيح أن شاه إيران كان يمد إسرائيل بالنفط فى كل حروبها مع مصر، بما فى ذلك حرب سنة ١٩٧٣). (صفحة٥٧)
- وأنه ذهب للمشاركة فى تشييع جنازة بابا الفاتيكان وسأل سفير مصر لدى الكرسى البابوى وقتها إذا كان يستطيع حضورها ببدلة «الردنجوت»، ولكن السفير أخطره بأن المطلوب هو بدلة «الفراك». وأخذ بطرس معه بدلة «فراك» تركها ابن عم له توفى، ولكن السفير المصرى فى الفاتيكان وجدها قديمة واستأجر له من أحد المحلات بدلة «فراك» مناسبة، ثم اكتشف أنه لا يحمل نياشين يعلقها على صدر بدلته، واقترح عليه استعارة نياشينه يضعها على صدره ويمشى ـ بمقامه !ـ فى جنازة الحبر الأعظم!! (صفحة ١٣١)
- وأنه ذهب فى مهمة إلى يوجوسلافيا يحمل رسالة من الرئيس السادات إلى الرئيس تيتو، ولكن أحدا لم يعطه ملفا بما سبق من اتصالات، ولم يقدم له رسالة واحدة مما تم تبادله من قبل بما فى ذلك تلك الرسالة التى يحمل الآن ردا عليها إلى تيتو. ثم يقول الكتاب : «لقد سعيت إلى إقناع اليوجوسلاف بمزايا النظام المصرى رغم أننى أنا نفسى لم أكن مقتنعا بها» !(صفحة ٦٧)
- وأنه سافر إلى أثيوبيا حاملا رسالة من الرئيس المصرى إلى الرئيس الأثيوبى، ووصل إلى أديس أبابا وطلب مقابلة «منجستو هيلامريم» وهو الرئيس وقتها، وفى ذهنه أن يبنى جسرا من العلاقات معه تحصينا لحقوق مصر فى مياه النيل القادمة بالفيضان من الهضبة الأثيوبية، لكن «منجستو» رفض أن يقابله وكلف أحد وكلاء الوزارات بأن يتسلم منه الرسالة فى المطار دون أن يسمح له بالنزول إلى المدينة، وقد رضخ فى النهاية، وكان هَمُّه «كيف يَحول دون تسرب هذه الحادثة المحرجة إلى الصحافة ؟» !

ثم لا تعود مياه النيل مسألة تشغله، فقد تحدث فيها مع صحفى مقرب من الرئيس السادات لكى يتولى مفاتحة السادات فى الأمر، لكن هذا الصحفى قال له «إن مثل هذه المسائل لا تهم الرئيس، فهو شأنه شأن كل حاكم لا تهمه إلا مصلحته السياسية المباشرة وفقط» !(صفحة ٣٣٠)

□ وأنه رضى بأن «يبلع إهانة سافرة» وجهها إليه رئيس قبرص، وأمر بإخراج سفير مصر من جلسة مع الرئيس القبرصى بعد أن سمح هذا الأخير لنفسه أن يصف السفير المصرى فى حضور وزير الدولة المصرى بأنه «كذاب» ! (صفحة ٧٨)

وأنه قام بزيارة رسمية حاملا رسالة رئاسة لـ«عيدى أمين» وهو وقتها حاكم أوغندا، وأن «عيدى أمين» أخذه معه إلى استراحة فى جزيرة جميلة بعيدة، وحاول أن يقنعه بأن ينام إلى جواره فى السرير. وفى مأدبة أقامها له فإنه راح يضع له الطعام بيده فى فمه ! (بين صفحة ١٠٠ إلى صفحة ١٠٤)

وأنه حضر اجتماعا للبرلمان الأوروبى فى ستراسبورج شارك معه فيه وزير خارجية إسرائيل «موشى ديان»، ثم يستطرد: «لاحظت صحفية فرنسية أننى وديان يرتدى كلانا بدلة رمادية اللون، فقالت لى : «إن بدلتيكما من نفس اللون غير أن الفرق فى التفصيل هائل». «والواقع أن بدلتى كان قد تم تفصيلها لدى خياط إيطالى مكلف، فى حين كانت بدلة الوزير الإسرائيلى، كما ذكر لى، قد تم تفصيلها فى محل إسرائيلى صغير» !! (صفحة ٢٩٥)

□ □ □

فى غيبة آلهة الحظ فإن الكتاب كان شديد القساوة والضراوة على الرئيس السادات، ولم يحدث ذلك بالعمد أو بالقصد وإنما بالقضاء والقدر كأنه حادث سير قام به سائق يقود سيارته بسرعة وبنشوة. وهكذا يذكر الكتاب:

□ إن سياسة السادات أدت إلى «أن مصر التى قادت حركة توحيد العالم العربى تواجه العزلة الآن بين أشقائها العرب» (صفحة ٤٧).

□ إن سياسة السادات أدت إلى انتهاء قيادة مصر للعالم العربى (صفحة ٤٧).

إن مناحم بيجن كان يمدح السادات إلى درجة جعلته يبدو كما لو كان يسخر ويهزأ منه (صفحة ٥١).

□ إن السادات لا يقرأ ورقة، ولا يبحث شيئا مع مساعديه، وليس له صبر على التخطيط أو على التفاصيل، كما أنه يرفض أى مناقشة (صفحة ٥٣).

□ إن السادات مشى مع الإسرائيليين إلى صلح منفرد وهو يعلم ذلك (صفحة ٥٤).

□ إن السادات قَبِل أثناء مفاوضات كامب دافيد شروطا ليست سيئة لمصر فقط ولكنها مهينة لكرامتها (الصفحات ما بين ١٣٧ إلى ١٥٧).

□ إن السادات أعطى كل شيء للولايات المتحدة وإسرائيل، وعندما جاء الوقت ليأخذ منهم شيئا مقابل ما أعطى اكتشف أنه لن يأخذ شيئا، ثم حاول أن يغطى على انكشافه بتكثيف الدعاية لنفسه (الصفحات ما بين ١٣٧ إلى ١٥٧).

□ إنه حتى السفير الأمريكى فى مصر وقتها «هيرمان آيلتس» والذى كان ضيف الشرف فى حفل أقيم بمناسبة مغادرته لمصر فى بيت الدكتور «زهير فريد» ـ قال لجميع الحاضرين على المائدة وبينهم الدكتور بطرس غالى ما نصه بالحرف: «إن اتفاقيات كامب دافيد كارثة». وسأله بطرس غالى: «لمن؟» ورد «آيلتس» بدبلوماسية قائلا: «إن الرد على سؤالك يحتاج إلى مناقشة أكاديمية طويلة» (صفحة ٢٢٣).

....

....

[وبعد شهور قليلة من «كامب دافيد» قدم السفير «هيرمان آيلتس» استقالته من الخارجية قائلا فى خطاب استقالته إنه عائد إلى التدريس فى الجامعة ـ لكنه ظهر فيما بعد أنه أرفق بكتاب الاستقالة الرسمى مذكرة غير رسمية قال فيها ما ملخصه: «إن استمراره فى العمل الدبلوماسى سوف يكون بالمخالفة مع ضميره، فقد رأى بعينه أن كارتر وَعَد السادات بما يعرف أنه لا يستطيع تنفيذه، وأن السادات قَبِله منه دون أن تكون لديه ضمانة واحدة لإمكانية تنفيذه، وأن مثل هذا الوضع لن يصنع سلاما فى الشرق الأوسط، وإنما هو مؤد بالتأكيد إلى مشاكل بغير حدود فى منطقة تتعاظم فيها المصالح الأمريكية بغير حدود» !].

□ □ □

وأخيرا فإنه فى غيبة آلهة الحظ ختم كتاب «طريق مصر إلى القدس» روايته لتجربة صاحبه بواقعتين، كلتاهما تستحق الوقوف أمامها ـ أولاهما دلالة على الطريقة التى يتلقى بها «وزير» معلوماته ـ والثانية دلالة على الطريقة التى يتصرف بها «وزير» بمقتضى هذه المعلومات! وأوثر أن أنقل رواية الواقعتين عن نص الكتاب لكى أحتفظ بالنبض الحى للسياق كما هو:

الواقعة الأولى وقد جاءت روايتها (صفحة ٣٤٩ من الكتاب) كما يلى :

وفى ٣٠ يونيو (١٩٨١)، عند منتصف الليل، تلقيت مكالمة هاتفية من صديقى «إسرائيل جات» فى تل أبيب. لقد فاز حزب العمل فى الانتخابات الإسرائيلية ! وخرج بيجن من الحكم ! ولم يكن بوسعى إخفاء سعادتى، وهنأت «إسرائيل جات». وقرأ علىّ رسالة موجهة من شيمون بيريز، الذى سيصبح الآن رئيسا لوزراء إسرائيل. وكان بيريز يطلب منى أن أتصل بالسادات فورا وأن أطلب إليه إصدار بيان لصالح فوز حزب العمل. واعترضت قائلا : «ولكن ياصديقى العزيز، إننا بعد منتصف الليل». وأضفت : «إننى لا أستطيع إيقاظ رئيس الجمهورية فى هذه الساعة». ولكنه ألح علىّ : «نحن نعرف أن السادات يعمل حتى ساعة متأخرة من الليل، وأنت لديك خط ساخن إلى رئاسة الجمهورية ـ نرجو أن تفعل ذلك ! وسوف أعود إلى الاتصال بك بعد عشر دقائق لمعرفة ما الذى قرره الرئيس السادات». وقبلت المهمة التى كلفنى بها، واتصلت هاتفيا فى تردد بالسادات. وقلت للضابط النوبتجى إنه أمر عاجل جدا. وبعد لحظة كان السادات على الخط :

«يا بطرس، ما هو الشىء المهم جدا بالنسبة لك الذى يجعلك تتصل بى هاتفيا فى منتصف الليل ؟» وقلت : إنها رسالة مهمة من شيمون بيريز. لقد فاز حزب العمل فى الانتخابات ويريد رسالة تأييد. وساد الصمت. واستطعت أن أسمع السادات وهو يعبر عن دهشته بسلسلة من التنهدات والهمهمات : آه، آه، همّ، همّ ؛ أوه أوه. ومرت دقيقة تقريبا. «سيدى الرئيس بماذا أجيب ؟ فسوف يتصلون مرة أخرى بعد عشر دقائق !».

وتوقف السادات عن النحنحة والهمهمة، وقال بصوت حازم آمر : «اسمع يا بطرس، أنت حاولت الاتصال بى هاتفيا ولكنك لم تستطع الاتصال، وإن شاء الله ستحاول غدا مرة أخرى».

وبقيت يقظا أنتظر دون جدوى المكالمة الثانية من إسرائيل. فقد غيرت النتائج النهائية للانتخابات ما سبق إعلانه. لقد فاز بيجن. وفى صباح اليوم التالى، حرصت على تفادى عين السادات.» !

□ □ □

الواقعة الثانية (يوم ٦ أكتوبر ١٩٨١) وقد جاءت روايتها (صفحة ٣٥٣ من الكتاب) كما يلى :

«ولقد كنت شديد الحساسية دائما إزاء هذه الاستعراضات العسكرية، وكنت أدبر لسفرى إلى الخارج فى كل مناسبة من هذا القبيل. بيد أنه فى هذه السنة (١٩٨١) كنت فى القاهرة، غير أننى كنت متعبا وأردت تمضية عطلة نهاية الأسبوع فى الإسكندرية. وكانت المدينة خالية فى مثل هذا الوقت من السنة، وكان الطقس لطيفا والبحر جميلا. وكنت قد تقابلت مع قرينتى فى الإسكندرية، وكان الحنين إلى الماضى طاغيا. فسوف نقيم مع أصدقائنا من أفراد أسرة وهبة.

وأبلغت الفريق كمال حسن على (وزير الخارجية الأصلى). وعاتبنى بطريقة تتسم بالمودة. قال : «إنك إن لم تحضر الاستعراض العسكرى، فسوف يلاحظ الريس غيابك، وتخاطر باستيائه منك». وقلَّد صوت السادات، وهو يقول : «يا بطرس، يابطرس». وضحكنا معا.

وسافرنا ـ «ليا» وأنا ـ إلى الإسكندرية بالسيارة. وحاولَت التخفيف من ندمى، وقالت : «لن يلحظ غيابك أحد من بين هذا الحشد من الشخصيات الكبيرة والدبلوماسيين الذين سيكونون مشغولين بمشاهدة الاستعراض».

ولقد أسعدنا لقاء آل وهبة. وبعد العشاء، دار حديث ممتع، فقد طرح مجدى رأيا يقول إن «نظام الحكم يخسر بسرعة وإن السادات فقد شعبيته وكل مصداقيته. إن الاعتقالات التعسفية للأصوليين، والوفديين، ومحمد حسنين هيكل، قد جرت من منطلق الانتقام الشخصى للسادات أكثر من كونها لأسباب تتعلق بالدولة. إنك فى السلطة ؛ ولذلك فأنت معزول فى برج عاجى. لقد فقدت كل الاتصال بالواقع السياسى. وقد تتداعى سياستك الخارجية إن لم تأخذ فى اعتبارك ما يحدث داخل هذا البلد». وامتد حوارنا حتى ساعة متأخرة من الليل بالرغم من تدخل قرينتينا، اللتين كانتا تصران على أنه لا ينبغى الحديث فى الشئون السياسية فى يوم العطلة.

وفى يومنا الثانى البهيج فى المنتزه، كان الشاطئ خاليا. وكانت شمس الخريف تشيع الدفء فى أجسادنا بلطف، وكان البحر هادئا. كان الجو شاعريا.

وانتابنى إحساس بالاكتمال والرفاهة. وكنا، ونحن فى رداء السباحة، مستلقين على مقاعد طويلة، نتناول طعام الغداء، نتكلم بهدوء مثلما يتحدث الأصدقاء القدماء. وتوقفت

سيدة، متقدمة فى السن، أمام مجموعتنا، وتساءلت : «أنت الوزير بطرس غالى، أليس كذلك ؟».

وأجبت : «نعم يا سيدتى أنا، ما الذى أستطيع أن أقدمه لك ؟».

وردت : «هل استمعت إلى راديو مونت كارلو ؟ لقد وقع حادث خطير صباح اليوم أثناء العرض العسكرى، الذى كان قد توقف».

وقلت : «يا سيدتى، لا تستمعى إلى الإذاعات الأجنبية، إنها متحاملة».

وتركتنا السيدة، والتفتنا مرة أخرى ناحية البحر وصفو اليوم. ثم ظهرت السيدة من جديد، وقالت : «إننى آسفة لإزعاجكم مرة أخرى يا سيدى الوزير، ولكن إذاعة البى. بى. سى. قد أكدت لتوها أن حادثة خطيرة قد وقعت أثناء الاستعراض العسكرى».

وفتحنا محطة الإذاعة المصرية، التى أكدت أن الاستعراض العسكرى قد انتهى، غير أنها لم تذكر أى شىء غير مألوف.

وعادت السيدة المسنة للمرة الثالثة، وكانت أشد إصرارا : «هذه المرة هى إذاعة صوت أمريكا، التى تؤكد ما سمعته لتوى».

وفجأة أظلم الجو، وأصبحت مشحونا بالتشاؤم.

وقررت العودة إلى المدينة. غير أن السائق والحراس كانوا غائبين، حيث إننا كنا نعتزم تمضية اليوم على الشاطئ. وقد نصحونى بعدم ركوب سيارة أجرة. ووجدنا صديقا، أعادنا إلى مقر إقامة أسرة وهبة، حيث كان ضباط الأمن ينتظرون عند الباب. قالوا إن من الأفضل ألا تعود إلى القاهرة بالسيارة، بل تستقل قطار السادسة حيث حجزت لك مقصورة. وأضافوا :«إننا نعرف بالضبط ما حدث فى القاهرة، محاولة انقلاب ؛ والحالة خطيرة».

وفى محطة السكك الحديدية، أحاط بى أربعة من الحراس، اصطحبونا إلى المقصورة التى كانت محجوزة لنا. وأصبحت الأنباء أكثر دقة. لقد جرت محاولة لاغتيال الرئيس السادات، الذى أصيب بإصابات خطيرة، ونقل بالطائرة المروحية إلى المستشفى العسكرى فى المعادى. وتوقف القطار فى بنها، وهى تقع على مسافة ساعة من القاهرة. واقترب منى أحد الحراس وأعلن وفاة السادات فى المستشفى».

□ □ □

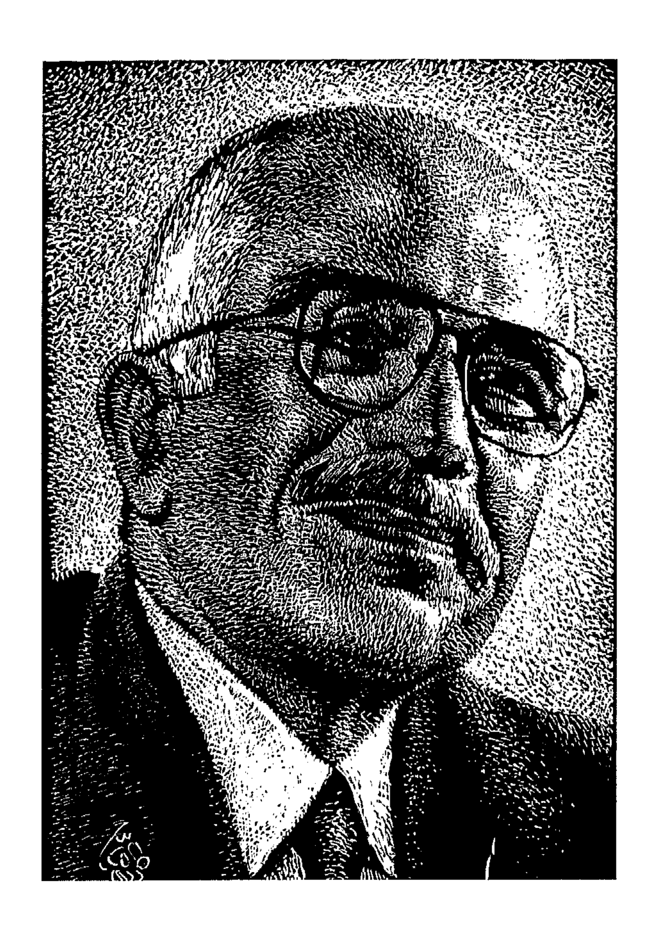
وهكذا، وهكذا، وهكذا...

ومع ذلك، وبصرف النظر عن أى شىء وعن كل شىء، فإن ما فات مات ـ كما يقول المثل الشعبى المصرى الدارج ـ لكن المشكلة الأكبر فيما هو آت، أى أن المشكلة الأكبر ليست فى الكتاب الأول وإنما فيما بعده .(وما هوقادم بعد شهور قليلة أو أسابيع).

ذلك أن تجربة وزير دولة من العالم الثالث يمكن ـ وإن كان ذلك ظلما لكل الأطراف بما فيهم صاحب التجربة ـ أن تكون «عمل» وساوس داخلية.

وأما تجربة سكرتير عام للأمم المتحدة ـ حتى إذا كان من العالم الثالث ـ فقد يكون مناسبا إنقاذها من الوساوس الداخلية والخارجية أيضا !

وليس هناك من يستطيع ويقدر غير آلهة الحظ إذا أسرعت وعادت إلى صديقها وصديقنا بطرس غالى، قبل أن يتصرف بمفرده وينشر ـ فى غيابها ـ كتابه التالى !



شخصية الملك حسين

ضرورات الفهم.. قبل الحكم

ولكن إلى أى مدى؟!

شخصية الملك حسين(*)

ضرورات الفهم.. قبل الحكم

ولكن إلى أى مدى؟!

[١]

إذا كان هناك دليل مادى مطلوب لكشف أحوال العالم العربى فى نهاية هذا القرن العشرين - فإن مشهد جنازة الملك حسين مَلِك الأردن الراحل - هو ذلك الدليل المادى المطلوب!

وفى حقيقة الأمر فإن هذا المشهد - فكرة وإخراجا وعرضا - كان إنتاجا جديدا لنصين متشابهين سبقاه، الأول جنائزى أيضا وهو تشييع جثمان رئيس وزراء إسرائيل الأسبق «إسحاق رابين» (شتاء ١٩٩٥)، والثانى لحسن الحظ نص احتفالى هو مؤتمر شرم الشيخ لمقاومة الإرهاب (ربيع ١٩٩٦).

والآن هذا الموكب الجنائزى فى عَمَّان.

الصور هى هى، والنجوم نفس الوجوه، والحوار تسلسل طبيعى، والمغزى، أو المعنى، أو الهدف متقارب، ومقصده:

* استيعاب صدمة مفاجئة فى الشرق الأوسط جاء بها الموت أو الاغتيال أو التفجيرات الفدائية.

* العمل على تثبيت مواقف الأطراف فيما يسمى بالمسيرة السلمية فى المنطقة - عند الحد الذى بلغته، وضمان ألا يتراجع أحد بمظنة تغير الظروف.

* وانتهاز الفرصة للتفتيش وسط فوضى المصائب عن فجوة يكون منها مخرج ولو بالهرب إلى الأمام خطوة إذا أمكن أو خطوات!

(*) إبريل ١٩٩٩.

وتلك مطالب لا تتصل بالأشجان أو الأحزان، وإنما تتصل بممارسة القوة سواء باستغلال جلال الموت أو وحشة القبور.

وليس فى ذلك كله ما يسىء إلى جنازة المَلِك «حسين»، فلقد كانت جنازة مهيبة جليلة فى نواح عديدة منها، خصوصا عندما تَدافعَت مشاعر الناس العاديين فى الأردن وقد خرجوا يُوَدِّعون رجلا لم يعرف معظمهم فى حياته حاكما غيره، وهُم إذ عرفوه تَعَوَّدوا عليه، وحتى حينما كانت التقلبات الحادة تجنح بسياساته على هذا الشاطئ أو ذاك فإنهم كانوا على اطمئنان طول الوقت معه، متأكدين من مرونته، واثقين أنه فى الثانية الأخيرة من الدقيقة الأخيرة سوف يجد لنفسه ولهم شَبَكة أمان يقفز إليها الجميع.

□ □ □

إن ذلك التقدير لدور المَلِك ومشاعر الناس من أبناء شعبه لا يحجب ملاحظات يصح تسجيلها:

أولها: أنه من المؤكد الآن أن المَلِك عاد من الولايات المتحدة الأمريكية وهو فى حالة «موت طبى»، وكانت الأجهزة الصناعية وحدها تستخرج أنفاسه، وتستبقى دقات قلبه وإن على وهن!

وفيما يبدو فقد كانت تلك فسحة من الوقت مطلوبة لعودة المَلِك إلى وطنه، ولمنح بعض الضيوف فرصة استعداد للسفر إلى عمان (وقد أعلن البيت الأبيض فى واشنطن يوم الجمعة ٥ فبراير أن الرئيس كلينتون سوف يكون فى عَمَّان يوم الاثنين ٨ فبراير - وهكذا كان) - ولم يكن «كلينتون» وحده هو الذى يجب أن يستعد، وإنما وقع الاتفاق مع آخرين بأن يكونوا هم أيضا على استعداد.

وربما أن فسحة الوقت كانت مطلوبة - أيضا - لإتمام الترتيبات العملية والأمنية للجنازة بما فيها أن تتعرف القوات المشاركة فى الموكب على مسالكها وسط العاصمة الأردنية.

وزاد على ذلك - كما تَكَشَّف فيما بعد - أن فسحة الوقت كانت مطلوبة لتسوية خلافات بين أطراف العائلة خصوصا فى شأن ولاية العهد. وكان المَلِك «حسين» من الأصل يرغب أن يخلفه ابنه (من الملكة نور) الأمير حمزة، ولم تمكنه نصائح دولية وإقليمية من إنفاذ إرادته فأعاد الأمر إلى الأكبر من أبنائه وهو «عبد الله»، ثم أصر على ولاية العهد لـ «حمزة»

متخطيا بذلك ثلاثة من أبنائه بينهم اثنان من أم وُلِدَت عربية مسلمة هى الملكة «علياء» (طوقان) التى قتلت فى حادث سقوط هليوكوبتر سنة ١٩٧٧ ![١].

ويبدو أن مجلس الوزراء الأردنى لم يكن مطمئنا إلى توصل أفراد الأسرة لحل سريع، ولذلك اتفق مع الأمير «عبد الله» على أداء اليمين الدستورية نائبا للمَلِك دون انتظار ـ لكنه فى اليوم التالى مباشرة نادى به مَلِكا ـ لأن الخلافات العائلية أمكن تسويتها على نحو غير متوقع فى الساعات القليلة التى فصلت بين يمين النائب، ويمين المَلِك!

ثانيها: أن مراسم الجنازة طالت بأكثر مما هو ضرورى ـ خمس ساعات تقريبا ـ ولئن قيل إن ذلك كان ضروريا لإظهار تَعلُّق الشعب بمَلِكه، فإن ذلك القول ينسى أن مشهدا حقيقيا أو صورة صادقة، بل دمعة صامتة ـ تستطيع وفى لمحة بصر إظهار ما تعجز عنه مواكب بطول عشرات الكيلومترات.

ويندرج تحت هذه الملاحظة أن بعض المواقف فى مراسم الجنازة بدت مُسْتَغْرَبةً إلى درجة توحى بأن جهات متعددة تشاركت أو تداخلت فى وضع الترتيبات:

* وعلى سبيل المثال فإن الحصان الذى لا يركبه فارس ويتدلى الحذاء الطويل لذلك الفارس مقلوبا على الجانب الأيسر للسرج ـ لا يتصل مباشرة[٢] بتقليد عربى أو إسلامى، وإنما بتقليد أمريكى يرجع إلى أيام غزو الغرب والحرب الأهلية بين الولايات. ونفس الشىء ينطبق على طقس إلقاء النظرة الأخيرة على جثمان راحل مسجى أمام زواره، فذلك طقس بدأ فى أوروبا وشاع فى ظروف الحروب الصليبية حين كان رفات المحاربين يعود من الغربة الطويلة فى الشرق ثم يُعْرض أمام الأهل والأقارب والأتباع لنظرة وداع قبل الغياب النهائى!

* يلحق بذلك أن أنين موسيقى القِرَب الإسكتلندية وآهات النفخ فى الأبواق على حواف القبور أقرب إلى تقاليد الجيش البريطانى فى دفن قتلاه أثناء حروب المستعمرات (فى الهند مثلا) ـ منها إلى أى موروث عربى أو إسلامى.

* وربما أن موكب العزاء الطويل الذى اضطر فيه المَلِك «عبد الله» وإخوته إلى مصافحة أعداد هائلة من الناس وتجاذب الحديث مع معظمهم بعد انتظار طويل لدورهم فى

---

(١) حين وُلد الأمير «على» ـــ ١٩٧٥ـــ أول أبناء الملك «حسين» من الملكة «علياء» (طوقان) بعث المَلِك «حسين» برسالة مكتوبة إلى مجلس النواب الأردنى يبدى فيها نيَّته فى اختيار «على» وليا للعهد عندما يبلغ الثامنة عشرة من عمره.

(٢) ذكر الدكتور «محمد حسن عبد الله» أستاذ النقد الأدبى بجامعة القاهرة فى مقال بالأهرام (١٩ فبراير الماضى) أن تقاليد بعض القبائل العربية كانت بعد رحيل الفارس تقتل حصانه حتى لايركبه بعده غيره.

الصفوف، وبينهم ملوك، ورؤساء، ووزراء، وسفراء، وقُوّاد جيوش، وزعماء أحزاب، إلخ ـ كان الإسهام العربى البارز فى مشاهد الجنازة، وربما أريد له أن يسترجع العادات القبلية والعشائرية!

وثالثها: أن كثيرا من الكلام الذى قيل فى مناسبة الجنازة وبعدها تجاوز ما يخص المَلِك «حسين» نفسه. والحاصل أن المَلِك كان إنسانا يملك صفات تُلفت النظر، وله مواقف شديدة الأهمية، ومحاولات أخذته جريئا إلى مهاوى الخطر.. ولكن بعض العبارات والشهادات التى احتواها النص الثالث الجنائزى بدت تَزَيُّدا على السياق ومبالغة لا يقتضيها حواره. ومن ذلك أن يقال إن المَلِك «حسين» كان «عميد السياسة فى الشرق الأوسط»، وكان «أعظم شخصية فى القرن العشرين»، وكان ملاذ الشعوب «يتجه إليه الجميع لطلب الرشد حين الحاجة إلى النصح».

وكلها تجاوزات تسىء إلى الرجل بغير ذنب، لأنه لا شىء يسىء إلى رجل أو إلى حدث مثل المبالغة حين تجمح عن حدودها المنطقية!

□ □ □

وأحسب أن المَلِك «حسين» نفسه لو عاد للحياة بمعجزة سوف يكون أول مُسْتَغرِب لما قيل عنه بعد وفاته ولم يسمع منه شيئا فى حياته. ولعله كان يفعل كما فعل «ونستون تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا حين ذهب إليه مساعده «ويليام ديكون» يحمل مقالا عنه كتبه الأستاذ «إيشيا برلين» أستاذ الفلسفة بكلية «جميع القديسين» فى جامعة «أوكسفورد»، وكان المقال مغاليا فى إشادته بمزايا «تشرشل» والتحدث عن عظمته وعبقريته، ويظهر أن «برلين» كتبه فى ساعة نشوة وانبهار. وقرأ «تشرشل» المقال وأعاد قراءته ثم كتب على هامشه بخط يده جملة واحدة نصها: "Too good to be true" وترجمتها: «جميل جدا إلى درجة أنه لا يمكن أن يكون حقيقيا»!

وإنصافا للمنطق ـ قبل الإنصاف للمَلِك أو للرجل ـ فإنه ليس فى مقدور سياسى مهما فعل أن يتجاوز بدوره موارد بلاده المادية والمعنوية. والأردن وطن عربى كريم، لكن النفوذ لا تصنعه فضائل البشر، وإنما تفرضه عوامل أخرى.. إلا فى حالة الأنبياء والرسل، وتلك مسألة مختلفة!

ومهما يكن فإنه فى حالة الحشد الدولى الكبير حول جثمان المَلِك «حسين» فقد يكون

للتجاوز والمبالغة مطلب إضافى هو تبرير هذا الوجود الدولى الكثيف مع عدم الرغبة فى البوح بأهدافه الحقيقية الأصلية! وهى أهداف جرت الإشارة إليها من قبل وبينها: «استيعاب صدمة - وتثبيت موقف - وانتهاز فرصة».

وبهذا المقياس فإن جنازة «رابين» كان هدفها الرد على اليمين الإسرائيلى الذى قام باغتياله، ومؤتمر «شرم الشيخ» كان هدفه الرد على اليمين (!) الإسلامى الذى فَجَّر قنابله البشرية فى القدس وتل أبيب، وجنازة المَلِك «حسين» لها بالقطع هدف سياسى إضافى ومُستَجَد (سوف يزداد ظهوره فيما بعد) وذلك هو التفسير الوحيد والمقبول للطريقة التى تم بها ترتيب جنازة المَلِك - خصوصا إذا تذكر ذاكر ما كان يُكتَب عنه أيام حرب الخليج (١٩٩٠ - ١٩٩١) ثم يقارنه بما كُتِبَ عنه - وهو نفس الرجل - حين مرضه ووفاته (١٩٩٨ - ١٩٩٩) ثم يتضح بهذه المقارنة أن هناك عدوانا على حُرْمَة الوعى - وعلى كرامة العقل فى آن واحد!

ولو اتُّخِذَ الإعلام المصرى مقياسا ورَصَدَ راصِدٌ ما كان يُقال ويُكتَب حين نَشَر الملك «حسين» ما أسماه بالكتاب الأبيض عن دوره فى حرب الخليج - ثم أصغى أو قرأ بعض ما يُقال ويُكتَب هذه الأيام بعد وفاة المَلِك «حسين» - لهاله الفارق وخصوصا أن مسافة الوقت قصيرة، ومساحتها بالشهور وليست بالسنين بحيث يكون الزمن قد فَعَل فِعْلَه وأسقط غباره أو أسدل أستاره على الصور والصفحات!

وتلك - أيضا - مسألة مختلفة!

□ □ □

وربما استطردت من هنا لأقول أن معرفتى بالمَلِك «حسين» كانت وثيقة، وأظن أن ذلك كان تقديره أيضا - وأزعم أننى خالطته عن قرب ومن زمن. فقد لقيته لأول مرة وعمره اثنا عشر عاما، وكان ذلك عندما ذَهبْت لمقابلة صحفية مع والدته الأميرة «زين» (وهى سيدة شديدة الذكاء شديدة الطموح) فى فندق «شبرد» القديم فى القاهرة - سنة ١٩٤٧ - وكانت يومها زوجة ولىّ عهد الأردن الأمير «طلال» (وأصبحت فيما بعد مَلِكة على الأردن وظل لها اللقب رسميا حتى توفيت).

ثم صادفت المَلِك «حسين» بعد ذلك مرات عديدة يركب دراجته فى حديقة قصر «رغدان» مَقَرّ جَدِّه - وكنت وقتها مراسلا مُتَجَوِّلا لـ «أخبار اليوم» فى الشرق الأوسط متنقلا

باستمرار بين عَمَّان والقدس وبيروت ـ وكان قصر «رغدان» أهم بؤرة فى السياسة العربية فى ظروف حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ ـ ولذلك كثر ترددى عليه للقاء المَلِك «عبد الله»، وكثرت رؤيتى لحفيده ووقوفى مرات عديدة معه.

ثم تابعت المَلِك «حسين» بعد ذلك غداة اغتيال جَدِّه ـ وكنت أغطى الحدث (سنة ١٩٥١) حتى كانت المناداة بوالده الأمير «طلال» ملكا على الأردن.

ثم عُدت إلى متابعته أثناء مشاورات سياسية وعائلية جرت فى قصر «بسمان»، وكان يديرها رئيس وزراء العراق «نورى السعيد» (باشا) والسير «أليك كيركبرايد» المُعتَمَد البريطانى فى عَمَّان، ومعهما الجنرال «باجوت جلوب» (باشا) قائد الفيلق العربى ـ !ـ وكان موضوعها مشكلة الملك «طلال». وقد أصبحت هذه المشاورات مطلوبة إثر روايات وحكايات شاعت وذاعت عنه ـ ثم تقرر بعدها الحَجْر عليه وتم ترحيله إلى إستانبول حيث أودع مصحا للأمراض النفسية قضى فيه بقية عمره. وكان يمكن للعرش أن يؤول بعد المَلِك «طلال» إلى شقيقه الأمير «نايف»، لكن المشاورات استبعدته فى اللحظة الحرجة، وكذلك أصبح «حسين» مَلِكًا على الأردن.

وكان فارق السن بين المَلِك «حسين» وبينى اثنى عشر عاما ـ ولم يكن هذا الفارق فى السن تلك الأيام يسمح بأكثر من أن أراه وأقابله وأتابعه ـ لكنه مع مَرِّ السنين وتعاقب التطورات والأوضاع فى العالم العربى فإن أثر الفارق فى العُمْر راح يتلاشى ـ تدريجيا وطبيعيا ـ بما سمح بعلاقة توثقت بالتجارب اتفاقا واختلافا، اقترابا وتباعدا، لكنها ظلت موصولة، حية، ويقظى.

□ □ □

ولم تكن علاقتى بالمَلِك «حسين» بسيطة، ولعلها كانت أقرب إلى أن تكون علاقة مركبة، وفى بعض الأوقات معقدة !ـ والسبب أن كلينا كان يعرف أنه يتصرف حيال الآخر من موقف مختلف. فهو ـ فى اعتقاده واعتقادى ـ يقف على ضفة ـ وبنفس المعيار ـ وفى اعتقاده واعتقادى ـ فقد كنت أقف على الضفة الأخرى، لكننا برغم التناقض أقمنا صلات بين رجلين، كلاهما غارق مستغرق فى الشأن العربى العام مع اختلاف التقديرات والضرورات لدى كل منهما. ومع دواعٍ كثيرة تقتضى جسور لقاء عبر الضفاف!

وأتذكر على سبيل المثال أننى سنة ١٩٩٠ ظننت أن الأمور وصلت بيننا إلى درجة

القطيعة، لأننى نشرت تحت عنوان «الانفجار» كتابا عن وقائع نكسة سنة ١٩٦٧ - وفى الكتاب فصول تناولت دور المَلِك «حسين» فى تلك الوقائع، وبينها أنه كان يعرف الكثير من تفاصيل مؤامرة جَرّ مصر إلى فخ تلك الحرب، وأن مجيئه المفاجئ إلى القاهرة فى ٣٠ مايو ١٩٦٧ - أى قبل بدء الهجوم الإسرائيلى بأيام - وتطوعه بدخول المعركة مع مصر - وتصرفاته السياسية والعسكرية طوال هذه الحرب - تثير جميعها أسئلة تطرحها وثائق تحفل بتلميحات وإشارات ترقى إلى مستوى الشك - على أقل تقدير.

وقد تَرَدَّدْت يومها فى نشر ما ظَهَر لى من دور المَلِك «حسين» فى تلك الوقائع باعتبار أن الأمر خطير وأن الاعتماد فيه على الشك، قد لا يكون سليما، لكننى انتهيت إلى أنه فى مثل هذه الظروف فإن التلميحات والإشارات إذا كانت متصلة متكاملة تكفى - خصوصا أنه فى مخططات سياسية من نوع ما جرى سنة ١٩٦٧ - لن يكون هناك قط ذلك اليقين الدامغ، لأن الجميع تعلموا من درس السويس سنة ١٩٥٦ ألا يكرروا الخطأ الذى وقع فيه «دافيد بن جوريون» رئيس وزراء إسرائيل حين أصَرّ على كتابة خطة وتفاصيل المؤامرة الثلاثية على مصر بينه وبين رئيسى وزراء بريطانيا وفرنسا (إيدن، ومولیه) فى صورة معاهدة يوقعها الأطراف (معاهدة سيفر) ويتفقون على إبقائها سِرّا فى عالم لم يعد فيه مجال لِسِرّ.

وهكذا نَشَرْتُ سنة ١٩٩٠ - وبغير اتهام - ما توصلت إليه بشأن دور المَلِك «حسين» فى حرب سنة ١٩٦٧، وظننت أن تلك نهاية الطريق فى علاقتى مع «سَيِّد عَمَّان».

[٢]

ولم أكن مُصيبًا فى ظنى، وكان المَلِك صاحب الفضل.

والذى حدث بعد شهور من نشر كتاب «الانفجار ١٩٦٧» (فبراير ١٩٩٠) - أن انفجارا من طراز آخر وقع فى الشرق الأوسط حين أقدم العراق على احتلال الكويت (أغسطس ١٩٩٠)، ثم توالت الحوادث خاطفة إلى «عاصفة الصحراء» (يناير ١٩٩١) - وكان للمَلِك «حسين» فى أجواء تلك السنة الحافلة دور رئيسى ومِحْوَرى، وفى مطلق الأحوال فإنه كان السياسى العربى الوحيد الذى ظل من البداية إلى النهاية على اتصال بجميع الأطراف،

مُتابِعا لكل التطورات. وكان من حظه أن أصحاب القرار العالمى فى واشنطن - وهُم يعرفون أحواله - تركوا له مجاله يتحرك فيه بحرية لم يتركوها لغيره.

وحين طَلَبَت منى مؤسسة «هاربر كولينز» أن أضع كتابا عن موسم الرياح الهوج من «عاصفة الكويت» إلى «عاصفة الصحراء» - ورد على بالى أن المَلِك «حسين» مرجع يصعب تجاوزه. لكننى كنت أعرف مسبقا أن ما كتبته عن دوره سنة ١٩٦٧ ضايقه - وربما آلمه!

وبعد تردد رأيت أن أبعث إليه برسالة عن طريق ممثله فى القاهرة ذلك الوقت السفير «نبيه النمر»، وكان مؤدى رسالتى:

«إننى أريد أن أسمع منه رؤيته وروايته للقصة من أغسطس ١٩٩٠ وحتى فبراير ١٩٩١ - وأنا أعرف فى نفس الوقت أن ما كتبته عن دوره سنة ١٩٦٧ لم يكن مُرْضِيا له. وأنا لا أعتذر عما كتبت، فذلك ما توصلت إليه واقتنعت به - لكنه - ومن ناحيته - إذا اعتذر عن مقابلتى فسوف أفهم موقفه مُقَدِّرا أن ذلك حقه وأبرره له من غير تردد وبدون ضيق»!

وفى اليوم التالى مباشرة تلقيت - عن طريق السفير «نبيه النمر» - رسالة من القصر الملكى فى عَمَّان مؤداها أن «المَلِك ينتظرنى فى أى موعد يناسبنى» وهو يقول: «إن خير البِرِّ عاجله» - كذلك بالنص.

وأتممت أعمالا تتصل بإعداد مواد ذلك الكتاب الذى شرعت فيه لمؤسسة «هاربر كولينز» (وأصبح عنوانه «أوهام القوة والنصر»)، ثم قصدت إلى عَمَّان بعد شهر من دعوة المَلِك.

وفى اليوم التالى كان موعدى معه، وقد استقبلنى فى مكتبه فى قصر «الندوة» ولم تقع عودة إلى ما سبق، ولا تمهيد بشرح أو اعتذار، وإنما التقينا وتحادثنا وكأننا افترقنا بالأمس على موعدنا اليوم. وجلسنا معا من الساعة الحادية عشرة فى الصباح وحتى الساعة الثامنة فى المساء. وتغدينا وتَعَشينا معا. وأجاب عن كل ما سألته فيه، واستدعى مستشاره السياسى وهو يومها السيد «عدنان أبو عودة» فانضم إلينا ومعه مَلَفّات من الوثائق تضيف إلى رؤية المَلِك وروايته.

□ □ □

منذ ذلك الوقت سنة ١٩٩١ ظللت ألتقى الملك «حسين» عدة مرات فى السنة، وأكثر لقاءاتنا فى لندن، وساعد على ذلك أننا ننزل نفس الفندق فيها «كلاريدج»، وحتى بعد أن اشترى المَلِك قصرا فى «كنسنجتون» لإقامته فى العاصمة البريطانية، وقصرا فى الريف القريب منها (Surrey) لعطلات نهاية الأسبوع ـ فإنه احتفظ بجناح فى فندق «كلاريدج» اتخذه شبه مكتب فى قلب العاصمة البريطانية.

وربما أشرت هنا إلى لقاءين ـ لكل منهما مذاق خاص ـ فى تلك الفترة بالذات:

* الأول منهما ـ مايو ١٩٩٢ ـ وكان لقاء مشحونا ومؤثرا إلى أبعد حد.

اتصلت بالمَلِك فى بيته فى لندن ولم يكن هناك، وعاد فاتصل بى ولم يجدنى وترك لى رسالة بأنه سيمُر علىّ بعد الغداء ـ الساعة الثالثة فى قاعة الاستقبال الداخلية لفندق «كلاريدج».

وجاء متأخرا عن الموعد عشر دقائق ومعه مرافق واحد ظاهر اطمأن عليه حتى جلس، ثم ابتعد وغاب. ولم تكن القاعة فى تلك الساعة بعد الظهر الباكر مزدحمة، بل إن معظم موائد الشاى كانت خالية تنتظر ـ إلا ثلاث موائد أو أربع جلس إليها أصحابها، وقد عرف بعضهم المَلِك واحترموا وجوده دون فضول وإن راحوا يسترقون النظر أحيانا إليه، وما أظن أن أحدا منهم ـ رجالا أو نساء ـ تخيل أو خطر بباله شىء عن الموضوع الذى تطرق إليه المَلِك فى حديثه. فبعد حوار عام لم يستغرق أكثر من ربع ساعة ألقى إلىّ المَلِك مفاجأة أن أطباءه اكتشفوا إصابته بالسرطان (فى المسالك البولية) وأنه فى الغالب سوف يضطر إلى جراحة فى أمريكا ـ ولحظة بعد لحظة راح المَلِك يغوص فى مشاعره ويحكى كيف عرف أنه مريض بالسرطان، وكيف كان وَقْعُ الكلمة عليه حين وصلت سمعه أول مرة! إن أطباءه صارحوه بالحقيقة بناء على رأى زوجته (الملكة نور) التى استوعبت الصدمة ثم كان تقديرها «أنه لابد أن يعرف كل شىء، واثقة أن لديه الشجاعة لمواجهة أى شىء» ـ ولقد لَمَح فى عينى زوجته ظلالا لم يستطع فهمها وشعر أنها أقلقته دون تحديد لمعنى هذا القلق.

وعندما سمع من أطبائه ما سمع، كان أول ما فعله أن تَحوَّل ببصره إلى «نور»، وكانت عيناها فى انتظاره برسالة تشجيع وأمل. وفى البداية تلقى ما سمع هادئا ومُعلِّقا لأطبائه بأنه تَعَوَّد على المخاطر، وكما قال فقد تماثل الخطر فى فكره أولا مع احتلال إسرائيل

لنصف مملكته، لكنه بعد ذلك راح يكتشف أنه أمام خطر من نوع مختلف عن كل ما واجهه. «هو الآن أمام عدو لا يستطيع أن يراه، وهذا العدو نفذ إلى جسده واحتل فيه موقعا أو عدة مواقع، وهو غير قادر على رصد حركة هذا العدو، وغير قادر على متابعتها، وغير قادر على الدفاع عن نفسه. وحتى حين ينام فإن هذا العدو ساهر، وحين يعمل فإن هذا العدو متفرغ له، وفى خاتمة المطاف فإن هذا العدو غير مستعد للتفاوض ولا للوساطة» (قالها المَلِك وهو يحاول أن يبتسم) - وفى الليلة التى عرف فيها «أن السرطان معه فى فراشه، تحت الأغطية والملاءات، داخل جسمه وفى عُمْق خلاياه - لم يستطع أن يغمض عينيه»، وكان يحس بزوجته «نور» إلى جواره، وقد تكلمت كثيرا ثم لاذت بالصمت، ولعلها أحست أن زوجها يحتاج أن يفكر وحده، ويستوعب. وقرب الفجر قال لها: «إنه سوف ينام، فهذه ليست معركته رغم أنها تجرى داخل كيانه، هى أمر مقادير، وحين حدثته «نور» عن إمكانيات العلم الحديث، كان رده عليها: «إن العلم قد يكون شفاعة لدى المقادير.. مقبولة أو مردودة»!.

....

....

وعاد موضوع مرض المَلِك بعد شهور قليلة - سبتمبر - إلى حديثنا، فقد قصد المَلِك إلى «مايو كلينيك» وأجرى جراحة استئصال للكلية، وعاد إلى لندن. وقال لى حين لقيته: «إنه باق هنا أياما يسترد فيها بعض العافية بعد الجراحة، وخصوصا أن الإخوة والأهل هناك يريدون أن يجعلوا من عودتى مناسبة فرح. وبانت فى عينيه نظرة احترت فى فك رموزها - وقلت له: «أليست المناسبة بالفعل فرحا؟» - ورد بسرعة «والله لا أعلم»؟!

وكانت شفاعة العلم لدى المقادير قد نجحت فى منحه سنوات - إضافة إلى عمره.

ثم وقع ما لم يكن منه مهرب حين بَطُل مفعول «شفاعة العلم لدى المقادير»، وانتهت حياة رجل سوف يظل الناس حيارى - وإلى أمد طويل - فى البحث عن الحقيقة بشأنه، ومن هو فعلا وراء هذه الابتسامة العريضة دائما على شفتيه؟!

□ □ □

* وكان اللقاء الثانى - سبتمبر ١٩٩٣ - نقيضا للقاء الأول. كانت المفاجآت موجودة - لكن ثورة الغضب كانت هناك بدلا من لوعة الألم. كان لقاؤنا على مائدة العشاء فى مطعم «سانتينى» الذى اشتهر بمطبخه الإيطالى على طريقة «فينيسيا». وكان المَلِك «حسين» قد

سبقنا إلى هناك بالفعل ومعه الملكة «نور» وابنهما الأمير «حمزة» وإحدى بناته الصغيرات وفى ذاكرتى - ولم أسجِّلها فى أوراقى - أنها الأميرة «إيمان»، ثم وصلنا نحن (قرينتى وأنا).

ومن أول لحظة وجدت المَلِك متأثرا ومنفعلا، بينما هو فى العادة منضبط وكتوم. ويظهر أن الأحداث يومها أخذته على غرة، فقبل ساعات من لقائنا فى «سانتينى» كان المَلِك قد عرف بأن اتفاق «أوسلو» سوف يجرى توقيعه فى واشنطن بين «ياسر عرفات» رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، و«إسحاق رابين» رئيس وزراء إسرائيل، وبحضور ورعاية «بيل كلينتون» رئيس الولايات المتحدة.

ولقد تضايق المَلِك - فيما يبدو - لأن أحدا لم يخطره بشىء، ولم يستشره فى شىء، ولم يدعه إلى شىء. وعلى نحو ما، فقد كان إحساس المَلِك بـ «الخيانة» أقوى من سيطرته على أعصابه.

إن قصة «أوسلو» فى حد ذاتها لم تكن غريبة عليه ولكن إعلان الاتفاق فاجأه، وكان المَلِك على علم بوجود اتصالات واجتماعات بين الإسرائيليين والفلسطينيين فى عاصمة النرويج - إلا أنه كما بدا لى لم يُعَلِّق على ذلك أهمية تُذْكَر. ففى أثناء لقاء سابق قبلها بشهر (أغسطس ١٩٩٣) بمكتبه فى عَمَّان كان هو الذى ذكر لى بنفسه أمر هذه الاتصالات والاجتماعات فى «أوسلو» - وكان تعليقه بسرعة «أن عرفات لا يستطيع أن يَقْبَل ما يعرضه رابين - وما يقبل به عرفات يستحيل على رابين أن يناقشه مجرد مناقشة»! - كان ذلك قوله بالنص ونحن نمشى من حيث كنا نجلس فى مكتبه إلى باب الغرفة خارجين إلى الممر الطويل نحو مدخل قصر «الندوة» والحرس من الشركس العجائز بلباسهم التقليدى تزينه الخناجر المعلقة من الأحزمة - يؤدون له التحية كل بضعة أمتار فى طريقنا!

ودون أن يقولها صراحة فقد راودنى إحساس لازمنى منذ بدأت عمليات التفاوض بين العرب وإسرائيل ملخصه أن المَلِك ينتظر أن تتطور الأمور إلى نوع من الخيار الأردنى لا يسعى المَلِك له، لكن هذا الخيار سوف يسعى للمَلِك بطبائع الأمور.

لكن اتجاه الحوادث بدا الآن وقد اتخذ لنفسه منحنى آخر.

وتلك الليلة فى مطعم «سانتينى» فى لندن كان اتفاق «أوسلو» أمام كل الناس ومعه الأسوأ منه، وهو ذلك الاحتفال المقرر فى واشنطن، فى البيت الأبيض، وبحضور «بيل كلينتون»، وإلى جانبه «عرفات» من ناحية، ورابين من ناحية أخرى - بينما هو

(الملك حسين) بعيد عن الأحداث والأضواء فى مطعم إيطالى فى لندن!

وما كدت أجلس إلى المائدة وأسأل الملِك رأيه فيما جرى - حتى انطلق.

ولم أكن وحدى الذى اندهشت، وأحسب أن الملِكة نور كانت أكثر اندهاشا منى.

يومها لم يكن الملِك هو الذى يتكلم، وإنما الإنسان فيه بمشاعره المتناقضة لا يخفيها ولا يداريها. ولقرابة ساعة لم يوفر الملِك طرفا، ولم يقصر فى أوصافه لأحد. وأظن أن ما سمعته منه تلك الليلة عن الأحداث والرجال فى المنطقة وفى العالم سوف يظل فى ذاكرتى - وفى أوراقى - شهادة فَوّارة وتلقائية على دخائل السياسة العربية وطبائع المشاركين فى صنعها على المستوى الإقليمى والدولى - وبدون مجاملة أو تزويق مما تصنعه المساحيق!

ومرة أخرى، فقد كان ما يقوله - الآن - يعيد طرح مسألة شخصيته وقضية الحقيقة فى شأنه.

□ □ □

إن البحث عن الحقيقة - فى شأن الرجال أو الأحداث - لا يتطلب من الناس أن يبادروا بالحكم، وإنما أن يسعوا للفهم، وبعده وليس قبله يحق لهم أن يقرروا كما رأوا وكيفما شاءوا!

وسبب ذلك الطلب أن الحقيقة ليس لها وجه واحد، وإنما وجوه الحقيقة متعددة.

وحتى فى حالة أى شخص عادى أو أى حَدَث سياسى، فليس هناك - بالفعل - وجه واحد للحقيقة، فكل شخص عادى له شكل وشبه، وهذا وجه من الحقيقة. وله اسم وأسرة، وهذا وجه آخر. وله وطن وهوية، وهذا وجه ثالث.. وله تجربة وعمل، وهذا وجه رابع، وهكذا، وهكذا.. ونفس الشيء فى أحداث السياسة.

وفى حالة شخص سياسى فإن ثنائية الرجال والأحداث تتداخل مع بعضها بمعنى أن وجوه الحقيقة الإنسانية تبقى - ثم تزيد عليها وجوه الحقيقة السياسية وهى أيضا متعددة:

* حكم الجغرافيا هو الوجه الأول من وجوه الحقيقة السياسية.

* ثم إن حكم التاريخ هو الوجه الثانى من وجوه هذه الحقيقة.

* ويجىء حكم العصر ـ الزمن ـ ليكون الوجه الثالث.

* وأخيرا يقع حكم التجربة ـ كما فى حالة الشخص العادى ـ لأن التجربة هى القاسم المشترك فى توجيه تصرفات الناس خارج أحداث السياسة أو فى قلبها.

وفى حالة كل الناس، فإن أحكام الوجوه المتعددة للحقيقة ـ إنسانية وسياسية ـ تسرى فى الأفعال وردود الأفعال بطريقة لا يكاد يلحظها أحد لأنها مكونات «شخصية متكاملة» لا يفصح أى جزء منها عن نفسه منفصلا عن بقية الأجزاء، بل تتفاعل المكونات طبيعيا مع بعضها ـ إلا فى استثناءات قليلة تظل فيها الوجوه المتعددة للحقيقة منفصلة.. متجاورة، لكنها متباينة!

وفى حالة المَلِك «حسين» بالذات، فإن الاستثناء يبلغ مداه لأن الوجوه المتعددة للحقيقة تظهر مثل الوشم مرسومة وظاهرة ـ ولعله الضغط الزائد عن الحد لكل وجه من وجوه الحقيقة.

والواقع، إن شخصية المَلِك «حسين» بما يتداخل فيها إجمالا وتفصيلا يَصْعُب فهمها ـ حتى وإن استحال فى بعض الأحيان تبريرها ـ إلا بالنظر إلى وجوه الحقيقة المختلفة، وهى فى حالته كما قلت: رسوم وشْمٍ جرى دقه دقا على جلد لحمه الحى!

[٢]

وإذا بدأنا بحكم الجغرافيا وهو بالفعل أهم وجوه الحقيقة فيما يتعلق بالأردن وملكه ـ فسوف يتأكد أن الجغرافيا كانت شديدة الصرامة مع الاثنين. فتلك دولة اصطُنِعَت بقرار سياسى خلافا لما هو طبيعى فى نشأة الدول، وكان إنشاؤها بتوجيه من «ونستون تشرشل» وزير المستعمرات البريطانى أثناء مؤتمر عُقِد فى القاهرة برئاسته فى فندق «سميراميس» وعلى جدول أعماله مستقبل الممتلكات البريطانية فى الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى وما وقع خلالها وبعدها من أحداث أهمها معاهدة «سايكس بيكو» التى قَسَّمت إرث الخلافة العثمانية أنصبة بالاتفاق بين بريطانيا وفرنسا، ومن ثم رَسَمَت للمنطقة خريطة جديدة.

كان وزير المستعمرات البريطانى «ونستون تشرشل» هو المهندس الأول للخريطة على الجانب البريطانى، وقد راح يخطط، وبين ما خط موقعٌ تَحَيَّر الذين رسموه فى اختيار اسم له، ثم كان أن استعملوا وصفا جغرافيا بسيطا هو «شرق الأردن». والدول لا تسمى فى العادة على هذا النحو، والمألوف أن الدول الجديدة تستعيد اسما قديما ينسب نفسه إلى أصل تاريخى، أو سلالة بشرية، أو قبيلة، أو نهر، أو حتى لغة ـ لكن نسبة الأوطان إلى اتجاهات أو مواقع على خريطة، سابِقَةٌ لم تحدث من قبل.

وعلى أى حال فقد كانت للضرورات أحكامها، وظهرت إمارة «شرق الأردن» و«عبد الله» على عرشها.

□ □ □

لكن الخريطة كان عليها موقع آخر اختار له أصحابه اسما من أساطير التاريخ وليس من تضاريس الجغرافيا: إسرائيل.

والواقع أن قرار إنشاء «شرق الأردن» يمكن اعتباره ملحقا إضافيا إلى معاهدة «سايكس بيكو»، وهو رابط بينها وبين وعد «بلفور» الذى أعطى اليهود حقا بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين.

والشاهد أن «شرق الأردن» تكاد تكون مساحة على خريطة تنطق حدودها بالمطلوب منها مجملا على النحو التالى:

١ ـ إذا كانت المملكة الجديدة هى «شرق الأردن» ـ فإن غرب الأردن هو فلسطين حيث أعطت بريطانيا لليهود حقا بإنشاء دولة يهودية. وإذا كان إنشاء دولة يهودية مطلوبا ـ فإن نقطة مراقبة وحراسة ـ بريطانية وعربية إذا أمكن ـ تصبح مطلوبة، على مقربة.

٢ ـ إن موقع «شرق الأردن» محشور بين الحجاز (المملكة العربية السعودية فيما بعد) وبين سوريا ـ وفى نفس الوقت محشور بين العراق وبين الدولة اليهودية الموعودة ـ وإلى حد ما بين العراق وسوريا أيضا.

٣ ـ إنه مع ظهور احتمالات البترول المؤكدة فى مناطق الخليج وشبه الجزيرة العربية ـ ومع إمكانات ظهور دولة يهودية لا يزال قيامها وحجمها وقدرتها وقبول الجيران بها. أسئلة تنتظر ـ فإن «شرق الأردن» وحتى يبين جواب الأسئلة يمكن أن يقوم بدور

حاجز بين اليهود فى فلسطين ومنابع النفط العربى، وخصوصا إذا تأزمت العلاقات - وهى مُعَرَّضة فى الغالب أن تتأزم - بين اليهود والعرب!

٤ - إن المنطقة التى اقتُطِعت لإمارة «شرق الأردن» فقيرة وتكاد تكون بلا موارد، ثم إنها فى حالة شبه حصار حيث حشروها، وهذا يجعلها فى حاجة دائمة إلى مساعدة أجنبية. و«الأمراء العرب(و«عبد الله» أولهم) يُفَضِّلون سؤال الغريب على القريب»، وذلك يجعل بريطانيا فى وضع فريد، فهى الغريب القريب فى نفس الوقت، وإذا كانت هى التى خططت ورسمت وأنشأت وساعدت، فإن الكلمة العليا لابد أن تكون لها.

ومهما يكن فإن التكاليف محدودة - اثنا عشر مليون جنيه استرلينى سنويا، نصفها لحكومة المَلِك «عبد الله»[٣]، ونصفها الآخر لجيش يرفع رايته.

٥ - إن قيام كيان سياسى فى «شرق الأردن» تحميه بريطانيا وتتحكم فيه، يصنع بالفعل نقطة اتصال أساسية بين أهم القواعد العسكرية الإمبراطورية فى الشرق الأوسط. وكانت قاعدة قناة السويس غربا فى مصر وقاعدة الحبانية شرقا فى العراق هما أهم هذه القواعد. وفى «شرق الأردن» جرى إنشاء قاعدة «الزرقاء» فى المفرق وهى نقطة فى الوسط تماما من خط المواصلات البريطانى بين وادى النيل وأودية دجلة والفرات.

وهكذا جرى رسم حدود دولة «شرق الأردن» وتعيين «عبد الله» أميرا عليها - وكذلك تقرر إنشاء جيش لها روعى أن يكون جنوده من البدو بتصوُّر أن ولاء المقاتل البدوى مضمون لشيخ قبيلته - أو للأمير الكبير فوق شيخ القبيلة، وقد اختير لهذا الجيش اسم «الفيلق العربى»، ونُصِّب على قيادته ضابط بريطانى هو «جون باجوت جلوب»، وبقصد تعريب الجنرال البريطانى، فقد منحه الأمير «عبد الله» رتبة الباشوية الهاشمية فأصبح اسمه «جلوب باشا»!

ثم كان أن أصبح «الفيلق العربى» أقوى الجيوش فى المنطقة بكفاءة تدريبه وكفاية سلاحه رغم صغر حجمه.

□ □ □

(٣) كان مُرتَّب الملك «عبدالله» ثلاثة آلاف جنيه استرلينى فى الشهر(٣٦ ألفا فى السنة) - وكان المَلِك يشعر أن المبلغ لا يكفيه، وابتداء من الثلاثينات بدأ المَلِك يتلقى عائدا منتظما من جهات يهودية تولت أمر استغلال أملاك له فى فلسطين.

إن ذلك الدور الذى حكمت به الجغرافيا على إمارة «شرق الأردن» ظهرت فوائده فى الحرب العالمية الثانية حين أصبحت منطقة «المفرق» مرتكزا رئيسيا لقيادة القوات البريطانية فى الشرق الأوسط - كما أصبح الفيلق العربى الذى اتخذ قيادته فى قاعدة «الزرقاء» طليعة القوات البريطانية التى ضربت انقلاب «رشيد عالى الكيلانى» - ١٩٤٠ - وأعادت الفرع «العراقى» للأسرة الهاشمية إلى عرش بغداد بعد طرده منها. وقد تكرر نفس الشىء بعد ذلك حين أصبح الفيلق العربى (والفيلق اليهودى أيضا) - طليعة قوات الجنرال «ميتلاند ويلسون» عندما طرد الألمان من سوريا - يوليو ١٩٤١ - بعد أن جاءوا إليها بسماح من حكومة «فيشى» التى قامت فى فرنسا بعد سقوط باريس واستسلامها أمام جيوش «هتلر»!

إن ذلك الموقع الجغرافى بعد ذلك هو الذى وضع الفيلق العربى داخل فلسطين عندما بدأ مشروع إنشاء الدولة اليهودية يأخذ شكله النهائى بعد الحرب العالمية الثانية، وكان دخول هذا الفيلق إلى فلسطين ضمن قيادة قائد القوات البريطانية فيها وتحت تَصَرُّف حاكمها العام الجنرال «آلان كننجهام». وكان شاغل «كننجهام» فى الشهور الأخيرة للحكم البريطانى فى فلسطين هوحصر العنف الصهيونى وردة الفعل العربية تجاه هذا العنف، وكان العنف الصهيونى وردة الفعل العربية إزاءه كلاهما يُجرِّب قدر ما يستطيع أن يفرض أمرا واقعا على الحكومة البريطانية قبل انسحابها من فلسطين، وفى ذلك الوقت كانت الخطط اليهودية تستقوى بالإمبراطورية الجديدة الباذخة التى خرجت منتصرة من الحرب العالمية الثانية وهى الولايات المتحدة الأمريكية - وكان رد الفعل الفلسطينى يتمنى أن يستقوى بالدول العربية المحيطة بفلسطين.

وهكذا، فإن حكم الجغرافيا وضع عرش «شرق الأردن» (الأردن فيما بعد) وسط دوامة السياسة، وتقاطع النيران، وضباب الحرب وبرقها ورعدها - وفى قلب الحدود والتخوم بين مصر والعراق، وبين سوريا والسعودية، وبين العرب واليهود، وبين فلسطين وإسرائيل، وبين بريطانيا وأمريكا.

وباختصار، فإن موقع الأردن الذى كان بالجغرافيا الطبيعية بقعة ساكنة على الخريطة - أصبح بالجغرافيا السياسية فوهة بركانية متفجرة أو مستعدة للتفجير عند أى حركة محسوبة أو غير محسوبة.

ذلك عن حكم الجغرافيا وقد كان قاسيا!

[٤]

إذا كانت تلك قسوة الجغرافيا على مملكة المَلِك «حسين» وقت إنشائها فى عهد جده - فإن قسوة التاريخ كانت أشد.

إن المملكة كانت بغير تاريخ قديم يخص الشعب الذى يعيش فيها حين أنشِئت الدولة الجديدة وأقيم عرشها - إلا بمقدار ما يخص التاريخ العربى فى مجمله كل العرب فى عمومهم.

والشاهد أن المنطقة التى أنشئت فيها إمارة «شرق الأردن» كانت محرومة من وفرة الموارد، ولهذا فإنها لم تعرف مجتمعات مستقرة تترك وراءها بمضى العصور تراكمات حضارية متواصلة.

ولأن المنطقة كانت قبل الإسلام وبعده مسالك طرق من الجنوب إلى الشمال، ومن الشرق إلى الغرب - فقد ظهرت عند بعض تخومها آثار شعوب وإمبراطوريات علا نفوذها فى المنطقة، ومشت جيوشها أو سارت قوافلها عبر الأردن. ثم إنه على طرق زحف الجيوش وحركة القوافل نشأت مراكز محدودة للعمران ظلت آثارها باقية مثل معبد «بترا» والملعب الرومانى فى قلب عَمَّان، ثم مقابر لبعض قُوّاد الفتح العربى للشام استشهدوا بالسيف فى الجهاد أو بالعطش وسط التيه، ثم حُفِظت قبورهم شاهدا إذا صدق الرواة. كذلك بقيت أطلال بيوت أريد لها فى زمانها أن تكون ملاذا بعيدا لبعض أمراء الأمويين إذا أوحشتهم حياة الصحراء.

لكن المنطقة فى عموم أحوالها كانت ممرا أكثر منها مستقرا، ومَعْبَرا أكثر منها مقاما.

□ □ □

كانت عَمَّان التى وصل إليها ركب الأمير «عبد الله بن الحسين» معاتبا لأبيه ومغاضبا لشقيقه الأصغر منه - قرية صغيرة تتناثر بيوتها على مجموعة من التلال. وكانت حياتها تجارة محدودة وزراعة فى واحات محصورة حول بئر هنا أو بئر هناك. ثم بعض مبانٍ إدارية تركتها الإمبراطورية العثمانية وراءها حين كانت عَمَّان محطة ضرورية على الطريق من دمشق إلى مكة والمدينة فى الحجاز.

ولم يكن الأمير «عبد الله» شديد السعادة بالإمارة التى أقطعه إياها وزير المستعمرات البريطانى، وقد قال وقتها، وظل يقول حتى سمعتها منه سنة ١٩٤٨ - أن هناك «ممالك دون ملوك» وهناك «ملوكا بدون ممالك»، وكان يُصَرِّف المعنى على هواه وهوى سامعيه، فـ «المملكة بلا مَلِك» فى بعض الجلسات هى السعودية - وفى بعض الجلسات هى العراق - بل وفى إحدى المرات - على الأقل - هى مصر - لكنه هو «عبد الله بن الحسين» فى كل الأحوال كان «المَلِك بلا مملكةٍ»!

وفى صميم قلبه - وعلى لسانه إذا وجد من يسمع ويكتم السرّ - فإن المَلِك «عبد الله» لم يكن سعيدا على الإطلاق بمن يراهم حوله من ملوك العرب. فالملوك السعوديون مُغتَصِبون للمُلك مرتين: من أسرة «الرشيد» فى نجد، ومن أسرته هو - والده مباشرة - فى الحجاز. والملوك المصريون «ألبان»، لا هُم من العرب ولا هُم من قريش، ثم إنهم يتعاملون مع بقية الأمراء باستعلاء رغم أنهم بلا حَسَب ولا نَسَب يعطيهم سببا للفخار. وحتى ملوك العراق رغم أنهم إخوته وأبناؤهم - خانوا الأخ والابن، وخطفوا العرش العراقى ممن يستحقه وهو (عبد الله) أولهم وأكثرهم جدارة لأنه أكبر من شقيقه الملك «فيصل» وأسبق فى الاتصال بالإنجليز لترتيب الثورة ضد العثمانيين.

ومن هنا بالتحديد، فإن تاريخ الهاشميين يصبح مقدمة لا غِنى عنها فى فهم سياسة الأردن من عصر الجد «عبد الله بن الحسين» إلى عصر الحفيد «حسين بن طلال»!

□ □ □

* وتاريخ الهاشميين بالدرجة الأولى **مشكلة**.
* وحكايتهم من القرن السابع الميلادى وحتى القرن العشرين **مأساة**.
* ثم إن التعقيدات التى صنعوها وصنعتهم - **مشكلة ومأساة** - تركت آثارها عليهم وعلى التاريخ الإسلامى، وعلى السياسة العربية المعاصرة من وقتها وإلى اليوم - وكانت النتائج - ولازالت - **مُرْهِقة**!

....

....

* إن المشكلة بدأت حين تصور البعض من أسرة الرسول ﷺ أن لهم حقا فى خلافته، ثم

رأت غالبية من المسلمين أن النبوة ليست مِلْكا يؤول إلى عائلة «محمد» ﷺ بعد انتقاله إلى الدار الأخرة.

وكانت تلك هى القضية المثارة علنا أو همسا فى المجتمع الإسلامى طوال الجزء الأكبر من عصر الخلفاء الراشدين، وكانت ضمن العوامل التى أدت إلى الفتنة الكبرى وقد حسمها «معاوية» - أو هكذا بدا وقتها - بقيام دولة الأمويين.

* وكانت المأساة أن «معاوية» لم يكتف بالنصيحة كما فعل «أبو بكر» و «عمر» و«عثمان»، وإنما قاد عملية تمرد ضد «علىّ» (وهو أول خليفة من أسرة الرسول ﷺ)، ثم إن «معاوية» قاد العالم الإسلامى إلى تجربة إنشاء دولة قوية (تحولت إلى إمبراطورية إسلامية عظمى). وهى دولة لم تكن طول عمرها على استعداد - بالطبع - لقبول دعاوى بالأحقية فى الخلافة لغيرها، وكان بين النتائج ما سُمِّى فى الأدبيات الإسلامية بـ«مصارع الطالبيين» (نسبة إلى «على بن أبى طالب»)، وكان أشهرها مذبحة كربلاء واستشهاد «الحسين».

واستفحلت **المشكلة** واستفحلت **المأساة** معها حينما اختلفت أسرة النبى ﷺ نفسها مع بعضها - هاشميين وعباسيين وعلويين، إلى آخره. . وكانوا أشد على بعضهم من شدة غيرهم عليهم.

ونتيجة التفاعل بين **المشكلة والمأساة** جاءت التعقيدات التى صنعها الهاشميون كما صنعتهم، وهى باختصار (وحتى لا يتوه أحد فى سراديب الماضى وكهوفه) - كما يلى:

١ - أن الهاشميين اعتقدوا وظلوا على اعتقادهم بأنهم أصحاب حق فى ولاية الأمر - ومنطقهم أن صلتهم بالنبى ﷺ لا يمكن أن تكون مصادفة.

٢ - أن عامة المسلمين، أغلبية المسلمين، لم تعترف لهم بهذا الحق مؤيدة لفكرة أن الرسالة اختيار إلهى لرجل اصطفاه ربه وحده، وأى حديث عن أسرته - ينقل الأمر فى الإسلام من الخلافة برضا الناس إلى المُلْك بالإرث حتى وإن غطته مظاهر البيعة!

٣ - لكن الهاشميين لم يقتنعوا، ولأنهم لم يقدروا على المطالبة الصريحة إزاء إجماع معظم المسلمين، فإن عتبهم على الأمة ظهر وزاد، فقد كان مناهم أن تُقَدِّم لهم ما اعتقدوا أنه حقهم دون أن يضطروا هم إلى المطالبة به.

٤ - وإزاء ذلك الوضع المعقد فإن الهاشميين فى كل ما سعوا لتحقيق مطلبهم - حاولوا سرا

ولم يحاولوا جهرا. وعلى هذا فإن دورهم عبر التاريخ اكتسب على نحو ما طابع العمل الخفى - وأحيانا لحقته شبهة المؤامرة!

٥- والشاهد أنه من عصر الأمويين إلى عصر العثمانيين فإن الهاشميين تحركوا دائما ومن وراء عواصم كل دولة إسلامية فى التاريخ ومن مكة إلى دمشق، ومن الكوفة إلى إستانبول - وكانت حركتهم فى كل الاتجاهات ومع كل قريب أو بعيد! - تصوروه قادرا على فهم لغة الإشارات!

٦- وربما نتيجة لذلك أن الهاشميين صنعوا ما يمكن حسبانه لغة خاصة تقول بالعين ما لا ينطق به اللسان، وتُعَبِّر بجمل توحى ولا تبوح، وقد تفاقم الإبهام المقصود - والذى أصبح طبيعة فيما بعد - إلى درجة يمكن معها تمييز «أسلوب هاشمى» فى الكلام أو الكتابة، يقبل كل تأويل ويحتمل أى معنى.

٧- ومع مرور السنين والقرون فإن الخطاب الهاشمى غلبت عليه نبرة من الإحساس بالاضطهاد والادعاء بالاستشهاد، فالأمة ضَنَّت عليهم بحقهم، ودولها الكبرى (الأمويين بالذات) ظلمتهم، واستباحت ذمامهم، وأهدرت دمهم - ثم لم ينتصر لهم أحد رغم تعاقب الدول - ومع أنهم استُعْمِلوا - أحيانا - رايات فى معارك الآخرين، إلا أنهم خرجوا فى النهاية - ودائما - صفر اليدين، لا دولة ولا عرش ولا تاج!

وأخيرا، فقد قَيَّض الله لهم من أنصفهم من الظلم بما فيه «كيد الأعداء وحَسَد الأمراء» - طبقا للنص الرسمى الذى أصر عليه الشريف «حسين» حين قَدَّم لحلفائه البريطانيين مشروع اتفاقه معهم!

ولم ينجح مشروع الشريف «حسين»، ولكن اثنين من أبنائه - «فيصل» و«عبد الله» - عثر كل منهما لنفسه على عرش: أولهما فى بغداد، وثانيهما فى عَمَّان!

[٥]

إن الأمير «عبد الله» الذى أقام مضارب خيامه على جبل عَمَّان، بدأ يبنى بيتا هناك يتخذه مَقَرا يحكم منه إمارته الجديدة «شرق الأردن»، ثم راح يمد بَصَره إلى الضفة الأخرى للنهر حيث الأرض الخضراء والمراكز الحضرية للمجتمع الفلسطينى الذى هزته اليقظة العربية

العامة بعد انتهاء الحرب وإعلان الرئيس الأمريكى «وودرو ويلسون» بحق شعوب المستعمرات فى تقرير مصيرها، والآمال التى تعلقت بمؤتمر الصلح فى «فرساى» حيث كان الرجاء أن يظهر نظام عالمى جديد!

وفى ذلك الوقت وفى تلك الأجواء، فإن الحلم الذى تَبَدَّى على الفور للأمير «عبد الله» والذى أقنعه بقبول إمارة «شرق الأردن» مقدمة لجائزة أكبر منها ـ كان حلم فلسطين، فلو استطاع أن يمد إمارته من «شرق الأردن» إلى غربه وأطل على البحر الأبيض إذن فإنه يصبح مَلِكا لمملكة كبرى لا تقل أهمية عن مملكة العراق التى كانت من نصيب شقيقه الأصغر «فيصل». ثم لعله إذا أخذ فلسطين أحاط بعدها بسوريا، وإذن أصبح قريبا من الحلم الذى راود والده وأصحابه ـ بدولة عربية كبرى تملأ الهلال الخصيب من البحر الأبيض إلى الفرات!

ولم يكن الأمير «عبد الله» فى حاجة إلى جهد كبير لكى يدرك أن العقبة الكبرى أمام مشروعه هى الوعد البريطانى بوطن لليهود فى فلسطين، ولقد أدرك أهمية «وعد بلفور» ـ كما أدركه من قبله أخوه المَلِك «فيصل» حين رَتَّب له «لورانس» أن يلتقى قرب «العقبة» بالدكتور «حاييم وايزمان» رئيس الوكالة اليهودية الشهير (وأول رئيس لدولة إسرائيل فيما بعد). وفى ذلك اللقاء وكما تبين من نصوص محاضره ـ فإن «فيصل» تَبَيَّن أن قبوله بحق اليهود فى فلسطين هو جواز مروره إلى أى مملكة فى المشرق ـ وقد قَبِل.

ولما كان الأمير «عبد الله» أكثر طموحا من شقيقه، فإنه لم يكن فقط على استعداد لأن يَتَبيَّن ويَقْبَل، ولكنه كان على استعداد لأن يساعد ويُسَهِّل، وهكذا فإنه عرض على الوكالة اليهودية وطنا قوميا فى إطار حكم ذاتى (فيدرالى) داخل حدود مملكته.

وبذلك العرض فإن الأمير «عبد الله» أثبت أنه تعامل مع اليهود دون أن يعرف شيئا عن حجم مشروعهم، وقد تصور أنه يستطيع أن يستعمل طموحهم لتحقيق حلمه، وكانوا أقدر منه على استعمال حلمه لتحقيق طموحهم.

□ □ □

وعندما أصدرت الأمم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ فقد كان المَلِك «عبد الله» لا يزال أسير أوهامه، يتعامل مع الوكالة اليهودية، ويقابل جميع أقطابها ـ مدنيين وعسكريين (وايزمان ـ جولدا مائير ـ إلياهو ساسون ـ وحتى موشى ديان) لكنه

ظن وحتى آخر لحظة أنه يستطيع إغراءهم بفيدرالية داخل مملكته «حقنا للدم وابتغاء وجه السلم»!

إن الوكالة اليهودية سارت فى مخططها الذى أعدت نفسها وسلاحها ونفوذها له منذ صدر وعد «بلفور» وأعلنت قيام إسرائيل، وتلاءم أمير «شرق الأردن» بسرعة مع المخطط الجديد، ولم يكن لديه غير ذلك لأن جيشه كان يحمل رايته دون أن يلتزم بأمره.

ومن قبل أن يدوى صوت الرصاص فى حرب فلسطين بعد إعلان قيام إسرائيل، فإن المَلِك «عبد الله» رَتَّب نفسه على أن يكون الجزء المخصص للعرب بقرار التقسيم امتدادا لملكته، لكن إسرائيل لم تترك له الفرصة، وإنما زحفت مندفعة إلى بعيد وراء خطوط التقسيم. وكان أن تواضع مطلب «عبد الله» إلى القبول بأخذ ما تبقى من فلسطين بعد عاصفة النار الإسرائيلية، وفى سبيل تحقيق ذلك، فإن المَلِك «عبد الله» راح يعمل - وبكل الوسائل - على خروج جميع العرب الآخرين من فلسطين بحيث لا يظل على أرضها من العرب غيره، وقد وصل فى ذلك إلى حد التلاقى الكامل فى النوايا - وترتيبا على ذلك فى الخطط - مع إسرائيل، وكانت وطأة هذا التلاقى شديدة على الجيش المصرى فى الجنوب كما تؤكد الوثائق. وعندما سكتت المدافع فإن حرب ١٩٤٨ انتهت، وقد استولت إسرائيل بالغزو المسلح على ٧٢٪ من الأراضى غرب الأردن (مرة ونصف بالزيادة عن قرار التقسيم).

وكان أن قنع المَلِك «عبد الله» بأن يأخذ ما تبقى غرب الأردن من أشلاء فلسطين ويضمه إلى إمارته يحَوِّلها إلى مملكة تعقد له البيعة عليها.

لكن المَلِك «عبد الله» فى هذا كله كان يحتاج إلى غطاء شرعى، وكان الغطاء الشرعى جاهزا.

ومن وقتها زاد التركيز على عنصر المسئولية التاريخية الخاصة والدور السياسى الخاص الموكول إلى «الهاشميين» استنادا لهذه المسئولية.

وكانت تلك دعوة راجعة عكس حركة الزمن، وربما أن بعض آثار الماضى البعيد جرى استخراجها من حفائر طبقات غائرة فى تربة التجربة العربية والإسلامية وأعيد بعثها لكى تخدم مطالب مستجدة وطارئة، ومع أن تلك كانت عِلَّة ملائمة أخذ بها الإنجليز فى ظروف الحرب العالمية الأولى، فإن الاستمرار فيها وتحويلها إلى سياسة - شملت صياغة اسم البلد ذاته (المملكة الأردنية الهاشمية) - أصبح مخاطرة لا لزوم لها لأنها تضفى على بعض

التصرفات الصحيحة أو الخاطئة مسحة من العصمة تصد عنها حق الدرس والمناقشة والتقييم بدِقَة وموضوعية وبدون تَحَرُّج من رموز يُعاد بعثها بعد زمانها!

□ □ □

وليس هناك شك أن مسار التاريخ عرف أدوارا عظيمة لرجال ونساء من الهاشميين ـ لكن هذا التاريخ لم يعرف مسئولية معينة موكولة إلى أسرة بعينها ويكون على الجميع أن يُسَلِّموا لها بما يترتب على ذلك من حقوق، بما فى ذلك عصمة تغطى على أى قول أو فعل.

لكن بعض أمراء الأسرة الحاكمة فى عَمَّان بالذات بالغوا فى تقديم الأسطورة الهاشمية وجعلوا منها حقيقة سياسية ليس يحق إنكارها، ووصل بعضهم فى المبالغة إلى بعيد!

وأذكر أننى ناقشت المَلِك «حسين» فى ذلك مرات، وكان يأخذ ويعطى، لكن الغريب أن آخرين كانوا على تصميم أن يأخذوا فقط!

ومن المفارقات أن الأمير «حسن» شقيق الملك «حسين» الذى نُحِّى عن ولاية العهد فى ظروف وملابسات لم تعد الآن سرا ـ كان يشرف على مؤسستين: أولاهما تحت اسم «المنتدى» واختصاصها أن تكون مركزا للدراسات السياسية والإستراتيجية، أما المؤسسة الثانية فقد كان اسمها «مؤسسة آل البيت»، وهو وصف ملتبس إلى درجة التلغيم بما لا داعى له من مظان.

وأتذكر أننى (ما بين سنتى ١٩٩٥ و١٩٩٨) كتبت ونشرت تفصيلا وتحليلا عن دور ـ أو حلم ـ يتصوره الهاشميون لأنفسهم فى مستقبل العراق. وكان الأمير «حسن» عندما يعن له أن يناقشنى فى قضية يكتب إلىّ بمَوَدَّة ورغبة فى الإقناع ـ لكنه فى تلك الفترة آثر أن يبعث إلىّ برسائل شفوية مع صديق له ولى، وكان مؤدى رسائله:

«إننى تجنيت على الهاشميين بما ذكرت عن نواياهم فى مستقبل العراق، وذلك قَدَر الهاشميين أن يظلمهم الناس عبر عصور التاريخ وأن يشككوا فى مقاصدهم ويروا فى تصرفاتهم ما ليس من طبائعهم. ويظنوهم أطرافا فى خطط خفية، وتحركات سرية، ومغانم يريدونها لأنفسهم غيلة من حق غيرهم ـ وليس ذلك إنصافًا».

ثم تضيف الرسائل الشفوية ما مؤداه:

«إن الهاشميين لا يعرفون ما يسمى بالتعبير المصرى الشائع «تدبير المقالب» للإخوان أو للشعوب أو للأمة».

وفى الأسابيع الأخيرة وحين كانت عَمَّان مسرحا لكل ما جرى فيها، خصوصا للأمير «حسن»، فقد هممت أكثر من مرة أن أبعث إليه برسالة أسأله إذا كان متأكدا من أن «تدبير المقالب» على فرض صحة إسناده إلى تعبير مصرى - ليس له مقابل هاشمى؟!

....

....

[والآن طلب إذن للخروج عن النص:

أقول فيه إننى كنت أتمنى لو أتاحت لى الظروف أن أرى الأمير «حسن» وأن أسمع منه وجهة نظره فيما جرى، لكن ذلك لم يحدث، وإنما حدث شىء آخر هو أننى سمعت نقلا عنه من أحد أفراد أسرة ملكية أوروبية التقاه فى مناسبة العزاء وزاره فى نهاية يوم طويل مرهق وثقيل.

إن الضيف المَلَكى الأوروبى - الذى أحجب اسمه بناء على طلبه - سأل الأمير «حسن» عن تفسيره لتصرف أخيه معه؟ وكان رد الأمير «حسن» أن «دهشته مما حدث لا تَقِلّ عن دهشة «سائله»، فقد كان آخر ما تلقاه من المَلِك قبل وصوله إلى الأردن بأسبوع (وهى عودته الأخيرة لبلده والتى أجرى خلالها تغييرات على قمة السلطة وضمنها عزل شقيقه عن ولاية العهد) - هو خطاب حمله إليه أحد مرافقى المَلِك، وكان مكتوبا بخط يده ومُوَجها إليه باعتباره «أخى - وقرة عينى - وولى عهدى». وفى هذه الرسالة أعطى المَلِك لشقيقه توجيهاته بما يريد أن يكون عليه استقباله فى المطار، بما فى ذلك مَن يستقبله داخله ومن يستقبله خارجه، وكيف يكون موكبه! - وفى نفس هذا الخطاب طلب المَلِك أن تكون هناك سِجّادة جاهزة للصلاة موجهة إلى القِبْلة قبل نزوله من الطائرة. وكانت الإشارة الوحيدة الملفتة للنظر أن المَلِك قال لولى عهده «أنه يريد أن يطوف موكبه بشوارع عَمَّان الرئيسية، وأن تكون مسيرة الموكب كله مذاعة مباشرة على الهواء مهما أخذت من الوقت لأنه يريد أن يشكر «أسرتنا الكبيرة». ثم أضاف المَلِك «أنه يرى أن لا يركب معه شقيقه لأن ظروف الأمن - مع دقة الموقف - تقتضى ألا يكون المَلِك وولى عهده معا فى نفس السيارة»!

وروى الأمير «حسن» لضيفه مستغربا «أنه ذُهِل من الخطاب الذى وجهه إليه المَلِك

علنا وحوى تُهَمًا لم يكن لها سبب»، وقد أدهشه أن الخطاب على قسوته أُعطى لكل وسائل الإعلام قبل أن يقرأه هو، وكان يتوقع على الأقل أن يسأله شقيقه فيما بلغه عنه وأن يسمع دفاعه.

وعلى سبيل المثال (طبقا لما قاله الأمير «حسن») فهو لم يعترض على طلب المَلِك أن يكون أحد أبنائه (أبناء المَلِك) وليا للعهد بعد الأمير «حسن»، وإنما كان موقفه هو الحرج من طرح مسألة الخلافة على هذا النحو الصريح بينما المَلِك مازال على قيد الحياة، و«مع ذلك فإن المَلِك لو أراد لكان له حق الأمر فى ولاية العهد وليس طلب الرأى».

وكانت رواية الأمير «حسن» أنه على العكس من كل ما قيل كان حريصا على شعور شقيقه رغم أن جهات دولية أبلغته أن «الملِك فى عداد المُنتَهى» ـ وكان هناك من طلب منه ترتيب الأمور على هذا الأساس، ولكنه ـ من جانبه ـ رفض لأنه لم يتصور أن يتصرف على أساس أن شقيقه «ميِّت» فيما هو على قيد الحياة ـ لا يزال!

وقال الأمير «حسن» أيضا إن أصعب ما واجهه فى حياته بعد إذاعة خطاب الملك العلنى بأسباب عزله ـ هو كيف يشرح لأبنائه ما وقع له دون أن يُعرِّضهم «إنسانيا لصدمة»، أو يضع ولاءهم «للأسرة» و«للمَلِك» فى امتحان عسير.

وقال الأمير «حسن» أيضا إن «خلعه عن ولاية العهد بطريقة تشبه الانقلاب» وضعه فى حرج شديد إزاء آخرين. فلسنوات طويلة (خمس وثلاثين سنة) تعامل معه كثيرون باعتباره وليا للعهد ونائبا للمَلِك، وقد تعاملوا معه «بوصفه الرسمى» وليس بصفته الشخصية، وبعضهم بسبب طبيعة المسئوليات الموكولة إليهم اقتربوا منه إلى درجة أنهم «حُسبوا من رجاله». ومبعث الحرج الذى يحس به (الأمير) الآن هو أن الطريقة التى خرج بها، أو عُزل بها، وضعت الذين تعاونوا معه جميعا فى «خانة» المشتبه فيهم أو «على الأقل غير الموثوق بهم»، وهذا يصيبه بكثير من عذاب الضمير حيالهم، وهو يجد نفسه حتى عاجزا عن أن يتصل بهم ولو «ليعتذر»!

وأكد الأمير «حسن» لضيفه أنه عندما سمع أن قلب شقيقه تغير عليه نتيجة لعملية تحريض كبرى ركزت عليه وقت مرضه ـ طلب منه أن يطلق النار عليه إذا خالجه الشك فى ولائه ـ «ولكن لا تترك أحدا يدخل بيننا».

وتدخلت زوجته الأميرة «ثروت» فى الحديث بين زوجها وضيفه ـ تنفى ما نُسب

إليها من أنها زارت أحد القصور المَلَكية وأجرت فيه إصلاحات وكأنها أصبحت بالفعل ملكة جلست مع زوجها على العرش.

وقالت الأميرة «ثروت» إنها حزينة أن يقال هذا الكلام لأن الحقيقة كانت شيئا مختلفا. وطبقا لرواية الأميرة «ثروت» فإنها أُبلغت رسميًّا أن زوجة رئيس ألمانيا التى كانت مع زوجها فى زيارة دولة إلى إسرائيل (١٧ نوفمبر ١٩٩٨) أبدت رغبتها أن تجىء إلى الأردن لكى تزور آثار «بترا». إن زوجة رئيس ألمانيا قالت: «إنها لا تتصور أن تكون قريبة إلى هذه الدرجة من أثر له شهرته العالمية دون أن تزوره بينما هى الآن على خطوة قدم منه». ورأت الأميرة «ثروت» أن تتأكد من أحوال القصر الذى سوف تنزل فيه قرينة الرئيس الألمانى، فذهبت وأطلَّت عليه وكان القصر مُهْمَلا بسبب غياب المَلِك وأسرته عندما كان يُعالج فى «مايو كلينيك» (بالولايات المتحدة)، وقد أشارت الأميرة «ثروت» ببعض الإصلاحات «وبهدف تنظيف القصر بحيث يكون لائقا بضيافة زوجة الرئيس الألمانى - وهذا هو كل شىء».

إن الضيف المَلَكى الأوروبى الذى سَمِعْت منه استطرد قائلا لى: «إنه تأثر إلى أبعد مدى حين سمع صديقه الأمير «حسن» يقول له وهو يُوَدِّعه: «أن ما جرى حرمنى حتى من حق البكاء على أخى، فلا أستطيع الآن أن أذهب إلى قبره إلا فى الليل حتى لا يرانى أحد يضايقه وجودى أو يضايقنى وجوده»!

وإلى هنا ينتهى هذا الخروج عن النص بعودة إلى سياقه الأصلى]

....

....

ولما كان هدف هذا الحديث كله هو الفهم قبل الحكم - فلابد من الاعتراف بأن الهاشميين فى بعض الظروف كانوا ضحايا تجربة صنعوها وصنعتهم - لكنه من سوء الحظ أن الأمة دفعت ضرائب هذه الظروف، وكذلك دفع «الهاشميون».

وربما كان المَلِك «حسين بن طلال» نفسه أكثر دافع لضرائب المشكلة والمأساة، وقد بدأ «حسين» يدفع وهو صبى فى الثانية عشرة من عمره تصادف وقوفه بجوار جده المَلِك «عبد الله» على أبواب المسجد الاقصى بعد انتهاء صلاة الجمعة فى أحد أيام شهر يوليو ١٩٥١، وكان الذى أطلق عليه الرصاص فلسطينيا - ضمن مليون فلسطينى أضيفوا إلى رعاياه حين أضاف إلى مُلكِه ما تبقى من فلسطين - ولم يكن هذا الفلسطينى الذى أطلق

الرصاص مقتنعا بالغطاء الهاشمى عصمة كافية لتصرفات المَلِك «عبد الله» فى فلسطين.

وكان الرصاص المدوى والدم المسفوح على عتبات المسجد الأقصى بداية وَشْم التاريخ بالحريق على لحم صبى هاشمى بدأ يواجه قَدَرَه ويستعد لدوره - مَلِكا على الأردن لمدة ست وأربعين سنة!

[٦]

«الجغرافيا ظل الله على الأرض»، و«التاريخ ظل الإنسان على الطبيعة» - وبين الاثنين يدير كل إنسان تجربته - أو يحاول - فى مناخ عصر بذاته. وهنا يحين موضع الحديث عن دور العصر وحكمه فى صنع شخصية المَلِك.

إن طفولة المَلِك «حسين» لم تكن سعيدة، ولم يكن السبب هو الفقر الذى اضطر أمه إلى بيع دراجته كى يصرفوا من ثمنها - كما روى المَلِك فى مذكراته - والحقيقة أن تلك الرواية تَزَيُّد! - ذلك أن الهاشميين فى عَمَّان لم يكونوا فى ذلك الوقت ضمن الأغنياء، لكنهم على وجه القطع لم يكونوا من الفقراء، وكان لدى الأمير «طلال» ولى العهد الأردنى ما يكفيه ليعيش مع أولاده دون أن يضطروا إلى «بيع دراجة» مستعملة لا يزيد ثمنها فى ذلك الوقت عن دينارين أو ثلاثة.

لكن التعاسة فى حياة أسرة ولى العهد (الأمير طلال) أن علاقته بوالده المَلِك «عبد الله» كانت سيئة لخلافات شملت كل شىء تقريبا: من المشاكل المادية، إلى صحبة الناس، إلى آراء بدت للمَلِك العجوز طائشة، إلى سلوك كان غالبا موضع انتقاده.

وفى ذات الوقت فإن علاقة ولى العهد (الأمير طلال) بزوجته الأميرة «زين» لم تكن على ما يرام لأن زوجها هجرها إلى فتاة إيطالية اسمها «فلافيا» كان أبوها طبيبا جاء من بلاده إلى عَمَّان يفتح مستشفى صغيرا وجد دَخْلَه منه أفضل بكثير مما كان يستطيع الحصول عليه لو بقى فى بلاده.

□ □ □

وكان الصبى الهاشمى الذى أصبح مَلِكًا على الأردن بعد مشاهد درامية متلاحقة بينها

شقاء والدته، ومصرع جده، والحجر بالجنون على أبيه ـ يرى هذا كله من حوله ويختزن فى نفسه ويجتر، وتتراءى له مشاهد من الماضى البعيد ومن الماضى القريب، وتزيد عليه ضغوط **المشكلة والمأساة** فى تاريخ الهاشميين ويتضخم شعوره بالحق الضائع، وبالتوازى معه تزداد عقدة الاستشهاد.

ثم إن المَلِك الصبى كان يتأمل أوضاع بلده ويشعر حتى دون أن يُدرك ـ أن الدواعى التى تشعره بعقدة الاضطهاد ليست تاريخية، وإنما هى سياسية أيضا. فمملكته محشورة بين من هم أقوى منها، ونصف شعبه وهو من فلسطين ناقم على أسرته إلى درجة القتل، وموارد بلده منحة من القوى الكبرى التى رسمت حدوده وأقامت عرشه وانفردت بالنفوذ فى عاصمته، ومن حوله مجموعة دول عربية كلها تسىء الظن فى أسرته لسبب أو آخر (السعوديون بعداء قديم مع الهاشميين، وسوريا باعتقاد أن الأردن جزء سُلِخ من جنوبها، ومصر من تجربة حرب فلسطين).

ثم إن كونه وافدا إلى العرش الأردنى شابا جديدا لم يكن كافيا ليُغفَر له إلا إذا تحرك على هوى الآخرين بسرعة يعرف هو قبل غيره أنه ليس قادرا عليها بطبيعة الظروف، خصوصا وقد كان الجميع (كل العرب) أمام قوة إقليمية لديها مطامع تتخطى ما حصلت عليه من أرض، وقد هضمت ما ابتلعت، وهى الآن شهية مفتوحة لالتهام الضفة الغربية من مملكته، وإذا استطاعت فإنها جاهزة أن تمد يدها إلى الشرق وفى خططها أن تقترب أكثر من منابع النفط فى العراق والخليج وأن تدخل بالقوة والقسر ـ طرفا رئيسيا فى موارد المنطقة الاقتصادية والإستراتيجية.

وكان على المَلِك «حسين» ـ وتلك نصائح جده ـ أن يوفر لنفسه من الحذر ما يجعله ولو بالغريزة ـ قبل الحكمة ـ يرسم لنفسه سياسات تضمن كل متطلبات السلامة والنجاة ـ وكذلك تحددت خطوط سياسته:

١ـ عليه أن يتمسك بعلاقته بالقوة العظمى المهيمنة على بلاده وفى المنطقة.

٢ـ ومع أنه عرف أن جَدَّه حين قُتِل كان يتفاوض على صلح منفرد مع إسرائيل، فإن الظروف تفرض عليه أن يتمهل ولا يتوقف تماما مع إسرائيل، وأن ينتظر الظروف وفى نفس الوقت لا يتخطى الحدود ولا حتى بالهمس أو باللمس!

٣ـ وعليه أن يجد لنفسه قدر الإمكان أصدقاءً من العرب ـ لأن لديه بالفعل بينهم من الأعداء كفاية.

٤ـ وهو مُطالَب فى ذلك كله بأن يعطى نفسه مرونة فى الحركة، فهو لا يستطيع بسبب تعارض الضغوط أن يسير فى أى طريق إلى نهايته.

٥ـ وخلال ذلك كله فليس أمامه إلا أن يخفى مشاعره وعواطفه وأن يكتم نواياه وسياساته، وأن يمسك بأعصابه وأحيانا على حساب كرامته الشخصية، وأن يواجه كل الناس وكل الأحداث بابتسامة عريضة ـ لأنه ببساطة لا يملك ترف الغضب ـ على الأقل إظهار الغضب!

□ □ □

وبعد سنة على العرش ـ ١٩٥٢ ـ كان المَلِك ـ فيما بدا أمامه ـ يواجه ما لا طاقة له به:

أولا ـ حدث تغيير كبير فى موازين القوة فى الشرق الأوسط، وأخذت الإمبراطورية البريطانية تتراجع وتترك موقع السيطرة فى المنطقة للإمبراطورية الأمريكية الصاعدة إلى قيادة الغرب بسرعة الصاروخ.

ثانيا ـ ثم إن هذه القوة الإمبراطورية الأمريكية تريد قيادة العالم وليس قيادة الغرب وحده، ولهذا فقد دخلت إلى صراع عنيف عقائدى وسياسى وعسكرى (إلى حد ما) مع القوة الأخرى التى خرجت منتصرة معها فى الحرب العالمية الثانية وهى الاتحاد السوفيتى.

ثالثا: وفى إطار الصراع بين الكبار (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى) فإن الولايات المتحدة تطرح على المنطقة حلفا عسكريا تحت قيادتها ـ وبالفعل فقد تَحَمَّس له الفرع الهاشمى فى بغداد، وعليه هو الآن فى عَمَّان أن يختار. وفى الواقع فلم يكن حق الاختيار الحر مطروحا عليه، وإنما كان مطلوبا منه أن يسارع ويلتحق.

رابعا: لكن هناك تيارات فى المنطقة تقاوم المخطط الأمريكى الجديد وتخشى منه أكثر من الاستعمار البريطانى العجوز، وكان بين هذه التيارات حزب البعث العربى الاشتراكى فى سوريا ـ والتيار السلفى الدينى تمثله حركة الإخوان المسلمين ـ ثم وبطبيعة الأحوال كل الأحزاب الشيوعية التى نشطت تحت الأرض ـ وفوقها بقدر ما سمحت لها الظروف ـ فى عواصم العالم العربى بدون استثناء تقريبا.

خامسا: وبالتحديد والتخصيص فقد كانت مصر فى عهد المَلِك فاروق ووقت وزارة الوفد الأخيرة (١٩٥٠ ـ ١٩٥١) تعارض هذه المخططات، وكانت المملكة العربية السعودية إلى جانب مصر، وكانت الأسباب عديدة اختلط فيها الوطنى بالعائلى والشعبى بالقبلى، إلى آخره.

سادسا: وكانت إسرائيل مع فكرة هذا الحلف العسكرى طالما أنه سوف يُدخِلُها - بطبيعة الحال - فى شراكة مع العالم العربى تفرض بالضرورة قبول أوطانه بالصلح معها على أساس الأمر الواقع - فإذا تحقق ذلك، فإن إسرائيل تثق سلفا فى قدرتها أن تكون القوة الإقليمية الأولى فى المنطقة بنفوذها فى العالم، وبطش سلاحها، وكفاءتها فى استيعاب التقدم بما فيه ثورة العلوم التى تراكمت خلال تجربة الحرب العالمية الثانية ثم انطلقت بعد انتهاء الحرب تغزو كل نواحى الحياة المدنية فى عالم جديد.

....

....

سابعا: وفجأة وفى هذا المناخ الذى تتزاحم فيه الأفكار والتيارات والسياسات والجيوش - فجأة صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ فى مصر قامت ثورة ٢٣ يوليو - ثم ظهر «جمال عبد الناصر».

....

....

حكمت الجغرافيا - وحكم التاريخ - وحكم العصر.

ثم جاء الدور على التجربة الإنسانية للمَلِك «حسين» لتكون الوجه الرابع للحقيقة فى شأنه وفى شخصيته.

[٧]

من المفارقات الملفتة أن تجربة المَلِك «حسين» تقاطعت بشكل واضح مع الدور الذى قام به «جمال عبد الناصر» فى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين.

وفيما رواه لى المَلِك «حسين» بنفسه (أثناء لقاء فى باريس)[٤] أنه مع سنة ١٩٥٥ أصبح شديد الإعجاب بـ «جمال عبد الناصر» إلى درجة أنه وضع صورته على مائدة

(٤) لقاء طويل مع المَلِك «حسين» فى فندق «كريون» فى باريس — سبتمبر ١٩٦٣ — وكان الذى جاء لاصطحابى من غرفتى فى الدور الثانى إلى الجناح المَلَكى فى الطابق الأعلى هو المقدم «عمر المدنى» الملحق العسكرى الأردنى فى سوريا ولبنان ذلك الوقت، وكان المرافق العسكرى للمَلِك فى زيارته تلك للعاصمة الفرنسية.

بجوار سريره، «وكان يتمنى لو أنه وضعها على مكتبه لكنه خشى أن تَجُرّ عليه من المشاكل ما لا داعى له».

وكانت دعوة «جمال عبد الناصر» ـ هكذا قال المَلِك ـ إلى مقاومة الاستعمار هى التى جعلته يتردد فى الانضمام إلى حلف بغداد منذ طُرِح مشروعا مبكرا سنة ١٩٥٣.

وحين عُرِض على الأردن رسميا أن ينضم إلى الحلف سنة ١٩٥٤ ـ فإن المَلِك لم يكن متحمسا، وقد زاد الضغط البريطانى عليه لدرجة أن رئيس أركان الحرب الإمبراطورى وهو الماريشال «جيرالد تمبلر» كُلِّف ـ خريف سنة ١٩٥٥ ـ بالذهاب إلى عَمَّان والبقاء فيها حتى يضمن انضمام الأردن.

وعندما فشلت محاولة الماريشال «تمبلر» وسقطت محاولة جَرّ الأردن إلى حلف بغداد، تضايق الملك «حسين» لأن «بعض الناس اعتبروا فشل «تمبلر» فشلا له (للمَلِك) ـ وكان ذلك من وجهة نظره «افتراءً على الحق» أساء إلى مشاعره وظَلَمَه. ومن المحتمل أن هذا الافتراء على الحق كان من العوامل التى أغرت المَلِك على اندفاعة قصد بها أن يستعيد لنفسه ما حسبه «حقا» و «عدلا».

وهكذا وجد المَلِك نفسه يقترب من مجموعة من ضباط جيشه تعاهد معهم على «تحرير الإرادة الأردنية» بطرد «جلوب باشا» وتأكيد سيطرة الحكم الوطنى فى الأردن على قواته المسلحة. ومع أن تلك كانت خطوة بالغة الخطورة فإن المَلِك قام بتأمين ظهره عن طريق إخطار الكولونيل «جيمس سوينى» الملحق العسكرى الأمريكى فى سفارة الولايات المتحدة فى عَمَّان. ولعل «سوينى» لم يحاول إثناء المَلِك عن عزمه لأن تلك كانت لحظة انتقال الإرث الإمبراطورى فى المنطقة. ولقد عرف بعض الضباط الوطنيين ذلك الوقت أن المَلِك تحدث فى طرد «جلوب» باشا مع الأمريكان، لكن الذين عرفوا لم يعتبروا ذلك فى حينه خرقا مخيفا لأن حركات وطنية عديدة كانت ـ تلك الأيام ـ على استعداد لأن تلعب على التناقض بين قوتين إمبراطوريتين. والشاهد أن الوجه القبيح للسياسة الأمريكية لم يكن قد ظهر بعد، ثم إن كثيرين تَصَوَّروا أن فرصة تغيير الحرس الإمبراطورى البريطانى القديم بحرس أمريكى جديد كفيلة بأن تفتح الباب لألف فرصة وفرصة.

ومن هذا المنطلق فإن مغامرة المَلِك وإن بدت مجازفة شديدة ـ كانت فى الوقت نفسه مجازفة محسوبة. (وتَكشَّف فيما بعد [من شهادات ووثائق] أن السفارة الأمريكية فى عَمَّان ـ بما فيها ممثل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ـ تَحَمَّست لطرد «جلوب» لأن

ذلك سوف يرفع شعبية المَلِك ويجعله قادرا على دخول حلف بغداد محميا بشعبية طرد «جلوب»).

□ □ □

ويقول المَلِك (وهذه الآن عودة إلى ذلك اللقاء فى باريس) أن تيار الحوادث فى المنطقة ابتداء من طرد «جلوب» (باشا) من الأردن فى مارس ١٩٥٦ وحتى تأميم قناة السويس فى يوليو ١٩٥٦ تحَوَّل إلى شلال متدفق يهدد بأن يجرف أمامه كل شىء بما فى ذلك كيان الأردن. وفى رأى المَلِك أن «عناصر غير مسئولة» حاولت دفع الموقف فى بلده إلى أكثر مما تحتمله الحقائق.

ويروى المَلِك: «أن الضغط زاد عليه عندما بدأت حرب السويس لأن شعبه راح يدفعه دفعا إلى دخول الحرب مع مصر، وكانت تلك وصفة لكارثة مؤكدة فى رأيه». ووجد نفسه فى مأزق عنيف بين ما يحسه من رغبات شعبه وبين ما يراه من خطر على بلده، ولم ينقذه غير «جمال عبد الناصر» الذى اتصل به على التليفون المفتوح يرجوه ألا يخضع لأى ضغط ولا يفكر فى التدخل عسكريا فى القتال الدائر بين مصر وإسرائيل (وبريطانيا وفرنسا) فى سيناء وبورسعيد.

ويروى المَلِك: «أن جمال عبد الناصر قال له: إننا قررنا إخلاء سيناء بعد الإنذار البريطانى الفرنسى، وبالتالى، فإن الجيش المصرى سوف يركز معركته على منطقة القناة، ومعنى ذلك أن هذا الجيش لن يكون فى وضع يسمح له بمساندة الأردن إذا قررت إسرائيل انتهاز الفرصة لاحتلال الضفة الغربية للأردن، وإذا حدث ذلك فهو خطر عاجل - ذلك أنه إذا دخلت إسرائيل سيناء فتلك مسألة تَقْدِر مصر عليها فور انتهائها من تصفية العدوان البريطانى الفرنسى فى منطقة القناة - وحتى إذا بقيت إسرائيل خلال ذلك أسابيع أو شهورا فى سيناء، فإنها لن تستطيع تغيير طبيعة الأرض فيها، بينما الأمر فى الضفة الغربية مختلف لأن إسرائيل سوف تفعل ما بدا لها. وباختصار، فإنه إذا احتلت إسرائيل سيناء فخروجها محقق بالغصب أو بالحرب، وأما إذا دخلت ضفة الأردن الغربية فإن خروجها سوف يكون معركة أكثر صعوبة».

ويواصل المَلِك «حسين» روايته قائلا: «إن جمال عبد الناصر خَوَّله أن ينقل لمن يشاء فى الأردن مجمل رأيه منسوبا إليه، وهو على استعداد لأن يتحمل مسئوليته السياسية

والتاريخية. وقد فعل المَلِك، ولكن بعض الناس (كذلك قال المَلِك) أرادوا أن يكونوا ناصريين أكثر من الرئيس عبد الناصر نفسه - ولقينا مصاعب من بعضهم عندنا فى الأردن». ثم يستدرك المَلِك: «لكنى مضطر أن أقول لك بصراحة أن آخرين من عندكم كانوا يفسدون الأمور ويُحَرِّضون دون فهم أو اطلاع.. وهذا فرض علينا فيما بعد أن نتصدى لأن المسألة تَحَوَّلَت إلى حياة أو موت»!

وهكذا فإنه طوال سنة ونصف السنة - خريف سنة ١٩٥٥ وحتى شتاء سنة ١٩٥٦ - كان المَلِك فى حالة ذهاب خطر إلى الحافة - وعودة خطرة من الحافة!

□ □ □

ومع بداية سنة ١٩٥٧ جاء مفترق طرق بالغ الأهمية فى تجربة المَلِك «حسين»، وفى التجربة السياسية العربية المعاصرة كلها.

انتهت حرب السويس فى ديسمبر ١٩٥٦ باضطرار بريطانيا وفرنسا إلى الانسحاب من بورسعيد، وكان ذلك الانسحاب هو الإعلان الرسمى بنهاية الإمبراطوريات القديمة (بريطانيا وفرنسا).

ثم انتقل المطلب الإمبراطورى فى المنطقة إلى الولايات المتحدة التى طرحت فى بداية سنة ١٩٥٧ وفى مطلع مدة الرئاسة الثانية للجنرال «دوايت أيزنهاور» - مشروعا لحماية المنطقة أطلق عليه فعلا اسم «مبدأ أيزنهاور». وكان «مبدأ أيزنهاور» فى تقدير السياسة المصرية ذلك الوقت مجرد تعبئة أمريكية جديدة مزوقة لنفس مطلب السيطرة الذى اهترأ وعاؤه البريطانى القديم.

وكان المَلِك «حسين» يرى ما يحدث وحسابه (طبقا لروايته) كما يلى:

- لقد استطاع أن يقاوم دخول حلف بغداد رغم ضغط شديد مارسه الماريشال «تمبلر» عليه، لكنه هذه المرة يواجه ما هو أصعب، فالولايات المتحدة التى تقدمت لتمسك بمقادير الشرق الأوسط - ليست الإمبراطورية البريطانية التى غرقت فى مياه قناة السويس - وإنما هى قوة أخرى تملك وسائل السيطرة العالمية بغير منازع.

- والعناصر الوطنية فى الأردن لم تعط المَلِك فرصة كافية، وإنما سارت إليه الجموع تطالبه برفض مشروع «أيزنهاور»، وكان فى بنود هذا المشروع كثير عن مساعدات مالية للأردن هو فى حاجة إليها ولا يستطيع ببساطة أن يرفض عرضا أمريكيا سخيا بها. وقد

وصل المَلِك فى النهاية إلى أن مصلحة « العائلة الأردنية» تقتضيه أن يقف ضد الرأى العام فى البلد، ثم هاله أن أصداء ما يجرى فى الشارع الأردنى وصلت إلى الجيش، وكان عليه أن يتصرف بأقصى الحزم وأقسى الإجراءات.

ـ وكانت الدعاية المصرية ضد مشروع «أيزنهاور» (كذلك يقول المَلِك) زيتا صَبَّتْه إذاعة «صوت العرب» على نار مشتعلة فى عَمَّان ـ وحسب تعبير المَلِك بالنص ـ «وقد كادوا يحرقون كل شىء ولا يبقون على أخضر أو يابس، ونحن بلد صغير لا يحتمل...».

....

....

وفى المحصلة النهائية فإن المَلِك «حسين» قاد انقلابا ضد قوى شعبية كثيرة فى بلده، وقوى وطنية معروفة فى جيشه. والمشكلة أن الانقلاب لم يكن عملية محض أردنية، وإنما كانت وكالة المخابرات المركزية الأمريكية طرفا فاعلا فيه بالتمويل والتخطيط والتنفيذ وبطريقة كادت تكون علنية، وثبت فيما بعد ـ وبالوثائق ـ أن عملية الانقلاب فى الأردن جرت بحضور وتخطيط «كيرميت روزفلت» مسئول المخابرات المركزية الأمريكية الشهير فى الشرق الأوسط، ثم إن عشرات ملايين الدولارات صُرِفَت فى عَمَّان لتدبير الأمور!

والظاهر أنه فى تلك الظروف، مشى المَلِك «حسين» مع مفترق الطرق إلى الحواف الأكثر وعورة.

□ □ □

إن المَلِك «حسين» ظهر بعد ذلك، بظله أو بصورته مرئية من بعيد، خلال أزمات مهمة مما عرفته المنطقة وعاشته، وبين هذه الأزمات بالتحديد أربع:

* الأزمة الأولى: هى أزمة الانقلاب على الوحدة بين مصر وسوريا. ففى يوم وقوع ذلك الانقلاب (٢٨ سبتمبر ١٩٦١) وصلت إذاعة الأردن نفسها بإذاعة الانفصاليين من دمشق، وذهب المَلِك بملابسه العسكرية ومسدسه فى حزامه إلى رئاسة أركان حرب الجيش الأردنى مستعدا للطوارئ، وكان الحديث فى رئاسة الأركان الأردنية أن «سَيِّدنا (أى الملك حسين) هو مُدَبِّر ذلك الانقلاب لطرد مصر من سوريا عقابا لها على تأييدها لانقلاب العراق (١٤ يوليو ١٩٥٨) ـ الذى قُتِل فيه كل أفراد الفرع العراقى من الأسرة

الهاشمية. ولما كان المَلِك «حسين» قد اعتبر الثأر لأبناء عمومته واجبا يلقيه «التاريخ الهاشمى» عليه، فقد كان مطالبا أن يتصرف» (هكذا نقلوا عنه)!

والواقع إن المَلِك لم يتصرف وحده، وإنما كانت معه (كما تُظهر الوثائق) وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (كيرميت روزفلت ـ شخصيا ـ مرة أخرى)، وكان المُمَوِّل الرئيسى لمؤامرة الانقلاب هو المَلِك «سعود» ـ (الذى قال لى بنفسه أثناء لقاء بيننا بعد لجوئه إلى مصر فى ديسمبر ١٩٦٦ أنه دفع حوالى خمسة عشر مليون دولار ضمن تكاليف هذا الانقلاب). وعلى أى حال فلم أكن فى حاجة إلى تأكيد إضافى حتى أرى ظل المَلِك «حسين» وصورته على خلفية أزمة الانفصال لأننى فى ذلك اللقاء فى فندق «كريون» بباريس سنة ١٩٦٣ (وأثناء محاولة المَلِك حسين لطَىِّ صفحة الماضى وطلب فتح صفحة جديدة، وكان ذلك مطلبه فى هذا اللقاء كى أنقله إلى جمال عبد الناصر) ـ سألت المَلِك صراحة عن دوره فى الانفصال، واعترف به وتبريره «أنه كان غلطة» (ونَشَرْت بالفعل تقريرا طويلا عن لقائنا ضمن مقالى الأسبوعى فى الأهرام «بصراحة» فى العدد الصادر يوم الجمعة ٢٧ سبتمبر ١٩٦٣)ـ وأكدت قول المَلِك على لسانه (ولم يعترض): «إنه يعترف أن دوره فى الانقلاب على الوحدة كان غلطة».

* وكانت الأزمة الثانية التى ظهر فيها المَلِك، بظله أو صورته، هى أزمة حرب اليمن التى قامت ضد أسرة «حميد الدين» (يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢) ـ وكانت قوات الملكيين فى اليمن قد خيمت على الحدود مع السعودية وراحت تضغط عسكريا على الثورة الوليدة فى صنعاء، وتدخلت مصر لحماية الثورة، وسارع المَلِك «حسين» إلى إرسال طيرانه من عَمَّان يحمل أسلحة وذخائر إلى بقايا النظام القديم فى اليمن. وكانت المفاجأة القاسية التى تلقاها المَلِك وأصدقاء له أن قائد الطيران الأردنى (العقيد سهل حمزة) قاد سربا أردنيا إلى القاهرة بحمولات طائراته من السلاح والذخيرة مرسلة إلى الملكيين فى اليمن!

وحين أدرك أصحاب هذه الخطط الملكية أن استخدام قوات مسلحة عربية ضد التيار الكاسح للحركة القومية ـ مخاطرة غير مأمونة، فإن الجميع لجأوا إلى الاستعانة بقوى خارجية. ثم إن عملية واسعة لاستئجار مرتزقة أجانب نشطت فى باريس ولندن، وكانت النتيجة أن مسرح القتال فى اليمن شهد دخولا واسع النطاق لجيش (بضعة آلاف) من

المرتزقة الأوروبيين من الإنجليز إلى الفرنسيين إلى الألمان، وحتى من إيطاليا وأسبانيا والبرتغال!

□ □ □

والملفت أن ترتيب هذه العملية آل إلى مجموعة من النواب البريطانيين كان على رأسهم «جوليان إيمرى» رئيس مجموعة المحافظين المعارضة للانسحاب البريطاني من السويس ومن العالم العربى بأسره. وكان «جوليان إيمرى» شخصا يستحق التوقف ـ أو التوقيف ـ لفحص هويته:

هو ـ أولا ـ ابن اللورد «ليو إيمرى» الذى كان سكرتيرا عاما لمجلس الوزراء البريطانى أثناء الحرب العالمية الأولى (وقبل أيام قليلة من وفاة المَلِك «حسين» أذيع نقلا عن الوثائق البريطانية أن «ليو إيمرى» هو الذى كتب بخط يده مسودة «وعد بلفور» تعهدا بريطانيا بوطن قومى لليهود فى فلسطين. وتكشف أن «ليو إيمرى» يهودى هاجرت أسرته من أوروبا الشرقية فى أواخر القرن التاسع عشر ـ إلى الغرب، ثم اندمج فى مجتمعه الجديد حتى وصل إلى مواقع القرار فى الإمبراطورية البريطانية).

وكان «جوليان إيمرى» ـ ثانيا ـ مرتبطا بمصاهرة رئيس الوزراء البريطانى فى ذلك الوقت «هارولد ماكميلان»، فقد تزوج «جوليان» من «أليس» ابنة «ماكميلان» وزوجته الليدى «دوروثى» ـ وبالتالى فإن «إيمرى» الابن أيضا أصبح شديد القرب من مركز صنع القرار البريطانى فيما بعد العهد الإمبراطورى.

وثالثا ـ فإن «جوليان إيمرى» كان هو الذى تولى فى شهر مارس سنة ١٩٦٥ ترتيب اجتماعات بين شخصيات عربية وشخصيات يهودية، وكان ضمن الاجتماعات لقاء بين المَلِك «حسين» وبين الجنرال «موشى ديان» ـ رئيس أركان حرب الجيش الإسرائيلى ـ وقد تم هذا اللقاء فى بيت «جوليان إيمرى» نفسه فى «إيتون سكوير» ـ لندن ـ (وقد نَشَرْت بعض التفاصيل عن هذا اللقاء فى الجزء الثانى من كتاب «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» صفحة ١٣٤[٥] ـ ونَشَرْت وسَنَدى فيما نَشَرت (وقد كتبت ذلك نصا) هو «جوليان إيمرى» نفسه الذى دعتنى معه إلى فنجان شاى فى بيتها الليدى «جيلكو» وهى

(٥) صدر الكتاب ضمن مجموعة «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل» عن دار «الشروق» خلال سنة ١٩٩٦.

أرملة القائد البريطانى الأميرال لورد «جيلكو» قائد الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض بين الخمسينات والستينات).

وقد روى لى «إيمرى» (ونَشَرت عنه ذلك أيضا): «أن الملِك حسين قدم نفسه متحدثا باسم آخرين معه فى المنطقة يشاركونه أهدافه لكنهم لا يملكون جرأته». وقال لى «إيمرى»: «إن هدف الاجتماع كان تنسيق جهود أعداء عبد الناصر العرب مع إسرائيل». وقال مُعَقِّبا: «إن أطرافا كثيرين فى العالم العربى كانوا على استعداد للتعامل مع الشيطان ضد ناصر». وأضاف «جوليان» مُوَجِّها ملاحظته إلىّ: «وعلى أى حال فإن إسرائيل ليست الشيطان مهما كان رأيك فيها»!

وفى لقاء مع الملِك «حسين» فى لندن بعد نشر الجزء الثانى من كتابى عن «المفاوضات السرية» ـ ١٩٩٦ ـ فتحت معه هذا الموضوع وقلت له: «إننى عندما نشرت واقعة اجتماعه مع ديان سنة ١٩٦٥ فى بيت جوليان إيمرى لم أشأ أن أحدده بالاسم مُعْتَمِدا على رواية جوليان إيمرى وحدها» ـ وكان رد الملِك غامضا لا هو بالنفى ولا التأكيد، وقد قال بسرعة:

«يا أخى.. الآن بعد أن جرى كل ما جرى لم يعد فى مقدور أحد أن يحاسب غيره على أنه اجتمع بالإسرائيليين ـ أين؟ ومتى؟».

ولم أشأ أن أضغط ـ وربما لأنه لم يعد هناك معنى للجدال مع الملِك فى شىء أقدم عليه كثيرون غيره من الساسة العرب!

□ □ □

* وأخيرا ـ ولم يكن آخرا ـ تجىء الأزمة الثالثة التى ظهر فيها ظل الملِك «حسين» وصورته، وهى الدور الذى قام به فى سنة ١٩٦٧ ـ وكنت كما أسلفت فى مقدمة هذا الحديث نَشَرْت فى كتاب «الانفجار» (١٩٩٠) وقائع ظننتها بالغة الخطورة، وهى بالفعل كذلك ـ بينها:

١ ـ أنه عندما بدأت أزمة الحشود الإسرائيلية ضد سوريا تتفاعل مع موجبات تأهب مصرى لنجدتها، وصلت المشاعر فى العالم العربى إلى درجة غير مسبوقة من التعبئة، ثم وصلت التعبئة إلى الذروة الخطرة عندما أغلقت مصر خليج «العقبة» أمام الملاحة الإسرائيلية، وكان ذلك نذيرا بأن الحرب مسألة أيام ـ وفجأة يوم الثلاثاء ٣٠ مايو وصل الملِك «حسين» إلى القاهرة يطلب اجتماعا مع «جمال عبد الناصر» قائلاً: «إن

الشعب الأردنى لن يسمح له بأن يظل بعيدا عن المعركة رغم أى خلافات سبقت، ثم إنه هو نفسه ـ مع شعب الأردن ـ لا يستطيع أن يقف متفرجا فى معركة عربية مقدسة!

ومع أن التغيير المفاجئ فى موقف الملك «حسين» أثار تساؤلا ـ فقد نسبه الجميع إلى إحساس الملك بضغط الرأى العام فى بلده إلى جانب تَوَصُّله أكيدا إلى أن العرش الأردنى نفسه سوف يكون فى مهب الريح إذا قامت الحرب وبقى الجيش الأردنى بعيدا.

٢ـ وكان داعى التساؤل مرة ثانية ـ أن الملك طلب تعيين قائد مصرى للقوات الأردنية فى المعركة القادمة، بل واختار بنفسه واحدا من ألمع الضباط المصريين وهو الفريق «عبد المنعم رياض» الذى عرفه أثناء عمل الفريق «رياض» رئيسا لأركان حرب القيادة العربية الموحدة (فى إطار ميثاق الضمان العربى الجماعى).

ثم أصر الملك «حسين» على أن يأخذ «عبد المنعم رياض» معه فى الطائرة ليتولى قيادة الجيش الأردنى من أول لحظة، وكان السفر إلى عَمَّان مساء ٣١ مايو ١٩٦٧ (أى قبل خمسة أيام من الهجوم الإسرائيلى على سيناء).

٣ـ إن الملك «حسين» أثناء اجتماعاته فى القاهرة مع «جمال عبد الناصر» تَطَوَّع بالسماح للجيش العراقى بدخول الأردن للمشاركة فى المعركة، والجميع يعرف أن دخول قوات عراقية إلى الأردن واحد من النذر التى تعتبرها إسرائيل مبررا لشن الحرب. وبدا ذلك مستدعيا لتساؤل ثالث ـ لكن أحدا لم يدقق.

ثم إن الملك «حسين» اجتمع أيضا فى القاهرة ـ وفى حضور «جمال عبد الناصر» ـ بالسيد «أحمد الشقيرى» رئيس منظمة التحرير الفلسطينية وأخذه ـ مع الفريق «عبد المنعم رياض» ـ فى طائرته إلى عَمَّان. وكان ظهور رئيس منظمة التحرير الفلسطينية فى عَمَّان بدوره نذيرا آخر مما تعتبره إسرائيل مبررا لشن الحرب ـ والملك «حسين» أول من يعرف ذلك. ومع أن تصرفه فى هذا الأمر أثار هو الآخر تساؤلا رابعا. . . وخامسا وسادسا، إلى آخره ـ فإن أحدا ـ رغم تكرار التساؤلات ـ لم يتوقف ليدقق لأن الكل كان مشغولا بالاحتمالات القادمة، ومأخوذا بفكرة أن يظهر الصف العربى كله محتشدا ومعبأً على خطوط النار، مع ظن أن ذلك فى حد ذاته قد يكون بين الروادع.

٤ـ وذهب الفريق «عبد المنعم رياض» إلى عَمَّان، وعاد منها بعد انتهاء القتال وهو يحمل هواجس وهموما ضاغطة على أعصابه.

فهو من البداية ـ رغم لقاءات متكررة بالملك «حسين» وعدد من قيادات الجيش الأردنى جرت فى إطار القيادة المشتركة ـ لم يكن مستريحا لفكرة أن يجد نفسه على رأس قوات لم يعرفها ولم تعرفه ـ وأن يكون ذلك فى ظروف حرب.

ولقد راوده على نحو ما إحساس بأن صلته بالقوات فى الميدان ليست سالكة، ولقد أحس أن بعض ما يُعرَض عليه من المواقف التى تتطلب قراره، يحمل دواعى الشك فى دقّته، وطبقا لتعبيره فقد أحس أنها كانت "Hollow" (مُجَوَّفة ـ فارغة من الداخل) ـ ثم تَحَوَّلَت هواجسه وهمومه إلى شكوك مُعَذِّبة حين عرف من مصادر خاصة ـ وقبل أن يغادر عَمَّان عائدا إلى القاهرة ـ أن خسائر الجيش الأردنى فى الدفاع عن الضفة الغربية بما فيها القدس لم تزد على ١٦ شهيدا ـ وبدا ذلك له مذهلا على ضوء ما كان يتلقاه من التقارير عن سير العمليات بواسطة ضباط الاتصال الذين أُلحِقوا بقيادته.

....

....

وفيما بعد ظهرت وثائق تتماشى فى أقل تقدير مع هواجس وهموم «عبد المنعم رياض»، وقد أتيح لـ«عبد المنعم رياض» أن يرى واحدة منها، لكنه استُشهِد قبل أن يرى بقيتها أو يعرف شيئا عنها. وكانت الوثيقة الواحدة التى عَرَف بها تقريرا من المخابرات العسكرية الأمريكية حصل عليه مندوب مخابرات مصرى فى نيويورك، وكان حصوله عليه فى ظروف لا تحتمل الشك فى صحة ما حصل عليه(٦). وكان نصها: «علمت أن مقابلة جرت بين رئيس الأركان الأردنى الجنرال «خماش» وبين السفير الأمريكى فى الأردن يوم الخميس أول يونيو ١٩٦٧، وفى هذه المقابلة طلب رئيس الأركان الأردنى من السفير الأمريكى سرعة نقل الطائرات المقاتلة «ف ١٠٤» من الأردن وعددها ٢٥ طائرة ـ وذلك بصفة مؤقتة حتى تنتهى الأزمة بين الدول العربية وإسرائيل».

وكان «عبد المنعم رياض» يستطيع أن يفهم معنى هذه البرقية أكثر من غيره، فقد تذكر وكتب فى تقريره عن مهمته فى الأردن «أن الطائرات من طراز «ف ١٠٤» لم يظهر لها أثر رغم تكرار سؤاله عنها».

---

(٦) ظروف الحصول على الوثيقة منشورة فى كتاب «الانفجار» (صفحة ٦٦٢ ـ ٦٦٦)، كما أن صورتها منشورة فى الملحق الوثائقى للكتاب (صفحة ١٠٣٠) ـ وقد صدر عن مركز الأهرام للترجمة والنشر سنة ١٩٩٠.

وكذلك عرف القائد المصرى المنتدب لقيادة القوات الأردنية على الجبهة أن الطيران الذى كان مفروضا أن يخدم خطته خرج من الأردن قبل الساعة التى تسلم فيها مسئوليته!

□ □ □

ولم يتح لـ «عبد المنعم رياض» أن يعيش ويطلع على وثائق أخرى إضافية لديها ما تقوله وبينه:

* أن الملك «حسين» قابل ضباطا إسرائيليين على مستوى عال فى الأردن يوم ٢٦ مايو ١٩٦٧ وأنهم أبلغوه بشكل ما هو قادم دون تفاصيل، وتركوا له مسئولية اختيار موقفه مع تحذيرات له بألا يتدخل فيها.

(محضر مجلس الوزراء الإسرائيلى يوم ٢ يونيو ١٩٦٧، وقد اطلع عليه وأشار إليه الدكتور «مايكل بريشر» وهو المؤرخ المعتمد لصنع القرار الإسرائيلى).

* وفى ذلك الاجتماع مع قادة إسرائيليين فإن الملك «حسين» أبدى أنه لا يستطيع فى حالة نشوب عمليات أن يقف موقف المتفرج لأن ضغط الشعب الأردنى عليه يمكن أن يطيح بالنظام، وأنه من الضرورى لسلامته أن يسمح له بهامش مناورة يُمَكِّنُه من مقاومة الضغوط.

وكان الرئيس الأمريكى «ليندون جونسون» (وهو المهندس الأكبر لعملية ١٩٦٧) على استعداد لتقدير موقف الملك، لكن الحكومة الإسرائيلية أبلغته (الرئيس جونسون) أنها تستطيع أن تتفهم وإنما إلى حد.

وفى جلسة مجلس الوزراء الإسرائيلى بتاريخ ٤ يونيو عرض الجنرال «ديان» الخطوط العامة لإستراتيجية إسرائيل فى معركة الغد كما يلى بالنص:

١ـ على الجبهة المصرية: الهجوم الرئيسى ـ هجوم شامل.

٢ـ على الجبهة السورية: موقف دفاعى إلا إذا وجدت القوات أنها فى موقف الدفاع عن نفسها.

٣ـ على جبهة الأردن: يطلب وزير الدفاع عدم إجراء أية مناقشة فى مجلس الوزراء حول هذا الموضوع.

(محضر جلسة مجلس الوزراء الإسرائيلى فى ٤ يونيو - وقد اطلع عليه ونقل منه «مايكل بريشر»).

* إن إسرائيل فى الصباح الباكر من يوم ٥ يونيو بعثت برسالة من رئيس الوزراء «ليفى أشكول» حملها كبير مراقبى الهدنة الجنرال «أُد بول» طلبت فيها إلى المَلِك «حسين» أن يبقى بعيدا، وإذا أراد تغطية موقفه فلابد أن يفعل ذلك بحذر. وبالفعل فقد سُمِح للجيش الأردنى بحرية إطلاق نيران محدودة وبدون رد عليها. وفى الساعة الحادية عشرة والنصف صباح يوم ٥ يونيو، وبعد أن تأكد أن الضربة الجوية ضد مصر نجحت، طلب الجنرال «أوزى ناركيس» القائد الإسرائيلى لقوات الجبهة الشرقية إذنا ببدء هجوم على الأردن، وقد رُفِض طلبه، وعاد الجنرال «ناركيس» يجدد طلبه فى الساعة الثانية عشرة وعشر دقائق، ورُفِض طلبه مرة ثانية، ثم رُفِض طلبه مرة ثالثة فى الساعة الثانية عشرة والنصف. وبعد ساعتين تماما أى فى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر تلقى الجنرال «ناركيس» أمرا بالهجوم الشامل لاحتلال الضفة الغربية بما فيها القدس (كان إغراء حلم أرض إسرائيل أكبر من أن يقاوَم، وإذا أراد الملك أن يناور مرة فإن إسرائيل لها نفس الحق فى مناورة العمر).

(كتاب «حياة على الحافة» صفحة ١١٨، ١١٩ - وهو سيرة معتمدة للمَلِك «حسين» كتبها عقب لقاءات متعددة معه الصحفى البريطانى «رولاند دالاس»، وقد نُشِر فى لندن سنة ١٩٩٨ ضمن مجموعة «صور مكتوبة»).

* إن الملحق العسكرى الأمريكى فى تل أبيب قال أثناء مناقشة مع وزير الدفاع الإسرائيلى: «إنكم فى إسرائيل أسأتم تفسير موقف المَلِك حسين فى حوادث الشهر الماضى دون مبرر»!

(برقية من الملحق العسكرى الأمريكى فى إسرائيل برقم ٢٥١٥٢٥ بتاريخ ٢٦ يوليو ١٩٦٧).

* إن وزارة الخارجية الأمريكية تلقت من القصر الملكى الأردنى فى عَمَّان مجموعة محاضر للقاءات قمة سياسية جرت فى القاهرة فى الأسبوع الثانى من يونيو ١٩٦٧، وقد شارك فيها المَلِك «حسين» والرئيس «هوارى بومدين» رئيس الجزائر مع الرئيس «جمال عبد الناصر»، وكان هدف القمة المحدودة فى القاهرة تقييم الموقف بعد ما جرى ورسم سياسة لما بعده.

(المحاضر تشير إليها برقية رمزية لوزارة الخارجية الأمريكية برقم ٤٩٤٥ بتاريخ ١٧ يوليو ١٩٦٧).

□ □ □

* وأخيرا - أخيرا - جاءت الأزمة الرابعة التى ظهر فيها ظل المَلِك وصورته، وقد أعلنتها هيئة الإذاعة البريطانية فى برنامج قدمته أواخر سنة ١٩٩٨ فى مناسبة مرور خمسين سنة من حياة الشرق الأوسط شهدت ظهور وقوة إسرائيل - وكان مؤدى ما أعلنته الإذاعة البريطانية مؤكدا وموثقا أن المَلِك «حسين» ذهب - يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٧٣ - إلى مقابلة سرية مع رئيسة وزراء إسرائيل (قبل أيام من ٦ أكتوبر ١٩٧٣) وحذر «جولدا مائير» من أن مصر وسوريا تدبران لشن معركة مفاجئة ضد القوات الإسرائيلية فى سيناء والجولان، وأن «جولدا مائير» لم تأخذ هذا التحذير جدا. ثم حدث أن هيئة تليفزيون فضائية مملوكة لشركة سعودية أعادت نشر البرنامج وترجمته إلى اللغة العربية، وأحدث ما نُسِب إلى المَلِك «حسين» ضجة كبرى فى العالم العربى.

والمزعج أن هذه الواقعة لم تكن سرا، فقد نشرها الجنرال «إيلى زائيرا» رئيس المخابرات العسكرية الإسرائيلية فى مذكراته عن حرب سنة ١٩٧٣ وقد ظهرت فى كتاب باللغة العبرية وحدها، وجاءت الواقعة الخاصة بالمَلِك «حسين» مع كل تفصيلات اللقاء فى صفحة ٩٥ من المذكرات.

....

....

[ثم ألحق بها ما أذيع نفس الفترة - عن تعيين «أبراهام هالفى» رئيسا للموساد، وقيل - رسميا - أن مبررات تفضيله على غيره أنه كان لثلاثين سنة صلة وصل خاصة مع المَلِك «حسين» ، وأن لقاءات بينهما كانت منتظمة كل أسبوع للتنسيق السياسى والأمنى!]

....

....

كانت تلك كلها ظلالا وصُورا - ثم طرأ جديد!

[٨]

كان الجديد الذى طرأ وحَوَّل الظلال والصور إلى جسد وحياة هو أن «بن برادلى» رئيس تحرير جريدة «الواشنطن بوست» نشر مذكراته تحت عنوان «حياة جيدة» (A Good Life).

و«بن برادلى» ليس صحفيا عاديا فى الولايات المتحدة الأمريكية، وإنما واحد من أكبر نجوم المهنة فى الخمسين سنة الأخيرة، فقد كان هو على صفحات «الواشنطن بوست» قائد الحملة على الرئيس «ريتشارد نيكسون» فى فضيحة «ووترجيت»، وكانت هذه الحملة هى التى اضطرت أقوى رجل فى العالم وفى التاريخ إلى ترك منصبه فى البيت الأبيض والهرب إلى ظلام النسيان.

وقال « بن برادلى» فى كتابه (ونَشَر فى تدعيم كلامه ما هو أكثر من مجرد رواية) - وابتداءً من صفحة ٤٢٤ ما يلى بالحرف:

«ذات صباح فى نوفمبر ١٩٧٦ جاءنى «بوب وودوارد» (أحد أشهر الصحفيين فى الواشنطن بوست وقتها وحتى الآن) وقال لى إنه «عرف من مصادره أن أحد رؤساء الدول فى الشرق الأوسط موجود باسمه على قائمة المرتبات فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية». وقلت له «أن هذه قصة إخبارية مهمة، لكن عليه أن يتقصاها أكثر».

ويمضى «برادلى» فى روايته فيقول: «إنه سأل وودوارد عن رئيس الدولة المعنى لأنه لن يستغرب إذا كان هناك أكثر من رئيس دولة واحد فى الشرق الأوسط موجود على قائمة مدفوعات وكالة المخابرات المركزية»!

ويستطرد «برادلى»:

«بعد يومين جاءنى بوب يقول لى: «إنه تأكد أن المَلِك حسين مَلِك الأردن هو رئيس الدولة المعنى وأنه يتقاضى مكافأة سنوية (شخصية لا علاقة لها بالمعونات الرسمية للأردن) مقدارها مليون دولار، وهى مرصودة لمصاريف المَلِك الخاصة، وقد بدأ دفعها له من سنة ١٩٥٧ ولا تزال مستمرة حتى الآن»!

ويقول «برادلى»:

«إننى طلبت من بوب أن يؤكد معلوماته بمصدر ثان لأننا لا نستطيع فى الواشنطن

بوست أن نعتمد على مصدر واحد فى قصة بهذه الدرجة من الحساسية، وبالفعل فإن بوب اتصل بـ «جودى باول» المستشار الصحفى للرئيس الأمريكى الجديد (فى ذلك الوقت) وهو «جيمى كارتر» وروى له ما وصل إلى علمه، وطلب تأكيدا أو نفيا».

وفى اليوم التالى ـ الصباح الباكر ـ اتصل«بوب وودوارد» برئيس تحريره «بن برادلى» ليقول له طبقا لرواية هذا الأخير (صفحة ٤٢٥ من مذكراته): «إن زبجنيو برجينسكى مستشار الأمن القومى للرئيس الجديد اتصل به ودعاه هو ورئيس تحريره إلى لقاء مع الرئيس فى المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض» ـ وذهب الاثنان بالفعل إلى لقاء مع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

ويقول «بن برادلى» بالحرف:

«إن الرئيس قال لنا بداية إن الخبر صحيح!

ثم أبدى لنا دهشته من أن وزير الخارجية السابق (هنرى كيسنجر) حين جاء إليه يضعه فى صورة الحوادث والرجال فى الشرق الأوسط مع بداية رئاسته لم يذكر له شيئا عن هذه الحكاية ـ ولا ذكرها له «چورچ بوش» (رئيس وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى ذلك الوقت) عندما التقاه أيضا لنفس الغرض (كلاهما تعامل بها كأمر عادى روتينى)!

ثم استطرد الرئيس «كارتر» فقال: «إنه يريد أن يقول لنا شيئين: الأول أن نشر الواقعة يضر الأمن القومى للولايات المتحدة ـ والثانى أنه أصدر أمرا بإيقاف دفع المبلغ للمَلِك حسين».

[وظنه أن المَلِك لم يعد يحتاجه لأنه الآن واحد من أكبر أغنياء المنطقة].

ويقول «بن برادلى» إن الرئيس قال له فى نهاية المقابلة: «إنه لا يستطيع أن يتدخل فى الطريقة التى يدير بها (بن برادلى) صحيفته ـ لكنه وضع الحقائق أمامه ويترك له التقدير النهائى، فهذه مصالح بلدك كما هى مصالح بلدى».

ويقول «بن برادلى» (صفحة ٤٢٦) «إنه بعد اجتماع للتشاور مع هيئة تحرير الواشنطن بوست قرروا أن مهمتهم هى نشر الحقيقة، وبالفعل نشروها».

ثم يقول «بن برادلى» أخيرا:

«فى اليوم الذى نشرنا فيه القصة تلقيت خطابا على ورق البيت الأبيض وبتوقيع رئيس الولايات المتحدة الأمريكية نصه كما يلى بالحرف:

إلى «بن برادلى»

أعتقد أن نشركم لقصة المخابرات المركزية الأمريكية بينما وزير الخارجية (سيروس فانس) يقوم بمهمة فى الشرق الأوسط الآن ـ وهذه المهمة على وشك أن تحمله إلى الأردن ـ هو عمل غير مسئول.

إننى أكتب إليك هذه الرسالة كتعليق من قارئ وليس من رئيس الولايات المتحدة.

جيمى كارتر

□ □ □

وهكذا فإن أمامنا الآن ـ صريحا وموثقا ـ ما يؤكد أنه على طول الفترة من سنة ١٩٥٧ إلى سنة ١٩٧٧ كان اسم المَلِك «حسين» على قائمة المرتبات السرية فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية. وكانت تلك هى السنوات التى شهدت انقلاب الأردن سنة ١٩٥٧ ـ وانفصال الوحدة المصرية السورية سنة ١٩٦١ ـ والحرب فى اليمن سنة ١٩٦٢ ـ والنكسة سنة ١٩٦٧ ـ ثم حرب أكتوبر ١٩٧٣.

والرجل الذى يقدم شهادته هنا هو رئيس الولايات المتحدة نفسه ذلك الوقت وهو «جيمى كارتر». ومن المفارقات أنه كان واحدا من موكب الرؤساء السابقين الذين صاحبوا الرئيس الحالى «بيل كلينتون» فى الوقوف أمام جثمان المَلِك «حسين»!

□ □ □

وفى مناسبات سبقت، مرتين أو ثلاثا، سألت المَلِك مباشرة وصريحا عن حدود علاقاته بالولايات المتحدة وإسرائيل. وكان واضحا من لهجة سؤالى أننى لا أتحدث عن ظواهر العلاقات وإنما عن بواطنها، وكان المَلِك فى كل مرة يجيب بلباقة!

مرة واحدة ـ لم تتكرر لا قبل ولا بعد ـ تخلت اللباقة عن المَلِك أو هو تخلى عنها.

كان ذلك أثناء مؤتمر قمة القاهرة فى سبتمبر ١٩٧٠، وكان الصدام الدامى بين جيش المَلِك «حسين» وفصائل من المقاومة الفلسطينية قد حَوَّل الأردن إلى ميدان قتال حقيقى. ودعت مصر إلى مؤتمر قمة عربى يتدارك الكارثة. وبعد تَرَدُّد وتَمَنُّع جاء المَلِك «حسين»، وجاء ـ فيما أحسست ـ وهو على استعداد لأن يقلب الموائد على الذين حاولوا قلبها عليه.

وأمكن بصعوبة تفادى انفجار مؤتمر القمة، وتشكلت لجنتان إحداهما سياسية، والثانية عسكرية لمتابعة الحلول التى توصل إليها الملوك والرؤساء بعد عناء. وكانت اللجنة السياسية تضم كلا من السيد «حسين الشافعى» نائب رئيس الجمهورية، والسيد «الباهى الأدغم» رئيس وزراء تونس، وكنت معهما (عضوا فى الوفد المصرى كوزير للإعلام ذلك الوقت)، وكنت (ضمن هذه اللجنة) مسئولا عن التنسيق مع اللجنة الأخرى العسكرية، وكان نظيرى فيها الفريق «محمد أحمد صادق» رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية.

واقتضى الأمر أن تلتقى اللجنتان مع الملِك «حسين» قبل عودته إلى عَمَّان بعد انتهاء دوره فى المؤتمر، وقد كان لديه كثير يواجهه هناك.

وذهبت قبل الآخرين بعشر دقائق إلى جناح الملِك، ووجدته شاعرا بكثير من الضيق والمرارة، وسمحت لنفسى أن أقول له إن بعض ما رآه من زملائه ملوك الدول العربية ورؤسائها يمكن تفسيره بما سمعوا عنه وأحسوا به من علاقات له مع قوى يعادونها وتعاديهم.

وتَخَلَّت عن الملِك لباقته - أو هو تَخَلَّى عنها - لأن صبره نفد، واندفع إلى الرد بضيق، ولم أشأ مقاطعته مدركا أن مشاعره تتحدث وليس حذره.

أول ما قاله: «إن هؤلاء الذين يعادون الآخرين ويعاديهم الآخرون - أكثرهم منافقون، فهم يقولون فى العلن عكس ما يفعلون فى السر، وهو على علم، وإذا قرر أن يتكلم فإن بعضهم سوف يلزم الصمت ربما إلى الأبد»!

ثم انتقل ليقول: «ماذا يريد منى هؤلاء؟ بلدى فى حاجة وهُم لا يعطون شيئا، وإذا أعطوا فقطرة قطرة. وبلدى مُعَرَّض للخطر وليس فيهم من يستطيع أن يبعث جنديا إلى خندق أو يطلق رصاصة فى اشتباك».

وضغط الملِك على كلامه وهو يقول: «إذا كان بينهم من يتصَوَّر أننى أتصرف فى سياسة الأردن من موقف يملك ترف الاختيار فهو «يكذب». إننى أعرف أن هناك من ينتظر حركة «غير مسئولة» أقوم بها ثم يتخذها ذريعة لابتلاع البلد كله، وساعتها سوف أسمع وأقرأ بيانات تنديد ويذهب الأردن إلى حيث ذهبت فلسطين قبله. . هل هذا ما يريده منِّى..!! (وذكر الملِك بعض الأسماء)!

ولاحظت أن الملِك لم يتوقف فى حديثه عندما دخل الآخرون من الذين كان مقررا أن

يراهم قبل سفره (رئيس وزراء تونس ـ ونائب رئيس الجمهورية المصرى ـ ورئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرى) ـ وإنما استمر مكررا ما كان يقول، ومن أوله!

□ □ □

فيما بعد أيضا، وكنت أتحدث عنه مع المَلِك «خوان كارلوس» مَلِك أسبانيا ، روى لى كيف شرح له المَلِك «حسين» ذات مرة موقفه.

كان المَلِك «حسين» مع المَلِك «خوان كارلوس» يحضران مباراة مصارعة ثيران مهمة فى مدينة «أشبيلية»، وبعد انتهاء المباراة راح المَلِك «خوان كارلوس» يشرح لضيفه أسلوب مصارع الثيران فى مواجهة ثور هائج يهاجمه ولابد لأحدهما أن يقتل الآخر، ودُهِش مَلِك أسبانيا حين سمع تعليق صديقه مَلِك الأردن الذى قال له:

«إننى أعرف ما تتحدث عنه، وأنا أُجَرِّبه كل يوم فى المنطقة التى أعيش فيها، وحالى أخطر من حال المصارع الذى تتحدث عنه، فهو على الأقل يواجه ثورا واحدا، وأنا عندى كل يوم فى المنطقة عشرة ثيران على الأقل، وكلها هائجة، وكلها تهجم، وكلها مواجهات يمكن أن تؤدى إلى القتل.

ومصارعك الأسبانى لديه مساعدون يحملون السنون والحراب، وأما أنا ففى الحلبة وحدى، وأحيانًا تجىء إلىّ السنون والحراب من وراء ظهرى!

وسألنى المَلِك «خوان كارلوس»:

«هل حسين مبالغ فى وصف صعوبة موقفه»؟!

ورددت على المَلِك، وكنا فى مكتبه فى قصر «زرزويلا»: «إن الصورة فنية ونابضة بالحيوية، لكنى فى الحقيقة لا أعرف، لأن كثيرا فى شخصية المَلِك يحيرنى رغم محاولات من ناحيتى مستمرة لفهمه...»

ثم جاء كتاب «بن برادلى».

[٩]

سوف يظل معى إلى مدى لا أستطيع تقديره ـ شعور يمتزج فيه نوع من الحزن المبهم ونوع من الندم المتفحم على أننى فَوَّت الفرصة لسؤال المَلِك «حسين» فيما نشره

«بن برادلى» وضمنه خطاب يؤكد ويعزز من رئيس الولايات المتحدة فى ذلك الوقت «جيمى كارتر».

والذى حدث أننى قابلت الملك مرة فى قاعة الطعام فى فندق «كلاريدج» وكان معه ضيوف لا أعرفهم، ودعانى بعد انصرافهم إلى فنجان قهوة تحدثنا فيه قرابة ساعة تَرَكَّز معظمها على الموقف فى العراق والخليج. وخطر لى فى إحدى اللحظات أن أفتح السيرة، لكننى على نحو ما لم أجد الهِمّة الكافية لطرح السؤال الذى يلح علىّ. كان السؤال محرجا، ولم أكن أريد أن أُحَوِّل السؤال إلى استجواب، ثم يَتَحَوَّل الاستجواب إلى اتهام تصورت وقتها أنه لا يصح ولا يليق.

وقد عرانى فيما بعد شعور اختلط فيه ملمس الشوك بطعم الرماد، وكان ذلك الإحساس هو الذى دعانى إلى الاعتذار عن الذهاب إلى عَمَّان مرتين دُعيت فيهما إلى هناك.

وحاولت أن أذكر نفسى بأن الحقيقة ليس لها وجه واحد - وأن السعى للفهم مطلوب قبل التصدى للحكم، لكننى هذه المرة لم أكن متأكدا، لأن إلحاح السؤال كان طاغيا فوق أى إجابة عليه!

هل تكفى حَشْرة الجغرافيا؟ وهل تكفى مشاكل ومآسى التاريخ وعُقَده؟ وهل تكفى مفاجآت العصور والأزمنة؟ وهل تكفى ضغوط - وحتى أهوال - تجربة شخصية لمِلك عربى فرضت عليه ظروفه أن يتحرك بسرعة إلى حافة الخطر ثم يعود فى الثانية الأخيرة بشبه معجزة؟

ثم أين هو الخط الفاصل بين المرونة والسيولة، والممكن وغير الممكن؟

أين هذا الخط الفاصل خصوصا بعد أن تنسحب من الذاكرة أصوات وأصداء نص جنائزى كان فى حد ذاته مهيبا وجليلا!

☐ ☐ ☐

إن الرؤساء الأمريكيين الأربعة (رئيس حالى هو كلينتون، وثلاثة سابقون هم «بوش» و«كارتر» و«فورد» كانوا بين جميع الأدوار فى النص الجنائزى - الأقرب إلى وضوح المشاعر أمام جثمان الملِك «حسين»، لأنهم كانوا الأقرب إلى جوهر الحقيقة الوافية الشافية من أى شك!

بعدهم فى قائمة وضوح المشاعر كان قادة إسرائيل الذين لم يتخلف منهم واحد عن الوقوف بالصلاة أمام الجثمان، وقد مشوا جميعا صَفًّا متصلا رغم أنهم على الضفة الأخرى من النهر منهمكون فى معارك تقارب الحرب الأهلية.

يزيد على ذلك ـ وكما بان من قبل ـ أنه لم يكن لهذا الوضوح فى المشاعر علاقة بالماضى ولا بالتاريخ، لأن مجتمع الدول لا وقت عنده للمآتم ولأن الحياة وحدها شاغله، وقد يتأثر مجتمع الدول لفقد صديق، لكنه لا يتوقف، وقد ينكس مجتمع الدول أعلامه حدادا، لكن ذلك حكم المراسم دون أن تتحوَّل الأعلام إلى مناديل تُجَفِّف الدموع.

وإذا كان ذلك صحيحا ـ وأظنه صحيحا ـ إذن فماذا كان هدف الوقوف بالخشوع من جانب الرؤساء الأمريكيين ـ الأربعة ـ والقادة الإسرائيليين ـ بالعشرات ـ أمام جثمان مَلِك عربى له بالتأكيد مزايا ـ لكنه الآن بين يدى ربه وحيث لا تستطيع مزاياه أن تساعد أصدقاءه فى هذه الدنيا؟

* ولا يصلح للإجابة عن هذا السؤال أن يقال إن الخاشعين أمام الجثمان كانوا خائفين على أمن الأردن وبقائه بعد رحيل المَلِك ـ ذلك أن الكل يعرف أن الأردن ليس مُعَرَّضا لخطر لأن معادلة أمنه مضمونة إقليميا ودوليا لأسباب تتخطى حدود الأردن وتصل إلى إستراتيجية الحفاظ على توازن ما بين البحر الأبيض إلى الخليج وما بين البحر الأحمر إلى البحر الأسود!

* وكذلك لا يصلح للإجابة أن يقال إن أصدقاء الأردن هرعوا إلى عاصمته ليتلقوا درسا فى شرعية انتقال السلطة من جيل إلى جيل، سلميا وديمقراطيا، لأن هؤلاء جميعا كان لهم قول فى انتقال السلطة!

□ □ □

وإذن ما هى الإجابة الصحيحة على هذا السؤال الدقيق إذا كان ما سبق ليس صالحا؟

لقد أشرت فى بداية هذا الحديث إلى نصوص سبقت ذلك النص الجنائزى الأخير فى تشييع المَلِك «حسين».

وأضيف ـ وهذا الحديث يوشك على بلوغ نهايته ـ أن هناك فيما يبدو مطالب أخرى ـ غير ما ورد ذكره من قبل ـ وكلها مطالب تبحث عن فرصة وراء جلال الموت ووراء زحام الجنازات، وبينها على الأرجح:

١ـ أن الولايات المتحدة وإسرائيل ـ وربما غيرهما ـ بكل هذا الذى حدث فى جنازة المَلِك «حسين» قصدوا أن يقولوا لكل من يعنيه الأمر فى المنطقة أن فى يدهم وحدهم ـ وبوسائلهم وليس وسائل غيرهم ـ الحق والقدرة على تدشين الأبطال وترسيم القِدِّيسين فى منطقة الشرق الأوسط.

وتلك قضية لابد أن تُؤخَذ باهتمام وأن تُدرَس بجد لأن المعنى الكامن فيها ـ سلطان!

٢ـ إن جميع الأطراف عليهم أن يفهموا ـ عن طريق الحدس إذا لم يقدروا عن طريق العِلْم ـ أن الأردن طرف فى ترتيب إقليمى يضم أربع دول هى الولايات المتحدة وإسرائيل وتركيا والأردن، وهذا الترتيب هو المدير المقيم للأمن فى المنطقة، وكل من عداهم مساعد أو مشارك وفق مواقع الأزمات! ولذلك فإن دور المَلِك «حسين» فى هذا الترتيب كان أهم الأدوار العربية.

....

....

[يستحق التسجيل هنا أن «إيتان هابر» مدير مكتب رئيس وزراء إسرائيل الأسبق «إسحاق رابين» سئل فى برنامج تلفزيونى إخبارى (عنوانه «بوليتيكا») أذيع غداة تشييع جنازة الملك «حسين»، عن «السبب الذى جعل كل قيادات إسرائيل تسعى على هذا النحو إلى المشاركة فى جنازة الملك حسين؟» ـ كان السائل هو زعيم حزب «موليدت»، وكان رد مدير مكتب «رابين» على الهواء هو قوله بالحرف: «لو عرفت مع فعله المَلِك من أجل أمن إسرائيل لما سعيت وراء جنازته فقط وإنما هرولت»!.]

٣ـ إن هناك دورا فى المنطقة لخليفة يتبع خطى المَلِك ـ وليس بالضرورة أن يكون ولىّ عهده ـ فالمَلِك الجديد فى الأردن شباب، ومازال أمامه الكثير يتعلمه رغم كل ما تعلم من والده (ومن سوء الحظ أن «جولدى دور» سفير إسرائيل لدى الأمم المتحدة وقف أمام عدسات الـ C.N.N. يوم جنازة المَلِك «حسين» ليقول: «إن أول درس عَلَّمه المَلِك لأولاده هو أهمية العلاقة الحميمة مع إسرائيل»).

ومع أن أبناء المَلِك يمكن أن يتعلموا، فإنهم يظلون فى حاجة إلى التجربة ترسخ معارفهم، وحتى يتحقق ذلك فإن الولايات المتحدة الأمريكية تبحث عن بديل يدخل فى ملابس الدور!

وربما ـ ربما!ـ كانت للمَلك «حسين» أعذار من الجغرافيا والتاريخ والعصر، لكن هذه الأعذار يصعب استعارتها لآخرين مهما بلغ حجم الغواية أو الضغط، وكان كلاهما ـ الغواية والضغط ـ ماثلا فى جنازة المَلِك «حسين» ـ رسالة موجهة إلى كل من يهمه الأمر ولديه الاستعداد والقدرة!!

٤ـ وحتى إذا استطاع أحد أن يملأ الفراغ الذى تركه المَلِك «حسين»، فقد كان للأردن ـ كما هو الآن ودون حاجة إلى تجربة ـ دور يمكنه القيام به إذا وجد العهد الجديد فيه جرأة الخيال وجسارة القبول بالمخاطرة.

وهذه محطة على مسار هذا الحديث تستحق الوقوف عندها!

□ □ □

محطة تستحق الوقوف عندها لأن بعض الطريق وراءها ـ إذا صدقت معلومات أولية مازالت تحتاج إلى تأكيد ـ سوف يصل بآثاره فى مستقبل المنطقة إلى بعيد على خرائط الجغرافيا وخرائط التاريخ وخرائط السياسة فيها ـ ليرسم عليها ألوانا وخطوطا وعلامات مستجدة.

وطبقا لمعلومات أولية فإن هناك «سيناريو» ـ كما يقولون ـ تجرى كتابته الآن لمستقبل الشرق الأوسط فى مطالع القرن الواحد والعشرين. وهذا «السيناريو» نوقش (مرة أخرى) فى واشنطن ولندن فى الأسابيع الأخيرة من حياة المَلِك «حسين»، وبالتحديد فى الفترة التى خرج فيها المَلِك من مستشفى «مايو كلينيك» فى شهر ديسمبر الماضى وقضى أكثر من أسبوعين بين واشنطن ولندن ـ والكل ـ بما فيهم هو نفسه ـ عارف أنه المشهد الأخير قبل نزول الستار!

إن السيناريو ـ كما أسلفت ـ جرت مناقشته ـ لكن غير الواضح هو ما إذا كان اعْتُمِد أو تأجل اعتماده بعد المناقشة ـ ذلك أن المَلِك رغم حماسته كانت لديه تحفظات على بنيان «السيناريو» وعلى سياقه (وربما تكون هذه التحفظات قائمة بعده فى عَمَّان، وربما حدث تغيير!).

كان «السيناريو» الذى نوقش ـ ولايزال ـ فى واشنطن ولندن على النحو التالى:

١ـ إن الأردن ـ فى الغالب ـ قد لا يكون له دور إضافى فيما يسمى بعملية سلام الشرق الأوسط، وذلك سوف يخلق فيه ومن حوله فراغات يمكن أن تكون لها مخاطر.

٢- إن بؤرة التوتر فى الشرق الأوسط التى انتقلت سابقا من شواطئ البحر الأبيض والبحر الأحمر إلى الخليج - تنتقل الآن من الخليج إلى ما فوقه، أى إلى حدود الاتحاد السوفيتى السابق، وبحيث تشمل منطقة التوتر الكبير القادم مستقبل العراق (وإيران؟) - ومناطق الأكراد (وتركيا؟) - وأفغانستان (وممتدة منها إلى كازاخستان وعبر القوقاز وحتى إلى كوسوفو على أطراف البلقان).

٣- إن الاستعداد للتفاعلات المحتملة والمتفجرة لبؤرة التوتر الجديدة يقتضى الخلاص من النظام الحالى فى العراق، وهذا النظام حتى هذه اللحظة لا يريد أن يذهب - ومع أنه منهك بالحصار الاقتصادى الخانق وبالعمليات العسكرية من «عاصفة الصحراء» إلى «ثعلب الصحراء»، ثم بالغارات الجوية المستمرة إلى الآن - فإن هدف إسقاطه لم يتحقق بعد. والحل الذى يراه معظم الخبراء أنه لابد من وجود قوة عسكرية قريبة على الأرض قادرة على التدخل بشكل ما فى لحظة تتهيأ فيها الأجواء بحدث داخلى يتصادف وقوعه أو يمكن ترتيبه!

٤- وليس هناك من لديه فى المنطقة مثل هذه القوة العسكرية القادرة على التدخل للحسم فى العراق إلا الأردن، ذلك أن دول الخليج المعنية قبل غيرها بالتغيير فى بغداد لا تملك قوة تقدر على العمل فى ميدان قتال حقيقى. وكان هذا الخيار معروضا على المَلِك «حسين» وكان فيه ما يلبى أحلاما قديمة لديه (سواء من طموحه الشخصى أو من اعتقاد أنه الوريث الشرعى للهاشميين فى بغداد)، لكن المَلِك وإن تحمس أحيانا تردد فى اللحظات الحرجة شكًّا فى أوضاع الإقليم المحيط به وقلقا من نوايا بعض الحكام القريبين من حدوده.

٥- وكان بين بنود «السيناريو» المقترح تَصَوُّر يرى بإضفاء الشرعية والطمأنينة على أى دور أردنى فى هذا السيناريو عن طريق دعوة الأردن للانضمام إلى مجلس التعاون الخليجى - خصوصا وقد تَكفَّلت الأقدار بشكوك لدى «بعض الشيوخ» فى موقف المَلِك «حسين» أثناء غزو الكويت - والأمل أن يقوم خلفٌ له فى عهد جديد بما هو مطلوب ضمن شرعية خليجية توفر له فى نفس الوقت مطالبه المادية والسياسية والمعنوية (بما فى ذلك مخزون معدات عسكرية مكدَّسة تبحث عمن يستعملها) - إن المَلِك «حسين» لم يكن قادرا على التأقلم مع مثل هذا التصوّر، وكان بين تحفظاته أنه يريد أن يعرف بالتحديد ما يحق للأردن أن يتوقعه فى ختام هذا «السيناريو» (وإذا كان يستطيع ضمان عرش العراق لواحد من أبنائه) - علمًا بأن إسرائيل كانت على استعداد لإعطاء

ضوء أخضر لهذه الفكرة (باحتمال أنها تستطيع تهجير مئات ألوف من الفلسطينيين إلى شمال العراق).

إن الذين فكروا وناقشوا فى واشنطن ولندن كانوا يعرفون طبيعة الملك «حسين»، وقد خبروا ما اعتبروه ترددا وبالذات فى موضوع السلام مع إسرائيل، فقد تصوَّروه مقبلا على صلح منفرد معها - بحقائق الأشياء - بعد سنة ١٩٦٧، وبعد سنة ١٩٧٣، وبعد «كامب ديڤيد» - لكن الملِك لم يرض بمجاراة تصوراتهم رغم علاقته الوثيقة دون اتفاقات صلح مع إسرائيل - لأنه لم يكن يريد أن يكون السابق علانية، ولا الثانى - كان يريد لمقتضيات سلامته أن يكون الثالث أو حتى الرابع إذا استطاع.

لكن البعض فى واشنطن ولندن يرون الآن ظروفا متغيرة، وإمكانيات متاحة، وأهدافا جاء وقت تحقيقها خصوصا أن مطلب الصلح بين العرب وإسرائيل يمكن اعتباره الآن عصفورا فى اليد وليس بين العصافير على الشجرة!

□ □ □

هكذا فإن دور الرؤساء الأمريكيين الأربعة فى النص الجنائزى لتشييع الملِك «حسين» لم تكن له علاقة بالماضى أو التاريخ، ومع أن هذا النص الجديد تشابه مع نَصَّين سابقين فإنه فى هذه المرة الثالثة تخطى وتجاوز رغم كل ماقالت به الصور. وكان يقال فى وقت من الأوقات أن الصور لا تكذب، ولكن الأزمنة الجديدة أثبتت أن الصور (خصوصا فى الشرق الأوسط!) يمكن أن تكون أكبر محترف للكذب فى التاريخ، ويكفى أن يتذكر أحد صورة الملك «حسين» فى ذهابه إلى الأردن - حيا آخر مرة - وهو يطل على مستقبليه من مقعد قائد الطائرة وكأنه كان يقودها عبر الأجواء من لندن إلى عمَّان، بينما هو يعرف أن أيامه معدودة وأنه وداعه الأخير لعاصمة مُلكِه!

وربما أن خداع الصور تفوق على نفسه عندما تجرى المقارنة بين صور تفصل بينها ساعات قليلة. صور للملِك يُصلِّى على أرض مطار عمّان شكرا على أن الله شفاه - ثم صور تالية لها تظهر فيها رسالة الملِك إلى شقيقه الأمير «حسن»، فإذا الصور لرجل مختلف لم يَعُد ليقيم صَلاته على أرض وطنه، وإنما عاد - وربما كانت لديه أعذاره فهو الأدرى - ليُصفِّى حساباته مع شقيق له - بألفاظ مثل الهمز واللمز، واغتياب الزوجات والأبناء، والغدر بالأحباب والأصدقاء، والحنث بالوعود والعهود، واللعب غير المسئول بالأمن

والسلاح. وكانت الساعات بين أداء الصلوات شكرا وتصفية الحسابات مع الشقيق علنًا مأساة إغريقية تؤكد لمن يهمه الدرس أن الحضارة والتكنولوجيا لم تتركا فى العالم الثالث إلا خدوشا على السطح، وأما تحت السطح فمعظمه لا يزال حيث كان قبل قرون من الزمان فى مشاهد القتل والاقتتال والنحر والانتحار فى ملاحم الإلياذة وفواجعها الدامية!

والفهم مطلوب قبل الحكم - وباستمرار.

لكنه يخطر ببالى أحيانا أن الفهم ضرورى إلى الحد اللازم - ولكن ليس بعده، لأن الزيادة فى الفهم قد تجنح بالأحكام إلى حيث تضيع الحدود!

وبين هواجسى أخيرا أن البشر إذا زاد فهمهم قَدَّروا - وإذا قَدَّروا فقد تركوا التسامح يغلبهم وعَذَروا - وإذا عَذَروا فإنهم فى نفس اللحظة حتى وإن لم يقصدوا غفروا.

والغفران ليس مِلْكَ البشر، وإنما مِلْكُ التاريخ وحده، بمقدار ما أن التاريخ كله مملكة الله!



حوارات مع القذافي

عن الأفكار والأزمات والناس والزمن

حوارات مع القذافى(*)

عن الأفكار والأزمات والناس والزمن

[١]

قابلت العقيد «معمر القذافى» مساء يوم الاثنين ١٣ مارس ١٩٩٩ - فى الجناح الذى نزل فيه ضيفا رسميا على الدولة المصرية بقصر القبة .

وأهمية تحديد التاريخ هنا أن هذا اللقاء جاء بعد انقطاع - ولا أقول قطيعة - امتد بما زاد على ربع القرن ... خمس وعشرين سنة !

وعندما لمحنى تحت السلم الرخامى الكبير للقصر مُتَّجِها نحو المصعد إلى الدور الأول حيث يقيم صاح من بعيد مُرَحِّبًا، ثم تسارعت خطاه تسبق العكاز الذى يسند ساقه، وأقبل معانقا وبحرارة شاعت فيها تلقائية العاطفة ممتزجة بالحيرة والدهشة قائلا :

«يا رجل هل هذا معقول، أنت أول شخص قابلته فى العالم من خارج ليبيا نفس المساء الذى قمنا فيه بالثورة (أول سبتمبر ١٩٦٩)، وكنت أعتبرك أقرب الأصدقاء إلينا، ثم تذهب وتقطع حبال الود بهذا الشكل وكأن لم تكن بيننا فى يوم من الأيام رابطة ؟!»

وقلت للعقيد - بصوت خفيض - ونحن وسط حشد من الناس (خليط من مرافقيه وحراسه والعاملين فى القصر) : «سوف نتكلم فى ذلك تفصيلا حين نجلس معاً» .

وطلب أن أصعد إلى جناحه ويلحق بى على الفور بعد أن تُلتَقَط له صورة مع وفد من الطلبة الليبيين، انتهى لتوه من حوار معه (فى صالون الانتظار الرئيسى فى قصر القبة)، ودخلت إلى المصعد - ثم إلى جناحه، وجلست فى انتظاره (ثلاث دقائق) .

وفى هذه الدقائق الثلاث كانت قصص الأيام والتواريخ تجرى مشاهد حية فى ذاكرتى .

(*) مايو ١٩٩٩.

نعـم، صـحيح أننى قابلتـه لأول مرة مسـاء يوم أول سبتمـبر ١٩٦٩ .

نعـم، وصـحيح أيضـا أننـى قابلته بعد ذلك لآخر مرة ظهـر يوم ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

نعم، وبين هذين التاريخين (١٩٦٩ - ١٩٧٣) - التقينا مرات كثيرة يصعب حصرها .

نعـم، وهذا اللقاء - يجىء - الآن مساء يوم ١٣ مارس ١٩٩٩ .

أى أنه بالفعل غياب خمس وعشرين سنة - وفوقها أكثر من خمسة شهور !

ولـم تطل تأمـلات السنوات والأيام كثيرا، فلم يلبث صـوت «القذافى» (أو الأخ العقيد «قـائد ثـورة الفـاتـح العظيم» كمـا يسـمـيـه الإعـلام المصـرى هذه الأيـام !) - أن وصـل إلى سمعـى قادمـا من الردهـة، ثـم داخـلا إلى حيث كنت أجلس .

ومـرة أخرى تكرر المشـهـد : ترحيب وعنـاق وعتـاب !

....

....

وكما تكرر المشـهـد، تكرر السـؤال مع إضافة جديدة :

«كيف يا رجـل، خمس وعشـرون سنة دعونـاك خـلالهـا عشـرات المرات، وانـتظرنـاك، وأنـت لا تجـىء . قل لى ما هو عذرك، ما هو تفسـيرك، ما هو ردك ؟»

ورجوتـه أن يتمهل علّـى أجيب - وقلت لـه :

«إنها حكاية طويلـة، والمسائل فيـها متشابكة، والكلام فيها يستـغرق وقتا بينما شـاغلى الآن أن أسـأل عن مستجدات اللحظة الأخيرة .. عما وصلتم إليه فى أزمـة لوكربى ؟»

وقـال «القذافـى» أنـه لن يـرد علـى أسـئلـة «اللـحظـة الأخـيـرة» إلا إذا عـرف سـر الغـيـبـة السـابقة عليها لأنها مشكلـة حَيَّرتـه ولـم يجد لها مبررا برغـم كل ما حـاول» .

ولـم يبق مَفَرٌّ من عودة إلى ما جرى وكـان !

....

....

ورحـت أزيـح عن حسبانى ولسـانى كل الرتـب من «الرئيس» إلـى «العقيـد»، وكل الألقـاب والأوصـاف وبينهـا مـا خلعـه الإعـلام المصـرى على «معمر القذافى» فى رحلته الأخيـرة (قائد

ثورة الفاتح العظيم) ـ ثم أستعيد الصورة التى كنت أعرفه بها فى أيام خلت باعتباره «الأخ معمر» .

وقلت له «إننى بداية أريد أن أؤكد أنها لم تكن قطيعة ولا مقاطعة، وإنما كانت نوعا من إيثار الابتعاد أوصلتنى إليه دواع وجدتها لازمة من وجهة نظرى على الأقل»!

وقاطعنى : «أية دواع يا رجل ؟»

ورجوته أن «ينتظر علّى أشرح موقفى ويتحمل صراحتى ما دام يصر» !

□ □ □

... وبدأت فطلبت منه أن يتذكر آخر مرة التقينا فيها من قبل ـ وكانت ظهر ٢٦ أكتوبر ١٩٧٣ ...

....

....

يومها جاء إلى مكتبى فى الأهرام مُستَفَزا وثائرا، وكان قادما إلى عندى من مكتب القائد العام المشير «أحمد إسماعيل على» (وزير الحربية والقائد العام للقوات)، كان «القذافى» قد ركب الطائرة إلى القاهرة يريد أن يعرف أوضاع الجبهة العسكرية فى سيناء ويطلع بنفسه على خطوط القتال التى توقف عندها إطلاق النار يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٧٣.

واتصل «القذافى» بالرئيس «السادات» يقول أنه وصل إلى القاهرة ويريد أن يذهب إلى غرفة العمليات ويرى الموقف العسكرى على الخريطة . ورحب به الرئيس «السادات» ـ لكنه اتصل على الفور بالقائد العام يلقى إليه أوامره فيما يخص طلب «القذافى» .

وكانت الأوامر إلى «أحمد إسماعيل» أن يعطى «القذافى» فكرة عن المواقع دون أن يسمح له بدخول غرفة العمليات «لأنه لا شىء فيها الآن يراه» !

وتوجه «القذافى» إلى مقر القائد العام، وبعد نقاش قصير أحس بما وصفه بـ«الإهانة»، وفى نفس الوقت أحس لدى القائد العام بما كان بالفعل شعورا بـ«الحرج» !

وباختصار فقد أحس «القذافى» بأنه كان مسموحا له أن يسمع بعض «الكلام» - ولكنه كان ممنوعا من أن يرى خرائط غرفة العمليات !

وخرج من القيادة العامة إلى مكتبى - مُستفَزا وثائرا كما أسلفت، وسمعته حتى اكتفى وكان هدفى تهدئة خواطره وانتهاز فرصة - دون علمه - أتصل فيها بالرئيس «السادات» عله يتدارك المشكلة .

وتعللت فى لحظة من اللحظات بعمل يستدعى وجودى فى صالة تحرير الأهرام، وذهبت إلى غرفة مجاورة أتصل بالرئيس «السادات» أحدثه برأيى «وأسأله عن السبب الذى يمنع معمر القذافى إذا شاء من دخول غرفة العمليات حتى ولو لم يكن فيها شىء»؟!

كان رأيى أن «معمر» له الحق كصديق موثوق به.. وله الحق كرفيق مهتم.. وله الحق كجار مباشر استخدمت أرضه بغير عوائق عمقا إستراتيجيا للجهد العسكرى المصرى .

وأكثر من ذلك فقد ذكَّرت الرئيس «السادات» بأن «معمر» شريك فى المعركة، ففى عام ١٩٧٣ وحده دفعت ليبيا تكاليف أسلحة لمصر وصلت قيمتها إلى ألف مليون دولار (كان ضمنها القوارب المطاطية التى استخدمتها قوات الموجة الأولى فى عبور قناة السويس، وكان شراؤها من إيطاليا) .

ولكن الرئيس «السادات» بدا لى مُصِرا على موقفه «لأن معمر سوف يحكى لطوب الأرض عما يرى فى غرفة العمليات، ثم لأنه ....» (أوصاف أخرى لا داعى لها الآن) .

وعدت إلى مكتبى حيث كان «معمر القذافى» ينتظرنى، وكانت محاولتى الآن إقناعه أن يذهب للقاء الرئيس «السادات» ويتحدث إليه مباشرة دون وضع المشير «أحمد إسماعيل» فى «مرامى نيران» متقاطعة ودون وساطة أو تدخل من أحد، ثم يتوصلا معا إلى صيغة تفاهم بينهما «الآن» و«مستقبلا» لأن ذلك ضرورى لكفاءة وسلاسة إدارة العمل القومى فى المرحلة الحساسة القادمة .

وأفاض «معمر القذافى» فى شكاواه وشجونه طوفانا متدفقا وحكى كيف «أن الرئيس «السادات» يصد دائما ويعرض، بل وأحيانا ما يتجاوز ويقسو ناسيا أن «معمر القذافى» قومى عربى مؤمن بدور مصر المحورى فى العالم العربى، وليس موظفا فى خدمة الحكومة المصرية مسئولا أمام بيروقراطية الحكم فيها» .

وحاولت أن أهدئ خواطره قدر ما أستطيع عارفا فى صميم قلبى أنه محق فى الكثير مما يشكو منه، لكنه ليس بريئا بالكامل مما يضايق أنور السادات من تصرفاته» .

....

....

وذكَّرت «معمر القذافى» ببعض ذلك ثم أضفت ونحن جلوس الآن بعد ربع قرن فى قصر القبة : «إنه فى ذلك الوقت - ولعله لم ينس - كانت مشاكلى كبيرة مع الرئيس «السادات» بسبب الطريقة التى تفاوض بها مع «هنرى كيسنجر» (يوم ٧ نوفمبر ١٩٧٣) وبسبب النتائج التى توصل إليها بفك الارتباط الأول، ثم بلغت خلافاتى معه (الرئيس «السادات») ذروتها حتى طلب إلىّ أن أكف عن كتابة ما أكتب «لأنه يحدث بلبلة فى أفكار الناس». والذى حدث أننى لم «أكف» معتقدا أننا أمام موقف يتطلب من كل رجل أن يقف وأن يجعل صوته مسموعا مهما كان أو يكون . والنتيجة أن الرئيس «السادات» أصدر أمرا بتعيينى مستشارا له، واعتذرت عن تنفيذ أمره وتركت الأهرام إلى بيتى أرتب نفسى لعمل آخر .

ويوم ٣ فبراير ١٩٧٤ غادرت مبنى الأهرام لآخر مرة بأسى ولكن دون أسف .

وفى نفس اللحظة كنت على قناعة تامة بأنه ضمن أشياء كثيرة أخرى يتحتم علىّ تجميد علاقة الصداقة بينى وبينه هو : «معمر القذافى» !

□ □ □

كان «معمر القذافى» جالسا أمامى على الأريكة الكبيرة فى صدر صالون جناح الضيافة بقصر القبة، وكان يسمعنى وهو يميل إلى ناحيتى مستندا إلى عكازه .

وقاطعنى وهو يعود برأسه فجأة إلى الوراء سائلا «عن السبب الذى يدعونى فى هذا كله إلى الابتعاد (حسب وصفى !) - مع أنه يراه بالطريقة التى جرى بها قطيعة حار فى أمرها ولم يعثر على تفسير مقنع لها ».؟

وقلت : «إنه بإلحاحه على فهم موقفى لا يترك لى مجالا إلا أن أصارحه بكل ما خطر لى - وقتها - حتى وإن ضايقه» .

واستطردت : «إننى فى اللحظة التى غادرت فيها مبنى الأهرام قررت أن ألزم نفسى بأنه «لم تعد لى صلة بالقرار السياسى المصرى من قريب أو بعيد» . لى موقف إزاء القضايا التى يتعرض لها هذا القرار بالطبع، لكن الموقف من القضايا شىء والمعايشة والقرب من مواقع القرار شىء آخر .

موقفى من القضايا متصل برأيى وحقى أن أبديه .

وأما المعايشة والقرب من موقع القرار السياسى فأمر مختلف يتعلق برؤى آخرين لهم رأيهم، وعليهم المسئولية بحقائق الأمور وبمقتضى الدستور».

وقلت لـ «القذافى» : «إننى بحكم ظروف سبقت اقتربت من علاقته بالرئيس «جمال عبد الناصر»، ثم من علاقته بالرئيس «أنور السادات»، ولم يكن ذلك بحق إبداء الرأى - كصحفى - وإنما كان بمصادفة صداقة مع قمة الدولة .

وفى زمن الرئيس «جمال عبد الناصر» فإن علاقتى بالسياسة المصرية كانت مفتوحة . ثم إنها ظلت كذلك فى زمن الرئيس «أنور السادات» حتى انتهت حرب أكتوبر، لكنها ما لبثت أن ساءت ثم وصلت إلى طريق مسدود بسبب أسلوب التفاوض مع «كيسنجر»، وبسبب اتفاق فك الارتباط الأول مع إسرائيل .

وعندما كنت قريبا من صنع القرار أيام الرئيس «السادات» فقد حاولت قدر ما أستطيع أن أكون - كما كنت أيام «عبد الناصر» - «صلة بينك وبينه» . وبنفس المعيار «فإنه فى الوقت الذى أبتعد فيه عن دائرة القرار السياسى كان يجب أن أبتعد عنك أنت الآخر وإلا تشابكت خطوط لا يصح أن تتشابك وتعقدت أمور لا أريد لها أن تتعقد».

وقلت : «زيادة على ذلك فإننى أحسست أن الرئيس «السادات» (أو بعض المحيطين به) - يحاولون تلوين علاقتك بى، وعلاقتى بك، بأن يحسبونى عليك أو يحسبوك علىّ، وهو شىء لم أكن أريده، فأنت رجل له بمسئولية بلده سياسته، ولى بمسئولية رأيى موقفى، وقد تلتقى الاجتهادات أحيانا وقد تختلف، لكن حدود الأطراف لا بد أن تكون واضحة .

لا تنس أن «أنور السادات» كان رئيس الجمهورية، وبصرف النظر عن خلافى معه فهو رئيس الدولة التى أنتمى إليها . وأنت أيضا رئيس دولة، ولكنها دولة ثانية ولا أقول أخرى. وكلاكما يستطيع أن يواجه زميله بقوة ما لديه من وسائل، وهذا الصدام بين الوسائل لا يخصنى بل أريد البعد عنه، لأن ما لدىّ «اجتهادات» مواطن، وليس «وسائل دولة».

قلت : «بمعنى مباشر أنت والرئيس «السادات» أصبحتما طرفين فى خلاف سياسى تحوَّل إلى عراك شخصى، ثم وصل إلى أن يكون حاجزا نفسيا .. وذلك أحزننى، لكنه فى النهاية أمر يخصكما ويخص رؤاكما لما يجمع بينكما أو يفرق، وليس لى فيه شأن بعد حزنى بسببه ولكنى لا أريد الدخول فيه، وكان الحل الوحيد المانع والقاطع أن أبتعد وأن يكون الابتعاد كاملا».

....

....

برغم ذلك ـ قلت لـ «معمر القذافى» ونحن جلوس فى صالون قصر القبة ـ فإن الرئيس «السادات» بذل جهدا كبيرا ليعطى انطباعا للكافة بأننى واقف فى معسكرك، لدرجة أن كثيرين من الناس فى مصر ظنوا أننى أقيم لاجئا فى ليبيا لأنه لا يعقل من منظورهم أن أقف موقف المعارضة الصريحة على هذا النحو لسياسات الرئيس «أنور السادات» دون سلطان أحتمى به، وأن أظل فى مصر تحت طائلة قوانينها دون ملجأ أهرب إليه.

قلت له : «كان بعض الناس يسألون أفراد أسرتى وأصدقائى الأقربين «عما إذا كنت ما أزال فى ليبيا» ـ ولم أكن قد وضعت فيها قدما منذ سنة ١٩٧٠ .

ووصلت أنا نفسى إلى حد أننى كنت أضيق بكل قائل لى «حمدًا لله على السلامة» وأسأله بحدة مرات : «حمدًا لله على السلامة من أين ؟ إننى هنا لم أترك مصر على الإطلاق ـ أسافر أحيانا لبعض عملى أياما أو أسابيع ثم أعود إليها قابلا مقاديرى فيها (وحين أراد الرئيس «السادات» وضعى فى السجن .. وجدنى فى متناول قبضته وأخذنى بوليسه إلى سجن طرة مع مئات غيرى ضمن اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ الشهيرة) ـ وكان معظم السائلين يرد كريما «حمدًا لله على السلامة فى كل الأحوال».

□ □ □

وأطرق «معمر القذافى» برأسه قليلا ثم عاد يستند إلى عكازه ويعود برأسه إلى الوراء ويقول : «طيب ... عذرك عن الانقطاع طول فترة السادات فهمته، أراك مخطئا ولكنى أقدر حقك فيما ارتأيت ... بعد السادات لم تعد لديك أسباب ...»

قلت : «بعد السادات وجدت سببا آخر».

وقاطعنى بسرعة : «الرئيس حسنى (يقصد حسنى مبارك) لم يمنعك !»

قلت : «لم يمنعنى بالتأكيد، وإنما منعت نفسى» .

ورفع حاجبيه كأنهما علامتا تعجب !

وقلت : «إننى عندما خرجت من السجن آخر سنة ١٩٨١ وجدت الطرق بين القاهرة وعواصم عربية غيرها ـ مزدحمة بمواكب ذاهبة راجعة .

وبصراحة أكثر فإن ليبيا أصبحت مقصدا لطلاب حاجات مشروعة وغير مشروعة حتى أصبح التواجد فى ليبيا مجلبة للظنون صحيحة أو باطلة !» .

ثم قلت : «هل تتصور أننى تلقيت خطابات من ليبيين عاديين يشكرون لى أننى لست ضمن زوار بلدهم فى هذه الأوضاع» !

ـ إلى هذا الحد .

وقاطعنى «القذافى» معترضا، وقلت : «خطر لى أنه عندما يتواجد الناس فى نفس المكان فالظنون تفترض أنه نفس القصد» .

وكان «معمر القذافى» يهز رأسه نفيا وربما استنكارا .

وأضفت : «وهناك سبب ثالث للإبتعاد» .

وسألنى، وقلت ما أريد قوله (وأعتذر عن الدخول فى التفاصيل الآن !) .

ورد علىّ : «تصدق شائعات مغرضة ودعايات سوء لها دوافعها ضد ليبيا وأنت أول من ينبغى له أن يعرف أنها مؤامرات الاستعمار والسائرين فى ركابه» . وقلت محتجا : «إنك صممت من البداية أن تجعلنى أتحدث، وكان هدفى عندما جئت أن أسمعك ... وما دمنا قد وصلنا إلى الشائعات والدعايات، والاستعمار ومؤامراته ضد ليبيا، فقد حان دورك الآن فى الكلام .»

□ □ □

[٢]

جاءت صينية شاى يحملها شاب لا تبدو ملامحه عربية، وتصادف ذلك مع مرور سيدة تحمل ملاءات ومناشف إلى غرفة نومه تعدها فيما يظهر قبل أن يأوى إلى

فراشه، وهى الأخرى لا تبدو لها ملامح عربية . وبشكل ما بدت لى الملامح مألوفة، وسألته : «كلاهما يوجوسلاف فيما أظن ؟

ورد «القذافى» : «مسلمون من البوسنة» !

واستند بصدره على عكازه يتناول فنجان شاى من الصينية التى وضعت أمامنا على المائدة، وسألنى وهو يعود بظهره ليستند إلى ظهر مقعده :

ـ «من أين تريدنى أن أبدأ ؟»

وقلت : «كان آخر ما وقفنا عنده هو حكاية المؤامرات ضد ليبيا، وإذن نبدأ من آخر نقطة وصلتم إليها فى أزمة لوكربى» .

قال بنبرة يظهر عليها أثر جرح : «لوكربى .. لوكربى ... كأنه لم يعد أمام الخلق مشكلة غير لوكربى ؟ ما هى لوكربى هذه ؟!»

ثم مضى يقول: «إنه سوف يؤجل الحديث فى «لوكربى» إلى ما بعد، وأما الآن فهو يريدنى أن أعرف ماذا يحدث فى ليبيا لأن ما يجرى هناك تجربة إنسانية عظيمة بكل المقاييس» .

ورحت أسمعه دون اعتراض .

قال : «إن ليبيا ليست جمهورية، وهو ليس رئيسها، وقد كرر هذا للعالم كله ولكن كثيرين لا يفهمون وربما لأنهم لا يريدون أن يفهموا .

ليبيا جماهيرية، أى أن الجمهور بنفسه يحكم بديمقراطية مباشرة تمارسها اللجان الشعبية المنبثقة من المؤتمرات العامة، وليس بين الجماهير وصنع القرار مجالس وسيطة تصدر القوانين، وإنما هو الشعب بنفسه يحكم نفسه .

الشعب الليبى كله فى السلطة، كله يصنع السياسة فى كافة المجالات .

وأفاض فى الحديث موجة طالت ربع ساعة ـ ثم توقف وسألنى :

«ألا يساوى ذلك أن تهتم به ـ أن تكتب عنه ؟»

....

....

وقلت : «إن لدى حيرة إزاء هذا النوع من الديمقراطية المباشرة . ذلك أننا فى زمن يختلف عن زمان «أثينا» عندما ظهرت فكرة الديمقراطية . أيام «أثينا» كان الذين يمارسون الديمقراطية مباشرة وفى الاجتماعات المفتوحة مئات على أكثر تقدير. النساء والعبيد لم يكن لديهم الحق فى المشاركة . وإذن يجتمع فى «الساحة» مائتا رجل أو ثلاثمائة ـ أكثر أو أقل ربما ـ ولكنهم دائرة محصورة، ورأيهم نافذ على مدينة واحدة، والقضايا المطروحة بسيطة يسهل الكلام فيها بعموم، والعالم الخارجى مدن مجاورة أو قريبة .

الآن صورة مختلفة . شعوب وأمم بالملايين وعشرات الملايين ومئاتها فى أقاليم طويلة عريضة كثيرة، واجتماع هؤلاء فى ساحة وسط «الأكروبول» مستحيل ماديا . والرأى بحر متلاطم فى أقاليم ممتدة بعد أقاليم، والقضايا معقدة متشابكة، والعالم الخارجى حاضر عند خط الأفق ووراء البحر والمحيط .

الآن يصعب علىّ أن أرى كيف يعمل نمط الديمقراطية المباشرة فى الجماهيرية . نحن الآن دول ولسنا مدنا، والسلطة الشعبية ـ إذا كان لا بد أن تكون مؤثرة وفاعلة ـ تحتاج تمثيلا يعبر عنها ويجسدها، والنظام لا بد أن يتخذ لنفسه حكمة القانون كفالة تحكم فوق الأوطان طولها وعرضها، اتساعها وامتدادها، تشابك وتعدد قضاياها وعلاقات أهلها، وإلى جانب ذلك فإن العلاقات مع الخارج صراعات تتعدد وسائلها من قوة الحق إلى قوة الردع .

ويصعب علىّ هنا أن أتصور كيف يعمل هذا النوع الذى تحدثنى عنه من الديمقراطية الجماهيرية المباشرة ؟»

قال : «إذن تأتى بنفسك لترى» .

□ □ □

وسألنى «معمر القذافى» : «هل قرأت الكتاب الأخضر ؟»

وقلت : «قرأته» .

وقال : «كثيرون فى هذا العالم لا يريدون قراءته حتى لا يكتشفوا أن العرب لديهم نظرية عالمية يستطيعون تقديمها لمستقبل التطور الإنسانى» .

ومضى «معمر القذافى» يشرح الخطوط الرئيسية فى الكتاب الأخضر الذى يعتبره الوثيقة الفكرية لثورته .

ومرة ثانية لم أقاطع حتى أكمَلَ، ثم سألنى كما فعل مرة من قبل : «ألا يساوى هذا كله أن تهتم به وأن تكتب عنه ؟»

ثم استدرك :

«المثقفون العرب، أو من يظنون أنفسهم كذلك، اهتموا كثيرا بما قيل عن الطريق الثالث الذى يتبعه «بلير» (يقصد «تونى بلير» رئيس وزراء بريطانيا) ويكثر من الحديث عنه ...

الطريق الثالث هو نفسه نظرية الكتاب الأخضر .. النظرية العالمية الثالثة».

ووجدتنى مضطرا إلى إبداء ملاحظة قلت فيها «إنه يصعب علىّ الربط بين نظريته وبين الطريق الثالث، فهذا الطريق الثالث الذى كثر الحديث عنه منذ ظهر كتاب «أنتونى جيدنز» (الأستاذ بكلية لندن للعلوم الاقتصادية) ـ ليس طريقا مستقلا ثالثا، وإنما هو حتى بنص عنوان مؤلفه على غلاف كتابه «الطريق الثالث» ـ يشير فى سطر فرعى إلى أن المُجَلَّد «محاولة لإصلاح الليبرالية الديمقراطية» .

وفى حقيقة الأمر ـ أو كذلك ظنى ـ فإن الطريق الثالث ليس نظرية جديدة وإنما هو سياسة حل وسط يريد أن يعطى وجها إنسانيا للرأسمالية الجديدة، وقد هرعت إلى هذا الطريق الثالث أحزاب يسارية أو اشتراكية أو تقدمية وصلت إلى الحكم فى بلادها (مثل حزب العمال البريطانى) واكتشفت أن اللحظة الراهنة «رأسمالية»، ولما كانت تريد أن تجد وسيلة للتوفيق بين وهج المبادئ وبين سطوة الحقائق ـ فإنها عثرت فى مقولة «الطريق الثالث» على غطاء نظرى وفكرى يمنحها مرونة أكثر فى الحركة بين المبادئ والحقائق !

وهكذا فإننى أستطيع أن «أتابع» ما يقوله عن نظرية «الكتاب الأخضر»، ولكنى أجد نفسى عاجزا عن «المتابعة» إذا جرت المقارنة بالشبه بينه وبين فكرة «الطريق الثالث»!.

ودار بيننا نقاش حول هذه المسألة، ثم كان اقتراحه مرة أخرى : «إنه لا بد أن أذهب إلى ليبيا لكى أرى بنفسى «الكتاب الأخضر» حيا وفاعلا».

□ □ □

وتصورت أن مجرى الحديث أصبح مهيئا لأزمة «لوكربى» .

ولم يعترض، ولكنه اختار أن يكون مدخله إلى الحديث عن «لوكربى» هو مخطط التآمر المستمر ضد ليبيا وشعبها وثورتها، وضمن الحرب المتواصلة على القومية العربية فكرة وتجربة ومستقبلا .

وفجأة توقف يسألنى :

ـ هل صحيح أن أنور السادات بطل قومى فى مصر الآن ؟»

وأبديت دهشتى من السؤال وموضعه فى سياق الحديث، وقال :

ـ «الرئيس حسنى قال لى : لا تنتقد أنور السادات فى كلامك لأن ذلك يؤدى إلى نفور الشعب منك لأنه يعتبره بطلا قوميا».

وقلت :

ـ« إذا سألتنى رأيى فقد أتفق مع «الرئيس حسنى» فى نصيحته لك بأن لا تنتقد الرئيس السادات ـ أما أن يكون الرئيس السادات بطلا قوميا فهذه قضية خلافية، والأفضل تركها للتاريخ يحكم .

من وجهة نظرى فإن الرئيس السادات رجل اجتهد وأخطأ، لكن له فضل الاجتهاد، وأول اجتهاده ـ وهو أول فضله ـ قرار القتال فى أكتوبر ١٩٧٣ .

ربما أن خطأ الاجتهاد فى رأيى يجىء فى الإدارة السياسية وسط القتال وبعده ـ لكن رأيى هنا تقدير سياسى ـ وأما البطولة فهى حكم تاريخى مؤجل إلى زمان آخر تُمتحَن فيه المقدمات والنتائج والأهداف والأدوات والظروف والأجواء، وتُمتحَن بغير هوى وغرض وبعيدا عن التحزب ضد ومع مما هو جار فى حياتنا هذه الأيام !

....

....

أما عن نفور الشعب المصرى من نقدك لأنور السادات فدعنى أذكرك برأى طرحته أمامك فى زمن بعيد .

أثناء اشتداد خلافك مع أنور السادات (إلى حد الاشتباك مرات) عرضت عليك : «إننى متأكد من حبك لمصر، ولكنى لست متأكدا من فهمك لها» .

عرضت عليك يومها «أن مصر ليست واثقة كل الثقة بعد من عروبتها، وربما أنها الوطن العربى الوحيد الذى يملك منطقا كاملا له عوامله (بالحق أو بالوهم) يغريه باختلافه عن بقية شعوب الأمة .

- «العامل الأول هو الجغرافيا المصرية بوادى النيل ـ النهر وضفافه ـ حيث تتركز الحياة فى حصار حزام من الرمال يحوط كل شىء : الناس والنهر والوادى، وذلك يخلق مجتمعا مكتفيا بذاته وليس بالضرورة منكفئا على ذاته .
- العامل الثانى هو الحضارة الفرعونية القديمة، وهنا فإن مصر تخلط أحيانا بين «الميراث» و«التراث» .

«الميراث» تركة خلّفها وراءه تاريخ مضى .

فى حين أن «التراث» ثقافة وضعها على الأرض تاريخ حى .

- والعامل الثالث هو ضرورة وقوة الدولة المركزية التى تدير مسئولية التعامل مع الجوار وراء الصحارى المحيطة بالصراع أو بالغزو.

....

....

تذكر أننى فى زمن سبق عرضت عليه أنه «عندما تخرج مصر من الدائرة المحكمة والمغلقة للإرث، وتتجه إلى فكرة التراث فإنها تتوه فى المحيط الإسلامى الكبير وتتصور نفسها مركزه بنفوذ الأزهر، وقلبه بدفاعها عن موطنه ضد الصليبيين وفرسانهم أو ضد التتار وسيوفهم .

وهنا تلتبس الأمور فى مصر بالخلط بين الإسلام والعروبة .

ننسى كلنا ـ أو بعضنا ـ فى مصر أن العرب لم يصنعوا حضارة، وإنما الإسلام هو الذى صنع الحضارة عندما التقت روافد ثقافية عظيمة من مصر والشام وفارس والهند وبيزنطة وخلقت مجمعا حضاريا ليس له مثيل فى زمانه .

وسط هذا المحيط الحضارى ظهرت الأمة العربية متفردة ـ ولا أقول مميزة ـ بلغة واحدة وتاريخ مشترك وجغرافيا ممتدة، وتواصل إنسانى لم ينقطع، وأصبحت لها هوية قومية تستحق لدواع من المستقبل وليس من الماضى أن نقول فى شأنها وبجد «أنها إذا لم تكن موجودة كحقيقة فإن المطلوب اختراعها كضرورة» .

وإذن فنحن فعلا أمام التباس يتأتى من أننا أمام واقع قومى، ثم إن الحضارة الإسلامية هى المحتوى الحضارى له .

(كان الزعيم الوفدى القبطى العظيم «مكرم عبيد» أبلغ معبر عن ذلك بمقولته المشهورة «إنه مسلم وطنا وقبطى دينا») .

وإذا كانت تلك إشكالية يتعين على العرب جميعا أن يجدوا حلا لها ـ فإنها فى مصر مشكلة مستعصية أكثر من غيرها نظرا لما عرضته عليك من أسباب.

....

....

يزيد على هذه العوامل الثلاثة عامل رابع هو سبق مصر إلى الاتصال بأوروبا (وهى المقر المعاصر للحضارة الإنسانية) وقد نؤرخ لهذا السبق بحملة «نابليون» على مصر، وقد نؤرخ له بمشروع «محمد على» حتى وإن كان مشروعه فى صميمه عثمانيا أكثر منه مصريا أو عربيا . والنقطة المهمة هنا أن «محمد على» فى سبيل تحقيق مشروعه العثمانى أسس دولة حديثة فى مصر سبقت غيرها فى المنطقة، وكان سحر الدولة الحديثة هو الذى جعل كتلا كبيرة من الشعب المصرى تنسى أنها لم تعش فى أى عصر من العصور داخل واديها وإلا تحوَّل الوادى إلى سجن تحاصره رمال الصحراء .

....

....

واستطردت ونحن فى قصر القبة ١٩٩٩ أُذَكِّر «معمر القذافى» بما عرضته عليه من قبل قائلا :

«إن مصر خرجت فى العصور القديمة من الوادى بحافز الإمبراطورية ـ لكنها لم تلبث أن عرفت بالتجربة أن الجغرافيا تملى عليها أن تكون جزءا مما حولها موصولا به ومنسجما معه، وهكذا تعايشت مصر مع الزمان اليونانى، والرومانى، ثم عاشت ـ ولم تتعايش فقط ـ فى صميم عصرها الإسلامى، وحين أخذت اللغة العربية وشاركت فى إقامة حضارة مشتركة تفاعلت فيها ثقافات المنطقة التى قبلت بالإسلام حتى وإن لم تقبل باللغة العربية، فإن هذه العملية من الصهر التاريخى جعلتها لأكثر من أربعة عشر قرنا كيانا منسجما مع عالم محيط به فى السلطة وفى التشريع وفى الفن والأدب، وفى

الصلات المفتوحة بين الناس على مدى اتساع جغرافى واضح، لديه بالإضافة إلى هذا كله أمنه المشترك (التتار - الصليبيين - الاستعمار - إسرائيل .. إلى آخره) .

ولقد حاول بعض الناس أن يعودوا بالهوية المصرية إلى العصر الفرعونى، ثم وجدوا أن الإرث غير التراث . ثم حاول بعضهم أن يجدوا لمصر هوية أوروبية، ولكنهم أدركوا أن قضايا الثقافة أعمق كثيرا من تقابل الشواطئ، وأن البحر الأبيض نافذة عريضة لمصر وليس باباً .

وعلى أى حال فإن مجمل كل تلك التصورات - وهى ليست جميعا أوهاما بلا أساس - تغرى مصر بعض المرات - خصوصا فى ظروف التراجع - بالانكماش داخل محلية ضيقة .

....

....

تلك كلها خطوط وعلامات من الإطار المحيط بحياة مصر .

ثم تجيء أنت وتنتقد أنور السادات .

وبحساسية الانكماش فى محلية ضيقة يظن بعض الناس أن نقدك له موجه إلى البلد ذاته، إلى مصر .

أضف إلى ذلك أن كتلة مؤثرة من الشعب المصرى ترى أن ما فعله أنور السادات، سواء كان صوابا أو خطأ، سواء كان فى استطاعته بلوغ ما هو أكثر أو لم يكن، سواء أحسن استغلال نتائج حرب أكتوبر أو لم يحسن - أراح مصر ولو عصبيا من مأزق الارتهان لضرورات السلاح خصوصا وقد اختلفت الظروف الدولية .

وفى النتيجة فإن استثارة النعرات الوطنية - المحلية إذا شئت - سهلة فى مصر .

وهكذا فإنك ما أن تنتقد أنور السادات حتى يشعر بعض الناس فى مصر فعلا بنوع من العصبية .

والآن «أرجوك لا تتضايق إذا قلت لك أننى أستطيع انتقاد أنور السادات فى مصر دون حرج، وأما أنت فلا بد لك أن تحاذر كى لا توقظ كوامن عصبية خامدة، لأن الجمرة تحت الرماد كما يقولون !»

□ □ □

كان «معمر القذافى» يسمعنى، وأحسست أننى أطلت لكنى أردت ـ من قلبى ـ أن أضعه ـ مرة أخرى ـ فى صورة فكرى حرصا على اعتبارات كثيرة تتجاوز هوى الأفراد وتتخطى مزالق السياسة .

وسكت .. سكت طويلا، ثم عاد يقول بحيرة :

ـ «إن السادات ساعد فى العدوان على ليبيا وكان فى نفس الدائرة مع ريجان ومع تاتشر.

لدينا الأدلة، ولا أريد أن أنكأ جراحا قديمة، لكننا نعرف أن ضرب ليبيا بالطائرات الأمريكية ـ وبمعاونة بريطانية ـ سنة ١٩٨٦ كان عملا شجعت عليه وشاركت فيه بشكل أو آخر أطراف عربية بينها السادات.

وكان ذلك قبل «لوكربى» .

[جرى ضرب ليبيا من الجو يوم ١٤ أبريل ١٩٨٦، وسقطت الطائرة الأمريكية فوق قرية لوكربى الاسكتلندية فى ديسمبر ١٩٨٨] .

كانوا يقصدوننا دائما ولا زالوا . لقد ضربوا بيتى وقصدوا إلى قتلى، وأصابوا أفرادا من عائلتى !» .

وقلت : «أعرف» .

قال : «وهُم فى حكاية «لوكربى» من وقتها وحتى الآن ـ أكثر من عشر سنوات ـ لا يريدون تحقيقا عادلا، ولكن يريدون الإيقاع بنا» .

قلت : «وهنا أيضا أعرف، ولعلى لا أفاجئك بشىء لا تعرفه إذا أضفت أننى فى لندن ذات مرة سمعت مارجريت تاتشر تقول صراحة أنها لا تريد اثنين من ضباط المخابرات الليبية للتحقيق معهما، ولكنها تريدك أنت شخصيا فى القفص» !.

قال : «شريرة هذه المرأة» !

وقلت : «لا أعرف إذا كانت شريرة أم طيبة، لكنه فى صراعات الشعوب والأمم يكون الحَكَم هو إمكانيات القوة وليس إجراءات العدل !

ومع ذلك قل لى : «أين نحن الآن فى أزمة لوكربى ؟ !»

□ □ □

وقال «معمر القذافى» : «إننا نبذل كل جهد ممكن ونمشى إلى نهاية الطريق حتى نصل إلى حل . والحصار على ليبيا يؤلم، ومع أنه ليس فى شدة الحصار على العراق لكن الشعب الليبى يعانى» .

وسكت .

وأحسست دون أن يقولها صراحة أن «تداعى العوارض المتشابهة فى الظروف المتماثلة» (Syndrome) يضغط عليه، فهو بعد الحصار على ليبيا كما جرت ممارسته طوال السنوات الأخيرة - أمام إنذار أمريكى بريطانى بالتصعيد إذا لم يستجب ويسلم المتهمين الليبيين («عبد الباسط على المقراحى» و«الأمين خليفة فحيمة») لمحاكمة خارج ليبيا .

وخشيته أن يصل التصعيد فى العقاب إلى الحالة العراقية . ومع أنه يرى أن الحالة العراقية مختلفة عن الحالة الليبية فإن القوة - فى وسائل الإعلام قبل أدوات السلاح - تستطيع إعادة ترتيب الأشكال والصور بحيث تتماثل الحالة الليبية مع الحالة العراقية.

....

....

كان يدرك أن الحالة العراقية قد استجابت تماما لطلبات مجلس الأمن، ولكن الذرائع وجدت لنفسها فجوات حتى وإن كانت بخداع البصر .

كان مطلوب من العراق شيئين :

أولا - أن ينسحب من الكويت (وقد فعل) .

ثانيا - أن لا يكون لديه من أسلحة الدمار الشامل ما يهدد جيرانه (ولم يعد لدى العراق شىء يهدد به جيرانه أو جواره) .

لكنه الإصرار على إيذاء العرب وإهانتهم (هكذا قال) .

ولقد اتكأ الأمريكان (هكذا تقديره) على ما يظهره جيران العراق من «ادعاء الخوف المستمر من خطره»، واعتبروا أن قرارات مجلس الأمن لم تنفذ بالكامل حتى الآن .

وفى حالته (معمر القذافى) «فهو يعلم أن قواته لم تخرج من حدوده وأنه ليس مطالبا بالانسحاب من شىء، وكذلك يعرف أن جيرانه لا يعتبرونه خطرا يهدد أمنهم، ولا يدّعون عليه بشىء من ذلك، ولكن من يضمن ؟»

«فى حالته ـ وبرغم كل الحقائق ـ فإن اصطناع الذرائع سهل إذا كانت لدى الطرف الآخر وسائل الإعلام يصور بها الأمور على هواه، وأدوات السلاح يستعملها دون كوابح فى وقت تراجعت فيه سلطة ما سمى بـ «الشرعية الدولية».

أمريكا ـ والكل يرى وليس هو وحده ـ انفردت بالأمم المتحدة . وأخذت مجلس الأمن بكامله فى طاعتها. والمجلس لم يعد يجتمع علنا، وإنما أصبح يجرى مشاورات داخلية تديرها واشنطن وتوجهها حسب مطالبها وتقدمها للدنيا باعتبارها إرادة مجلس الأمن !

وحتى بدون مجلس الأمن ـ إرادة أو شهادة ـ فإن الولايات المتحدة تستطيع أن تتصرف بعيدا عنه إذا رأت لمثل ذلك ضرورة .

تتصرف كما تشاء، وتبرر كما يحلو لها، وعندما تحتاج ففى استطاعتها أى وقت أن تعتمد على «محلل» بريطانى ـ سواء كان اسمه «مارجريت تاتشر» فى عهد «ريجان»، أو «جون ماجور» فى عهد «بوش»، أو «تونى بلير» فى عهد «كلينتون»!

□ □ □

«كوفى عنان رجل طَيِّب» .

قالها «معمر القذافى» وهو مرة أخرى يستند على عكازه ويميل ناحيتى ... ثم يسأل:

ـ «هل تعرفه ؟»

قلت :

ـ «سألنى عنك عندما لقيته على العشاء ـ وكنا على مقعدين متجاورين ـ وكان ذلك عندما زار القاهرة رسميا قبل أكثر من عام، وقال له وزير الخارجية «عمرو موسى» (بذكائه المتوهج وبروحه المرحة) ـ «ها هو بجوارك رجل عرف القذافى من اللحظة الأولى، فاسأله إذا كنت تريد» !

وقاطعنى «القذافى» سائلا :

ـ «وماذا قلت عنى لكوفى عنان ؟».

ورددت :

ـ «قلت له الحقيقة ـ قلت له «سيادة الأمين العام إن معلوماتى المباشرة عن القذافى ترجع إلى ربع قرن ـ ولا أعرف إذا كانت الآن تفيدك» ؟

سألنى «القذافى» :

ـ «وهل ترانى تغيرت ؟».

قلت ضاحكا : «هذا ما أحاول اكتشافه الآن، ولذلك أرجوك أن نعود إلى أزمة (لوكربى)».

....

....

[كانت التغيرات التى لمحتها لأول وهلة أن السنين تركت آثارها خطوطا عميقة على صفحة وجهه تعكس توترات الأيام وشدائد التجربة . وكانت عيناه الآن أكثر حذرا فى النظر إلى ما حولهما، وكانت لهجة حديثه كما عرفتها فى السابق ناطقة بنوع من الغربة، لكنه بدا لى أن الغربة الآن فيها نبرة من التوجس، وربما أن الأيام علمته أن مكامن الخطر ليست دائما حيث يتوقعها !

كان التغير الآخر الذى لمحته بانطباع سريع هو اختلاف ملابسه : فهى الآن أكثر رقة وانسجاما، الحذاء «موكاسان» إيطالى خفيف وأنيق، والبنطلون والقميص فوقه قطن مصنوع فى إنجلترا غالبا، والبلوفر فرنسى بلونه الأحمر وكذلك علامة مصنعه المشهورة، والشال حول العنق يشير إلى إيطاليا، لكن عباءة الشعر الشفافة فى الغالب عربية].

....

....

وقال «القذافى» مستأنفا كلامه من حيث وصلنا :

ـ «كوفى عنان رجل أمين وأنا أثق به .

معه أثق فى رجلين : «نلسون مانديلا» زعيم أفريقى شريف، وثائر لم يتنكر لمبادئه وهو فى الحكم .

الرجل الثانى الذى أثق فيه هو الأمير «عبد الله» ولى عهد السعودية ـ أعطانى كلمة وأنا أثق فيه».

....

....

[قلت لـ «معمر القذافى» : «إن الأمير «عبد الله» أعطانى الإحساس بأنه مهتم بالفعل، وكان ذلك عندما دعانى إلى فنجان قهوة حيث كان يقيم أثناء زيارته الرسمية لبريطانيا فى شهر أكتوبر الأخير . إن الأمير «عبد الله» فى ذلك اللقاء - وهو أول لقاء بيننا - روى لى أنه قبل أن يلقانى بساعات كان يتحدث مع «تونى بلير» رئيس وزراء بريطانيا فى شأن ليبيا والعقوبات المفروضة عليها سبع سنوات حتى الآن !»

وحكى لى الأمير «عبد الله» أنه قال لرئيس وزراء بريطانيا أنه «لا يخشى من استمرار الحصار على ليبيا فقط، ولكنه يخشى - كذلك - على هيبة الأمم المتحدة . ذلك أن زعماء أفريقيا قرروا تحدى الحصار الأمريكى، وراح كل واحد منهم يركب طائرته يوما قاصدا إلى زيارة «القذافى» تحديا للحظر . وإذا استمر هذا الحال فماذا تفعل واشنطن ولندن - هل تقومان بإسقاط كل طائرة تحمل رئيسا أفريقيا يكسر الحظر، أو تسكت الدولتان على هيبة مجلس الأمن تتبعثر كل يوم فى الهواء ؟».

وطبقا لروايته - وهو بالتأكيد صادق - قال ولى العهد السعودى لرئيس الوزراء البريطانى : «هذا وضع لم يعد قابلا للاستمرار ولا بد من حل يضع نهاية له».

وطبقا لتقدير ولى العهد السعودى فإن «تونى بلير» أبدى تفهما، وبعد نقاش طال نصف ساعة طلب منه (من الأمير عبد الله) أن يستعمل نفوذه ويساعد].

....

....

[ومهما يكن - وهذه الآن عودة من حديثى مع ولى العهد السعودى فى لندن إلى قصر القبة فى القاهرة حيث كان حديثى مع «معمر القذافى» - فقد كان ذلك - ومن أول «نلسون مانديلا» وحتى «عبد الله بن عبد العزيز» شوطا بعيدا بعيدا جدا تقاس عليه ثقة «القذافى» بالناس وبالأفكار والمؤسسات .

لقد ذهب إلى الأبعد جغرافيا - أقصى الجنوب من أفريقيا السوداء ... «نلسون مانديلا» .

وقد ذهب إلى الأبعد فكريا - أقصى اليمين - تقليديا - فى العالم العربى ... المملكة العربية السعودية ... ولى عهدها الأمير «عبد الله» .

ثم ذهب أخيرا إلى أبعد الشواطئ وراء الأطلنطى، إلى نيويورك - الأمم المتحدة -

«كوفى عنان» ـ وهو القائل أكثر من مرة أن الأمم المتحدة هى الولايات المتحدة متنكرة فى زى آخر !

سفر طويل فى كل الاتجاهات متعارضا تماما مع بوصلته الأصلية الأولى].

....

....

[وقد أضيف إلى هذا السفر الطويل ملحقا بملاحظة قد تكون مهمة ـ إلى جانب جهود «نلسون مانديلا» و«عبد الله بن عبد العزيز» و«كوفى عنان» ـ وهى أن واحدا من أكبر دوافع الوصول إلى حل فى شأن قضية «لوكربى» هو أن جنوب أوروبا المتوسطى (فرنسا وإيطاليا وأسبانيا) زاد تشوقه إلى شمال أفريقيا المتوسطى (المغرب والجزائر وتونس وليبيا) .

وأوروبا المتوسطية تريد عودة إلى نوع ما كان ذات يوم، حتى وإن كانت عودة مختلفة ـ بين الشاطئين شمال وجنوب البحر الأبيض .

وبعبارة أصرح فإن هناك شوقا فرنسيا إلى المغرب والجزائر ـ وتونس إذا أمكن .

كما أن هناك شوقا إيطاليا إلى ليبيا .

ثم إن هناك شوقاً أسبانيًا يرش مشاعره على رمال الشاطئ الشمالى لأفريقيا حيث وجد فرصة .

ومن الضرورى للولايات المتحدة أن تترك لحلفائها مجالا .

وأظن أن «معمر القذافى» كان يريد شاطئا عربيا يرسو عليه، لكنه لم يجد، ولقد تصور أنه يستطيع أن يلجأ إلى غابات الجنوب فى أفريقيا بديلا عن شواطئ الشمال، لكن الهجرة إلى الجنوب لم تنجح لأنها ضد التاريخ ـ بصرف النظر عن قرب الجغرافيا.

وهكذا فإن «القذافى» حتى وإن لم يقصد ـ وحتى إن لم يشعر ـ عاد إلى الشواطئ التى تتدافع أمواجها نحوه ـ وبالطبع ليس مُهِمًا أن يعرف الناس مصادر الحركة إذا كان فعلها محسوسا ـ وذلك هو الحال فى حركة الزلازل مثلا !].

....

....

□ □ □

كنا ما زلنا فى صالون جناحه فى قصر القبة، وانتقل «القذافى» إلى ما تم الاتفاق عليه فى شأن أزمة «لوكربى».

ولاحظت، وكان ينبغى أن ألاحظ، أنه عندما وصل «معمر القذافى» فى حديثه إلى هذا الموضوع - فإن ميله على عكازه ناحيتى زاد، وفى نفس الوقت فإن صوته انخفض إلى درجة الهمس.

ولم أعلق وإنما أصخت السمع أدقق فى تفاصيل ما يقول.

....

....

[وعندما تصل هذه السطور إلى قرائها فإن ما قاله «القذافى» عن النتائج التى توصل إليها المهتمون بحل أزمة «لوكربى»، وخصوصا الثلاثة المعتمدين من جانبه: «نلسون مانديلا» - و«عبد الله بن عبد العزيز» - و«كوفى عنان» - لم يعد سرًا على أحد.

- سوف يجرى - وقد جرى فعلا - تسليم الليبيين المتهمين من قِبَل الولايات المتحدة وبريطانيا - بنسف طائرة شركة «بان أمريكان» فوق قرية لوكربى الأسكتلندية فجر يوم ٢١ ديسمبر ١٩٨٨ - إلى محاكمة دولية فى لاهاى.
- وسوف تجرى المحاكمة طبقا للقانون الأسكتلندى، وهو قانون الدولة التى انفجرت الطائرة وسقطت على أرضها.
- ولقد تأكد له وكتابيا أن التحقيق مقصور على الرجلين دون أن يحاول أحد بسبق الإصرار اتخاذها جسرا إلى ما وراءهما أو من فوقهما.
- ولقد أخذ كل الضمانات اللازمة لعدالة التحقيق والمحاكمة، وكذلك عن شروط تنفيذ العقوبة إذا ما حدث وأدين الرجلان.
- وهو واثق من براءتهما لأنه يعرف الحقيقة. كذلك فإن ما سمعه من المحامين الذين اطلعوا على ملفات التحقيق السابقة - ضعيف فى الدليل وفى السند ولا يمكن لمحكمة من أى نوع أن تأخذ بشىء منه.
- «والأهم أنه فور تسليم الرجلين فى «لاهاى» تُعَلَّق العقوبات على ليبيا - وقد عُلِّقت فعلا - وهذا يعنى عمليا رفع العقوبات نهائيا، لأنه إذا أرادت الولايات المتحدة لسبب ما

إعادة فرضها فلن تجد فى مجلس الأمن أصواتا (تسعة أصوات لازمة للنصاب) تؤيد إعادة فرضها (كذلك جاء فى إيضاحات دولية قُدِّمت إلى الحكومة الليبية)] .

....

....

وحين كان لقاؤنا فى قصر القبة ذلك المساء (١٣ مارس ١٩٩٩) فقد كانت هناك - ما تزال - نقطتان يتراوح تفكيره حولهما بين الشك واليقين :

□□ النقطة الأولى : أنه كان يريد أن تجرى المحاكمة طبق القانون الأسكتلندى نعم - ولكن بواسطة قضاة من هولندا .

ولكن الذى حدث أن المقترحات النهائية التى قُدِّمَت إليه فى الثانية الأخيرة أخذت برأى أنه القانون الأسكتلندى وقضاة من أسكتلندا - مع الموافقة على أن تكون المحاكمة فى هولندا...

وبدا قلقا من أنه لم يحصل - وحتى الثانية الأخيرة - على قضاة من هولندا .

ولكنه طمأن نفسه : «بأنه ربما كان ذلك خيرا لأن قضاة هولنديين قد يرغبون فى تأكيد حيادهم ونزاهتهم عن طريق التشدد بأكثر مما يقتضيه القانون حتى لا يتهموا بالممالأة».

□□ والنقطة الثانية : أنه كان يريد فى حالة صدور حكم بالإدانة - والسجن - أن يكون قضاء العقوبة فى أسكتلندا نعم - ولكن تحت حماية وضمانة الأمم المتحدة .

وكانت الفكرة التى طرحت نفسها عليه أن تشترى ليبيا بيتا فى مكان ما من أسكتلندا وأن يتحوَّل هذا البيت إلى سجن، وأن تُرفَع فوقه على نحو ما إشارة تومئ إلى تبعيته للمنظمة الدولية، وبالطبع فإنه من المستحسن أن تكون الإشارة علما أزرق اللون من أعلام الأمم المتحدة !

....

....

وطال الحديث، وطال، وتشعب إلى كل اتجاه وموقع .

وكانت عقارب الساعة تزحف إلى ما بعد منتصف الليل .

وقلت له : «طال حديثنا، فهل أستأذن منك ثم نستأنف مرة أخرى ؟»

وسألنى إذا كنت أذهب معه إلى الفيوم غدا، فقد أنهى ما لديه فى القاهرة وموعده الباقى مع جماهير تنتظره هناك .

واستأذنته أن يذهب إلى الذين ينتظرونه ولا ينتظرون غيره، وليكن موعدنا لاستئناف حديثنا الطويل فى موعد نتفق عليه فيما بعد .

وقال : «عندنا.. لا بد أن تجىء إلى ليبيا» .

□ □ □

[٣]

وعندما خرجت من قصر القبة عائدا إلى بيتى كانت القاهرة ما زالت ساهرة ومزدحمة حتى فى هذا الوقت قرب الواحدة صباحا .

وكانت ذاكرتى مثل القاهرة ساهرة يقظى ومزدحمة بالمواقف والمشاهد من ماضى معرفتى بـ«معمر القذافى» وعلاقتى به من سنة ١٩٦٩ وحتى أكتوبر ١٩٧٣، حين كان آخر لقاء بيننا تلك الأيام، ثم طرأ بعد أسابيع منه ما جعلنى أقرر أن أبتعد تماما عن الساحات التى يتحرك أو يتواجد فيها صديق قديم، لقيته أول مرة فى ظروف مشهودة!

□ □ □

كانت أول مرة ألقاه فيها بعد ساعات من قيام الثورة فى ليبيا (ثورة الفاتح العظيم كما يسميها الإعلام المصرى هذه الأيام !)

كانت أنباء الثورة فى ليبيا قد أعلنت للعالم الخارجى من إذاعات طرابلس وبنغازى ضحى يوم أول سبتمبر ١٩٦٩ .

وكان الإعلان مصحوبا بالبيان الأول للثورة على مكتبى حوالى الساعة العاشرة صباحا، واتصلت بـ«جمال عبد الناصر» لكنه كان قد دخل إلى قاعة اجتماع طارئ لدول المواجهة (كما كانت تسمى فى ذلك الوقت، وكانت تضم مصر وسوريا والعراق والأردن) ـ وكان المطلوب من هذه الدول تنسيق العمل العسكرى على الجبهة الشرقية استعدادا للمعركة القادمة مع إسرائيل.

وبعد دقائق اتصل بى «جمال عبد الناصر» لأن الاجتماع الذى وصلته أنباء الثورة فى ليبيا انشغل بالحدث الطارئ الذى فرض نفسه فوق جدول الأعمال المعد سلفا، خصوصا أن المجتمعين كانوا فى أجواء تساؤل يتحرق إلى معرفة اتجاه الثورة فى ليبيا : وهل هو قومى (أى أقرب إلى القاهرة)، أم هو بعثى (أى أقرب إلى حزب البعث بصرف النظر عن انقسامه إلى فريقين بين بغداد ودمشق).

وحاول المجتمعون فى إطار دول المواجهة لدقائق معدودة أن يواصلوا مناقشاتهم على أساس جدول أعمالهم، ولكن المحاولة كانت عبثية لأن إلحاح الحدث الليبى فرض نفسه قبل جدول الأعمال، وهكذا قرر المؤتمر أن يَنفَضَّ نصف ساعة ثم يعود إلى استئناف جلسته.

وسألنى «جمال عبد الناصر» عندما اتصل بى عما أستطيع استقراءه من بيان إعلان الثورة فى طرابلس، وكان سؤاله يحمل نبرة من طلب التدقيق شاغلها ومغزاها فى النهاية : «أَهُمْ (يقصد القائمين بالثورة فى ليبيا) أقرب إلى القاهرة، أم أقرب إلى البعث، وأى بعث منهما ؟»

وقلت أن استقرائى للبيان أنهم أقرب إلى القاهرة، ذلك أنه بصرف النظر عن العبارات الإنشائية فى النص فإن ترتيب شعار الحرية والاشتراكية والوحدة جاء متفقا مع الترتيب الذى يُستَعمَل فى القاهرة، ومخالفا للترتيب الذى يستعمله حزب البعث والذى ترد فيه الوحدة قبل الاشتراكية وقبل الحرية.

وكان رأى «جمال عبد الناصر» أننى ربما أتعسَّف فى دلالة ترتيب الكلمات، «لأن الذى يقوم بما قام به هؤلاء الضباط فى ليبيا لن يتوقف طويلا أمام مواضع الشعارات. وحتى إذا جاءت الشعارات المعلنة فى طرابلس متوافقة مع الترتيب الذى تستعمله القاهرة فمن الاحتمال أن تكون تلك محض مصادفة».

وقلت : «ربما ـ ولكننى أشعر فى نبرة البيان العامة بما يعزز استنتاجى».

وكان اعتقادى أن «جمال عبد الناصر» يميل إلى استنتاجى سواء لأنه رأى مثلما رأيت، أو لأن ذلك كان مناه، فقد كانت قوى الأمة المقاتلة ذلك الوقت وسط معارك حرب الاستنزاف المستمرة على الجبهة المصرية ـ فى حاجة إلى دعم معنوى من الحركة القومية العامة فى الوطن العربى.

....

....

وعاد «جمال عبد الناصر» إلى اجتماع دول المواجهة (وقد تحوَّل إلى اجتماع مغلق)، وعدت إلى متابعة تطورات ما يجرى فى ليبيا، ولم يكن هناك من مصدر غير إذاعة طرابلس وما تعلنه ومعظمه إنشائى حماسى، ثم وكالات الأنباء العالمية وما تنقله وقد كان ضئيلا يعاد تكراره، وكان كل ما يصدر عن الإذاعات وما تحمله الوكالات أقل بكثير من مستوى الحدث وهو خطير فى موازين الشرق الأوسط.

- ثورة فى ليبيا وهى موطن كنز نفطى كبير، وأهم ميزاته أنه نفط من النوع الخفيف تتدفق منابعه مباشرة نحو البحر الأبيض.

- وثورة فى ليبيا وهى شاطئ بامتداد البحر الأبيض - ثلاثة آلاف كيلو متر تشمل منطقة القلب على شاطئه الجنوبى ومركزها خليج «سرت».

- وثورة فى ليبيا وهناك قواعد بريطانية (فى «العظم»)، وهناك قواعد أمريكية فى طرابلس «هويلس»، وهذه القواعد جزء متصل بخطط وعمليات الأسطول الأمريكى السادس فى البحر الأبيض.

وكانت الأسئلة الملحة مع مرور الساعات : كيف نجحت الثورة ؟ - وإلى أى مدى يتعرض لها الغرب ؟ - وكيف يتصرف القائمون بها إزاء ما يتهددهم من خطر ؟ - وهل هم متنبهون إلى حجم هذا الخطر ؟

وعشرات الأسئلة الأخرى !

....

....

فى الساعة الثالثة والربع عاد «جمال عبد الناصر» إلى الاتصال بى يقول أن ضابطا ممثلا لقيادة الثورة فى ليبيا قصد القنصلية المصرية فى بنغازى وأبلغ رسالة مفادها أن قيادة الثورة فى ليبيا تريد إقامة اتصال سريع مع القاهرة، والهدف منه بحث التطورات المحتملة. وتقديرهم أن الثورة نجحت وتسيطر على كل أنحاء ليبيا، لكن هناك قواعد بريطانية وأمريكية والمخاطر قائمة.

وقال لى «جمال عبد الناصر» أن هناك الآن اتصالات جارية بقصد الاتفاق : إما على مجيء وفد من الثوار إلى القاهرة، أو على ذهاب وفد مصرى إلى ليبيا يقابل ممثلا أو ممثلين لقيادة الثورة لبحث الاحتمالات.

....

....

وفى الساعة الخامسة والربع بعد الظهر عاد «جمال عبد الناصر» إلى الاتصال بى وأتانى صوته على التليفون ضاحكا قبل أن يقول كلمة واحدة، وتساءلت، وكان قوله :

ـ «يظهر أنك سوف تقضى ليلتك فى بنغازى ـ لأنهم طلبوا حضورك» ؟

وقلت مستغربا : «من هُم ؟»

وقال : «قيادة الثورة هناك، اتفقوا على أفضلية أن يسافر وفد من هنا إليهم، فليس بينهم من يستطيع أن يترك «البلد» فى هذه الظروف».

وأضاف «جمال عبد الناصر» : «إنهم طلبوك بالاسم، وهُم يعرفون صلتك بى، كما أنهم يقرأون مقالاتك أو يسمعونها من الإذاعات، ورأيى أن تذهب.

إننا سوف نبعث بمندوب ينسق مسائل الأمن معهم، ولكنى رحبت بطلبهم لك ورأيى أن تذهب وتعود بسرعة وتعطينى تقييما سياسيا».

وقلت متحمسا : «إنه بصرف النظر عن أى شيء فأنا أريد أن أذهب ـ مادامت هناك فرصة ـ كصحفى بالدرجة الأولى» ـ وتساءلت «هل أستطيع أن آخذ مصورا من الأهرام معى ؟»

وقال «جمال عبد الناصر» الذى كان يتبرم أحيانا من «هَوَسٍ» صحفى يجده لا يفارقنى فى كل الأوقات : «خذ من تشاء». وكان رفيقى من الأهرام صديقى وكبير مصوريه فى ذلك الوقت : «محمد يوسف».

....

....

فى الساعة السابعة والنصف مساء وجدت نفسى على متن طائرة حربية مصرية، تقلع من مطار «ألماظة» فى اتجاه الحدود الليبية ... وتقاطعها عند «طبرق» رسالة من

قاعدة «العظم» البريطانية تسألها عن هويتها وعن اتجاهها وعن حمولتها ـ وترد الطائرة المصرية على الأسئلة بطريقة عامة تريد كسب دقائق تبدأ بعدها الهبوط فى مطار «طبرق».

وفى الساعة الحادية عشرة والنصف وجدت نفسى فى القنصلية المصرية فى بنغازى وقيل لى أن رئيس مجلس قيادة الثورة قادم إلى لقائى فيها.

وبعد قرابة نصف الساعة أقبل جمع من الضباط الشبان، أربعة أو خمسة، وتقدم أحدهم نحوى قائلا : «لا أصدق أنك هنا».

ثم قدم نفسه «معمر القذافى» (نطقها «الجذافى»).

وكان سؤاله الأول : «كيف حال الرئيس جمال ؟ طمئنا عليه».

وقلت له : «إن الرئيس جمال هو الذى يريد أن يطمئن عليكم...»

وقال : «اقترح بعض الإخوان أن نتصل به قبل قيام الثورة لكنى آثرت أن لا نفعل. كنا سوف نحرجه بمجرد إخطاره. وكنا إذا لا سمح الله فشلنا فيما اعتزمناه ـ سوف نلقى عليه المسئولية.

ولذلك فضلنا أن نفعل ما هيأنا أنفسنا له ونفاجئه بالنجاح إذا تحقق».

....

....

وحتى الساعة السادسة صباحا كنت ما أزال أستمع إليه، وأسأله ويجيب، وأحاوره ويناقش.

ثم قلت فى النهاية : «إننى الآن عائد بالطائرة إلى القاهرة».

وكان فى رأسى كثير مما أريد أن أحكيه لـ «جمال عبد الناصر».

وكان فى عدسة صديقى «محمد يوسف» ألبوم كامل من صور قائد الثورة الليبية ورفاقه.

وعدت إلى القاهرة قبل الظهر، وكانت هناك رسالة من «جمال عبد الناصر» بأن أتوجه إليه فى بيته مباشرة.

ودخلت عليه وكانت الأسئلة تطل من عينيه قبل أن تجرى على لسانه، وقلت له :

ـ «عندك مشكلة».

وسألنى إذا كنت وجدت لديهم ميولا حزبية أو عقائدية من أى لون ؟ ـ وقلت له : «على العكس... مشكلتك أنهم رجالك».

وأحسست أنه استراح بأعصابه ولم يسترح بفكره، وسألنى : «أين المشكلة إذن؟»

وقلت : «لأنك الآن أمام شباب برىء إلى درجة محرجة، وشباب رومانسى إلى درجة خطرة».

وكان فى شوق إلى التفاصيل.

وجلسنا لحديث متدفق وغزير أكثر من أربع ساعات.

□ □ □

[٤]

ولا أريد أن أطيل فى روايات الماضى وحكاياته. لكنى أتوقف عند بعض المشاهد فى السنة التى عاشها «جمال عبد الناصر» مع الثورة الليبية من سبتمبر ١٩٦٩ إلى سبتمبر ١٩٧٠.

كانت سنة خصبة بمقدار ما كانت سنة مثيرة.

فى أكتوبر ١٩٦٩ ـ أى بعد شهر من الثورة ـ جاء «معمر القذافى» إلى القاهرة للقاء مباشر وجها لوجه مع «جمال عبد الناصر»، وكان مشهد اللحظة الأولى من اللقاء مؤثرا من الناحية العاطفية ـ ومع ذلك فإن الكلام الذى دار بعد اللحظة الأولى كان فى صميم أزمة الشرق الأوسط.

ولم يكن لدى «جمال عبد الناصر» تردد فى الإجابة عما سأله فيه «معمر القذافى»، وإنما كانت إجاباته واضحة :

● «لا تقترب من امتيازات البترول فى ليبيا الآن ـ ليس ذلك هو الوقت المناسب.

- لا تحاول التسرع بإلغاء اتفاقيات القواعد فى ليبيا ـ ذلك الآن استفزاز لا تحتاجون إليه. إنكم الآن بمقتضى المعاهدات على وشك التفاوض لتجديد هذه الاتفاقيات سنة ١٩٧٠ ـ ادخلوا إلى التفاوض عندما تجيء المهلة المطلوبة للشروع فيه وهى ستة شهور قبل انتهاء الاتفاقيات، وعندها تطلب ما تشاء!

- لا داعى لأى حديث عن الوحدة الآن بين مصر وليبيا ـ تلك مسألة يُسْتَحْسَن تأجيلها إلى ما بعد مواجهة مشكلة القواعد الأمريكية والبريطانية، وربما أفضل إلى ما بعد المعركة.

- هناك كثير تستطيعون المشاركة فيه ضمن الجهد العسكرى العربى، ولكنى أفضل أولا أن تبحثوا أموركم فى ليبيا وأن تعطوا أنفسكم فرصة للاستقرار والتركيز على خدمة الشعب الليبى حتى يمشى معكم بما هو أبعد من عواطفه القومية.

- لا تقلقوا من تأجيل إسهامكم العملى فى الجهد العسكرى، وتذكروا أن مجرد قيام الثورة فى ليبيا فى هذا الوقت بالذات إضافة إستراتيجية كبرى إلى القوة العربية».

□ □ □

بعد شهرين من اجتماعهما فى القاهرة أتيحت لـ «جمال عبد الناصر» و«معمر القذافى» فرصة التعرف الحقيقى كلاهما على الآخر بالصحبة المباشرة. ففى ديسمبر ١٩٦٩ كان هناك موعد لمؤتمر قمة عربى ينعقد فى الرباط يتدارس فيه الملوك والرؤساء العرب أحوال أزمتهم ومستجداتها، ودرجة استعدادهم للعمل المشترك من أجل هدفهم المعلن وهو إزالة آثار العدوان (سنة ١٩٦٧).

وكانت تلك أول مرة يشارك فيها «معمر القذافى» فى مؤتمر على مستوى القمة عربيا أو غير عربى، ومن سوء الحظ أن تدشين دخوله إلى محيط القمة جرى فى ذلك المؤتمر لأنه كان من أسوأ مؤتمرات القمة على الإطلاق!

كان آخر اجتماع قبله على مستوى القمة هو اجتماع الخرطوم الشهير (أغسطس ١٩٦٧) وفيه ـ وكرد فعل لما جرى قبله (فى يونيو) ـ كان العالم العربى كتلة نار مشتعلة بالحماسة والإصرار على الصمود. وتحت الضغط الشعبى الجارف ـ وباقتراح مصرى ـ توزعت المهام بين الدول العربية المؤثرة فى النظام العربى على ثلاث فرق: دول المواجهة (مصر وسوريا والأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية) ـ ثم دول المساندة

(العراق والجزائر والمغرب) ـ وأخيرا دول الدعم (السعودية والكويت وليبيا). وكانت الفكرة أن تقوم كل دولة بما تهيأت له دون أن يعهد إلى طرف بمهام تتخطى قدرته عليها.

وكان على دول الدعم (وهى فى الواقع دول البترول وفوائضه) أن تقدم لدول المواجهة سنويا حوالى ١٨٠ مليون جنيه استرلينى (وكان نصيب مصر منها مائة مليون).

وكان أهم قرارات القمة من الناحية السياسية «لاءات الخرطوم الثلاثة» الشهيرة بأنه لا تفاوض ولا صلح ولا سلام مع إسرائيل.

....

....

وعلى مدى عامين ونصف العام كانت مصر على وجه التحديد تقود عملية مواجهة على الأرض وفى البحر والجو، وقد عُرِفَت هذه المواجهة بوصف حرب الاستنزاف. وفى نفس الوقت فإن التخطيط كان يمشى حثيثاً للانتقال إلى مرحلة الحركة والتقدم والإعداد لعبور قناة السويس بالقوة والعودة إلى سيناء، وكانت معارك حرب الاستنزاف مشهدا بطوليا جليلا وكريما. وكانت الخطوة التى يمكن أن تلى هذه الحرب شاغل السياسة الدولية ودافعها إلى البحث عن طريق لتسوية أزمة الشرق الأوسط قبل أن يقع الانفجار الكبير المنتظر.

وفى تلك اللحظة تقررت الدعوة إلى مؤتمر على مستوى القمة فى الرباط، لكن الأجواء لم تكن صافية سواء لأن قوى كبرى (الولايات المتحدة أولها) كانت لها تصورات ومخططات ـ أو لأن بعض القوى الإقليمية (الدول العربية المحافظة بالذات) كانت لديها مخاوف وتحفظات خصوصا بعد ثورة ليبيا التى أسقطت واحدا من الأنظمة الملكية.

....

....

وسارعت الولايات المتحدة الأمريكية قبل موعد انعقاد المؤتمر بأيام إلى التقدم بمشروع للحل يحمل اسم وزير الخارجية الأمريكى وقتها (وليام روجرز) وكان ذلك يوم ٩ ديسمبر ١٩٦٩ (وقد رفضته مصر ولم تعلن رفضها له قبل مؤتمر القمة

العربى حتى لا تحرج بذلك الرفض وقبل مؤتمر القمة دولا عربية صديقة للولايات المتحدة خصوصا من دول الدعم) [1].

وفى طريقه إلى مؤتمر الرباط مَرَّ الملك «فيصل» ملك السعودية بالقاهرة يتباحث فى شأن جدول الأعمال مسبقا مع «جمال عبد الناصر»، وتصادف أن هيئة التسليح فى الجيش المصرى كانت فى حاجة ماسة إلى مبلغ عشرين مليون جنيه استرلينى إضافية مطلوبة لشراء نوع خاص من قوارب العبور. وتصور «جمال عبد الناصر» أنه يستطيع طلبها من الملك «فيصل»، ولكن الملك «فيصل» اعتذر مبررا اعتذاره بسببين أولهما أن المملكة تواجه أزمة سيولة مالية، والثانى أن الشعب السعودى ليس راضيا عن قبول مصر بقرار مجلس الأمن ٢٤٢، وهو يعتبر ذلك القرار ـ ٢٤٢ ـ حلا يتضمن قبولا بوجود إسرائيل، وذلك ضد مبادئ وعقائد الشعب السعودى الذى لا يقبل أساسا «بالوجود الصهيونى المحتل».

وأظن أن «جمال عبد الناصر» لم يتضايق من الاعتذار فى حد ذاته لكنه استغرب مبرراته (وتلك قصة أخرى).

□ □ □

هكذا وصل الملوك والرؤساء العرب إلى العاصمة المغربية، والأفق غائم، وأروقة المؤتمر يشيع فيها نوع من التحسب للمفاجآت، ولم يكن أقلها أن هناك وافدا جديدا على القمة اسمه : «معمر القذافى» !

وقبل أن يدخل الملوك والرؤساء إلى قاعة المؤتمر كان «معمر» قد «فرقع» أول أزمة فيه.

جاء مولاى «عبد الحفيظ» رئيس الديوان الملكى المغربى يبلغ الملك «الحسن» أن القاعة جاهزة وكل شىء فيها معد لدخوله ودخول ضيوفه كى يبدأوا أعمالهم ـ وطبقا للتقاليد فى «البلاط الشريفى» فإن مولاى «عبد الحفيظ» أخذ يد الملك الممدودة إليه فقبلها. وفوجئ «معمر» بما رأى وإذا هو يصيح بأعلى صوته : «ما هذا؟ تقبيل أيادى؟ عدنا إلى عصر العبودية... لا.. لا.. هذا شىء مرفوض.. مرفوض تماما».

وتوقف كل الملوك والرؤساء عن السير نحو باب القاعة. وكانت الأزمة الأولى.

---

(١) يختلف مشروع روجرز المقدم فى ديسمبر ١٩٦٩ والذى رفضته مصر وكان مشروعا للحل ـ عن مبادرة روجرز فى يوليو سنة ١٩٧٠ والتى قبلتها مصر ـ وكانت مجرد طلب بوقف إطلاق النار لمدة تسعين يوما.

....

....

وعقب انتهاء الملك «الحسن» من كلمته الافتتاحية ثم انتقال الحديث إلى إقرار جدول الأعمال ساد الجلسة شعور بالقلق لأن «معمر القذافى» تدخل لإبداء ملاحظات، لكنه أثناء إبداء ملاحظاته راح يخاطب الملك «الحسن» بعبارة : «يا حسن»، كما راح يخاطب الملك «فيصل» بقوله : «يا فيصل» !

وكتب الملك «الحسن» بخط يده رسالة من سطر واحد أرسلها مع أحد مرافقيه إلى حيث يجلس «جمال عبد الناصر»، وجاء فيها : «فخامة الرئيس.. ألا تساعدنا بالتدخل لوضع ضوابط على تصرفات أخينا الليبى».

وتصور «جمال عبد الناصر» أنه يستطيع الحديث مع «معمر القذافى» بعد انتهاء الجلسة، لكنها بضع دقائق وعَنَّ لـ «القذافى» أن يبدى تعليقا على مداخلة قام بها الملك «فيصل»، فإذا هو يقول موجها الكلام له : «يافيصل اتق الله... اتق الله يا شيخ».

وبعد دقائق قليلة لَمَّ الملك «فيصل» أطراف عباءته ونهض بهدوء خارجا من القاعة.

ثم رأى الملك «الحسن» أن يرفع الجلسة لاستراحة قصيرة.

....

....

أثناء الاستراحة بدا أن هناك تقدما أمكن إحرازه فى ضبط «قواعد السلوك فى حضرة الملوك» !ـ ولم يكن «القذافى» مقتنعا، لكنه فى نهاية مناقشته مع «جمال عبد الناصر» قال على مضض «إنه سوف يقفل فمه ولا يتكلم، وهو يريد أن يسجل أن ما رآه حتى الآن من المؤتمر أقنعه أن كل هذا الذى يجرى على مستوى القمة العربية عبث لا فائدة منه إلا الضحك على عقول الناس».

ولم تمض غير دقائق حتى كان «معمر» قد نسى تعهده.

جاء يجلس إلى جوارى على مقعد فى أحد الممرات المؤدية إلى قاعة الاجتماعات، ومَرَّ ضابط عسكرى مغربى رفيع الرتبة تغطى صدره نياشين التكريم، وسألنى «القذافى» : «من هو ؟» ـ وقلت له أنه الجنرال «محمد أوفقير» وزير الداخلية المغربى. وفتح

«معمر القذافى» فمه وعينيه من الدهشة وسألنى : «أليس هذا هو الرجل الذى خطف «بن بركة»[٢] وقتله ؟» ـ وقلت هامسًا : «نعم هو متهم بذلك». ورد «معمر القذافى» : «ليس متهما، إنه فعلها ولذلك فهو مجرم»، ونهض واقفاً يصيح : «اقبضوا على هذا الرجل.. ما الذى جاء به معنا ؟ هذا قاتل... مكانه السجن وليس هنا».

وحاولت تهدئة انفعاله والإمساك بحركته لكن المشهد أصبح حديث المؤتمر، وذهب الملك «الحسن» إلى لقاء مغلق مع «جمال عبد الناصر». وعلى أى حال فإن ما أنقذ الموقف كان امتناع «القذافى» عن حضور الجلسات لأنه لم يعد مقتنعا بشىء مما يسمع أو يرى!

....

....

باختصار غادر «معمر القذافى» عاصمة المغرب وقد فقد ثقته فى إمكانية «فعل عربى» عن طريق مؤتمرات القمة.

وكان «جمال عبد الناصر» الذى توجه معه إلى زيارة ليبيا لأول مرة يشاركه بعض شعوره ولكن بطريقة مختلفة، بمعنى أنه بأثر التجربة الطويلة كان «جمال عبد الناصر» يرى الفائدة السياسية العامة لاجتماعات القمة العربية، لكنه فيما يتعلق بالفعل المباشر خصوصا إذا اتصل باستعمال القوة المسلحة فإن مستوى القمة العربى ليس قاعدة الانطلاق الأمثل نحو ميادين القتال، وتحميل القمة العربية بهذا النوع من المسئوليات «امتحان خارج المقرر» (حسب تعبيره فى تلك الأيام).

وفى ليبيا كان «معمر القذافى» يريد أداء دور.

عرض وحدة بين مصر وليبيا (كان رأى «جمال عبد الناصر» أن المبدأ مقبول ـ لكن التنفيذ مؤجل، والأفضل أن يؤجل إلى ما بعد المعركة).

وعرض المساهمة فى المعركة (ورحب «جمال عبد الناصر» على أن تُترَك له فرصة التفكير فى طريقة مساهمة ليبيا).

وكان «جمال عبد الناصر» على وشك أن يقوم بزيارته السرية الشهيرة إلى موسكو

(٢) الزعيم المغربى الشهير الذى أنشأ تحالف القوى الشعبية فى المغرب، والذى فكر وسعى لعقد مؤتمر كفاح القارات الثلاث فى «كوبا»، وقد جرى خطفه وقتله فى باريس فى السنة الأخيرة من حكم «شارل ديجول» الذى وَجَّه الاتهام علنا إلى المخابرات المغربية.

(يناير ١٩٧٠) يطلب مددا من السلاح والذخيرة لتوفير مطالب خطة العبور، وكانت الصواريخ أهم طلباته !

وحصل «جمال عبد الناصر» على معظم ما أراد بما مكنه من بناء حائط الصواريخ العتيد.

ولكنه خرج من موسكو وليس ضمن ما حصل عليه قاذفة مقاتلة يريدها قواده، والاتحاد السوفيتى يعتذر بأنها ليست عنده لأنه ببساطة لم يصنعها، والسبب أنهم (السوفييت) ركزوا على الصواريخ بعيدة المدى لحمل الشحنات المتفجرة (نووية بالدرجة الأولى). كان تركيزهم الأساسى على المقاتلات - وليس القاذفات - وبالنسبة للمقاتلات فقد قدموا أسرابا أو أساطيل منها إلى مصر.

....

....

وبعد العودة من الرحلة السرية إلى موسكو حَمَلْتُ رسالة مكتوبة من «جمال عبد الناصر» إلى «معمر القذافى» (وكانت المهمة رسمية كعضو وقتها فى مجلس الوزراء).

وكان ملخص الرسالة المكتوبة ومؤدى العرض الشفوى الذى مهدت به لها:

- «إننا الآن فى حاجة إلى قاذفة مقاتلة، والسوفييت ليس عندهم ما نطلبه، وإذا كان عندهم فلا يبدو أنهم على استعداد لتقديمه لنا.

والمهمة التى تستطيع ليبيا أداءها للمعركة هى توفير قاذفة مقاتلة، وذلك ممكن لأن ليبيا قادرة على الدفع بسخاء فى الشروط، ونقدا، وربما مقدما.

وهناك نوعان من القاذفات المقاتلة صالحان لأداء الغرض : «الفانتوم» الأمريكية، أو «الميراج» الفرنسية.

والحصول على «الفانتوم» من أمريكا صعب لأن الموضوع سياسى أكثر منه ماليا، وأما الحصول على «الميراج» من فرنسا فممكن سياسيا وماليا، بمعنى أن فرنسا تريد أن تعود إلى منطقة الشرق الأوسط - سياسيا، ثم إنها تريد أن تدخل سوق السلاح فيها - ماليا».

وبدا «معمر القذافى» حائرا أمام ما يُطلَب منه، لكنه فى ظرف ثلاثة شهور كانت هناك بعثة تتفاوض (ضباط من الطيران المصرى يحملون جوازات سفر ليبية) - وكانت

المفاوضات تتقدم. وذهبت إلى باريس أقابل الرئيس الفرنسى «جيسكار ديستان»[٣] - ومكتبه ذلك الوقت فى قصر «اللوفر»، ولم يكن معنا فى مكتبه غير كلبته السوداء وقد بقيت ساكنة طول الوقت تحت قدميه. ولم أفاجأ كثيرا حين قال لى:

- «نحن نعرف أن المفاوضين لشراء طائرات «الميراج» مصريون، وأن جوازاتهم مستعارة، وأن الطائرات ليست مطلوبة لليبيا وإنما لكم، وفرنسا تتفهم الظروف لكننا نطلب الحذر، وقد وافقنا على الصفقة بكاملها (مائة وواحد طائرة - وأربع للتدريب - والمجموع ١٠٥)».

....

....

وفى تلك الظروف رحل «جمال عبد الناصر» - وأصبح «أنور السادات» رئيسا.

وبدأت مرحلة جديدة فى حياة «القذافى» - فى علاقاته بمصر وربما فى علاقاته بالعالم.

□ □ □

[٥]

ظنى من وقتها - وحتى الآن - أن رحيل «جمال عبد الناصر» المفاجئ، وبعد سنة واحدة من ظهور «معمر القذافى» كان هزة عنيفة للضابط الشاب الذى مشى من الخيمة إلى قمة السلطة فى بلاده بغير تمهيد.

وكانت الهزة إلى جانب العنف فى شدتها، عريضة كذلك فى مساحتها.

فى البداية ظهر واضحا أن «معمر القذافى» لم يكن مقتنعا بأن «أنور السادات» يستطيع ملء مكان ومكانة «جمال عبد الناصر»، وعلى نحو ما فإن الكيمياء بين الرجلين (القذافى والسادات) تعطل تفاعلها، وتنافرت عناصرها بدل أن تمتزج.

(٣) كان «جيسكار ديستان» وقتها وزيرًا للمالية تحت رئاسة «جورج بومبيدو»، ولكنه كان المرشح المقبل على دخول قصر «الإليزيه».

وبعد أسابيع من رئاسة «أنور السادات» كان رأيه أن «معمر القذافى» شاب بلا تجربة، وأن استعداده للمغامرة أكبر من قدرته على حساباتها. وفى نفس الوقت فإن «أنور السادات» فى رأى «معمر القذافى» كان ـ هو الآخر ـ بلا تجربة لأن عدد سنين التواجد فى دائرة السلطة دون مسئولية لا يؤهل لشىء ـ ثم إن «أنور السادات» ليس صاحب فكر ثورى يناضل لتحقيقه، وإنما هو رجل أذهلته السعادة حين وصل إلى السلطة فى لحظة فراغ أصاب الكل بالدوار!

وكان كلاهما ظالما للآخر لا يرى منه إلا سطح جلده الخارجى!

وبعد شهور كان «معمر القذافى» قد فقد ثقته أيضا فى عدد من الناس قدموا إليه أنفسهم على أنهم «رجال عبد الناصر»، وقد صَدَّق فى البداية لأنه رآهم فى الصور داخل الدائرة القريبة من الرجل الذى اعتبره بطله، وكان كثير من هؤلاء رجالا ذوى نوايا طيبة لكن مشكلتهم أن الأوهام كانت أكبر من الحقائق فى طموحاتهم، ثم لم يلبث «القذافى» أن اكتشف بنفسه مسافة البعد بين الطموحات وبين الهمم.

وبعد سنة كان «معمر القذافى» عاتبا على شعب مصر كله، كيف لم يقم بثورة يطيح فيها بكل هذه الأوضاع جميعا: «رئيس غير ثورى»، و«رجال لعبد الناصر» لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم قبل الدفاع عن تراث قائدهم.

وأزعم أننى كنت أتابع أزمته وأحاول.

فى البداية كان عتبه علىَّ شديدا لأننى وقفت مع «السادات» ضد «رجال عبد الناصر» فى أزمة مايو الشهيرة والتى عُرِفَت بـ «أزمة سقوط مراكز القوى».

وبعد البداية ـ كانت الساحة قد أصبحت أكثر وضوحا أمامه.

وكان «الأهرام» مقصده الأول حين يجىء إلى مصر وذلك بحكم الصلة بينى وبينه منذ يوم قيام الثورة، ثم بسبب ملاحظته بعد ذلك لما كان بين «جمال عبد الناصر» وبينى.

وفى تلك الأيام حاولت جاهدا بينه وبين «أنور السادات»، وكنت أتمنى عليهما أن يعطى كلاهما للآخر فرصة يتعرف فيها على ما لا يراه من مزاياه بدلا من التوقف عند ما يراه من عيوبه.

وكان اعتقادى ـ ولا يزال حتى هذه اللحظة ـ أنه لو تعاون الاثنان معا بقلب صاف

وعقل متفتح، لكانت تلك خدمة كبرى للمعركة القادمة ولمستقبل العمل العربى بعدها خصوصا إذا ساعدت الظروف على قيام نوع مؤسسى من صلة القرب بين البلدين فى هذا الموقع المتصل المتكامل من شمال شرق أفريقيا وجنوب شرق البحر الأبيض.

لكن المحاولات كلها نفد وقودها مبكرا، وربما نجحت محطات البنزين على الطريق أحيانا فى توفير ضخة أو ضختين، لكن علاقات السياسة تحتاج إلى مدد مستمر لحركاتها، وهكذا فإن العلاقات بين الرجلين كانت تمشى مسافة ثم تتوقف، وتعود للمشى ثم تتعطل !

وأستأذن فى عرض أمثلة علها تشرح أكثر من أى تحليل يتعمق فى دخائل النفوس، وتنافر المخفى فى أعماقها.

....

....

المثال الأول : فى أواخر سنة ١٩٧١ كان «معمر القذافى» فى القاهرة، ودُعِى ودُعيت معه إلى غداء فى بيت الرئيس «أنور السادات» فى الجيزة. وجلسنا ـ نحن الثلاثة ـ بعد الغداء فى شرفة تطل على النيل لحديث على فنجان قهوة رجوته حديثا رائقا ومتوازنا.

وفجأة قال «معمر القذافى» وهو ينظر إلى مجرى النهر : «لو أن لدينا فى ليبيا مثل هذا النيل لاختلفت أوضاعنا».

ورد «أنور السادات» ضاحكا : «أعطنى بترول ليبيا وأنا أحَوِّل إليك فرعا من نهر النيل».

ورد «معمر القذافى» : «هل هى عملية مقايضة ؟»

وبسرعة تسرى فيها حدة أجاب «السادات»: «أنت الذى كنت تحسدنا على مياه النهر».

وقال «القذافى» : «أنا أحسدكم ؟ أنا أتمنى لهذا البلد كل الخير !»

وأحسست أن الحوار قد يجمح، وتدخلت قائلا : «بالراحة من فضلكما.. أولا : النيل لا يجىء لمصر بفائض مياه تستطيع أن تعطى فرعا منه لليبيا، كل ما يجىء منه سنويا إلى هنا أكثر قليلا ـ فى العادة ـ من خمسين مليار متر مكعب من الماء، وهى بالكاد تكفى».

وكنت على وشك أن أكمل ـ لكن الرئيس «السادات» قاطعنى قبل مواصلة عبارتى

وسألنى وكأنه ضبطنى متلبسا : «كيف تعرف أن ما يجىء إلى مصر من مياه النيل خمسون مليار متر مكعب فى السنة؟ هل قستها ووزنتها ؟»

وقلت له : «الأرقام هناك عند وزير الزراعة أو الرى... ولك أن تتفضل بسؤال أيهما» !

[وقد أدهشنى نفاد صبره، وأدهشنى أيضا أنه لم يكن يعرف أهم الأرقام فى حقائق الحياة على «بر مصر» (ولم أعقب بشىء)].

وجاء فنجان القهوة، وشربناها، ولم تكن رائقة ولا موزونة !

....

....

المثال الثانى سنة ١٩٧٢، وكنت كتبت مقالا أبديت فيه ملاحظات عن مجرى العلاقات بين مصر وليبيا وانتقدت تعريضا مستمرا دأب «معمر القذافى» على توجيهه إلى الاتحاد السوفيتى وقيادته ووصل فيه إلى حد القول بأنه لا فارق بين «كيسنجر» و«كوسيجين» (رئيس وزراء الاتحاد السوفيتى وقتها) - ثم أشرت فيما كتبت إلى أن ليبيا اشترت حصة من أسهم شركة «فيات» الإيطالية لصنع السيارات فى «تورينو»، وتساءلت: لماذا لا تشترى ليبيا حصة من مصانع مصرية («المحلة» مثلا - هكذا كتبت) ويكون من ثمنها سيولة مالية تساعد مجمع الصناعات المصرية الضخم الذى كان يعانى فى ذلك الوقت من نقص فى النقد الأجنبى المتاح له ؟

ويومها تصادف وجود «القذافى» فى القاهرة، وبدون إنذار وجدته داخلا إلى مكتبى ومعه الرائد «عبد السلام جلود» وهو فى موضع رئيس وزرائه.

وبادرت «معمر القذافى» بمنطق أن «الهجوم خير وسيلة للدفاع»، قائلا « : «أعرف أنك غاضب مما كتبته اليوم عنك».

وقال (وبدا لى قوله من خارج السياق) : «أبدا وإنما لدىّ سؤال عندك».

وكان سؤاله :

«هل صحيح ما جاء فى كلامك اليوم من أن المجمع الصناعى الذى بناه الرئيس جمال عبد الناصر يعمل بأقل من طاقته بسبب مشاكل من نقص فى النقد الأجنبى؟»

وقلت : «إذا كان ذلك ما فهمه من كلامى فهو صحيح».

وقال : «ماذا نفعل ؟ ـ ماذا تستطيع ليبيا أن تفعل مع العلم بأننى غير موافق على اقتراحك بأن نشترى مصانع مصرية.. هذه المصانع لمصر ويجب أن تبقى لها، أما نحن فعلى استعداد لأى شىء.. هل تعرف ما هو المطلوب ؟»

وقلت : «ليست لدىّ فكرة دقيقة لكن ذلك أمر يمكن بحثه ـ وأول خطوة فى هذا البحث أن تعرف أنت مدى استعدادك على ضوء ظروف ليبيا».

وانتحى «معمر القذافى» بـ «عبد السلام جلود» إلى جانب فى ركن من مكتبى، ثم عاد إلىّ يقول : «هل إذا قدمت ليبيا ثلاثمائة مليون جنيه استرلينى تنحل المشكلة ؟»

وبدا لى المبلغ وقتها هدية نزلت من السماء تستحق أن تُعْرَض على الرئيس «السادات».

وتركت «القذافى» و«جلود» فى مكتبى وذهبت إلى مكتب مجاور أطلب الرئيس «السادات» فى بيته (وكان فى الجيزة) ـ ورويت له ما حدث، وأحسست به «طائرا من الفرح» (كذلك قال)، ثم كان اقتراحه :

ـ «إنه لا بد من تثبيت هذا العرض الآن».

وكان طلبه :

ـ «هات معمر وجلود فورا وتعالوا إلى عندى فى الجيزة، وسأطلب من حجازى (الدكتور عبد العزيز حجازى وكان وزيرا للمالية) أن ينضم إلينا لنضع الترتيبات اللازمة، تعالوا فورا.»

وكان تعليقه وقد كرره أكثر من مرة : «خير ما عملت.. خير ما عملت» !

وعدت إلى «القذافى» و«جلود» قائلا أن الرئيس «السادات» ينتظرنا لبحث الموضوع على مستواه الرسمى والطبيعى.

وعندما وصلنا إلى بيت الرئيس «السادات» فى الجيزة كان الدكتور «عبد العزيز حجازى» قد وصل قبلنا بدقائق.

ورأيت مناسبا أن أعرض ما حدث فى مكتبى وأكده «معمر القذافى»، وبدأ الحديث من هنا، وكان رأى الرئيس «السادات» بعد ذلك أن يجلس الدكتور «حجازى» مع «عبد السلام جلود» فى غرفة المائدة المواجهة لصالون بيته حيث كنا نجلس، وأن يتفقا على

الخطوات العملية لطريقة التنفيذ، وطلب إليهما الرئيس «السادات» أن يفرغا من المهمة فى أقل من ساعة واحدة.

وجلسنا ثلاثتنا ـ الرئيس «السادات» و«معمر القذافى» وأنا ـ ننتظر ونتحدث فى بعض ما يجرى من الشئون.

وفجأة قال «معمر القذافى» موجها حديثه للرئيس «السادات» :

ـ «يا ريس أنور أريد أن أشكو إليك «الأستاذ هيكل» !»

وأطلت علينا ابتسامة الرئيس «السادات» المشهورة وهو يقول برضى : «خير يا معمر.. ما هى شكواك منه؟».

وكنت أنظر مستغربا إلى «معمر القذافى» الذى إستطرد يقول :

ـ «هل رأيت جريدة الأهرام اليوم.. فيها أربع صفحات عن منجزات الشيخ زايد فى الإمارات».

وقاطعته شارحا :

«هذه الصفحات الأربع إعلان، وقد كُتِب أعلى كل منها ما يفيد ذلك احتراما لتقاليد نلتزم بها، ثم إن هناك إطارا بالخط يحيط بكل المنشور عن الإمارات بحيث يكون معزولا وبوضوح عن تحرير الأهرام العادى».

ورد «القذافى»:

ـ «هذا تمجيد فى الرجعية، ولا يكفى أن يقال أنه إعلان».

وتدخل الرئيس «السادات» يقول:

ـ «معمر.. هذا إعلان واضح.. وليس فيه تمجيد..».

ولم يقبل «معمر القذافى» وإنما واصل حديثه :

ـ «اليوم يُمَجِّدون فى الشيخ زايد، وغدا يكون التمجيد فى فيصل».

(وأضاف «معمر القذافى» وصفا للملك «فيصل»)

وبدا الضيق على وجه الرئيس «السادات» وقال :

ـ «معمر.. لا تغلط فى حق فيصل، هو صديقى ؟»

ورد «معمر القذافى» بحدة :

- «لا هو صديقك ولا شىء.. هو لا يحبك ولا يحب مصر».

وقاطعه «السادات» :

- «معمر.. إلزم حَدَّك... قلت لك هو صديقى».

ورد «القذافى» :

«ماذا جرى لك يا ريس أنور ؟- هل فقدت ثوريتك ؟».

وكانت تلك هى الطامة الكبرى، فقد رد «السادات» :

- «هل تعلمنى الثورية يا معمر.. اسمع، إذا كنت تتصور أنك تشترى سياساتى بأموالك فأنا فى غِنى عنها».

ثم راح الرئيس «السادات» ينادى على الدكتور «عبد العزيز حجازى» - حيث كان يجلس فى غرفة المائدة مع «عبد السلام جلود» - بأن يوقف المفاوضات، فهو «لا يريد شيئا ما دام معمر يتصور أنه بأمواله يستطيع «شراء مصر»».

وفى هذا التداعى السريع فى الموقف فقد رحت أحاول إيقاف التردى : مرة بأن ما أثاره «معمر القذافى» عن إعلان الشيخ «زايد» أمر أستطيع تسويته معه مباشرة فيما بعد، ومرة بأن نداء الظروف أقوى من المشادات خلافا فى تقدير الأشخاص، ومرة بأن الأوطان لا دخل لها فى مشادة توترت فيها أعصاب رجلين.

لكن الرئيس «السادات» وصل بالأمور إلى الحافة عندما نهض واقفا يخرج من حيث كنا غاضبا ومتجهما.

ولحقت به أقول له : «الرجل فى بيتك - ضيف عليك».

وكان قصارى ما فعله كحل وسط أن التفت قائلا للجميع : «البيت هنا ليس بيتى ولكنه بيتكم جميعا».

....

....

ومثال ثالث جرت وقائعه أواخر شهر أغسطس ١٩٧٣.

فقد اتصل بى الدكتور «أشرف مروان» - وهو وقتها مدير مكتب الرئيس «السادات» للمعلومات ومنسق خاص للعلاقات المصرية الليبية - يقول لى أن «العقيد معمر القذافى وصل فجأة إلى مطار القاهرة، وقد تَوَجَّهَت لملاقاته على عجل سيارات ضيافة من رئاسة الجمهورية تحمله إلى قصر «الطاهرة» ولكنه رفض ركوبها وقصد بسيارة تاكسى إلى فندق «النيل» على الكورنيش فى جاردن سيتى، ومن الواضح أنه متأثر لطريقة المعاملة التى يلقاها من مصر.

واتصلت على عجل بالرئيس «السادات» الذى كان عائدا لتوه من رحلة واسعة حملته إلى رومانيا وإيران وبعض دول الخليج - وتوجه مباشرة ليستريح فى بيته بقرية «ميت أبو الكوم». وبالطبع فقد كنت أعرف أن وقت المعركة يقترب وإن لم يكن اليوم والساعة قد تحددا بعد بالدقيقة والثانية.

وقال لى الرئيس «السادات» أنه «لم يعد يستطيع أن يعرف كيف يتصرف مع معمر»، وأضاف أنه قرأ لى مقالا منذ أيام قلت فيه أنه «إذا لم يستطع العمل الوحدوى بين مصر وليبيا أن يتقدم إلى الأمام فإنه لا يجب أن يعود إلى الوراء». وأضاف مبديا اندهاشه «فَسِّر لى هذا اللغز : لا نستطيع التقدم خطوة إلى الأمام ولا يصح أن نعود خطوة إلى الوراء، ما هو معنى ذلك ؟» - ثم أجاب بنفسه على سؤاله : «ننط فى الهواء يعنى ؟»

وكان رأيى والمعركة على الأبواب وليبيا تُمَوِّل أسلحة ومعدات تحتاجها القوات قاربت تكاليفها البليون دولار، إضافة إلى ثمن صفقة طائرات «الميراج» الفرنسية - أن هناك قضية تستحق الحرص حتى لو لم تكن هناك علاقات خاصة بين البلدين.

وسألنى، واقترحت عليه أن يدعو «معمر القذافى» إلى مقابلته غدا فى «ميت أبو الكوم» مع تسليمى بأنه عائد من رحلته متعبا ومرهقا.

وقال لى : «إن معمر اتصل بى هنا فى ميت أبو الكوم وقلت لهم أن يبلغوه أننى نائم».

وكان ظنى أن ذلك لا يصح، وأذكر - وبغير تجاوز - أننى قلت له : «إننا فى مصر أحيانا نُعْرِض عن الذين يُقْبِلون علينا، ونجرى وراء الذين يُعْرِضون عنا» ولست أعرف لذلك تفسيرا مريحا.

وأحسب أنه تنبه إلى أن علاقته بـ «القذافى» تستحق محاولة أخيرة، فقد فوضنى أن أتصرف، وكان اقتراحى أنه «من المهم أن يصدر إعلان على نحو ما يؤكد الأهداف المشتركة للبلدين مع إشارة لاتفاقيات سبقت فى محاولة تحقيق نوع من الوحدة بينهما».

وإنصافا للحق فإنه تفضل وقبل اقتراحى.

وعدت إلى المشروعات القديمة، وأضفت إليها إعلانا جديدا سميته «ميثاق ميت أبو الكوم»، وقرأته عليه فى التليفون وأقره. ثم اتصلت بـ «معمر القذافى» أعرض عليه أن نذهب جميعا إلى «ميت أبو الكوم»، وكان «القذافى» غاضبا يقول: «إن الرئيس أنور لا يريد أن يرد على تليفونى فكيف أذهب إليه؟».

وقضينا جميعا يوم ٢٩ أغسطس فى «ميت أبو الكوم» وجرى أمام الميكروفونات والعدسات إحتفال لتوقيع وثيقة «إعلان ميت أبو الكوم» (هكذا سَمّاها الرئيس «السادات» فى لحظة حماسة ونشوة!). وبدا «معمر القذافى» مرتاحا، وبدا «السادات» صبورا. وقرر «القذافى» أن يعود إلى ليبيا من أقرب مطار إلى «ميت أبو الكوم» وكان مطار «قويسنا» العسكرى. وعدت مع الرئيس «السادات» من «قويسنا» إلى «ميت أبو الكوم»، وكنا وحدنا بعد انفضاض مهرجان توقيع ميثاق «ميت أبو الكوم».

وجلسنا فى سيارة الرئيس (وكانت «رولز رويس» فخمة أهداها إليه أحد مشايخ الخليج)... ومضت دقائق ونحن سكوت، وأحسب أن كلينا كان يستعيد فى ذاكرته ساعات ومشاهد يوم حافل.

وقطع الرئيس «السادات» صمته وقال لى (مناديا باسمى الأول كما كان يفعل عادة):

- «محمد - هل تريد أن أدخل فى وحدة مع «ولد» مجنون؟».

وأعترف الآن أننى تضايقت ولعلى تجاوزت حدى، فقد قلت للرئيس «السادات»:

- «هل تريد رأيى بصراحة.. إذا كان مجنونا فهو مجنون لأنه يريد الوحدة معنا. وبصراحة فأنا لا أعرف ما الذى يغريه بها؟ نحن بلد فى حالة حرب، وجزء من أرضنا محتل، وأمامنا معركة معلقة بمقادير لا نعرفها، وليبيا عمق إستراتيجى نستعمله بغير عوائق، وهذا الرجل مسكون بفكرة يحلم بها وهو يحاول، وأنا أول من يسلم أن أسلوبه فى المحاولة مثير للأعصاب ومرهق أحيانا لكنى تصورت....»

وقاطعنى الرئيس «السادات»:

- «لقد وقعنا اتفاقا وانتهى الأمر، ولعل أعصابه تهدأ حتى تجىء المعركة ويذهب كل منا إلى طريقه»!

وبدا لى ذلك نذير قلق ينبئ بشكل ما هو قادم.. مكتومٌ اليوم ومتفجرٌ غدا.

وصباح اليوم التالى ٣٠ أغسطس خرجت الجرائد المصرية كلها وعناوينها الرئيسية سوداء وحمراء بعرض الصفحات تعلن للناس أن ميثاقا للوحدة بين مصر وليبيا تم توقيعه فى «ميت أبو الكوم».

لكنى (ومع الأسف) كنت أعرف أكثر من غيرى أنه حبر على ورق !

....

....

وأخيرا...

أخيرا ومهما كانت الأسباب فإنه حين توقف القتال وجد «معمر القذافى» نفسه ممنوعا من دخول غرفة العمليات، وإلى حد ما فإن الرئيس «السادات» كان على حق أن يتضايق من كلمات قالها «معمر القذافى» فى عز المعركة متسائلا: «هل هى حرب تحرير أم هى حرب تحريك ؟»

فقد بدا أن ذلك لعب بالألفاظ لا يتحمله قرار الحرب ولا تضحيات الرجال.

وكانت «شعرة معاوية» الباقية بين الرجلين على وشك أن تنقطع !

وفى كل الأحوال وفيما يتعلق بى (شخصيا) فإن وقف القتال والطريقة التى جرت بها المفاوضات مع «كيسنجر» أتى معه بتعقيدات كثيرة فى علاقتى بالرئيس «السادات»، وكان أن تركت موقعى صحافة (وسياسة) وابتعدت.

□ □ □

[٦]

ابتعدت، ولكننى لم أنفصل، بمعنى أننى نزلت من فوق خشبة المسرح - أيا كان موقعى عليها وحركتى حول هذا الموقع - وانتقلت إلى مقاعد المتفرجين أشاهد وأتابع معنيا بكل ما يجرى أمامى ومهتما. وأما عملى وشاغلى الحقيقى وقد تفرغت له بالكامل فقد كان القلم وليس الخشبة، والورقة البيضاء وليس الستار المخملى للمسرح.. قرمزى فى العادة !

والغريب أن الرئيس «السادات» حاول أن يستدرجني لأداء دور على الخشبة عدة مرات كانت إحداها قريبة من «معمر القذافي» أو متصلة بأمره.

قرأت - يوما - على غير انتظار وعلى لسان الرئيس «السادات» أنه مطلوب مني أن أشهد ما إذا كان «جمال عبد الناصر» قد أوصى من بعده لـ «معمر القذافي». وبدا لي الموضوع بالغ الغرابة.

كان السبب أن بعض المحيطين بـ «معمر القذافي» بدأوا يصفونه بأنه «الأمين على القومية العربية» بعد رحيل «عبد الناصر»، وكان الاعتماد على عبارة نشرتها في مقال قديم لي وجهها «عبد الناصر» إلى «القذافي» قال له فيها: «معمر أنت تذكرني بشبابي».

واعتبرها البعض استخلافا من «عبد الناصر» لـ «القذافي». وكانت تلك في ذلك الوقت قضية كبيرة لدى قطاعات واسعة من المشتغلين بالسياسة في العالم العربي، وعلى هذا الأساس طلب الرئيس «السادات» شهادتي، وكذلك فعل بعض أنصار «معمر القذافي».

وألح بعض المحيطين بالرئيس «السادات» في الأمر إلى درجة بدا لي طلب شهادتي جزءا من الحملة ضد «معمر القذافي»، وقد اشتدت أيامها إلى درجة اتهامه بالجنون علنا - وليس داخل سيارة الـ «رولز رويس» فقط!.

ثم وصل الأمر بالرئيس «السادات» إلى درجة اتهمني معها بالتواطؤ مع «القذافي» إذا لم أتكلم، وفي نفس الوقت كان رأى آخرين أنه يجب أن يصدر وعلى لساني ما يفيد أن «السادات» وإن خلف «جمال عبد الناصر» على رئاسة الدولة المصرية لا يصلح لخلافته على المستوى القومي الأبعد.

ورأيت أن ألزم الصمت برغم ضغط الجانبين.

كان تقديري أن الموضوع كله «خفيف» وإلى درجة السخافة. فالعبارة التي رويتها منسوبة إلى «عبد الناصر» وهي صحيحة - ليست وصية وإنما ملاحظة قصد بها «جمال عبد الناصر» وصف وتخفيف حدة اندفاعات «معمر القذافي» وقتها، وهي اندفاعات لم يشفع له فيها غير شبابه - لكنها لم تكن وصية.

وفي مطلق الأحوال فإن «جمال عبد الناصر» - أو غيره - لم يكن في مقدوره أن يوصي بمكانه في الدولة أو بمكانته في الأمة لأحد بعده، لأن مكانه في الدولة مسألة دستور وقانون، كما أن مكانته في الأمة مسألة زعامة يراها الناس بمدى تقديرهم لأدائه تعبيرا وحركة عن أهداف مكنونة في ضمائرهم.

(إلى جانب ذلك فقد نسى كل الأطراف أهم حقائق الموضوع وهى أنه لو ظهر «جمال عبد الناصر» فى غير مصر لما استطاع).

وهنا فإن الكلام عن وصية رجل خارج الموضوع.

ثم إن طلب شهادة رجل فى الموضوع خارج المنطق.

وسكت عارفا أننى لم أرض الطرفين رغم اختلاف الطرق بينهما.

وكان «معمر القذافى» فى طريق آخر غير طريق «أنور السادات».

لكنى أعترف أنه فى حين أن طريق «السادات» بدا لى خطرا، فإن طريق «القذافى» لم يبد لى أكثر أمانا رغم مسافة الاختلاف بين الطريقين !

وفى بعض المرات كنت أجد أعذارا لـ «القذافى»، وفى بعض المرات لم أجد !

[وبين ثلاثين سنة قضاها «معمر القذافى» فى الحكم فإن عشرا منها انقضت فى علاقات حب وهجر بينه وبين مصر، وعشرا ثانية منها جرت طوافا بمواقع القلق على اتساع المعمورة من حركة «أبو نضال» إلى حركة الجيش السرى الأيرلندى، ثم ضاعت عشر سنوات ثالثة فى هموم «لوكربى» (للإنصاف كان هناك مشروع النهر العظيم أيضا)].

□ □ □

كانت أكبر أعذارى لـ «القذافى» طبيعة ظروفه متفاعلة مع ظروف عصره:

١ـ لقد مشى من «الخيمة» إلى «القمة» مباشرة دون مرور بمحطات يتوقف عندها ويجرب ويدرس ويتعلم. خرج من «الخيمة» إلى المدرسة، ومن المدرسة المدنية إلى مدرسة عسكرية، وأرسلوه إلى إنجلترا لدورة تدريبية، وكان معسكر التدريب الذى التحق به على بعد خمسين كيلومترا من العاصمة «لندن»، ومع ذلك لم يذهب إليها مرة واحدة لأنه كان يرتب مع مجموعة من زملائه الشبان ليوم قريب يستطيعون فيه «إطلاق الثورة فى ليبيا».

٢ـ ولقد نجح فى «إطلاق الثورة» فى موقع خطر (٣ ملايين برميل بترول يوميا، و٣ آلاف ميل على الشاطئ الجنوبى للبحر الأبيض) ـ وبسهولة لا تكاد تصدق (٤ ساعات، ومائة ضابط وخمسة آلاف جندى). وربما كانت من هنا أسباب النجاح، فلم يكن هناك من ينتظر، ولا كان هناك من يتصور، وبالتالى فلم يكن هناك من استعد أو قدَّر.

وحين تنجح أكثر المحاولات خطورة بأقل التضحيات تكلفة - فإن محصلة التجربة تعطى الأحلام مساحة تتجاوز قدرة الحقائق على بلوغها لأن ثقافة المصادفة تختلف تماما عن ثقافة القانون - خصوصا إذا كان قانون القوة !

٣- ومن سوء الحظ أن «معمر القذافى» لم يلبث - بعد أن نجح فى محاولته - أن فَقَد مَثَلَه الأعلى الذى قال له يوما «إنك تذكرنى بشبابى»، وكانت تجربة «جمال عبد الناصر» - ربما - تقدر على تركيز أحلام «القذافى» - لكن المقادير سبقت ووجد «معمر القذافى» نفسه أمام رجال جدد لا تدعوه هاماتهم إلى رفع رأسه ليراهم !

ولعل تلك هى الأحوال التى أغرت «معمر القذافى» بأن يعتبر نفسه الأقدر والأجدر.

٤- ولقد ساعد على الإغراء أن موارد ليبيا النفطية وضعت تحت تصرف «القذافى» ثروة سال لها لعاب كثيرين لم يكن معظمهم فى حاجة إليها، لكن رياح زمان محدث كانت تهب حاملة معها الكثير من عوامل التآكل والتعرية.

وهكذا أصبح «القذافى» مقصدا تتزاحم على الدروب إليه قوافل الطالبين - واستقبلهم بحفاوة !

وقد قصدت إليه بعض النخب فى العالم العربى تتحدث بالشعر وبالنثر، وبلغة التنظير والعقائد، والتعقيد أحيانا - واستمع إلى الكل ولكن دون فرز.

وتقدَّمَت إليه الكتب أشكالا وألوانا - وقرأها جميعا دون نقد.

وفى زحام يشابه زحام «سوق عكاظ» خطر له أنه يستطيع أن يقول أفضل مما سمع، وأن يكتب أحسن مما قرأ (وفى ذلك لم يكن متجاوزا !)

٥- وعندما وقع «القذافى» فى أزمة «لوكربى» - بصرف النظر عمن أوقعه.. حمق أصدقائه أم تربص أعدائه ؟- فإن وسطاء كثيرين حوَّلوا الأزمة إلى فرصة، فقد كان بينهم من عرض أنه يستطيع مساعدة «العقيد» بوساطة مع «بوش» أو «كلينتون»، ومن ينقل رسالة عنه إلى «ميتران» أو «شيراك»، ومن يسعى له عند «جون ماجور» أو «كوفى عنان». وقد جرَّب «العقيد» وجَرَّب ثم اكتشف أن بعضهم أخذوا ليبيا وأخذوه إلى نزهة فى ضوء القمر، وهذا هو كل شىء !

□ □ □

وربما يكون من ذلك كله عذر لـ «القذافى» وربما لا يكون، لكن تلك ظروفه، ولم تكن له فيها حيلة، ولعل عذره المقبول يجىء بالنظر أكثر إلى ظروفه وظروف العصر الذى ظهر فيه.

والحقيقة أن أقدار الرجل جاءت به إلى الساحة العربية فى آخر نهار عالمى وعند لحظة مغيب أزمنة - يطلع بعدها صباح اليوم التالى زمن جديد.

وفى الزمن الجديد اكتشف «معمر القذافى» غربته ووحدته سواء على المستوى القريب أو على مدد النظر :

● على المستوى القريب مثلا فإنه عندما وصل إلى ملتقى الطرق قام بنصب خيامه على موقع فكرى معين وبجوار قبائل ظن أن قرابته بها شجرة نَسَب واحدة - لكنه فى مطلع الزمن الجديد صحا ليكتشف أن القبائل الأخرى خلعت أوتارها وطوت خيامها ورحلت بجمالها وراء الأفق !

● وعلى المستوى الأبعد قليلا فقد اكتشف أن «الكنز» (البترول) الذى يستطيع خدمة هدفه تغيرت قيمته. بمعنى أنه فى أزمنة ماضية كان الراغبون فى «الكنز» يأتون إليه، وصاحب «الكنز» يتحكم فى الراغبين كما يشاء - لكنه فى الزمن الجديد أدرك المحتاج للنفط أنه ليس مطالبا بالذهاب للمنابع فهى كثيرة، وإنما المنابع هى التى أصبح عليها الآن أن تحمل بضائعها إلى الأسواق تعرضها عليه متنافسة فى ذلك مع كثيرين يعرضون.

● وعلى المستوى البعيد - حتى وراء الأفق - فقد اكتشف أن القوى المسيطرة غيرت أساليبها، فلم تعد تحتاج إلى قواعد تحتلها حتى تسعى للسيطرة، وإنما هى فى الأزمنة الجديدة تمارس إرهابها من الجو والفضاء العالى حيث لا يطولها دفاع، فإذا عادتها سياسة أو أغضبها تصرف ففى يدها أن تعاقب وأن تظل تواصل العقاب بلا تضحيات عليها تقريبا حتى يتأتى لها الإخضاع.

● وفى المحصلة النهائية - اكتشف «القذافى»، ودون أن يفصح صراحة عما اكتشف خلال حديثنا فى قصر القبة - أن القوى الغالبة تستطيع الآن أن تشن الحرب على الدول الصغيرة - وحتى الدول المتوسطة - دون حاجة إلى ميادين قتال.

سلاح الإعلام من ناحية يقوم بتلوين الصورة أو تغطيتها بالتمويه إلى درجة التغييب.

وفى نفس الوقت فإن سلاح المخابرات يستطيع أن يهز الحكومات إلى درجة الخلخلة أو التقويض.

وهكذا فإن وكالة (.C.N.N الإخبارية) من ناحية، ووكالة (.C.I.A الاستخباراتية) من ناحية أخرى، وحتى بدون ترتيب وتنسيق بين الاثنتين، تستطيعان معا دفع حركة كماشة تطبق وتزنق.

وإذا حدث غير المتوقع واستطاعت حكومة من الحكومات أن تهرب من مطاردة الوكالتين - فإن أساطيل الطائرات، وحاملات الصواريخ، على استعداد للعقاب دون حاجة إلى ميادين قتال تتجلى فيها «شجاعة الفرسان وقوة الإيمان والشهادة من أجل الأوطان» !!

....

....

وقد كان «معمر القذافى» أول من جرَّب ضربات الجو عقابا - وآخر من استطاع الإفلات من الحصار بمعجزة بعد سبع سنوات من القحط !

□ □ □

بقيت ملاحظة أخيرة وهى أنه مهما كانت ظروف «القذافى» أو ظروف العصر فإن الرجل بصرف النظر عن كل شىء وأى شىء - استطاع أن يظل على قيادة ليبيا منذ سبتمبر سنة ١٩٦٩ وحتى الآن - قرابة ثلاثين سنة.

وعندما رأيته أول مرة فقد كانت خشيتى خصوصا بعد رحيل «عبد الناصر» أنها سنوات قليلة - اثنتان أو ثلاث على الأكثر - ثم تجرف العواصف الهوج خيامه من حيث نصبها وحده فى وحشة الصحراء.

لكنها الآن ثلاثون سنة والرجل فى موقعه - هزته العواصف صحيح - ولكنها لم تقتلع مضاربه.

....

....

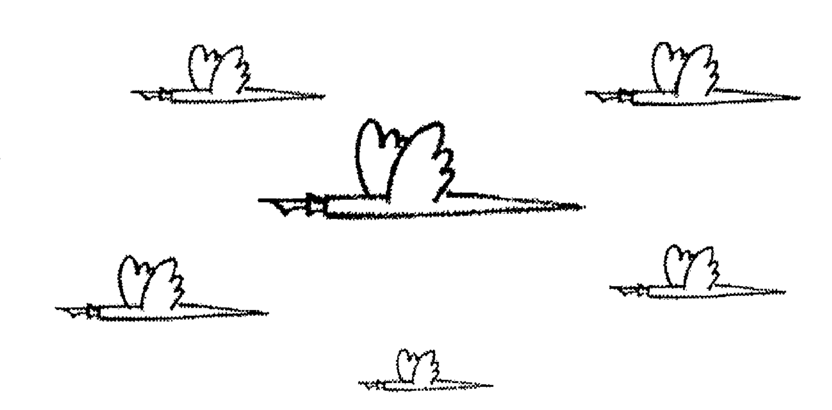
وعندما كنت عائدا من قصر القبة بعد ساعات طويلة معه، وحديث مستأنف بعد أكثر من ربع قرن ـ كان السؤال الذى ما زال يلح علىّ هو :

ـ «كيف استطاع أن يبقى حتى الآن، وظروفه ما أعرف، وظروف العصر ما عرف ؟»

ولم أجد غير جواب واحد :

ـ «لا بد أنه سمع أو قرأ أو تعلم أشياء كثيرة لا أعرف كيف ولا متى ولا أين وصلت إليه أو وصل إليها».

وفى كل الأحوال، فإن «معمر القذافى» ـ بدايته واستمراره وتعامله مع التاريخ ـ يظل ظاهرة تستدعى الدرس، وأظنها سوف توضع يوما فى دليل «الخوارق» من ظواهر النصف الثانى من القرن العشرين!



خواطر مسافر

خواطر مسافر (*)

أسجل دائما على ورق وبانتظام - يكاد أن يكون يوميا - نوعين من المذكرات.

نوع أصنفه تحت بند «ملاحظات»، وفيه أصب كل ما أرى وأسمع وأقرأ ويكون متصلا بموضوع أعمل فيه أو أرتب للكتابة عنه فى يوم قريب أو بعيد معتقدا بأهميته أو بضرورته.

ونوع آخر أصنفه تحت بند «خواطر»، وفيه أخط ما يعن لى من تأملات حول حياة كل يوم، وبحسب ما تجرى به الظروف، وهو فى الغالب مادة خام، فيها ما قد يصلح للالتحاق بموضوعات يُحتَمَل أن أقترب منها غدا، وفيها ما يظل مؤجلا لزمانه.

وأعتبر أن هذا التسجيل للملاحظات وللخواطر على الورق ضرورى لأن الاعتماد على الذاكرة ثقة زائدة لا يحتاج إليها صحفى ينتظر منه الناس أن يكون فى بعض الأحيان شاهدا!

....

....

وعندما أقوم بأى رحلة خارج الوطن فإن ما أسجله تحت بند «خواطر»، تزيد على عنوانه كلمة واحدة لكى يصبح «خواطر مسافر».

□ □ □

ومنذ منتصف شهر أبريل الماضى وحتى أيام قليلة ماضية كنت فى أوروبا أحاول

(*) يونية ١٩٩٩.

The Death of Outrage

(موت الحياء)

William J. Bennett

New York:Simon & Schuster, 154pp.

متابعة ما يجرى فى يوجوسلافيا: أول أمس فى «سلوفينيا» و«كرواتيا»، وأمس فى «البوسنة والهرسك»، والآن فى «كوسوفو» و«مقدونيا»، وغدا فى «صربيا» و«الجبل الأسود» (مونت نجرو).

وبالطبع فإننى خلال حركة بين عدد من العواصم الأوروبية، سجلت «ملاحظات» حول الموضوع حتى أستطيع الكتابة فيه، خصوصا لمجموعة النشر الدولية التى توزع ما أكتب على المهتمين به.

وبالطبع - أيضا - فإننى، فى لندن وباريس، سجلت «خواطر مسافر»، وهى كما قدمت هوامش مما يطرأ على البال بالتأمل خلال تجربة كل يوم، حديثا مرسلا أو مادة خاماً قد يكون لها نفع فيما بعد.

□ □ □

ولم يكن فى نيتى أن أكتب لـ«وجهات نظر» هذا الشهر بواقع بُعْد المسافات من ناحية، ومن ناحية أخرى من تَهَيُّب التزام دورى - شهرى - آخذه على عاتقى. لكننى حين عدت إلى القاهرة وجدت نفسى وسط رباعى هذه المجلة: إبراهيم المعلم ناشرها، وجميل مطر وسلامة أحمد سلامة المسئولين عن تحريرها، وحلمى التونى مهندس إخراجها - والمربع كما هو معروف هندسيا إطار مغلق على مساحته وما فيها ومن فيها - وهكذا كان!

□ □ □

ولم أكن جاهزا فى «الموضوع» الذى حملنى أساسا إلى أوروبا، وكنت ما أزال على صلة بناشرى فى الخارج أتعرف على حجم ما يريدونه، ونقط التركيز مما يهم مناطق بذاتها، مع اعتبار أن هناك تفاوتا فى الاهتمام يتباين من منطقة إلى غيرها حسب تفاوت درجات المتابعة هنا وهناك فى عالم يتسع كل يوم...

لكن «خواطر مسافر» كانت جاهزة لأنها تُكتَب فى حينها، وتعود معى كما هى على صورتها كما تشكلت وقتها.

ومع أنى لا أتحمس - على الأقل بسرعة - لنشر «خواطر مسافر» وأعتبرها أقرب

إلى «الذات» منها إلى «الموضوع»، وأقرب إلى التأمل منها إلى التقرير - فقد سلمتها وما زلت بعد داخل مربع «وجهات نظر»، وقد سلمتها مترددا ولكنى سلمتها على أى حال غير واثق إذا كان سليماً ما فعلت أو تَسَرُّعاً.

وهكذا فإننى من الأول إلى الآخر أتحمل وحدى مسئولية هذه الـ «خواطر» لـ «مسافر» - خصوصا إذا بدت لقارئها حديثا مرسلا وخاماً بغير تبويب أو ترتيب، وبدون سياق تربطه وحدة تصل بين أطرافه!

هـ

الخميـــــــــس

الساعة الثامنة صباحا

بدأت أتَعَوَّد على المقعد الجديد لطائرة لندن. عندما دخل ذلك المقعد الجديد إلى الخدمة (وفق التعبير الشائع فى شركات الطيران) - بدا لى هذا المقعد وكأنه قفص يعزل كل راكب عن رفاقه فى الرحلة. كان ميلى أكثر إلى المساحة المفتوحة فى مقدمة الطائرة، تجعل من الجالسين صحبة قاعة واحدة حتى وإن جلسوا فيها صفوفا منتظمة، وجوههم جميعا إلى أمام وظهورهم إلى خلف. الصفوف المنتظمة لم تكن تمنع الإلتفات فى كل الاتجاهات، وتجعل كل راكب مؤتنسا حتى فى الصمت بآخرين معه يراهم، وقد يتحدث إليهم، وقد يتابعهم بالنظر إلى أحوالهم .. توتر مكبوت تفلت مشاعره لتظهر على القسمات، أو طمأنينة واثقة تطلب مشاهدة فيلم جديد، وتستعين على قطع الوقت بطلب طعام أو شراب من طاقم خدمة جاهز للاستجابة بإشارة إلكترونية أو إنسانية.

لا أعرف إذا كانت قوة العادة أو أنها فرصة الاكتشاف هى التى جعلتنى أخيرا أتلاءم مع المقعد الجديد على طائرة لندن وأجد له مزايا لم تظهر لى من أول مرة ولا من الثانية أو الثالثة.

لم أعد أجد المقعد قفصا، وإنما أصبحت أجده شبه مقصورة. ولم يعد يعزل الجالس عليه، وإنما أصبح يحيطه وكأنه يحتضنه. وهو لم يفقده صحبة رفاق الرحلة، وإنما احتفظ له بمسافة عنهم، وهى على أى حال مسافة خطى إذا أراد.

كان بين مطالب الإنسان باستمرار أن يجد مساحة مستقلة يتنفس فيها هواءه، وربما وجدها على الأرض، لكنها هنا محجوزة له على ارتفاع اثنى عشر كيلومترا عن سطح الأرض (ربما أن هذا وَهْم التكنولوجيا الحديثة لأن الجو فى أى طائرة عبوة واحدة مضبوطة فى درجة حرارتها وضغطها ونسبة الأوكسيجين فيها... وَهْم التكنولوجيا على الأقل مريح. هناك غيره ألوان من الوَهْم مرهقة... وَهْم التكنولوجيا يمارس فعله بالإيحاء، أما ألوان أخرى من الوَهم فإنها تمارس فعلها عند درجة ما بين الاستهانة والإهانة!)

....

....

مَرَّت علىّ مضيفة الطائرة بالمائدة المتحركة التى تحمل الصحف والمجلات.

معها الصحف التى صدرت فى لندن أمس وقد قرأتها. معها أيضا الصحف الصادرة فى القاهرة فجر اليوم ولم أكن قرأتها، ومع ذلك لم آخذ منها واحدة. ومضت مضيفة الطائرة تدفع مائدتها المتحركة نحو آخرين غيرى.

إن مضيفة الطائرة لم تسألنى: لماذا لا أمد يدى إلى واحدة من صحف القاهرة إذا لم أكن قرأتها، ومن جانبى لم أتطوع بجواب.

لم يكن هناك داع لأن أقول لها أننى ساعة أخرج من بيتى فى يوم سفر لا ألمس جريدة مصرية أو عربية، ويظل حالى كذلك حتى أعود، طالت الأيام أو قصرت. أسبابى فى ذلك متعددة:

بينها أننى أفضل أن أعطى نفسى، اهتمامى ووقتى، بالكامل للموضوع الذى دعانى إلى السفر. أتفرغ لدراسته، ولفهمه أصلا وفرعا إذا استطعت، وأعيش أجواءه دون مقاطعة من أى نوع.

وبينها كذلك أن هذا الانقطاع عن الصحافة العربية لن يعزلنى عن أخبار ما يجرى فى الوطن الصغير أو الكبير، فلو أن شيئا جرى وكانت له قيمة إخبارية حقيقية، فإن وسائل النشر والانتشار العالمى حيث أكون سوف تحمل إلىّ نبأه، فإذا دعانى الشوق إلى تفصيل فالتليفون جاهز والخطوط مفتوحة.

وبينها أيضا أن المسافر يحتاج دائما إلى شعور بالتوازن، وإحساسى أن الخطاب العام فى مصر (وفى بقية العالم العربى) يحتاج إلى نبرة أقل صخبا وأكثر تأنيًا.

والمفارقة الغريبة أننا حين نكون فى القاهرة مثلا يُخيَّل إلينا أن العالم الخارجى كله لم يعد موجودا، وعندما نكون فى العالم الخارجى فإنه يُخيَّل إلينا كما لو أن القاهرة لم تعد موجودة.

والحاصل أن كل بلد عربى يعطى لنفسه (وليس لغيره) انطباع أنه مالئ الدنيا وشاغل الناس، ويُصوِّر لنفسه (وليس لغيره) أن كل مَلِك أو رئيس أو حاكم فيه، منارة للدنيا وينبوع حكمة لأهلها كافة!

وهذه الحالة التى تعترى الخطاب العام فى أوطاننا تعكس نفسها على وسائل الإعلام، بل إن وسائل الإعلام مجالها المفتوح والمُوَجَّه.

هكذا فإن استعادة الشعور بالتوازن، وهى بين حاجات أى مسافر، قد تحتاج شيئا يشبه الاستشفاء، شىء من نوع نظم الغذاء الصحى تُحْذَف منه بعض أنواع الطعام وأولها الحلوى، وذلك بالنسبة لى حقيقة واقعة، فهناك بين وسائل الإعلام - لأسباب تاريخية ومهنية وعاطفية - ما هو بالنسبة لى «حلوى» ، لكن قيود الاستشفاء قد تحرمنا أحيانا حتى من مزاجنا وهوانا!

نفس اليـــــــوم

قبـل التاسعة بقليـــل

فرغت من كل الطقوس التى يؤديها مسافر الطائرة. أطللت من النافذة عند الإقلاع أحاول استجلاء معالم القاهرة ومحيطها.

أصغيت إلى تقرير قائد الطائرة عن خط السير، ولإحدى المضيفات تشرح إجراءات السلامة. تطلعت إلى مقاعد أو مقصورات رفاق الرحلة. تبادلت مع ثلاثة منهم ابتسامات تحية. عَبَرَت الطائرة شاطئ مصر الشمالى إلى البحر بعد نصف ساعة من إقلاعها. اعتذَرْت عن الإفطار ولكنى طلبت فنجان قهوة.

الآن بدأت المسافة الحقيقية للرحلة، فقبل ذلك كانت الطائرة تصعد الأجواء حتى ستوى وتتخذ مسارها فى أعالى الجو. سحبت من حقيبة يد أحملها معى وقت السفر كتابا أستعين به على المسافة. عادة أختار لأى رحلة كتابا قصيرا أستطيع أن أكمله مع نهايتها.

....

....

هذه المرة كان الكتاب الذى اخترته يصاحبنى أو أصاحبه، كتابا يحمل عنوان «وفاة الحياء فى أمريكا»، وأهميته أن كاتبه هو «ويليام بنيت» الذى كان وزيرا للتعليم فى إدارة الرئيس «ريجان»، وبالتالى فهو رجل من داخل المؤسسة الأمريكية وليس من خارجها، وهو بالتأكيد سياسيا وفكريا مثل رئيسه القديم من يمين المؤسسة وليس من وسطها أو يسارها.

الكتاب فى مائة وأربع وخمسين صفحة، وقد تصورت أن تشغلنى صفحاته حتى نصل إلى لندن، لكننى طويت آخر صفحة فيه وتطلعت إلى نافذة الطائرة وإذا جبال

الألب وقممها البيضاء شامخة على يمينى. وارتفع صوت قائد الطائرة يقول أن الطائرة داخلة إلى فضاء جنيف ومنها إلى باريس وأخيرا إلى لندن تَحُط فى مطارها الدولى «هيثرو» قبل الظهر!

لدىّ وقت كاف أفكر فى الكتاب الذى قرأته لأن بعض الكتب يستثير قارئه للتفكير فيه بعد أن يغلق دفتيه، وظنى أن قيمة أى كتاب موصولة بقدرته على إثارة قارئه إلى حوار معه وفيه وحوله.

....

....

يريد «ويليام بنيت» أن يقول فى كتابه أن تماسك المجتمعات من ضرورات بقائها فضلا عن تقدمها، ورأيه أن منظومة القِيَم الأخلاقية لأى مجتمع جزء لا يتجزأ من العَقْد الاجتماعى الذى يحفظه.

بقية أجزاء العَقْد الاجتماعى لأى مجتمع متصلة بالاتفاق على الهوية والثقافة، ومتصلة بالاقتصاد إنتاجا وتوزيعا، ومتصلة بالحرية تعبيرا وتشريعا، ومتصلة بسيادة للقانون لا يجوز اختراقها أو حتى خدشها!

«ويليام بنيت» يضع «الحياء» قيمة لها مكانها المتميز بين منظومة القيم الأخلاقية المسكة أو التى ينبغى أن تمسك بالمجتمع الأمريكى، وهو فى كتابه كما يدل عنوانه يرى أن تصرفات الرئيس الأمريكى «بيل كلينتون» طوال فضيحة علاقته بـ«مونيكا لوينسكى» ـ أدت إلى «وفاة» قيمة «الحياء» فى المجتمع الأمريكى، لكن قراءة الكتاب بعد مطالعة عنوانه تُقنِع قارئه بأن مؤلفه يتهم الرئيس الأمريكى بـ«قتل الحياء» عمداً، وليس بالتسبُّب فى «وفاته» بالخطأ!

[بالطبع فإن هناك اتجاها فى الحداثة ممتدا بين السياسة والأدب والفن يرى أن «الحياء» ليس قيمة اجتماعية وإنما نفاق اجتماعى يغطى الحقيقة ويتستر عليها.

وهذا الاتجاه يرى أن «العرى» هو الطبيعة، وأن أى غطاء (خصوصا بالتَزَيُّد والتَأنُّق!) نفاق ظهر بين الأرستقراطية وفاض على الطبقة المتوسطة حين علا شأن هذه الطبقة فى التطور التاريخى للمجتمعات، ثم أرادت أن تستر عيوبها بأفخم الملابس وأجمل المساحيق وأحلى العطور، وقصدها أن تخفى شكلها وملامحها ورائحتها أيضا].

....

....

فى مقدمة كتابه يقول «ويليام بنيت» أنه كان أحد المعجبين بـ «بيل كلينتون» حين التقاه لأول مرة حين كان (بنيت) وزيرا للتعليم مع الرئيس «ريجان» - وكان «كلينتون» أيامها حاكما لولاية «أركنساس» والسر الذائع فى عاصمة الولاية أن حاكمها الشاب يريد تجربة حظه فى انتخابات الرئاسة أمام نائب الرئيس «جورج بوش» فى المرة القادمة - أو التى تليها.

ورغم أن «بنيت» جمهورى، ووزير مع «ريجان»، ومطالب بتأييد نائبه «جورج بوش» - فإنه فى ذلك الوقت امتدح حاكم أركنساس فى خطاب عام ورشحه لعضوية مجلس الحكام لإصلاح نظام التعليم، كما أنه اختار زوجته «هيلارى» لرئاسة لجنة خاصة لإعادة توجيه سياسة التعليم فى الولايات المتحدة.

وقد سجل «بنيت» أيضا أنه وجد كلينتون «رجلا جذابا وبالتأكيد أفضل «لأمريكا» من أى مرشح ديمقراطى محتمل».

....

....

وعندما بدأت الإشارات الأولى إلى فضائح «كلينتون» وانكشفت أثناء حملته الانتخابية الأولى (سنة ١٩٩٢) حكاية مغنية الملهى الليلى «جنيفر فلاورز»، لم يصدق «بنيت» ما قرأه. ورغم أن «جنيفر» أذاعت شرائط مسجلة لأحاديث تليفونية يُسمَع فيها صوت الرئيس الجديد مدلهاً وولهاناً بها، لم يصدق «بنيت». وكذلك كان موقفه - عدم التصديق - عندما ظهرت حكاية «بولا جونز» عاملة الاستقبال فى أحد الفنادق وقيل أن «كلينتون» أرسل لها أحد حراسه يدعوها إلى جناحه وهناك حاول معها.

ثم بدأ يقين «بنيت» يهتز فضيحة بعد فضيحة حتى جاء الدور على فضيحة «مونيكا لوينسكى»، وهنا لم يعد لديه ما يُحَصِّن به نفسه ضد التصديق!

وفى رأى «ويليام بنيت» فإن السطر الأخير فى حساب القضية لم يكن أن يُصَدِّق هو أو يُكَذِّب، فلقد صَدَّق ولم يكن له خيار. لكن الكارثة الكبرى فى رأيه وبصرف النظر عما

فعله الرئيس الأمريكي أو لم يفعله - هي ما أصاب منظومة القِيَم الأخلاقية الحافظة للمجتمع الأمريكي وأولها قيمة «الحياء».

و«الحياء» في رأى «بنيت» توافق اجتماعي يكاد يعطي نفسه قوة القانون، يحدد للناس خطوطا بين المقبول والمرفوض، ما يصح وما لا يصح، ما يليق وما لا يليق، ما يؤذى حتى في قوله وسماعه وما لا يؤذى، ما ينبغي أن يُعرَض على الناس وما تكون اللياقة في حذفه أو حتى التنبيه على التَحَرُّز عند مواجهته إذا كانت المواجهة ضرورية!

وفي هذه النقطة يقول «بنيت»: «إن بعض أفلام السينما الحديثة تَظهَر فيها مشاهد فاضحة وتجد شركات العرض التي تقدمها للناس نفسها مضطرة بحكم قانون «الحياء» أن تذكر مشاهديها بإشارة تقول أن المَناظر التي سوف تظهر أمامهم تقتضيهم أن يحاذروا خصوصا مع أطفالهم تحت سن الخامسة عشرة».

ويستطرد «بنيت»: ومن كان يصدق أن محطات التليفزيون الأمريكية تعرض أشرطة بأحاديث لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وتطالب مشاهديها بالتحوُّط خصوصا على أطفالهم تحت سن الخامسة عشرة مما سوف يقوله (رئيس الولايات المتحدة). مثل ذلك كان من شبه المستحيلات عندما كان «الحياء» ما زال «حياً» في المجتمع الأمريكي؟!

ويروى «بنيت» أنه استمع مرة إلى خطاب، رأى «كلينتون» أن يوجهه إلى أجهزة الإعلام من مكتبه في البيت الأبيض، وكانت فحواه «رجاء من الرئيس إلى كل المشتغلين بصناعة السينما والتليفزيون أن يحاذروا من كثرة الجرعة الجنسية في الأفلام والبرامج. وقد قال الرئيس لسامعيه من رجال الإعلام ومن غيرهم (لأن الحديث كان مذاعا من المكتب البيضاوي إلى الكافة) - أن زيادة جرعة الجنس المكشوف في الثقافة الأمريكية سوف تؤدى إلى انحطاط في الذوق العام وفي السلوك العام إلى درجة تهدد الأسرة وتهدد الأمن العام في البلاد، وتضعف قوة الإحساس بالأمن القومي ذاته» (إلى هذه الدرجة).

لكنه لم يكد يمضي عام على هذا الحديث «الوعظي» - إلا وكان «كلينتون» نفسه واقفا أمام هيئة محلفين خاصة، ثم أمام جماهير واسعة «يشرح تفاصيل في الممارسة الجنسية كفيلة بأن تميت - أو تقتل - أي شعور بالحياء».

ويقول «بنيت» أن «المصيبة الأعظم هي أن الدفاع عن «كلينتون» لم يجد ستارا يحميه من القانون إلا بالتركيز على أن قضية «مونيكا» كانت من بدايتها إلى نهايتها حكاية جنس.

رجل وامرأة جمعتهما اللذة دقائق، وانتهى الأمر دون داع لإدخال القانون أو الأخلاق في المشهد بغير مبرر أو سبب».

□ □ □

عَبَرَت الطائرة فوق باريس وأعلن قائدها أنه بعد دقائق سوف يكون فوق «المانش» ويبدأ في تخفيض سرعته وتقليل ارتفاعه مستعدا أن يتلقى أمر الهبوط في «هيثرو». وكنت قد عبرت بخواطري من كتاب «ويليام بنيت» إلى ما بعده.

كتاب «ويليام بنيت» ومنشورات غيره، تومئ إلى تغيير محسوس في الطقس السياسي الاجتماعي في الحياة الأمريكية.

إن فضيحة «مونيكا» انتهت وقد خسرت الأغلبية الجمهورية في الكونجرس دعواها ضد الرئيس وطلب محاكمته وعزله. وقد رأت غالبية ضئيلة في المجلس ومعها غالبية ظاهرة في الرأي العام أن الرئيس ضُبِط مُتَلبِّساً بالتعدي على الأخلاق (وبينها «الحياء») ـ لكنه لم يُضبَط مُتَلبِّساً بالتعدي على القانون (على الأقل نَص القانون). وكان الرأي العام ـ والكونجرس تحت تأثيره ـ أكثر ميلا إلى تبرئة الرئيس لعدم كفاية الأدِلّة !

وعلى هذا الأساس فقد انتهى الجزء الدستوري في المخالفات (أو الجرائم) التي اتُّهِم بها «كلينتون».

وتَصَوَّر كثيرون أن نزول الستار على المشهد الدستوري في الفضيحة هو نهاية القصة.

لكن التغيير المحسوس في الطقس الأمريكي العام هو أن ذلك التصور ليس صحيحا، بمعنى أنه ليس نهاية القصة. وبتعبير أدق، فإن وقائع الفضيحة نفسها يطويها النسيان، ولكن أثرها على الناس كامن في النفوس ... ولعله النسيان وليس الغفران.

ويظهر أن ذلك لم يكن شيئا مفاجئا، بل لعله كان السبب المُضمَر وراء موقف اتخذته الأغلبية الجمهورية في الكونجرس بعد فشلها في إدانة «كلينتون»، ذلك أن هذه الأغلبية رفضت الموافقة على قرار قدمه الحزب الديمقراطي بتوجيه اللوم شديدا في لهجته إلى «بيل كلينتون». وفي وقتها، بدا هذا الرفض الجمهوري لمشروع ديمقراطي يلوم الرئيس متناقضا مع موقف الحزب الجمهوري المطالب بإدانته. وكان «كلينتون» على استعداد

لقبول اللوم بل والتقريع، بل إنه شارك فى صياغة مشروع القرار بنفسه وأقرَّ عباراته النهائية وكانت قاسية.

والأرجح أن الحزب الجمهورى رفض المشاركة فى مشروع قرار بلوم أو تقريع الرئيس باحتمال أن يكون ذلك نوعا من العقاب يطوى الأوراق ويغلق الملفات ويحفظ القضية، ومن ثم يكون ما بين الرئيس والرأى العام قد تمت تسويته. رجل أخطأ ودفع الثمن. انحرف عن الخلق السليم ووجد من يعاقبه وتمت كلمة العدل.

ولم يكن ذلك ما تريده قيادة الحزب الجمهورى. وكان تفضيلها أن تترك الحكم النهائى فى القضية معلقا ينتظر المراجعة فى ظرف آخر، ويدخل فى معادلة جديدة عنصرا ضمن عناصر فى عملية تَخَمُّر سياسى قادمة دون شك.

....

....

إن كثيرين ممن تابعوا عالم الصور وأحواله وأحكامه ومستجداته تأكدوا بالفعل أنهم أمام دنيا تختلف عما عرفوه من قبل، وعلى الأرجح فإن الكل أمام سؤال من أهم أسئلة العصر إذا كان هناك - فى هذه الدنيا المختلفة - مستقبل للديمقراطية.

والسؤال هو ما «إذا كان عالم الصور يستطيع أن يطغى بمَشاهده صوتا وصورة ولونا على القضايا الأساسية التى تحفظ للإنسان فى النهاية إنسانيته، متمثلة فى ضمانات قانون وحقوق مشاركة وعهود قِيَم (بما فيها الأخلاق) - أو أن عالم الصور سوف يكمل سلطانه بأن يعطى الناس أصداءه وألوانه ثم يسحب منهم الوعى والذاكرة حين يتركهم بعد أن تنطفئ الأنوار ويسود السكون.

ولو أن ذلك حدث فمعناه - ضمن معان كثيرة - أن عالم الصور استطاع أن يحوِّل المواطنين إلى متفرجين على الحركة السياسية بغير تأثير عليها من أى نوع.

لكنه إذا لم يحدث وكان تأثير عالم الصور سارى المفعول فقط طالما الصور تجرى شريطا له نهاية كما له بداية - إذن فإن المتفرجين على الصور سوف يجدون أنفسهم فى لحظة من اللحظات - بعد أن تنطفئ الأنوار ويسود السكون - يتحَوَّلون من متفرجين إلى مواطنين.

وإذن فإن قضية عصر الصور هى متى يتوقف المتفرجون عن أن يكونوا متفرجين ؟

ومتى يتحوَّل المتفرجون إلى مواطنين لهم كامل حقوق المواطنة، وقادرين على ممارستها حتى لو كان الاستمتاع إجبارا وبالتحذير!

....

....

ملاحظة مضافة بأثر رجعى من خارج التوقيت ومن خارج السياق.

والملاحظة تتصل بسقوط «بنيامين نتنياهو» فى الانتخابات الإسرائيلية الأخيرة رغم أنه واحد من أشهر «أمراء» التليفزيون.

لكن صندوق الاقتراع بأحكامه ومسئوليته أزاح صندوق التليفزيون بألوانه وسِحْره.

....

....

والراجح أن ذلك كان رهان قيادة الحزب الجمهورى.

رهانها أنه فى العوالم المتقدمة لن يظل المتفرجون على عالم الصور مجرد متفرجين.

(وأما فى العوالم المتخلفة فإن هَمّ أى سلطة أن تجعل المتفرجين - متفرجين دائما، جلوسا على مقاعدهم مستمتعين حتى ولو كان استمتاعهم بالتنويم أو بالتخدير!)

....

....

من الملاحظات التى لا ينبغى أن تفوت على أى متابع للساحة الأمريكية أنه عندما انهمك النواب والشيوخ الديمقراطيون، ومعهم «كلينتون»، فى صياغة مشروع بيان يلوم الرئيس ويقرعه - كان أقرب الناس إلى الرئيس الأمريكى على طرفى نقيض:

* زوجته «هيلارى» ترفض الفكرة أساسا، ورأيها أن أحدا لا يملك سلطة لوم الرئيس وتقريعه، فهو إما برىء أو مُذنِب وليس هناك حل ثالث فى الدستور!

* ونائبه «آل جور» من أكثر المتحمسين لبيان باللوم والتقريع يطوى الأوراق ويغلق الملفات ويحفظ القضية!

كان ذلك الانقسام الحاد بين الاثنين منطقيا.

«هيلارى» تفكر فى كرامتها وكرامة زوجها خصوصا وقد مرت ذروة العاصفة دون محاكمة أو عزل.

و«جور» يفكر فى مستقبله بعد «كلينتون» لأنه يعرف أن الملفات المفتوحة سوف تترك القضية - مع غيرها من القضايا - عُرضة لتفاعلات لا أحد يعرف بالضبط تأثيرها على حملته الانتخابية لرئاسة جديدة.

يومها قد يرى الناخب - أسير عالم الصور الذى استعاد لنفسه حقوق المواطنة - أن يجرى حسابه المعلق وتكون الغرامة على نائب «كلينتون» ما دام «كلينتون» أفلت من العقاب فى شخصه!

....

....

[ملاحظة أخرى مضافة بأثر رجعى من خارج التوقيت ومن خارج السياق - هى أنه من اللافت للنظر فى تَحَوُّل المشاعر مع اتصال الذاكرة أن تقوم مظاهرات احتجاج فى الولايات المتحدة ضد العمل العسكرى لحلف الأطلنطى فى البلقان، وتكون بين اللافتات التى يرفعها الناس مئات منها تقول ما نصه:

«كلينتون كالعادة يكذب

والقنابل مرة أخرى تنفجر

والناس بغير داع يموتون!»

رجل من عالم الصور يقوم من مقاعد المتفرجين وينتقل من صندوق واجهته شاشة إلى صندوق آخر واجهته شفافة!].

....

....

أظن أن معركة انتخابات الرئاسة القادمة فى الولايات المتحدة تستحق المتابعة باهتمام، وأظن أن المراقبين للمسرح السياسى الأمريكى سوف يُقبِلون على الساحة لأول مرة غير واثقين فى مقدرة نائب حالى لرئيس الجمهورية لا يملك فى جيبه ترشيحا جاهزا من

حزبه، ببساطة لأن الحزب الديمقراطى هو الآخر لا يريد أن يدفع تكاليف المغامرات الجنسية لزعيمه الحالى.

وربما يريد الحزب أن يقنع الناخب بأنه - أى الحزب - عاقب «كلينتون» فى نائبه الذى ادعى أكثر من مرة أن الإدارة كانت مُشتَرَكة بين «بيل» و«آل» - وليس «بيل» وحده، وإذن يأمل الحزب أن يبدو للناس وكأنه حاسب نفسه قبل أن يحاسبه الآخرون، ثم إنه سَوَّى متأخرات ضرائبه قبل أن يطالبه بها خصومه الجمهوريون.

ومن هنا وحتى أغسطس سنة ٢٠٠٠، ومن هنا وحتى نوفمبر سنة ٢٠٠٠ موعد مؤتمر كل حزب لتقديم مرشحه، وموعد تقدم كل مرشح لقرار الناخب الأمريكى - فإن «آل جور» سوف يكون أتعس رجل فى الوجود.

ولم يكن «جور» فى يوم من الأيام بشوشاً، ولا كانت ابتسامته مشرقة (مثل ابتسامة رئيسه) لكنه قدم نفسه أو حاول باعتباره رجلا نظيفا ومستقيما حتى وإن بدا مثل لوح من الخشب رسم عليه طفل شقى ابتسامة غير متقنة.

....

....

[المشكلة أن صورة «الرجل النظيف» Mr. Clean لم تعد مضمونة لـ«جور» بعد أن ظهرت علاقة والده «جور» الكبير برجل الأعمال «أرماند هامر» - بل وعلاقة «هامر» بـ«جور» الصغير نفسه.

كان «أرماند هامر» رجل أعمال من أصل روسى يهودى غامض، وقد هاجر مبكرا إلى أمريكا زمن الحرب العالمية الأولى وعاد للمتاجرة مع الاتحاد السوفيتى وقت «لينين» وارتبط معه بعلاقة وثيقة تأكد بالوثائق أن وسيلتها كانت زوجة «هامر» الجميلة، وفيما بعد أنشأ «هامر» شركة «أوكسيدنتال للبترول» - وكانت تستحوذ لسنوات طويلة على معظم نفط ليبيا.

إن «هامر» كَوَّن ثروة طائلة، وكَوَّن أيضا مجموعة موالية من الساسة فى الولايات المتحدة - وفى غيرها - وكان بين رجاله - كما أظهرت وثائق نُشِرَت أخيرا - «جور» الكبير والد نائب الرئيس الحالى، بل إن «آل» الصغير نفسه اقترب من نطاق جاذبية «هامر» واستعان بتبرعات كثيرة منه فى حملته الانتخابية للكونجرس].

....

....

[رأيت «أرماند هامر» مرتين فى القاهرة أيام عملى فى الأهرام، وفى الغالب سنة ١٩٧٢، وكان أحدهم قد قدمه إلى الرئيس الراحل «أنور السادات» على أساس أنه رجل يملك نفوذا واصلا إلى البيت الأبيض وأنه يستطيع أن ينقل رسائل إلى الرئيس الأمريكى وقتها «ريتشارد نيكسون».

ولم أكن متحمسا كثيرا لدور رجال الأعمال كوسطاء فى الصراعات الدولية، وقد استغربت مرة عندما أهدانى «هامر» كتالوجا لمجموعة مقتنياته الفنية وكنت قد قرأت عنها كثيرا، وكان سبب استغرابى أننى نظرت إلى غلاف الكتالوج ثم وضعته على مائدة أمامى حتى لا أضيع وقتا من المقابلة فى فتح صفحاته، لكن «هامر» فيما يبدو لى فسَّر ذلك على أنه نوع من قِلّة الاهتمام فإذا هو يقول لى: «هذه أغلى مجموعة فنية يملكها فرد فى العالم... قيمتها ما بين ثمانمائة إلى ألف مليون دولار»!

وكان ظنى -ولا يزال- أن استعمال السعر فى وصف القيمة ترخص لا يجوز!]

....

....

كانت الطائرة على وشك الهبوط فى لندن، وطلب قائدها من ركابه أن يربطوا أحزمة مقاعدهم وأن يعيدوا هذه المقاعد إلى وضعها الرأسى، وألا يتحركوا من أماكنهم إلا بعد توقف الطائرة بالكامل...

وتذكرت وأنا أعيد الكتاب إلى حقيبة يدى أن «آل جور» حاول أن يبتعد عن البيت الأبيض عند انفجار فضيحة «مونيكا»، ولامه بعض زملائه على تباعده وكان قوله لواحد منهم نقل عنه: «إن بيل نسى بقعاً على الفستان الأزرق لمونيكا وليس له أن ينتظر منى أن أقوم نيابة عنه بتنظيف هذه البقع».

لكنه حين بدا أن عالم الصور قد يعطى لـ«كلينتون» صك غفران، بادر «جور» إلى «تعويض الهرب» بـ«تكثيف الحضور»، وهكذا دخل معركة الدفاع عن «كلينتون» وظنه أن الحساب يمكن تسويته بقرار لوم للرئيس وتقريع!

لكن الدفاتر بقيت مفتوحة، وكان على «جور» أن يدبر أمره وأن يمشى حاملا على كتفيه أوزار خطيئة لم يرتكبها، السهرة لغيره وصداع اليوم التالى له.

والعلاقة بين الرجلين الآن - «بيل» و«آل» - متوترة.

«آل» فى نظر «بيل» تذكِرة بذنب لم يُغفر، وقد تُظهِر الحملة الانتخابية أنه أيضا لم يُنس.

و«بيل» فى نظر «آل» ليس الرئيس القادر على المساعدة، ولكنه الخطيئة الواقفة حجر عثرة على الطريق إلى المستقبل.

وطبقا لعدة مصادر نافذة على البيت الأبيض فإنه فى الشهر الأخير تصادم الرجلان أكثر من مرة، وتبادلا - فى مرة من المرات على الأقل - عبارات حادة لم تكن واردة على علاقتهما من قبل.

....

....

ولقد حاول «جور» أن يختار ميادين يرتبها سلفاً لمعركته الرئاسية، لكنه لم يستطع. حاول أن يجعل قضية البيئة قضية رئاسته، ولم ينجح لأن قضية البيئة أصبحت مشاعا فى يد الدنيا كلها. ثم حاول أن يأخذ «الإنترنيت» - شبكة المعلومات الإلكترونية العالمية - إشارة إلى رئاسة تجعل المعرفة مثل الماء والهواء للناس جميعاً، لكن «الإنترنيت» تبرق نبضاتها بأسرع من خطى «آل جور».

ثم وجد «آل جور» فى حزبه من يتحداه فعلا، وهم حتى الآن صف ينتظر وفى طليعته النائب «ويليام برادلى». ثم بدأت استطلاعات الرأى العام تظهر أن هناك ثلاثة من المرشحين الجمهوريين على الأقل - أولهم «بوش» الصغير - يستطيع أى واحد منهم أن يهزم «جور» فى معركة الرئاسة المقبلة طبقا للشعور السائد الآن (أبريل ١٩٩٩) .وقد بدأت معركة الترشيحات بالفعل تدق طبولها.

وكانت عجلات الطائرة تلامس أرض مطار «هيثرو». وسألت نفسى: هل يتمكن «آل جور» أن يمشى بخطاه على بساط المكتب البيضاوى - وأن يصل إليه، ثم يجلس عليه رئيساً منتخباً للولايات المتحدة الأمريكية ؟

مسألة فيها نظر خصوصا إذا ظهر أن «الحياء»لم يمت بعد فى أمريكا !

الجمعــــــــــة

الساعة السادسة مساء

جلست أمام شاشة التليفزيون حريصا على متابعة وقائع الاحتفال بإعادة افتتاح مبنى «الريشستاج» - البرلمان - فى برلين بعد أن تمت عملية ترميمه ليكون مقرا لممثلى الشعب الألمانى فى زمن وحدته، وفى العاصمة العتيدة لدولته.

كان اهتمامى بالدرجة الأولى هو قبة «الريشستاج» التى صممها له المهندس البريطانى الأشهر السير «نورمان فوستر»، وكنت قد رأيت القبة فى مرحلة التصميم على اللوحة فى بيت «نورمان فوستر» عندما كنت فى إحدى المرات ضيف عشاء عليه.

التصميم غريب لأن «نورمان» مغرم بمادتين يراهما أساس المعمار فى العصر الحديث، وهما الحديد أو ما يشبهه، والزجاج والتنويعات المختلفة منه.

وعندما كشف «نورمان» عن لوحة تصميمه للقبة، ووجدت أنها من حديد وزجاج لم أستطع أن أكتم دهشتى، لأن مبنى «الريشستاج» الأصلى نفسه من أواخر عصر «الباروك»، والآن قُبَّة من حديد وزجاج.

وبسعادة لم يستطع - وربما لم يُرِد - إخفاءها رَدَّ «نورمان»:

«أولا: لقد اختاروا تصميمى فى مسابقة عالمية مفتوحة شارك فيها أكبر مهندسى ألمانيا إلى جانب أكبر مهندسى العالم، ولابد أنهم رأوا فى تصميمى شيئا افتقدوه فى مشروعات الآخرين.

وثانيا: أنت تعرف رأيى فى ضرورة أن يكون أى بناء، حتى ولو كان تجديد بناء، إشارة إلى العصر الذى جرى فيه، وإذا كان بناء «الريشستاج» قد جرى أصلا قبل أكثر من مائة سنة، فإن قبته الجديدة - بدلا من القديمة التى دمرتها الحرب - تعود إليه فى آخر سنة من القرن العشرين.

وثالثا: فقد قصدت، ولعل لجنة المسابقة لمحت قصدى ووافقت عليه، أن أجعل السقف من «الكريستال» تأكيدا لمعنى الشفافية السياسية لزمن ألمانى جديد».

لم يكن يحق لى أن أفاجأ، فآراء «نورمان فوستر» لم تكن خافية علىّ، وخلافاته

العلنية مع الأمير «تشارلز» ولى عهد بريطانيا - وهو الآخر مهتم بالمعمار وإن لم يكن مهندسا - خلافات مشهورة ومنشورة بعرض صفحات الجرائد.

«نورمان فوستر» يعتقد أن الأمير «تشارلز» يعيش فى حنين إلى الماضى وإلى عصر المهندس البريطانى الأعظم «كريستوفر رن» الذى صمم معظم المبانى المهيبة فى لندن وفيها المبنى الأصلى لقصر «باكنجهام»، ومعظم مبانى ميدان «ترافلجار» وضمنها مبنى الأكاديمية الملكية.

«نورمان» يرى أن «رن» زمن مضى، والحاضر لحظة أخرى من زمن له تصميماته المغايرة حتى وإن لم تكن على ذوق ولى العهد.

....

....

بيت «نورمان فوستر» نفسه نموذج حى لأفكاره.

مسكنه فى الدور الأخير من عمارة عالية على نهر «التيمس» قرب جسر «باترسى»، وهو يطل على منظر للندن يخطف الحواس كلها بجماله.

لكن البيت غريب. مدخله ألواح ألمونيوم تبدو لى باردة.

الصالون الرئيسى للبيت كله مكتبة ولكن رفوفها جميعا من «الصاج»، وهناك سلم من الألمونيوم يصل إلى رفوفها العالية - لكن الكتب تبدو لى على هذه الرفوف مغتربة - والواجهة الأساسية للصالون الرئيسى رقائق من حديد تضم مسطحات من زجاج واسعة عالية ميزتها الوحيدة أن القاعة فى الليل - وفى النهار بالتأكيد - تبدو جزءا من بانوراما الأفق فى لندن.

أخذنى «نورمان فوستر» لكى أتفرج على جناحه الخاص ... غرفة نومه قاعة واسعة فيها سرير من حديد وراء ساتر من حديد -! يصل إلى قرب سقف الغرفة ولكن لا يلامسه، وهناك طريق - من وراء السرير - يؤدى إلى الحمّام وهو مفتوح بلا أبواب، وعلى جوانبه دواليب من حديد وزجاج فيها كل ما يحتاجه «نورمان» فى حياة كل يوم.

سألت «نورمان» إذا كان يستطيع أن يشعر فى مثل هذا المسكن بدفء بيت ؟

قال: «أستغرب أنك لا ترى أوجه الجمال فى الحديد والزجاج».

تقدير «نورمان فوستر» لذوقى صحيح ، لكنى لا أحسب ذوقى فى هذا الخلاف غريبا.

«نورمان» ليس رجلا عادياً، فهو فنان له عالمه وخيالاته المُحلِّقة، ومع ذلك فهو فنان يملك طائرته الخاصة ويحب أن يقودها بنفسه إلى بيته فى جنوب فرنسا لقضاء نهاية الأسبوع. اختفى «نورمان» بطائرته مرة لمدة أسبوع ثم عَرَفْت أنه ذهب إلى شمال إيطاليا ليشارك فى منهج(course) عن الطبخ فى فلورنسا!

بدا لى «نورمان» سعيدا فى كل ما عَرَضَته له شاشة التليفزيون من صور أثناء الاحتفال بإعادة افتتاح المبنى، وبالذات أثناء عرض صور القبة التى رسمها.

له الحق. فإذا استطاع مهندس بريطانى - حتى وإن كان على القمة فى علمه وفنه - أن يصل إلى بناء قبة البرلمان الألمانى الموحد فى العاصمة الموحدة للشعب الألمانى - متفوقا فى ذلك على كل مهندسى العالم بمن فيهم كبار المهندسين الألمان وهم البناءون العظام - إذن فلا بد أن يكون لدى «فوستر» شىء آخر - فن أو علِم - لم أستطع فهمه، والذنب علىّ ما دامت برلين قد وضعت تصميمه تاجاً فوق رأسها!

السبت

الثانية عشرة ظهرا

الغداء فى فندق «كلاريدج». يوم السبت (والأحد أيضا) لا يستطيع أحد إذا كان فى وسط لندن أن يجد مائدة للغداء فى غير أحد الفنادق، لأن المطاعم مغلقة عدا قليل منها يزدحم إلى التكدس برواده.

ضيفى على الغداء صديقنا «جوردون بروك شبرد» وهو مؤلف عدد من الكتب الناجحة يدور معظمها حول الحياة الملكية لأسرة «الهابسبرج» التى حكمت الإمبراطورية النمساوية - المجرية فى قرون مجدها. وأشهر كتبه فى هذا الموضوع قصة حياة مؤثرة للإمبراطورة «زيتا» زوجة «فرانسوا جوزيف» آخر أباطرة الأسرة.

«جوردون» متزوج من نمساوية، وهو خبير فى شرق أوروبا حتى أن ابنته «فيكى» تزوجت من «كونت» بولندى وأصبحت أميرة قلعة فى ريف بولندا.

«جوردون» كان إلى عهد قريب مديرا لتحرير جريدة «الديلى تلجراف»، وكان من أقرب الصحفيين إلى صاحبيها لورد «هارتويل» وشقيقه لورد «كامروز». وكانت أول مرة ألقاه فيها على غداء دعانى إليه لورد «هارتويل». كان «جوردون» ينادى لورد «هارتويل» باسمه الأول «مايكل»، وكان ينادى زوجته الليدى «باميلا» بالمقطع الأول من اسمها: «بام».

قلت لـ«جوردون» وأنا أدعوه على الغداء أنه يستطيع أن يأتى معه بأى ضيف يراه قادرا على أن يتحدث فى موضوع البلقان بمعرفة وذكاء.

«جوردون» رجل بلا عُقَد، مفتوح إذا ناقش، فياض إذا تكلم، وأسلوبه فى الحديث مثل أسلوبه فى الكتابة مُشَوِّق.

السبت

الساعة الرابعة

جلسة حوار فى نادى «جاريك». معظم الحاضرين حول مائدة الشاى خليط من صحفيى «التيمس» و«التلجراف»، وواحد دبلوماسى شارك فى مؤتمر «رامبوييه» وحضر مداولاته فى شأن أزمة «كوسوفو»، وقد اشترك الجميع فى المناقشة.

بصرف النظر عما يتصل بالموضوع فعندى ملاحظة على الشكل - بتعبير أدق على الجو.

ألاحظ حماسة متزايدة فى لندن لدور نشيط فى السياسة الخارجية، ولا أعرف بالضبط كيف تحمس أصدقاؤنا له لأنهم لا يملكون وسائله (هكذا أظن).

لم يعودوا إمبراطورية عظمى برغم كل أوهام «مارجريت تاتشر».

كان «أنتونى إيدن» - كما يقال بحق - «آخر رئيس وزراء بريطانى اعتقد أن بلاده إمبراطورية عظمى، وكان «أنتونى إيدن» (بعد السويس ١٩٥٦) أول رئيس وزراء بريطانى أدرك أن هذا الاعتقاد غير صحيح.

لقد قابلت كل رؤساء الوزارة البريطانيين الذين جاءوا بعد «إيدن»، وكان رأيهم جميعا أن بريطانيا عليها أن تبحث لنفسها عن مكان فى عالم متغير. ولم تكن تعجبهم المقولة

المشهورة عن «دين آتشيسون» وزير الخارجية الأمريكى الأسبق الذى كتب فى مذكراته يقول «إن بريطانيا أضاعت إمبراطورية ولم تعثر على دور». وكانوا جميعا :«هارولد ماكميلان» - «دوجلاس هيوم»، «هارولد ويلسون»، «إدوارد هيث»، «جيم كالاهان»، يبحثون لبريطانيا عن دور، ودور غير إمبراطورى.

وكنت أعتقد دواما أن بريطانيا لها دور يكاد يكون إمبراطوريا، ولكن أداته هى اللغة الإنجليزية، ومجاله هو الثقافة فى عالم أصبحت فيه هذه اللغة هى الـ « "lingua franca أو لغة التفاهم العالمى كما يقولون. كانت الفرنسية لغة القرن التاسع عشر لأنها اللغة التى اعتمدتها الدبلوماسية طواله، لكن اللغة الإنجليزية - خصوصا بصعود وارتفاع القوة الأمريكية - أصبحت لغة العالم فى مجالات العلوم والسياسة والاقتصاد والثقافة، وكل شىء.

وهذه الإمبراطورية - إمبراطورية اللغة - واسعة شاسعة لا تغرب عنها الشمس فعلا، ولا تغرب أبدا إذا أحسن أصحابها إدارة مواردها وعرفوا كيف تقوم اللغة بمسئوليتها كحاوية للثقافة - علومها وفنونها وتقنياتها - تلك إذن لأول مرة فى التاريخ إمبراطورية حضارة.

كانت إنجلترا قريبة من السير فى هذا الاتجاه - سلطان اللغة بديلا عن سطوة السلاح - طوال الستينات وحتى أواخر السبعينات، وتألقت الجامعات البريطانية، ودور النشر، والمؤسسات الصحفية، وصناعة السينما، ووصل المسرح إلى قمة تفوق فيها وسبق بكثير مسرح نيويورك وباريس، وأصبح طموح أى نجم من هوليوود أن يظهر يوما فى دور على خشبة أحد المسارح فى لندن.

ثم جاءت «مارجريت تاتشر» وإذا هى تعكس الاتجاه.

واجهتها أزمة «الفوكلاند»، وتصرف جنرالات الأرجنتين بتهور، واندفعت «مارجريت تاتشر» تحتكم إلى السلاح وهو فوق ما تستطيعه بريطانيا لتكاليف حملة بحرية على بعد خمسة آلاف ميل. ولم يكن فى إمكانها أن تنجح إلا بتأييد أمريكى قدمه لها الرئيس «ريجان»، وقد تمثل فى معلومات مخابرات، وفى قواعد انطلاق لأعمال تخريبية أعدتها الـ«سى. آى. إيه» فى الدول المحيطة بالأرجنتين، وفى استغلال تناقضات بين جنرالات تركهم «بيرون» وراءه وهم لا يعرفون لأنفسهم خطة عمل، لأن التواجد فى السلطة لا يكفى وحده ليكون خطة عمل.

وقدم «ريجان» أيضا لـ«مارجريت تاتشر» أنواعا متقدمة من الأسلحة، ولم يكن ذلك من أجل اللون الأحمر للعلم البريطاني ولا اللون الأزرق لعيونها، ولكن لأن الإدارة الأمريكية كانت لها أهدافها في أمريكا الجنوبية ولم تكن تريد لسلاحها أن يظهر تحت علمها هناك عند الطرف القصي للقارة وللعالم، وحيث المنطقة البكر ماء وأرضا - تلك التي أجرى «داروين» فيها أهم أبحاثه عن النشوء والتطور، وعثر عند شواطئها على أهم المفاتيح في نظريته عن ظهور الحياة.

إن الحملة العسكرية نجحت في «الفوكلاند»، لكن آثارها السياسية أعادت بريطانيا سنوات إلى الوراء، إلى أوهام الإمبراطورية بالسلاح.

وكانت تلك هي الملابسات التي أعطت «مارجريت تاتشر» لقبها الذي اشتهرت به فيما بعد: «المرأة الحديدية». وربما أعجبها هذا اللقب، وربما أحبت أيضا أن تدخل التاريخ كامرأة أقوى وأصلب من كل الرجال، وقد أحيت في صورتها الجديدة طبعة نسائية من «ونستون تشرشل» وأخذتها جَدّاً، وتعالت نظرتها إلى الآخرين إلى درجة أنها أصبحت ترى في معظم وزرائها أطفالا «يعملونها» بالليل على أنفسهم وفي فراشهم، وراحت تطلق على مجموعة منهم بينهم وزير خارجيتها اللورد «كارنجتون» وصف «Wet» أي «المبتل»!

ولم تكن «مارجريت تاتشر» وحدها التي أصابها الحنين إلى الماضي، وإنما وصلت الإصابة بالحنين إلى كثيرين لم يكن لهم أن يصابوا به. ما زلت أذكر ما فعله صديقنا «إدوارد هوتشكينز» مدير تحرير السياسة الخارجية في صحيفة «التيمس» يوم كان جالسا معي وإلى جوارنا جهاز راديو نسمع منه آخر الأخبار عن تطورات أزمة جزر «الفوكلاند». وجاءنا خبر أن وحدات من الأسطول خرجت من ميناء «بورتسموث» وأن جماهير غفيرة احتشدت على الأرصفة تلوح لها بالأعلام وداعا ورجاء سلامة، وإذا «هوتشكينز» وقد قارب السبعين من عمره وقتها يهب واقفا ويدور حول نفسه صائحا: «إن الأسطول تحرك... خرج الأسطول إلى البحر». ثم راحت الدموع تنزل من عينيه.

وكنت أراقب «تيد هوتشكينز» ولا أكاد أصدق، فذلك رجل درس التاريخ، وخبر السياسة، وعاصر الأحداث من بداية الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة تقريبا، وهو رجل لم يتعلم في جامعة «أوكسفورد» فقط - وإنما نشأ فيها لأن والده كان أحد أساتذتها (كان والده المُشرِف على تعليم عدد من أوائل المصريين الذين قصدوا إلى

«أوكسفورد» أواخر القرن الماضى، وكان بينهم «محمد محمود» (باشا) - رئيس الوزراء الأسبق وأحد الأعضاء المؤسسين للوفد المصرى، ورئيس حزب الأحرار الدستوريين الذى انشق عن الوفد). ثم إن عمل «تيد» فى جريدة «التيمس» ووصوله إلى منصب رئيس تحريرها للشئون الخارجية - أضاف خبرة «التيمس» إلى تربية «أوكسفورد» وجعل من الرجل نموذجا راقيا لإنسان متحضر.

إن «تيد» ما لبث بعد أيام أن أفاق من نشوة «خروج الأسطول إلى البحر» وعادت إليه الحكمة.

ولكن الحكمة كما يظهر تاهت فى طريقها إلى آخرين غيره.

....

....

والآن ونحن جلوس حول مائدة شاى فى نادى «جاريك» تساءلت مشيرا إلى تصريحات عنيفة أدلى بها «تونى بلير» وظهرت فى صحيفة «الإيفننج ستاندارد» التى وضعها أحدهم على مائدة مجاورة تطالعنا عناوينها الصارخة - تساءلت: «هل يصدق تونى بلير فعلا أن بريطانيا لها دور عسكرى فى البلقان أو غيره؟... أمريكا هى الطرف الرئيسى فى هذه الحرب ضد «ميلوسوفيتش»، ٨٥٪ من القوات والمعدات والعمليات كلها أمريكية - إلى جانب ذلك فإن ألمانيا هى القوة الأوروبية الوحيدة التى تملك فى الظروف الراهنة نفوذا على نحو ما فى البلقان.

كان الذى رد على تساؤلى «آندرو ماكنيل» من وكالة الصحافة المتحدة، وكان ملخص رده «إن بريطانيا لم تنس حدودها، و«تونى بلير» لم يتحوَّل بعد إلى «رجل حديدى»»، لكنه كسياسى يرى لنفسه فرصة، ذلك أن الولايات المتحدة هى التى تقود بالفعل حلف الأطلنطى وما يفعله فى البلقان - والعُقدة أن «بلير» يريد أن يتصوَّر أن هذا الجهد جهد «أنجلو ساكسونى» (تحالف الناطقين باللغة الإنجليزية).

ومع أنه يرى أن الولايات المتحدة هى قيادة الأطلنطى اسما وفعلا، واقعا وعملا - فإنه يظن أن الرئيس الأمريكى فى وضعه السياسى الراهن، وفى أعقاب فعل وردود فعل فضيحة «مونيكا»، وكذلك فى سنة رئاسته الأخيرة وهى السنة التى يصبح فيها أى رئيس «بَطّة عرجاء» Lame Duck عاجزة عن الحركة - يعطيه هو (بلير) الفرصة

يُعَوِّض ويتوسع فى تصوير دوره - يبدأ التعويض والتوسع إعلاميا، ثم يصبح ما يتولد عن الإعلام رصيدا سياسيا من نوع ما.

إن «بلير» ذهب إلى ألبانيا وتَفَقَّد الخلفية الإدارية لقيادة حلف الأطلنطى المتقدمة والموجِّهة للضربات الجوية ضد صربيا والمستقبِلة لقوافل اللاجئين من كوسوفو - وهناك وفى قميص أزرق شَمَّرَ أكمامه وبنطلون من نوع «الجينز» - طاف بمواقع الأزمة وكأنه طبعة عصرية للملك «ريتشارد».

وجاءت الأنباء قبل أن نخرج من نادى «جاريك» بأن «بيل كلينتون» - تلك «البطة العرجاء» - وجدت فى جناحيها قوة تطير بها إلى مسارح البلقان ربما لكى لا ينفرد «تونى بلير» بالظهور فى زِىِّ الملوك الصليبيين حتى وإن كان يرتدى بنطلونا من طراز «الجينز» وقميصا أزرق شَمَّرَ أكمامه!

....

....

[ثم تسربت أنباء من البيت الأبيض بأن «كلينتون» ليس راضيا عن بعض آراء «بلير» فى إدارة سياسة حلف الأطلنطى فى البلقان، وكان أن قال «كلينتون» لرئيس الوزراء البريطانى على التليفون: «إن بعض مساعديه تجاوزوا حدودهم فى الكلام عن سياسة الحلفاء، وعليه (على «بلير») أن يعيد هؤلاء إلى مكانهم لا يتجاوزونه». ثم تبين أن الذى سَرب هذا الجزء من الحديث بين الرجلين على تليفون مؤَمَّن هو مكتب مستشار الرئيس للأمن القومى الذى يرأسه صديقه المقرب: «ساندى بيرجر»].

الأحـــــــد

الصبـــاح البـــاكر

الشمس اليوم فى لندن ساطعة، وعندما تسطع شمس لندن فى أبريل فإنها تُحَوِّل العاصمة البريطانية إلى فرح ربيعى يندر أن تصنع الطبيعة أجمل منه. سطوع الشمس كاملة مع درجة حرارة لا تزيد على عشر أو اثنتى عشرة على أكثر تقدير يجعل مزيج برودة الجو ودِفْء الشمس شعورا دافقا بالحيوية. أبريل أيضا هو موسم الزهور (ممتد إلى أواخر يونيو) وحدائق لندن كلها (هايد بارك، وريجنت بارك، وسان جيمس) وهى

تقسم العاصمة شرقا وغربا، تجعل من قلب لندن لوحة بديعة من زهور «الدافودايل» و«التوليب» و«الجيرانيوم» تتماوج فيها كل أطياف الضوء ألوانا توحى بالجمال وتغرى بجلال الحياة قوية دائما ومتجددة.

شمس لندن بالنسبة لى اليوم «عربية».

فى الصباح الباكر زارنى الدكتور «عمرو عبد السميع» مدير مكتب الأهرام فى لندن، وقد تطوع ليصحبنى فى المشى بخطوة سريعة حول محيط «هايد بارك». «عمرو» يحب المشى أيضا ولذلك لا أظنه «قاسى» كثيرا من الرحلة الطويلة. ربما أرهقته سرعة الخطو، لكن الرجل لم يُسمِعنى شكواه وإنما أحسست بها من صوت تنفسه وهو يحكى بينما نحن نمشى. «عمرو» يعيش فى لندن ويعمل فيها وبنشاط، لكن أخبار القاهرة كلها عنده وبالتفصيل.

خرجنا من «هايد بارك» إلى شوارع قريبة منها سَحَبَنا إليها خُلُوُّها من الناس فى ذلك الوقت المبكر من صباح الأحد. توقفنا عند محل للتُّحَف القديمة على ناصية شارع «هالكن» لفتت نظرنا فى واجهته مجموعة نماذج لَمدافِع الميدان من القرن التاسع عشر، والمَدافِع الأصلية مما استُعمِل فى حروب «نابليون» - إلى الحرب الأهلية الأمريكية - وإلى حرب السبعين (بين فرنسا وألمانيا) - وربما ظل عاملا إلى بعض الحروب التى بدأ بها القرن العشرون مثل حرب «البوير» (جنوب أفريقيا)، والحرب العالمية الأولى (١٩١٤).

المدفع المتحرك على عجل والذى كانت عبواته تحشى بالبارود، والقطار البخارى والذى كانت مراجله توقد بالفحم - كلاهما من الرموز المذكورة عن القرن التاسع عشر فى وعيى (ولعلها تجربة مراسل حربى قديم دقت فى سمعه كثيرا طلقات المدافع طوال حروب كثيرة غطاها كصحفى ابتداء من سنة ١٩٤٤ وحتى سنة ١٩٥١ حين ترك تغطية صراعات النار وراءه وتفرغ بالكامل لصراعات السياسة رغم أنه كان ولا يزال واحدا من المؤمنين بأن الحرب وجه من وجوه السياسة، وأن مجال القتال بالنار ومجال الاحتكاك بين الأفكار ومجال التنافس بين الأسواق - كلها صراعات ومعارك فى حروب المجتمعات بعضها يحاول جاهداً أن يتقدم فيها ويملأ فراغاً تركه أصحابه، وبعضها يتقدم ويحتل موقعاً عجز أصحابه عن الدفاع عنه!)

....

....

المدفع والقطار معاً ـ فيهما الكثير من إيقاع القرن التاسع عشر.

الصاروخ والطائرة معاً ـ فيهما الكثير من إيقاع القرن العشرين.

وأما عن إيقاع القرن الواحد والعشرين فلا أعرف، وإن كنت أعترف أننى معجب بجُرأة الذين يتحدثون فى أوطاننا عن ذلك القرن فى إجماله بينما العالم كله يُعلِن عَجْزَه عن تَصَوُّر شئ بعد السنوات العشر الأولى منه، لأن معدلات التغيير وتسارع تدافعها، وكما بانت مقدماتها فى السنوات العشر الأخيرة تقول للكل أنهم أمام قرن مسحور لا يستطيعون الإحاطة بأوله مع أنه أمامهم، ولا يستطيعون رؤية آخره ولا حتى بقصص الخيال العلمى مهما حَلَّقَ وتجاوز!

....

....

[سوف نعود غدا إلى هذا المحل عندما يفتح أبوابه صباح الاثنين، ولعل مجموعة من نماذج هذه المدافع القديمة تجد لنفسها مكانا على أحد رفوف الكتب فى بيتى الريفى].

....

....

الأحـــــد

قـــبل الظهـــر

زارنى «جهاد الخازن» (كان رئيسا لتحرير جريدة «الحياة» التى تصدر فى لندن، لكنه فى العام الماضى ترك موقعه ليحل محله الأستاذ «جورج سمعان»). «جهاد» رحالة جوال فى كل عواصم العالم العربى ويعرف دخائل كل القصور فيها، وبالذات قصور الخليج.

توقفنا بالحديث طويلا أمام الصحافة العربية المهاجرة فى أوروبا (لندن وباريس بالذات). هناك من يسمونها صحافة مهاجرة، لكنى لا أحسبها كذلك، فالهجرة تعنى الاضطرار إلى مغادرة الوطن التماسا لجو من الحرية يستحيل فيه.

الصحافة العربية فى لندن ليست مهاجرة بهذا المعنى، ولا وسائل الإعلام الأخرى بما فيها التليفزيون.

لكى تكون الأمور واضحة فإن الحرية فى الخليج إذا لم تكن صعبة فإنها ليست سهلة، لكن ذلك ليس السبب فى رحلة الإعلام العربى إلى لندن.

هذا الإعلام - المسافر وليس المهاجر - هناك فى مهمة سياسية، مع ملاحظة أن هذا الإعلام - صحافة وتليفزيون - سعودى فى معظمه.

كانت صحيفة «الشرق الأوسط» أول ظهور له فى لندن، وكان مهندس إنشائها هو السيد «كمال أدهم»، وكان صهرا للملك «فيصل» وكان مستشاره لشئون المخابرات.

وأتذكره وهو يطلعنى على أحد أعداد التجارب لجريدة «الشرق الأوسط» ويقول لى: «يا أخى لقد كان ضروريا أن نتعلم منكم لعبة الإعلام وقد قاسينا منها زماناً مضى».

كان الرجل على الأقل صريحاً.

ولعل «كمال أدهم» بذكائه لم يدرك فقط أهمية الإعلام، وإنما أدرك أهمية أن يكون هذا الإعلام المملوك للدولة أو لرموزها - خارج حدودها بحيث تستفيد سياستها منه دون أن تتحمل علاقاتها بمسئوليته، وفى ذات الوقت تكون قادرة وراضية أن تترك له حرية عمل واسعة شريطة أن تكون إشارات المرور ظاهرة أمامه ومحترمة!

إشارات المرور هى هى نفسها على كل الطرق: أحمر وأصفر وأخضر.

اللون الأحمر يخص السعودية، ومعناه لأى قادم على الطريق: قف هنا.

واللون الأصفر يشمل فى الغالب دول الخليج، ومعها كذلك كل الأنظمة الملكية فى المنطقة حتى المحيط، ومعنى الضوء الأصفر كما هو معروف لرائيه: خذ حذرك.

وأخيرا اللون الأخضر وهو يخص بقية العرب، ومعناه لرائيه: تصرف كما تشاء ولكن تَحَوَّط لحوادث السير.

فى مجال الخبر توسع كما تشاء، وفى مجال الرأى تأكد من ضرورات السلامة، وأكثر ما تكون السلامة حين تعود حرية الرأى إلى الماضى (إلى ماضى النُّظُم الجمهورية بالتحديد حيث كل شىء مباح وأحيانا مستباح).

وذلك ملخص قانون المرور.

تكاليف التواجد الإعلامى العربى فى أوروبا فادحة، لكن الأمراء والشيوخ يتحملون عن طيب خاطر فى طلب النفوذ السياسى سواء فى حد ذاته أو سلاحاً فى معارك راهنة أو قادمة.

«جهاد» يحاول أن يعطى وجهة نظر أخرى، لكن ظنى أن الرجل لديه من طول التجربة ما يجعله يعرف الحقيقة أو يستشعرها لكنه مُصِرٌّ على الإنكار ـ والحقيقة على أى حال ليست سلبية، بل العكس ـ لأن ظهور قواعد للمرور وللسير المأمون واضحة ومعروفة أفضل من السير على طرق مظلمة أو مهجورة، ثم إن السير فى هذه الحالة أفضل من أعطال واختناقات وحوادث مرور بالفوضى على كل الطرق حتى إن كانت هناك أنفاق تحت الأرض وكبارى علوية فى الهواء.

فى الإعلام العربى المسافر ميزة أخرى حتى مع وجود إشارات المرور الملونة. تلك الميزة أن هذا الإعلام يتحوَّل فى بعض القضايا الفكرية إلى ساحة للحوار المفتوح بين النخب فى العالم العربى، وليس من وراء ذلك خطر بالضبط لأن علامات المرور ـ وليس بالضرورة مشاعل الحرية ـ مضاءة طوال الوقت عند تقاطعات الطرق!

إضافة إلى ذلك فإنه برغم أى شىء وكل شىء، فهذا الإعلام ـ المسافر ـ يبقى موقعا «آمناً ومعترفاً به» لعناصر من المهنة قد يكون ضباب لندن أكثر حنواً على مواهبها من وحشة النفى الداخلى فى بلادها الأصلية، سواء كان النفى وراء الصمت أو وراء القضبان!

الأحــــــد

بعـــــد الظهـــر

جولة فى المستشفيات لزيارة أصدقاء.

مستشفى «ولنجتون» لزيارة «أشرف مروان». «أشرف» كالعادة يسبق بمعرفة أى خبر حتى قبل أن يعرفه أول من يجب أن يعرفه. كذلك فعل فى حالة قلبه. أحس أنه ليس على ما يرام وذهب إلى طبيبه وهو من أشهر أطباء لندن، فأجرى له رسم القلب وطمأنه. لكن «أشرف» أصر على أن ما يشعر به يجعله يعرف أكثر من طبيبه، وهو يريد أن يتأكد «بإجراء عملية قسطرة» ـ أجريت له فعلا وإذا هو يحتاج إلى عملية تصحيح تطال أربعة شرايين تحمل الدم إلى قلبه.

كنت أريد أن أُسَلِّم وأمشى، ولكن «أشرف» كعادته لديه ما يقوله وعنده ما يسأل فيه، وهو فى الحالتين شغوف، ولعل تجربته صاغت شخصيته عندما قام بتولى سكرتارية المعلومات فى رئاسة الجمهورية مع الرئيس «السادات» ـ حين نشأ الفراغ فى هذه السكرتارية يوم ١٤ مايو ١٩٧١ و«أشرف» يومها فى الخامسة والعشرين!

سمعت تعبيرا حكيما من أحد أطباء «أشرف» الإنجليز.

قال الطبيب الإنجليزى ـ ولسوء الحظ لم أسجل اسمه ـ «إنه لا يعرف شيئا عن السياسة ولا يهتم بها ـ لكنه يلاحظ شبهاً بين السياسة والطب ملخصه:

أنه إذا عجز الطب عن تشخيص مرض لا يعرفه، نَسَبَهُ إلى «الحساسية».

وإذا فوجئ السياسى بطارئ لم يتوقعه، نَسَبَهُ إلى «المؤامرة».

والحكمة بالغة، فـ«الحساسية» و«المؤامرة» بالنسبة للطبيب وبالنسبة للسياسى جواب سحرى فى الرد على أى مجهول. جواب ينفع حتى وإن لم يُقنِع.

....

....

إلى مستشفى «ميدل سيكس» لزيارة «صالح سليم». أظننى معجبا بـ«صالح سليم» دون أن يكون لكرة القدم دخل فى هذا الإعجاب، فلست من مدمنى كرة القدم ولست من دراويش واحد من أنديتها، وإنما إعجابى بـ«صالح» إعجاب بمزايا إنسان وليس بمهارة لاعب أطلق عليه جمهوره لقب «المايسترو».

لكنه يظهر أن ممرضة «صالح سليم» وهى إنجليزية تنتمى للنادى الأهلى.

والذى حدث أنه عندما دخل «صالح سليم» إلى غرفته فى المستشفى قامت الممرضة بسؤال زوجته عن أى اسم تناديه به: «صالح» أو «سليم»؟ وردت عليها بأنه يكفى أن تناديه «كابتن» فهذا لقب يَرُدُّ عليه إذا نودى به.

ويظهر أن الممرضة استغربت فسألت عن نوع النشاط الذى يؤديه «الكابتن»، ورد عليها «صالح سليم» وهو يترك نفسه ليستلقى على السرير قائلا باختصار: «فى الكرة»!

وكانت المفاجأة أن الممرضة الإنجليزية سألت «صالح سليم»: «أهلى أو زمالك ؟»

وهَمَّ «صالح» من سريره ونظر إلى ممرضته يدهشه سؤالها، وكان ردها بسيطا، وهو أنها زارت مصر ضمن فوج سياحى قبل سنوات، وبينما الفوج السياحى فى أوتوبيس ينقله من المطار إلى وسط المدينة فى القاهرة إذا المرور مُعطَّل وإذا الحركة متوقفة لمدة ساعتين، وعرف الركاب أن السبب مباراة كرة مهمة بين ناديين من أندية مصر يتقاسمان ولاء مشاهدى كرة القدم فيها، وكان أن حفظ الفوج السياحى اسم الناديين وبقى مُعَلَّقا فى ذاكرة واحدة من أفراده شاءت الصُدَف أن تكون فى يوم من الأيام ممرضة لـ«كابتن» نادٍ منهما.

الأحـــــــد

مســـــــــاء

عشاء فى بيت «لويز رينر» فى «إيتون سكوير» أرقى ميادين لندن وهو فى نفس الوقت قلب «بلجرافيا» أرقى أحيائها.

نسى الناس «لويز رينر»، لكن رموز المجد القديم حَيَّة فى كل ركن من بيتها وأهمها تمثالان للأوسكار بينهما واحد أعرف أنها حصلت عليه كأحسن ممثلة عن فيلم «الأرض الطيبة» المأخوذ عن القصة الشهيرة للكاتبة الأمريكية «بيرل باك» والتى تجرى وقائعها فى الصين. وكان ذلك الفيلم قد أحدث ضجة كبرى حين ظهوره قبل قيام الحرب العالمية الثانية، وصعدت نجمته «لويز رينر» إلى أفق الكواكب الساطعة فى هوليوود على مستوى «جريتا جاربو»، و«مارلين ديتريتش»، و«نورما شيرر»، وغيرهن تلك الأيام.

لقد عَرَفْت «لوين» عندما كانت متزوجة من «روبرت كنيتل» وكان مديرا للنشر فى واحدة من أكبر الدور البريطانية وهى مؤسسة «كولينز»، وكان صاحبها السير «ويليام كولينز» ـ هو و«أندريه دويتش» ـ آخر الباقين من عصر الناشر الوحيد وقبل أن تدخل الشركات العملاقة وتُحوِّل النشر إلى صناعة شاملة متكاملة، ومن ثم راحت هذه الشركات العملاقة تشترى الدور العريقة القديمة وتُحَوِّل كل واحدة منها إلى لمعة نجم فى مجرة فضائية يصعب رصد حجمها ويصعب حصر تأثيرها.

والذى حدث أن دار «كولينز» القديمة أصبحت جزءا من مؤسسة «هاربر كولينز» التى تملك الآن حقوق نشر كتبى.

«لويز رينر» اعتزلت السينما بطبيعة السن منذ زمن طويل، وهاجرت من هوليوود إلى إنجلترا رغم أصلها الألمانى، لكنها لا تزال حتى الآن نجمة ولا يزال يَحُفُّها حتى الآن بريق، وأظن أنها احتفظت برغم السنين بنوع من الحيوية الطبيعية تشبه حيوية شلال.

قوام تحرص عليه كى تظل له باستمرار رقته ومرونته، وتَنَبُّه فى تعبيرات الوجه يَقِظ، ولمعة فى العين مُشِعَّة، وبديهة حاضِرة تتدافع روايتها حكايةً وتعليقاً لا تتوقف ولا تتمهل!

ومن الغريب أن «روبرت حبيبى الصغير» ـ كذلك كانت وما تزال تسميه ـ كان أصغر من «لويز» بعشرين سنة على الأقل، لكنه مات قبل عشر سنوات وكان حزن «لويز» كبيرا ولكنه لم يؤثر على تركيبتها الفريدة غير القابلة للتكرار، فمن الصعب أن يصادف أحد امرأة تقترب من التسعين وتتصرف بحيوية وعفوية ودلال شابة فى العشرين، ثم لا يبدو ذلك مستغربا منها ومنافيا لواقع الحال الذى تقول به الأرقام، لكنها حيوية الحياة ذاتها قادرة على قهر الزمن ورَدّ غوائله حتى آخر ساعة، آخر دقيقة... ربما آخر ثانية.

سِرْتُ ذات ليلة فى أكتوبر الأخير مع «لويز» أوصلها إلى باب بيتها حتى تدخل وتغلق الباب وراءها، وكان الجو شديد البرودة واقترحت «لويز» أن نجرى لنجد طاقة تقلل من أثر البرد، وجرينا. وفى اليوم التالى اتصلت تليفونيا تقول أنها متعبة تحس ألما فى ساقيها، وأحسست بقلق حقيقى عليها، لكنها بعد يومين اتصلت من سويسرا تقول «أنها بخير وأنها تستطيع الجرى مرة أخرى».

عندما كان «روبرت كنيتل» حياً كانت «لويز» مهتمة بعالم الأدب والفكر، وهى لا تزال، لكنها لا تتحدث فى ذلك كثيرا حتى لا تعاودها ذكرى «حبيبى الصغير روبرت».

فى تلك الأيام قامت «لويز» بمغامرات سوف تُذكَر لها فى تاريخ النشر، فقد كانت هى التى ذهبت إلى الاتحاد السوفيتى واستطاعت فى عودتها أن تحمل معها مخطوطة أول رواية كتبها «سولجينستين» عن أيام المنفى والعذاب فى معسكرات الاعتقال الشيوعية.

وكان زوجها هو الذى أشرف على التحرير والنشر.

من الغريب أن «حبيبى الصغير روبرت» مولود فى مصر، وكانت أسرته تعمل لثلاثة أجيال فى تجارة القطن فى الإسكندرية، ومن ذكريات طفولته عَرَفَت «لويز» كثيرا عن مصر وعن الحياة فيها خصوصا فى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن.

«لوين» لا تتحدث كثيرا عن ماضيها قبل «روبرت»، لكن ذكريات الماضى وبعض الإشارات إليه موجودة.

بالطبع هناك التماثيل الذهبية للأوسكار وهى معروضة لتُرى - على الأقل تراها «لوين» كل يوم.

هناك أيضا غرام سجلته مراسلات وصور تملأ صندوقا بأكمله مع «ألبرت آينشتين» أكبر وأهم علماء القرن العشرين - لكن «لوين» تغلق صندوقها وتتحفظ فى ذكرياتها.

لا تتحفظ «لوين» فى كراهيتها لـ«صامويل جولدوين» أكبر مؤسسى شركة «جولدوين ماير» وهى تقول أن «أسد جولدوين ماير الشهير» الذى يظهر فى مقدمة أفلام هذه الشركة لا يزأر ولكنه يصرخ ويستغيث من سوء تصرف وأخلاق مؤسس الشركة.

الغريب أن «لوين» تعيش وحدها فى بيتها فى «إيتون سكوير» وتصنع بنفسها كل شىء لنفسها، وتجيئها مرتين كل أسبوع، وساعتين كل مرة مساعِدة إيطالية لا تراها «لوين» فى الغالب وإنما تتبادل معها رسائل مكتوبة.

ومع ذلك فإن بيت «لوين» لوحة من أناقة شفافة. ألوانه هادئة متناسقة. كل قطعة من الأثاث فيه تومئ إلى أصالتها من أول نظرة. على الجدران صور من انتقاء ذوق يعرف قيمة ما يختار، ثم زهرة «أوركيد» وحيدة فى إناء على مائدة بجوار المقعد الذى تختاره «لوين» لتجلس عليه دائما وتشعر بالألفة وسطه وهى تحتفى بأصدقائها - وهم قِلّة نادرة - وتتحدث إليهم بصوتها الملىء بالتموجات والطبقات ودرجات الكثافة عالية أو خافتة، سريعة أو بطيئة.

ما زلت أذكر مرة كنا فيها على العشاء فى مطعم صغير فى شارع «إيبوبيرى»، ولسبب ما راحت «لوين راينر» تتحدث عن بداية هوايتها للتمثيل ضد رغبة أسرتها التى تملك حوضاً كبيراً لبناء السفن فى ميناء «هامبورج» الألمانى.

كان أبوها ضد الفكرة، وقد تضايق عندما علم أنها التحقت بأكاديمية للفنون تتلقى فيها دروسا فى التمثيل.

وانهمكت «لوين» فى روايتها تتمثل المواقف والحوارات حتى جاء مشهد حكت فيه كيف ثارت على والدها قائلة له: «كيف يطاوعك قلبك أن تقف أمام ما أعتبره حلمى

وأملـى؟». قالتهـا «لويـن» وقـد ارتفـع صـوتهـا وشـاعـت فيه كل الكوامن من أحـاسيس موقـف كان فيما يبدو نقطـة تحـوُّل فـى تجـربتهـا.

وعندما فرغت «لويـن» من إلقـاء العبارة التى قالت فيهـا لوالدهـا: «كيف يطاوعك قلبك أن تقف أمام ما أعتبره حلمى وأملى» كانت قدرتها على التعبير والأداء قد وصلت إلى قمة أخاذة، وقد انهمكت فيمـا تقول كأنها وسط مشهد مسرحى. ويبدو أن ذلك لفت نظر آخرين على موائد بجوارنا، وأفقنا وأفاقت «لوين» من تأثير المشهد على تصفيق رقيق حولنا، وكان بعض الحضور قد تعرَّفوا على النجمة القديمة من صورها، ثم وصل إليهم صوتها بعمق تعبيراته أثناء المشهد الدرامى الذى وصفته، وأدَّته.

ونظرت «لوين» حولها حائرة، وأحسست أن «حلمها وأملها» ما زال حياً فيها ومتوقدا بما فى ذلك حُمرة خجل ظهرت على خدها من شعورها بالحرج أمام الناس.

وكان غريبا أن تبدو امرأة تخطت التسعين وكأنها عادت بمعجزة - شباب وجمال - إلى لحظة تمسكت فيها بـ «حلمها وأملها» هناك فى بداية الثلاثينات!

الاثنيــــــن

قــبل الظهـــر

أحب كلما استطعت أن أذهب إلى مبانى «ألبانى». لا يكاد أحد من سكان لندن أو من زوارها يشعر أن هذه المبانى موجودة بكل وقارها وشموخها فى قلب «بيكاديللى» وهو كما هو معروف - وحقيقى - نهر من «الجنون» يتدفق فى الميدان ومن حوله. إن مبانى «ألبانى» مختفية داخل مثلث لا يظهر من ميدان «بيكاديللى» نفسه ولا من الشارع الذى يحمل نفس الاسم لأن ضرورات الحفاظ على وحدة المعمار فى العاصمة البريطانية تفرض أحيانا على الواجهات الخارجية أن تخفى وراءها أشياء لا تنتمى لها بصلة، وهذا هو الحال مع مبانى «ألبانى».

الواجهات الخارجية لـ «بيكاديللى» أسواق تجارية تنادى المارة إلى ألوف من السلع: ملابس، وأحذية، وأدوات رياضة، ومعدات كهربائية منزلية، ومطاعم، ومقاه، إلى آخره - لكن وراء هذه الواجهة الصاخبة عالم آخر هو مجموعة مبانى «ألبانى».

مبانى «ألبانى» صروح من العمارة الكلاسيكية - أواخر القرن الثامن عشر - وهى تحمل طابع زمانها بأعمدته العالية، وفضائه المتسع، وخطوطه الموحية بالاستقرار والثبات، وممراته بأقواسها التى يصل إليها ضوء محسوب، وأحجاره التى أضاف إليها الزمن قيمة البقاء حتى وإن أخذ منها بعض سطحها شاهدا على أن العمر الطويل لم يكن هباء وإنما هو تجارب تركت على الحجر آثار خطاها نشيطة ولكن خفيفة فى نفس الوقت وحانية - حتى على الحجر!

المبنى كان - ولا يزال - مسكنا لعدد من الشخصيات العامة فى السياسة والفكر والفن ممن يعيشون خارج العاصمة لكن ظروفهم تتطلب وجودهم فيها لفترات منتظمة، وهم لا يريدون أن يعيشوا فى لندن باستمرار وإنما يريدون الاكتفاء بموضع قدم فيها «pied a terre» كما يقولون. بين هؤلاء أعضاء فى مجلس العموم، وأعضاء فى مجلس اللوردات، وقادة عسكريون عادوا من الخدمة فى الخارج إلى لندن وهم ينتظرون أن يجدوا لأنفسهم مَواطِن جديدة بعيدا عنها يستقرون فيها، لكنهم لسنوات فى العاصمة يُدَبِّرون انتقالهم. وفى يوم من الأيام كان بين سكان «ألبانى» اللورد «بالمرستون» رئيس الوزراء الذى كرَّس فترة من عمره ليصارع «محمد على» (باشا) فى مصر، وتمكن من بلوغ غايته عندما رتب لضرب أساطيل الوالى المصرى فى خلجان اليونان، وطارد جيوشه فى أودية الشام، وفرض عليه معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ تحصر نفوذه وراء صحراء سيناء لا يتخطى خليج السويس!

ولقد ذهبت إلى مبانى «ألبانى» أول مرة لمقابلة اللورد «جرينهل» وكان وكيلا دائما لوزارة الخارجية البريطانية فى بداية الستينات.

وذهبت إليها مرة لزيارة «إيشايا برلين» الفيلسوف الكبير وصاحب كتاب «تاريخ الأفكار فى العالم».

ثم ذهبت إلى «ألبانى» عدة مرات زائرا لـ «إدوارد هيث» رئيس الوزراء المحافظ الذى استعاد لحزبه رئاسة الوزارة من العمال ليخسرها بعد ذلك وتنحيه «مارجريت تاتشر» عن رئاسة الحزب وعن رئاسة الوزارة وتدفعه إلى الظل.

«إدوارد هيث» هو الوحيد الباقى ممن أعرف من سكان «ألبانى»، وزيارتى لـ«ألبانى» له.

«إدوارد هيث» أو «تيد هيث» كما يفضل أن يناديه أصدقاؤه وغير أصدقائه الآن فى

الثالثة والثمانين من عمره، وقد تحقق له أخيرا ما أراد واشترى بيتا فى الريف من حوله خضرة ممتدة (وذلك أمل كل بريطانى) ـ لكنه لم يترك شقته فى «ألبانى».

«تيد هيث» لم يتزوج فى حياته، وقد روى أكثر من مرة قصة غرام لم تبلغ نهايتها السعيدة لأن المحبوبة لم تنتظر حتى يعود «تيد» من الحرب وآثرت عليه شابا تعرفت عليه ووجدته أقرب من المحبوب الذى يقاتل وراء البحر ولا تثق إذا كان مُقدَّرا له أن يعود من هناك على قدميه أو محمولا فى صندوق (ذلك تعبير «تيد هيث» عن بقايا ذكريات غرامه).

مسكن «تيد هيث» فى ألبانى» شقة فى نهاية ممر واسع ذات باب من الخشب الملبس بالبرونز، وهو فى حد ذاته تحفة تاريخية. لكن مسكن «تيد» من الداخل تحفة من ذوق رفيع ومعاصر.

قاعة المعيشة كلها مدهونة باللون الأبيض. القطعة الرئيسية فى القاعة وهى مركز التوازن فيها بيانو كبير أبيض اللون هو الآخر، والسجاجيد الإيرانية والقوقازية والتركية هى مواقع الألوان الظاهرة فى القاعة كلها. الموسيقى هى مدخل «تيد» إلى الثقافة بمقدار ما أن القوارب الشراعية مدخله إلى الرياضة (كل قواربه واحدا بعد واحد حملت اسم «شابورة الصباح»، فكلما تقادم قارب أو غرق إستبدله «تيد» بقارب آخر يحمل نفس الاسم ورقما مسلسلا يحدد موقعه فى سلسلة قواربه).

....

....

[«تيد هيث» أيضا يقوم مرات بالعزف على البيانو تحية لزواره إذا كان مزاجه رائعا ـ ويتطوع مرات كثيرة لقيادة فرق موسيقية، وهو يقول أنه يفعلها لأغراض خيرية، ولكنى أحسب أنها تعيد إليه ـ ربما ـ تطلعه إلى القيادة بعد أن أخذت منه «مارجريت تاتشر» عصا القيادة السياسية!].

كان «تيد هيث» يكره «مارجريت تاتشر» كراهية التحريم، ولا يطيق أن يتواجد معها فى مكان واحد. داعى الكراهية أنه هو الذى قدم «مارجريت» للمناصب العالية وآخرها منصب وزيرة التعليم فى وزارته ـ ولكنها خانته وتآمرت عليه لتحصل على رئاسة الحزب ورئاسة الوزارة فى زحف للطموح «متوحش» (كذلك يقول).

روى لى «هيث» فى مرة سابقة أنه قابل الملك «فهد» ملك السعودية، وراح الملك «فهد» يحدثه عن التعليم فى المملكة، ثم تطرق فى حديثه إلى أنه مهتم برفع مستوى المرأة عن طريق فتح أبواب التعليم للبنات فى السعودية.

وقال لى «هيث» وقتها أنه عندما سمع الملك «فهد» يقول له ذلك لم يشعر بنفسه إلا وقد رد عليه بقوله: «لماذا تُعَلِّمون البنات... تعليمهن له أحيانا عواقب خطرة».

وأضاف «هيث» بلهجة قصدها تعبيرا عن الندم: «لم أكن أفكر وقتها فى البنات السعوديات وإنما ذهب تفكيرى على الفور إلى مارجريت»!

لكن «تيد هيث» الآن عقد صلحا مع غريمته القديمة، وكان رئيس حزب المحافظين الجديد «هيج» هو الذى جمع بين القطبين ضمن محاولة لجعل حزب المحافظين يتصالح مع نفسه.

لاحظت أن «تيد» لم يكن مهتما بالإفاضة فى الحديث عن صلحه مع «مارجريت تاتشر».

كان تعليقه: «تلك كلها حكايات قديمة تركها الزمان وراءه ولم تعد تُهِم أحدا وعلينا أن ندرك ذلك، كان يجب أن نسوى هذا الأمر الآن ولا نذهب به إلى خالقنا عندما نقف أمامه ذات يوم لنطلب منه أن يسويه بالنيابة عنا».

«تيد هيث» لا يزال مشغولا بمستقبل العالم الثالث - أو العالم المتخلف - «لأنه لم يعد هناك الآن عالم ثان»! - هناك عالم أول «وفقط»، أو بمعنى أصح هناك عالم «واحد» يعرف الناس طريقهم إليه أو لا يعرفون!

يبدى «هيث» ملاحظة عن التَحَوُّلات فى علاقة المتقدمين والمتخلفين، أو الكبار والصغار، أو الأقوياء والضعفاء فى العالم:

«فى مرحلة (الحرب الباردة) كان المتقدمون الكبار الأقوياء يتنافسون فيما بينهم على استرضاء المتخلفين الصغار الضعفاء، ويحاولون ذلك عن طريق المساعدات والتسهيلات والإعفاءات.

فى مرحلة لاحقة (بعد الحرب الباردة) أصبح المتخلفون والصغار والضعفاء يتنافسون فيما بينهم على إسترضاء المتقدمين الكبار الأقوياء عن طريق إعطاء الامتيازات وفتح الأسواق وخدمة السياسات.

الآن مرحلة ثالثة، منافسة مفتوحة، الكل فيها مع الكل وضد الكل ... كذلك أحوال القرن الجديد إذا كنت مهتما به».

....

....

(غادرت مبانى «ألبانى» خارجا إلى شارع «بيكاديللى» ودخلت مكتبة «هاتشارد» الشهيرة على طرفه عند دخول الشارع إلى ميدانه - واشتريت نسخة من كتاب عن قصة حياة «داروين» وتَوَصُّلِه إلى نظرية أصل الأجناس، وقصة النشوء والارتقاء، وحكمة أن البقاء للأقوى!)

الاثنـــــين

بعـد الظهـــر

استمعت إلى محاضرة لـ«أنتونى جيدنز» أبرز أساتذة مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية - وهو الآن عميدها. أهمية «جيدنز» أنه من أشهر المفكرين السياسيين هذه اللحظة لأن نظريته (إذا جازت التسمية) عن «الطريق الثالث» أصبح لها أنصار أقوياء بينهم على الأقل ثلاثة هم بترتيب «إيمانهم بالرسالة»: «تونى بلير» رئيس وزراء بريطانيا (العمالى)، و«بيل كلينتون» رئيس الولايات المتحدة الأمريكية (الديمقراطى)، و«جيرهارد شرويدر» مستشار ألمانيا (الاشتراكى)، ولعلى أضيف أيضا «هيلارى كلينتون» التى تبعث لـ«جيدنز» كثيرا بأسئلة مُحَدَّدة إلى عنوانه الإلكترونى فوق شبكة «الإنترنيت» تسأله فى بعض ما يخطر لها من قضايا تريد إيضاحا أو تفصيلا حولها.

وبداية فإن مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية صانعة نظريات اجتماعية كبرى فى العصر الحديث، فبين أساتذتها «كينز» و«لاسكى» وأخيرا «جيدنز»، وبين الثلاثة عشرات من الكبار لكنهم انهمكوا فى التدريس ولم ينشغلوا بالتنظير!

كان «كينز» مهتما بإنقاذ الرأسمالية، وكان «لاسكى» مهتما بالتبشير بالاشتراكية، وجاء «جيدنز» أخيرا بنظرية ما يسمى بـ«الطريق الثالث» وهو طبقا لتوصيفه طريق «لتجديد الديمقراطية الاشتراكية»، وطبقا لتوصيف آخرين محاولة «لتجميل وتحسين

شكل أو أخلاق النظام المالى الكونى الجديد» وذلك عن طريق «التلوين الفكرى» لملامحه، أو عن طريق «الترويض الاجتماعى» للمتشككين فيه!

....

....

تصل «نظرية» الطريق الثالث مرات فى التوفيق إلى حد التلفيق باصطناع التقابل بين الظروف التاريخية المتعارضة من نوع القول بأن اليمين - النظام الرأسمالى فى الغرب، أمريكا وبريطانيا بالذات - أراد أن يُقَوِّى نفسه ويضمن استمرار حيويته، فاستعار من اليسار - الاشتراكية - كثيرا من مبادئه مثل الحق فى التعليم وفى الصحة وفى المسكن، وفى الضمان الاجتماعى، وفى حقوق عديدة أخرى.

والآن جاء الدور على اليسار لكى يستعير من اليمين - حتى يقوى نفسه ويضمن استمرار حيويته - ليأخذ من الرأسمالية بعض مبادئها مثل حرية رأس المال، وحرية الاستخدام والاستغناء، وحريات أخرى كثيرة!

وإذن فإن اليسار الذى قام بتسليف بعض مبادئه إلى اليمين بعد انطفاء الحرب العالمية الثانية - جاء عليه الدور ليستلف.

واليمين الآن على استعداد لتسليف اليسار بعد ذوبان ثلوج الحرب الباردة].

....

....

أعود إلى محاضرة «أنتونى جيدنز».

«أنتونى جيدنز» يلقى محاضرته هذا المساء ضمن موسم محاضرات «ريت» التى تنظمها هيئة الإذاعة البريطانية كل سنة، وتحمل - تذكاريا - اسم الرجل الذى صنع منها تلك المؤسسة العالمية الفريدة.

وموسم المحاضرات الذى يحمل اسم «ريت» يدعو كل سنة واحدا من أبرز المفكرين فى العالم ليلقى ما بين خمس إلى ست محاضرات فى موضوع واحد يكون هو الموضوع الأبرز فى الحوار العالمى المتسع.

وقبل سنوات شارك عربى واحد (ووحيد حتى الآن) فى إلقاء محاضرات «ريت»،

وكان ذلك العربى هو «إدوارد سعيد»، وكانت دعوته بمناسبة ما طرحته كتاباته عن الاستشراق من تعقيدات العلاقة بين الشرق والغرب، وقد صدرت محاضرات «إدوارد» فى كتاب بعد ذلك تحت عنوان «المثقف».

وحتى الموسم الماضى كان ضيف الشرف إلى محاضرات «ريت» يلقى محاضراته من وراء ميكروفون، وفى مرة أو مرتين كانت هناك قاعة داخل مبنى الإذاعة البريطانية يتحدث فيها الضيف إلى جمهور محدود لكى تظهر فى خلفية الصوت أنفاس التواجد الإنسانى الحى وهمساته.

وهذا الموسم أصر «أنتونى جيدنز» على ترتيب مختلف وقبلته هيئة الإذاعة البريطانية مقتنعة أو بغير اقتناع، فقد طلب «جيدنز» أن تكون كل واحدة من محاضراته ضمن موسم «ريت» فى عاصمة مختلفة وفى قارة مختلفة، وكان ذلك مكلفاً وخصوصاً أن «جيدنز» يتنقل فى العادة ومعه مساعدون بينهم باحث وسكرتير خاص وإدارى يتولى ترتيب المواعيد وانتقالات السفر، إلى آخره.

كانت حجة «أنتونى جيدنز» فى اقتراحه بتوزيع محاضراته على العواصم وعبر القارات أنه اختار «العولمة» لتكون موضوع موسم «ريت» هذه المرة. وإذا كانت «العولمة» هى الموضوع فإن أسلوب تقديمه يجب أن يكون متفقا مع فكرته المتجاوزة للمسافات والمتخطية للحدود ـ وكان له ما أراد وخصوصا أن علاقته الحميمة بـ«تونى بلير» دفعت كثيرين إلى إعادة البحث فى العلاقة بين «المثقف والأمير»، وجعلتهم يستعيدون ـ ساخرين أحيانا ـ علاقة رجال مثل «أرسطو» بـ«الإسكندر الأكبر»، وعلاقة «ماكيافيللى» بـ«لورنزو الكبير»، وعلاقة «فولتير» بالإمبراطور «فريدريك»، وحتى علاقة «لاسكى» برئيس الوزراء البريطانى «آتلى» الذى طبق الاشتراكية فى إنجلترا بعد الحرب العالمية الثانية.

وربما أن نبرة السخرية التى تظهر أحيانا فى الحديث عن المثقف الجديد (جيدنز) بالأمير الجديد (بلير) أعطت لـ«جيدنز» (فى رأى نقاده) ـ «شهرة»، ولم تعط لـ«بلير» (فى رأى معارضيه) ـ «فكرة»!

....

....

[علاقة «المثقف والأمير» محاطة دائما بالتباسات كثيرة، فمن المشكوك فيه أن

«الإسكندر» تعلم ما فيه الكفاية من «أرسطو»، كما أن «ماكيافيللى» أهدى لـ«لورنزو» كتابه «الأمير» دون أن يقابله وجها لوجه، وحتى «فولتير» الذى كان يحظى باهتمام «فريدريك» لم يَسْلَم من غمزة فيها تلميح ظاهر إلى النفاق. وحدث ذلك حين ذهب «فولتير» مرة لزيارة «فريدريك» فى حديقة أحد قصوره بعد عودة «فريدريك» من معركة منتصرة، وأثناء اللقاء التفت الفيلسوف الفرنسى فرأى خمسة أو ستة من جنرالات «فريدريك» يقفون معا على طرف بعيد ينتظرون إشارة من إمبراطورهم، وقال «فولتير» لأميره مجاملا:

«إننى أهنئك يا مولاى على ضباطك الذين رافقوك إلى ميدان القتال وكانوا معك فى معارك النصر».

ويبدو أن الملاحظة لم تعجب «فريدريك»، والظاهر أن كل أمير يحب لنفسه الفضل كله!

وهكذا رد «الأمير» على «مثقفه» الكبير قائلا:

«إنك نسيت أن تهنئنى على هذه البِغال التى تقف هناك عند الإسطبل.. رافقونى كلهم إلى ميادين القتال وكانوا معى فى معارك النصر وحملوا أمتعتى وخرائطى ومنظارى المُكبِّر».

يبدو أن «المثقف» فى أزمنة حديثة ـ وهذه الآن عودة إلى «جيدنز» و«بلير» ـ يلقى من «أميره» معاملة أفضل، ربما بسبب ثورة وسائل الإعلام التى أصبحت تجعل «الأمير» يترك أسوار قصره ليسعى بين الناس يقدم نفسه لهم، وفى الماضى كان حرسه يفسح الطريق أمامه بالحراب، والآن فإن «المثقف» هو الذى يستطيع أن يفسح الطريق أمام «أميره»، وهنا فإن الرسالة أو «الدعوة» لابد أن تحل محل «القوة»، و«الدعوة» على أى حال يمكن أن تكون مُسَلَّحة حتى وإن تَغَيَّرت طبيعة السلاح وتحوَّل من حديد وبارود ونار، إلى ورقة وصورة وفيلم تليفزيون!].

....

....

وعندما تهيأت لسماع محاضرة «أنتونى جيدنز» وجدتنى متحمسا لمدخله.

بدأ فقال ما مؤداه أن «العولمة ظهرت حين استطاعت المجتمعات التجارية الصناعية فى الغرب أن تعود إلى تراثها، فعندما اكتشفت هذه المجتمعات قيمة الديمقراطية فى الفكر

الإغريقى، وحين اكتشفت قيمة القانون فى الفكر الرومانى، استطاعت أن تخلق المناخ الذى يؤكد للعقل قيمته، وهكذا عبرت من الفلسفة إلى العلم ودخلت إلى عصر اكتشافات بالطول وبالعرض، ومن يومها توصلت إلى الحقيقة الضرورية عن وحدة العالم.«

ثم يدخل «جيدنز» إلى موضوعه فيتحدث عن «العولمة» فى إطار نظرية «الطريق الثالث» كـ «نظام قِيَم» !

....

....

[وهنا تبدأ المشكلة مع «جيدنز» ذلك أن «القِيَم» مرجعية تقديرية تحتمل التأويل حتى بالاستغلال، وهى فى ذلك تختلف عن القانون الذى هو «قاعدة» تقبل الاجتهاد، لكنها فى النهاية مضبوطة بضمان نص.

و«جيدنز» لا يقصر مرجعية «القِيَم» على السياسة الداخلية فى المجتمعات، وإنما يسحبها أيضا على السياسة الخارجية. وهذه إشكالية أخرى، ذلك أنه فى مجال السياسة الداخلية فإن الاحتكام إلى «القِيَم» يمكن أن يتم بالحوار فى مجتمعات ديمقراطية، وأما فى مجال السياسة الخارجية فإن الاحتكام إلى «القِيَم» مسألة تحلها القوة، ويصعب أن يكون هناك بديل آخر لأن من «يستطيع» الدفاع عن «شىء» هو من يملك القوة للدفاع عن هذا «الشىء»، ومن يستعمل القوة لن يجازف بتكاليفها إلا فى طلب مصلحة، وفى هذه الحالة فهو وحده القادر على أن يحدد ما هى المصلحة، وبالتالى ما هى «القيمة فى هذا الشىء»؟ - ومن اعتدى عليها ؟ - وكيف ؟ - وأى الوسائل ضرورية لإعادة «القيمة» إلى مكانها الصحيح والمطلوب؟!

هذه إذن «رخصة» باستعمال القوة لمن يملك الأقوى من وسائلها، وهكذا وبدعوى الدفاع عن «القِيَم» فإن تصفية القضية الفلسطينية مثلا مطلوبة لتعويض اليهود عن جحيم «الهولوكوست» الألمانى. وبنفس الدعوى فإن الاستمرار فى شن حرب جوية صامتة ضد الشعب العراقى ضرورى لتأكيد «القِيَم» التى يخالفها «صدام حسين» بمجرد استمرار بقائه رئيسا للعراق. وبنفس الدعوى فإن طائرات حلف الأطلنطى تستطيع أن توجه صواريخها إلى أى هدف تريده فى «كوسوفو» لوقف التطهير العرقى الذى يمارسه «ميلوسوفيتش» حتى وإن أدى الضرب إلى مضاعفة معدلات الهجرة من «كوسوفو»

عشر مرات بعد تَدَخُّل حلف الأطلنطى - عما كانت عليه قبل ذلك، وبصرف النظر عما إذا كانت الصواريخ «المُدافِعة عن القِيَم» تقتل نصف الضحايا وتشَرِّد نصفهم الآخر إلى ملاجئ نائية يصبح الوطن فيها سرابا فى التيه !].

....

....

كانت النظريات السياسية والاجتماعية فى زمن مضى تنتشر على مهلٍ يسمح بدراستها واختبارها، وكان طرحها نقاشا يستوفى ضروراته، وكان قبولها لاحتمالات الصواب والخطأ تجربة تؤكد أو تعدل أو تنفى.

فى العصور الحديثة، ومع «العولمة» خصوصا، فإنه حتى النظريات السياسية والاجتماعية أصبحت «موضات» إعلام يبحث عن أى جديد، فى الأفكار، كما فى الأزياء، كما فى التغذية، كما فى الأدوية، وحتى فى الحياة داخل غرف النوم.

وفى السنوات الأخيرة توالت الصيحات النظرية عن: «نهاية التاريخ» لـ«فوكوياما» - و«صراع الحضارات» لـ«هنتنجتون» - والآن «الطريق الثالث» لـ«جيدنز».

وكل تلك النظريات تحمل جديدا وتنقل مع الرياح بذور لقاح لزهر يتفتح، وأصحابها لهم فضل الاجتهاد، لكن الاجتهاد أنفع ما يكون بعيدا عن «الموضات» متأنياً - أهدأ من إيقاع الإعلام صفحات تتوالى أو صورا لها ومض البرق! وفى كل الأحوال فإن العصور الحديثة لا تزال حتى هذه اللحظة فى حاجة إلى توصيف جديد، وفى حاجة إلى استشراف أكثر إحاطة.

وفى يوم من أيام الخمسينات أحس رئيس الوزراء البريطانى أن فيلسوفه «هارولد لاسكى» لا يكف عن الفتوى - وكان أن اضطر «الأمير» أن يقول لـ «مثقفه»: «هارولد... سوف نكون جميعا شاكرين لفضلك لو أعطيتنا فترة من الصمت»!

ربما يصل «بلير» و«كلينتون» - و«هيلارى» أيضا - إلى إعادة نفس القول مرة أخرى على «أنتونى جيدنز»!

....

....

ربما كان مناسبا أن أشير إلى أن «ريت» الذى يحمل موسم المحاضرات السنوية لهيئة الإذاعة البريطانية ـ اسمه هو الرجل الذى استطاع بعد نهاية الحرب العالمية الثانية أن يعطى لهذه الهيئة مكانتها واحترامها واستقلالها على نحو يكاد يكون كاملا عن الحكومة فيما يتعلق بالإذاعات الداخلية.

أما فى شأن الإذاعات الخارجية فإن حكومة العمال بعد الحرب العالمية الثانية عقدت مع هيئة الإذاعة البريطانية اتفاقا لإنشاء ما يسمى بـ«الإذاعة العالمية»، وهى تشمل برامج موجهة بكل اللغات إلى عدد من المناطق توليها السياسة البريطانية أهمية خاصة.

وفى هذا الاتفاق فإن «ريت» حاول أن تكون الحدود واضحة بين المطالب السياسية وبين الضرورات المهنية لمستوى هيئة الإذاعة البريطانية.

وبمقتضى ذلك فإن الحكومة البريطانية تُمَوِّل الإذاعات المُوَجَّهة إلى مناطق تهمها، ويتم التمويل خصما من اعتمادات إدارة المخابرات السرية «م. ٦» باعتبار أن الإعلام الخارجى مطلوب بالدرجة الأولى للأمن القومى، ولأنه أمن قومى سياسى فإنه يتبع وزارة الخارجية. وهكذا فإن مكتب وزير الخارجية هو الذى يقوم بتحويل الاعتمادات من إدارة المخابرات السرية إلى هيئة الإذاعة البريطانية، ثم يكون الإتفاق بين مكتب وزير الخارجية وإدارة الإذاعات الخارجية على خطوط عريضة للتوجيه السياسى وفى الحدود المطلوبة.

وهنا فإنه من الغريب أن المستمع لبرامج هيئة الإذاعة البريطانية باللغة العربية ـ وهى واحدة من الإذاعات العالمية المُوَجَّهة ـ لا يعرف أن المخابرات السرية البريطانية «م. ٦» هى التى تُمَوِّلها.

لكن الأغرب أن الكفاءات المهنية تعطى لهذه الإذاعة قدرا من المصداقية يتفوق على كل محطات الإذاعة المحلية الرازحة تحت سلطات دول لا تعرف الحدود بين مطالب السياسة وأصول المهنة!

الثلاثاء

نهار مزدحم. لكننى فى المساء ذهبت إلى المسرح الملكى لأشاهد رواية يعاد إنتاجها الآن تحت اسم «سجين الشارع الثانى».

قصة الرواية تجرى وقائعها فى شقة فى عمارة فى الشارع الثانى لمدينة نيويورك.

فكرة المسرحية تدور حول علاقة الملل بين زوج وزوجته من رتابة الحياة كل يوم، ويزيد على الملل إحساس لدى الزوج الراغب فى أن يكون «السَيِّد» فى بيته - بعدم الأمان فى عمله لأنه يَتَصَوَّر أن شركته على وشك الاستغناء عنه ضمن غيره توفيرا للنفقات فى ظرف أزمة.

وتتوالى المواقف حتى يجد الزوج نفسه عاطلا عن العمل، ولكن زوجته الذكية تجد لنفسها عملا وتصبح هى «سيد البيت»، وتنقلب الآية.

رفيقى فى مشاهدة المسرحية يذكرنى بأن فكرة المسرحية تعود إلى أيام خلت كان شبح البطالة فيها يطل كئيبا على المجتمع الأمريكى - وغيره - لكننا الآن - هكذا قال لى رفيقى - «فى عصر التشغيل الكامل، وذلك ما نجح فيه كلينتون».

تذكرت تقريرا قرأته عن «العولمة» فى الزمن الإليكترونى الذى طلع فجره فعلا. التقرير يقول أنه مع سنة ٢٠١٠ - فإن تدوير حركة الاقتصاد العالمى سوف يحتاج إلى عشرين فى المائة فقط من حجم قوة العمل المعروضة على السوق يومئذ.

أى أن ثمانين فى المائة من سكان العالم سوف يكونون فى وضع الزوج فى المسرحية.

ثم أن عشرين فى المائة فيهم فقط سوف يكونون مع الزوجة فى طاعة ألف شركة «معولمة» تملك وحدها من الآن نصف إنتاج العالم!

الثلاثاء

ليلا

عدت إلى فندق «كلاريدج» - وإذا المدخل زحام والصالة الداخلية مليئة برجال لا يمكن إخفاء هويتهم. هناك شيخ خليجى - كما علمت - نزل هنا. وعلى حد علمى فإن مشايخ الخليج يفضلون - فى العادة - فنادق أكثر طراوة وحلاوة من هذا الفندق الوقور إلى حد التَزَمُّت. لكن الضيف فى زيارة رسمية، والحكومة البريطانية هى التى اختارت له.

هوية الحرس الأمنية الظاهرة تنطق أيضا بلفحة سمرة من نواحينا. عددهم غير طبيعى. قرابة عشرين على الأقل.

تذكرت مرة كنت عائدا فيها إلى الفندق ولمحت رجل بوليس إنجليزيا ـ واحدا!ـ يقطع المسافة من الباب إلى حافة السور عند شارع «ديفيز». استغربت وجود رجل بوليس ليس له فى العادة مكان. دخلت فسألت رئيس البهو «جون سبار»، وهو رَجُلٌ خَدَمَ فى موقعه أكثر من أربعين سنة، وطالت خبرته وحنكته فيه، وأصبح فى زِيِّه الرسمى المهيب رمزا مشهورا لبقية باقية من التقاليد الإنجليزية.

سألته وتردد. ثم أحس أنه يستطيع أن يطمئن إلىّ فترك مكانه ـ وراء مكتبه العالى الذى يقف دائما وراءه يؤدى وظيفته ـ ثم اقترب «سبار» منى وهمس بصوت خفيض: «لكى أكون صادقا معك يا سيدى فالحقيقة هى....»

ثم تنحنح ونزل بصوته إلى طبقة الهمس:

«الحقيقة يا سيدى... هى أن الملكة قادمة للعشاء هنا بعد قليل»!!

....

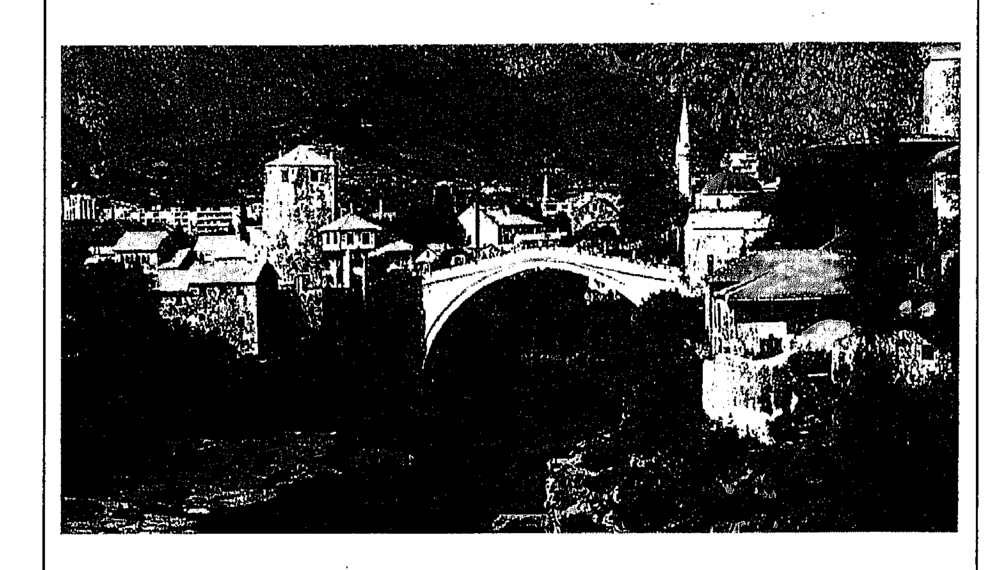
....

□ □ □

وَصَلَت المساحة المتاحة لهذا الحديث إلى نهايتها..

ولم تَصِل «خواطر مسافر» إلا لليوم الرابع من حكاياتها وتأملاتها..

وربما أن ذلك فيه كفاية!



بقايا يوجوسلافيا

من البوسنة إلى كوسوفو
ومن الأساطير إلى الصواريخ



بقايا يوجوسلافيا(*)

من البوسنة إلى كوسوفو

ومن الأساطير إلى الصواريخ

١ ـ اللورد الإنجليزى الذى واجه الأزمة ولم تطاوعه مفاتيحها

فى الساعة الثالثة بعد الظهر تماما كنت أصعد الدرجات الخمسة المؤدية إلى باب البيت رقم ٢٠ فى منطقة «بوابة الملكة آن» لموعد رَتَّبته مفتوحا وطويلا مع اللورد «دافيد أوين» الذى كان لسنوات طويلة وزيرا للخارجية البريطانية، ثم ترك الوزارة ليشارك فى إنشاء حزب ثالث فى بريطانيا يخرج من تحت عباءة حزب «العمال»، لكى يساير عصورا جديدة تحت اسم «الاشتراكيين الديمقراطيين»، لكن تجربة هذا الحزب لم تحقق ما كان مطلوباً منها من إنشاء «تَجَمُّع عريض للوَسَط» يملأ المسافة بين حزب العمال وحزب المحافظين وأفكارهما المتباعدة والتى تنتمى برغم مسافات بينها، إلى مناخ تغيرت طبائعه، وهو مناخ الاستقطاب الاجتماعى الذى أعقب الحرب العالمية الثانية.

كان هناك ثلاثة فرسان من حزب «العمال» يحلمون بهذا الوسط المأمول، وهم: «رُوىْ جنكينز» و«باربرة كاسل» و«دافيد أوين». وعندما لم يتحقق لهم ما أملوا فيه فإن الفرسان الثلاثة تبعثروا: «رُوىْ جنكينز» ذهب مُفَوَّضاً إلى السوق الأوروبية، و«باربرة كاسل» آثرت العُزلة، ولكن الفارس الثالث «دافيد أوين» لم يستطع أن يبتعد عن السياسة، بل ظل يحوم حولها نَسْراً وحيداً مُحلِّقاً طول الوقت، لا يعرف لنفسه شجرة يبنى عليها عُشّاً يتسع له، أو حافة جَبَل يَحُطُّ فوقها. وفى وقت من الأوقات فَكَّرَت «مارجريت تاتشر» أن تطلبه وزيرا معها رغم أصوله العمالية ـ أو رغم «سوابقه» العمالية ـ كما يحلو لـ«مارجريت تاتشر» أن تقول. لكن الفكرة راحت سَهماً طاش فى الفضاء، وظل «دافيد أوين» يحوم فى الأجواء لا يقر له قرار. والحقيقة أن كثيرين كانوا يرون مواهبه وقدراته لكنهم لا يعرفون

(*) يوليـة ١٩٩٩.

كيف يتعاملون معها، أو - بمعنى أدق - كيف يستخدمونها، لأن «دافيد أوين» نجح فى أن يجعل من نفسه شخصية من نوع خاص فى السياسة البريطانية تَجمَع بين الشباب (النِسبى) والحيوية (غير المحدودة) والقدرة على استيعاب المشاكل مصحوبة بصلابة تَقدِر على الحَسْم (إلى درجة التسلُّط أحيانا).

ثم جاء اليوم الذى وافق فيه رئيس الوزراء البريطانى السابق «جون ماجور» على اقتراح من قُطب المحافظين الشهير (ووزير الخارجية الأسبق) اللورد «بيتر كارِنجتون» بأن تسعى الحكومة البريطانية إلى ترشيح اللورد «دافيد أوين» ممثلا للمجموعة الأوروبية فى المحاولات الجارية لحل الأزمات الناشبة فى البلقان، والناشئة من انفراط يوجوسلافيا السابقة، والواصلة إلى حدود الحرب على نطاق يتسع يوما بعد يوم، من حروب أهلية داخل عدد من جمهوريات يوجوسلافيا، إلى حروب وطنية وعنصرية بين بعض هذه الجمهوريات وبعضها الآخر، إلى حروب إقليمية مع دول مجاورة لما كان فى يوم من الأيام دولة واحدة اسمها يوجوسلافيا.

وقَبِلَت المجموعة الأوروبية ترشيح اللورد «دافيد أوين» فانضم إلى زميله السابق «سَيْروس فانس» - الذى كان وزيرا للخارجية الأمريكية فى إدارة «جيمى كارتر»، ثم أختير ممثلا للأمم المتحدة فى يوجوسلافيا - وراح الاثنان، وهما من أقدر الدبلوماسيين فى العالم الغربى، يُجرِّبان فى البلقان.

ولم يكن «أوين» و«فانس» وحدهما فى التجربة، وإنما كان معهما آخرون يحاولون بصفات متنوعة، وبينهم «روبرت دول» عضو مجلس الشيوخ الأمريكى والمرشح لرئاسة الولايات المتحدة، و«ثورفالد ستولتنبرج» وزير خارجية السويد السابق، و«كوفى عنان» السكرتير العام الحالى للأمم المتحدة، وغيرهم كثيرون.

وعندما فشلت كل الجهود فى احتواء موقف شديد الخطورة (يوجوسلافيا) فى موقع شديد الخطورة (البلقان) - فإن طاقم السياسيين القدامى كله ابتعد عن الساحة وتركها للمحاربين على كل الأشكال والأجناس: من «ميلوسوفيتش» إلى «كاراديتش»، ومن «مادلين أولبرايت» إلى «روبين كوك»، ومن جنرالات حلف الأطلنطى إلى قادة المقاومة فى جيش «كوسوفو» السرى.

وراحت الدماء تتدفق سيلاً يختلط بالرماد الناشئ عن الحرائق، ويصنع وحلاً يبدو من بعيد بُقعة هائلة من العَذاب تُلطِّخ خريطة جنوب شرق أوروبا.

وأمام هذا المشهد المُروِّع تراجع «دافيد أوين»، كما تراجع آخرون غيره، وقد آثر هو أن يعود إلى مكتبه فى هذا الموقع الأجمل فى قلب العاصمة البريطانية: حدائق «سان جيمس» تمتد أمامه، والممشى الشاعرى الذى يقود إلى ضفة «التيمز» الشرقية يعبر من قربه، ومبانى «وستمنستر» تظهر من نوافذه الخلفية، ودقات ساعة «بيج بن» تصل إليه من بعيد مسموعة كصدى يذكر باستمرار الزمان قبل وبعد كل الأزمات، وقبل وبعد كل الناس، وقبل وبعد كل الطموحات المتحققة أو الضائعة.

□ □ □

دقت جرس الباب، وفَتَحَتْه «ماجى سمارت» سكرتيرة اللورد «أوين»، ودخلت إلى الردهة، وكان خارجا يلاقينى، ودخلنا إلى غرفته. وكان هناك بقرب المكتب وأمام المدفأة مجلس صغير يتقابل فيه مِقعدان مريحان بينهما مائدة عليها إناء قهوة وفنجانان وطبق صغير فيه أربع قطع من البسكويت.

وقال «دافيد أوين» وكلانا يتخذ مقعده:

«دِبى (زوجته الأمريكية) لم تكن تعرف «أنكما» فى لندن وقد اقترَحَت أن نلتقى بعيدا عن هموم يوجوسلافيا على غداء أو عشاء قبل أن «تغادرا».

ثم استدرك:

«إلى أين أنت ذاهب من هنا؟»

وقلت:

«جولة سريعة فى أوروبا، ثم عودة إلى القاهرة».

ودون أن يُرَتِّب أيُّنا مَدْخَلاً إلى موضوع لقائنا ـ كنا بالفِعْل هناك عند مَدْخَلٍ طبيعى، فقد سألنى «دافيد أوين»:

«كنت أريد أن أعرف، هل القاهرة مُهتَمّة بما يجرى فى يوجوسلافيا؟»

ثم إستدرك ربما كى يتجنب الإحراج موجها ومباشرا (!):

«دعنى أعَدِّل سؤالى: هل العالم العربى مُهتَم بما يجرى فى يوجوسلافيا؟»

ثم استطرد:

«فى يوم من الأيام كانت للعرب علاقة خاصة مع يوجوسلافيا ـ وكذلك مع الهند. أليس كذلك؟»

ومضى «دافيد أوين» يقول: «لم أستطع قياس مدى اهتمامكم طول الفترة التى اقتربْت فيها من الأزمة فى البلقان ـ لكنه كان يخطر ببالى كثيرا أن علاقاتكم مع يوجوسلافيا علاقة قوية... وأعرف أن أيام سياسة عدم الانحياز التى قادها «تيتو» و«ناصر» و«نهرو» فى الخمسينات والستينات تغيرت عليها الأزمنة، لكنى كنت أظن أن قرب البلقان من مسرح الشرق الأوسط يدعوكم إلى «اقتراب نشيط وفاعل» من الأزمة فى يوجوسلافيا، وقد استغربت أننى لم أجد شاهدا يؤكد ما ظننت، ومع ذلك فلا أستطيع أن أجزم بشىء، وإنما أفضل أن أسمعك.. ما هى درجة الاهتمام فى العالم العربى بما يجرى فوق رؤوسهم مباشرة فى البلقان؟»

وقلت، وكان ذلك أول دورى فى حوار اتصل ثلاث ساعات كاملة:

«الحقيقة أننى مثلك لا أعرف.

بالنسبة للحكومات العربية لا يبدو لى أن أزمة ـ أو أزمات البلقان ـ لها مكان فى اهتماماتها، وإذا كان لها مكان على جدول الأعمال فأظن أنه فى نهاية القائمة أو قرب نهايتها.

وأما بالنسبة للشعوب العربية فظنى أن هناك قدرا من المتابعة ولكنه يصدر عن درجات من العاطفة الملتبسة دينياً وإنسانياً، وربما ـ ومن بعيد ـ تاريخياً أيضاً»!

ثم قلت: «على أننى إذا أردت أن أكون مُنصِفاً فإن القضية ـ قضية يوجوسلافيا أو ما تَبَقّى منها، وما هو جار فى البلقان حولها ـ يبدو أمام الجميع ـ الحكومات العربية والشعوب العربية ـ شيئا أقرب إلى الألغاز المستعصية على الفَهْم. كان الفهم يحتاج إلى جُهد كبير وإلى صَبر أكبر. وبين مطالب الفهم والجُهد والصَبر آثر الكل أن يريحوا عقولهم وأعصابهم: يُتابِعون على نحو ما سيلا من الأخبار ومعظمه من مصادر غربية، أمريكية بالتحديد، ثم يتعاطفون مع شرائط لا نهاية لها، معظمها على التليفزيون ـ وكلها ـ من العَدَسة إلى الشاشة ـ غربية، أمريكية بالتحديد.

....

....

ولم أشــأ أن أترك المَداخِل تُعَطِّلنا بأبعد من مداها الطبيعى، فقلت: «على أى حال نحن جميعا لم نكن هناك ـ ولكن أنت كنت، وأنت رأيت، وأنت تعاملت، وأنت قضيت سنوات عند فوهة البركان ورأيت ألسنة ناره أو أحسست لهيبها»!

□ □ □

راح «دافيد أوين» يَصُب فنجانين من القهوة، وَضَعَ أحدهما على ناحيتى، وبدا لى أن ملء الفناجين ليس شاغله، وإنما القصد لحظة يعطيها لنفسه يختار فيها نقطة بداية لكلامه.

وعاد «دافيد أوين» إلى مقعده، وقارب ما بين ساعديه وألصق كفَّيْه أحدهما بالآخر، وأسند ذقنه عليهما، ثم بدأ يقول بصوت خفيض:

«لم أكن أتصور أن الأزمة مُعقَّدة بهذا الشكل عندما رَضيتُ بالاقتراب منها. كنت أعرف أنها مُعقَّدة ولكنها ـ مثل كل عُقدة ـ تستطيع عند نهاية النَّفَق المُظلِم أن تجد شعاع ضوءٍ فى انتظارها.

وقد شاركت فى البحث عن ضوء فى نهاية النَّفَق. ولم أُوَفَّق ولم يُوَفَّق غيرى. وفى النهاية أو بقربها كنا جميعا لا نسعى وراء تسوية عادلة، ولكننا كنا نبحث عن تسوية فقط، أما كونها عادلة فقد أدركنا جميعا أن العدل مستحيل لأنه لا يوجد قانون، وإذا وُجِد القانون فنصوص مواده مكتوبة بالدم».

وتوقف «دافيد أوين» يسألنى:

«هل تتابعنى؟ إننى لا أريد أن «أغرقك» فى التعبيرات والأوصاف الغائمة، ولكن الكلمات البسيطة لا تستطيع أن تنطق بالواقع المُركَّب لطبائع الأزمة...

كنت أتصور أننى أعرف يوجوسلافيا بتجربة لا أنساها فى الصِبا ـ وكذلك من مصادر عديدة بينها تجربة وزارة الخارجية».

....

....

كانت تجربة الصِبا التى قصدها اللورد «أوين» هى فترة الإرتحال (لاستكشاف العالم والناس) ـ وهى مَطلوب شِبه ضرورى من كل دارس فى الجامعات البريطانية الكبرى ـ

وكان «دافيد أوين» قد اختار أن يذهب إلى يوجوسلافيا مسافرا بالدَرَّاجة. وكان رفيقه فى هذه الرحلة بالدَرَّاجة صديقه القديم «بيتر جاى»، وكان «بيتر» هو الذى قَدَّم «دافيد أوين» إلى حَميه رئيس الوزراء - الأسبق - «جيم كالاهان». وقد أعجب «كالاهان» بـ«دافيد أوين» واختاره وزيرا للخارجية. وفى ذلك الوقت كان «بيتر جاى» - المُتَزَوِّج من «مارجريت» - ابنة رئيس الوزراء «كالاهان» - قد عُيِّن سفيرا فى الولايات المتحدة الأمريكية. ومن المفارقات بعد ذلك أن «دافيد أوين» كوزير للخارجية هو الذى أوصى بنقل «بيتر جاى» وزوجته - ابنة «كالاهان» - من السفارة فى واشنطن لأنها وهى زوجة السفير وقعت فى غرام «كارل برنشتين» المُحَرِّر فى الـ«واشنطن بوست»، وهَجَرَت بيت (أو سفارة) الزوجية واختفت شهورا مع «برنشتين». وفى نفس الوقت - ولذات السبب طبقا لروايته - فإن السفير (بيتر جاى) وقع فى غرام مُرَبِّية الأولاد (ثلاثة: بنتان وولد واحد) وأنجب منها (والكل صحبة فى قصر السفارة بواشنطن) طفلة غير شرعية!

....

....

[«مارجريت» - ابنة رئيس الوزراء السابق «جيم كالاهان» - هى الآن البارونة «جاى أوف بادنجتون»، وهى تشغل منصب وزيرة الشئون الاجتماعية فى وزارة «تونى بلير». وأما زوجها «بيتر جاى» - فقد اختفى من الصورة العامة، ويظهر أنه أدمن الشراب وضاع منه عمره، وابتعد عن رِفاقِه، بما فيهم رفيق رحلة الصِبا إلى يوجوسلافيا بالدَرّاجة: «دافيد أوين»]!

....

....

وكان صوت «دافيد أوين» ما زال يصل إلى سمعى خفيضا يتحدث عن تجربته اللاحقة - سياسيا وليس راكب دَرّاجة - فى يوجوسلافيا، وإنتقل الآن ليقول:

«تَذْكُر أن بريطانيا شاركت فى الحرب العالمية الأولى بسبب صراعات البلقان. دخلنا تلك الحرب بعد اغتيال ولىّ عهد النمسا فى سيراييفو (عاصمة البوسنة) فى خِضَمّ صراع بين مملكة الصِرب والإمبراطورية النمساوية الهنجارية. النمسا أعلنت الحرب على مملكة الصِرب بعد اغتيال ولىّ عهدها، وروسيا دخلت وراء مملكة الصِرب، وقررت ألمانيا دخول

الحرب وراء النمسا، فى حين أننا نحن (بريطانيا ومعها فرنسا) دخلنا لمساندة صربيا وروسيا.

ملفات الخارجية البريطانية فى اعتقادى تحتفظ بأكمل «أرشيف» معلومات عن البلقان، لكنى اكتشفت أن كل ما قرأت وما عرفت عن يوجوسلافيا لم يكن كافيا... لم يكن كافيا على الإطلاق»!

□ □ □

بدأت نبرة اللورد «دافيد أوين» تتصاعد على طبقات صوته عندما بدأ يدخل بحديثه إلى قلب الموضوع. كانت تعبيراته ما زالت تعبيرات الدبلوماسى الذى صقلته التجارب، لكن نبرته زاد عليها يقين رجل عاش أزمة تركت آثارها عليه حتى وإن لم يكن هو قد ترك أثرا على الأزمة.

قال «دافيد أوين»:

«أراك استغربت قولى أننا ـ «سَيروس فانس» وأنا ـ توصلنا فى النهاية إلى أن الممكن الوحيد أمامنا ليس الوصول إلى تسوية عادلة وإنما الوصول إلى تسوية (وفقط!)

لقد كانت الملامح الرئيسية فى الصورة التى وجدناها عند تكليفنا (من المجموعة الأوروبية ومن الأمم المتحدة) ـ بمهمة يوجوسلافيا ـ عميقة ومتنافرة:

«يوجوسلافيا كما تعرف ـ ولا أريد أن أعطلك بتفاصيل كثيرة ـ تركيبة إنسانية مُعقَّدة، وكانت دولة محصورة أو محاصرة فى إطار شبه حديدى تصور بعضهم ـ وبينهم صديقكم «تيتو» ـ أنه يقدر ـ مع تجربة العيش المشترك ـ على مَنْح الكل فرصة للذوبان فى فكرة وطن واحد يحرص عليه الجميع بمقدار ما يحرص هو (الوطن الواحد) على الجميع.

كان احتمال انفراط يوجوسلافيا شَبَحاً يحوم فى أجواء أوروبا الشرقية، وكان هناك كثيرون يحاولون إبعاده خوفاً من أن انفراط يوجوسلافيا قد يؤدى إلى انفراط غيرها من دول لها نفس التركيبة التى تجمع عناصر عرقية وطائفية وثقافية متباعدة وإن لَفَّتها خطوط حدود سياسية ودولية واحدة!

ومَثَلاً فقد قال لى «جورباتشوف» أنه أثناء رئاسته للاتحاد السوفيتى كان مذعورا مما يُحتَمَل أن يقع ليوجوسلافيا، ولم تكن يوجوسلافيا فى حد ذاتها هاجسه، ولكن تأثير ما يمكن أن يحدث فيها على الاتحاد السوفيتى كان هو الذى يؤرقه.

ثم كان أن انفرط الاتحاد السوفيتي أولا - وأصبح انفراط يوجوسلافيا مسألة وقت يقاس بالأيام وليس بالسنين - وذلك ما حدث».

«لعلك تلاحظ أن الانفراط اليوجوسلافى فَتَح الأبواب لمعارك بالنار متوالية: الصرب ضد السلوفينيين والكروات، وكان ذلك قتالاً من أجل الاستقلال القومى. ثم معركة فى البوسنة والهرسك بين الحكومة المركزية فى بلجراد وبين الحكومة المحلية فى سيراييفو، وكانت تلك معركة تأكيد سيادة. ثم انفجرت بعد ذلك معركة إضافية بين صرب البوسنة ومُسْلِمى البوسنة، وهذه كانت حربا دينية لأن مُسْلِمى البوسنة (البوشناق) سْلاف مثل الصرب تماما - وأخيرا كنا جميعا نضع أيدينا على قلوبنا خشية وصول القتال إلى كوسوفو لأن العوامل الفاعلة فيها دينية وعرقية ووطنية - ثم إن كوسوفو جُغرافياً أهم المداخل إلى قلب يوجوسلافيا».

«فى كل هذا المسلسل المتواصل من الحروب تَبَدَّت أمامنا ظاهرة طغت على كل ما عداها، ففى معظم الأزمات التى عرفتها البشرية يلعب التاريخ دورا كبيرا فى دعاوى الأطراف المتنازعة وفى نشأة ومسار الصراعات بينها - والعادة أن التاريخ هو خلفية أى أزمة - لكن الذى وجدناه فى يوجوسلافيا هو أن التاريخ واجهة الأزمة، وهذه حالة مُعقَّدة. فى حالة يوجوسلافيا لم يكن التاريخ هو ما جرى فى الماضى، ولكن التاريخ فى حالة يوجوسلافيا كان نفسه، بذاته وصفاته - هو الحاضر الذى يواجهنا.

وفى هذه الحالة فإن أى عملية تفاوض من أجل التسوية لا تستطيع أن تجد لنفسها نقطة بداية».

«تعرف أنه فى المفاوضات فإن كل طرف مهتم، بما فى ذلك أى وسيط - يسعى إلى بلورة «رؤية تفاوضية»، فإذا لم تكن لأزمة من الأزمات بداية ونهاية، أى تاريخ مضى يليه واقع راهن، فإن أى رؤية تفاوضية تصبح بالضرورة مشوشة.

وهنا تكون محاولة أى مفاوض أن يبنى رؤية للتفاوض على مسئوليته مُتَصَوِّراً أنها الأكثر مُلاءَمة، لكن «التَصَوُّر» لا يكفى هنا إذا كنا مطالبين أن نتفاوض قبل أى شىء مع التاريخ نفسه.

أن نتفاوض مع التاريخ معناه أننا نتفاوض مع الأموات، مع القبور، مع معارك وحروب وأزمات نشأت وتشابكت وسبقت وجودنا، ثم نكتشف أن التاريخ ذاته مستدعى ومستنفر لمعركة الحاضر. لعل الفرصة أتيحت لك لتسمع خطابات التحريض من ساسة أمثال

«كاراديتش» و«ميلوسوفيتش» وحتى «بيجوفيتش» ـ هذا غير الجنرالات الذين تحولوا مرة واحدة إلى فرسان أساطير، ومُنشِدى ملاحم، وحَمَلة طقوس ورموز من كل نوع»!

«فى هذا كله كانت هناك حقيقة ليس فى مقدور أحد إنكارها إلا بخطأ فى الحساب قاتل، وتلك أن الجيش الصربى ـ الجيش اليوجوسلافى السابق ـ هو أقوى سلاح على أرض البلاد، وذلك جيش ضاعت منه حدود الدولة التى كان يعرفها ويخدمها، وقد استيقظ ذات صباح فإذا الأمن القومى فى الداخل وليس على الحدود، والخطر قادِم من عناصر لا يعرف ـ الجيش ـ إذا كان واجبه حمايتها أو واجبه ضربها، وَتَرَتَّب على ذلك أنه لضمان ولاء الجيش وتماسك كتلة ما فى وسطه ـ فإن تعبِئته سياسياً لا بد أن تبلغ حَدّ الذروة، وهذه حالة نفسية مخيفة لجيش يملك أكبر طاقة نيران على الأرض»!

«أضف إلى هذا كله تداخلات الجوار حول يوجوسلافيا، ثم مطالب القوى الدولية الكبرى وبعضها مباشر وبعضها غير مباشر».

....

....

توقف «دافيد أوين» لحظة عن الكلام واكتشف أن فنجان قهوته برد قبل أن يلامس شفتيه، وقام بنفسه إلى حَمّام مجاور يتخلص من قهوته الباردة ويعود بفنجانه يملؤه مرة أخرى بقهوة ساخنة.

....

....

ثم يستكمل «دافيد أوين»:

«أنت تعرف مثلا أن كل استعمال للقوة تمهيد للتفاوض، ثم إن المدى الذى تصل إليه القوة هو البداية التى يبدأ منها التفاوض.

وفى الحالة اليوجوسلافية لم تكن هناك علاقة واضحة بين «القوة» و«التفاوض» لأن القوة كانت فى حالة سيولة تحولت معها الخطوط إلى بُقَع على الخريطة... أحيانا إلى نقط وليس بُقع.

....

....

وأنت تعرف مثلا أن كل تفاوض يستلزم وجود أطراف لها شرعية إجرائه لكى يكون ملزما، لكن المعضلة أن تكون مفاوضا مع التاريخ نفسه والسلاح حاضر، ومع الأساطير القديمة لكنها الآن تَسْتَعْمِل مُفْرَدات سياسية مُعاصِرة.

... فى مثل هذه الأحوال فإنه لم يكن فى وسْع أى وسيط دولى أن يعثر فى كثير من الأحيان على طرف إنسانى مسئول له شرعية التفاوض ويتحمل مسئوليته على المائدة وبعدها!

....

....

وأنت تعرف مثلا أن التفاوض يبدأ من حقائق الواقع وليس بالضرورة من مبادئ القانون، فإذا كان الواقع ما رأينا ونرى جميعا فى يوجوسلافيا ـ فمن أين نبدأ؟

لم يكن فى مقدور أحد فى مثل تلك الظروف أن يتوصل إلى توصيف أو حتى تصور لحقائق الواقع.

لم تكن هناك حقائق قادرة على فرض نفسها، ولم يكن هناك واقع يفرض الاعتراف به على الآخرين»!

□ □ □

وفجأة وبتداع فى الأفكار يمكن استنتاج سياقه قال «دافيد أوين»:

«هل تعرف أننى عندما زدت معرفة بيوجوسلافيا زاد إعجابى بـ«تيتو»؟

إننى لم أقابله، ولكنك عرفته عن قرب، ولابد أنه كان شخصية ضخمة؟

واستطرد «أوين»:

«نسيت أن أقول لك أننى قرأت حديثك الطويل معه فى الـ «صنداى تيمس».

كان ذلك ـ كما أظن ـ آخر حديث أجراه «تيتو» فى حياته».

وقلت لـ«دافيد أوين»:

«صحيح. فهذا الحديث الذى أجريته مع ذلك الزعيم الأسطورى الذى جعل من

يوجوسلافيا قوة مرموقة فى عصره ـ نُشِر قبل وفاته بعِدَّة شهور وأثار فى وقته أصداء واسعة، وهو الآن ـ بنظرة سريعة على سطوره ـ يبدو وكأنه نبوءة عَرَّافة «أدلفى» التى تروى الأساطير اليونانية قصصاً شبه خرافية عن قدرتها على وصف المستقبل وكأنها تراه»!

٢ ـ الماريشال الشيوعى الذى حاول منع الانفجار وعَطله ـ على أمل!

كان ذلك الحديث مع «تيتو» ـ والذى جاء أشبه بنبوءة عرافة «أدلفى» منه بحديث صحفى ـ قد نُشِر فى الـ«صنداى تيمس» (عدد ٢ مارس ١٩٨٠)، وقد رأى رئيس تحريرها فى ذلك الوقت «هارى إيفانز» أن يُخَصِّص له الصفحة الأولى من الملحق الأسبوعى بكاملها.

وفى حقيقة الأمر فإن الفكرة أصلاً كانت من «هارى إيفانز» الذى تصَوَّر أن يكون هذا الحديث «كلمة تيتو الأخيرة» ـ وكنا نعرف جميعا ـ كما يعرف العالم ـ أن الزعيم اليوجوسلافى الأسطورى مريض، ثم إنه مُكتَئِب بعد انفصاله عن زوجته ـ حبيبته ورفيقة كفاحه ـ «جيوفانكا»!

وكان تقدير «هارى إيفانز» أنه لو طلبت الـ«صنداى تيمس» موعدا لأى من محرريها ـ فإنه من المشكوك فيه أن يستجيب «تيتو» ـ وكان رهان «إيفانز» أنه إذا كان الموعد لى فإن «تيتو» يُحتَمَل أن يوافق على أساس معرفة قديمة بدأت أيام صداقته التاريخية مع «جمال عبد الناصر» وتواصلت من بعده. وكسب «إيفانز» رهانه، فقد قَبِلَ «تيتو» وإن كان عتابه قبل بداية أى كلام «إبداء استغرابه أن الـ«صنداى تيمس» هى التى طلبت الموعد وكان الأَوْلى أن أكون طالبه». وحاوَلْت أن أشرح الاعتبارات المهنية التى تلتزمها الصحف العالمية فى إجراء أحاديثها مع الصفوة من رؤساء الدول. وكان الرجل كريماً ـ على الأقل لأنه غَيَّر السِياق وإنتقل عائداً إلى ذكرياته عندما قابلته أول مرة فى مطلع الخمسينات وحضرت معه احتفالاته واحتفالات مقاتليه القدامى بيوم معركة «سوتيسكا» عندما كَسَرَت قواته حصار جيوش «هتلر» حولها فى جبال كرواتيا، وأفلت هو («تيتو») وأفلت رجاله من فَخٍّ نازى مؤكد، ثم عادوا للقتال من جديد.

لكن كلام الذكريات استنفد نفسه بسرعة وربما أن الرئيس «تيتو» أحس أن المستقبل هاجس الـ«صنداى تيمس» فى طلب المقابلة وهاجسى أيضا ـ وهكذا عاد الحديث إلى مجراه

المقصود متوجهاً إلى المستقبل. وفى الحقيقة، وكما يظهر لى الآن وصورة الحديث أمامى، فإن المستقبل عاد ليصبح هو التاريخ - مصداقاً لتقدير اللورد «دافيد أوين» بعد قرابة عشرين عاما من وفاة «تيتو».

□ □ □

لسبب ما لا أذكره الآن كان «هارى إيفانز» رئيس تحرير الـ«صنداى تيمس» هو الذى إختار عنوان الحديث مع «تيتو»، وأظن أن ذلك كان حقه ما دام قد اختاره موضوعا يملأ الصفحة الأولى لجريدته بكاملها.

وكان العنوان الذى اختاره «هارى إيفانز» إلى جانب صورة كبيرة بعرض ثلاثة أعمدة وإرتفاع ثلاثين سنتيمترا لوجه «تيتو» - يقول: «أفكار المساء لبُلبُل مُحاصَر». وبَدا لى العنوان غريباً، ولكنه كان استيحاء لعبارة وردت فى الحديث استخدم فيها «تيتو» مثلاً شعبياً ذائعاً فى يوجوسلافيا يقول: «إن غناء بُلبُل واحد ليس كافيا لاستدعاء الربيع»!

وكان العنوان شاعرياً، ولكن الحديث لم يكن كذلك.

ولعل لمسة الشاعرية الوحيدة فى الحديث كانت اتصاله بالمكان الذى جرى فيه اللقاء، وهو جزيرة «فانجا».

....

....

وكان «تيتو» دائما - وخصوصا فى سنواته الأخيرة - يُفضِّل أن يعيش بعيداً عن العاصمة بلجراد (أو «بيوجراد» أى: المدينة البيضاء) - مستقرا فى جزيرة «بريونى»، وهى واحدة من أحلى الجُزُر عند الطرف الشمالى لساحل البحر الأدرياتيكى، والمنطقة كلها جميلة، وهى قلب الشاطئ الشهير المعروف باسم شاطئ «دالماسيا» وكان المصيف المُفضَّل لكل قياصرة الإمبراطورية النمساوية الهنجارية، وكان مرتع الجمال والعِز والأبهة حين تُحِب العروش وتعشق، وحين ترقص التيجان وتُغَنِّى.

لكن «تيتو» وجد أن «بريونى» تزدحم يوما بعد يوم سواء بوجوده فيها كعاصمة غير رسمية ليوجوسلافيا، أو بقربها من ميناء «بولا» على الساحل اليوجوسلافى - وهكذا راح ينسحب بهدوء من «بريونى» إلى جزيرة صغيرة شبه ملاصقة لها هى جزيرة «فانجا»،

وقد حَوَّلها «تيتو» إلى جَنّة من ورد وزهر، وبنى فيها بيتاً صغيرا. وكان أجمل ما فى البيت كهف تقبع فيه مَعْصَرة عِنَب يُشرف «تيتو» بنفسه على تحويل عصائرها إلى نبيذ يُعَتِّقه بالسنين، ويُؤشِّر بخَطِّه علامات على الزجاجات التى يملؤها من البراميل القديمة - وكانت علاماته على الزجاجات تَمْييزاً لمحصول سنوات بِعَيْنِها يكون العِنَب فيها مهياً بالمَناخ لنَبيذ مُتَفَوِّق فى مَذاقِه وفى شُعاعِه!

وكان الجميل أن كهف مَعصَرة النبيذ يصل إلى شرفة على الصخر مفتوحة على البحر ومَحميّة فى بعض مواقعها من رياحه. وكان المنظر من الشرفة رائعا بألوان الماء خصوصاً وقت الغروب وحين تنسكب أضواء «بريونى» على الموج وتظهر أضواء «بولا» مُرتَعِشة مع النسيم من بعيد!

وكان ذلك ما يَخُصُّ الشاعرية من ذلك المساء، وأما باقى الحديث مع «تيتو» فقد كانت الظِلال فيه طاغية على كل الأضواء، سواء من «بريونى» القريبة أم من «بولا» البعيدة!

ذلك المساء فى شُرفة بيته الداخلة على الصخر إلى البحر فى جزيرة «فانجا» أحَس الماريشال «تيتو» - على نحو ما - أننى أريد أن أسأل عن المستقبل بعده، وأظن أن المستقبل بعده كان يخيفه كإنسان وكسياسى، فقد كان «تيتو» يَكرَه الموت، ولم يُشارك قط فى جنازة، ولذلك لم يحضر وداع أقرب الأصدقاء إليه فى العالم: «جواهر لال نهرو» فى الهند - و«جمال عبد الناصر» فى مصر. وكان عُذرُه ببساطة وصراحة أنه يتشاءم. وإضافة إلى الخَوْف الإنسانى من المستقبل فإن الخَوْف السياسى على بَلَدِه من بَعْدِه كان يُؤرِقه، وقد حاول أن يتفاءل فيه - لكن التشاؤم غَلَبَ حتى وإن لم يقصد.

وفى حديثه ذلك المساء فى جزيرة «فانجا» دخل الرئيس «تيتو» إلى صميم الموضوع فور أن سألته عن المستقبل فى يوجوسلافيا (ولم أقل بعده، ولكنه فهمها ولم يُعلِّق، ولم أتجاوز حتى لا أستثير تشاؤمه).

قال «تيتو» وباللغة الإنجليزية التى بذل جهدا كبيرا فى تعلمها وفى محاولة استعمالها فى السنوات الأخيرة من عمره - قال مُتَأنياً فى عبارته كأنه يريد أن يَحْفُر أساسا للكَلِمات حتى يكون البناء المنطقى لما سوف يقول راسياً وراسخاً:

«أريدك أولا أن تعرف الحقائق السبعة المُهِمَّة عن يوجوسلافيا، وهى أرقام متسلسلة ومتواصلة مع العَدَد رقما بعد رقم.

الحقيقة رقم واحد - أن يوجوسلافيا دولة واحدة (الجمهورية الاتحادية اليوجوسلافية).

الحقيقة رقم اثنين - أن يوجوسلافيا تستعمل أبجديتين: الأبجدية اللاتينية، والأبجدية الـ«سيريلية» Cyrillic (وهى أبجدية يونانية الأصل تُنسَب إلى الراهب «سيريل» الذى نشرها بين كل الشعوب السلافية).

الحقيقة رقم ثلاثة - أن يوجوسلافيا تتحدث بثلاث لغات هى الصِربية، والكرواتية، والسلوفينية.

والحقيقة رقم أربعة - أن يوجوسلافيا تَعْتَنِق أربعة أديان هى المسيحية الأرثوذكسية، والمسيحية الكاثوليكية، والإسلام، واليهودية.

والحقيقة رقم خمسة - أن يوجوسلافيا موطِن لخمس قوميات هى: القومية السلوفينية، والقومية الكرواتية، والقومية الصِربية، والقومية المقدونية، وقومية مونت نجرو.

والحقيقة رقم ستة - أن يوجوسلافيا تَضُم ست جمهوريات فى اتحادها هى: جمهورية الصِرب، وجمهورية البوسنة والهرسك، وجمهورية كرواتيا، وجمهورية سلوفينيا، وجمهورية مقدونيا، وجمهورية مونت نِجرو (الجبل الأسود).

والحقيقة رقم سبعة أن يوجوسلافيا لها سبعة جيران دوليين هم: «إيطاليا، والنمسا، والمجر، ورومانيا، وبلغاريا، وألبانيا، واليونان»!

ويستطرد «تيتو»:

«هذه الأرقام وهذه الحقائق الموازية لهذه الأرقام بالتسلسل - هى وصف يوجوسلافيا، وهى فى نفس الوقت توصيف مشاكلها بما تمثله الأرقام منقولة من عالم الحساب إلى عالم السياسة»!

وابتسم «تيتو» وهو يقول:

«بعض الناس يقولون أننى أول يوجوسلافى فى التاريخ».

ثم تشحب ابتسامة «تيتو» حين يُضيف:

«وبعض الناس يقولون أننى قد أكون آخر يوجوسلافى فى التاريخ».

....

....

[ما قصده «تيتو» فى هاتين العبارتين، وما لم نتوقف أمامه فى حينه، هو أن يوجوسلافيا كيان صُنِع صُنعاً بعد الحرب العالمية الأولى من أخلاط إنسانية من العنصر السلافى هاجروا مُبكِّرا فى التاريخ (ما بين القرن السادس والقرن الثامن) إلى أقصى الجنوب، وفى الواقع فإن كلمة يوجوسلافيا تعنى سلاف الجنوب، وقد تَوَطَّنَت هذه الأخلاط السلافية وسط الجبال شبه محاصرة عند قُرْب نهاية أوروبا وقُرْب بداية آسيا، ومن ثم أصبح الموطن اليوجوسلافى منطقة احتكاكات تاريخية كبرى بين هجرات وأديان وثقافات وإمبراطوريات وقوى عظمى تحارب من أجل السيادة فى البلقان أو فى أوروبا أو فى العالم.

وبالتحديد فقد كانت المنطقة التى قامت فيها مَمْلكة يوجوسلافيا بعد مؤتمر «فرِساى» وبقرار منه ـ بؤرة الاحتكاك والصدام بين الهجرات السلافية القادمة من سهول أوكرانيا، والهجرات المغولية القادمة من سهول الصين.

وكانت بؤرة الاحتكاك والصدام بين مسيحية روما (الكاثوليكية) ومسيحية بيزنطة (الأرثوذكسية).

وكانت بؤرة الاحتكاك والصدام بين الإسلام وبين المسيحية ـ فى روما وبيزنطة كلتيهما.

وكانت بؤرة الإحتكاك والصدام بين الثقافات التى صنعتها الأجناس والأعراق والأديان والهويات.

وكانت بؤرة الإحتكاك والصدام بين الإمبراطورية الروسية القيصرية (مُلْك آل «رومانوف» الأرثوذكسى)، والإمبراطورية النمساوية المجرية (مُلْك آل «هابسبورج» الكاثوليكى)، والإمبراطورية العثمانية (خِلافة آل «عثمان» الإسلامية).

وكانت المنطقة ـ أخيرا ـ بأحكام الصراعات بين هذه الإمبراطوريات المحيطة بها إلى درجة الحصار حتى الخَنْق ـ بؤرة جاذبة لاهتمام إمبراطوريات أخرى فى غرب أوروبا تَبَدَّت لها مصالح فى شرق القارة ووراءها (خصوصا بالنسبة لإرث الخلافة العثمانية) ـ وهى الإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية الفرنسية.

....

....

[هكذا كانت يوجوسلافيا بَلَداً مصنوعاً على عَجَل بعد الحرب العالمية الأولى، ثم أعيدت صناعته مع تحسينات مُضافة بعد الحرب العالمية الثانية، وكان السبب الرئيسى الذى يدعو إلى الأمل فى دِقة صناعة يوجوسلافيا هذه المرة الثانية - هو الدور البطولى الذى قام به «جوزيب بروز تيتو» نفسه فى مقاومة السيطرة النازية على شرق أوروبا، ومن ثم فى هزيمة «هتلر».

وكان الأمل أن روح المقاومة بَعْثٌ جديدٌ قادرٌ تحت قيادة بَطَل هذه المقاومة أن يؤكد وحدة سلاف الجنوب فى موطنهم المُزدَحِم، ثم تستطيع هذه الوحدة أن تستوعب الحقائق القديمة بكل حمولاتها المتناقضة، وأن تصون دولتها الجديدة من الانفراط].

....

....

كان ذلك ما قصد إليه «تيتو» - فى الغالب - وهو ينقل عن البعض خشيتهم من أن يكون هو نفسه أول يوجوسلافى فى التاريخ، ثم أن يكون هو نفسه آخر يوجوسلافى فى التاريخ، لأن البلد كما هو معروف بهذا الاسم - يوجوسلافيا - قد لا يعيش طويلا بعده!

□ □ □

وطبقا لنصوص الحديث مع «تيتو» للـ«صنداى تيمس» ذلك المساء فى جزيرة «فانجا»، ووفقا لسياقه، فإن الرئيس «تيتو» (وهو يومها فى الثمانين من عُمرِه) استطرد يقول:

«إننى فكرت كثيرا فى مستقبل يوجوسلافيا (لم يَقُل «بَعْدى»، وإنما تحدث عن المستقبل فى المُطلَق) - ولولا اهتمامى بالمستقبل ما كنت بقيت على رأس الدولة حتى الآن، وإنما كنت اعتزلت وجئت للحياة هنا طول الوقت (لم يَقُل «حتى آخر عُمْرى»)!

وواصَل «تيتو» حديثه:

«فَكَّرت فى وقت من الأوقات أن أتخلّى عن المسئولية لرَجُل واحد، لكن الاختيار بدا لى صعباً، فقد كان علىَّ أن أجد رَجُلاً يَملِك الحِكمة ليقود البَلَد ويَملِك الجاذبية كى يقبله البَلَد.

أحياناً وجدت رَجُلاً لديه الحِكمة دون الجاذبية، وأحيانا وجدت الجاذبية ولكن دون حِكمة.

وأخيراً تَوَصَّلت - وعلى أساس مبدأ القيادة الجماعية - إلى فكرة إنشاء مجلس للرئاسة يُمثِّل كل الجمهوريات، ويتناوب أعضاؤه على الموقع الأول دوريا بانتظام.

....

....

[وبأثر رجعي فإن تلك الفكرة أضافت إلى المُشكِلة بأكثر مما ساعدت على حلها، فوجود مجلس للرئاسة يَضُم ممثلا لكل واحدة من الجمهوريات - كَرَّس الإحساس بالاختلاف، ثم بالتمايز، ثم بالتَفَرُّد، ثم بالانفصال].

....

....

وطبقاً لنصوص الحديث في الـ«صنداي تيمس» فإنني قلت لـ«تيتو»: «إن دوره الشخصي أعطى يوجوسلافيا مَكانةً غير عادية».

وهُنا رَدَّ «تيتو»: «عندنا مَثَلٌ يوجوسلافي شهير يقول «إن غناء بُلبُل واحد ليس كافيا لاستدعاء الربيع»!

ثم أضاف «تيتو»:

«هناك أسباب موضوعية أيضا لدور يوجوسلافيا وإمكانية استمراره:

١ - إن صورتنا أمام العالم طَيِّبة، وسِجِلّنا مَوضِع احترام، فنحن قاومنا النازي في حرب شرسة فقدنا فيها ١١٪ من سكان يوجوسلافيا، ولم نُقاوِم فقط وإنما عطلنا من الجيش الألماني عشرين فرقة كان يمكن أن تشارك في صَدّ نُزول جيوش الحُلَفاء على شواطئ أوروبا لتحريرها.

٢ - إن يوجوسلافيا اتخذت مَوْقِفاً مُسْتَقِلاً أمام «ستالين». والحقيقة أن خِلافنا مع «ستالين» بدأ من أيام الحرب العالمية الثانية، فهو لم يفهم أننا نريد أن نظل شيوعيين وأن نكون مُسْتَقِلّين في نفس الوقت، لأن اعتقادنا في الماركسية شيء، وقبولنا سيطرة الاتحاد السوفيتي شيء آخر.

٣ ـ إننا رغم الحِصار الذى فرضه علينا «ستالين»، وبرغم المُقاطعة التى التَفَّت حولنا من الجوار المحيط بنا ـ استطعنا بجد أن نبنى قاعدة إنتاجية متقدمة.

٤ ـ إننا مع مصر ومع الهند أنشأنا جبهة للدول غير المنحازة وَفَّرَت حماية لا يُستَهان بها لقوى التَحَرُّر فى العالم».

□ □ □

وطبقا لنص الحديث فى الـ«صنداى تيمس» فإن «تيتو» انتقل إلى الكلام عن الغرب، وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية.

كنت سألته عما إذا كانت هناك «أغانى بَلابِل» كثيرة تنتظر مُستَقبل يوجوسلافيا؟

وضحك وقال:

«عندما كَلَّمتُك عن غناء بُلبُل واحد لم أكن أريد أن أقَلِّل من دورى، فأنا أعرفه، وليس عندى شَك فى أن جُهْدى كان نافعاً ليوجوسلافيا. وأنا أقَدِّر أن بعض الناس فى المستقبل سوف يقولون أننا لم نفتح الأبواب للديمقراطية بشكل واسع، ولكن دعنى أؤكد لك أن الحِفاظ على وِحْدة يوجوسلافيا هو الاعتبار الأول الذى أخذته فى حسابى».

يوجوسلافيا منقسمة بين الشرق والغرب، بالمعنى الحضارى والتاريخى والسياسى. فى يوم من الأيام كما تَذكُر اتَّفَق الحلفاء فى مؤتمر «يالطا» على تقسيم النفوذ فى أوروبا بعد هزيمة ألمانيا: طبقا للتقسيم كان بلد مثل المجر ٦٠٪ من النفوذ للغرب و٤٠٪ للشرق، والعكس كان فى اليونان ٦٠٪ للشرق و٤٠٪ للغرب. وعندما جاء الدور علينا اتفقوا على نسبة أكثر عدلاً (قالها «تيتو» وضحك) ٥٠٪ للشرق و٥٠٪ للغرب، ومن المُدهِش أن «تشرشل» عندما قابلته فى «تريستا» بعد انتهاء الحرب حاول إقناعى بهذه «المعادلة الغريبة».

....

....

واستطرد «تيتو» طبقا لنَصِّ حديثه فى الـ«صنداى تيمس»:

«أريد أن أُقَلِّل مما أقوله، وأريد أن أُزيد فيما أسمعه، فلست أتمنى أن أجد نفسى بعد تجربة طويلة سجيناً لأفكارى القديمة.

أتصور ـ عاد يؤكدها مرة أخرى ـ أتصور أن يوجوسلافيا لن تكون فى خطر شديد لأن الولايات المتحدة لن تسمح للاتحاد السوفيتى أن يتجاوز حدوده معنا، ثم إن الاتحاد السوفيتى لن يسمح للولايات المتحدة أن تتجاوز حدودها معنا، وهناك أولاً وقبل كل شىء استعدادنا للدفاع عن أنفسنا.

الاتحاد السوفيتى فى وقت من الأوقات كان يراهن على الجيش اليوجوسلافى. تَصَوَّرَ أن تسليحنا وهو سوفيتى بالدرجة الأولى يعطى لموسكو مَدْخَلاً إلى الجيش، وقد ثَبَتَ لهم أن ذلك تقدير خاطئ.

الولايات المتحدة كانت ـ وربما ما زالت ـ تَتَصَوَّر أنها تستطيع أن تُراهِن على شبابنا، وبالتأكيد فإن شبابنا مُعْجَبٌ بالتجربة الأمريكية وبطريقة الحياة فى أمريكا ـ لكن هناك هوية سلافية.

أظن أن يوجوسلافيا سوف تحتفظ باستقلالها، وسوف تحتفظ بوحدتها».

....

....

[طبقاً لمذكراتى عن وقائع الحديث مع «تيتو»، وهى بعض ما لم أنشره وقتها فى حديث الـ«صنداى تيمس»، فإن «تيتو» أبدى تَخَوُّفَه من مشكلة التفاوت المادى بين الجمهوريات. كان رأيه أن «سلوفينيا» مُشكِلة لأنها الأغنى («سلوفينيا» هى الأقرب إلى حوض الحضارة والنفوذ الألمانى).

وكان تَخَوُّفُه الثانى على «كرواتيا» (هى الأخرى مُعَرَّضة لتأثيرات نِمساوية ألمانية).

«وغِنى بعض الجمهوريات داخل أى اتحاد فيدرالى يُغرى الأغنياء بأن يَنْفُضوا عن أنفسهم هَمَّ الفقراء (مثل «مونْت نِجْرو») ـ ومن ثم يبحث الأغنياء عن مستقبل آخر لأنفسهم مع غيرهم من الأغنياء»].

....

....

ومن المفارقات أن ذلك ما حدث فِعْلاً.

[فقد بدأت الأزمة سنة ١٩٩١, لم يشعر أحد إلا و«سلوفينيا» تَنْسَل خارجة من الاتحاد اليوجوسلافى.

وفى أثرها تسللت «كرواتيا».

والمُلفت أن ألمانيا (وكأن «تيتو» فى حديثه معى كان صدى صوت مُبَكِّر لعَرّافة أدلفى) بادَرَت وخَرَجَت على اتفاق المجموعة الأوروبية وإجماعها - إلى الاعتراف مُنفَرِدة وفوراً باستقلال «سلوفينيا»، وبعدها باستقلال «كرواتيا»].

....

....

لم يكن فى مقدور «تيتو» ونحن نتحدث للـ«صنداى تيمس» سنة ١٩٨٠ - أن يَتَصَوَّر ما حدث للاتحاد السوفيتى بعد عشر سنوات فقط.

انفرَط الاتحاد السوفيتى وتَهاوَت وِحدَتُهُ، وربما ضاع استقلاله.

ونفس الشىء حدث ليوجوسلافيا وبطريقة أكثر دموية ومأسوية، فقد عاد إلى ذلك الانفلاق الحضارى والدينى والعُنصُرى والطائفى وَهَج النار المَكبوتة التى كانت نائمة أو كامنة تحت الرماد.

بل إن مجرى هذا الانفلاق البركانى عادت إليه الحمم نيراناً ذائبة تُهْدَر فى مجراه التاريخى القديم الذى يُمَثِّله نهر «درينا»، وهو النهر الذى لعب دور الخَط الفارِق بين الشرق والغرب فى حياة السلاف الجنوبيين:

كان نهر «درينا» هو الحَدُّ الذى وَصَلَت إليه القبائل السلافية شَرْقاً، وتوقفت عنده القبائل والجحافل الرومانية والجرمانية غَرْباً.

وكان نهر «درينا» هو الحَدُّ الذى وَصَلَت إليه المسيحية الأرثوذكسية المُنشَقّة عن كنيسة روما، وتوقفت عنده الألوية الرسولية التى تحمل بيارق بابا روما.

وكان نهر «درينا» هو الحَدُّ الذى وَصَل إليه الزحف العثمانى يُبَشِّر بالخلافة الإسلامية، وتوقفت عنده الجيوش النمساوية المجرية وريثة الإمبراطورية المُقَدَّسة التى آلت لأسرة «هابسبورج».

[لم يكن نهر «درينا» مُجَرَّد «فَلْق» جيولوجى بين الجبال سالت إليه مياه الثلوج الذائبة عند القِمَم، وإنما كان الـ«فَلْقُ» أوسع وأعمق وأخطر عشرات المرات من مجرى نهر]. □

....

....

٣ ـ الفنُّ الذى وَصَل إلى جَوهَر الصراع وصَوَّر خباياه

كان الجزء الأول من هذا المقال حديثاً طويلاً وحواراً مع اللورد «دافيد أوين»، السياسى البريطانى اللامع الذى عهدت إليه أوروبا بمحاولة البحث عن سبيل لعلاج الأزمة فى يوجوسلافيا (السابقة) ـ وقد وصل «أوين» ـ ومعه زميله «سَيْروس فانس» (وزير الخارجية الأمريكية الأسبق) ـ فى نهاية المطاف إلى نتيجة مؤداها أن التوصل إلى «تسوية عادلة» لأزمات يوجوسلافيا هو المستحيل ذاته، وأن الممكن ـ ولعله المطلوب أيضا كحد أدنى ـ هو التَوَصُّل إلى تسوية ـ وفقط.

وكان الجزء الثانى من هذا المقال حديثاً طويلاً وحواراً مع زعيم يوجوسلافيا الأسطورى الماريشال «جوزيب بروز تيتو» ـ وقد وصل «تيتو» فى هذا الحديث إلى نقطة عَلَّق فيها رجاءه للمستقبل على «الأمل» فى أنه «لعل وعسى تستطيع يوجوسلافيا فى ظَرف تَماسُكِها الراهِن كدولة اتِّحادية، وفى ظَرف توازن دَقيق بين العقائد والقوى المتصارعة أن تجد ملجأ لنفسها ونجاة». إن «تيتو» لم يقل ذلك صراحة فى حديثه ـ لكن الرجاء والدعاء، كلاهما كان يشيع فى العبارات والكلمات. بل لعل الصلوات كانت مسموعة أيضا ولو بالهمس طوال ذلك الحوار فى جزيرة «فانجا»، وربما لو أن «تيتو» لم يكن شيوعياً لكانت تراتيل الصلوات أعلى من وَشْوَشات الهمس!

□ □ □

«عندما أريد أن أبحث عن الحقائق الأولى فى حياة أى بلد، وعن القواعد السياسية القادرة على تفسير توجهاته ـ فإننى لا أعتمد كتب التاريخ المُوَثَّقة ولا المذكرات السياسية الضافية ـ وإنما أتوجه مباشرة إلى الأدب. أسمع من الشاعر والقَصّاص والروائى أولاً ـ وبعد ذلك يجىء الدور على المُؤَرِّخ والسياسى والدبلوماسى»!

كان صاحب هذه المقولة ـ وأحسبها صادقة وصافية ـ هو سفير الجمهورية العربية المتحدة (دولة الوِحدة التى جمعت مصر وسوريا ما بين ١٩٥٨ ـ ١٩٦١) ـ الدكتور «ثابت العريس».

....

....

[كان «ثابت العريس» فى الأصل أستاذا فى جامعة دمشق ثم انتقل إلى العمل

الدبلوماسى ـ وكان هو وزوجته السيدة «ليديا» ـ من النماذج المُشَرِّفة فى تمثيل دولة الوحدة، وكان من حُسن الحظ أن يكون الاثنان مُمَثِّلَيْن لهذه الدولة فى يوجوسلافيا إبان تلك الفترة الهائلة من التَطَوُّر العالمى (عصر «كنيدى»، و«ديجول»، والبابا «يوحنا» الثالث والعشرين، و«خروشوف»، و«تيتو»، و«نهرو»، و«عبد الناصر»، و«ماوتسى تونج»، و«برتراند راسل»، و«جان بول سارتر»، وعشرات غيرهم من الساسة والمفكرين والفلاسفة والعُلماء والأدباء ـ ظَهَروا فى ذلك العصر الذى أسماه الصحفى الشهير «ساى سالزبرجر» ـ عصر آخر العمالقة.

....

....

[كان رأى «ثابت العريس» أنه عندما يكتب المُؤَرِّخ والسياسى والدبلوماسى فإنه مضطر بطبائع الأشياء إلى أن يظل دائما وراء الظاهر، المرئى، والمتحرك ـ وأما حينما يكتب الشاعر والقَصَّاص والروائى ـ فإنه يغوص إلى الأعماق ويجوس هناك حول الكوامن التى يمكن أن نسميها «روح الأُمَم»، ويَنْفُذ إلى الخلايا التى تحتفظ وحدها بِـ«سِرِّ الحياة» فى عُمْر وطول بقائها.

□ □ □

كان الدكتور «ثابت العريس» قد رآنى مُهتَماً بالشأن اليوجوسلافى، وقد لاحظ أننى أبحث عن الوثائق الأساسية للدولة وبينها الدستور، وقال لى ما مؤداه «إن ذلك كله ـ بما فيه الدستور ـ لن يجعلنى أفهم «يوجوسلافيا» أكثر، وإنما هو ينصحنى إذا طَلَبْت الفَهْم أن أبحث عنه فى الأدب.» ثم أضاف الدكتور «العريس» إلى ذلك اقتراحه بأن أقرأ قِصَّة «جِسْر على نهر ادرينا» التى كتبها «إيفو أندريتش» (واستحق عليها جائزة «نوبل» للآداب فيما بعد سنة ١٩٦١).

....

....

[كان «إيفو أندريتش» قد اعتُقِل عندما دَخَلَت الجيوش الألمانية واحتَلَّت يوجوسلافيا سنة ١٩٤١، وقد ظل مُعتَقَلاً حتى تم التحرير سنة ١٩٤٥، وخرج من السجن ومعه مخطوطة قصة «جِسْر على نهر ادرينا»، ولكنها لم تُتَرجَم من اللغة الصِربية ـ الكرواتية

إلى إحدى اللغات العالمية الكبرى إلا فى أوائل الخمسينات حين ظهرت لها فى باريس طبعة فرنسية ما لبثت أن لحقتها طبعات أخرى بالإنجليزية والإيطالية والألمانية ـ وكان الدكتور «ثابت العريس» نفسه، وأثناء عمله سفيرا للجمهورية العربية المتحدة فى بلجراد، مشغولا بترجمة عربية ـ عن الفرنسية ـ للقصة التى اعتبرها مدخلاً ضرورياً لكل من يريد فَهْم «يوجوسلافيا»، أحوالها، سياساتها، بدائل مستقبلها المحتملة غداً وبعد غد].

....

....

وسنة ١٩٦١، وبعد حصول «إيفو أندريتش» على جائزة «نوبل»، رُحْت أقرأ القصة من ترجمة إنجليزية لها صَدَرَت فى لندن عن مؤسسة «جورج آلن وأنْوين» ـ طُرِحَت فى المكتبات سنة ١٩٦٠.

تختلف قصة «جِسْر على نهر ادرينا» عن أية قصة غيرها ـ فى الآداب العالمية ـ لأن بَطَل القِصّة ليس بَشَراً ـ رَجُلاً أو امرأة ـ وإنما البَطَل... «جِسْرٌ» وقع بناؤه على نهر ادرينا فى القرن السادس عشر. ثم إن وقائع القصة ليست مشاعر وعواطف ومَواقف وعُقَد ـ وإنما الوقائع حركة تاريخ تحتشد تياراته، ودياناته، وثقافاته، وإمبراطورياته، وصراعاته، وجيوشه، على ضَفَّتَىْ نهر شاءت مقاديره أن تجعل منه خَطاً فالقاً وفاصلاً بين عالمين أو بين عوالم كثيرة زاحفة نحوه من كل الاتجاهات، متلاقية عند النهر، فى حالة مواجهة بالتَّصادُم على جانِبَىّ ضفافه، حتى كاد الدم المسفوح فى مجرى النهر أن يكون أكثر من ماء الثلوج الذائبة فيه.

....

....

قصة بناء الجِسْر ـ وهذا واقِع حال وليس خَيال قَصّاص ـ تبدأ من الوزير العثمانى الأكبر «محمد سوكلو»، وكان هذا الوزير قد ارتفع فى البلاط العثمانى إلى حد أن أصبح الحاكم المُطْلَق فى إستانبول. لكن «محمد سوكلو» كان فى الأصل مملوكاً خُطِف فى طفولته من البوسنة بواسطة جُنْد السلطان العثمانى. وكانت تلك هى الطريقة العثمانية فى إعداد مُحاربين عن الخلافة وحُكام لولاياتها أحيانا. والحقيقة أن تلك الطريقة بدأت فى عصور إسلامية سابقة (الدولة الأيوبية فى مصر مثلا)، وقد ترتبت عليها تلك الظاهرة الفريدة فى التاريخ العربى والإسلامى القريب، وهى ظاهرة المماليك.

والحاصل أن ولايات الخلافة ومُقاطَعاتها كانت فى حاجة إلى محاربين يكون ولاؤهم للسلطان، وحُكّام يَنوبون عنه بتَفْويض منه، وإداريين يكون مرجعهم إليه، ولذلك فليس هناك ما هو أفضل من المُرتَزَقة (إذا جاز التعبير).

أطفال من سُلالات بَشَرية قوية، يُخطَفون بالقوة من آبائهم وأمهاتهم، ثم يُؤخَذون إلى عواصم المُلْك الإسلامى حيث تكون، وهناك تجرى تربيتهم إسلامياً وعَسْكَرياً ـ ثم يكون صِباهُم الولاء للسلطان ـ ثم يكون شبابهم فنون الحرب والقتال ـ ثم يكون عَمَلُهُم الجِزية وجَمْع الضرائب، والتمكين لسُلْطة الخليفة.

وكانت مناطق يوجوسلافيا، وفوقها أرض السلاف كلها، وبالقرب منها مناطق القوقاز، وعدد من نواحى أوكرانيا وحتى أطراف ألمانيا ـ ميادين مفتوحة لخَطْف الأطفال الذكور تعود بهم القوافل إلى العواصم، وهناك يكون فى انتظارهم مصير هو أفضل يقيناً مما كان ينتظرهم مع عائلاتهم (بصرف النظر عن قساوة التجربة إنسانياً).

....

....

[فى مِصْر والشام عُموماً استَمَرَّت ظاهِرة المماليك مُنشِئة لدول وإمبراطوريات حَكَمَت لعشرات السنين. وكان كثيرون من هؤلاء المماليك ـ خصوصاً فى مصر ـ بالفعل مِن يوجوسلافيا، وبالذات من البوسنة !].

....

....

□ □ □

كان الوزير الخطير فى عاصمة الخلافة سنة ١٥٦٥، وهو «محمد سوكلو» (باشا)، قد عاش تجربة الخَطْف طِفلاً، والتَأسْلُم والتعليم صَبِياً، وفنون الحرب والإدارة شاباً، ثم أصبح أقوى رجل فى دولة الخلافة ـ لكنه لم يستطع نسيان تجربته، خصوصا ذلك الجزء من الرحلة الذى دار على «ضِفاف نَهْر الدرينا» حيث الأخطار مُتَرَبِّصة بالقوافل الإنسانية الخائفة، والسياط تهوى على الظهور تدفع طوابير الأطفال المخطوفين إلى مواصلة السير حُفاة على أحجار مُدَبَّبة مثل الزجاج، والبَرد قارس خصوصا فى الليل، والظلام هو الموعد المرسوم عادة لعبور النهر بوسائل بدائية وخطرة. وقد كاد الطفل (الذى أصبح وزيراً

وصدراً أعظم فيما بعد) أن يغرق، وكانت قدماه تتركان أثرهما دامياً على قِطَع الحجر الذى يَفْرِش ضِفاف النَهْر ومَجْراه، وكله من «البازلت» المُدَبَّب على ضِفاف النهر.

إن المَمْلوك، الوزير الخطير فيما بَعْد، لم ينس تجربة الطفل المخطوف الأسير، وهكذا فإنه قَرَّر أن يكون أحد المشروعات الكبرى التى يُخَلِّد بها ذكره هو بناء جِسْر على نهر ادرينا يَفْتَح الطَريق إلى الضفة الأخرى ووراءها الجبال والسهول البعيدة، بحيث يُسَهِّل تَدَفُّق طوابير المماليك الجُدُد للخدمة فى دولة الخِلافة ورعاية مصالحها حرباً وسِلماً، قتالاً وجبايةً ـ ثم بحيث يصل هؤلاء المماليك الجُدُد إلى نهاية رحلتهم دون أن يموت نصفهم بالقتل أو بالغَرَق بسبب أهْوال الطريق، وخصوصاً عند عبور نَهْر ادرينا.

لكن المشكلة الكبرى كانت أولاً فى بناء الجِسْر لأن الأهالى على الضفة الأخرى لم يكن بين همومهم أن يجعلوا خطف أولادهم، ومعظمهم من المسيحيين فى ذلك الوقت (كاثوليك وأرثوذكس) ـ سَهلاً بالنسبة للدولة العثمانية التى كانت هويتها ملتبسة بين: الدولة والدين ـ وهل هى مَصْلَحة آل «عثمان»، أو هو مَجْد الإسلام!

وكانت المشكلة الثانية بعد بناء الجِسْر تَتَرَكَّز فى كيفية إحكام الرقابة عليه بحيث يسمح بالمرور الآمِن لقوافل الأطفال المخطوفين، ولكن دون أن يسمح بذلك لطوفان التاريخ وإلا فهى الفَوْضى.

وربما أن الوزير الخطير «محمد سوكلو» كان هو نفسه نموذجا لفوضى التاريخ.

هو صَبِىٌّ مَخْطوفٌ من البوسنة، وقد وُلِدَ مسيحياً، وكان اسم عائلته ـ و هو الذى اكتشفه بنفوذه فيما بعد ـ هو «سكولوفيتش»، وهو اسم «صِربى» لا شَك فى صِربيِّته.

لكن تناقضات التاريخ تَتَجَلّى ـ بطريقة درامية ـ فى تَصَرُّفات «محمد سوكلو» وزير السلطان الذى يَعود إلى الاتصال بعائلته، ثم يَسْتَخْدِم نفوذه فى دولة الخِلافة الإسلامية حتى يَصِل شقيقه ويُصْبِح الأسقف الأكبر للكنيسة الأرثوذكسية فى صِربيا.

ويكون المَشهَد غريباً: أخ مخطوف مملوك مُسْلِم يصبح رأس السلطة فى دولة الخلافة العثمانية..

وشقيقه الثانى الذى لم يُؤسَر ولم يَتَأسْلَم، تساعده سلطة وثروة إسلامية لكى يصبح رأس السلطة الدينية فى الكنيسة الأرثوذكسية الصِربية.

□ □ □

إن قصة «الجِسْر على نهر ادرينا» فى النهاية صورة مأساوية ودامية لمسرح تاريخى فريد:

بعد موجات الهجرة السلافية الأولى إلى الجنوب ظَهَر رؤساء القبائل، وتَحَوَّل الرُعاة بالاستقرار على الأرض إلى أمراء إقطاعيات.

ثم تَدَخَّل صراع الإمبراطوريات والأديان. روما تزحف من الغرب وتتوقف جيوشها الرومانية وكنيستها الكاثوليكية على الضفة الغربية لنهر ادرينا. ثم يجيء الدور لزَحْف الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) ومعها كنيستها الأرثوذكسية، ومرة أخرى يكون التوقف عند الضفة الشرقية من نهر ادرينا.

كأن ضِفاف نَهْر ادرينا هى النقطة التى تتقطع عندها أنفاس الزاحفين يحملون سيوفهم وصلبانهم من هذه الناحية أو تلك!

وفى فُرْصة صراع الإمبراطوريات والعقائد تَحَوَّل أمراء الإقطاع - الذين كانوا فى الأصل زعماء قبائل - إلى مُلوك محليين.

ثم تَغَيَّرَت الأحوال فى بيزنطة بعد سقوط إستانبول أمام جيوش «محمد الفاتح»، وبدأ الزحف العثمانى الإسلامى داخِلاً من ألبانيا إلى كوسوفو، ومنها إلى بقية مناطق يوجوسلافيا.

....

....

[وهنا أهمية «كوسوفو» (ومعناها «سهل الطيور السوداء») - فقد كانت (فى عصر السلطان«مراد») - المَدْخَل الإمبراطورى عثمانياً، والمَدْخَل الإسلامى دينياً، وعلى ترابها دارت المعركة الحاسمة التى سَقَط فيها البَطَل الذى تعترف به كل شعوب يوجوسلافيا وهو الأمير (القِدِّيس) «لازار». ولأن كوسوفو كانت المَدْخَل إلى أرض السلاف الجنوبيين فإن الجيوش العثمانية التى اقتحمتها جاءت معها من ألبانيا بمُؤَخِّرة إنسانية ألبانية كبيرة، سارت وراء الجيوش لخِدمتها فى البداية ثم تَوَطَّنَت فى كوسوفو حتى بعد أن تراجعت الجيوش العثمانية وتَغَيَّرَت ألوان الخرائط فى المنطقة!].

....

....

كان الزحف العثمانى الإسلامى فى بدايته غلاباً، وقد وصلت طلائعه ـ جيشاً وعقيدةً ـ إلى بلجراد عاصمة مملكة الصرب نفسها.

وكان الأمَل فى وقف الزحف العثمانى ـ الإسلامى(؟) ـ قد أصبح مرهوناً بعائلة «هابسبورج» وهى أحد أبرز وَرَثة إمبراطورية «شارلمان» (الإمبراطورية المسيحية المُقدَّسة).

□ □ □

فى الفصل الخامس من قِصة «إيفو أندريتش» تظهر خيبة الأمَل «السلافية» فى حلم التحرير الذى جاءهم من الغرب مع ألوية جيوش الـ«هابسبورج».

يَفْرَح كل الناس فى البداية لإعلان هذه الجيوش إلى سلاف الجنوب (والإعلان نَصٌّ تاريخى موثق). ومن الغريب أن الإعلان كان مكتوبا باللغة التركية، وعندما تُلِىَ هذا الإعلان على موقع قريب من ذلك الجِسر على نهر الدرينا كانت بدايته الحماسية:

«يا أهل البوسنة والهرسك

إن جيش إمبراطور النمسا ومَلِك المَجَر قد عَبَرَ حدود بلادكم لا ليستعبدكم كما فعل عَدُوُّكم التُّركى المُسْلِم، لكنه جاء بجيوشه إليكم مُحَرِّراً وحامِياً لأرضكم ولعقائدكم».

ويجىء الفصل الثامن من قِصّة «الجِسْر على نهر ادرينا» وقد تَغَيَّرَت الصورة واكتشف السلاف الجنوبيون أن إمبراطور النمسا ومَلِك المَجَر مَلِكٌ مثل كل الملوك وإمبراطور آخر يسعى لتوسيع مُلكِه ولإعلاء نفوذه ولإبقاء مَجْده مذكوراً إلى الأبد لو أمكن.

وتتردد فى البوسنة والهرسك أصداء أغنية حزينة:

«فى البوسنة والهرسك ... كل أم حزينة

ثكلى تبكى بدموع حارة

تسأل نفسها طول الوقت: لماذا؟

لماذا أرْسَلْت ابنى ليخدم تحت راية الإمبراطور؟»

وباختصار فإن الإمبراطور المُحَرِّر المُنْقِذ جاء فاتِحاً غازِياً، لكنه لثلاثمائة سنة فَرَض

حُكْم أسرة «هابسبورج» وثقافتهم وتقاليد بلاطهم على الأجزاء التى وَصَل إليها سلاحه من يوجوسلافيا.

كما بدأ الأتراك يُبَشِّرون بالدعوة للإسلام، ثم يفرضونه بالسَّيْف سبيلاً لعقيدة تضمن استمرار الولاء ـ كذلك فَعَل إمبراطور النِمسا مع المُسْلِمين فقد راح يُعيدهم إلى المسيحية ـ لكنها الكاثوليكية هذه المرة وليست الأرثوذكسية، وكانت البداية بالتبشير، ثم تَرَك التبشير كتابه وأمسك سلاحه، فقد كان هدفه الأساسى هو ضَمان استمرار الوَلاء.

ولم تَنْس أسرة «هابسبورج» بالطبع ـ وذلك ظاهر فى فصول قِصّة «جِسْر على نهر ادرينا» ـ أن تصنع من قبائل السلاف، ومن رؤسائهم وملوكهم المحليين، أرستقراطية واسعة (أضفى عليها الإمبراطور ألقابه من الـ«دوق» إلى الـ«كونت» إلى الـ«ماركين»... إلى آخره) ـ وقد أصبح مقصد هذه الأرستقراطية قصور فيينا، وأصبح سعيها السياسى هناك، وكذلك ثقافتها، وأصبحت موسيقاها ألحان «هايدن» و«موزار»، وأصبحت حياتها كل يوم محاكاة للبلاط الإمبراطورى.

وعلى امتداد صفحات القِصّة تظهر خطوطها الدرامية متواصلة من أول صفحة حتى آخر صفحة:

ـ أرض عبر قرون من التاريخ، ومن الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب ـ مُسْتَباحة.

ـ ووَطَنِيات مُتَعارِضة، وكلها مقهورة.

ـ ودِيانات اختارت كل منها أن تتراجع مُتَرَبِّصة فى انتظار يومٍ ما: مسيحية مجروحة ومُمَزَّقة بين كنيستين، وإسلام مُطارد مَخْنوق فى قارة لا تريده على أرضها، ويهودية مُخْتَبِئة فى جُحْر.

□ □ □

إننى عُدْت إلى قراءة قِصّة «جِسْر على نهر ادرينا» مرة أخرى فى نهاية التسعينات، وبناء على نصيحة جُندى رَحّالة، ودبلوماسى عسكرى ذائع الصيت هو «فيتز رُوىْ ماكلين»، وهو صاحب كتاب يُعْتَبَر من المراجع الأساسية فى الصراع على البلقان ضمن صراعات الحرب العالمية الثانية، والكتاب هو "Eastern Approaches"، ويمكن ترجمته بـ«مُقْتَرَبات شرقية» أو «مَداخِل شرقية».

وكنت قد سمعت كثيرا عن الرجل وشخصيته، وقرأت كتابه وأعجبت به، لكنى لم يخطر ببالى أن أقابله. فقد قارب الرجل التسعين من عمره، وظننت أن الزمن - ربما - مشى بالنسيان على ذاكرته.

ثم كنت ضيف عشاء على واحد من أقرب الأصدقاء وهو «أندرو نايت»، رئيس مجلس الإدارة ورئيس التحرير العام لمجموعة صحف الـ«تلجراف»، واليَد اليُمنى لصاحب المجموعة وهو «كونراد بلاك» - أحد أبرز بارونات الصحافة فى العصر الحديث.

كان عشاؤنا فى بيت «أندرو» على قِمّة «هامستيد» المشرفة من مرتفع على أضواء لندن من طرفها الشرقى الجنوبى.

واتصل بى «أندرو» يقول لى: «هل تعرف مَن دَعَوْت معنا على العشاء الليلة؟»

وأسْعَدَنى أن الضيف كان «فيتز رُوىْ ماكلين» ومعه زوجته - وعَرَفْت أنهما فى الغد ذاهبان إلى رحلة استكشاف لقِمّة أحد الجبال فى جورجيا!

وكنا سِتّة على مائدة العشاء تلك الليلة فى غرفة الطعام فى بيت «أندرو نايت»، وهى مائدة من البللور الشَفّاف:

مضيفنا - «أندرو نايت» - وزوجته فى ذلك الوقت: «البيجوم صَبيحة»، وهى باكستانية ترتبط على نحو ما بعائلة «بوتو».

و«فيتز رُوىْ ماكلين» وزوجته، وهى رَحّالة إنجليزية أصغر منه ربما بأربعين سنة.

ثم نحن.

بدأ العشاء فى السابعة مساء، وقد طَلَبَتْه «صَبيحة» مُبَكِّراً لأن «فيتز» سوف يغادر لندن فى الفجر بالطائرة، ولا بد أن ينام مُبَكِّراً - قبل العاشرة على أى حال. ولكننا بقينا فى أماكننا لم ننتقل من غرفة الطعام إلى خارجها حتى تجاوزت الساعة منتصف الليل.

كان «أندرو نايت» يعرف أن ما يجرى فى يوجوسلافيا راح يشغلنى بطريقة مُكَثَّفة، وهكذا فإنه بالكفاءة الواثقة بنفسها لدى جيل جديد من رؤساء التحرير فى الغرب - يظهرون الآن ويبرزون بالذات فى الصحافة البريطانية والأمريكية - راح يوجه الحديث إلى تجربة «فيتز رُوىْ ماكلين» فى يوجوسلافيا. وبدأ الرَحّالة الدبلوماسى العسكرى يعود إلى مغامرات شبابه ويَحكى.

«كان فى القاهرة ضِمن قيادة الشرق الأوسط سنة ١٩٤٣، والقاهرة وقتها هى

العاصمة الشرقية لإدارة الحرب، بينما لندن هى العاصمة الغربية - ثم تلقى «فيتز رُوىْ ماكلين» رسالة من لندن بأن يركب أول طائرة إليها لأن رئيس الوزراء «ونستون تشرشل» يريد أن يراه وفى ذِهنِه أن يعهد إليه بمُهِمّة سرية يعرف من تجارب سابقة مباشرة - أن «فيتز» هو رَجُلها المناسب.

كان موعده مع «تشرشل» لقضاء عطلة آخر الأسبوع فى البيت الريفى المُخَصَّص لرئيس الوزراء فى «تشيكرز»، وهناك وَجَد «فيتز» جَمْعاً من الساسة والقُوّاد (يذكر بينهم الجنرال «آلان بروك» - رئيس أركان حرب الإمبراطورية ومهندس إستراتيجية الحلفاء فى الحرب كلها) - وقد دعاهم «الرجل الكبير» - «تشرشل» - ليرى كلاً منهم بضع دقائق يوجهه فيها لتكليف مُعَيَّن.

وعندما جاء الدور على «ماكلين» وجد أن «تشرشل» يطلب منه أن يذهب فى مُهِمّة سرية إلى زعيم المقاومة الشيوعية فى يوجوسلافيا - وهو رَجُلٌ يُقال إن اسمه «تيتو»؟

وذكر «تشرشل» أثناء كلامه أنه «قرأ تقارير كثيرة للمخابرات تضاربت الأقوال أثناءها حتى فى شأن اسم «تيتو»: بعض التقارير يزعم أنه اسم حَرَكى لرَجُل، وبعضها يُصِرُّ على أنه اسمٌ مُسْتَعارٌ لإمرأة، وهناك بعض ثالث من التقارير يقطع أن اسم «تيتو» هو مجموعة من الحروف الأولى لكلمات اسم جمعية ثورية إرهابية...».

ثم يقول له «تشرشل»:

«لكنه يبدو منها فى النهاية أن تلك كلها كانت تقارير مصدرها المُعَسْكَر المَلَكى فى يوجوسلافيا، وبديهى أنهم لا يريدون للحُلَفاء أن يتصلوا بالمقاومة الشيوعية».

ويستطرد «تشرشل» - طبقا لرواية «فيتز رُوىْ ماكلين» ونحن بعد جالسون على ضوء الشموع حول مائدة العشاء فى بيت «أندرو نايت»:

«لِيَكُنْ أن «تيتو» يقود مقاومة شيوعية. ذلك لا يهمنى الآن. أنا أريد مقاومة فَعّالة ضد «هتلر». وأما مسألة الشيوعية فقضية مُؤَجَّلة وحساباتها فيما بَعْد».

ثم يقول «تشرشل» لـ«فيتز»:

«معلوماتنا أن نظام «موسولينى» فى إيطاليا على وَشَك أن ينهار، وهذا معناه أن الشاطئ الأدرياتيكى الغربى سوف يَتَحَرَّر من النازية، والآن نريد تحريك الأمور على الناحية الأخرى من الأدرياتيكى - على الناحية اليوجوسلافية.

«تيتو» طبقا لمعلومات جديدة ومُؤَكَّدة عنه من رئاسة الأركان الإمبراطورية - يحشد جيوشا من المقاتلين فى جبال كرواتيا، وله خَطٌّ مواصلات على البحر فى مكان ما بالقرب من ميناء «سبليت» - وأريدك أن تأخذ معك ثلاثة أو أربعة من الضباط وأن تهبطوا بالباراشوت ليلاً على مواقعهم، ثم تَتَوَلّون من هناك تنسيق جهودهم مع الجُهْد الحربى العام للحُلَفاء».

وكان هذا ما حدث، وما سَمِعْت تفاصيله آسِرة وأخّاذة فى رواية «فيتز رُوىْ ماكلين».

ليلتها تَحَدَّث «ماكلين» طويلاً عن شخصية «تيتو» وكيف تأثّر بها. وروى كيف أنه رَتَّب مَدَداً من السلاح ووسائل للإتصال لقوات «تيتو»، ثم كيف أنه جَهَّز له مَقَرَّ قيادة فى جزيرة شِبْه مهجورة فى الأدرياتيكى، لأن ملاحقة الألمان لِمَقَرٍّ قيادته كانت تجعل إنتظام إدارته للحرب مُعَرَّضة لإنقطاعات يستوجبها تغيير المقار وَسَط الجِبال.

ثم روى لنا «ماكلين» أنه «ذات يوم تلقى رسالة بأن «تيتو» اختفى من الجزيرة، وتلقى رسائل من لندن بينها رسالة من «تشرشل» يسأله: «أين تيتو»؟

وبعد أيام من القلق ظهر أن «تيتو» سافر سِراً إلى موسكو ليقابل «ستالين» بقصد استكشاف مستقبل الأوضاع فى البلقان بعد الحرب، وكان واضحاً مُبَكِّراً أن النفوذ السوفيتى سوف يكون طاغياً فى المنطقة بِحُكْم حركة تَقَدُّم الجيوش المتحالِفة فى ميادين الحرب المُتَعَدِّدة الجِهات ضِد «هتلر».

وذهب «فيتز» بتعليمات من «تشرشل» ليسأل «تيتو»: «كيف ذهب للقاء «ستالين» دون إخطار حُلَفائه؟»!

ورد عليه «تيتو»: «إن «تشرشل» لم يخطرنى عندما ذهب للقاء سِرّى مع «روزفلت» فى كويبيك (كندا)».

□ □ □

فى نهاية سهرة ممتعة فى التاريخ، والحرب، والسياسة، قال لنا «فيتز رُوىْ ماكلين»:

«إن «تيتو» كان أول زعيم فى الكتلة الشرقية يتحدى «ستالين» ويقف أمام الاتحاد السوفيتى مُعتَقِداً بوجود طريق يوجوسلافى إلى الشيوعية لا يَمُرّ بالضرورة عِبْر موسكو.

وكان «ستالين» يريد أن يُوَجِّه لـ«تيتو» ضَربة قاصمة.

لكن «تيتو» بتوازن مع الغرب دقيق جَعَل مَطْلَب «ستالين» مُخاطرة لا بد من حسابها.

لكن المُلاحَظ أن يوجوسلافيا ـ وهى البلد الشيوعى الذى كان الأقرب إلى واشنطن والأبعَد من موسكو ـ هى الآن البلد الذى يبدو وكأنه على طريق حرب مع واشنطن!

أليس ذلك غريبا؟ كل تلك التغييرات ... كل تلك المفاجآت؟»

....

....

كنا نستعد لمغادرة غرفة الطعام فى بيت «أندرو نايت» فوق مرتفعات «هامستيد».

وقال «فيتز رُوىْ ماكلين» وهو يستعد للقيام من مقعده:

«لكنه ليس غريبا إلى هذا الحَد لو درسنا يوجوسلافيا بما فيه الكفاية».

ثم يقول «ماكلين» ونحن ننهض من مقاعدنا وقد سُمِعَت دَقّات مُنتَصَف الليل:

«هناك كلمة واحدة أظن أن أصلها عربى، وهى الكلمة الوحيدة التى حفظها اليوجوسلاف من تجربتهم العثمانية ـ هذه الكلمة هى: «إيناد» ـ أصلها العربى «عناد» ـ وهى كلمة يمتلئ معناها ومدلولها بحمولات كثيرة: ضمنها معنى الصلابة والمقاومة، ومعنى الكِبرياء إلى درجة المكابرة، ومعنى التَمَسُّك بالمواقف إلى درجة التفريط حتى فى الحياة وتعريضها للقتل أو إعدادها للشهادة!

بعد كلمة «عناد» ـ وهى مفتاح الشخصية اليوجوسلافية ـ فإن هناك مفتاحا آخر لفَهْم التاريخ اليوجوسلافى وهو قِصّة «جِسْر على ادرينا» التى كتبها «إيفو أندريتش».

وإذا قرأتها فسوف تكتشف أن المَشْهَد الذى تراه الآن فى يوجوسلافيا ـ مع غرابته ـ تَداعٍ طبيعى، حَىّ ومُستَمِر، للتاريخ، ماضٍ لا يزال حياً».

كان علينا بعد ذلك أن نأخذ «فيتز روى» وزوجته إلى بيتهما فى «هولاند بارك» ـ وكان بيتهما على طريقنا من «هامستيد» إلى فندقنا فى قلب لندن!

والحقيقة أنه كان لدىّ أكثر من سبب إضافى «لتوصيل» «فيتز»: بينها أنه عَرَضَ أن يُقَدِّم لى نُسْخة مُوَقَّعة من كتابه «مَداخِل شرقية» وهى موجودة فى بيته، وبين الأسباب أيضاً أن «فيتز» كان ما زال يتكلم.

وفى السيارة فى طريقنا إلى «هولاند بارك» كان المحارب الرحّالة الدبلوماسى العسكرى القديم يُواصل حديثه وفى ألفاظه أصداء ملْحَمة:

«بعض الجِراح التاريخية تشفى ويتبقى منها ندوب تشير إلى آثار قَطْع فى الجِلْد.

وبعض الجِراح تَلْتَئِم فقط، ولكن أوجاعها تظل تحت السطح.

وبعض الجِراح يَنزِف ويواصل النزيف رغم السنين - وكذلك جراح يوجوسلافيا.

أحياناً أراقب ما يجرى فى يوجوسلافيا وأكتشف: أن مراحل من التاريخ ما زالت تتقاتل مع بعضها فى الزمن الحاضر، وأن قبورا تتشاتم من بعيد مع قبور مجاورة، وأن جُثثاً خارجة من تحت الأرض تبحث عن سيوف لتسوية حسابات دَم مُعَلَّقة، وأن موتى يمسكون بخِناق موتى»!

....

....

[«شىء فى يوجوسلافيا ومشاكلها يجعل الناس دائما يلجأون - فى الحديث عنها - إلى الصور الدرامية ونواح الندابات كما فى المآسى الإغريقية...» - كذلك قلت لنفسى !]

□ □ □

٤ - .. والسِلاح الذى طاح فى أطرافِها بالقتل - دون خطة وبغير عقل

عندما وقع السقوط الكبير للاتحاد السوفيتى فى بداية التسعينات، لم يَنْفَرِط عَقد هذه الإمبراطورية التى بناها «لينين» و«ستالين» فحسب - وإنما تداعت آثار السقوط ووصلت توابع زلزاله إلى أوروبا الشرقية القريبة منه - بل ووصلت إلى عوالم وآفاق أبْعَد، فلم تكن الإمبراطورية السوفيتية إحدى القوتين الأعظم - بلا جِدال - فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية فقط - وإنما كانت الإمبراطورية السوفيتية فى نفس الوقت عقيدة عُظمى لها من جاذبية الفكرة مثل ما لها من بَطْش السلاح.

وفى أعقاب السقوط الكبير - فإن انفراط الاتحاد السوفيتى من دولة واحدة إلى خمس عشرة دولة - كان مشكلة صعبة لكنها قابلة للتَصَرُّف - ولو مؤقتا - لأن القوميات التى اختارت أن تقرر مصيرها بِحُرِّية كانت وفى مُعْظَم الأحيان - وإن لم تكن كلها - ما تزال على

أرضها، ومع أن التداخل الإنسانى بين القوميات فى إطار الدولة الواحدة قد جرى تشجيعه سياسياً بقصد تحقيق قدر من التماثل والتجانُس فى توزيع سُكّان الاتحاد السوفيتى - فإن ما كان مطلوباً سياسياً لم يكن بالضرورة مقبولاً طوعياً خصوصاً فى بلاد طال فيها وتَعَمَّق ارتباط الإنسان بأرضه.

وفى دُوَلٍ كثيرة متعددة القوميات فى أوروبا الشرقية كان الإنفراط - الذى أعْقَب السقوط - مشكلة صعبة، لكنها - أيضا - مشكلة لها حَلّ. ففى تشيكوسلوفاكيا - مثلاً - تَمّ - وبأسلوب كأنه جراحة فى غُرْفَة عمليات مُعَقَّمة ومُجَهَّزة بالمشارط والمِقَصّات - تقسيم تشيكوسلوفاكيا إلى دولتين: دولة «التشيك» ودولة «سلوفاكيا»، واستراحت القوميات المُتَعارِضة من أعباء دولة فرضتها عليها المطالب الدولية التى كانت مُهْتَمّة بتوازن القوى شَرقِى القارة الأوروبية أكثر مما كانت مُهْتَمّة بحقوق القوميات كأساس للوِحدة السياسية للدُوَل.

كانت هذه الجِراحات الجُغْرافية السياسية الإنسانية مشاكل صعبة، لكنها بَدَت - كما سلف - قابِلة للحَلّ - لكنه فى يوجوسلافيا - أكثر من غيرها - بَدَت الحلول مُستَحيلة.

□ □ □

لم تكن القوميات اليوجوسلافية الخمسة - وِفْق حِساب «تيتو» - وهى القومية السلوفينية، والقومية الكرواتية، والقومية الصربية، والقومية المقدونية، وقومية مونت نِجرو - موجودة داخل خطوط مُحَدَّدة يمكن تثبيتها لتكون الحُدود السياسية المُقَرَّرة لدُوَل جديدة، وإنما كانت أحوال التاريخ اليوجوسلافى وضروراتها قد أحدثت بالصَدّ وبالإزاحة وبالتَجْنيب أوضاعاً من الجوار والتشابك والالتصاق فَرَضَت نفسها على الكُلّ قَسْراً، ثم إن تحقيق الفَصْل بينها الآن يحتاج إلى «ساطور جَزّار» أكثر من حاجته إلى «مَشْرَط جَرّاح»، باستثناء بعض المواقع التى كانت حركة التاريخ فوقها مُستَقِرّة بشكل ما، كما هو الحال فى جمهورية سلوفينيا وهى المُجاوِرة للنمْسا والقريبة من حوض الثقافة الالمانية والتى استَقَرّ فيها حُكْم أسرة «هابسبورج» قروناً مُتَواصِلة أدت إلى تحديد شخصية ظاهرة المعالم لإمكانية دولة مُسْتَقِلّة - بأقل التكاليف.

لم يكن الحال كذلك مثلا فى «سراييفو» عاصمة البوسنة - التى أصبحت لها إدارة محلية مُشْتَرَكة بين ثلاث جماعات طائفية أو عرقية: المُسْلِمين السلاف (البوشناق) - المسيحيين السلاف الصرب (الأرثوذكس) - والمسيحيين السلاف الكروات (الكاثوليك).

لم يكن الحال كذلك أيضا فى «كوسوفو»، فقد كان هناك المسيحيون السلاف من الصرب الأرثوذكس، ثم كان هناك المُسْلِمون الألبان الذين دخلوا من بلادهم مع جيوش العثمانيين التى اتخذت من «كوسوفو» قاعدة لزحفها نحو القَلْب السلافى.

وهكذا فقد أصبحت «كوسوفو» أرضاً يوجوسلافية هَرَب أو تراجع جزء كبير من أهلها الصرب المسيحيين أثناء قتالهم مع العثمانيين، ثم حَلَّت محلهم كتلة بشرية ألبانية ومُسْلِمة، والأصول العرقية لهذه الكتلة الألبانية ليست سلافية مثل بقية يوجوسلافيا، لكنها تركية وقوقازية. وكانت بُؤرة الخَطَر أن هؤلاء الألبان عاشوا فى «كوسوفو» سنين طويلة، فإذا أرادوا الحَقَّ فى تقرير مصيرهم فإن انسلاخهم من أرض السلاف الجنوبيين مُؤَكَّد، ولأن مساحة المنطقة محدودة وعَدَد الناس فيها قليل (ما بين ٢ ـ ٣ ملايين نَسَمَة) ـ إذن فإن النتيجة الحَتْمِية إذا أخَذَت الدعاوى مَداها ـ هى التِحاق «كوسوفو» بألبانيا، وهكذا يَحِلّ مشروع «ألبانيا الكبرى» مَحَلّ مشروع «صربيا الكبرى» ـ ودون ذلك أهوال!

وهكذا فإنه مع بداية التسعينات كانت المَدافِع والبَنادِق وألسنة اللهَب هى لُغة الحِوار من أجل تقرير المصير فى يوجوسلافيا كلها (ماعدا «سلوفينيا» بالتحديد!)

□ □ □

فى ذلك الوقت وحتى سنة ١٩٩٢ ـ كان الرئيس «جورج بوش» سَيِّد البيت الأبيض، وكان وزير خارجيته هو صديقه الحميم من تِكْساس ـ «جيمس بيكر».

وكان كلاهما ـ ومعهما عشرات أو مئات المساعدين والمستشارين فى الشئون الدولية ـ يُراقِبون السقوط السوفيتى الكبير وتوابع زلزاله فى أوروبا الشرقية.

وكما يبدو من كل الشواهد والقرائن فإن التفكير فى البيت الأبيض وقتها جرى على النحو التالى:

١ ـ إن سقوط الاتحاد السوفيتى فُرْصة أتيحت للولايات المتحدة أخيرا تَفْرِض سلطتها وتُدير أمور العالم كما يناسبها، لأن القوة النووية الوحيدة التى كانت قادرة على تحديها تهاوت وتَحَوَّلت إلى أنقاض.

٢ ـ إن التحدى الذى يواجه الولايات المتحدة فى مستقبل منظور يتمثل فى صعود أوروبى وآسيوى (وهو فى الحالتين اقتصادى حتى هذه اللحظة، لكن القاعدة أن كل قوة اقتصادية لا بد لها من تعبير سياسى يناسبها). والصعود الأوروبى يتمثل بالدرجة

الأولى فى ألمانيا المُوَحَّدة فى قلب أوروبا، كما أن الصعود الآسيوى يتمثل بالدرجة الأولى فى النمو اليابانى المتواصل على حافة آسيا، ثم فى الصين التى تتحقق فيها نبوءة «نابليون الأول»: «إن العالم سوف يرتجف ذات يوم إذا استيقظ العِمْلاق الأصفر النائم فى آسيا».

٣ - إن كلا من ألمانيا المُوَحَّدة واليابان استطاعت بلوغ الدرجة التى صعدت إليها لأنها استفادت من حماية مِظَلة القوة الأمريكية - أى أن أمن الاثنتين لم تقع تكاليفه على أصحابه وإنما وقعت على الولايات المتحدة الأمريكية - وقد آن للذين تَهَرَّبوا من تكاليف أمنهم أن يدفعوا المستحق عليهم.

٤ - لكن الولايات المتحدة لا تريد أن يكون دَفْع المستحقات المتأخرة على ألمانيا واليابان عن طريق قيام البلدين ببناء قوة عسكرية ضخمة تشتمل بالضرورة على ترسانة نووية خطرة - وإنما يمكن للبلدين دفع المستحقات عليهما بأدوار يتكفل بها كل واحد منهما فى منطقة جواره.

بمعنى مباشر:

- أوروبا - وألمانيا فى وسطها - عليها أن تتكفل بمسئولية ضبط الأمور والمساعدة بكل الوسائل على تدبير الأحوال فى أوروبا الشرقية السابقة (بما فى ذلك يوجوسلافيا).

- ثم إن اليابان كجزيرة حاكمة على طرف القارة الآسيوية - عليها أن تتأكد من أن الصين فى مكانها لا تتجاوزه بدور يمنحها السيطرة على جنوب شرق آسيا (وهو إلى حد كبير حوض للحضارة الصينية جاهز للنفوذ الصينى).

وبدون كل المساحيق الدبلوماسية - فإن الولايات المتحدة على هذا النحو كانت تقصد إلى إشغال أوروبا - وربما إثقالها - بمُهِمّة باهظة التكاليف - وفى الغالب مستحيلة - على جبهة أوروبا الشرقية. كما أنها كانت تقصد إلى إلهاء اليابان - وربما توريطها - بمهمة خطرة إزاء الصين.

إن ألمانيا لم تكن - فيما ظهر - مُسْتَعِدَّة لما رسمته لها الولايات المتحدة، بل رَسَمَت لنفسها، إلى حَدٍّ الخروج على الإجماع الأوروبى والاعتراف باستقلال «سلوفينيا» رغم إحتجاجات واشنطن.

ثم إن اليابان - كذلك تَبَيَّن - رَسَمَت لنفسها سياسة اقتراب من الصين وليس سياسة تناقض معها، وأول الدواعى أن احتمالات السوق وفُرَص الاستثمار فى الصين مَهولة.

(وهكذا لم تنجح سياسة تَوْريط أوروبا الغربية فى أوروبا الشرقية، ولا سياسة ضَرْب الصين باليابان ـ ثم تخلو القمة الدولية للولايات المتحدة وحدها ... الآن ومستقبلاً ـ وربما إلى الأبد المنظور).

وكانت سنة ١٩٩٢ سنة انتخابات الرئاسة فى الولايات المتحدة، وبطبيعة الأمور فقد دخلت السياسة الخارجية لتكون موقعة من أهم مواقع المعركة الانتخابية.

ولأن أصداء المدافع والبنادق، كما أن صُوَر بُقَع الدَم ولَهَب الحريق مما كان جاريا فى يوجوسلافيا، راحت تصل إلى واشنطن بالسمع والنظر، مُلِحّة على الصفحات المكتوبة وعلى الصور المُلَوَّنة ـ فإن يوجوسلافيا أصبحت موضوعا مُهِمّا فى الحملة الانتخابية.

ولقد بدأ «كلينتون» الطامح للرئاسة وقتئذ فى استغلال ما يجرى على الأرض اليوجوسلافية لإظهار عَجْز إدارة «بوش» عن احتواء مأساة سياسية وإنسانية فادحة، وكانت التُهَم المُحَدَّدة التى يوجهها «كلينتون» إلى «بوش» هى: نَقْص الخيال السياسى ـ ونَقْص الحساسية للمآسى الإنسانية ـ والتَخَلّى عن الدور القيادى للولايات المتحدة الأمريكية فى وقت تحققت لها فيه السيادة على العالم ـ حتى أنها تَرَكَت شرق أوروبا بما فيه يوجوسلافيا لمحاولات أوروبية قاصرة، ولأمم متحدة عاجزة!

وكان «بوش» يَرُدّ على «كلينتون» بأنه قليل الخِبرة بالسياسة الخارجية ... رَجُل قضى نصف شبابه يهرب من الخدمة العسكرية فى فيتنام، ثم قضى النصف الآخر من هذا الشباب سياسياً ريفياً يطمح إلى أن يكون حاكماً فى ولاية «أركنساس»، وتلك حدود معلوماته عن العالم وصراعاته الكبرى!

لكن «كلينتون» ـ للحَق ـ وهذه شهادة له ـ كان يستند فى معارضته لسياسة «بوش» إلى اعتبارات أخرى مُضافة إلى رغبته فى التشهير بعَجْز منافسه الذى كان يملك ميزة كبرى عليه هى: وجوده فعلاً فى البيت الأبيض ـ وقيادته فعلاً لمعركة فى الخليج سنة ١٩٩١ ـ وهى معركة بَدَت باهرة فى نتائجها دون تضحية تقريباً على الشعب الأمريكى: فالتكاليف فى الدَمّ قليلة ـ والتكاليف فى المال دفعها آخرون وزادوا عليها بحيث أصبحت الحرب ـ لأول مرة فى التاريخ ـ رِبْحاً أكيدا وصافياً يَصِل إلى مئات من بلايين الدولارات، سواء بسبب الفائض من اعتمادات الحرب، أو ـ وهذا هو الأهَمّ ـ من رُزَم عُقود السلاح التى أُبْرِمَت مع دول المنطقة لبيع معجزات التكنولوجيا الجديدة التى كسبت حرب الخليج وتستطيع وحدها بلَمْسة على زِرّ أن تربح كل الحروب!

والحاصل أن «كلينتون» أضاف إلى معارضته لسياسة «بوش» - مُهِمّة البحث عن بدائل إستراتيجية للدور الأمريكى فى عالم جديد - وقد أَوْكَل هذه المُهِمّة لمجموعة بحث أو لمجموعات بحث بعضها تابع لحَمْلَته الانتخابية أو تابع لمَعاهد ومراكز إستراتيجية مُتَخَصِّصة. وكان طلبه هو: تَصَوُّر جديد لممارسة إستراتيجية أمريكية عُظْمى "Grand Strategy" فى عُصور مُتَغَيِّرة.

□ □ □

وعندما فاز «كلينتون» فى انتخابات الرئاسة سنة ١٩٩٢ وأصبح رئيسا للولايات المتحدة، ودخل بطاقم إدارته الجديد إلى البيت الأبيض، وخطا إلى المكتب البيضاوى ليجلس على الكرسى الأعلى فى السياسة العالمية - كان طبيعيا أن يفتح - أول ما يفتح - ملفات الإستراتيجية العظمى الجديدة التى أُعِدَّت له والتى اعتمدها سياسة لإدارته.

كانت سياسة «كلينتون» الجديدة سياسة هجومية - بديلاً عن سياسة «بوش» التى اعتبرها الرئيس الجديد سياسة دفاعية...

بمعنى أوضح فإن الولايات المتحدة لا تحتاج فى عالم جديد تريده - إلى أوروبا غربية تَغْرَق فى وُحول أوروبا الشرقية، ولا إلى يابان تَتُوه فى مجاهل الصين - وإنما تحتاج الولايات المتحدة أن تَقود، وأن تَقود فى قلب العالم ومن هذا القلب - وأداتها فى القيادة موجودة، ومكانها فى مُقَدِّمة هذه الأداة مُعْتَرَف به: على رأس حِلْف الأطلنطى.

....

....

[إن الأمم المتحدة تصلح خلفية للمراسم الاحتفالية، ولكنها تعجز أن تكون مقدمة لأى إجراءات عملية. والأمم المتحدة (فى حسابات الولايات المتحدة وتقديراتها) لاتصلح مقرا لقيادة العالم فى هذه الظروف. فالأمم المتحدة تضم فى عضويتها: «كل من هَبّ ودَبّ فى مجتمع الدول» - وبعضهم يأخذ جَدًّا أكثر من اللازم مطالب عضويته ويتصرف - أو على الأقل يتكلم - كأنه صاحب شأن فى كل قضية، له فيها رأى يُسْمع وصوت يُعَدّ.

ثم إن الأمم المتحدة لها أطر قانونية، وبعضها واضح بحيث يعطى من يريد فرصة للاحتجاج والتعطيل مستنداً إلى مبدأ يمسك به نص.

وثانيا فإن مجلس الأمن - وهو إرادة الأمم المتحدة - يضمن حقاً فى الاعتراض مؤكدا لدول خمسة فيها اثنتان على الأقل يصعب - أو يسهل - التنبؤ بمواقفهما.

وأخيرا فإن الأمم المتحدة تديرها وتحركها بيروقراطية «بطيئة مترهلة» تعجز عن الاستجابة السريعة فى الاتجاهات المطلوبة.

هذا كله بينما الظروف والدواعى الآن تقتضى العمل من داخل تجمع لديه فرصة التوافق العريض، وإمكانية العمل السريع، وقابلية ترك مسئولية الإدارة للولايات المتحدة بمبدأ «أنا أدفع - إذن أنا أقول» - ترجمة للحكمة الأمريكية المأثورة والمشهورة!] «I pay, I say».

....

....

كان بعض الناس يتصَوَّرون أن مُهِمّة حِلْف الأطلنطى انتهت بنهاية الحرب الباردة بالسقوط الكبير للاتحاد السوفيتى - لكن ذلك التَّصَوُّر الآن - بدا فى نظر «كلينتون» تَصَوُّرا ضَيِّق الأفُق محدود الطموح، لأن حِلْف الأطلنطى يَمْلِك قابلية الحياة بعد انتهاء مُهِمَّته الأصلية - ويَتَأكَّد ذلك إذا عَثَر الحِلْف لنفسه على مُهِمّة جديدة فى أزْمِنة مُسْتَجَدّة.

□ □ □

وهكذا بدأت السياسة الأمريكية تعمل على تحويل حِلْف الأطلنطى إلى مركز قيادة مُتَقَدِّم لتحقيق استراتيجية عُظْمى اعتمدها الرئيس «بيل كلينتون»، وكانت المعالم البارزة لهذه السياسة على النحو التالى:

١ - كنقطة بداية فإن حِلْف الأطلنطى لازِم لما بعد الحرب الباردة لزومه أثناءها، بل لعل دوره بعدها يمكن أن يكون أكثر لزوما لأنه أكثر إيجابية، فهدفه لم يَعُد صَدّ عدو رئيسى مَوْجود أو مُحْتَمَل، وإنما هدفه الآن تأمين عالم لم يَعُد فيه عدو رئيسى موجود - بصرف النظر عن المُحتَمَل لأن هَمَّه مُؤَجَّلٌ إلى المَدى المَنْظور!

٢ - إن ذلك يتطلب توسيع نطاق حِلْف الأطلنطى بحيث لا يكون قاصراً على هؤلاء الذين أنشأوه ليدافع عنهم - وإنما يجب أن يتسع الحِلْف لكى يدخل فيه كل الراغبين والمؤهلين للمشاركة فى هدفه الجديد. وهكذا دخل الحِلْف إلى بعيد فى أوروبا الشرقية ليفسح مكاناً لبولندا والمَجَر والتشيك كدُفْعة أولى - يليها مَزيد.

٣ - وبما أن الهدف لم يَعُد التصدى لعدو رئيسى فإن توسيع نطاق حِلْف الأطلنطى بالمساحة لا بد أن يرافقه تعميق لمهامه. فالاقتصار على المهام العسكرية كان منطقياً فى

الزمن القديم، وأما فى زمن جديد فإن الحِلْف يحتاج تعريفاً مُتَطَوِّرا لمعنى «الأمن». وفى محاولات التعريف المُتَطَوِّرة فقد ظَهَر لمعنى الأمن - ضمن ما ظَهَر - أن بين أسبابه ما يقتضى الاهتمام بالنزاعات الإقليمية خصوصا تلك التى تكون ميادينها قريبة من مجال نشاط الحِلْف - وإيضا جواره لأن الجوار حدود مباشرة.

٤ - إن الأمن فى تعريفاته المُسْتَجَدّة أصبح مُسْتَغْنياً ليس فقط عن فِكرة العدو الرئيسى ولكن عن فِكرة العدو أصلاً - وعلى الأقل بالتعريفات التقليدية لَمن هو العدو.

فالعدو - إذا جاز التعبير - لم يَعُد ذلك الطَرَف الذى يتمسك بسيطرته وامتيازاته ونفوذه بدعوى المصالح القائمة، وإنما العدو يمكن أن يكون ذلك الذى يتمسك بمواقفه، ويَعْتَرِض أو يُعَرْقِل تعريفات الأمن المُسْتَجَدّة ولو بادعاء السيادة الوطنية أو اختلاف الهوية الثقافية.

وهكذا فإن حِلْف الأطلنطى ضِمن محاولاته لإعادة تعريف الأمن ولضرورات إيجاد شرعية لإستراتيجيته - عليه إعادة تفسير القانون الدولى عموماً، وميثاق الأمم المتحدة بالذات، لكى يفتح الأبواب على آخرها للأمن «التقليدى» وللأمن «المُتَطَوِّر».

ثم إنه إذا لم تتسع التفسيرات المُسْتَجَدّة للقانون الدولى ولميثاق الأمم المتحدة لكل المطلوب منها - فإن هناك شرعاً جديداً لمجتمع الدول لا يصح نسيانه، وهو الميثاق العالمى لحقوق الإنسان، فهناك فى هذا الميثاق «قِيَم» يُمْكِن أن تكون ذرائع الدفاع عنها من دعائم الأمن فى تعريفاته الجديدة.

٥ - إن هناك منطقتين بالتحديد لا بد للحِلْف أن يقترب منهما مباشرة لأنهما بالفِعْل على حدوده، بل وأكثر لأنهما فى كثير من المواقع على الْتِحام عميق بحدوده، بل ونَفاذ إلى داخل هذه الحدود - والمنطقتان هما: البلقان فى الشرق الأوروبى، والبحر الأبيض عند شواطئه الجنوبية وحولها كل العالم العربى - وعلى طرفه إسرائيل.

٦ - ولأن البحر الأبيض وشواطئه الجنوبية كان - ولا يزال - منطقة تفاعلات محكومة (بُلْدان عربية طَيِّبة وصديقة، وبُلْدان عربية مُشاكِسة ومَضْروبة، وعملية سلام بين العرب وإسرائيل مُتَعَثِّرة، لكن «مسيرتها» مثل القطارات القديمة تمشى خُطْوة وتتوقف خُطْوة، وهو فى مُعْظَم الأحيان مَشْى ووقوف دون حوادث!) - فإن احتمالات المستقبل مجهولة، وكل مجهول ينطوى على احتمال خطر.

وعلى هذا كله فإن المنطقة المُسْتَوْجِبة للفعل السريع - هكذا تقول الإستراتيجية

العظمى الجديدة - هى الشرق الأوروبى - البركان النشيط - وبعده الشرق الأوسط - البركان الخامد (الآن).

....

....

وهكذا بدأ حِلْف الأطلنطى يَتَوَجَّه باهتمامه إلى البلقان عموما، وإلى يوجوسلافيا بالتحديد.

□ □ □

وهنا - فإن الطبائع البشرية تعود لتؤكد سيادتها فوق كل الاعتبارات الأخرى:

أى أن الإستراتيجية - عُظمى أو غير عُظمى - تُنَفِّذُها سياسة. ثم إن تنفيذ أى سياسة مَوْكول إلى سُلْطة تَمْلك حَقَّ القرار، والسُلْطة التى تَمْلك حَقَّ القرار فوق رأسها رَجُل أو امرأة - بَشَر.

على أن القرار السياسى - الصادر عن بَشَر - حين يكون أمريكياً تكون له خصائص يصعب إنكارها ويصح الاعتراف بها:

أولها - أن السياسة الأمريكية، لأسباب عميقة الجذور ترجع إلى نشأة الدولة الأمريكية ذاتها، تَعْتَمِد مَنْطِقاً لا يعترف بالتاريخ - لأن الدولة الأمريكية ذاتها نشأة حديثة، وكان شاغلها أن تترك كل همومها ومواريثها وراءها عند الهجرة إلى العالم الجديد - وهكذا فإن القانون الموجه دواما للسياسة الأمريكية هو: البداية من هذه اللحظة، وقبلها حِكايات التاريخ الطويلة لا تُساوى إضاعة الوقت فيها - وذلك من شِبْه المُسْتَحيلات فى مشاكل لم تُكْتَشَف مرة واحدة مثل القارة الأمريكية فى تَجْربة «كريستوفر كولمبس»، ثم إن ذلك هو المستحيل ذاته حين يكون التاريخ مُقَدِّمة أزمة وليس خَلْفِيَّتها.

وثانيها - أن السياسة الأمريكية، لأسباب عميقة الجذور أيضا ترجع إلى نشأة الدولة الأمريكية ذاتها، تَعْتَمِد منطقاً يرى أن القوة هى القانون. تجربة أن المسدس فى يَدِ المُسْتَوْطِن الأمريكى موجه إلى الهندى الأحمر له شرعية تملك الأرض - وأما القانون الذى لم يكن الهندى الأحمر يملك غيره فى الدفاع عن نفسه فهو «تعطيل للتَقَدُّم» لا داعى له.

وثالثها - أن رئيس الولايات المتحدة، وهو مُوَجِّه السياسة الأمريكية ومديرها، لديه

معركة انتخابية كل أربع سنوات، ومصيره مُعلَّق بأجواء وأهواء انتخابية ليست هى بالضرورة رؤى الإستراتيجية العظمى الجديدة لـ«عالم جديد».

وهَمٌّ كل رئيس أن يظل رئيساً، ولما كان الرؤساء فى مجتمعات ديمقراطية لا يَصِلون أو يحتفظون بمقاعدهم إلا عبر صناديق الإنتخابات - إذن فإن الرئيس الأمريكى - أى رئيس أمريكى - مُسْتَعِدٌّ فى أى وقت للدخول والخروج، والتَقَدُّم والتراجع، والشِدّة واللين حيث تستدعيه مصالحه هو، قبل أن تستدعيه سياسة الدولة، وتَعِلَّته الظاهرة بالطبع أن بقاءه فى منصبه هو الضرورة القصوى المطلوبة لسياسة الدولة، وهذه السياسة قوية إذا كانت الصناديق - وقبلها إستطلاعات الرأى - تقول أنه الأقوى، ثم إن هذه السياسة ضعيفة إذا كانت الصناديق - والإستطلاعات - تقول أن الرئيس الأضعف!

□ □ □

وكانت هذه الخصائص للسياسة الأمريكية كلها فاعلة عندما توجهت واشنطن على رأس حِلْف الأطلنطى - باهتمامها إلى يوجوسلافيا.

- وبدت مشكلة ما تبقى من يوجوسلافيا مُتَعَثِّرة بسبب تفاعلات التاريخ - وهى حَيّة.

- ثم بدت المشكلة أكثر تعقيدا لأن صِربيا - وفيها «ميلوسوفيتش» - هى الجزء الأكبر من القوة على الأرض - لكن الآخرين لديهم ما يكفى للتصدى ضِدَّ حَلٍّ صِربى نهائى يخلق أمراً واقعاً مفروضاً بالسلاح.

- ثم تَدَخَّلَت المصالح الانتخابية للرئيس الأمريكى!

وعلى سبيل المثال فإنه فى معركة إعادة انتخابه لرئاسة الولايات المتحدة سنة ١٩٩٦ - كان موقف «كلينتون» شديد الضعف أمام نفوذ جمهورى زاد ضغطه حينما استطاع «نيوت جينجريتش» الزعيم الجمهورى العتيد أن يقود حزبه (فى انتخابات التجديد النصفى للكونجرس سنة ١٩٩٤) - إلى أغلبية جمهورية سيطرت على السلطة التشريعية فى الولايات المتحدة، وتمكنت بالفعل من تطويق «كلينتون» وهَزّ ثقته بنفسه وثقة حزبه (الديمقراطى) به.

....

....

[فى هذا الموقف الضعيف يكشف مدير الحملة الانتخابية لـ«كلينتون»، وهو «ديك

موريس»، تفاصيل مُدْهشة عن تقاريره ونصائحه للرئيس، وعن لقاءاته وحواراته معه، فى محاولة الاثنين معاً كسب معركة الرئاسة الثانية والتّغلُّب على صدمة النجاح الجمهورى الظاهر فى انتخابات التجديد النصفى للكونجرس.

ينشر «موريس» - على سبيل المثال - نصوص تقارير كتبها لـ«كلينتون» (ثم نشرها بنصوصها فى كتاب من مائتى صفحة بعنوان «وراء المكتب البيضاوى») وكان بين ما جاء فى أحدها قَوْل «موريس» مُوَجِّهاً كلامه لـ«كلينتون»:

«إن الجمهوريين نجحوا فى انتخابات الكونجرس لأنهم قَدَّموا للناخبين برنامجاً أعجبهم، وعليك أن تسرق من الجمهوريين هذا البرنامج وأن تأخذه لنفسك وتتركهم فى العراء، وأنت تستطيع تنفيذ برنامجهم أفضل منهم لأنك فى البيت الأبيض فعلاً»!

وفى مجال السياسة الخارجية فى يوجوسلافيا مثلاً - يروى «ستيفانوبولوس» وهو المستشار الصحفى لـ«كلينتون» فى كتابه «تصرفات إنسانية» أنه حاول تنسيق سياسة البيت الأبيض فى يوجوسلافيا مع مدير الحملة الانتخابية للرئيس - «ديك موريس». ويروى «ستيفانوبولوس» أن «موريس» قال له:

«لا يهمنى إذا كان الصرب يَذْبَحون المُسْلِمين أو لا يَذْبَحونهم. إننى نصحته بأن يضرب «ميلوسوفيتش» إلى أن تخرج مصارينه من بطنه - وحتى يبدو «بيل» (كلينتون) أمام الناس رئيساً قوياً»].

□ □ □

وفى خريف سنة ١٩٩٨ وبداية الشتاء نحو سنة ١٩٩٩ - كانت الأزمة فى البلقان تتعقد، ولكن الرئيس الأمريكى «كلينتون» كان غارقاً حتى أذنيه فى فضيحة «مونيكا لوينسكى». ولم تكن صورته وحدها هى التى تَرَدَّت فى الوَحْل أمام العالم - ولكن صورة الولايات المتحدة تَرَدَّت أيضا.

ويَظْهَر أن الرئيس الأمريكى أراد أن يبدو قوياً (على نفس الطريقة) لأسباب تتعلق بسمعته ودوره التاريخى بينما رئاسته تقترب من نهايتها - وفى ذات الوقت فإنه يَظْهَر أن بعض أركان الإدارة الأمريكية - وفى مقدمتهم «مادلين أولبرايت» (وهى أصلاً مُهاجِرة من شرق أوروبا) - أرادت أن تستعيد للولايات المتحدة بعضاً من الهيبة الضائعة - وهنا بدأت السياسة الأمريكية تنزع إلى التّلويح بالسلاح فى يوجوسلافيا.

لكن استعمال السلاح فعلاً جرى بالإنزلاق على السلالم وليس بالصعود على درجاتها!

- فى البداية ـ وهذا واضح من كل الشواهد والدلائل ـ فإن إدارة الرئيس «كلينتون» تَصَوَّرَت أن التلويح باسْتِخْدام القوة سوف يجعل «ميلوسوفيتش» يُفَكِّر مرتين.
- وعندما وَجَدَت إدارة «كلينتون» أن «ميلوسوفيتش» لم يفكر إلا مرة واحدة ـ فقد كان الظن أن أفضل أسلوب لإقناع «ميلوسوفيتش» أن يفكر مرتين هو حَشْد القوة التى يمكن أن تضربه فعلاً بحيث يراها بعَيْنَيْه...
- ولم يفكر «ميلوسوفيتش» مرتين أيضاً. وبدأ فى واشنطن نوع من شبه اليقين بأن «ميلوسوفيتش» سوف يفكر مع أول موجة طائرات تُغير على مواقعه ـ ساعتها سوف يعرف أن ما يراه بعَيْنَيْه ليس إيهاماً ولكنه تَأهُّبٌ لجَدٍّ لا هَزْل فيه.
- وحين بدأ الضرب راح عدد من المراقبين والمحللين العسكريين الأمريكيين يقول أن «كلينتون» ليس جاداً فى ضرب يوجوسلافيا، والدليل أنه فى العشرين يوماً الأولى من ضرب يوجوسلافيا فإن طيران الأطلنطى ألقى عُشْر ما ألقى على العراق فى يوم واحد.

ثم إن الصواريخ المُسْتَخْدَمة فى يوجوسلافيا كانت بقوة ٥ ١٪ من الصواريخ التى اسْتُخْدِمَت ضد العراق.

وبالرغبة فى إثبات التصميم فإن «كلينتون» راح يُكَثِّف الضربات حتى يُظهِر جدِّيَّته.

ولم يَعُد أحد الطرفين يفكر: لا «ميلوسوفيتش» فَكَّر مرتين، ولا إدارة «كلينتون» أعادت تقدير حساباتها.

- ثم زادت قَسْوة الضرب لأن «العِناد» لم يَعُد يوجوسلافياً فقط ـ وإنما تَحَوَّل «العِناد» إلى مَرَضٍ مُعْدٍ أصاب البيت الأبيض، وتفاقمت العواقب إلى درجة أرهقت يوجوسلافيا مادياً وإنسانياً ـ لكنها فى نفس الوقت أرهقت أطرافاً فى حِلْف الأطلنطى بينها ألمانيا وإيطاليا واليونان وغيرهم.

....

....

[وهكذا تصبح هيبة الدول ومكانة رؤسائها مرهونة بالقدرة على التدمير والقتل، حتى لا يعود هناك شك فى مَنْ هو الطرف الذى يتعين عليه أن يصرخ بالألم أولاً.

بمعنى أدق لا تصبح هناك علاقة بين استعمال القوة، وبين مساحة مطالبها الأخلاقية والقانونية والإنسانية والسياسية].

□ □ □

إن نظام «ميلوسوفيتش» كان يستحق بالفعل أن «يُضْرَب حتى تَخْرُج مصارينه من بَطْنِه» على حد تعبير المستشار الأقرب إلى الرئيس «كلينتون» ـ لكن المشكلة أن «كلينتون» عندما قَرَّر التدخل عسكرياً قرره على الطريقة الأمريكية. حرب بغير تكاليف. ومع أنها حرب بغير تكاليف (بشرية) فإنها حرب بغير نهاية واضحة ـ بغير تَصَوُّر مسبق ـ لأن حساباتها ليست مُلِحّة على نحو مباشر!

كان «الهدف المُعْلَن» هو وَقْف الطرد المُنَظَّم للألبان المُسْلِمين فى «كوسوفو» ـ وكان يُمكِن لهذا الهَدَف المُعْلَن أن يكون مفهوماً.

لكن المشكلة أنه عندما اقتصرت العمليات على الضرب الجوى وحده فإن «ميلوسوفيتش» انتهز الفرصة أكثر ليُحَوِّل الطرد المُنَظَّم إلى إبادة كاملة توصلت إلى تفريغ «كوسوفو» تقريبا من سكانها الألبان المُسْلِمين. وبالأرقام فإنه فى بَحْر خمس سنوات قبل الحملة الجوية الأمريكية (الأطلنطية!) على الصرب ـ بلغ عدد الذين جرى ترحيلهم من الألبان المُسْلمين قرابة أربعين ألف نَسَمَة ـ أما فى ظلِّ الحملة الجوية الأمريكية (الأطلنطية) ـ ثمانين يوماً حتى الآن ـ فقد اختفى بالإبادة أو بالطَرْد مليون مُسْلِم ألبانى. ومعنى ذلك أن «ميلوسوفيتش» تَحَمَّل ضربة مُوجِعة فى بلجراد وحولها ـ لكنه حَقَّق هَدَفاً كبيراً من أهدافه فى «كوسوفو».

والسؤال الذى يتبقى فى النهاية هو: ما الذى حققته الولايات المتحدة من مزايا تخدم إستراتيجيتها العظمى، سواء وحدها كدولة مُتَفَرِّدة بالقِمّة، أو صُحبة مع غيرها على القِمّة من حِلْف الأطلنطى؟

ـ لقد تَحَوَّل عملها العسكرى من غارات مُكَثَّفة بالطيران ـ إلى جَرّافة هائلة تهدم مبانى قائمة، وتزيح أنقاضاً متراكمة، وتُغَطّى على قبور قديمة لتفتح حُفَراً لقبور جديدة!

ـ ولقد أضافت إلى عُقَد الصرب ـ «العِناد» إلى حَدّ المُكابرة، والقُبول بالموت إلى درجة الاستشهاد ـ عُقْدة إضافية تلحق بِعُقَد سابقة تجعل تاريخهم فى خصومة دائمة مع

حاضرهم ـ وتلك مشكلة تؤثر على شعب أكثر مما تؤثر على «مُهَيِّج» صربى يبدو أن تاريخ البلقان يملك خبرة طويلة فى استنساخ عشرات منه!

ـ ثم إن العذاب الإنسانى المُرَوِّع الذى تَتَبَدّى صوره فى مشاهد الحرب والدمار والموت والنزوح وترك الأوطان ـ زاد بالتدخُّل العسكرى أضعاف أضعاف المَرّات عما كان ولم يَقِلّ.

ـ والغالب أن التدخل الأجنبى وما أعقبه سوف يُضيف إلى الثارات اليوجوسلافية ثارات جديدة ـ فِعْل ورَدّ فِعْل فى سلسلة لا تنتهى طالما الغرائز ـ والعقول أيضا ـ مشحونة بكل مخزوناتها القابلة للاشتعال مع أى تهييج.

ـ ومن المشكوك فيه أن يعود مليون لاجئ ألبانى خرجوا من «كوسوفو» إليها مرة ثانية إلا إذا تحققت لهم ضمانات أمن يُعْتَمَد عليها أكثر من الاعتماد على الوعود والعهود.

ـ ثم إن طلب ضمانات أمن من هذا النوع ـ يحتاج وقتاً طويلاً حتى تتأكد مصداقيته، وذلك يصعب أن يتم إلا بتواجد عسكرى دولى أو أجنبى له تكاليفه وله مخاطره أيضاً.

....

....

فوق هذا وإضافة عليه فإن عمل حلف الأطلنطى وسط بقايا يوجوسلافيا ـ ومن البداية حتى هذه اللحظة ـ قد وضعه على خطوط تماس مع الاتحاد الروسى تكاد تصل إلى درجة الاحتكاك.

والاتحاد الروسى كله حقل ألغام مدفون تحت الصقيع، وخريطة هذا الحقل ضائعة لا يملكها أحد، لكن الظاهر من هذه الخريطة المدفونة تحت الصقيع يكفى وحده لإثارة الخوف:

ـ دولة عظمى مُترنحة فى شبه دوار.

ـ وترسانة نووية مُهمَلة إلى درجة الاستهتار.

ـ وجيش هائل مجروح فى كبريائه ـ وذلك أخطر أنواع الجروح للبشر وللجيوش!

....

....

□ □ □

وباختصار فإن هناك قضايا ومشاكل وأزمات يصعب أن يكون الحل لها هو استخدام السلاح خصوصا إذا كان استخدام السلاح بالانزلاق على السلالم وليس بالتصاعد على درجاتها خطوة لها مقاس بعد خطوة لها مقاس.

لكن الظاهر أن عالمنا عليه انتظار تجارب كثيرة من هذا النوع.

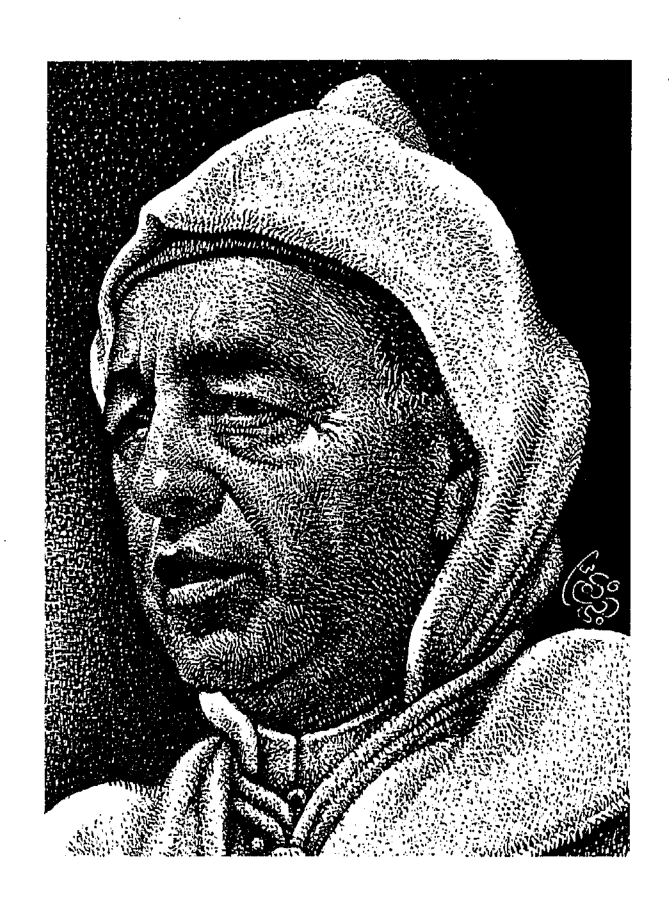
ذلك أن هناك أفكاراً لا تزال بعد مواد أولية تحتاج إلى صَهْر وتنقية وصَبّ، وهناك خطوطا تجرى على لوحات رسم دون أن تتحدد اتجاهاتها وزواياها وأشكالها المطلوبة بعد، وهناك أحماضا مُلَوَّنة ما زالت تجرى وتفور فى أنابيب وأوانى على موائد معامل تبحث عن خلطات وتركيبات سحرية.

والمأساة أنه فى بعض ذلك تَتَحَوَّل الأقاليم إلى ساحات للاختبار، وتَتَحَوَّل الشعوب إلى ما يُشبِه حيوانات تجارِب لا يحميها قانون ولا تشملها رَحْمة!

وهذه بالفعْل مأساة، والنظر فيها ضرورى، خصوصا إذا تَذَكَّر من يعنيهم الأمر أن الإستراتيجية العُظمى الجديدة فى إطار الأطلنطى لها أولويتان: البلقان شرقاً، وحوض البحر الأبيض جنوباً.

ولقد فَرَضَ البلقان نفسه بتداعى الحوادث فى يوجوسلافيا - على اهتمامات الإستراتيجية الجديدة، ولكن البحر الأبيض والعالم العربى بشواطئه وبعُمْقه - يستطيع أن يَصِل إلى بعيد عِبْر الحدود المباشرة وعبر الجوار العريض، وحتى شواطئ البحار من الأبيض، إلى الأحمر، إلى الأسود، ثم إلى المحيط الهندى ذاته. وقد نلاحظ أنه عند البحر الأسود يحدث الاتصال بين المنطقتين المفتوحتين لـ«رسالة» ولـ«دور» حِلْف الأطلنطى: البلقان هناك - ونحن هنا!





مفكرات فى ملفات ملكية (١)

المعلوم والمكتوم

فى دور الملك الحسن وسياساته

مفكرات فى ملفات ملكية (١)(*)

المعلوم والمكتوم فى دور الملك الحسن وسياساته

المفكرة رقم ١

عن الملك حسين ..
مجرد صفحة مترجمة عن أصل

[١]

بداية فإن «شخصية المَلِك الحسن» مَلِك المغرب الراحل ـ هى موضوعى اليوم. والذى يدعونى إليه أننى اقتربت قبل ذلك من «شخصية المَلِك حسين» وكتبت عنه ـ قبل سبعة شهور ـ مقالا فى هذه المجلة ـ أثار جدلاً، وما زال!

والواقع أن هناك صلات بين الرجلين : «الحسن» و«الحسين» ـ وهى صلات عريضة وعميقة بأكثر من مصادفة أننى كتبت عن أحدهما ـ وإذن وبالتداعى الآلى فمن الضرورى أن أكتب عن الآخر!

والصلات العريضة والعميقة بين الرجلين تستمد أسبابها من عناصر مُتعددة :

أولها : مقولة النسب، ومع احتياج المقولة للفحص والدرس ـ فإن الأخذ بها سواء بدواعى التصديق التاريخى أو بمطالب الشرعية السياسية يخلق عند أصحابها نوعاً من مظنة العصمة الموروثة تعفيهم من أية قيود أو عقود تلزم غيرهم من الناس.

(*) اكتوبر ١٩٩٩.

وعلى سبيل المثال فإنه فى حين كانت مقولة المَلِك «حسين» هى «آل البيت»، فإن مقولة المَلِك «الحسن» كانت «إمارة المؤمنين»، وكلتا المقولتين جَرَّت وراءها ـ ولو بالإيحاء ـ هذا النوع من مَظَنَّة العِصْمة، والمشكلة فيه أنه يغرى أصحابه بالحياة فى مناطق مختلفة فى ذات الوقت، وهى مناطق بعضها ظاهر أمام الناس مقيد بتكاليف لها ضوابطها، والآخر خفى يملكه أصحابه وحدهم بـ«مَظَنَّة العِصْمة» وهم أحرار فيه لا يقدمون لغيرهم حساباً عنه.

وكانت تلك بالفعل أبرز الظواهر فى سياسة كل من «البيت الهاشمى» فى الأردن، و«البيت العلوى» فى المغرب.

[وهذه كلها تسميات تقريبية واصطلاحية لأن الجميع فروع من «هاشم»]

وثانيها: أنه نتيجة لذلك فإن الاختيارات السياسية للمَلِكين كانت متقاربة مع اختلاف فى المنهج ــ فإذا كان رأس السلطة يعتبر نفسه فوق الحساب العام فى بلده، ويعتبر نفسه مختلفاً عن غيره من الحكام حوله ــ إذن فهو يحتاج إلى سند يجده من خارج البلد ومن خارج الإقليم، وهذا السند لا يكون بطبائع الأشياء إلا من قوى مهتمة بالبلد وبالإقليم ـ ولأهدافها الخاصة بالطبع.

وثالثها: أنه كانت بين المَلِكين علاقة من نوع مُرَكَّب، قريب وبعيد فى نفس الوقت، ألوف ونافر فى ذات اللحظة. وربما أن التسابق على النسب له دخل، فذلك النسب مُعَبَّأ بشحنات من التزاحم والتنافس تراكمت مع العهود والقرون، وربما أن العُقدة ترجع إلى اختلاف التربة السياسية التى تقوم عليها السلطة فى بلد كل منهما، وهذا فارق شاسع يختلف تأثيره من وديان وصحارى الشام إلى مشارف هضاب الأندلس، وربما أن الحساسية ترجع إلى التفاوت فى ثراء الممالك وحجمها، وهو واقع يمكن أن يلعب دوره فى تقدير كل من الرجلين للنصيب الذى آل إليه من ميراث النسب !

وكان المَلِك «حسين» فى العادة ينادى المَلِك «الحسن» بلقب «يا ابن العم»، فى حين كان المَلِك «الحسن» يناديه باسمه الأول : «حسين»!

ورابعها: أن عهد كل من الملكين، الهاشمى والعلوى، توافق مع ظروف محيطة به عاصفة وعنيفة، وهى ظروف مدت تأثيراتها إلى الداخل، وكان ذلك حال المَلِك «حسين» تجاه بؤرة النار الفلسطينية التى أصابت الهلال الخصيب بحريق، وكان ذلك هو حال

الْمَلِك «الحسن» وعلى حدوده ثورة المليون شهيد، وبعد الثورة شلال الدم الذى تَدَفَّق أحزاناً فى الجزائر.

وخامسها ـ وذلك صنع المفارقات ـ: أن الرجلين على اسم واحد. أولهما «الحسن» والثانى «الحسين» تصغير «الحسن» بقواعد اللغة، و«الحسن» و«الحسين» اسمان مترابطان فى تاريخ إسلامى طويل؛ فيه الملاحم، وفيه المآسى، وفيه التُّقية، وفيه الشهادة !

وسادسها: أن صِلةً بين الرجلين بالتوافق فى توقيت الرحيل أضافت نفسها رابطاً بينهما. فالفارق بين رحيل أولهما ولحاق الثانى به ، شهور قليلة من آخر سنة فى هذا القرن العشرين، وهى سنة ١٩٩٩.

وهكذا فإن ترابط الصلات بين الرجلين ليس مجرد تداعٍ آلى، وإنما هو اتصال السياق بين التاريخ والظروف والناس!

لكنى قبل أن أجتاز العتبات إلى ساحة موضوع اليوم : «عن الْمَلِك الحسن»، أستأذن فى إبداء ملاحظة عن الحياة والموت مجملها «أننا لا نعرف كيف نتعامل مع الحياة ـ ولذلك فنحن أيضا لا نعرف كيف نتعامل مع الموت».

فى الحياة فإننا مع الناس واحد من ثلاثة مواقف : نحب بعضهم ونترفق بهم، ونكره غيرهم ونقسو عليهم، ونخشى آخرين فيكون موقفنا الخوف يدارى ويداهن.

ومع الموت شىء من نفس النوع، وهكذا فإن وداع بعض الراحلين طوفان دموع تسبح فوقه النعوش، والبعض الآخر وداعهم دعاء بالرحمة بالغ القسوة يجرى ـ ولو دون عَمْد ! ـ على مبدأ العفو عند المقدرة ونداؤه أن «اذكروا محاسن موتاكم»! ثم يجىء النوع الثالث من الوداع وهو أشبه ما يكون بالنفس الأخير يتكثف بخاراً ثم تنسحب وراءه الصور متلاشية إلى النسيان !

وفى هذه المواقف فإننا لا نتعامل مع الحياة كتيار متجدد متدفق أجيالا بعد أجيال منذ الأزل، ولا نتعامل مع الموت كحالة طبيعية فى تَحَوُّل وتَغَيُّر الحياة إلى الأبد.

وفى كل الأحوال فنحن لا نتعامل مع البشر كبشر، ولا نتعامل بمفهوم أن كل إنسان تجربة، وكل تجربة عمر، وكل عمر زمن، وكل إنسان وكل تجربة وكل عمر وكل زمن شكل وخواص وقسمات، والكل فى النهاية محكوم بطبائعه، ومحكوم فى نفس اللحظة

بضروراته، ومؤدى ذلك أن كل حياة إنسانية هى لحظة تاريخية معينة فيها ما فيها، ولها ما لها، وعليها ما عليها.

□ □ □

وعندما كتبت عن «شخصية الملك حسين» فقد حاولت تطبيق هذا المنهج الذى أعتقد فيه عندما يفكر بشر فى بشر، وحين يقوم إنسان بالنظر إلى إنسان.

وأحسب أننى أعطيت للملك «حسين» ما له حين توقفت طويلا أمام أحكام الجغرافيا والتاريخ وقد أحاطت به إلى درجة الحصار. وتوقفت طويلا أمام غير ذلك من اعتبارات حكمت خياراته، ومنها طبائع الهاشميين الجدد فى القرن العشرين وصداقاتهم وتحالفاتهم، ومنها ظروف المنطقة من الخمسينات إلى التسعينات، ومنها أن المملكة الأردنية الهاشمية تقع على تماسٍ مباشرٍ مع خط الانفلاق البركانى الحرج أمام إسرائيل، وذلك موقع وموضع له محاذيره وله مخاطره.

وفى نفس الوقت فقد ذكرت ما على المَلِك «حسين» وتوقفت أمام مشاهد ذهب فيها سواء بتصوراته أو بطموحاته إلى أبعد مما فرضته عليه الظروف، وأشرت صراحة إلى رأى، تولد الاقتناع به عند كثيرين، ملخصه أن الملك الذى أحس بوقر المقادير عليه زادها كثيرا فى استغلال هذه المقادير، فقد ألقى عليها كل حساباته أمام الناس وأمام نفسه تفسيراً وتبريراً، ومضى فى ذلك متجاوزاً خطوطاً حمراء كانت شبه مقدسة. ولعل تجاوزه للخطوط الحمراء هنا كان نموذجاً مؤكداً على مظنة العِصْمة التى يمكن أن يعطيها النَسَب !

ولم أكن حين كتبت عن الملك «حسين» أتخذ موقفاً جديداً من سياساته، ولا أعرض رأياً تَنَزَّل فجأة بعد غيابه ـ !ـ لكنه موقف ورأى، كلاهما ظل ثابتاً وظاهراً ومعلناً فى حياة المَلِك وسلطانه رغم علاقة قوية ـ ودافئة فى بعض الأحيان ـ معه خصوصا عندما كنت أحس أن ضروراته تملى عليه بأكثر مما تسوقه اختياراته على تعدد أساليبها.

□ □ □

والحاصل أن المَلِك «حسين» نفسه كان أول من يعرف هذا الموقف والرأى ـ وقد

وَصلْت بهما فى صفحات من كتاب «الانفجار سنة ١٩٦٧» إلى حد قارب اتهامه بالتواطؤ فى وقائع يونيو من تلك السنة ـ مُسْتَنِداً إلى مجموعة من الوثائق نَشَرْتُ صُوَرَها واستَخْلَصْتُ دلالاتها أو حاوَلْت !

وبرغم هذا فإن المَلِك لم يتوقف عن لقاءاته معى، ولا عن حوارات طويلة تواصلت بيننا فى عمان وفى لندن، وكان بذلك أذكى ألف مرة من هؤلاء الذين ادَّعوا الغيرة على ذِكْراه بعد رحيله، مع أن الوقائع من أولها إلى آخرها كانت معروفة لهم، بل إن بينهم من رآها رأى العين أو شارك فيها بنصيب !

ومن الغريب أن بعضهم آثر أن يتصرف بالتفرقة بين الخبر وبين ناقل الخبر ـ فهو لا ينكر الواقعة ولكنه يكره أن يتعامل مع نتائجها ومعانيها، وبالتالى فإن الخبر نفسه ليس كفراً، ولكن ناقل الخبر مثواه النار !

وربما الأغرب أن البعض كان رأيه أن ما نَسَبْت إلى المَلِك من الوقائع صحيح ولكن «هذا ليس وقته»، وذلك منطق يحتاج إلى مناقشة. ذلك أننى فيما رويت عن «شخصية المَلِك حسين» لم أزد غير واقعة واحدة جديدة أضفتها إلى ما نشرته وكررته من قبل فى حياته وأثرته مباشرة معه خلال حواراتنا المتواصلة ـ وتلك هى الواقعة التى أوردها «بنيامين برادلى» رئيس التحرير الأسطورى لجريدة «الواشنطن بوست» والتى اشتملت على معلومات أبلغها إليه محرر «الواشنطن بوست» الأشهر «بوب وودوارد» وهو الصحفى المحقق لفضيحة «ووترجيت» التى أطاحت برئاسة «ريتشارد نيكسون» وأخرجته من البيت الأبيض ـ وكان مؤدى الواقعة ما عرفه «وودوارد» من أن رئيس دولة عربية ـ ظهر أنه المَلِك «حسين» ـ يَعْمَل لحِساب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية منذ بداية سنة ١٩٥٧ ويتقاضى راتباً سنوياً قدره مليون دولار ـ إلى جانب مليون دولار أخرى رصدتها الوكالة لمصاريف إضافية لحِسابِه وباسمِه.

ولقد تطورت الواقعة فيما رواه «بن برادلى» فاشتملت أيضا على حديث دار حولها مع الرئيس الأمريكى سنة ١٩٧٧ ـ وهو وقتها «جيمى كارتر» ـ واشتملت أيضا على خطاب بالورق الرسمى للبيت الأبيض بتوقيع الرئيس يؤكد الواقعة ويضيف إلى صحتها قلقه (كارتر) من نشرها لتأثيرها على مصالح الولايات المتحدة وصداقاتها فى المنطقة.

وهكذا فإن أى غضب أو عتب على الواقعة كان لا بد أن يُوَجَّه إلى «بن برادلى» أو إلى الرئيس الأمريكى الأسبق «جيمى كارتر». لكن مقولة أن «هذا ليس وقته» اكتفت بما نقلته

عن «برادلى» و«كارتر» وتوقفت. أى أنها لم تصل إلى الاثنين والشك فيهما ليس وارداً، ولا إلى ما كتبا وهما شهود عليه، ثم إن كليهما (حتى الآن سنة ١٩٩٩) حَىٌّ وصِحَّتُه جيدة وذاكِرَتُه سليمة.

لكن الظاهر أن مقولة «هذا ليس وقته» تريد من الناس حبس مواقفهم وآرائهم إلى أجَلٍ غير مُحَدَّد ـ تكون فيه السياسة قد خَرَجَت من نطاق الذاكرة إلى نطاق السجلات، وذلك يتصادم مع حقيقة أن السياسة تاريخ سائل يواصل جريانه، وأن السجلات محفوظات مَنْسِية يحتاج البحث عنها إلى حفائر جيولوجية سواء كانت أوراقاً نائمة فى أدراج حديدية أو إشارات محبوسة فى صناديق إلكترونية !

وإذا كانت الكتابة فى السياسة هى كتابة فى التاريخ الجارى ووقائعه، فإن كل لحظة «هى وقته»، وكلما كانت اللحظة قريبة من الواقعة التى تدور الكتابة عنها كلما كان ذلك «وقته».

ولقد كان على القائلين بأن «هذا ليس وقته» ـ أن يتذكروا ويذكّروا غيرهم بأن «هذا ليس مكانه»، لأنه حين تتحوَّل الجنازات إلى مناسبات لترويج السياسات ـ إذن فإن مشكلة المكان تسحب وراءها مشكلة الزمان. ذلك لأن استغلال الموت لصالح السياسة على هذا النحو تجاوز، وفى نفس الوقت فإن السكوت تفريط وإلا يصبح السكوت رخصة للولايات المتحدة ورخصة لإسرائيل وراءها بالحق فى كتابة تاريخ الأمة، وصياغة وعيها، وتحديد المثل الأعلى لإلهامها، بما فى ذلك تنصيب الأبطال والشهداء والقديسين والملائكة.

ومن المفارقات أنه بعد نشر مقالى عن «شخصية الملك حسين» ظهرت شهادات أصلية محققة وموثقة آثر البعض إغفالها والسكوت عنها، وكان الصمت هنا نوعاً من الاستهانة أو الإهانة للعقل وللوعى !

وهنا أشير إلى شهادتين كلتاهما محققة وموثقة، وكل شهادة منهما فيها أكثر مما قلت ... وأخطر !

[٢]

الشهادة الأولى من «بوب وودوارد» نفسه، وقد نشرها فى أحدث كتبه ـ بعد شهور من وفاة المَلك «حسين» ـ وعنوانه «الظِل» Shadow، الذى صدر فى مايو سنة ١٩٩٩ ـ

وهو الآن ومن يومها على رأس قائمة الكتب الأكثر مبيعاً فى الولايات المتحدة الأمريكية وفى أوروبا.

وعلى صفحات كتاب «الظل» ومن الصفحة ٤٤ وحتى الصفحة ٥٢ عرض «بوب وودوارد» تفاصيل واقعة علاقة الملِك «حسين» بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية ـ كما يلى :

«فى شهر فبراير سنة ١٩٧٧ وبعد أسابيع قليلة من أداء «جيمى كارتر» لليمين الدستورية ـ رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية ـ علمت من مصدر واسع الاطلاع فى وكالة المخابرات المركزية أن هناك دفعات مالية كبيرة ـ مليون دولار سنوياً ـ تُدفَع للمَلِك حسين من وكالة المخابرات إلى جانب تكاليف أخرى».

[تتصل بحياة المَلِك الشخصية، ولم أجد داعياً ولا نفعاً فى ترجمة فقراتها لأن التفاصيل السياسية وحدها شاغلى هنا].

....

....

ويستطرد «وودوارد» :

«كانت القصة الصحفية فيما رأيته كبيرة، فهذه هى المرة الأولى التى تواجه فيها الإدارة الجديدة (إدارة جيمى كارتر) فضيحة سياسية مبكرة تعترض تعهداتها الباكرة والمتكررة عن إدارة منفتحة وبغير أكاذيب (وبالذات بعد التجربة المُرّة لفضيحة ووترجيت).

واتصلت بالبيت الأبيض. ولدهشتى الكبيرة فإن الرئيس كارتر وافق على أن يقابل بن برادلى رئيس تحرير الواشنطن بوست وأنا برفقته يوم الأربعاء ١٦ فبراير (١٩٧٧) فى مكتبه بالبيت الأبيض.

ودخلنا إلى المكتب البيضاوى ومعنا «جودى باول» الذى اختاره كارتر مستشارا صحفياً له.

وعند باب المكتب وَجَدْنا الرئيس «كارتر» واقفاً فى انتظارنا مُرتَدياً حُلّة رمادية مخططة بخطوط بيضاء عريضة. وكان يبتسم، وبدا سعيداً بهذا اليوم الثامن والعشرين من رئاسته.

وشرح له بن برادلى رغبتنا فى نشر القصة الخاصة بالمَلِك حسين. واستمع إلينا كارتر بصبر وبرقة، كما لو أنه فى مواجهة ناخبين يهمه الحصول على أصواتهم.

ثم جاء الدور على كارتر لِيَرُدَّ بعد أن فَرَغَ بن برادلى من عرض وجهة نظر الواشنطن بوست. وأخرجت دفتر مذكرات من جيبى مستعداً لتدوين النقط المُهِمّة فى رَدِّ الرئيس، ولكن كارتر التفت إلىّ وقال لى: «ما سوف أقوله ليس للنشر». وقلت: «حسنا سيدى الرئيس، ولكنى أريد أن أسجل ما نقول، فقد نتفق فى النهاية على نشر شىء منه أو نحتفظ به ليوم من الأيام». وقال كارتر: «إننى أريد أن أكون أميناً وصادقاً». وركز نظره على دفتر مذكراتى كما لو أنه مادة قابلة للعدوى أو حاجز يُعَطِّل الحديث بصدق وأمانة. وأقفلت الدفتر. وراح كارتر يُتابع حركتى وأنا أضع الدفتر فى جيب الجاكيت الزرقاء التى ارتديتها خصيصاً لهذه المقابلة مع رئيس الولايات المتحدة.

وخف الإحساس بِجَوٍّ من التوتر سَرى فى المكتب البيضاوى لعدة لحظات. واستأنف كارتر حديثه بصوت رصين واضح العبارة، فقال: «إن هذا الأمر كان يحدث طوال العشرين سنة الماضية، أقصد مدفوعات وكالة المخابرات المركزية للمَلِك حسين، وأريد أن أقول لكم أن مثل هذه الأشياء تتعارض مع سياساتى، ولكنى لا أستطيع أن ألغى ما حدث فى الماضى حتى ولو كنت غير مسئول عنه».

....

....

ويستطرد «بوب وودوارد» فى روايته فيقول إنه: «عندما سمع ذلك من رئيس الولايات المتحدة قال لنفسه إن رئيس الولايات المتحدة ينفض يده من المَلِك حسين».

وكان كارتر ما زال يتحدث موجهاً كلامه إلى رئيس تحرير الواشنطن بوست وإلىّ: «لكنى أريدكم أن تعرفوا أن هناك عنصراً هاماً فى هذا الموضوع لا بد من أخذه فى الاعتبار. فالمَلِك حسين حاكم عربى معتدل، وهو المفتاح لتسوية سلمية فى الشرق الأوسط. وأنا أحتاج إلى حسين، لأن أول أهداف سياساتى الخارجية هو سلام فى الشرق الأوسط. إن هذه العملية (المدفوعات السنوية للمَلِك حسين من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية) بدأت سنة ١٩٥٧ وكانت أكبر من ذلك بكثير فى ذلك الوقت. والحقيقة أن الوكالة دفعت للمَلِك أيضاً مبالغ إضافية خصوصاً لحراسته وحراسة

أسرته لأن وكالة المخابرات المركزية لم تكن تريد أن تكون مسئولة مباشرة عن سلامة الجميع، فقد يقتضى الأمر إطلاق النار على فلسطينى يحاول إصابة أو خطف أحد أفراد الأسرة، ونحن لا نريد أن يكون أحد من رجالنا مسئولاً عن مثل ذلك إذا وقع».

ثم مضى الرئيس بعد ذلك فقال لنا: «على أن ما يهمكم أن تعرفوه هو أننى فور تأكدى من الواقعة عندما عَرَفْتُ بسؤالكم عنها أصدرت الأمر بوقف الدفع فوراً، وذلك ما أريد أن أعيد تأكيده مرة أخرى».

....

....

ويقول بوب وودوارد: «ونظرت إلى بن برادلى وكان هو ينظر إلىّ. وكنت مستريحاً وكان هو راضياً لأن خبراً كبيراً وقع فى يد الواشنطن بوست وتأكَّدَت لنا صحته من أعلى مستوى. وتوجه بن برادلى بسؤال إلى الرئيس صاغه بطريقة مهذبة، قائلاً: «ولكن يا سيدى الرئيس ألا يمكن اعتبار هذه المدفوعات رشوة»؟ وردَّ كارتر: «لا أستطيع أن أناقض ذلك». ثم أضاف: «لكنى أريدكم أن تعرفوا أن وزير الخارجية سايروس فانس سوف يصل إلى عمان فى ظرف يومين للعمل على دفع مسيرة السلام فى الشرق الأوسط، وإذا قامت الواشنطن بوست بنشر هذه القصة فإن أصداءها سوف تغطى على كل شىء قبل لقاء فانس مع الملِك حسين، وأنا لا أريد ذلك».

....

....

ويستطرد بوب وودوارد فيقول: «إننى سألت الرئيس عما إذا كان سعيداً بما رآه من تصرفات وكالة المخابرات المركزية»؟ـ وردَّ الرئيس بقوله: «إننى أوقفت تصرفات أخرى مماثلة». وحين سألناه عنها رفض أن يجيب، ولكنه عاد يؤكد لنا «أنه يحاول بناء علاقات مباشرة مع عدد من زعماء الشرق الأوسط، ومع أنه لم يقابل الملِك حسين بعد فإن نشر أسرار علاقات الملِك بوكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى الشهر الأول من رئاسته الجديدة (رئاسة كارتر) ـ سوف يكون عملاً مؤذياً وسوف يُقنع رؤساء دول آخرين بعدم الثقة فى الولايات المتحدة، لأن بعضهم سوف يظن أننا قصدنا تسريب هذه الأخبار عنهم لسبب أو لآخر. ونحن نريد منهم أن يثقوا فينا لأن سنة ١٩٧٧ لا بد أن تشهد تقدماً نحو السلام وإلا فإن الأمور سوف تزداد تعقيداً».

....

....

ويستطرد بوب وودوارد : «ولقد بدا لنا عند هذه النقطة من اللقاء أن الرئيس كارتر تنبه إلى أنه لم يحصل منا ـ ممثلين للواشنطن بوست ـ على وعد صريح بالامتناع عن النشر، فعاد يقول : «أريدكم أن تصدقونى عندما أؤكد لكم أن تسويةً لأزمة الشرق الأوسط تتقدم غيرها بين الأولويات العليا فى رئاستى». ولما لاحظ الرئيس صمت بن برادلى طرح حلاً وسطاً تصوره كافياً، فقال : «ما رأيكم لو اقْتَرَحْتُ عليكم نشر القصة دون ذكر اسم المَلِك حسين». وقطب بن برادلى ملامح وجهه وكذلك فعلت أنا، وكانت تلك إشارة إلى فتور حماستنا لاقتراح الرئيس.

وقال كارتر أنه يفهم دوافعنا المهنية لكنه يريد أن يجد حلاً يصون فى نفس الوقت مصالح الولايات المتحدة. وهنا قال عبارته الشهيرة التى رواها بن برادلى من قبل (فى كتابه الذى صدر قبل خمس سنوات بعنوان : «حياة طيبة») «هذا بلدكم كما هو بلدى». وأبدينا موافقتنا على «أنه بلدنا كما هو بلده» ولكنه أحس أننا لم نتعهد بشىء. ولعله أراد أن يجعل الصفقة مقبولة أكثر فقال لرئيس تحرير الواشنطن بوست : «إننى آمل أن تجىء لمقابلتى فى أى وقت تريد إذا خطر لك أن تسألنى عن شىء». ولم يبتلع بن برادلى الطُعْم فوراً، وإنما قال للرئيس أنه سيبحث الأمر مع مجلس تحرير الواشنطن بوست، وعلى أى حال فهو يتعهد بأن يخطر الرئيس قبل النشر بأربع وعشرين ساعة إذا ما قررت الواشنطن بوست أن تتحمل المسئولية وتنشر القصة».

....

....

ويستطرد بوب وودوارد :

«وفى نفس اليوم بعد الظهر طلب منى بن برادلى أن أتصل بجودى باول المستشار الصحفى للرئيس وأن أخطره بأن الواشنطن بوست قررت أن تنشر، وأنه طبقاً لتعهده للرئيس يخطره الآن ـ قبلها بـ ٢٤ ساعة. وفعلت. وكان واضحاً أن المستشار الصحفى للرئيس متضايق من الرسالة التى نقلتها إليه وتمتم قائلا : «أنها سوف تكون مفاجأة غير سارة لسايروس فانس «المسكين» عندما يخطو من الطائرة إلى أرض المطار فى عمان». ثم مضى باول فى حديثه معى وكأنه يحاول أن يشدنى إلى وجهة نظر

البيت الأبيض : «إنكم سوف تسببون بهذا الشكل حرجاً شخصياً للرئيس، فبعض مستشاريه اعتبروا مقابلته لكم من الأصل والأساس خطأ وقع فيه، وبين هؤلاء زبجنيو برجنسكى مستشاره للأمن القومى الذى وصل إلى حد اتهام الرئيس «بأنه سمح لنفسه أن يضعف أمامكم فى رغبة منه لاكتساب مَوَدَّتكم، وكان عليه أن يكون أكثر حزماً معكم». وقد قال برجنسكى للرئيس «أن نشر القصة على هذا النحو سوف يكون إشارة تحذير إلى كل المصادر التى تدفع لها وكالة المخابرات المركزية الأمريكية بأن ترتيباتهم السرية مع الوكالة ليست آمنة».

وحين أبديت لجودى باول أن الأمر يخرج عن سلطتى فى الواشنطن بوست، أبدى لى تألمه الشديد مضيفاً أن «الموضوع معقد بأكثر مما تظنون».

وبعد قليل عاودت الاتصال بجودى باول أسأله لمجرد التحوط للنتائج عما يمكن أن يكون عليه تعليق البيت الأبيض على نشر الخبر فى الواشنطن بوست. ورَدَّ باول بحدة قائلاً : «بماذا تريدون أن نعلق على القصة ؟ إننا فى كل الأحوال لن.......... عليكم».

....

....

ويستطرد بوب وودوارد فيقول :

«وصباح يوم الجمعة ١٨ فبراير ١٩٧٧ نشرت الواشنطن بوست القصة تحت عنوان بعرض الصفحة الأولى كلها. وتصادف ذلك بالفعل ـ دون قصد منا ـ مع نفس الوقت الذى حطت فيه طائرة وزير الخارجية سايروس فانس بادئاً رحلته لدفع مسيرة السلام. وفى نفس الوقت فى واشنطن كان جودى باول المستشار الصحفى للرئيس كارتر يقف على المنصة التى يجيب منها عن الأسئلة فى قاعة الصحافة بالبيت الأبيض، وكان السؤال الأول الذى وُجِّه له عن خبر الواشنطن بوست. وعندما رَدَّ باول بالعبارة التقليدية «لا تعليق» No Comment انفجرت القاعة بالضحك، ذلك أن كارتر الذى وعد بإدارة مفتوحة وصادقة مهما كانت الظروف بدأ يكذب فى الشهر الأول من إدارته. وقد سُئِل عن هذه النقطة بالفعل وقال له السائل : «أليس هذا الرد الذى سمعناه منك فوراً متعارضاً مع ما وعدتم به» »؟.

....

....

ويستطرد بوب وودوارد :

«وصباح اليوم التالى جاءنى رئيس تحرير الواشنطن بوست يحمل فى يده خطاباً موجهاً إليه «على أساس شخصى» من رئيس الولايات المتحدة بتاريخ ١٩ فبراير (١٩٧٧)، وسألنى بن برادلى «ماذا يتوقعون منا أن نفعل»؟ واقترحت عليه ألا نفعل شيئا، وقال: إننا لا نستطيع أن نتجاهل خطاباً من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يتهمنا فيه بعدم المسئولية. وحاولت أن أهدئ أعصابه فقلت : «إنهم على أى حال لم........ علينا». ورَدَّ بسرعة : «إنهم فعلوا أسوأ لأنهم .... علينا».

وكان نص رسالة كارتر على الورق الرسمى لمكتبه وتوقيعه بخط يده كما يلى :

«إلى بن برادلى

أعتقد أن نشركم لقصة المخابرات المركزية الأمريكية بينما وزير الخارجية (سايروس فانس) يقوم بمهمة فى الشرق الأوسط الآن - وهذه المهمة على وشك أن تحمله إلى الأردن - هو عمل غير مسئول.

إننى أكتب إليك هذه الرسالة كتعليق من قارئ وليس من رئيس الولايات المتحدة.

جيمى كارتر

□ □ □

ويوم ٢٥ فبراير ١٩٧٧ نقلت وكالة الأسوشياتد برس من مكتبها فى الكونجرس أن الرئيس كارتر روى أمام اللجنة الرئيسية لمجلس الشيوخ تفاصيل ما دار بينه وبين بن برادلى وأنا، فقد سألوه عن الموضوع، ورأت اللجنة تسجيل إجابته فى مذكرة خاصة نُقِل فيها عن الرئيس قوله «إن الملك حسين كان أهم مصدر للمعلومات لنا فى الشرق الأوسط». وأشارت المذكرة الخاصة إلى قول الرئيس أنه «حاول إثناء الواشنطن بوست عن نشر الخبر ولكن المسئولين فيها تصرفوا بغير تقدير للمسئولية».

[٣]

ويجىء الدور الآن على الشهادة الثانية التى آثر الكل إغفالها بالسكوت استهانة أو إهانة للعقل. وتَرِدُ هذه الشهادة فى الكتاب الذى تعرض بطريقة موثقة للتاريخ السرى

للموساد بعنوان «جواسيس جدعون»، وقد صدر هو الآخر بعد وفاة المَلِك «حسين» بعدة أسابيع.

ذلك أنه على صفحتى ٥٨ و ٥٩ من هذا الكتاب أَوْرَدَ مُؤَلِّفُه «جوردون توماس» وهو من أبرز الخبراء فى تاريخ الأجهزة السرية فى الغرب ـ حصراً بالمنجزات الهامة التى حققها جهاز الموساد على عهد مديره الأشهر «إيسر هاريل»، وقد وردت على النحو التالى :

١ ـ إدخال سياسة الاغتيال المنظم لأعداء إسرائيل.

٢ ـ إنشاء علاقات ـ حتى بالاختراق ـ مع جهاز المخابرات السوفيتى الـK G B.

٣ ـ إعطاء أولوية أولى لتنظيم الهجرة السرية ليهود أوروبا الشرقية إلى إسرائيل (قبل أن يسمح بها رسمياً ثم تتحول إلى نزوح جماعى عقب انهيار الاتحاد السوفيتى).

٤ ـ إتقان فنون استعمال المرأة والجنس والابتزاز فى خدمة أعمال المخابرات.

....

....

٥ ـ (وهنا ما يتصل بالمَلِك «حسين») تنظيم اختراق القصر الملكى فى عمان والدوائر المحيطة به، لكن هذه المحاولة توقفت فيما بعد عندما أصبح الحاكم الهاشمى مسئولاً رئيسياً لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى المنطقة.

(وذلك هو نص العبارة التى استخدمها «إيسر هاريل» رئيس الموساد السابق فيما تحدث به إلى مؤلف كتاب «جواسيس جدعون» ويمكن منها استنتاج أنه فى الفترة الأولى من حكم المَلِك حسين»، أى ما بين توليه العرش (١٩٥٢) عقب اغتيال جده المَلِك «عبد الله» وما بين صِلَته المُنَظَّمة مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية (١٩٥٧) ـ لم تكن هناك اتصالات علىَ مستوى نَشِط ومُتَواصِل بين القصر الملكى على سفح جبل عمان وبين قيادة الموساد فى شارع «المَلِك شاؤول» بتل أبيب. وكان ذلك التَعَثُّر إلى درجة الانقطاع أحياناً هو الداعى إلى محاولات «إيسر هاريل» لاختراق القصر الملكى. فلما وقع سنة ١٩٥٧ إنشاء وترتيب العلاقات بين القصر الملكى على جبل عمان وبين مَقَرِّ المخابرات المركزية فى ضاحية لانجلى بالقرب من واشنطن توقفت محاولات الموساد لاختراق محيط المَلِك «حسين» وصولاً إليه لأن نظرية الأوانى المستطرقة راحت تؤدى دورها بكفاءة).

المفكرة رقم ٢

ذاكرة ملك.. وذاكرة صحفى

[١]

لقد كانت المفكرة الأولى فى هذه «الملفات الملكية» ـ ملحقاً أضيف إلى حديث سبق عن «شخصية المَلِك حسين».

والآن فإن المفكرة الثانية فى هذه «الملفات الملكية» ـ مدخل يمهد لحديث جديد عن «شخصية المَلِك الحسن».

وربما أن هذا التمهيد مطلوب لأن المفكرة الثانية من هذه الملفات الملكية» ـ كانت مساجلة علنية منشورة جرت بين المَلِك «الحسن» وبينى، وقد ظهرت على صفحات جريدة الأهرام فى العدد الصادر صباح ٢٥ فبراير ١٩٩٣، وكان المَلِك «الحسن» وقتها فى كامل صحته وأوج سلطته جالساً على عرش المغرب ومشاركاً رئيسياً وبدور قيادى فى توجيه مصائر أزمة الشرق الأوسط.

والحاصل أن الأسباب التى تجعل هذا التمهيد مطلوباً يمكن تلخيصها بسرعة، وبدون تجاوز ـ فى أن هذه المساجلة جرت فى زمانها ومكانها، ووقعت فى العلن وأمام الناس، ثم إنها أوضحت بغير خفاء أن هناك خلافات واسعة فى وجهات النظر وفى رؤية الوقائع. وربما أهم من ذلك أن هذه المساجلة أظهرت شكوكا كامنة تولدت فى النفوس لها مبرراتها برغم علاقات من الود واضحة تعبر عنها تصرفات لا يوجد لدى الأطراف ما يجبرهم عليها إلا مشاعر طيبة تغالب الشك ويغلبها الشك فى نهاية المطاف.

....

....

وكانت المناسبة التى استوجبت المساجلة ـ علنية وصريحة ـ بين المَلِك «الحسن» وبينى أن المَلِك قرر فى بداية سنة ١٩٩٣ أن ينشر مذكراته. وبالفعل ظهرت المذكرات باللغة الفرنسية تحت عنوان «La mémoire d'un Roi» وترجمتها «ذاكرة مَلِك»، وكان هذا بالضبط هو العنوان الذى صدرت به ـ فعلا ـ طبعة عربية من هذه المذكرات نشرتها صحف كثيرة فى العالم العربى فصولا مستفيضة.

وكان الداعى إلى المساجلة ـ بعد مناسبتها ـ أن المَلِك «الحسن» روى فى مذكراته واقعة عنى، ووجدت ضروريا أن أرد عليها بـ«ذاكرة صحفى» فى مواجهة «ذاكرة مَلِك».

وكان نص ما ورد فى «ذاكرة صحفى» ـ وهذه هى المفكرة رقم ٢ من هذه «الملفات الملكية» ـ كما يلى:

....

....

[٢]

(الأهرام: ٢٥ فبراير ١٩٩٣)

«ذاكرة صحفى» و«ذاكرة مَلِك»

صباح اليوم ـ الخميس ٢٥ فبراير ـ يصدر فى باريس كتاب للمَلِك الحسن الثانى مَلِك المغرب بعنوان «ذاكرة مَلِك»، وفيه يروى المَلِك قصة حياته وتجربته الحافلة. ولا بد أن الكتاب مهم، فالملوك عادة لا يكتبون مذكراتهم إلا إذا كان لديهم ما يرون ضرورة لقوله، خصوصا إذا كانوا جلوساً على عروشهم، ملوكاً متوجين، وظلالاً لله على الأرض، و«أمراء للمؤمنين».

وأظن أن الكتاب، إلى جانب أهميته للكافة، كانت له عندى أهمية خاصة، لأن المَلِك

تفضل فروى عنى فى صفحاته واقعة وجدت مناسباً أن أقدم عنها رواية أخرى تعرض الوقائع كما تبدت لى، ومن منظورى بالطبع.

ولعلى لا أتجاوز إذا قلت أننى فى العادة لا أبادر بنفى أو تأكيد لرواية تنشر عنى، فأنا لا أستطيع متابعة كل الروايات من ناحية، ومن ناحية أخرى فاعتقادى الراسخ أن الأمور تصحح نفسها فى النهاية. هذا فضلا عن أن الرواية عن فلان وعن فلان ـ هى فن عربى قديم تسابق فيه الرواة، ونفذوا من التاريخ إلى الأسطورة ـ وإلى الخرافة فى بعض الأحيان، وليس لأحد أن يعترض الفنون أو يطبق عليها مقاييس تتعسف مع القصص وتفقدها مباهج الخيال !

لكنه حين تكون الرواية لَمِلك، ويكون المَلِك من وزن الحسن الثانى، فإن الموقف لا بد أن يختلف ولو حتى من باب الأدب لمقامه، وهو أدب حقيقى وصادق. فالرجل بغير جدال من أذكى الحكام العرب فى العصر الحديث، ومن أكثرهم ثقافة وأظهرهم تحضراً.

إن المَلِك الحسن يروى عنى فى كتابه ـ صفحة ٩٣ و٩٤ ـ عدة أمور :

١ ـ أننى ساندت انقلاباً ضده قام به قائد جيشه الجنرال محمد أوفقير، وقد كاد المَلِك يفقد حياته ـ فضلا عن عرشه ـ فى هذا الانقلاب، لولا معجزة من السماء.

٢ ـ أن مساندتى لهذا الانقلاب جاءت عن طريق علمى المسبق بتدبيره وتعاطفى مع القائمين به.

٣ ـ أن الدليل على ذلك كان طريقة تغطية «الأهرام» الصحفية لهذا الانقلاب، فقد كانت تغطية «الأهرام» ـ وكنت أتشرف برئاسة تحريره أيامها ـ تغطية عارف من قبل ببواطن الأمور وليست مجرد تغطية صحفية عادية.

٤ ـ أنه عاتبنى بنفسه ذات مرة على هذا الموقف، وأننى قدمت له شرحاً رجوته أن يبقيه سراً، وأنه احتفظ بهذا السر لم يبح به حتى الآن. وفى كتابه : «ذاكرة مَلِك» فإنه أشار إلى هذا السر، ولم يسهب حفاظاً على مبدأ أن «المجالس أمانات».

هذا باختصار مجمل ما رواه المَلِك.

ولا بد أن أعترف أننى فوجئت بهذه الرواية. فقد كان ظنى وانطباعى أن هناك سوء فهم تولد عند المَلِك من ظروف وملابسات ـ لكن سوء الفهم تلاشى وزال عندما تفضل المَلِك ـ كريماً ـ فى لقاء بيننا فصارحنى بشكوكه وهواجسه، وسمع منى الحقيقة كاملة

بلا سر ولا لغز، وقد قلت كل ما عندى ... كله أمام شهود بينهم السيد أحمد عثمان وهو صهر الملك ورئيس وزرائه فى ذلك الوقت، وأمام السيد أحمد بن سودة، وقد كان رئيس ديوان الملك ولا يزال أحد مستشاريه المقربين، وأمام مولاى عبدالحفيظ رئيس التشريفات الملكية. وأيضا أمام صديقى وزميلى الأستاذ جميل مطر وكان يرافقنى فى تلك الرحلة إلى المغرب العربى فى شهر يناير ١٩٧٥.

ولقد اكتشفت الآن فقط، وبعد سنوات طويلة، أننى على عكس ظنى وانطباعى لم أنجح فى إزالة شكوك الملك وهواجسه، بدليل أنه عاد إليها من جديد فى كتابه «ذاكرة ملك»!

وإذن فإن ما كان ذات يوم عتاباً أو مصارحة، قد وجد طريقه إلى العلن داخل العالم العربى وخارجه، فكتاب الملك ينشر بالعربية والفرنسية فى نفس الوقت. وحلقات منه وجدت طريقها منذ أسابيع إلى الصحف والإذاعات التى أولته اهتماماً يتناسب مع حقيقة أن القائل: «ملك».

وربما استأذنت الملك فى أن أستعير عنوان كتابه مع تغيير كلمة واحدة، وذلك بأن أعرض منظورى للموضوع، وبدلا من عنوان «ذاكرة ملك» فإننى أستعمل عنوان: «ذاكرة صحفى».. هذا مع الإشارة إلى أننى لا أتذكر من الذاكرة، وإنما من واقع أوراق مكتوبة، كانت كتابتها فى حينها ولم تجىء استعادة أو استرجاعاً للوقائع بعد مرور السنين.

....

....

فى يناير سنة ١٩٧٥ ـ كما ألمحت من قبل ـ كنت فى زيارة للمغرب وعلى موعد مع الملك الحسن الثانى. ووصلت إلى مطار الرباط قادماً من باريس، ووجدت مندوباً من التشريفات الملكية ينتظرنى برسالة مؤداها أن «موعدى مع جلالة الملك سوف يكون غداً مساءً فى فاس (وليس فى الرباط أو الدار البيضاء كما حدث فى لقاءات سابقة)، وأن جلالته أمر أن تسافر بى إحدى طائرات السرب الملكى إلى هناك مباشرة». وكذلك كان.. ومشيت ومعى الأستاذ جميل مطر خطوات من الطائرة الفرنسية التى جئنا ـ مع غيرنا من الركاب ـ عليها من باريس، إلى الطائرة الملكية تذهب بنا ـ وحدنا ـ إلى فاس.

وصباح اليوم التالى أُخطرت أننى ضيف عشاء على مائدة الملك. وفى المساء كنت على باب قصره فى فاس. وبعد دقائق كنت فى حضرته. وكان فى صحبة الملك من ذكرت

أسماءهم من قبل : رئيس الوزراء، ورئيس الديوان، ورئيس التشريفات. ومن جانبى كان معى الأستاذ جميل مطر، وكان بكفاءته ودقته يكتب محضراً لوقائع اللقاء بينما الحديث جارٍ والحوار متصل.

وبعد مقدمة من عبارات رقيقة ـ وأنا أكتب الآن وأمامى محضر الحديث المكتوب ـ فضلا عن انطباعات كتبتها بخطى بعد المقابلة ـ قال المَلِك :

ـ عرفت أنك قضيت هذا الصباح فى فاس القديمة... هل هذه أول مرة تزور فيها فاس؟

وقلت :

ـ نعم.. والحقيقة أننى قضيت معظم الوقت فى جامع ـ أو جامعة القرويين ـ وقد عشت لحظة مؤثرة عندما تفضل أمين المخطوطات فى مكتبة الجامع فأرانى مخطوطة لمقدمة ابن خلدون، وقد هزنى تواضع ذلك العالم المعلم العظيم عندما وجدته فى آخر صفحة من المخطوطة يصادق على ما كتبه النساخ المحترف الذى تلقى منه كتابه ـ ويرسم بخط يده عبارة : «الحمد لله ما نسب إلىّ صحيح» ـ ثم يوقع بختمه : «عبدالرحمن بن خلدون»..

وأبدى المَلِك رأياً مختلفاً فى قيمة ابن خلدون، بينما تحمست من جانبى له، وقادنا ذلك إلى حديث طويل فى تاريخ الأندلس، من فتحها إلى سقوطها، وإلى عصر ملوك الطوائف. وأشهد أن المَلِك كان متجلياً فى حديثه عن عبر ذلك التاريخ وحكايات أمرائه ووزرائه وشعرائه.

إن الحديث تداعى بعد ذلك إلى أحوال العالم العربى الراهنة، والأوضاع السائدة فيه، والاحتمالات والنتائج. وكان المَلِك مطلعاً فى حديثه وعارفاً.

وبعد ساعة وعشر دقائق بالضبط جاء من يدعونا إلى العشاء، فقام المَلِك وقمنا معه عبر أبهاء طويلة وقف على جانب منها رجال يهللون تحية له صائحين : «عز لمولانا السلطان»، كما كانت هناك على جانب آخر نساء يزغردن فى تهليل لم أستطع تمييز ألفاظه، فيما عدا أنها كانت بالفعل جلجلات سعادة وفرح.

وكان حديث العشاء على أطراف الفن والأدب والتاريخ، وقد سَرَت إلينا من بعيد أصداء موشحات أندلسية، امتزجت مع عبق العطور الملكية فملأت قاعة العشاء بجو مثير للخيال، وكأن ليالى المجد فى قرطبة عادت حية نابضة نشوى بالترف والجمال.

بعد العشاء غسلنا أيدينا بماء الورد يصبه خدم المَلِك من أباريق ذهبية، وعدنا لاستئناف الحديث، لكننا لم نرجع إلى القاعة التى بدأناه فيها، وإنما قادنا المَلِك على سلم رخامى بديع إلى بناء أضافه حديثاً إلى القصر العريق فى فاس. وكانت قمته قاعة واسعة تعلوها قبة مرتفعة من الرخام أيضاً تتدلى منها أضخم ما رأيت فى حياتى من الثريات المصنوعة من أنقى أنواع البللور. وكان طراز القاعة بالطبع أندلسياً يتداخل فيه الرخام مع القيشانى، وتتصل فيه النقوش البديعة مع خطوط الذهب، شِعْراً ونَثراً ما بين القبة والجدران.

وأبديت ملاحظة على حجم الثريا إلى درجة التخوف من احتمال سقوط سقف القبة لثقلها، وقال المَلِك: «إنها بالفعل أكبر «نجفة» من نوعها فى العالم حسب علمه، وأنها صنعت فى ألمانيا خصيصاً لهذه القاعة» التى يحب الجلوس فيها لأحاديث ما بعد العشاء، وأقداح الشاى المغربى الأخضر ذهبية مطعمة تدور معطرة على سمار الليل.

واستأنفنا الحديث من حيث تركناه. الفن. ومن الفن إلى الشِعْر (ورجوت المَلِك أن يأذن لى فى تسجيل قصائد من الشِعْر يحفظها ـ بصوته. وأذن). ومن الشِعْر إلى السياسة. وراح المَلِك يتحدث عن تجربته فى المُلْك، وكان بين ما قاله أنه تلقى أول درس عملى فى المُلْك فى أول يوم من ولايته، وكان ذلك أثناء جنازة والده المَلِك محمد الخامس. كان موكب الجنازة مهيباً تفاعل فيه حزن الشعب مع جلال المُلْك، فصنع مشهداً مهولاً يندر مثيله. وفجأة وبقرب المَلِك صاح شيخ من المشيعين قائلاً: «الجنازة يرحمكم الله لرجل»..

وقال المَلِك الحسن لنفسه ـ طبقاً لروايته ـ هامساً فى أعماقه: «نعم، الجنازة يرحمكم الله لرجل». ثم أضاف لنفسه أيضاً: «إن هذا درس له، فمهما كانت مشاعر الناس وأحزانهم أو أفراحهم، ومهما كانت أبهة المُلْك والمَلِك، فإن الختام فى النهاية جنازة.. وجنازة لرجل. وهذا ما يتبقى من أى حياة.. الرجل.. الإنسان.. ما يفعله الإنسان والأثر الذى يتركه بعد أن يستوفى عمره ويحل موعد الرحيل.». وتوقف المَلِك وكأن مشهد جنازة والده قد ذَكَّرَه بشىء يريد أن يقوله. ثم عاد يواصل حديثه قائلاً:

ـ «ربما سمعت أو أنك سوف تسمع ملاحظات عن الضريح الذى قمت ببنائه لأبى.. بعض الناس يتحدثون عن التكاليف.

إن لى هدفاً آخر غير تكريم أبى. إننى وأنا أفكر فى إقامة ضريح يليق بجهاده، وجدت

أنها فرصة لإعادة بعث الفنون المغربية من جديد. فى أعمال البناء، وأعمال الرخام، وأعمال الحفر على الخشب، والرسم والنقش، وصنع القيشانى الملون. تلك فنون ازدهرت يوماً ثم عدا عليها الزمان فكادت تندثر. ولقد طلبت أن يبحثوا عن كل الباقين من العمال ممن آلت إليهم خبرة الماضى وتقاليده. وطلبت أن يشاركوا جميعاً فى بناء ضريح أبى، ولكنى لم أشأ أن تكون مشاركة هؤلاء الرجال الذين يحملون فى أعماقهم وعلى أطراف أصابعهم أسرار الفن المغربى - مجرد المشاركة بالعمل اليدوى - وإنما أردت أن يَتَحَوَّل كل واحد منهم إلى مدرسة... يجمع حوله طائفة من المستعدين للتلقى عنه ليكون من ذلك إعادة بعث لفنون المغرب وحضارته..».

وانتقل المَلِك بعد ذلك فى يُسْر من مشهد «الجنازة يرحمكم الله لرجل»، وهو الدرس الأول فى مهنة المُلْك حسب تعبير المَلِك، إلى تجارب طويلة مع الحوادث والرجال. وراح المَلِك يطوف بتجاربه ويستعرض خبراتها.

وفجأة سكت المَلِك. ثم بدا أنه يفكر. ثم بدا عليه شىء من التردد. ثم بدا أنه حزم أمره على شىء، فقال :

- «أريد أن أكون صريحاً معك.. فلنوقف هذا الحديث الآن لسؤال يدور فى خاطرى من لحظة لقائنا.. ولقد كتمته مجاملة لك، ولكنى أشعر أننى لن أكون أميناً معك إذا لم أصارحك بخواطرى.».

كان التوقف عن الحديث على هذا النحو بسؤال لم يوجه بعد مثاراً لدهشتى..

وسألت المَلِك : هل هناك شىء ؟

وقال بسرعة : نعم.. أريد أن أسألك :ماذا كنت تعرف عن محاولات الانقلاب التى دبرها أوفقير علىّ، سواء بمحاولة قتلى بواسطة مذبوح (الجنرال مذبوح مساعد أوفقير) فى يوم عيد ميلادى فى قصر الصخيرات (فى يوليو ١٩٧١)، ثم بعد ذلك عندما حاول (بعمل مباشر قاده بنفسه سنة ١٩٧٢) ضرب طائرتى بالنار وأنا عائد إلى الرباط من باريس»؟

وقلت ودهشتى تزداد : «جلالة المَلِك.. إن صيغة سؤالك بـ«ماذا كنت أعرف» تحمل إيحاء بأنه كان لى علم مسبق بهذه المحاولات ضدك..».

وقال المَلِك على الفور : «الحقيقة أن هذا هو قصدى بالضبط.. لا أقطع بأنك كنت تعرف. ولكنى لدىّ ما يدعونى إلى الشك فى أنك كنت تعرف».

وقلت للمَلِك : «إننى أستغرب أن أسمع منه أن مثل ذلك دار فى خاطره من قريب أو من بعيد».

ورد قائلاً : «إذن كيف تفسر الطريقة التى صدر بها «الأهرام» صبيحة يوم الانقلاب؟.. إن جريمة الانقلاب (انقلاب الجنرال مذبوح) بدأ تنفيذها فى الساعة السابعة مساء. وكان التوقيت عندكم فى القاهرة التاسعة مساء. ومع ذلك فإن صدر «الأهرام» وعلى خمسة أعمدة بعرض الصفحة الأولى كان يحمل تفاصيل كاملة عما جرى. كيف يمكن أن يتأتى لكم هذا القدر كله من المعلومات إلا إذا كان هناك علم مسبق واستعداد له إلى هذه الدرجة ؟»

ورغم أن استغرابى بلغ مداه، فقد رحت أشرح للمَلِك فى هدوء أساليب العمل الصحفى الحديث. حاولت أن أشرح كيف تتلقى الجريدة أخبارها. كيف تصل إليها التفاصيل بسرعة ثلاثة آلاف كلمة من جميع الوكالات فى كل دقيقة. كيف تعمل هيئة تحريرها فى مواجهة حدث ضخم. كيف تجرى الاستعانة بأقسام المعلومات فى أى جريدة لتكملة خلفيات الحوادث والشخصيات... وكيف، وكيف.. إلى آخره.

ثم أوضحت أن ذلك ما حدث ليلة الانقلاب. ففى أقل من ساعتين كانت هناك خمس صفحات كاملة، وليس فقط خمسة أعمدة على الصفحة الأولى، تقدم للناس صورة كاملة ومفصلة وشاملة للأخبار والتحليلات.

وكان المَلِك يسمعنى بصبر، وكان كل الجالسين معنا ـ أربعة شهود ـ يتابعون حوارنا مأخوذين لم يتدخل واحد فيه بكلمة.

ولوهلة بدا لى أن المَلِك يفكر فيما قلته له ـ لكنه عاد بعد قليل يطرح سؤالا أو تساؤلا آخر :

ـ «هل تعرف أن أحد المتآمرين مع أوفقير (فى محاولته المباشرة الثانية بعد شهور من محاولة الجنرال مذبوح) اعترف بأن هذا الخائن (أوفقير) كان ينوى بعد نجاح انقلابه أن يبعث إليك بدعوة لكى تجىء وتكتب عن انقلابه، كما كتبت عن انقلاب معمر القذافى فى ليبيا ؟.. إنك كنت أول واحد ذهب إلى ليبيا نفس ليلة انقلاب القذافى».

ولم أتمالك نفسى، فابتسمت وقلت للمَلِك:

ـ «جلالة المَلِك.. إن نية أوفقير بدعوتى لم تصل إلى علمى.

وعلى فرض أنه نجح فى انقلابه ضدكم ودعانى إلى المغرب، فقد كان لدىّ كل سبب يدعونى إلى عدم الاستجابة، وأهم الأسباب أننى أعرف الرجل وأعرف ماضيه. أما القذافى فقد استجبت لدعوته لأنه كان ظاهرة مفاجئة... جديدة ومثيرة».

ثم أضفت :

– «الغريب أنك تعرف رأيى فى أوفقير، فهو رأى لم أخفه أبداً، وقد كتبته مراراً وبإلحاح.

إننا جميعاً فى مصر – وجمال عبدالناصر أولنا – كنا نعرف أن أوفقير هو رجل وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى المغرب العربى كله... ولم يكن بيننا وبينه حب موجود أو مفقود... كنا دائما نشك فى الرجل. وكنا دائما نتهمه. وقد كنت أنت الذى اعتبرت أن بعض هجومنا العلنى عليه هجوم مستتر عليك، بوصفه رجلك. فهل تتصور أننى أو أى واحد غيرى كان يمكن له أن يظن أو يخطر بخياله أن أوفقير رجل مهيأ لأى عمل وطنى أو قومى، وذلك على فرض أن انقلابه عليك يمكن أن يعتبر عملاً وطنياً أو قومياً ؟

لا أستطيع أن أخفى عنك أننى أستغرب ما سمعته منك الآن».

ثم أسعفتنى الذاكرة بواقعة قريبة، فقلت للمَلِك :

– «إن أنور السادات الآن رئيس للجمهورية فى مصر، فهل تعرف كيف جاء اختياره؟.. إن «أوفقير على نحو أو آخر له ضلع فى هذا الإختيار».

وكان المَلِك يسمعنى باهتمام، واستطردت:

– «فى ديسمبر ١٩٦٩ كان جمال عبد الناصر يستعد للسفر إلى الرباط لحضور مؤتمر القمة العربى الذى دعوت جلالتك إليه.

وجاءت معلومات بأن وكالة المخابرات المركزية الأمريكية تدبر مؤامرة لاغتياله فى المغرب، وأن المكلف بها هو أوفقير وزير داخليتك والمسئول عن الأمن فى مملكتك. ووقتها فكر جمال عبد الناصر طويلاً فى توصيات من أجهزة أمنية مصرية دعته إلى التغيب عن مؤتمر القمة. لكنه صمم على الذهاب. ومن باب الاحتياط فقد رأى تعيين نائب لرئيس الجمهورية [أنور السادات] فترة غيابه حتى لا يحدث فراغ على قمة السلطة فى مصر إذا حدث له شىء فى المغرب.

فهل الرجل الذى بلغ شكنا فيه هذه الدرجة ــ هو الرجل الذى أسانده فى انقلاب يستولى به على السلطة فى المغرب ؟

إننى أسألك بدورى، وألح فى سماع إجابتك».

ومرة أخرى بدا على المَلِك أنه يفكر ويقلب ما سمع من حججى. ثم بدا أن فكره راح يستقر، فقد سألنى :

ـ «إذن فأنت تؤكد لى (وأضاف كريماً «كأخ وصديق») أنك لم تكن على علم لا بخطة الانقلاب ولا بفكرة دعوتك لتكون أول من يكتب عنه ؟»

ووجدتنى أقول للمَلِك :

ـ «إننى أؤكد لك أننى لم أكن أعرف على الإطلاق. وأكثر من ذلك فقد كان أوفقير آخر رجل كنت أظنه ينقلب عليك. لقد كان أمامنا موضع ثقتك وسرك. وكان أقرب المقربين إليك. ولقد كانت صدمتنا بانقلابه مفاجأة لنا جميعاً لا تقل عن مفاجأتك أنت».

وكان المَلِك كريماً مرة أخرى عندما قال :

ـ «إننى أصدقك... وقد انتهى الموضوع فيما يتعلق بى. لقد كان ضرورياً أن أسألك، ولم يكن فى مقدورى أن أخفى شكوكى فى سرى وأن أواصل الحديث معك فيما كنا نتحدث فيه بينما صدرى مطوى على شك».

وقلت له : «إنى سعيد بما سمعته منه».

واستأنفنا أحاديثنا من حيث توقفت، وفتحنا أشرعة الحوار للسهر يأخذنا إلى بحار واسعة حتى قرب الساعات الأولى من الصباح.

وطالت سعادتى ــ فى هذا الموضوع ــ ومرت السنوات طوالا حتى فاجأنى كتاب «ذاكرة مَلِك».

....

....

فى بداية الصفحة ٩٤ من الكتاب، قال المَلِك بالحرف :

«لقد انساق المذبوح (أحد جنرالات أوفقير، وكان هو الذى قاد محاولة الانقلاب الدامية والفاشلة الأولى فى الصخيرات سنة ١٩٧١) وراء المصريين، ومعلوم أن الجرائد

المصرية تصل إلى المغرب بعد ست ساعات من طبعها. وفى يوم ١٠ يوليو وبعد سويعات على المحاولة الانقلابية كتبت صحيفة الأهرام القاهرية واسعة الانتشار على خمسة أعمدة وتحت عنوان بارز «مقتل الطاغية الحسن الثانى. انتهى الديكتاتور وانتصرت القوى الحية والوطنية بالجيش» ـ وكان محمد حسنين هيكل من رجالات جمال عبد الناصر.

وقد التقيت فيما بعد بمحمد حسنين هيكل وتباحثنا طويلا فى الموضوع. ولقد وعدته بألا أبوح أبداً بما دار بيننا».

وانتهيت من قراءة هذه العبارة وما تلاها، وأدركت متأخراً أن الشكوك ما زالت عالقة بـ«ذاكرة المَلِك».

ثم خطر ببالى أن أعود إلى مراجعة عدد الأهرام الصادر غداة الانقلاب، العدد الذى أثارت مواده شكوك المَلِك وهواجسه، وهو عدد ١١ يوليو ١٩٧١، ولم تكن عناوينه على النحو الذى حفظته «ذاكرة مَلِك».

كانت العناوين إخبارية ومحايدة، ونصوصها كما يلى :

«ضرب المَلِك الحسن بالرشاشات وإعلان الجمهورية فى المغرب ـ الرشاشات أطلقت على المَلِك وقصره بينما كان يحتفل بعيد ميلاده الـ ٤٢ ـ الجيش يستولى على السلطة ويعلن بياناً بالراديو يقول :

مات المَلِك .. تحيا الجمهورية

قوات الجيش تعزل حى الوزارات ومقر القيادة والإذاعة

وسط أنباء عن سقوط قتلى وجرحى من كبار رجال الدولة».

وكانت مصادر هذه الأخبار كلها مذكورة فى صدر الأهرام وفى الطبعة الأولى منه، وهى : وكالة الأنباء الفرنسية ـ وكالة الأسوشيتد برس الأمريكية ـ وكالة اليونايتد برس الأمريكية ـ وكالة رويتر البريطانية.

وفى الطبعة الثانية من نفس العدد تغيرت العناوين مع تغير مسار الحوادث ـ فأصبحت :

«المَلِك ينجو من الهجوم

المَلِك يروى كيف نجا ويعلن : عمليات إعدام المتآمرين تتم اليوم ـ التفاصيل الكاملة للأحداث الدموية التى شهدتها الرباط».

ومرة ثانية فقد كانت وكالات الأنباء العالمية الكبرى هى المصدر والأساس الذى قام عليه عرض القصة على امتداد خمس صفحات.

وإذن فقد كانت عناوين الأهرام ومتابعته للحوادث إخبارية. لم يكن فيها حرف عن «مقتل طاغية» أو «نهاية ديكتاتور» أو «انتصار قوى حية».

....

....

ولقد ذهبت أبعد من ذلك خطوة فى التثبت والمراجعة، ذلك أننى عدت إلى ما كتبته بنفسى فى ذلك الوقت فضلاً عما نشره الأهرام من تغطية إخبارية، وإذا بى أتبين أننى أبديت رأيى بصراحة فى أوفقير بعد محاولة الانقلاب الأولى (محاولة الجنرال مذبوح)، وكان ما زال فى السلطة لم ينكشف أمره بعد إعدام الجنرال مذبوح. وفى هذا المقال المنشور يوم الجمعة ١٦ يوليو ١٩٧١، أوردت حوارا كان قد دار بينى وبين أوفقير قبل سنوات، ومن الغريب أن ذلك الحوار دار فى حضور المَلِك الحسن نفسه. وكان بين النصوص التى وردت فى مقالى ـ المقطع التالى بالحرف :

«إن الجنرال أوفقير كان دائماً تجسيداً حياً لأداة القمع والإرهاب.

وأذكر مناقشة دارت بينى وبينه أمام المَلِك وأمام شهود من بينهم السيد خالد الحسن أحد قادة فتح البارزين، وقد جرت أثناء مؤتمر القمة فى الرباط سنة ١٩٦٩.

لقد جاء الجنرال أوفقير يسلم علىّ، وأحس بحيرتى وأنا أمد يدى إليه، فقد كان فى ذهنى ساعتها بن بركة (الزعيم المغربى الذى تولى الجنرال خطفه وقتله بشهادة الرئيس الفرنسى شارل ديجول).

وقال لى أوفقير :

ـ إننى أتحاشى الصحافة والصحفيين دائماً ولكنى أتابع ما تكتب... لماذا تهاجمنى (يقصد اتهامى له بخطف بن بركة) وأنت لا تملك دليلاً ؟

وقلت له متأدباً لأن المَلِك كان يتابع باهتمام كما أن غيره كان قد لفت انتباههم منظرى واقفاً مع أوفقير بينما صداقتى لبن بركة معروفة لديهم بتفاصيلها...

قلت لأوفقير :

ـ أنت رجل غامض على الأقل، والرجل الغامض متعب لخصومه ولأه
السواء.

خصومه لا يعرفون بالضبط... ماذا ؟

وأصدقاؤه لا يعرفون بالضبط... كيف ؟

وقال أوفقير :

ـ إنك تحيرنى... لم أفهم قصدك بماذا ولا بكيف ؟

قلت :

ـ لأنك غامض فإن الخصوم لا يعرفون بالضبط ماذا فعلت ؟ كما أن ا
يعرفون بالضبط كيف يدافعون عنك... هل كلامى الآن واضح ؟

وقال أوفقير :

ـ أنا رجل بلا خصوم !

ثم استطرد بسرعة :

ـ وبلا أصدقاء !

وقلت له :

ـ لا.. إننى أعرف لك خصوماً... فهل لا تعرف أنت لنفسك أصدقاء ؟

قال أوفقير :

ـ قل لى أولاً... هل أنت خصم أو صديق ؟

قلت والكل (بما فيهم المَلِك نفسه) يتابعون الحوار :

ـ وتريدنى أن أجيبك بصراحة ؟

قال :

ـ أليس هذا عنوان مقالك الأسبوعى ؟

قلت :

ـ إذن فأنا خصم !

واستطردت أخفف وقع ما قلت :

ـ لكى أكون منصفاً فأنا بالطبيعة خصم لما تسمونه سلطة الأمن... أى خصم لوزير الداخلية... أى وزير داخلية.

وعندما يكون اسم وزير الداخلية هو أوفقير فإن الخصومة معه تصبح أشد... أشد تعقيداً على الأقل.

وقال أوفقير وهو ينظر إلى المَلِك ثم يعود فيوجه الكلام لى :

ـ هل يضايقك حفظ الأمن ؟

قلت :

ـ يتوقف على معنى الأمن.

قال :

ـ معنى الأمن عندى هو أن يكون كل إنسان فى بيته آمناً وعلى أولاده آمناً.

قلت :

ـ هذا كلام واسع... إننى أتحدث عن «الأمن» ضد الأفكار وأنت تتحدث عن الأمن ضد اللصوص... مسألة الأمن ضد اللصوص لا أناقشك فيها... لكن المناقشة هى أمن الفكر...

وقال أوفقير :

ـ الأمن الفكرى ألا تختلف عن رأى الجماعة.

قلت :

ـ ذلك يعنى قبول الأمر الواقع كما هو وحظر التفكير فى غيره ؟

قال :

ـ ليس من حق أحد أن يخرج على الجماعة... هذا حكم الدين.

قلت :

ـ لماذا أدخلت الدين فى المناقشة ؟ ثم أليس صحيحاً أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) ـ بالوحى ـ نادى بفكر يختلف عن فكر الجماعة فى قريش، وكان الحق ما نادى به محمد ؟

أسألك : لو أنك كنت وزيرا لداخلية قريش... ماذا كنت تفعل فى محمد بن عبدالله وهو ينادى برأى يختلف عن رأى الجماعة... أليس كذلك تبدأ حركات التطور الكبرى سواء كانت وحياً مباشراً من الله أو فكراً حراً من قلب إنسان ؟

وقال أوفقير محتجاً :

ـ ولكنى لست وزيراً لداخلية قريش».

....

....

وربما يتذكر المَلِك هذا الحديث الذى جرى أمامه سنة ١٩٦٩، ثم نشر كاملا سنة ١٩٧١ ـ سنتين أو ثلاث قبل انقلابات أوفقير عليه، وست سنوات أو سبع قبل لقائنا فى فاس سنة ١٩٧٥. والنصوص واضحة تكشف الحقائق، كما أن معانيها كافية للدلالة على النوايا المستترة فى الضمائر. والمحصلة أن أى صلة لى سواء بالعلم اليقينى أو بالنوايا الخفية ـ مع أوفقير أو خططه كانت ضرباً من المستحيلات. وكنت أتصور المسائل واضحة وجلية. لكن ذلك لم يكن ما ظهر فى كتاب المَلِك. ومن هنا كان هذا الحديث لازماً وواجباً.

ثم يبقى أن الوقوف بأدب أمام «ذاكرة مَلِك» شىء ضرورى ومطلوب.

ومع ذلك فإنى أتمنى أن تكون «ذاكرة صحفى» قادرة على أن تعرض منظوراً مختلفاً ـ وأن تفعل ذلك بمنتهى الاحترام.

[انتهى مقال «ذاكرة صحفى ـ ردا على كتاب «ذاكرة ملك»]

المفكرة رقم ٣

الاعترافات تنهمر مع الدموع !...
والتاريخ وحده يستطيع أن يحكم

[١]

عندما أُعْلِن عن وفاة المَلِك «الحسن» يوم ٢٣ يوليو الأخير كانت ردود الفعل فى إسرائيل عاجزة عن السيطرة على النفس، وكذلك أدى الإعلان عن وفاة المَلِك إلى خلل فى التوازن أعقبته لحظة تحولت إلى ثغرة تدفقت منها دون تحسب أشياء طال الحرص عليها وتمكن الحذر. وهكذا فإن التعبيرات انفلتت إلى حد الاعتراف على مستوى الحكومة الإسرائيلية وهى مسئولة، وعلى المستوى الإعلامى الإسرائيلى وهو لسوء الحظ أكثر مصداقية من غيره فى المنطقة!

وقد يكون من المفيد استعراض بعض النماذج مما انفلت إلى حد الاعتراف :

القدس ٢٤ يوليو ١٩٩٩

بيان من رئيس الوزراء «إيهود باراك» بمناسبة وفاة المَلِك «الحسن الثانى» مَلِك المغرب:

«إن قائداً عظيما لشعبه لم يعد الآن موجوداً. لقد كان رجلاً بعيد النظر وصديقاً لكل حكومات إسرائيل فى محاولاتها للتوصل إلى سلام مع الشعب العربى. لقد صُدِم الشعب والحكومة فى إسرائيل بإعلان وفاة المَلِك الحسن الثانى مَلِك المغرب، فطوال

حياته أظهر الحسن الثانى شجاعة نادرة وحكمة سياسية جعلت منه رائداً فى التقارب مع إسرائيل ، وفى بناء جسور سياسية واقتصادية بين البلدين. وقد أصبح صديقاً لشعب إسرائيل كما كان حبيباً ليهود المغرب. إن إسرائيل كلها تحنى رأسها أمام ذكراه وتشارك فى الحزن العميق للشعب المغربى».

....

....

المؤتمر اليهودى ـ الأمريكى ينعى وفاة المَلِك الحسن صديق السلام وحامى اليهود فى مملكته :

نيويورك ٢٦ يوليو ١٩٩٩

«بعد شهور قليلة من وفاة المَلِك حسين مَلِك الأردن اختفى من الساحة نهائياً وقبل الأوان المَلِك الحسن مَلِك المغرب.

إن المَلِك حسين والمَلِك الحسن كليهما أدرك جنون سياسات العداء مع إسرائيل، وقد لعب كلاهما دوراً رئيسياً فى دفع تقدم عملية السلام بما فى ذلك اشتراكهما سراً وعلناً فى جعل اتفاقيات كامب دافيد بين مصر وإسرائيل ممكنة.

ولقد كان محتماً أن يكون للمَلِك الحسن، لو أنه عاش، أن يأخذ دوراً كبيراً فى الجهود السلمية الدائرة الآن بعد انتخاب إيهود باراك رئيساً لوزراء إسرائيل.

إننا فى لقاء شخصى أخير مع المَلِك الحسن أعجبنا بلا حدود بتفانيه الكامل من أجل قضية السلام، ولم يقلل مرور السنين من ولاء المَلِك لرفاهية اليهود وبخاصة يهود بلده. فقد كان المَلِك الحسن فخوراً بدوره فى حماية الجالية اليهودية. وفى الوقت الذى يخشى فيه العالم على مصير ١٣ يهودياً متهمين بالتجسس فى إيران فإن مما يُشَرِّف المَلِك الحسن أن شيئا من هذا النوع لا يمكن أن يلحق بيهود المغرب».

....

....

القدس ٢٤ يوليو ١٩٩٩

بيان من وزارة الخارجية الإسرائيلية بمناسبة وفاة الملِك الحسن الثانى ملِك المغرب :

«تعرب وزارة الخارجية الإسرائيلية عن أسفها العميق لوفاة الملِك الحسن الثانى ملِك المغرب وهو واحد من الزعماء العظام لعصرنا والذى ترك بصماته على كل اختراق رئيسى نحو السلام فى المنطقة، فطوال حياته كان الملِك الحسن معروفاً بانفتاحه وبإسهامه فى الحوار بين الأمم والعقائد، وتجلى ذلك بالدرجة الأولى فى العلاقات مع الجالية اليهودية. إن شعب إسرائيل وبخاصة هؤلاء المهاجرين من المغرب حزانى لوفاة الملِك ولسوف يذكرون بحرارة شخصه وأعماله».

....

....

إعلان فى كل الصحف الأمريكية كان السطر الأول فيه باللغة العربية والثانى باللغة الإنجليزية والثالث باللغة العبرية ـ يقول :

فلتكن ذكراه مباركة للأبد

بتواضع أمام الله الذى خلقنا جميعاً ننعى مع الشعب المغربى وفاة صاحب الجلالة الملِك الحسن الثانى كقائد ممتاز وشجاع ومفتوح وعظيم قام بأعمال جسورة وملهمة فى سبيل قضية السلام فى الشرق الأوسط. وسوف نحيى ذكراه إلى الأبد بعملنا من أجل الأهداف العظيمة التى سعى لها بعزيمته.

اللجنة الأمريكية ـ اليهودية

....

....

فى عددها الصادر يوم الأحد أول أغسطس نشرت جريدة «الجيروساليم بوست» مقالاً لمحرر القسم السياسى فيها جاء فيه :

«لقد كان سلوك الملِك الحسن صاحب الوجه الصخرى والعلاقة الوثيقة مع الغرب تجاه اليهود وتجاه إسرائيل سلوكاً يدعو للإعجاب. وفى حين أن معظم النظم العربية ناصبت إسرائيل العداء إلى درجة التهديد بإبادتها فإن الحسن سمح للموساد (جهاز المخابرات الإسرائيلى) بأن تقيم مركزاً كبيراً لها فى المغرب.

وكذلك فقد كان هو الرجل الذى استضاف الاجتماع الأول بين موشى ديان وبين حسن التهامى مبعوث الرئيس السادات وكان هذا اللقاء (سنة ١٩٧٧) هو الذى مَهَّد فيما بعد لاتفاقية كامب دافيد».

....

....

جيروسالم بوست يوم الثلاثاء ٢٧ يوليو ١٩٩٩ :

«فى ظرف شهور قليلة فقدت إسرائيل اثنين من أغلى أصدقائها فى المنطقة وهما المَلِك حسين والمَلِك الحسن، فكلاهما كان لديه الإلهام والشجاعة لدفع العالم العربى إلى التصالح مع إسرائيل. وبالنسبة لنا فى هذا البلد (إسرائيل) فإن هذين الرجلين لعبا دوراً حيوياً فى النشاط الخفى الذى مكن إسرائيل من اختراق الطوق الفولاذى للسلبية التى أجمع عليها العالم العربى فى تعامله مع ما سموه بـ : «الكيان الصهيونى». كان الرئيس السادات هو أول زعيم عربى خطا فى العلن خارج هذا الطوق، ولكن الحقيقة أن المَلِكين سبقاه فى إحداث شروخ وفجوات مؤثرة فى هذا الطوق».

....

....

الثلاثاء ٢٧ يوليو ١٩٩٩

كتب إريك سيلفر وهو واحد من أشهر الصحفيين الإسرائيليين مقالاً فى جريدة «الإندبندنت» البريطانية جاء فيه :

«إن وفاة المَلِك الحسن يوم الجمعة الماضى لا بد لها أن تذكرنا بالعلاقات الخاصة بينه وبين إسرائيل وهى علاقات استفاد منها المَلِك كما استفادت إسرائيل، فقد كانت المخابرات الإسرائيلية هى التى أشرفت على تنظيم المخابرات المغربية وتدريب عملائها. ولمدة أربعين سنة فإن العلاقات بين الجانبين كانت علاقات غير عادية وبخاصة فى مجال المخابرات وضد أعداء مشتركين فى الشرق الأوسط.

وإلى جانب تنظيم المخابرات المغربية وتدريب عملائها فإن إسرائيل أمدت الملك بأسلحة كثيرة بينها الدبابات، كما لعبت أدواراً مهمة فى مطاردة وتصفية أعدائه والمعارضين له.

إن العلاقات السرية بين الطرفين بدأت فى عهد الملك محمد الخامس الذى سمح لعشرات ألوف من اليهود المغاربة بالهجرة إلى إسرائيل، ولكن الملك الحسن بعد جلوسه على العرش طَوَّر العلاقات المغربية الإسرائيلية وأرساها على قواعد مؤسسية، وكان ذلك بعد لقاءات مطولة بينه وبين مائير آميت رئيس جهاز الموساد الإسرائيلى الذى وصل إلى مدينة مراكش فى شهر مايو سنة ١٩٦٤ للقاءاته مع الملك.

وكما يكشف يوسى ميلمان فى دراسته الهامة عن المخابرات الإسرائيلية فإن الموساد كانت تتولى بطريقة منظمة إمداد الملك الحسن بمعلومات وتقارير عن النوايا العدائية لزعيم مصر الثورى جمال عبد الناصر. وطبقاً لتقارير مؤكَّدة فإن الموساد تولت إمداد المغرب بمائة دبابة لتقوية موقف الحسن إزاء الجزائر أثناء التوتر الذى حدث بين المغرب والجزائر فى الستينات.

وكانت الموساد هى التى تولت متابعة تحركات المعارض الشهير للملك المهدى بن بركة والإبلاغ عنها تمهيداً لخطفه وقتله بواسطة رجال الملك لكن الموساد نفسها لم تشترك فى عملية القتل».

....

....

جريدة «معاريف» الإسرائيلية ٢٦ يوليو ١٩٩٩:

كشف أمير أورين (مسئول بارز فى الموساد) فى مقابلة مع هذه الجريدة (معاريف) أن الملك الحسن سمح للموساد بأن تَتَسَمَّع على المناقشات التى دارت بين الزعماء السياسيين والقادة العسكريين للعالم العربى وذلك أثناء مؤتمر قمة عربى عُقِد فى الرباط سنة ١٩٦٥ وكان موضوع البحث الرئيسى فيه هو خطط القيادة العربية الموحدة فى المواجهة مع إسرائيل. ولا بد من الاعتراف أن هذا التَسَمُّع كانت له نتائج مخابراتية هامة فى الجهد الذى أدى إلى انتصار إسرائيل فى حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧.

وكشف أورين أن العلاقات بين البلدين فَتَرَت بعد حرب يوم الغفران سنة ١٩٧٣، فقد تضايقت جولدا مائير رئيسة وزراء إسرائيل من أن المَلِك بعث بقوة رمزية للقتال مع سوريا كبادرة للتضامن العربى. وبرغم أن المَلِك أوضح لأصدقائه الإسرائيليين أنه كان مضطراً إلى ذلك وأن مشاركة قواته فى الحرب كانت رمزية فإن جولدا مائير لم تغفر له ولم تعد الصداقة إلى مكانها إلا عندما أصبح إسحق رابين رئيسا لوزراء إسرائيل بعد استقالة مائير وقام برحلة سرية إلى المغرب حيث قابل المَلِك الحسن وعادت المياه إلى مجاريها.

وأوضح أورين أن المَلِك كان بين أكثر المشجعين للرئيس السادات على الاتصال المباشر بإسرائيل وقد رتب بنفسه وفى قصره أول لقاء سرى بين البلدين. وقد شجع الرئيس السادات على الذهاب للقدس رغم أنه فى العلن اضطر مراعاة للشعور العربى أن يقف فى صف ناقدى السادات، وقد برر المَلِك نقده للسادات لأصدقائه فى إسرائيل بأنه فوجئ بإعلان الزيارة دون استشارته فى التوقيت، وكان حرياً بالرئيس السادات الذى يعرف دور المَلِك فى اتصالاته بإسرائيل أن يتشاور معه مسبقاً».

....

....

٢٦ يوليو ١٩٩٩

نشرت صحيفة «النيويورك تايمز» كبرى الصحف الأمريكية تقريرا لمراسلتها فى القدس «ديبورا سونتاج» جاء فيه :

«لقد خصص الإعلام الإسرائيلى كل مساحاته أمس لعقود من العلاقات السرية بين إسرائيل والمَلِك الحسن، وقام بتقديم العرفان لزعيم عربى بدأ حياته بتوجيه مُرَبِّية يهودية. وقد روى الإعلام الإسرائيلى تفاصيل واسعة عن اللقاءات السرية التى قام بها ساسة إسرائيليون وقادة سياسيون وعسكريون إلى جانب رؤساء أجهزة أمنية للقاءات لم تنقطع مع المَلِك الحسن. والرأى السائد هو أن العلاقات بين إسرائيل و المَلِك كانت ذات فائدة مشتركة للطرفين.

فالمَلِك الحسن أعطى للموساد ولغيرها من أجهزة الأمن الإسرائيلى الإذن بأن تَتَسَمَّع على مناقشات ومداولات مؤتمرات عربية وإسلامية على مستوى القمة، وفى

نفس الوقت فإن الموساد كانت مسئولة عن حماية المَلِك من أية محاولة لاغتياله سواء فى بلاده أو خارجها وخصوصاً فى فرنسا التى كان المَلِك دائم التردد عليها. وقد قال جوزيف ألفر وهو مسئول كبير سابق فى الموساد: «بالنسبة للمَلِك فإن المخابرات الإسرائيلية كانت درعاً لحماية نظامه، وبالنسبة لإسرائيل فإن المَلِك الحسن كان نافذة تطل منها إسرائيل على ما يجرى داخل العالم العربى وعلى أرفع مستويات صنع القرار فيه».

....

....

ثم جاء أخيراً تكريم المَلِك «الحسن» إسرائيلياً على نحو لم يسبق له مثيل، فقد أُعْلِن رسمياً يوم ٣٠ أغسطس ١٩٩٩ عن تشكيل لجنة على مستوى عالٍ فى إسرائيل للبحث فى خطة تكريم «لا يُنْسى» للمَلِك «الحسن». وكانت اللجنة برئاسة «إيهود باراك» رئيس وزراء إسرائيل، وكان بين أعضائها «شيمون بيرين» رئيس الوزراء السابق ووزير التعاون الإقليمى فى الوزارة الإسرائيلية الحالية، و«دافيد ليفى» وزير الخارجية، وشلولوبن آمى» وزير المالية الأسبق، وغيرهم.

وكان أول اقتراح تقدمت به اللجنة وجرت الموافقة مبدئياً عليه هو تسمية ٧٠ موقعاً (ميادين وشوارع ومتنزهات وحدائق) باسم المَلِك «الحسن». وإلى جانب ذلك فقد طلبت اللجنة أن يحمل طابع البريد التذكارى الأول سنة ٢٠٠٠ صورة للمَلِك «الحسن»!

....

....

وكان ذلك كله موجِباً لوقفة ضرورية تتساءل عربياً عن كل هذا الذى جرت به الاعترافات مع الدموع ـ إسرائيلياً !!

[٢]

ولم يكن هناك شك فى «زمانه» و«أوانه» أن هناك معلومات خطيرة عن أوضاع العالم

العربى وأمنه القومى بالتحديد تخرج من المغرب وتصل إلى إسرائيل. ولقد نَشَرْتُ فى كتاب «الانفجار ١٩٦٧» ـ الذى نُشِرَ سنة ١٩٩٠ ـ واقعة هامة بدت فى وقتها خطيرة ـ لكن خطورتها تأخذ الآن بُعْداً مختلفاً بالكامل !

كانت الواقعة كما نَشَرْتُها ـ فى كتاب «الانفجار ١٩٦٧» ـ بداية من الصفحة رقم ٢١٢ حتى ٢١٤ ـ ثم اكتملت تفاصيلها بعد ذلك بداية من الصفحة ٣١٤ حتى ٣١٦ ـ تتلخص فى أن «مؤتمر القمة العربى الذى انعقد فى الدار البيضاء فى سبتمبر ١٩٦٥ ـ بحث مشروعاً سورياً (قدمه رئيس الدولة حينئذ اللواء «أمين الحافظ») يطلب قراراً عربياً على مستوى القمة يطالب بـ «التصميم على خوض معركة تحرير فلسطين معتمدين بعد الله على مقدراتنا وإمكانياتنا مهما كلفنا ذلك ومهما كانت النتيجة» ـ ثم إن هذا المشروع السورى مضى بعد ذلك إلى تحديدٍ للقوات العسكرية القادرة على تنفيذ هذه المهمة.

والذى حصل وقتها أن مؤتمر القمة العربى وقد استمع إلى عرض سورى للخطة واطلع على أوراقها وجداولها ورسومها لم يصدر بشأنها قراراً، ولعله وجدها بالغة الصعوبة إقليمياً ودولياً، وأهم من ذلك عملياً ـ ومن ثم ظلت المناقشة مفتوحة ومُعَلَّقة فى الهواء.

ولكن المهم أن هذا الموضوع عُرِض فعلاً ونوقِش فى اجتماعٍ على مستوى القمة العربية فى الدار البيضاء فى سبتمبر ١٩٦٥.

ثم كان الأهم بعد قرابة سنة من اجتماع الدار البيضاء ـ أن لقاءً جرى بين «جوزيب بروز تيتو» زعيم يوجوسلافيا ورئيسها فى ذلك الوقت، وبين الرئيس «جمال عبدالناصر»، وفوجئ «جمال عبد الناصر» بصديقه اليوجوسلافى يقول له بالحرف (كما رويت على صفحة ٣١٤ من كتاب «الانفجار ١٩٦٧») أنه «عرف بمسألة أراد أن يكون الرئيس جمال عبد الناصر على علم بها»، ثم قطع «تيتو» كلامه وتوجه بسؤال مباشر إلى «جمال عبد الناصر» قائلا له: «هل صحيح أنكم وضعتم خطة عسكرية للقضاء على إسرائيل أثناء انعقاد مؤتمر القمة العربى فى الدار البيضاء فى العام الماضى؟».

ودُهِش «جمال عبد الناصر» من السؤال وبدت دهشته واضحة أمام صديقه الذى واصل حديثه قائلاً: «منذ عدة شهور ألح جولدمان («ناحوم جولدمان» رئيس الوكالة اليهودية أيامها) علىّ بطلب مقابلة معى ولم أستجب لطلبه متصوراً أنه يريد أن

يسمعنى واحداً من «مونولوجاته الشهيرة» عن السلام طالباً وساطتى معك كما فعل مرات من قبل. لكن جولدمان بعث إلىّ يقول أن لديه موضوعاً عاجلاً من الضرورى اطلاعى عليه، وهو موضوع جديد تماماً. وحددت له موعداً وقابلته بالفعل قبل عشرة أيام فى دوبروفنيك. وعندما لقيته فإنه لم ينتظر حتى المجاملات التقليدية، وإنما بدأ على الفور بما يشغله قائلاً لى : «إن رؤساء الدول العربية الذين اجتمعوا فى الدار البيضاء وضعوا خطة للقضاء على إسرائيل، وأن هذه الخطة وصلت من ثلاثة مصادر إلى إسرائيل. وقد دعانى رئيس الوزراء ليفى أشكول بطريقة عاجلة إلى مقابلته فى القدس وأطلعنى على هذه الخطة، وقال لى «إذا كنت تتصور أننا فبركناها لإقناعك بما نقول فلك أن تسأل أصدقاءك فى البيت الأبيض أو وكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى واشنطن، فقد وصلت إليهم الخطة كما وصلت إلينا. وقد اطلع عليها الرئيس جونسون بنفسه وقرر بعدها زيادة المساعدات العسكرية لإسرائيل بطريقة تخطت كل الحدود التى عرفناها من قبل».

وحاول «جمال عبد الناصر» أن يسيطر على مشاعره وحتى تعبيرات وجهه، وكان يريد أن يسمع أكثر، وكان لدى الرئيس «تيتو» ما يضيفه، فاستطرد قائلاً أن «جولدمان قال لى بعد ذلك أن رئيس وزراء إسرائيل ليفى أشكول أخبره بأنه الآن لا يستطيع أن يقبل أنصاف حلول، فإسرائيل فى خطر لم يتعرض له اليهود منذ أيام هتلر والهولوكوست، وبالعكس فإن الخطر هذه المرة أفدح، فاليهود الذين اختفوا تحت حكم النازى كانوا فى المنفى، وأما الآن فإن ٥ر٢ مليون يهودى معرضون للإبادة فى عقر وطنهم بعد أن استطاعوا تحقيق حلم إنشاء الدولة. وكان طلب أشكول بعد ذلك من جولدمان أنه يريد من الحركة اليهودية أن تدبر له مبلغاً كبيراً من المال لاستكمال احتياجات إسرائيل من السلاح، فهى لا تريد أن تعتمد فقط على المصادر الأمريكية للسلاح رغم كرمها، لأن اعتماد إسرائيل بالكامل على السلاح الأمريكى وحده من شأنه أن يعطى لواشنطن نوعاً من حق الاعتراض ـ الفيتو ـ على تحقيق أية أهداف إسرائيلية لا تريدها الولايات المتحدة وتريدها إسرائيل. ثم قام أشكول بدعوة الجنرال رابين رئيس أركان الحرب لكى يشرح لجولدمان الموقف الصعب الذى يمكن أن تجد إسرائيل نفسها فيه لو أن الخطة العربية للدار البيضاء وُضعَت موضع التنفيذ. وتحدث رابين فقال أنه لا يشك فى صحة الوثيقة ولا يشك فى النوايا التى تتضمنها، والسؤال الوحيد الباقى أمامه هو «متى »؟ـ أى أنها مسألة توقيت وإسرائيل لا يمكن أن تقبل توقيتاً عربياً يُفْرَض عليها».

وواصل الرئيس «تيتو» حديثه فقال : «عندما سمعت هذا الكلام من جولدمان كان تعليقى عليه أننى لا أصدق. وعلى فرض أن العرب لديهم مثل هذه النوايا فلست أظن أنهم يضعونها على ورق. وحتى إذا وضعوها على ورق، فمن المؤكد أنهم سوف يحتاطون كى لا تصل إلى إسرائيل وإلى الولايات المتحدة أخبارهم من ثلاثة مصادر أو أربعة. ورَدَّ علىّ جولدمان بأن ذلك كان انطباعه الأولى وهو يسمع أشكول، لكنه بعد أن رأى الأوراق وتأكد أن البيت الأبيض والمخابرات المركزية لديهما علم بحقيقة الموضوع فإنه كان مضطراً أن يصدق».

....

....

[٣]

إن «جمال عبد الناصر» الذى فوجئ بما سمع من «تيتو» استطاع على الفور أن يُدرِك مدى صحة المعلومات التى وصلت لإسرائيل، وقد قدر خطورتها. ومن الغريب أن شكوكه ـ وقتها ـ اتجهت إلى الجنرال «محمد أوفقير» وزير المَلِك «الحسن» القوى والنافذ خصوصاً فى مجال المخابرات ـ لكنه لم يرد على باله، ولا حتى كهاجس أو كابوس ـ أن المشكلة فوق «أوفقير» وأعلى منه، وأن الموساد ـ كما يظهر الآن من شهادات الساسة ووسائل الإعلام الإسرائيلية فى مناسبة رحيل المَلِك «الحسن» ـ كان لها مركز تَنَصُّت وتَسَمُّع على كل كلمة تجرى فى اجتماعات ومداولات ملوك العرب ورؤسائهم فى الرباط.

والأغرب ـ والأشد مدعاة للتأمل الآن ـ هو أن «جمال عبد الناصر» رأى أن يصارح المَلِك «الحسن» أثناء مؤتمر القمة العربى فى الرباط سنة ١٩٦٩ بأن هناك أخباراً تتسرب من المغرب إلى إسرائيل. والأكثر فى المفارقة أن «جمال عبد الناصر» أفضى إلى المَلِك «الحسن» بشكوكه فى وزيره القوى «محمد أوفقير»!!

□ □ □

وربما أنه الآن فقط يمكن لأى متابع مهتم بالشأن العربى أن يسمح لنفسه بالتساؤل على الأقل ـ عن أسباب الحرص الزائد للملك «الحسن» على استضافة أكبر عدد من مؤتمرات القمة العربية والإسلامية التى تتعرض مناقشاتها بالضرورة للصراع العربى الإسرائيلى فى ذلك الوقت ـ ثم يُلْحَق بذلك ما يُقال الآن صراحة وعلى لسان أكبر المسئولين وأكثر المعلقين فى إسرائيل أن جهاز الموساد كانت لديه فى قاعات اجتماع القِمَم العربية والإسلامية وسائل تَنَصُّت وتَسَمُّع. أى أن جهاز الموساد كان طَرَفاً حاضراً فى هذه الاجتماعات وإن لم يكن مَرْئِياً ـ مُشاركاً فيها وإن لم يفتح فمه بكلمة. وهذه مصيبة بأى معيار!

وعلى سبيل الحصر فإن المَلِك «الحسن» استضاف سبعة مؤتمرات قمة عربية، وهذا عدد قياسى من المؤتمرات لم تستطع دولة عربية أن تتحمل بتكاليفه أو بمسئولياته:

مؤتمر القمة العربية فى الدار البيضاء فى سبتمبر ١٩٦٥.

مؤتمر القمة العربية فى الرباط فى ديسمبر ١٩٦٩.

مؤتمر القمة العربية فى الرباط فى أكتوبر ١٩٧٤.

مؤتمر القمة العربية فى فاس فى نوفمبر ١٩٨١ (وهى قمة اجتمعت وانفَضَّت دون جلسات رسمية بسبب خلافات استحال التوفيق بينها حول مشروع قدمته السعودية باسم المَلِك «فهد»).

مؤتمر القمة العربية فى فاس فى سبتمبر ١٩٨٢ (وقد نوقش فيها وصدر عنها مشروع المَلِك «فهد»).

مؤتمر القمة العربية الطارئة فى الدار البيضاء فى أغسطس ١٩٨٥.

مؤتمر القمة العربية الطارئة فى الدار البيضاء فى مايو ١٩٨٩.

وعلى سبيل الحصر أيضاً فقد استضاف المَلِك «الحسن» ثلاث قمم إسلامية كان أولها وأخطرها مؤتمر القمة الإسلامية الذى انعقد فى سبتمبر ١٩٦٩ بعد حريق المسجد الأقصى، والذى كان بين قراراته تشكيل لجنة إسلامية يرأسها المَلِك «الحسن» نفسه واعتبارها مسئولة عن إنقاذ القدس!

ثم تلى ذلك مؤتمران على مستوى القمة الإسلامية: يناير ١٩٨٢، وديسمبر ١٩٩٤ فى الدار البيضاء.

....

....

وبرغم ذلك فإنه قبل الذهاب بالوقائع والأفكار والتأملات بعيداً وواسعاً فلا بد أن نستدرك جميعاً لنَتَنَبَّه إلى أن هناك مطلباً ضرورياً قبل كل شيء وبعد كل شيء، وهو مطلب الفهم قبل الحكم ـ في حالة المَلِك «الحسن» كما كان أيضاً في حالة المَلِك «حسين».

وفي مطلق الأحوال فإن البشر لا يملكون أهلية الحكم على البشر في السياسة، وإنما يملكون أهلية التقدير والتقييم بعد إطالة النظر في الوجوه المتعددة للحقيقة لأن الأداء السياسي لا تضبطه مواد من قوانين مُحَدَّدة ومُحْكَمة.

إن التاريخ يستطيع أن يحكم بعد أن يستوفي مطالبه.

ثم إن خالق البشر يملك محاكمتهم يوم الحساب لأن علمه سبق.

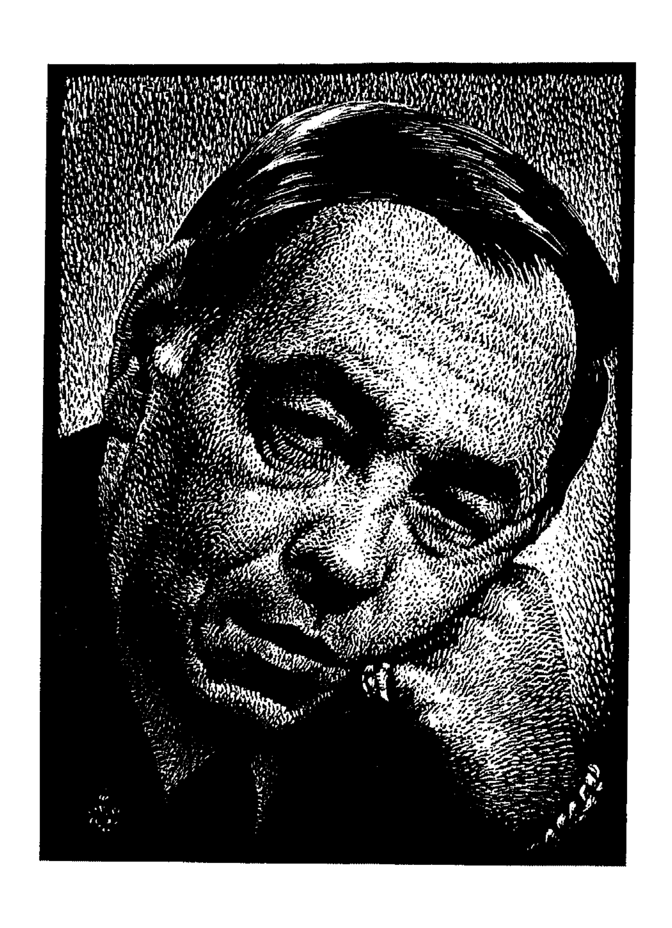
....

....

ونتذكر أن المقاييس والموازين في أي تقدير وتقييم إنساني تختلف ـ لأن الحقيقة الإنسانية لها وجوه متعددة وليس للحقيقة الإنسانية وجه واحد حتى بالنسبة للملوك، بما في ذلك «الحسن» و«الحسين».

ولقد كانت للمَلِك «حسين» في سياساته خلفية من إملاء الجغرافيا والتاريخ، وصِلات من روابط سبق إليها غيره، وظروفاً في الإقليم وفي العالم.

وقد كان ما قيل عن المَلِك «الحسن» في إسرائيل وفي الولايات المتحدة وفي الغرب عموماً وجهاً من وجوه الحقيقة، لكن هناك للحقيقة وجوهاً أخرى خصوصاً أن التقدير والتقييم هنا عن الحقيقة في شأن بَشَر، ثم إن هذا البَشَر هو نفسه الإنسان الذي أصاخ السمع يوماً وسط جنازة والده ـ المَلِك «محمد الخامس» ـ ليصغي لصوت شيخ يقول لمُشَيِّعين أخذتهم الحماسة وغلبهم التأثر: «الجنازة يرحمكم الله لرجل»!



مفكرات فى ملفات ملكية (٢)

الحسن الثانى

قرأ ماكيافيللى أميراً
وطبق آراؤه ملكاً!

مفكرات فى ملفات ملكية (٢)(*)

الحسن الثانى
قرأ ماكيافيللى أميرًا وطبّق آراءه ملكًا!

المفكرة رقم ٤

المغرب - الأندلس - اليهود

[١]

هى الجغرافيا والتاريخ مرة أخرى - إذا كان علينا أن نحاول فَهْم شخصية المَلِك «الحسن» - مَلِك المغرب الراحل.

والجغرافيا ضرورية لفَهْم طبيعة أى بلد، وفهم طبائع الإستراتيجية التى تُحَرِّك سياساته على وجه العموم - رغم تَقَلُّب العصور.

ثم إن التاريخ لازم لفَهْم طبيعة السلطة فى أى بلد، وفَهْم طبائع الحُكّام الذين يُحْتَمَل أن يَرِدوا على القمة فيه، بصرف النظر عن ألقابهم ملوكاً أو سلاطين، شيوخاً أو رؤساء.

وأظن أن المَلِك «الحسن» بقراءاته أو بتجاربه كان مُسْتَوْعِباً لدروس الجغرافيا والتاريخ، ولعله كان بين أكثر من عَرَفْت من رؤساء الدول العربية حُسْن اطلاع ومتابعة. واعتقادى أن تلك هى الميزة التى تضيفها قوة اللغة إلى إمكانيات أى مُشْتَغِل - أو مَشْغول - بالهَمِّ العام.

(*) نوفمبر ١٩٩٩.

وقوة اللغة فيما أحسب هنا قوة ثنائية الفعل:

من ناحية - فإن إتقان اللغة القومية، وهى لغة المشاعر والتفكير الأصلية بالنسبة لأى إنسان - أداة مهمة تستطيع أن تصوغ الفهم وتضبط التعبير.

ومن ناحية أخرى - فإن إتقان لغة أجنبية من اللغات الحية، وهى اللغات السابقة بحقائق الأشياء إلى الآفاق الواسعة - ميزة وإضافة تستطيع توجيه النظر وتوسيع الرؤية.

وكان المَلِك «الحسن» مُقْتَدِراً فى اللغة العربية، وعلى صلة وافية بآدابها وأولها الشِعْر، وكان يحفظ منه الكثير، ويُلْقى أحياناً قصائد كاملة، وفى أحيان أخرى كان ينشد من هذه القصائد لَحْناً من عنده، فقد كان شغوفاً بالموسيقى وعارفاً بإيقاعاتها وأصواتها، وممارساً بنفسه للعزف على بعض آلاتها.

وفى ذات الوقت فقد كان المَلِك «الحسن» مُتَمَكِّناً من اللغة الفرنسية حَديثاً وكتابةً، وكان تَمَكُّنُه منها نافذة أطل منها متأنياً على دنيا وجدها مبسوطة أمامه ومُرَحِّبة - لا يحتاج فيها إلى دليلٍ أو تُرْجُمان!

وفى الحالتين - فقد كان قصر المَلِك «الحسن» أكثر رِفْقاً باللغة من قصور أخرى تتواجد فيها اللغة العربية - مظلومة بإساءة الاستعمال، أو تتواجد فيها الترجمة إليها - ظالمة لأصلها بشدة الإهمال!

□ □ □

وحديث الجغرافيا فيما يخص المَلِك «الحسن» يسبق أى حديث لأن موقع المغرب (الدولة - فضلاً عن الإقليم الأوسع من تونس إلى موريتانيا) واجهات مفتوحة على كل النواحى.

واجهة على البحر الأبيض قريبة جداً من فرنسا، ملاصقة تقريباً لأسبانيا، مُجاورة بزاوية لإيطاليا، مكشوفة تماماً أمام بريطانيا التى تحتل صخرة «جبل طارق»، ومنها بالعين المُجَرَّدة يمكن رؤية الشاطئ المغربى.

ومضيق «جبل طارق» واحد من البَوّابات الثلاثة من وإلى البحر الأبيض الذى هو بؤرة الوسط فى العالم - كان ولا يزال (ومعه مضيق «الدردنيل» فى تركيا، إلى البحر الأسود - ومضيق السويس فى مصر، إلى البحر الأحمر والمحيط الهندى).

وكانت لدول أوروبا فى أحوال اختلافها أو فى أحوال اتفاقها مطالب ومطامع مغربية: سيطرة عسكرية بالاحتلال، واستغلال للثروة عن طريق التحكم فى المال بالبنوك والديون وأى وسيلة أخرى تسمح بها الظروف، وتصدير فائض بشرى يريد أرضاً يستولى عليها بالمِلْكية وبالاستيطان خصوصاً إذا كانت الأرض قفزة عبر البحر، ثم التمكين لنفوذ سياسى غالب سواء كان بالإلحاق المباشر أو بالتَبَعِيّة المُتَحَكِّمة.

ولم تكن الدول الأوروبية الأقرب إلى الشواطئ المواجِهة للمغرب - فرنسا وأسبانيا وإيطاليا - هى وحدها التى طمعت أو طالبت، وإنما تسابقت إلى المغرب كل دولة طمعت أو طالبت بقيادة أوروبا، وأولها ألمانيا التى ذهب قيصرها إلى البحر أمام طنجة وأعلن سنة ١٩٠٥ استقلال المغرب، وكان مُحَرِّضُ القيصر على ذلك انكشاف الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا (١٩٠٤) فى «فاشودة» (السودان)، والذى بمقتضاه وافقت فرنسا على إطلاق يد بريطانيا فى مصر - فى مقابل موافقة بريطانيا على إطلاق يد فرنسا فى المغرب. ومن ثم أحس القيصر أن غنائم المُسْتَعْمَرات تُوَزَّع وراء ظهره!

وحتى سنوات قليلة كانت هناك مشروعات طموحة - ضمن السياسات الأوروبية وضمن استراتيجيات البحر الأبيض والأطلسى - تسعى إلى ربط مباشر بين أفريقيا وأوروبا فى أقرب نقطة بين الاثنتين إما بجسر فوق مضيق «جبل طارق» وإما بنفق تحت الماء تسهيلاً - لانتقال الناس والبضائع!

وفى حديث ذات مرة مع المَلِك «الحسن» أشار إلى هذه المشروعات - ملاحظاً بذكاء:

«الإنجليز متحمسون لمشروع الربط بواسطة نفق تحت الماء، والفرنسيون يريدون الربط بواسطة جسر. وخُذ بالَك (قالها المَلِك بفَتْحة مَمْدودة على حرف اللام) أن كل بلد منهما يعكس بمشروعه خصائصه النفسية:

الإنجليز (نفق تحت البحر) يريدون أن يفعلوا كل شىء فى الخفاء، لأن النَّفَق يعمل بكفاءة دون أن يراه أحد.

أما الفرنسيون (الجسر) فهُم يريدون أن يراهم الناس، وشاغلهم أن يتباهوا أمام العالم بشاهد كبير يمسك فى إحدى يديه بأوروبا ويمسك فى اليد الثانية بأفريقيا»!

وفى مقابلة لاحقة سألت المَلِك عن مشروعات الربط بين القارتين، وتذكر المَلِك ما قاله عن المشروع البريطانى والمشروع الفرنسى للوصل بين القارات، وقال بسخريته الحادة أحياناً: «إنهم لن يحفروا نفقاً ولن يمدوا جسراً. أرادوا الصلة حين كانوا يجيئون

إلينا فى طلب الغِنى، فلما تغيرت الظروف وأصبحنا نحن الذين نهاجر إليهم فى طلب العمل لم تَعُد لهم مصلحة فى الوصل.

قالوها لى صراحة ـ ولم يحدد المَلِك مَن قالها بالضبط ـ لو استطعنا أن نقيم سوراً من الأسلاك الشائكة يحجز عنا جحافل فقرائكم الزاحفين إلينا لأقمناه»!

....

....

للمغرب واجهة بحرية أخرى مُطِلّة على المحيط الأطلسى، وكثيرون لا يتذكرون أن الشاطئ المقابل لها على الناحية الأخرى من خط الماء هو الشاطئ الشرقى للولايات المتحدة الأمريكية، وبين الشاطئين المغربى والأمريكى ينبسط محيط لا تقطعه يابسة!

ومن هذا الواقع فإن أول حركة للقوة البحرية الأمريكية عندما بدأت تخرج بعيداً عن مياهها كانت الوصول إلى شواطئ المغرب. وبذلك فإن المغرب أصبح المتكأ الأمريكى الأهم على الشاطئ الأفريقى من الأطلسى وصولاً إلى البحر الأبيض ومُتابَعَةً لأوروبا عن قُرْب، وذلك وَضْعٌ ظل يَتَطَوَّر حتى تَبَلْوَر وسط معارك الحرب العالمية الثانية، فعندما بدأ تفكير الحلفاء فى تحرير أوروبا من سيطرة «هتلر» بعد أن استولى عليها بالكامل ما بين سنة ١٩٣٩ حتى سنة ١٩٤٢ ـ كانت أول مشاركة أمريكية فعالة فى الحرب هى النزول على شواطئ شمال أفريقيا ـ والمغرب بالذات ـ ضمن العملية العسكرية التى اشتهرت باسم «تورش» (الشعلة).

وكانت الإستراتيجية البريطانية لإدارة الحرب توصى وتلح على أن يبدأ غزو الحلفاء لأوروبا من الجنوب، أى من إيطاليا وهى فى تقديرهم البطن الرخو لدول المحور، أو من البلقان وهى أقصر الطرق مباشرة إلى قلب أوروبا ـ ألمانيا بالتحديد.

ولكن الإستراتيجية الأمريكية اتساقاً مع تجربتها التاريخية وبتوجيه من الجنرالات «مارشال» و«ماك آرثر» و«أيزنهاور» ـ ظلت متمسكة بأن العملية الكبيرة الأولى للقوة الأمريكية لا بد أن تكون قفزة تمهيدية عبر الأطلنطى للنزول فى شمال أفريقيا وحشد الجيوش والأسلحة هناك، وبعدها التقدم إلى إيطاليا بدءاً من صقلية، ومن ثم تتاح الظروف لخطة «أوفر لورد» وهو الاسم الرمزى لعملية نزول قوات الحلفاء عبر بحر الشمال إلى قلب أوروبا ـ فرنسا ـ بلجيكا ـ هولندا ـ والدخول من هناك إلى العُمْق الألمانى.

وقد التقى المَلِك «الحسن» - فى تلك الأيام - مع «ونستون تشرشل» رئيس وزراء بريطانيا الأشهَر مرتين. مرة فى رِفْقَة والده مع «تشرشل» و«روزفلت» (الرئيس الأمريكى)، وكان اللقاء مجاملة شكلية للسلطان «محمد الخامس» الذى كانت أرضه مسرحاً للعمليات دون إذنه. ومرة ثانية فى مراكش وكان «تشرشل» عاشقاً لها يمشى إليها كلما استطاع ليُجَرِّب مهارته فى رسم المناظر الطبيعية، وهناك قابله المَلِك «الحسن» بمفرده وهو وَلِىٌّ لعهد المغرب واستمع منه إلى قصص كثيرة ومثيرة عن أيام الحرب فى شمال أفريقيا وعن خلافاته - «تشرشل» - مع القادة الفرنسيين وأولهم «ديجول» الذى طلب أن تعترف بريطانيا والولايات المتحدة بسرعة وفور نزول قوات الحلفاء فى شمال أفريقيا بشراكة فرنسا معهم على قدم المساواة فى هزيمة «هتلر» لأن عملية طى البساط من تحت أقدامه بدأت هنا فى المغرب على أرض فرنسية!

ولكن المَلِك «الحسن» - وطبق روايته - سمع من الجنرال «ديجول» قصة مختلفة هى أن «الأنجلوساكسون» (كما كان «ديجول» يشير دائماً إلى الولايات المتحدة وبريطانيا) يريدون أرض المغرب باستمرار حاملة طائرات ثابتة على بَرٍّ مطمئن ضمن مخطط إحكام السيطرة على البحر الأبيض والمحيط الأطلسى عند زاوية اتصالهما، وأن العلاقة مع فرنسا هى وحدها ما يستطيع أن يؤمن دور المغرب فى إطار دولى يناسب مستقبله - دون تكاليف باهظة تفوق احتماله سياسياً ونفسياً وعسكرياً!

لكن المَلِك «الحسن» رغم قلبه «الفرنسى» - ترك لعقله حرية أن يكون «أمريكياً»، ولم يكن يخفى مشاعره تجاه «ديجول» الذى كان يتعامل معه وفق تعبير المَلِك «مثل جاويش مُعَلِّم مع طالب مدرسة عسكرية».

....

....

للمغرب واجهة برية تسير بمحاذاة الطريق الساحلى لشمال أفريقيا كله واصلة من الدار البيضاء والرباط إلى الإسكندرية ودمياط، وهذا الطريق يعبر الجزائر، ويعبر تونس، ويعبر ليبيا، ويجتاز مصر إلى ما وراءها، ومن هذا الطريق وصل الإسلام إلى المغرب، ووراءه القبائل المهاجرة من شبه الجزيرة العربية تقيم هناك دولها سواء فى المغرب ذاته أو فى الأندلس بعده.

وعلى هذا الطريق - الساحل الأفريقى الشمالى - تَسَلَّلَ سِرًا بعض الطامحين إلى

الخلافة الإسلامية يطلبون البيعة، وعلى نفس هذا الطريق عادت جيوش بعضهم إلى المشرق بعد أن تمكنت من المغرب، وكانت العودة الأشهر هى غزوة الفاطميين لمصر ونقلهم عاصمة مُلْكهم إليها.

وفى حديث مع المَلِك «الحسن» مرة، وقد اشتد النقاش فى شئون السياسة الجارية وقتها ـ قال لى ما معناه: «لا تهددونا بإذاعات صوت العرب. مصر لم تغز المغرب أبداً ولكن المغرب غزا مصر وأقام دولة هناك» ـ قالها المَلِك وابتسم باقتناع أنه سَجَّل فى النقاش نقطة تاريخية لصالحه!

....

....

وللمغرب واجهة برية أفريقية مُتَّصِلة بالجنوب ونافذة إلى الغرب، لكن التفاعلات على هذه الناحية هادئة، فهى تجارية، ثقافية، وإنسانية.

□ □ □

[٢]

حديث التاريخ فى المغرب لا نهاية له، لكن البداية، والعلامة البارزة فى هذا التاريخ كانت وصول الجيوش العربية حاملة ألوية الإسلام إلى هناك تحت قيادة «عقبة بن نافع» ثم «موسى بن نصير»، وكان «طارق بن زياد» (من البربر) أحد مَواليه، وقد كَلَّفَهُ «موسى بن نصير» باقتحام المضيق بين أفريقيا وأوربا، فى مَلْحَمة الفَتْح المشهورة التى بدأت بخطبة «أن العدو أمامكم والبحر وراءكم...» إلى آخره...

وكذلك توالت أحداث ومشاهد تلك القصة الرائعة والحزينة للتجربة الإسلامية العربية فى الأندلس.

والحاصل أن الحزن مشى مع الفرح خطوة بخطوة فى قصة الأندلس منذ كانت البداية وحتى جاءت النهاية بعد سبعة قرون من الزمان.

«موسى بن نصير» وهو القائد العام لشمال أفريقيا، راح يشعر بالغيرة من عامله

«طارق بن زياد»، خصوصاً عندما اتسع الفتح فى الأندلس وأصدر إليه أمراً بالتوقف لم يمتثل له «طارق» لأنه وجد الساحات مُهَيَّأة لخططه، وقد دعاه «موسى» يؤنبه على عصيان أمْرِه، ومضى فى تأنيبه إلى درجة جلده بالسياط أمام الجيش، واختفى المقاتل البربرى الأسطورى فى النسيان ممروراً مقهوراً.

وبنفس المنطق فإن الخليفة الأموى فى دمشق غار من الثروة التى جمعها قائده العام فى شمال أفريقيا «موسى بن نصير» فدعاه إلى عاصمة المُلْك يحاسبه واتهمه بإخفاء جزء من الغنائم لنفسه، ثم أمر باحتجازه. وتَحَوَّل فاتح أفريقيا إلى أسير فى سجون سيده الأموى!

إن مرحلة الفرح فى الحلم العربى - الإسلامى فى الأندلس تَجَلَّت مع بدايات الفتح الأولى - ثم اختلطت الأفراح بالأحزان عندما وقع التناحر على اقتسام الغنائم وهو مَفْسَدة النصر - وعندما تسلل الترف إلى قصور المُلْك وهو آفة العز - وعندما استحكمت الدسائس وهى مذبحة أى سياسة لأنها التضحية بالأهداف على مقصلة المؤامرة!- وعندما وقع الاقتتال الداخلى بين الأمراء لسبب لا بد للتاريخ أن يتوقف أمامه طويلاً - وقد وقفت أمامه مُتَأَمِّلا خلال زيارات مُتَكَرِّرة لقصور الأندلس (وقصور ملوك المغول فى الهند الإسلامية أيضاً) وهذا السبب هو تَعَدُّد الزوجات، ومعه غواية الزواج من أميرات أجنبيات مُلَوَّنات الشَعْر والبَشرة والعيون، ويُضاف إلى غواية الزوجات الأجنبيات احتمال الاستعانة بسلاح أُسَرِهن الحاكمة فى مقاطعات وإمارات قريبة إذا دعت الضرورات! والعادة أن المَلِك الأندلسى يَنْشَغِل بأعباء أو هموم أو مباهج المُلْك، وكذلك تقع حضانة الأبناء والبنات على الأم، فهى بالطبيعة متفرغة لهم. وتكون الأم - زوجة المَلِك الأجنبية - ما تزال مأخوذة بتراثها السابق، ما تزال مسكونة بدينها الذى تركته للزواج من أمير مُسْلِم أعطت نفسها له تَعْزيزاً لمُلْك أهلها، ثم يزيد انشغالها بمستقبلها وهى تعلم أن المَلِك مِزواج. وهكذا ينشأ الأبناء والبنات - الأمراء والأميرات - إخوة من أمهات مختلفات، لكنهم ودون استثناء تقريباً أعداء متنافسون بتأثير تربية كل واحد - أو واحدة - منهم فى حضانة ضُرَّة، ثم إن وراء كل واحد - أو واحدة - أخوالا فى الشمال يتابعون ويراسلون، ويتحركون كما تقضى مصالحهم، وتوازناتهم، وأمانيهم القريبة والبعيدة.

وربما أن الحلم الأندلسى العربى - الإسلامى من أوله إلى آخره يمكن تلخيصه فى العبارة التى سمعها «أبو عبد الله» آخر ملوك غرناطة بعد أن وَقَّع على صك تسليمها -

وهو يَسْتَعِد لامتطاء جواده ذاهباً وحيداً إلى منفاه الأخير، وكانت القائلة أمه وقولها (وهى أميرة مسيحية سابقة) - تلك العبارة المرعبة التى تؤرق التاريخ العربى كله وليس تاريخ الأندلس وحده: «ابْكِ كالنساء على مُلْكٍ لم تستطع المحافظة عليه كالرجال».

□ □ □

وتعاقبت الدول صراعات دامية فى الأندلس وفى المغرب، وهو القاعدة الخلفية والمرتكز الرئيسى لكل القصة الأندلسية سواء فى ذلك روائعها أو أحزانها.

كان الأندلس والمغرب شبه مسرح تاريخى واسع جرت عليه مواجهة إنسانية وحضارية هائلة تداخل فيها الصوت والصدى، والفِعل ورد الفِعل، والنصر والهزيمة، والنور والظُلمة.

وهكذا فإنه عندما غربت شمس العرب والإسلام عن الأندلس كان الليل فى المغرب موحشاً.

وفى قلب الخوف وبرجاء الانتصار عليه ظهرت فى المغرب دولة المرابطين، ثم لحقتها دولة الموحدين، لكن الفجر كان لا يزال بعيداً، وليل الحزن الأندلسى يُمَزِّق نفسه بألسِنَة الحريق، والحِقْد، وسيال الدم المسفوح.

وفى هذه الوَحْشة فقد كانت أشد الجرائم عُنْفاً وغلاظة هى تلك التى اشتهرت بوصف «محاكم التفتيش» والتى أطبقت على المسلمين، ومعهم اليهود الذين استظلوا بحماهم على ذلك الطرف القَصِىّ من القارة الأوروبية هَرَباً من قساوة مسيحية القرون الوسطى وضيق أفقها.

وأمام حَمْلة الرُعْب من «محاكم التفتيش» بدأ النزوح من الأندلس إلى المغرب.

وكما كان المغرب هو القاعدة والمرتكز فى قصة الأندلس الرائعة عند بداياتها، فإنه أصبح المَهْرَب والملاذ فى القصة الحزينة عند النهايات. وكان المسلمون العائدون من الأندلس (من العرب أو البربر) راجعين إلى المغرب ضِمْن التوالى المُحْتَمَل للنصر والهزيمة. وأما اليهود الهاربون إلى المغرب من الأندلس فقد كانوا فى مسار سياقٍ من نوع آخر، يكاد أن يكون ظَرْفاً تاريخياً بذاته.

....

....

وفى قرون تالية، ومع انتشار يهودىٍّ حول حوض البحر الأبيض المتوسط، وهو بؤرة التجارة العالمية فى تلك الأزمنة - وربما إلى الآن - فإن المغرب أصبح أكبر مراكز تجمع اليهود فى العالم، ولعله الثالث فى الترتيب:

- الأول: تَجَمُّع يهودى مهاجر (ما بين ٥ إلى ٦ ملايين الآن) فى العالم الجديد، أى أمريكا، وهو تَجَمُّع يريد أن ينسى الماضى بأسره لو استطاع، أو يعود إلى هذا الماضى مرة أخرى مسنوداً إذا تمكن فى عالمه الجديد.

- والثانى: تَجَمُّع يهودى أزاحه وسط وغرب أوروبا إلى مَخْزَنٍ على الحافة - بولندا - وكان معظم يهود هذا التَجَمُّع (٣ ملايين عند الذروة قبل الحرب العالمية الثانية) من الإشكناز (يهود الغرب).

- والثالث: تَجَمُّع يهودى طَرَدَه سقوط الأندلس - بين ما طَرَدَ - على الشاطئ الأفريقى فى المغرب ومعظمه من السفارديم (يهود الشرق)، وكان تعدادهم فى المغرب ما بين ٥٠٠ ألف إلى ٦٠٠ ألف (بعد الحرب العالمية الثانية).

□ □ □

وتواصلت حركة المَدّ والجَزْر على شواطئ البحر الأبيض، وزحفت الأمواج على الرمال وتراجعت، وتصادمت أساطيل، وتسابقت أعلام، ثم جاءت الحرب العالمية الثانية وفرنسا تحسب نفسها - كحركة فرنسا الحُرّة - ضِمْن الحلفاء المنتصرين فيها - مُطالِبة بالحق فى السَيْطَرة كاملةً على مُسْتَعْمَراتِها وبينها المغرب!

وكذلك فإنه بعد الحرب العالمية الثانية - دَخَلَ المغرب دَوّامة التَعامُل مع ظروف مُسْتَجَدّة:

فرنسا تريد أن ترجع إليه بالدعوى الإمبراطورية، واستئنافاً لأوضاع ما قبل الحرب، ولحماية جالية فرنسية (قُرْب مليون مُسْتَوْطِن) سيطرت على الأرض أساساً ومنها زحفت على بقية مجالات الاقتصاد.

والولايات المتحدة تريد أن تتمسك بمركز فى المغرب وصلت إليه بعاصفة النصر وما بعدها، وهى تريد أن تبقى فيه وتعتبره نقطة حيوية فى تطويق البحر الأبيض وكافة مداخله ومخارجه وشواطئه.

وحركة القومية العربية الناشئة يَقْظى ومُتَدَفِّقة بعد انتهاء الحرب تجذب المغرب نحو المَشْرِق مُعْتَمِدة على صلات ثقافية وسياسية عميقة، لكنها غير مُدْرِكة لعُمْقِ المواريث الضاغطة على حركة المغرب، وغير واعية بخصائص التركيبة الانسانية والاجتماعية والثقافية الفاعلة فيه.

واليهود فى المغرب قوة تتطلع بشَوْقٍ وتَحَرُّق نحو المشروع الصهيونى فى فلسطين، وسؤالها: كيف تساعد فى إنشاء الوطن اليهودى الموعود هناك ؟ وكيف تُشارك فى تقويته وتدعيمه ؟!

....

....

وفى وقت كانت هِجْرة اليهود من مراكز تَجَمُّعهم الكبرى إلى إسرائيل مُقَيَّدة بظروف مُعَقَّدة - فإن التَجَمُّع اليهودى فى المغرب اكتسب أهمية خاصة من عدة اعتبارات:

إن يهود أمريكا (التَجَمُّع الأول) لن يهاجروا إلى إسرائيل، وإنما سوف يذهبون للزيارة ربما - وسوف يساعدون مالياً وسياسياً بالتأكيد - لكنهم سوف يبقون على الناحية الأخرى من المحيط.

ثم إن يهود بولندا وشرق أوروبا على العموم (وهذا هو التجمع الثانى) يصعب أن يهاجروا بحَجْمٍ مُؤَثِّرٍ إلى إسرائيل لأن سياسة الاتحاد السوفيتى فى ذلك الوقت حاجزة.

وهنا فإن يهود المغرب (التجمع الكبير الثالث) يُصْبِحون مَصْدَرَ الهِجْرة الوارد والواعد!

....

....

وفى خضم محاولة المغرب للتعامل مع ظروف مُسْتَجَدّة كانت هناك عدة قوى تتنازع التأثير عليه:

- قوة القاعدة العريضة العربية، المُسْلمة السُنِّية، الموصولة لغة وثقافة، وتَشابُكاً حَيّاً ونابِضاً مع الكيان العربى المُتَمَدِّد نحو المَشْرِق.

- وقوة التَجَمُّعات العرقية متمثلة بالدرجة الأولى فى البربر، وقبائلهم الأصيلة وهى متمركزة بالدرجة الأولى فى جبال الأطلس، ووراءها مواريث وتقاليد قبلت بالإسلام - ولكن ليس بالعروبة!

- قوة الاحتلال والاستيطان والثقافة الفرنسية، وهى تريد مواصلة السيطرة.

- وقوة العرش متمثلة فى السلطان «محمد بن يوسف»، ودائرة القصر التى تحيط به، وهالة الدين التى يضع نفسه وعرشه تحت مظلتها.

- وقوة حياة سياسية وليدة راحت تشارك فى عملية تحديث المغرب فى ظروف صعبة، ثم إنها بحقائق الأشياء راحت تتحرك وسط المغرب الإقليم وليس فقط المغرب الدولة، وكانت هذه الحقائق هى الجامع الذى دعا كل حركات التَحَرُّر والاستقلال فى المغرب إلى إنشاء ما سُمِّىَ بـ«مكتب المغرب العربى» الذى اتخذ من القاهرة مَقَرّاً له!

- وأخيراً فقد كانت هناك قوة رأى عام مغربى تتنازعه آمال غير محدودة وتحركه طموحات تبحث عن مستقبل، وتشده دعوات معظمها قادم من وراء الصحراء من المشرق، وخاصة بعد ثورة عبد الناصر فى مصر.

وكانت تلك الفترة (وذروتها ٢٠ أبريل سنة ١٩٥٣) هى اللحظة التى تصادمت فيها كل القوى وكل العناصر وكل العوامل ومن كل الاتجاهات، والسبب أن ضغوط مطالب ومطامع متعارضة جعلت الحاكم الفرنسى العام فى المغرب وقائد عموم القوات الفرنسية هناك - وبتحريض وتعاون من زعماء عشائريين وقبليين ومحليين - يَأمُر بعَزْلِ سلطان المغرب الشرعى «محمد بن يوسف» ونفيه إلى جزيرة «كورسيكا» ثم إبعاده عن البحر الأبيض كله إلى جزيرة «مدغشقر» وتعيين سلطان آخر من أقاربه بدلاً منه هو مولاى «محمد بن عرفة».

وفى ظروف الثورة فى المغرب، وفى ملابساتها المُعَقَّدة، جاء ذلك الأمر الذى يعنينى فى هذا كله عن المَلِك «الحسن»، ودوره فى العمل العربى العام طوال فترة حكمه، وحتى من قبلها، وتأثيره فى السياسة العربية من منتصف الخمسينات إلى نهاية التسعينات، وبما فى ذلك صلة المَلِك «الحسن» بإسرائيل!

... وتلك خلفية التاريخ بعد أرضية الجغرافيا.

المفكرة رقم ٥

تجربة أمير قرأ ماكيافيللى

[١]

التقيت المَلِك «الحسن» إحدى عشرة مرة بالعَدَد، ولا أتحدث هنا عن مناسبات رأيته فيها، وإنما عن جلسات استغرق بعضها أكثر قليلا من ساعة، وبعضها الآخر امتد عدة ساعات، ستا فى إحدى المرات.

وكانت بين هذه اللقاءات ثلاثة جرت مع «الحسن» وهو ولى للعهد ورئيس لهيئة أركان القوات المُسَلَّحة «المَلَكية» المغربية.

....

....

كان اللقاء الأول فى القاهرة خريف سنة ١٩٥٧ (ولم أُسَجِّل اليوم والتاريخ بالضبط فى أوراقى) - وقد جرى فى نادى الجزيرة بالزمالك (على مائدة بجوار حوض السباحة «الليدو») وحضره معنا المُقَدَّم «حسن فهمى عبد المجيد»، وكان وقتها المرافق العسكرى لولى عهد المغرب الذى كان فى زيارة لمصر. وقد عُيِّنَ «حسن فهمى عبد المجيد» بعد ذلك ملحقاً عسكرياً لمصر فى الرباط، ثم أصبح سفيراً لمصر لدى المملكة المغربية، وكان ضمن المؤهلات التى رجحت ترشيحه لهذا المنصب أن علاقته بـ«الحسن» تَوَثَّقَت (وبالفعل أثبت «حسن فهمى عبد المجيد» نفسه سفيراً ناجحاً فى المغرب).

وفى ذلك اللقاء فى نادى الجزيرة سنة ١٩٥٧ - كان الأمير «الحسن» يريد - بأمر «مولاى صاحب الجلالة» («محمد الخامس») كما كان يقول عن والده - «أن يَتَّصِل

مباشرة بالمشرق العربى الجديد ومصر قيادته فى ذلك الوقت بعد موقعة السويس العظيمة، ثم إنه كان يريد أيضاً بأمر من «مولاى صاحب الجلالة» أن يلتقى ويقترب إذا استطاع من «صاحب الفخامة» الرئيس «جمال عبد الناصر» (على حد قوله).

كان «الحسن» وقتها شاباً، وكان وسيماً، وفور أن تكلم بدت جاذبيته فى لهجة نطقه المغربية، وفى الطريقة التى تَخرُج بها ألفاظه وكأنها مُرَبَّعات مُكْتَملة الزوايا قاطعة مُحَدَّدة، ورغم أنه لم يرفع الكلفة من أول لقاء فقد ظَهَر مَرِحاً، قَوِيَّ الملاحظة، سريع البديهة، دون أن يبتذل لفظاً، بل العكس فإن ألفاظه كانت منتقاة توحى بأدب يعرف حدوده وبثقافة لها أساس.

وفى ذلك اللقاء الأول فى نادى الجزيرة كان اهتمام «الحسن» ظاهراً بمعركة السويس وملابساتها، ونتائجها، ومنها إلى أحوال الثورة الجزائرية، وبدا حريصاً ـ دون أن يقولها مباشرة ـ أن يبرز (بالفِعْل الماضى) إحساسه وإحساس «مولاى صاحب الجلالة» بالضيق والاستنكار لما أقدمت عليه السلطات الفرنسية من خطف طائرة كان يستقلها زعماء الثورة الجزائرية بعد زيارة قاموا بها للرباط والتقوا فيها بالملِك «محمد الخامس» وبولى عهده «الحسن». وكانت بعض العناصر السياسية المعارضة فى المغرب تنسب إلى «الحسن» وقتها أنه المصدر الذى عرف منه القائد العام الفرنسى فى الجزائر بموعد قيام الطائرة المُقِلّة للزعماء الجزائريين وبينهم «أحمد بن بيللا» ـ وكذلك تمكنت السلطات الفرنسية من خطفهم.

واستغرق لقاؤنا الأول ذلك أكثر قليلاً من ساعة، وكان «الحسن» بعدها ذاهباً إلى باريس لكنه خرج من نادى الجزيرة يومها قاصداً «خان الخليلى» قائلاً أنه «يريد أن ينتقى من هناك هدية لصديق فرنسى طلبها منه بالتحديد، وصديقه هذا كان قد رأى ما يطلبه من «خان الخليلى» عندما كان فى القاهرة قبل السويس وفاتَهُ أن يشتريه، ولم يكن فى مقدوره فى أعقاب الحرب أن يجىء، وهكذا طلب من صديقه ولى عهد المغرب أن يأتيه بها» !

....

....

وكان اللقاء الثانى و«الحسن» ما يزال ولى عهد المغرب ـ فى نيويورك، وقد قصد إليها على رأس وفد عالى المستوى يمثل المغرب فى الدورة الاستثنائية التى عقدتها الجمعية

العامة للأمم المتحدة على مستوى رؤساء الدول فى سبتمبر سنة ١٩٦٠. وكان «الحسن» هناك أيضاً مُمَثِّلاً لـ«مولاى صاحب الجلالة»، وقد شارك فى الجلسة الافتتاحية لكنه ترك مقعده بعد ذلك لوزير الخارجية، وأما هو فقد انشغل فيما بدا بمقابلات واسعة فى نيويورك كان اللافت للنظر فيها أن معظمها مع جماعات يهودية أو مع ساسة أمريكيين معروفين بقربهم من الدوائر اليهودية النافذة فى نيويورك. وعندما التقيت مع «الحسن» على الغداء فى فندق «والدورف أستوريا» فإنه أشار إلى لقاءاته اليهودية بسرعة قائلا أن «المغرب فى حاجة إلى استثمارات كبيرة لتنمية موارده من الفوسفات، وهؤلاء هُم الذين يسيطرون على مؤسسات المال فى العالم». وبدا الإيضاح معقولاً. وعلى أى حال فقد انتقل «الحسن» إلى تفاصيل مقابلة تمت بينه وبين الرئيس الفرنسى الجنرال «ديجول»، وخلال روايته لمقابلته مع «ديجول» تَجَلّى مرح الأمير المغربى، فقد راح يُقَلِّد لهجة الجنرال عندما يتحدث عن قضايا العالم وتقييمه (ديجول) للزعماء الذين التقى بهم فى نيويورك على هامش الدورة الاستثنائية للجمعية العامة، وكان بين من التقى بهم «ديجول» فى ذلك الوقت الجنرال «أيزنهاور» وهو رفيق سابق له من أيام الحرب ضد «هتلر». وطبقاً لما سجلته مما قاله «الحسن» يومها «إن ديجول ذكر له أنه يعتبر ذلك لقاءه الوداعى لأيزنهاور بعد معرفة طويلة سواء أثناء الحرب العالمية الثانية عندما كان أيزنهاور قائداً لقوات الحلفاء الزاحفة على أوروبا من شواطئ بحر الشمال - أو بعدها عندما أصبح أيزنهاور قائدا لقوات حلف الأطلنطى ومقره باريس تلك الأيام - ثم فى سنوات تالية أخيرة حين انتُخِب أيزنهاور رئيساً للولايات المتحدة.

وكان بين ما سمعته وسَجَّلْتُه عن الأمير «الحسن» نقلاً عن «ديجول» أن «أيزنهاور» لم يكن جنرالاً كبيراً لأنه يفتقد أهم الخصائص التى تُمَيِّز الجنرال الكبير وهى الخيال الخَلاق - لكن «أيزنهاور» - فى رأى «ديجول» - نقلاً عن «الحسن» أيضاً - نجح كرئيس للولايات المتحدة لأنه استطاع أن يعطى أمريكا ثمانى سنوات من «الاستقرار» - «والاستقرار لا يحتاج إلى خيال» (هكذا قال «ديجول» ونقل عنه «الحسن»).

....

....

وكان اللقاء الثالث هو اللقاء الأهم فى تلك الفترة، وقد جرى فى بداية سنة ١٩٦١ فى

مناسبة انعقاد مؤتمر الدول الأفريقية المتحررة التى كَوَّنَت مجموعة «الدار البيضاء» فى مقابل مجموعة «كينشاسا» السائرة فى فَلَك فرنسا (بداية الفرانكوفونية) - إلى أن تراضت المجموعتان على لِقاءٍ أفريقىٍّ واسعٍ تَكَوَّنَت بعده «منظمة الوحدة الأفريقية» التى انعَقَد مؤتمرها التأسيسى فى أديس أبابا سنة ١٩٦٣.

وفى الدار البيضاء - تلك المَرّة - عرفت الأمير «الحسن» عن قُرْب وجلست إليه طويلاً ومراراً نتحدث ونستعيد، وكان الوقت عاملاً مساعداً، فقد كان مُقَرَّراً أن يقوم «جمال عبد الناصر» بزيارة رسمية إلى المغرب بدعوة من المَلِك «محمد الخامس» (تقديراً للدور الذى قامت به مصر فى نَصْرَتِه بعد أن خَلَعَتْه فرنسا ونَفَتْه، وكان المَلِك «محمد الخامس» مُمْتَنّاً لهذا الدور، وكان إعجابه فائقاً بالطريقة التى استطاعت بها إذاعة «صوت العرب» أن تجعل خلعه عن العرش ونفيه خارج بلاده «الشغل الشاغل لكل عربى فى المشرق»).

ثم كان الترتيب أن تمتد زيارة «جمال عبد الناصر» الرسمية للمغرب وتَلْتَحِم بانعقاد مؤتمر الدول الأفريقية المتحررة (مجموعة «الدار البيضاء» أو مجموعة «كازابلانكا» كما إشتهرت فى ذلك الوقت).

وكان واضحاً خلال الزيارة الرسمية لـ«جمال عبد الناصر» للمغرب، وبعدها أثناء مؤتمر مجموعة الدول الأفريقية المتحررة - أن ولى العهد «الحسن» أصبح المسئول الحقيقى والرجل القوى فى الدولة المغربية، وأن دور المَلِك «محمد الخامس» وحتى وجوده أصبح مُنْسَحِباً ومتوارياً (وبالفعل فلم تكد تمضى شهور من سنة ١٩٦١ إلا وكان المَلِك «محمد الخامس» قد توفى وواراه التراب).

ومع أن الزيارة الرسمية لـ«جمال عبد الناصر» إلى المغرب (قبل المؤتمر) بدأت بموقف فيه شىء من الحَرَج لوَلِىِّ العهد - فإن الأمور صَحَّحَت نفسها بسرعة. وكان سبب الحَرَج أن «الحسن» وقد أخذ على نفسه مسئولية ترتيب زيارة «جمال عبد الناصر» للمغرب - قَدَّرَ أن يكون هناك عشاء شخصى تمهيدى لعشرة أشخاص فقط، خمسة من المصريين مع «جمال عبد الناصر» (كان حظى أن أكون أحدهم) - وخمسة من المغاربة مع المَلِك «محمد الخامس» (يتقدمهم بالطبع ولى عهده). وكان «الحسن» هو الذى اختار أن يكون العشاء فى نفس القصر - قصر «آنفا» - الذى انعقدت فيه القمة بين «روزفلت» و«تشرشل» بعد نزول قوات الحلفاء فى شمال أفريقيا لتقرير استراتيجية تحرير أوروبا. ويظهر أن الأمير «الحسن» وجد مُناسِباً لاستكمال أبهة الدعوة أن

يطلب أطباق العشاء من مطعم «ماكسيم» فى باريس، وهو أيامها أشهر المَعالِم من بقايا «الحقبة الجميلة» Belle Epoque فى أوروبا، وكذلك فعل. وكان أول الأطباق التى جاءت من «ماكسيم» هو طبق طائر «الفيزان» الشهير، وقد رُصَّت شرائحه على أطباق من ذهب، وفوق كل طبق وُضِعَت للزينة رأس طائر «الفيزان» بألوان ريشه الجميلة الزاهية والمتداخلة. وكانت تلك أول مرة يرى «جمال عبد الناصر» فيها طائر «الفيزان»، وقد حسبه عند النظرة الأولى طاووساً، ولم يتمالك نفسه وقتها ونحن جميعاً على مائدة واحدة من أن يتساءل بصوت مسموع يشيع فيه نوع من الإستغراب إلى حافة الاستنكار: «... معقول - هل تأكلون الطاووس»؟

والتفت المَلِك «محمد الخامس» إلى ابنه بنظرة لها معنى وكأنه يطلب من ولى عهده أن يشرح لضيفه «المُستَغْرِب» من أكل الطاووس فى «المغرب». وفيما بدا فإن ولى العهد أحس بالحرج، وحاوَلْتُ أن أُبدى ملاحظة فى التفريق بين طائر «الفيزان» وطائر الطاووس، ولكن الشعور بالحرج سبق، خصوصاً عندما أمسك «جمال عبد الناصر» يده عن الطبق الأول فى المأدبة سواء كان من «الفيزان» أو «الطاووس»!

ثم زال الحرج لأن شجون أحاديث متشعبة أخذت الجميع إلى ما بعد منتصف الليل.

وفى اليوم التالى كان الأمير «الحسن» قد إستغنى عن المطبخ الفرنسى وأتى بواحد من طباخى القصر فى الرباط، واحتل طبق «الكسكسى» المغربى مكانه وسط مائدة الغداء ومعه الخضروات واللحم المسلوق. ولم يكن هناك حرج، بل إن الغداء كان شهياً ومشوقاً لأن الأمير «الحسن» راح يتحدث عن المطبخ المغربى، وبمعرفة عميقة رابطاً تراث المطبخ فى بيزنطة وقد انتقل إلى الأمويين، وعبر معهم البحر إلى أسبانيا، وهناك وبعملية توفيق خلاقة بين شرق البحر الأبيض وغربه ظهر المطبخ الأندلسى المبدع وهو المطبخ الذى عاد مع العائدين من الأندلس وتزاوج مع المطبخ التقليدى لقبائل الأطلس.

....

....

وفى إطار هذه الزيارة للمغرب ومؤتمر مجموعة «كازابلانكا» لاحقاً بها - سمعت من وَلِىِّ عهد المغرب بعض آرائه فى العلاقة مع اليهود... ومع إسرائيل ربطة واحدة!

كان رأيه أن هناك عَبْقَرِيّة يهودية، وهناك عَبْقَرِيّة إسلامية عربية، وأن بين العَبْقَرِيَّتَيْن صلات تاريخية قديمة ولا يجب لقيام إسرائيل أن يعترضها.

ولم أختلف مع ولى عهد المغرب فى أن هناك عبقرية يهودية لكنها عبقرية نشأت وأدَّت دورها ضمن حياتها فى الأوطان التى عاش فيها اليهود خصوصاً فى وسط أوروبا. لكن تلك مسألة - وموضوع إسرائيل مسألة أخرى.

وطرح الأمير «الحسن» سؤالاً «عما يمكن أن نفعله مع إسرائيل، وكيف يمكن النظر إليها فى عزلة عن تأثير اليهود فى العالم وهم القوة المؤثرة خصوصاً فى الولايات المتحدة»؟

وطال حوارنا.

....

....

ثم حدث فى لقاء آخر مع الأمير «الحسن» فى نفس الزيارة - أن مؤتمر مجموعة «الدار البيضاء» واجه أزمة بسبب مشروع قرار يطلب من دول أفريقيا المتحررة تأييد موقف العرب فى الصراع مع إسرائيل تأييداً صريحاً. وكان تقدير «الحسن» يومها «أن «أحمد سيكوتورى» - زعيم غينيا - يستطيع قبول مشروع القرار ولكن «قوامى نكروما» - زعيم غانا - يصعب عليه قبوله»!

وكنت أتَفهَّم هواجس «الحسن»، فقد حضرت مناقشات الزعماء الأفارقة الجُدُد ولَمَسْت تَرَدُّدَهُم فى تَبَنِّى مشروع القرار الخاص بإسرائيل. ثم حدث أثناء مناقشة عامة فى الجلسة الثانية للمؤتمر أن الدكتور «محمود فوزى» وزير الخارجية المصرية فى ذلك الوقت أعطى خلال شرحه تصويراً جديداً تماماً للصراع العربى الإسرائيلى قام فيه بتشبيه الدولة الصهيونية فى فلسطين بالدولة العنصرية فى جنوب أفريقيا، كلاهما تجربة فى الاستعمار الإستيطانى: البيض فى جنوب أفريقيا، ويهود أوروبا فى الشرق الأوسط!

وكان «سيكوتورى» أول من لمح اللقطة وسارع بتثبيتها فى إطار صورة. وتَرَدَّدَ «نكروما» يفكر فيما سمع، ثم إذا به يُقِرٌّ بالشبه بين تجربة جنوب أفريقيا وتجربة فلسطين. وأعيدت صياغة مشروع القرار المصرى بطلب تأييد قمة «كازابلانكا» على أساس هذا التصوير الجديد، ووافق الكل وصدر البيان الختامى للمؤتمر.

ودعانـى الأمير «الحسن» إلى مقـابلته بعد إعلان البيـان الختامـى للمؤتمر مُظْهِراً إعجـابه بالتكييف الجـديد للصـراع العربـى الإسـرائيلى، ومع ذلك فـقد كان رأيـه أن تلك الصيـغ السيـاسيـة تصلـح للحصـول على أصـوات أفريقيـا فى المحافـل الدوليـة، وبالتـالى تنفـع فى كسـب وقت - لكن ضـرورات الواقـع تحتـاج إلى ما هو أبعـد من صيـغ ذكيـة وهـى بالفعل ذكيـة (قالهـا الأمير «الحسن» والإعجاب يشيـع فى نبرات صوتـه!)

□ □ □

[٢]

وبعـد مـا أصـبـح «الحـسـن» ملكاً على المغرب (٣ مـارس ١٩٦١) تَجَدَّدَ لقـاؤنـا فى القاهـرة التى جاءهـا لزيـارة رسمية فى بدايـة سنة ١٩٦٤ - وكان ذلك لقاء غير عادى لأن المَلِك بادرنـى بعد دقائق لم يبرد فيها بَعْدُ فنجان قهوة - بقولـه:

«عـرفت أنك قـابلت المهدى (يقصد «المهدى بن بركـة» وكان وقـتـها مـعـارضـاً يرأس التجمع الوطنى للقوى الشعبية فى المغرب) وسمعت أنك قابلتـه مرات وأنه أصبح صديقك - لا اعتراض لـى على صداقتك لـه ولكنى أريدك أن تعرف أن «المهدى» متآمـر، وكان وراء أكثر من محاولـة لاغتيالـى حتى أثناء ولايتى للعهد - وأنا متأكد مما أقـول».

وسكـت المَلِـك لحظة ثم اسـتطرد: «شـىء مـؤسـف. فـقـد كنت تلمـيـذه وتلقـيـت عليـه دروسـاً فى الـريـاضـة. وطلبى مـنك على أى حـال أن تحـاذر فيمـا سـوف تسـمعـه منه. هو رجـل متكلـم، وله قـدرة على الإقنـاع، لكنه ليس صـادقـاً...».

....

....

كانت مـعلومات المَلِك صحيحـة فيما يتعلق بتعرفـى على «المهـدى بن بركـة»، وكان المَلِك فوق ذلك مـحقاً - من وجـهـة نظره - فى إحساسـه بأن «المهدى» لن يذكره بالخـيـر مـع أحـد، وبالفـعـل فـإن بعض مـا سـمـعتـه من «المهـدى بن بركـة» عن المَلِك «الحـسـن» كـان فـيـه كـثـيـر يدعـو إلى القلـق!

كـان «المهدى بن بركـة» شـديد الإلحـاح على صـلات قـائمـة بين المَلِك «الحسـن» وبين إسرائيل، وحين راجعته عما إذا كان يتحدث عن صـلات للمَلِك باليهود ـ بدا «المهدى بن بركة» قـاطعـاً فى إصراره على أن صـلات المَلِك باليـهـود وبإسـرائيل ... بالحكومـة الإسرائيلية.

وطبقاً لرواية «المهدى بن بركة» (وهى الآن ـ وبشهادة التطورات اللاحقة ـ مُتَّسِقة فى إجمالها بصرف النظر عن التفاصيل) ـ فإن «الحسن» بدأ صلاته باليهود منذ زمن طويل، وذلك أمر عادى وطبيعى ـ لكنه فيما بعد أقام صلات بإسرائيل فى أوائل سنة ١٩٥٥ وهو فى مدغشقر مَنْفِيّاً مع والده.

وطبقاً لرواية «المهدى بن بركة» ـ أيضاً ـ فإن «الحسن» ولى العهد الطموح أحس أن والده «محمد الخامس» الذى خُلِع عن عرشه وأُبْعِد إلى جزيرة نائية وسط المحيط لا يعرف كيف يتعامل مع ظروف عالم مختلف عما ألفه، ومُتَغَيِّر بأطرافه الدوليين مع ظهور القوة الأمريكية بعد الحرب العالمية الثانية.

وكان ظن الأمير أن والده قامر بعرشه وخسر عندما سار أو ساير العناصر الوطنية فى وطنه وفى المغرب العربى عموماً دون أن يستطيع إيجاد نصير يملك نُفوذاً قادراً على الفرنسيين!

وكان «الحسن» وهو وقتها فى الخامسة والعشرين (عز الشباب) يعرف أهمية الجالية اليهودية فى المغرب، ويقدر مدى غناها ونفوذها سواء بين يهود الولايات المتحدة أو يهود إسرائيل (وفيهم مغاربة هاجروا مبكراً).

وكان «الحسن» يشعر فوق ذلك أنه فى لعبة الصراع بين الاستعمار الفرنسى القديم والقوة الأمريكية الجديدة ـ فإن يهود المغرب سوف يلعبون دوراً مهماً، وهذا الدور سوف يكون رهاناً مُسْبَقاً ـ وبِبُعْد نظر ـ على أن محاولة الهيمنة الأمريكية سوف تكسب الصراع فى شمال أفريقيا.

ويظهر أنه فى الوقت الذى كان «الحسن» يحاول الاتصال بعناصر مؤثرة بين يهود المغرب فإن بعض هذه العناصر كانت تحاول إقناع الولايات المتحدة بأن الرهان الفرنسى على السلطان «محمد بن عرفة» الذى نصبته فرنسا على عرش المغرب رهان خائب وسوف يؤدى إلى زيادة الهياج الشعبى فى البلد (بما تطالهم عواقبه)، وأن الأَوْلى هو عودة «محمد الخامس» إلى العرش بعد ترتيب الأمور معه....

....

....

وفيما رواه لى «المهدى بن بركة» وقتها وسجلته فى أوراقى إحساساً بأهميته ـ فإن الأمير «الحسن» توصل إلى صفقة ملخصها:

١ ـ يعود والده إلى العرش مرة أخرى، ويتم ترحيل «محمد بن عرفة» من قصر السلطنة إلى خارج المغرب.

٢ ـ لا يقوم السلطان «محمد الخامس» بأية عمليات انتقامية ضد زعماء قبائل الأطلس الذين أيدوا فرنسا ضده عندما قررت خلعه عن العرش ثم سبقوا إلى إسقاط بيعتهم له (وفى مقدمتهم القائد القبلى الأقوى فى جبال الأطلس «التهامى الجلاوى» ـ باشا مراكش).

٣ ـ تجرى ترتيبات وفق جدول زمنى لتسهيل سفر أعداد كبيرة من يهود المغرب إلى إسرائيل، وتتعهد كل الأطراف أن لا تثار دعايات حول هذه العملية سواء أثناء قيامها أو بعد انتهائها (وبالفعل فإنه فى عشر سنوات وصل عدد المهاجرين من يهود المغرب إلى إسرائيل ما يقارب ثلاثمائة ألف مهاجر ـ وقد وصلوا تِباعاً وفى صمت). وفيما يتعلق باليهود الذين يبقون فى المغرب فإن السلطان يضمن لهم حماية كاملة شاملة لأمنهم ومصالحهم، إلى جانب السماح لهم بصلات غير مقيدة مع أهلهم الذين يختارون الهجرة إلى إسرائيل (وبالفعل بقيت فى المغرب وحتى الآن جالية يهودية يتراوح تعدادها ما بين مائة ومائة وعشرين ألفاً، وهم يمارسون دور قوة اجتماعية واقتصادية وسياسية بالغة الأثر فى المغرب).

٤ ـ تتعهد كل المؤسسات اليهودية (وبينها الحكومة الإسرائيلية بالطبع) بأن تعمل كل ما فى وسعها وأن تتعاون أمنياً للحفاظ على سلامة العرش فى المغرب.

....

....

وطبقاً لـ«المهدى بن بركة» فإنه منذ ذلك الوقت بدأت علاقة «الحسن» بإسرائيل، وسواء عرف والده السلطان «محمد الخامس» بالصفقة واعتبرها مع اليهود أو شكَّ فى أنها مع إسرائيل ـ فإن «الحسن» كان المسئول عنها.

وكان «الحسن» واثقاً من قدرته على تنفيذ جانبه من التعهدات إذا تحققت عودة والده إلى العرش. واقترح بعض اليهود (لم يُسَمِّهم «بن بركة») أنه لتمكين الأمير «الحسن» من تنفيذ تعهداته فإنه من الوارد إبلاغ السلطان باستحسان تعيين ابنه الأكبر ولياً لعهده وقائداً عاماً لقواته المسلحة - لكن «الحسن» رفض وضع شروط لصالحه على والده السلطان - وطلب أن يُتْرَك له ضمان تنفيذ الاتفاق على مسئوليته.

وهنا يقول «المهدى بن بركة» وكنا معاً فى حديث طويل ذات يوم جمعة من ديسمبر سنة ١٩٦١ فى بيت صغير وسط ريف مصر...

«لاحظ عدة أشياء:

- إن محمد الخامس عاد إلى عرشه فى المغرب بعد مفاوضات مُعَقَّدة بأكثر مما كنا نعرف، وكان ذلك فى نوفمبر سنة ١٩٥٥ (وَسَطَ تَوَتُّرٍ شديدٍ فى الشرق الأوسط).

- إن فرنسا قبلت الوساطات فى شأن عودة محمد الخامس فى وقت تزايد فيه تأييد مصر للثورة الجزائرية (وتزايد فيه أيضاً استعداد فرنسا للتعاون مع إسرائيل فى عملية ضد مصر تَصْرِفها عن دَعْم الثورة الجزائرية).

- وأن الاتفاق تم بسرعة على إعادة السلطان لعرشه فى أعقاب صفقة الأسلحة المصرية مع الاتحاد السوفيتى عن طريق تشيكوسلوفاكيا فى سبتمبر سنة ١٩٥٥ (وذلك أدخل إسرائيل مباشرة على الخط).

- وأن الحسن أصبح ولى عهد المملكة رسمياً بإعلان صدر فى أبريل سنة ١٩٥٦، ولحق بالإعلان مرسوم وقعه محمد الخامس بتعيين ولى عهده قائداً عاماً للقوات المسلحة الملكية المغربية (والشرق الأوسط داخلٌ إلى أجواء أزمة وعلى وشك أن يسمع قرار الحكومة الأمريكية بسحب عرضها بالمساعدة فى تمويل السد العالى، ومعه وَعْد بريطانيا ووَعْد البنك الدولى أيضا)».

....

....

والشاهد أن «المهدى بن بركة» ذهب إلى أبعد من ذلك فى اتهاماته للمَلك «الحسن» ووصل إلى حد القول بأن الأمير «الحسن» أشرف على «موت» أبيه! ودليلُه على ذلك أن المَلِك «محمد الخامس» مات أثناء جِراحة بسيطة لاستئصال اللوز، جرت فى غرفة غير

مُعَقَّمة فى القصر الملكى، ولم يقم بها أخصائى معروف، ولم تكن بالقرب من الغرفة التى جرت فيها العملية استعدادات لحالة طوارئ، ولثلاثة أيام قبلها لم يُسْمَح لزائرٍ حتى من الأسرة أن يرى المَلِك، وفى غرفة العمليات لفظ الرجل آخر أنفاسه ولم يتمكن أحد من إسعافه.

ويقول «المهدى بن بركة» مُصِراً: «الفرنسيون يعرفون كل الحقائق وهذا أكثر ما يزعج الحسن من ديجول. الحسن عاشق للحياة فى باريس لكنه يكره «الإليزيه» (قصر الرئاسة) ـ لأنه يعرف «أنهم هناك» يعرفون «كل شىء»».

وأتذكر أننى أبديت شكّاً فى إمكانية تصديق «المهدى» (رحمه الله) ـ وقد انفعل لما أحسه وقال:

«أنا أعرفه أكثر منك. كان تلميذى لسنوات وكنت أدَرِّس له الرياضة، لكنه كان مهتماً أكثر بقراءة وحفظ كتاب «الأمير» (كتاب «ماكيافيللى» الشهير).

فى استراحة بين الدروس قال لى مرة: «ماكيافيللى له حق فى أن الأمير يجب أن يكون له دهاء ثعلب (يتجنب به كل الشراك) وبطش أسد (يفترس به كل الذئاب)».

....

....

فى ذلك اللقاء (القاهرة ـ ١٩٦٤) مع المَلِك «الحسن»، وهو شبه معاتب على أننى تعرفت إلى «المهدى بن بركة» واستمعت إليه، مع احتمال أننى صدقته ـ لم أشِر إلى شىء مما قاله «بن بركة»، لكنى أعترف الآن أن بعضه على الأقل كان يحوم فى خواطرى وأنا أستمع إليه، وقد وَجَّهَ حديثه ـ بعد «بن بركة» ـ إلى أزمة تحويل مياه الأردن التى قد وَصَلَت بالتَوَتُّر إلى حافة الهاوية أيامها بين سوريا وإسرائيل.

المفكرة رقم ٦

تجربة ملك فى الشباب وما بعده

[١]

كانت الصفقة التى روى لى «بن بركة» قصتها، وهى صفقة فتح الباب لهجرة يهود المغرب إلى إسرائيل - فى مقابل عودة سلطان المغرب إلى عرشه - اتفاقاً بسيطاً فى شروطه، مُعَقَّداً عند تنفيذ هذه الشروط.

....

....

وبصرف النظر عن تأثير هذه الصفقة - على المدى البعيد - فى مستقبل الصراع العربى الإسرائيلى - فإن الصفقة صنعت شيئاً ما بين الأب «محمد الخامس» وابنه الأكبر «الحسن» - مع وجود شواهد على أن السلطان «محمد» لم يكن يعرف الحقيقة كلها داخل «ربطة» الاتفاق.

كان السلطان يعرف أن ابنه يحاول استعمال يهود المغرب عنصراً ضمن عناصر فى حل أزمة منفاه وفى تحقيق عودته إلى العرش. ولم يكن فى ذلك ما يتعارض مع تكوينه الفكرى، فهو يعتبر نفسه صديقاً ليهود المغرب وحامياً لهم، وهم من العناصر النشيطة فى السلطنة، وبراعتهم فى شئون المال مشهودة، وصلاتهم بفرنسا نافعة فى حل كثير من العُقَد - ولكن أى يهود ؟!

والراجح أن السلطان كان يفكر فى «اليهود» وفى ذِهْنِه يهود المغرب - أو يهود فرنسا - أو يهود أوروبا - لكن خياله لم يتسع لما هو أبعد.

وفى الغالب فإن السلطان لم يكن يُعَلِّق أمله الأكبر على المحاولة اليهودية، وإنما تعلق

تفاؤله أكثر باستمرار غضب الشعب المغربى، وحيوية الحركة الوطنية فيه، ومعرفته بعدم رضاء عناصر فرنسية فاهمة - عن سياسات المقيم العام الفرنسى الذى قرر خلعه ونفيه. إلى جانب ذلك كان هناك تأثير حركة القومية العربية وقد بدت وقتها إعصاراً جارفاً من الخليج إلى المحيط.

....

....

والذى حدث أن المحاولة اليهودية نفعت، ومع أنها لم تنفع وحدها - إلا أن الأمير «الحسن» فى شبابه اعتبر أنه صاحب انتصار العودة إلى الرباط.

ومن المقطوع به فى ذلك السياق أن المحاولة اليهودية لم تَجْر بالتنسيق مع يهود فرنسا أو يهود أوروبا، وإنما جاء النجاح من أن المحاولة اليهودية نَسَّقَت مع يهود أمريكا - وبالتعاون مع السياسة الأمريكية التى اشتد ضغطها كى تَنْفُذ إلى الشرق الأوسط خَلَفاً لبريطانيا فى المشرق العربى ولفرنسا فى مغربه.

وعندما اتخذت باريس قرارها بعودة «محمد الخامس» إلى عرشه فإن السلطان دُعِىَ إلى فرنسا كخطوة على الطريق إلى عاصمة مُلْكِه، وكانت هذه خطوة لازمة للتفاهم وإعلان معاهدة وَضَع عليها وزير خارجية فرنسا «أنطوان بينيه» توقيعه وإلى جانبه توقيع «عَظَمة السلطان محمد الخامس» الذى غَيَّرَ بعدها مباشرة لقبه من سلطان إلى مَلِك.

ووراء كل الأضواء، وخلف كل الأوراق، وفوق كل المراسم - كان الأمير «الحسن» على ثقة من أنه «مهندس العودة من المنفى» - وفى الغالب فإن السلطان - المَلِك الآن - راح يشعر أن ابنه الأكبر أصبح قوة مؤثرة... ربما قوة ضاغطة.

□ □ □

إن الحكومات المغربية التى تولت الحكم بعد العودة من المنفى - وطبقاً لمعاهدة «سان كلو» مع فرنسا - وجدت نفسها تواجه أوضاعاً شبه مُسْتَحيلة.

وكان بين الأوضاع شبه المُسْتَحيلة وضع الأمير «الحسن».

وباختصار فإن الأمير راح يطالب بديون عليه تَعَثَّر سدادها وكان صرفها ضرورياً فى باريس لتحقيق الأهداف الوطنية (وبينها العودة من المنفى).

ثم أضاف الأمير إلى مطالب سداد ديونه ـ أنه يتحمل الآن بأعباء مالية باهظة لأنه أقام مكتباً فى باريس يجرى من خلاله اتصالات مع الجهات المُتَنَفِّذة هناك «حتى لا نواجَه بمفاجآت لم نكن مُسْتَعِدّين لها» ـ وهذا المكتب يلتزم بمُرَتَّبات شهرية لشخصيات سياسية وإعلامية وأمنية. وزاد ولى العهد فى تأكيد ذلك «أنه حقق عن طريق هذا المكتب اختراقاً عميقاً فى أجهزة الأمن الفرنسية بما فى ذلك البوليس والأمن السياسى والمخابرات الخارجية».

وهذه كلها «مسائل» تكلف مالاً، ثم إن الدولة لا تستطيع أن تتولاها وإلا أفسدت كل شىء، وهو مصمم على الاحتفاظ بهذا المَكتَب فى باريس و«مولاى صاحب الجلالة يعرف أهمية ذلك».

(وكان هناك قدر كبير من الصحة فى دعاوى الأمير «الحسن» عن اختراقه العميق للأمن الفرنسى سواء فى البوليس أو فى المخابرات، وفيما بعد ظهر أن عناصر كثيرة من هذه الأجهزة كانت تدين بالفضل لوَلِىِّ عهد المغرب أكثر مما تدين بالولاء لأوامر صادرة لها من الحكومة الفرنسية).

ثم تعقدت الأمور لأن وَلِىَّ العهد راح يتوسط فى صفقات وامتيازات لشركات مختلفة فرنسية وأمريكية، والحجة أنها جميعاً ساهمت فى تمهيد طرق وفتح جسور إلى مواقع النفوذ والتأثير سواء فى باريس أو فى نيويورك.

وفى نفس الوقت فإن وَلِىَّ العهد راح يدعو من يشاء إلى المغرب، وينظم رحلات لأصدقاء من الرجال والنساء، ودعواه أنهم أيَّدوا وناصروا، وكانت كلفة ذلك عالية.

....

....

وطلب المَلِك «محمد الخامس» رئيس وزرائه ذات يوم يقول له: «إن مرتب الأمير الحسن لا يكفيه، ولا يليق بالمغرب أن يكون ولى عهده مُطارَداً فى باريس بديون لا يستطيع الوفاء بها، ودائنوه يلاحقونه حتى فى حجز طلبات بيته وتعطيل مشترواته العادية».

واستجابت الوزارة لكن استجابتها لم تكن كافية، بينما ديون الأمير تتراكم، وفوق الديون فوائدها!

ودعا الملِك «محمد الخامس» بعضاً من كبار المسئولين وقال لهم ما مؤداه - أو نصه - تقريباً:

«يا جماعة، اشتروا ولى العهد لصالح مستقبل المغرب... ومستقبلكم».

وخرج الذين حضروا الاجتماع مع الملِك (وبينهم الآن أحياء ما زالوا) يبحثون عن وسيلة لحل مشاكل ديون ولى العهد، واقترح أحدهم أن يدفع له مبلغ من «الصندوق الأسود» (وتلك هى التسمية التى تطلق فى المغرب على اعتماد المصروفات السرية الموضوع تحت تصرف رئيس الوزراء) - لكن رئيس الوزراء عاد يبلغ أصحابه الآخرين أن «الصندوق الأسود ليس فيه من الدراهم إلا مبلغ لا تزيد قيمته على ثلاثين ألف دولار، وهذه قطرة من بحر فى ديون الأمير «الحسن».

□ □ □

وكان بين المسئولين المغاربة من يعرفون معرفة يقين أن ديون الأمير ليست كلها سياسية، ولكن أكثرها - طِبْقَ ما يسمعون - مُتَعَلِّقٌ بحياة الأمير الشخصية خصوصاً فى باريس، ومن أيام كان فيها طالباً يدرس الحقوق والاقتصاد، إلى أيام أخذه شبابه إلى عاصمة النور وشَرَدَ به إلى مغانى الجمال ومفاتن الحب فى باريس.

وكان رأى بعضهم (وبينهم أحياء حتى الآن) - أنه لا فائدة من أى محاولة لوضع حَدٍّ لزيادة ديون الأمير إلا بالإستقرار والزواج. وكان الزواج تلك الأيام كابوساً بالنسبة للأمير الشاب.

وتحدث إليه كثيرون فى أمر زواجه، وبينهم والدته «لالا عبلة» - ولكن الأمير اكتفى بأن قال لأمه «أنه سوف يَتَزَوَّج إذا عثر على عَروسٍ لها مواصفاتها» - مواصفات أمه.

وكان بين الذين تحدثوا إلى وَلِيِّ العهد - سياسى مغربى (أطال الله عمره)، وكان الأمير معه أكثر صراحة - إذ قال له:

«إنكم جميعاً بما فيكم أبى وأمى تريدون توريطى فى الزواج. وأنا لن أتزوج لأنى «بعد أن عَرَفْت كل مَن عَرَفْت» لم أعد أثق فى امرأة...

كيف يمكن أن أضمن أن أى بنت أختارها زوجة لى - طاهرة لم يلمسها أحد قَبْلى بشِفَة أو حتى بيَد ؟!

.... سوف أكون مضطراً للزواج يوماً حتى تتصل ولاية العهد، لكنى سوف أفعل ذلك حين أجد امرأة «لا تَعْرِف الحَجَر من الشَجَر».

(وكان «الحسن» مُوَفَّقاً فى زواجه بأكثر مما تَمَنَّى، فقد تزوج - يوم وفاة والده - من شابة تنحدر من أسرة عريقة من بربر قبائل الأطلس، وكان أخوها (الكولونيل «مأمون حسن») ياوراً له. وفيما يظهر فإن «لالا كنزة» كانت ذكية ومُتَعَلِّمة «تَعْرِف كيف تُفَرِّق بين الحَجَر والشَجَر»، وكانت هى التى أنجبت له أبناءه: «لالا مريم» - والأمير «محمد» («محمد السادس» الآن) - و«لالا أسماء» - و«لالا حسنة» - ثم الأمير «رشيد»).

وعلى نحو ما فإن الأمير «الحسن» كان قاطعاً فى التفريق بين ما يطلبه عقله وما يهفو إليه قلبه. وفى التحقيقات التى جرت فى باريس (لاحقاً) اعترف ضابط أمن فرنسى كان يعمل مرافقاً خاصاً للأمير أثناء تردده الدائم على باريس - أنه دُعِىَ على عَجَل إلى الرباط قبل الإعلان الرسمى عن وفاة المَلِك «محمد الخامس». وتوجه من المطار فوراً إلى القصر الملكى يقابل ولى العهد الذى بويِعَ بالمُلْك قبل إعلان الوفاة، وساعتها كلفه المَلِك الجديد همساً بأن يشرف بنفسه على ترحيل ضيفة باريسية فى بيته (بيت الأمير «الحسن»). ويروى الضابط الفرنسى فى التحقيق (الذى جرى بعد ذلك سنة ١٩٦٥) أن المَلِك الجديد أحس بإرتباك الرجل الذى كَلَّفَه بالذهاب إلى صديقته وهو يعرفها من قبل، والظاهر أنه كان مُتَرَدِّداً فيما يقوله لها ؟

وأعفاه المَلِك الجديد حين أصدر له الأمر قاطعاً: «قل لها أن بيت «وَلِىّ العهد» يعرفك، ولكن قصر «المَلِك» لا يستطيع استقبالك»!

وقد اطلع الجنرال «ديجول» سنة ١٩٦٥ على هذه الواقعة فى التحقيقات، وأشار إليها أثناء جلسة لمجلس الوزراء رأسها فى ذلك الوقت وكان البند الأول على جدول أعمالها مُتَعَلِّقاً بالعلاقات مع القصر الملكى المغربى!

□ □ □

إن الأمير «الحسن»، وَلِىّ عهد المغرب، الذى لم يجد لدى وزرائه بعد الاستقلال مَن يَتَطَوَّع لتأمين دفع ديونه، ومن يَتَقَدَّم لتسهيل حصوله على ما هو ضرورى لتمويل مكتبه فى باريس - لم يلبث أن وجد الظروف تواتيه سواء جاءت الظروف تلقائية بتطور الحوادث أو جاءت مُرَتَّبة بفِعْلِ فاعِلٍ رَتَّبَ ودَبَّرَ.

والذى حدث (فى مايو) سنة ١٩٦٠ أن الملك «محمد الخامس» ارتأى أن الأحزاب التى قادت الحركة الوطنية إلى الاستقلال لم تَعُد قادرة بما فيه الكفاية على مسئوليات الحكم، ثم اقتنع بأن يتولى رئاسة الوزارة بنفسه، واقتنع أن يكون وَلِىُّ عهده نائباً لرئيس الوزراء.

وهكذا أصبح الأمير «الحسن» نائباً لرئيس الوزراء مع ولايته للعهد، إلى جانب كونه قائداً عاماً للقوات المَلَكية، وبطبيعة الحال فإن الضباط الذين كانوا الأقرب إليه فى القيادة العامة أصبحوا فى الأوضاع الجديدة هُم الأقرب إلى قمة السلطة. وكان هؤلاء الأقرب إلى الأمير من العسكريين الذين خَدَموا فى الجيش الفرنسى، لأن جيش المقاومة الوطنية الذى كان يقوده السيد «محمد البصرى» كان أقرب إلى الأحزاب الوطنية ـ فى حين أن الضباط المغاربة (الفرنسيين) سهل عليهم بسرعة تحويل ولاءاتهم من الحاكم الفرنسى المقيم، إلى البلاط المَلَكى الشريفى الذى يعلو فيه بسرعة نجم «الحسن».

وكان الأبرز بين هؤلاء الضباط (المغاربة ـ الفرنسيين) الجنرال «محمد أوفقير» ـ الذى أصبح وزير داخلية «الحسن» ثم وزير حربيته ـ وكان مع «أوفقير» مساعده الجنرال «أحمد الدليمى» وقد قُدِّر له أن يسير على خطوات رئيسه وأن يصل بعده وراءه إلى نهاية مشابهة!

ولقد كان ظهور ضباط الأمير ـ نائب رئيس الوزراء ـ قائد القوات المسلحة ـ وَلِىّ العهد ـ ثم المَلِك ـ وراء سَيِّدهم الجديد مَدْخلاً إلى صدام واسع فى المغرب بين العرش وبين القوى الوطنية فى البلاد.

وكان هذا الصدام بالضبط هو النقطة التى افترقت عندها الطرق بين «الحسن» وبين زعماء الأحزاب الوطنية المغربية، وضمنهم «المهدى بن بركة» زعيم الاتحاد الوطنى للقوى الشعبية فى المغرب.

ثم كان أن سِجِلَّ حقوق الإنسان فى المغرب أصبح أسوأ ما عرف العالم الثالث على سوء ما عرف العالم الثالث وقاسى وتعذب وتشرد!

□ □ □

[٢]

كان «المهدى بن بركة» هو الموضوع الرئيسى فى لقائى التالى مع الملِك «الحسن»، وكان فى الدار البيضاء (سبتمبر ١٩٦٥) وعلى هامش أول قمة عُقِدت فى المغرب (ونعرف الآن نقلاً عن أعلى المصادر فى إسرائيل أن الموساد (جهاز المخابرات الإسرائيلى) كانت له آذان وعيون واصلة مباشرة إلى القاعة التى اجتمع فيها ملوك العرب ورؤساؤهم).

وكان لقائى مع الملِك فى مكتب خاص أُعِدَّ له فى مقر بلدية الدار البيضاء (وهو من نماذج العمارة المغربية فى خيال المهندس الفرنسى الذى وضع رسومه وأشرف على بنائه فترة ما بين الحربين العالميتين).

وفى بداية ذلك اللقاء أشار الملِك بسرعة إلى جدول أعمال القمة العربية وأبدى تشاؤمه من نجاح المؤتمر بسبب «المزايدات الرخيصة»، وكان نقده لاذعاً لمن أسماهم «إخواننا العقائديين من عرب المشرق»، وكان لومه للفلسطينيين قاسياً «لأنهم يعرفون حقيقة ما جرى لقضيتهم ولكنهم يكذبون على أنفسهم وعلى إخوانهم، وسوف يُوَرِّطون الجميع»!

وعندما فرغ من ذلك دخل إلى موضوع «المهدى بن بركة»، وبدا أن حديثه فى كل ما سبق وتحدث فيه كان مجرد تمهيد لما هو قادم بخصوص «بن بركة».

ولم يداور الملِك فيما أراد أن يقوله وإنما بدأ مباشرة:

«بلغنى أنك قدمت المهدى بن بركة إلى الرئيس عبد الناصر»؟

وقلت: «إن ما بلغه صحيح، والداعى إليه أن المهدى هو مسئول اللجنة الدولية المنظمة لـ«مؤتمر شعوب القارات الثلاثة» (آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية) - وهذا مؤتمر مهم لحركة التحرر الوطنى فى العالم الثالث (مقررٌ له سنة ١٩٦٦)، وعلى حد علمى فإن المغرب مدعو إلى المؤتمر».

وسكت الملِك لثوان بدا فيها وكأنه يحاول انتقاء كلماته بعناية، وقال:

«المهدى كان شريكاً فى مؤامرة انقلاب ضد النظام الملَكى فى المغرب، وكانت أول خطوة فيه قتلى. زملاؤه فى المؤامرة هم البصرى (يقصد محمد البصرى قائد المقاومة المسلحة ضد القوات الفرنسية) واليوسفى (يقصد عبد الرحمن اليوسفى وهو آخر

رئيس للوزراء اختاره المَلِك الحسن قبل وفاته، ولا يزال إلى اليوم رئيسا لوزراء المغرب).

إننا اعتقلنا معظم المتورطين فى المؤامرة، وضبطنا السلاح وكان مُرْسَلاً من الجزائر، وقد عرفنا المحرضين وهُم من المشرق وبينهم عضو بارز فى حزب البعث السورى (سَمّاه المَلِك بالاسم). البصرى حاول الاتصال ببعض ضباط الحرس، والمهدى قام بتوريد السلاح وكان يوجه حركة التآمر من جنيف».

وقلت للمَلِك: «إننى أستطيع أن أتكلم فى نقطة واحدة وهى لقاءاتى مع المهدى بن بركة، ثم تلك المقابلة له مع الرئيس عبد الناصر وقد حضرتها - وأستطيع أن أقطع أن كل ما دار فيها كان محصوراً فى دائرة محددة هى التحضير لمؤتمر القارات الثلاثة (١٩٦٦)».

وقاطعنى المَلِك يقول: «إنه هو شخصياً يصدق ما أقول، فهو يعرف مصر ويعرف «فخامة الرئيس» - لكن هناك آخرين ينقلون إليه صورة مختلفة....».

....

....

(.... ونعرف الآن أن «الموساد» كان الأنشط فى نقل الصور - دون أن تكون بالضرورة دقيقة).

....

....

واقترحت على المَلِك أن يقطع أى شك عنده باليقين ويفتح الموضوع مع الرئيس جمال عبد الناصر.

ورد المَلِك بأنه «تحدث معى، وهو يعرف أننى سوف أتحدث بدورى فيه مع الرئيس عبد الناصر - وإذا وجد «فخامة الرئيس» أنه يريد أن يفتح الموضوع فلتكن المبادرة منه لا منا وهو ضيف علينا فى المغرب....».

□ □ □

لم تكد تمضى بعد هذا الحديث أسابيع إلا وكان المَلِك «الحسن» هو المُتَّهَم بقتل «المهدى بن بركة»، ولم يكن «المهدى بن بركة» هو المُتَّهَم بالتآمر على المَلِك «الحسن».

وأول المفاجأة أن الذى قام بتوجيه أصبع الاتهام إلى المَلِك مباشرة هو رئيس الجمهورية الفرنسية، وقائد فرنسا الحرة، الجنرال «شارل ديجول». وقد وجد «ديجول» أن اختطاف «المهدى بن بركة» من قلب باريس (شارع «سان جيرمان») وأمام واحد من أشهر معالمها (مطعم «ليب») وفى وضح النهار (فترة الغداء)، ثم استجوابه وتعذيبه وقتله بعد ذلك بحضور واشتراك وزير الداخلية المغربى «محمد أوفقير» - هو عدوان صارخ على هيبة الدولة فى فرنسا، وعلى القانون، فضلاً عما فيه مما يتصل بالأخلاق وضوابط الممارسة السياسية فى عوالم مُتَحَضِّرة.

ثم إن الأمر إلى «أوفقير» كان مُباشِراً من المَلِك. ثم إن المَلِك كان يتابع التنفيذ فى باريس خطوة بعد خطوة. (وكان هناك تأكيد موجود فى تسجيلات تليفونية التقطتها المخابرات العسكرية الفرنسية).

ولقد ثبت من التحقيق أن «المهدى بن بركة» اسْتُدْرِج - أو أُرْغِم - على ركوب سيارة تابعة للبوليس الفرنسى تولى اثنان من الضباط فيها تقييد حركة أسيرهم داخلها، ثم تحركت السيارة ذاهبة إلى بيت فى ضواحى باريس، وهناك وجد فى انتظاره وزير داخلية المغرب الرهيب وعدداً من أعوانه المغاربة والفرنسيين! وكانت بين «بن بركة» و«أوفقير» مواجهة بالكلام انتهت طعناً بحراب من حديد كان «أوفقير» يضعها فوق ألسنة النار فى مدفأة تتوسط الغرفة التى جرت فيها المواجهة، وحينما يحمى الحديد ويحمر لونه باللهب المُتَوَهِّج على أطرافه كان «أوفقير» يبدأ فى توجيه طعناته إلى خصمه المُقَيَّد بالسلاسل تحت أقدامه.

ثم اختفت جثة المناضل القديم ولم يُعْثَر لها على أثر.

وأكثر من ذلك فإن عميلاً للبوليس - ضالعاً فى العملية - اسمه «جورج فيجون» خاف (بعد اتضاح موقف الجنرال «ديجول») وطلب المثول أمام قاضى التحقيق فى باريس (القاضى «زولينجر») مُبْدِياً استعداده ليكون شاهد ملك يقول الحق، ولكن «جورج فيجون» قُتِل بالرصاص فى حَمّام بيته قبل أن يَمْثُل أمام التحقيق، وتَبَيَّنَ أن الرجل سَجَّلَ سِراً شهادته تَحَوُّطاً. وكان أن آخرين من المشاركين فى عملية «بن بركة» آثروا أن يبدأوا بتسليم أنفسهم لقاضى التحقيق وهناك تدفقت اعترافاتهم بالتفصيل. وكان ذلك

مـا دعـا «ديجـول» إلى عـقـد اجـتـمـاع خـاص لمجلس الوزراء الفـرنسـى برئاسـتـه يوم ١٠ نوفمبر ١٩٦٥، ليعلن بعده وبنفسه أن فرنسـا تعتبر مَلِك المغرب مسئولاً مباشرةً عن انتـهاك قـانون الإنسـانيـة، وقـانـون فـرنسـا، وحُـرْمَـة الأراضـى الفـرنسـيـة أيضـاً ـ بالتحريض على جريمة قتل على ترابها وبالتواطؤ مع عناصر من الأمن الفرنسى باعث ضميرها وواجبها»!

....

....

(ونعرف الآن من ملفات التحقيق الفرنسية فى قضية «بن بركة» أن جهاز «الموساد» شارك بدور نشيط فى تَتَبُّع تحركات «بن بركة» وفى خطة الإيقاع به حتى أُلْقِى القبض عليه...

وقد ظهرت فيما بعد تقارير من إسرائيل اعترفت بدور «الموساد» فى مطاردة «بن بركة»، ولكنها أنكرت المشاركة العملية فى اغتياله..).

□ □ □

وفى مقابلة أخرى كان المَلِك «الحسن» بنفسه هو الذى فتح معى موضوع اغتيال «بن بركة» فى الرباط (ديسمبر ١٩٦٩) ـ وكان قوله أن «العالم بالَغَ فى أهمية بن بركة، وهو لم يكن خطراً إلى هذه الدرجة التى أسندها الجميع إليه، ولم يكن فى أعماله ما يخيف المَلِك أو يزعجه بحيث يأمر بقتله خلاصاً منه، فقد كان فاشلاً فى مؤامراته واحدة بعد الأخرى لأنه لا يُحْسِن تدبير أى شىء». وأضاف المَلِك: «كنت أعرف المهدى.. وأعرفه أكثر من كل هؤلاء الذين يثيرون حتى الآن قضيته»!

وأشرت بأدب إلى موقف «ديجول»، وقال المَلِك بنفاد صبر:

«ديجول رجل ينتمى إلى عالم آخر وَلى زمانه وانقضى.

ثم هو يكرهنى شخصياً.

يتصور أننى منحاز لأمريكا.

يعرف أن المغرب له نفوذ فى فرنسا لا يستطيع هو كرئيس أن يوقفه أو يُحَجِّمَه، وذلك يضايقه لأنه يعتبره إهانة لكبريائه.

يقول الناس عن «ديجول» أنه رجل مُتَدَيِّن، وأنا أراه رجلاً متعصباً وحتى عنصرياً».

ثم أضاف المَلِك:

«المهدى قضية إنتهت بِخَيْرِها وشَرِّها، وديجول لم يعد هنا بأساليبه العتيقة -!- وعلى أى حال فليس هذا ما دعوتك اليوم لأحدثك فيه - هناك ما هو أهم».

□ □ □

كنا فى مكتب المَلِك الخاص فى قصره فى الرباط، وقد صحبنى «مولاى عبد الحفيظ» رئيس التشريفات الملكية إلى «الحضرة الملكية» وطربوشه مكبوس على رأسه وملامحه بالغة الصرامة، وأحسبه لم يكن راضياً عن كثيرٍ أكتبه، وقد أبدى لى بتقاطيع وجهه امتعاضه من بعض ما لاحظه من خروجى على تقاليد البلاط الشريفى! (وكان «مولاى عبد الحفيظ» رَقيباً مُتَزَمِّتاً على مراسِم دخلت إلى البلاط المغربى وأشاعت فيه جَوّاً قريباً من العبودية، ففى هذه المراسِم يَنحَنى الكبار بلا استثناء نزولاً لتقبيل يَدِ أمير المؤمنين «المُتَنَعِّم على عَرْشِ آبائِهِ وأجْدادِه»، وفيها أن يتراجع ضيوفه أمامه بظهورهم حتى تظل وجوههم الناطقة بالولاء أمامه إلى حين يخرجون من حضرته!). وفى ذلك الوقت كان القصر مَقَرّاً للقاء مؤتمر القمة العربية (ديسمبر ١٩٦٩) لبحث مرحلة ساخنة فى الحرب مع إسرائيل، وكانت مدافع حرب الاستنزاف تدوى على جبهة السويس، وكان مشروع «روجرز» (وزير الخارجية الأمريكى فى إدارة «نيكسون») باقتراح تسوية سلمية للأزمة مجرد صياغات يجرى تداولها همساً فى أروقة القمة لأن النقاط العامة فى مشروع «روجرز» وصلت إلى بعض العواصم العربية قبل انعقاد القمة، وإن لم تكن على هيئة مشروع مكتمل البنود، وكانت هناك مناقشات فى الاجتماعات الثنائية حول الصياغات، وكان واضحاً أن مصر لا تقبل بما عرفت عن المشروع وإن لم تعلن بعد رفضها الرسمى له مُؤْثِرة انتظار مداولات القمة.

وأشار المَلِك إلى أوراق على مكتبه وقال: «أظنك اطلعت على النقاط المهمة فى مشروع روجرز، وهو مطروح علينا جميعاً الآن، وقد أحسست من فخامة الرئيس أنه لا يريد مناقشة عامة حوله فى المؤتمر ولا يريد حتى مشاورات غير رسمية. وأستطيع أن أفهم بعض أسبابه، فهو لا يريد مناقشة علنية تُقَيِّد قدرته على المناورة والحركة فى أى

إتجاه يشاء بعد أن يقيس الوضع العربى من خلال القمة، وهو أيضاً لا يريد أن يسمع المزايدات الرخيصة التى نسمعها من البعض عادة، وأنت تعرف من أقصد!

ثم لخص المَلِك:

«فخامة الرئيس لا يريد مناقشة يظهر فيها الميل إلى الرفض لأن هذا يأخذ الأمر من يده، ولا يريد مناقشة يظهر فيها الميل إلى القبول لأن هذا يضعف موقفه.

كل ذلك أفهمه، ولكن ماذا بعد»؟

ثم قطب ملامحه وهو يقول: «لابد من حل، والتفكير فى حل عسكرى استحالة مطلقة. إسرائيل أقوى منا، ثم أن الأمريكان وراءها دون قيد أو شرط».

ثم أضاف المَلِك: «ولقد حضرت بنفسك بعض الجلسات ورأيت مَن هُم سُعَداء بوَرْطَتِكُم فى حرب ١٩٦٧، ولا أظنكم تستطيعون الاعتماد على مساعداتهم»؟

وسكت المَلِك مرة أخرى يحاول انتقاء كلماته، ثم استطرد على مهل إلى ما ملخصه:

«إنكم لا تحسنون استخدام ما لديكم من أرصدة فى صراع يهم المسلمين والعرب جميعاً، وأنا لا أريد أن أعرض عليكم شيئاً ولكن أريد أن تدرسوا.

أنتم لم تدرسوا المغرب. لم تعرفوا شيئاً عن يهود المغرب. لم تتابعوا بالقدر الكافى مواقع التأثير فى إسرائيل.

هل تعرف أن لى حِزْباً سياسياً يكاد يكون أكبر الأحزاب هناك ؟ - يهود المغرب عمود أساسى فى كل بناء سياسى فى إسرائيل. ويهود المغرب جميعاً يعتبروننى ملكهم الشرعى لأن تجربتهم فى المغرب اختلفت عنها فى أى بلد عربى بسبب ظروفٍ مُعَيَّنة.

ساسة إسرائيل كلهم يحسبون حساباً لحركتنا فى قلب المجتمع الإسرائيلى، ومن الغريب أن ساسة العرب لا يعرفون».

وانتظر المَلِك وقد أحس أنه أبلغ رسالته بأشد ما يكون كثافة ونفاذاً، ثم عاد يسأل بما مؤداه أن «ما ذكره الآن زاوية قد تكون من أهم الزوايا فى تكييف المرحلة القادمة من الصراع العربى الإسرائيلى لأن السلاح لن يحقق هدفاً» (أضاف المَلِك: «سلاح سنة ١٩٦٧ تَحَوَّل فى أيام إلى «مُخَلَّفات وَرْشة حِدادة»!»)

واستطرد المَلِك يسألنى «إذا كان ما سمعته منه يفتح مجالاً لحركة سياسية من نوع

أكثر جسارة وخيالاً من كل ما حدث حتى الآن - وما إذا كان «فخامة الرئيس» مُسْتَعِداً لسماع ما عنده»؟

....

....

(ونعرف الآن أن «الموساد» كان هناك..).

☐ ☐ ☐

فى عهودٍ أخرى، ومن مَنطِقٍ مُختَلِف، كان الرئيس «أنور السادات» مُسْتَعِداً لسماع المَلِك «الحسن» وباهتمام. وقد أعطى الرئيس «السادات» للمَلِك ضوءاً أخضر بعد قرار وقف إطلاق النار فى أكتوبر ١٩٧٣، وبادر المَلِك بإجراء اتصالات مع جهاتٍ ما لم تكن معروفة فى القاهرة (وربما كانت معروفة للرئيس «السادات» وحده، ولو أنى أشك فى أن الرئيس «السادات» اطلع فى ذلك الوقت على تفاصيل مُحَدَّدة) - لكن اتصالات المَلِك كانت هى السبب الذى دعا وزير الخارجية الأمريكى «هنرى كيسنجر» إلى التوقف فى المغرب ومقابلة المَلِك «الحسن» - قبل أن يصل إلى القاهرة فى أول زيارة له إلى العاصمة المصرية.

وفيما بعد، وفى لقاء فى فندق «كريون» فى باريس (بداية خريف ١٩٧٤) قال لى المَلِك أن «هنرى كيسنجر» توقف فى المغرب لمقابلته لأسبابٍ لا علاقة لها بأى اتصالات محددة فى ذلك الوقت، وإنما كان سبب توقفه أنه - كما قال للمَلِك - يريد منه أن يعطيه مفاتيح للتعامل مع شخصيات عربية كان على وشك أن يقابلها لأول مرة فى حياته. وكان هناك بالتحديد ثلاثة رجال أراد «هنرى كيسنجر» أن يعرف عنهم أكثر من المَلِك «الحسن» وهُم: «أنور السادات»، و«فيصل آل سعود»، و«حافظ الأسد» - حتى يتعامل معهم أفضل!

وفى ذلك اللقاء مع المَلِك فى فندق «كريون»، وبينما المَلِك يتحدث عن ساسة المشرق ورد فى حديثنا ذِكْر «جمال عبد الناصر»، وقال المَلِك أنه أحس بأسى حقيقى عندما بلغه نبأ رحيل «جمال عبد الناصر»، وكان يتمنى لو عاش الرجل ليرى يوم عبور جيشه الذى أعاد بناءه - إلى سيناء!

لكن المُسْتَغرَب بالتناقض مع ذلك أن الجنرال «موشى ديان» فى مذكراته نقل عن المَلِك قوله له «إن جمال عبد الناصر لم يكن صادقاً معه... ولم يكن صادقاً مع غيره، وإنما كان مُخادِعاً مع أعدائه ومُخادِعاً مع أصدقائه على السواء».

وأظننى لا أستطيع أن أُكَذِّب «ديان» فى روايته، كما لا أستطيع فى نفس الوقت أن أُصَدِّقه، ولعل الحقيقة فى موقعٍ ما بين دِقّة ما فهمه «ديان» من المَلِك وما قصده المَلِك فعلاً. ومع ذلك فقد أضيف أننى أثناء ذلك اللقاء فى فندق «كريون» سمعت من المَلِك - بعد إبداء أساه على رحيل «جمال عبد الناصر» - ما ملخصه: «إن رحيل جمال عبد الناصر بصرف النظر عن أية مشاعر إنسانية كان لحظة فارقة فى العلاقات العربية العربية، خصوصاً علاقات المشرق بالمغرب».

وزاد المَلِك قوله تفصيلاً فأضاف أنه «فى مراحل سابقة - فى حياة جمال عبد الناصر - كان المغرب يستمع من بعيد إلى طبول المشرق، فإذا سمعها راح يرقص على دقاتها بغير مساءلة أو انتظار». وعَقَّب المَلِك: «كان المغرب باستمرار يرقص على طبول المشرق». وأعجبته الصورة فيما يبدو، وألحق بها قوله وهو يبتسم ابتسامة حلوة كانت تتبدى على شفتيه بمرح حقيقى بعض اللحظات: «كان يرقص عشرة بلدى!» - وحسبت هذا الملحق من عبارة المَلِك لمسة من تأثيرات صداقاته الكثيرة مع فنانين وفنانات من عرب المشرق، وكان دائماً كريماً معهم وحَفِيّاً بهم فى سهرات قصوره خصوصاً قصر الصخيرات الذى كان يعتبره مقر احتفالاته الخاصة.

□ □ □

وفى تلك المرحلة التالية على حرب أكتوبر - وفى وسط خريف سنة ١٩٧٤ - قام المَلِك بواحد من أهم الأدوار التى قام بها، ولم تَظهَر أهمية هذا الدور إلا بعد سنين طويلة.

فى حينه بدا ذلك الدور لغزاً غير مفهوم - لكننا الآن ندرك أن المَلِك كان يتحرك وفق مخطط مرسوم.

فى ذلك الوقت، وفى التمهيد لمؤتمر عربى على مستوى القمة فى الرباط (أكتوبر ١٩٧٤) - طرح المَلِك «الحسن» مشروع قرار أصبح شهيراً فيما بعد، وهو «اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطينى».

ومن الأسباب التى كانت تجعل من هذا القرار لُغْزاً غير مفهوم فى حينه - أننى سمعت معارضة لمشروع هذا القرار من الرئيس «السادات» ومن «هنرى كيسنجر» ومن المَلِك «حسين»، وهُم أهَم الأطراف الذين كان يتحتم أن يكون المَلِك «الحسن» قد نَسَّقَ معهم فيما اعتزم طرحه على القمة العربية.

ولكى لا يكون ما أرويه الآن عن المَلِك رواية جديدة فى غيابه فقد أسمح لنفسى أن أنقل بعض ما كتبته عنها فى حياة المَلِك فى كتاب «سلام الأوهام» (١٩٩٦) ـ وكان نصه كما يلى:

....

....

«وفى جلسة مؤتمر القمة التى خُصِّصَت لمناقشة مشروع القرار تحدث المَلِك «حسين» مَلِك الأردن ـ طبقاً لمحضر الجلسة ـ فقال:

«إن الأردن آخر من يعترض على حق الفلسطينيين فى أن يتحدثوا عن أنفسهم، وإنما هناك قضية أمانة تاريخية، ومسئولية حقائق مستقبلية.

بالنسبة للأمانة فإن هذه الأراضى الفلسطينية (الضفة والقدس) كانت عند المملكة الأردنية عندما احتلتها إسرائيل. ويشعر الأردن بواجب أن يتحمل أمانة استعادتها.

إن تَحَمُّل المملكة الأردنية بهذه الأمانة ليس ميزة تسعى للحصول عليها، ولكنها عبء هى على استعداد لمسئوليته.

وبعد أن تعود الأمور إلى نِصابِها، وإذا كان ذلك رأى الإخوة من الملوك والرؤساء العرب، ورأى الفلسطينيين ـ فإن المملكة على استعداد للتخلى عن هذه الأراضى بحيث يكون الانتقال من يد عربية إلى يد عربية. المهم هو استخلاص الأراضى من اليد الإسرائيلية».

واستطرد المَلِك «حسين» مُعَزِّزاً رأيه بحجج القانون:

«إن الأردن أكثر من غيره قدرة على استعادة الأراضى الفلسطينية، فهو الطرف المعنى بقرار مجلس الأمن ٢٤٢ الذى لا يجيز الاستيلاء على الأراضى بالقوة.

ثم إن الأردن هو الدولة التى تملك شرعية التفاوض بحكم ما كان، مضافاً إلى ذلك أن علاقات الأردن وصداقاته تسمح له باتصالات لا تتوافر للمنظمة. وهذه الشرعية فى التفاوض، مع علاقات الأردن وصداقاته، ما زالت تمثل قيداً ولو معنوياً على إسرائيل تتمنى أن تتحلل منه لكى تُجرى على الأرض المحتلة ما تشاء من تغييرات. ومع أنها الآن فعلاً تقوم بصنع حقائق جديدة على الأرض، فإنها تفعل ذلك بخُطى لا تزال وئيدة. ولكنه يخشى أنه إذا أصبحت المسئولية فى هذه الأرض الفلسطينية لمنظمة التحرير التى

لا ينطبق عليها قرار مجلس الأمن ٢٤٢، ولا تنطبق عليها اتفاقية جنيف الرابعة (التى تمنع أى دولة محتلة من إجراء تغييرات كبيرة فى أية أراضى تحتلها) - أن إسرائيل سوف تعطى نفسها يدا طليقة دون قيود».

وبدا كلام المَلِك «حسين» معقولاً، وقد أضيف منطقه إلى موقف المتحفظين أصلاً على مشروع القرار لأسبابهم، وبينهم مصر وسوريا والسعودية، ومال اتجاه القمة بوضوح إلى رأى المَلِك «حسين». وفجأة تدخل المَلِك «الحسن» مَلِك المغرب فى المناقشة وبطريقة غير متوقعة، فقد قال: «إنه يرى اتجاهاً فى القمة إلى تأجيل النظر فى مشروع القرار الذى يَعْتَبِر منظمة التحرير ممثلاً شرعيًا ووحيداً للشعب الفلسطينى، وهو لا يستطيع قبول التأجيل، وإنما يرى أن الواجب القومى يفرض أن يتحمل الشعب الفلسطينى مسئوليته ويكون المُعَبِّرون عنه هُم قادته..».

وحاول المَلِك «حسين» أن يتدخل قائلا للمَلِك «الحسن»: «يا ابن العم..».

ولكن المَلِك «الحسن» لم يترك له أو لغيره فرصة، وإنما قال: «أنه إذا كانت القمة ترى تأجيل النظر فى مشروع القرار، فإنه هو شخصياً سوف يترك قاعة المؤتمر ويخرج». وساد الذهول بين الملوك والرؤساء، فالرجل الذى يهدد بالانسحاب والخروج هو مضيف المؤتمر، وكلهم ضيوفه وفى قصره. واستطرد المَلِك «الحسن» قائلا بنبرة أسى: «إنه حزين لهذا الموقف لكنه يرجوهم أن يعتبروا البلد بلدهم والقصر قصرهم... هم أصحابه وهو الضيف عليهم، ولذلك فهو يستأذن منهم». وتعالت نداءات الملوك والرؤساء العرب تطلب من المَلِك «الحسن» أن يبقى فى الجلسة.

وكان المَلِك «حسين» بين الذين ناشدوا المَلِك «الحسن»، وكان قوله «أنه قال ما عنده، وإذا شاءت القمة العربية أن تعفيه من مسئوليته فهو على المستوى الإنسانى يقبل ما يراه الأشقاء»!

وجرت الموافقة على مشروع القرار مختلطة مع النداءات إلى المَلِك «الحسن» أن يبقى فى الجلسة».

....

....

(ومرة أخرى نعرف الآن أن عيون «الموساد» كانت ترى، وآذان «الموساد» كانت تسمع، ومن القاعة مباشرة).

....

....

وفيما بعد روى لى الملك «حسين»: «أنه اعتبر فى البداية أن قرار الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطينى ضربة مُوَجَّهة له - لكنه ما لبث أن اقتنع بوِجْهة نظر المَلِك «الحسن» الذى شرح له أن «إسرائيل لن تتنازل عن شىء له قيمة فى الضفة الغربية، وسوف تُلام أنت على أى تنازل، وحتى إذا أكرمك الإسرائيليون وأعطوك كل شىء فسوف يظل هناك من يلومك لأنك لم تأت بما هو أكثر، وأنك قَصَّرْت بل وخُنْت»».

وكان المَلِك «الحسن» قد أقنع الرئيس «السادات» بمشروع قراره بقوله (طبقاً لرواية الرئيس «السادات» فى لقاء معه بعد عودته من الرباط - فى بيته بالجيزة فى الأسبوع الأول من نوفمبر ١٩٧٤): «لماذا تريد أن تعطل نفسك وتؤخر حركتك. إنك قمت باتفاقٍ أول لفك الارتباط على الجبهة المصرية. وإذا كنت تريد أن تُغَطِّى نفسك باتفاقٍ على تَحَرُّكٍ ما فى الضفة الغربية، فلا بد أن تعرف أن إسرائيل لن تتحرك بهذه البساطة من الضفة، ولذلك فمن الأفضل لك أن تغطى نفسك بنقل المسئولية إلى منظمة التحرير وهو - على أى حال - قرار سوف يصفق له كل «المهاويس» عندكم ويعتبرونه انتصاراً. دعهم وما يتصورون وتحرك أنت»!

وكان تعليق الرئيس «السادات» ومخلِصاً فيما أحسسته: «إن الملك الحسن «ناب أزرق» لديه حس سياسى مُعَتَّق»!

ولم يكن المَلِك «الحسن» فى حاجة إلى إقناع الفلسطينيين، فقد اعتبروا القرار نوعاً من عودة حقهم الطبيعى إليهم. كذلك لم يكن فى حاجة إلى إقناع الإسرائيليين (طبعاً!)، فقد كانوا من اللحظة الأولى يريدون الخلاص من أى حرج مع المَلِك «حسين» لأنه وحده الذى يستطيع أن يطالبهم - أخلاقياً وقانونياً - بالعودة إلى خطوط ما قبل يونيو ١٩٦٧ بنص قرار مجلس الأمن الذى صدر فى وقت لم تكن فيه منظمة التحرير الفلسطينية طرفاً موجوداً على الساحة السياسية، وبالتالى فليس لها الحق - القانونى على الأقل - فى

الادعاء بشيء طبقاً للقرار ٢٤٢ الصادر عن مجلس الأمن قبل أن توجد منظمة التحرير الفلسطينية أو يسمع عنها أحد.

....

....

(كان المَلِك «الحسن» - بالتوازى مع ذلك - قد أخذ رئاسة ومسئولية لجنة الحفاظ على القدس إسلامية وعربية، وقد أخذها بقرار على مستوى القمة عَهَدَ إليه بأمانة أن يحافظ على عروبتها ويصون مقدساتها... ونعرف الآن أن اللجنة العليا للحفاظ على القدس إسلامية وعربية ظَلَّت وساماً على صدر صاحبه لا يشير إلى معركة أو إلى نصر. ونعرف أيضاً أن «الموساد» كان بعيونه وآذانه ضِمْن شهود القِمّة التى أَوْكَلَت إلى المَلِك عُهْدة القدس).

□ □ □

وكانت آخر مرة التقيت فيها بالمَلِك «الحسن» هى ذلك اللقاء الذى استوجب المساجلة بيننا، أو بين «ذاكرة مَلِك» و«ذاكرة صحفى».

لكنى ظللت مُتابِعاً مُهْتَمّاً بحركته، وكانت الأحوال السياسية المُسْتَجَدّة فى العالم العربى قد سمحت لحركته أن تكون جريئة، مَعْلومة بعد أن كانت مَكْتومة.

....

....

وكان المَلِك «الحسن» هو الذى نقل إلى الرئيس «السادات» سنة ١٩٧٦ أول رسالة من رئيس الوزراء الإسرائيلى «إسحاق رابين»، وقد حملها إليه الجنرال «أحمد الدليمى»، وقد نَشَرْت نصها وتفاصيلها فى كتاب «المفاوضات السرية بين العرب وإسرائيل».

....

....

ثم كان «المَلِك «الحسن» - برغم أحزانه لوفاة قريبةٍ منه حميمة - هى الأميرة «نزهة» - أوائل سبتمبر ١٩٧٧ - هو الذى رَتَّب وشارك فى أول اجتماع سرى بين السيد «حسن

التهامى» مبعوثاً للرئيس «السادات» وبين الجنرال «موشى ديان» وزير خارجية إسرائيل - مبعوثاً لرئيس الوزراء «مناحم بيجين».

....

....

والغريب بعد ذلك أن المَلِك «الحسن» اختار أن يقف مع معارضى الرئيس «السادات» عندما وَقَّعَ على اتفاق «كامب دافيد»، وحجته يومئذ دون إعلان «أن الرئيس السادات لم يخطره مسبقاً بنيته فى الذهاب إلى القدس، وكان مفروضاً عليه أن يفعل ذلك»!

....

....

ومع ذلك فقد كان المَلِك «الحسن» بعد ذلك أنشط الدعاة إلى عودة مصر إلى العالم الإسلامى، وإلى العالم العربى، بعد قطيعة «كامب دافيد». ثم كان المَلِك هو الأكثر حماسة لمؤتمر مدريد الذى شارك فيه كل العرب تقريباً وأُريدَ تحويله إلى مهرجانٍ للسلام. وكان المَلِك أول الذين كَرَّروا القول بأن مؤتمر مدريد هو رحلة عودة إلى الأندلس لقاء مُتَجَدِّداً بين العرب والمسلمين، وبين اليهود - ومصالحة تاريخية عامة وشاملة بين الأديان السماوية والمُؤْمِنين بها!!

....

....

ثم كان المَلِك «الحسن» - أخيراً - هو الداعى والراعى لأول مؤتمر اقتصادى بين العرب وإسرائيل سنة ١٩٩٤ فى الدار البيضاء، وكان هذا المؤتمر أول محاولة جريئة فى تطبيع العلاقات بين العرب وإسرائيل، ولعل تقدير المَلِك كان ما سمعته منه قبل ذلك عدة مرات من أنه «لا مفر من زواجٍ بين الثروة العربية والعبقرية اليهودية وتكنولوجيا العلم والإدارة الأمريكية».

المفكرة رقم ٧

باريس بين أبريل ومايو ١٩٩٩

[١]

عندما وصلت إلى باريس فى الأسبوع الأخير من شهر أبريل الأخير (١٩٩٩) لم يكن المغرب أو مَلِكه على جدول عملى فى العاصمة الفرنسية، وإنما كان اهتمامى مُوَجَّهاً إلى ما يجرى فى البلقان ـ لكنه سواد الليل فقط، وطلع الصُبْح وإذا «أحوال» المَلِك «الحسن» تطرح نفسها علىّ!

كان ضيفى على الإفطار صباح ذلك اليوم (أول يوم كامل لى فى باريس هذه الزيارة) أستاذًا فى العلوم السياسية من أصفى عقول جامعات «السوربون» ومن أكثر الخبراء اطلاعاً على تَوَجُّهات السياسة الفرنسية. وحين بدأت معه حديث السياسة الفرنسية فى «كوسوفو» ـ كان تعليقه أن مستقبل المغرب أوْلى «باهتمامنا» الآن من ماضى يوجوسلافيا!

ثم مال ضيفى علىّ ونحن جلوس فى ركن من قاعة الطعام الرئيسية فى فندق «الريتز» يقول هَمْساً: «الحسن يموت، وسوف تجد أن فرنسا الرسمية من الإليزيه (الرئاسة) إلى الكاى دورسيه (الخارجية) ـ مشغولة باحتمالات ما بعد الحسن ـ هذا أمر يهمهم تقليدياً أكثر من غيره، ففى البلقان يعرفون أن الولايات المتحدة هى السَبّاقة، وأما فى المغرب فهم لا يريدون أن يسبقهم أحد»!

وتَحَفَّظْتُ إزاء ما سَمِعْت مُنْتَظِراً أن أجد تأكيداً له.

□ □ □

على الغداء ـــ نفس اليوم ـــ فى نادى «أنتر أليانس» فى «فوبور سانت أونوريه» الذى يقع فيه قصر «الإليزيه» ـ كان مضيفى مسئولاً فرنسياً مُطَّلعاً ونافذاً، وخطر لى قبل البلقان أن أسأله عن المغرب، وجاءنى على الغداء تأكيد ما سمعته على الإفطار.

وسألنى مضيفى: «متى كانت آخر مرة قابلت فيها الحسن»؟

وأجبت بأنها من زمن طويل!

وقال مضيفى وهو على عادة الفرنسيين يزفر بضيق كلما قارب موضوعاً مُزْعِجاً:

«المَلِك مريض. سرطان فى الرئة، والحالة ميئوس منها رغم أنها طبقاً للأطباء الأمريكيين الذين رأوا المَلِك أخيرا مستقرة على نحو ما، لكن تقدير الأطباء الفرنسيين أنها يمكن أن تسوء فى أى لحظة.

«الحسن» لم يَعُد قط إلى حالته الطبيعية منذ خيانة أوفقير له.

أوفقير كان رَجُلَه، وموضع سره، والمُؤتَمَن على حياته ـ لكنه تآمر على سَيِّدِه مرتين، مرة حاول قتله فى انقلاب الجنرال محمد مذبوح سنة ١٩٧١، ومرة ثانية حاول قتله بإسقاط طائرته العائدة به إلى المغرب (١٩٧٢) وإحراقه وسط حطامها.

المَلِك حضر بنفسه إعدام أوفقير، والمشهد هزه وأثر عليه. وبعدها لم يعد يثق فى أحد. حاول أن يَثِق فى أحمد الدليمى نائب أوفقير وكان هو الذى تولى عملية التحقيق مع رئيسه وتنفيذ إعدامه فى ظرف ساعة واحدة. ورغم فشل محاولات «أوفقير»، ورغم نهايته الدامية، فإن المَلِك لم يستطع أن ينسى، واتسع شَكُّه غالباً حتى شمل الدليمى الذى لقى بعد ذلك مصرعه فى حادث سيارة غامض»!

وبان على ملامحى فيما يظهر ما دعا مُحَدِّثى إلى سؤالى عما إذا كانت لدىّ ملاحظة على شىء سمعته منه ؟ ـ ولم يكن لدىّ شىء، لكنى تذكرت واقعة كانت بالنسبة لى كاشفة.

....

....

فى يوم من أيام شهر مارس سنة ١٩٨٣ كنت فى قصر «خوان كارلوس» مَلِك أسبانيا (قصر «زرزويلا» فى ضواحى مدريد) جالساً معه فى مكتبه ودق جرس

التليفون، وكان معنى ذلك أن مكالمة هامة جاءت للمَلك، فليس من العادة أن يدق جرس تليفونه وأمامه أحد الزوار. وعَرَضْت على المَلِك أن أخرج، ولكنه أشار بيده بما يعنى أن أبقى. وبدأ حديثه مع طالبه على الناحية الأخرى، وفهمت من مجرى الحديث أنه المَلِك «الحسن». ونهضت من مقعدى ومشيت عدة خطوات إلى رفوف الكتب المحيطة بجدران مكتب المَلِك مزيجاً يضيف إلى الكتب تُحَفاً رمزية بينها نماذج ذهبية وفضية للسفينة «سانتا ماريا» التى ركبها «كريستوفر كولومبس» فى رحلته لاكتشاف أمريكا.

ومضت دقائق والحديث بين مَلِك أسبانيا ومَلِك المغرب متصل وأنا أجول بعينى على عناوين الكتب وتفاصيل نماذج السفن من الذهب والفضة.

ثم وضع المَلِك «خوان كارلوس» سماعة تليفونه، وعدت إلى مقعدى أمامه، وكانت الحيرة بادية عليه، وهز رأسه مُبْدِياً عجبه وقال لى: «حسن يعاتبنى لأننى أرسلت إليه برقية عزاء فى وفاة قائد جيشه «الدليمى» فى حادث سيارة، ويقول لى أنه كان يجب أن أكون أذكى من ذلك»!!

ولم أقل شيئاً فى التعقيب على ما سمعت، ولكنى أدركت وقتها أن حادثة السيارة التى أودت بحياة «الدليمى» لم تكن بفِعْلِ القضاء والقدر!

....

....

وكان مضيفى الفرنسى - على الغداء ٢٨ أبريل ١٩٩٩ - يواصل حديثه - مُسْتَطرِداً من حيث قاطعنى بسؤال لم أجب عليه:

«المَلِك فَقَدَ ثقته بكل الناس. أوفقير أولاً - ثم الدليمى.

ثم كل من تتصور حتى أقرب الناس إليه.

هو نفسه قال للرئيس ميتران: «لقد كنت أغمض عينى عارفاً أن عينى أوفقير مفتوحتان، وكنت أنام الليل مطمئنا إلى أنه سهران.

ثم تآمر أوفقير علىّ ثلاث مرات على الأقل، وكاد يقتلنى لولا أن حمانى الله»».

ثم أضاف المَلِك قائلاً لـ«ميتران»: «لم أعد أثق فى أحد».

ويستطرد محدثى فى نادى «أنتر اليانس»:

«إن الأرق أصبح رفيق المَلِك الدائم كل ليلة، وقد حاول التغلب على الأرق بكل

المهدئات شراباً وأقراصاً. ومع سهر الليالى أصبح التدخين متواصلاً سيجارة من سيجارة رغم إلحاح الأطباء عليه أن يطرد الأرق بوسائل أخرى وأن يكف عن حرق رئتيه بالتدخين»!

ثم واصل محدثى كلامه:

«الحسن الآن فى حالة إحباط، ليس بسبب صحته فقط، ولكن لاعتقاده أن أهم مشروعاته لم يتحقق، وهو مشروع المغرب العربى الكبير والذى تصور أن تكون له قيادته بعد اختفاء الرئيس الجزائرى بومدين من الساحة.

وقد فاجَأَتْه أحداث الجزائر وأخافَتْه من انتشار «الحُمَّى الإسلامية» إلى بلاده. ومع أنه كان يعتبر دائماً أن المغرب مُحَصَّنٌ ضد هذه الحمى باعتباره «أمير المؤمنين» الذى لا يزايد عليه أحد باسم الدين ـ فإن التطورات أقلقته. ومع ذلك فقد حسبها فرصة انشغال جزائرىٍّ يتيح له انتزاع حلٍّ لقضية الصحراء، لكن الجيش الجزائرى كان أصعب فى التعامل مع هذه القضية بأكثر من «بومدين».

....

....

وواصل محدثى كلامه:

«المَلِك أيضاً كان يظن أن دوره فى تحريك عملية السلام بين العرب وإسرائيل سوف يعطيه وَضعاً دائماً فى إدارة هذه العملية إزاء الأمريكان وبين العرب، لكنه وجد الأطراف يتحركون مباشرة دون انتظاره، وعندما يلتقى البعض منهم به فإنه يسمع منهم باعتبار المجاملة أكثر مما يسمع بحق المشاركة.

وفى النهاية فإن المَلِك لم يَعُد يهتم بشىء، ولقد وجده الرئيس شيراك فى لقاء أخير شبه يائس من عملية السلام. وحين حاول أن يثير اهتمامه بها من جديد أدهشه أن المَلِك كان يرى أن الأمور سوف تراوح مكانها دون تقدم ودون تغيير، وكان تعليقه بالفرنسية: "Plus ça change, plus c'est la même chose".

لا شىء سوف يتغير، وكله باقٍ على حاله»!

واندهش الرئيس شيراك، لكنه على نحوٍ ما كان يحس ويرى أن تغييراً كبيراً قد طرأ على أحوال المَلِك الحسن».

□ □ □

طوال الأيام الخمسة الأولى من مايو ١٩٩٩ أصبحت شئون المغرب وأمراض مَلِكه ـ شاغلى فى باريس، وقابلت وسمعت كثيرين من الخبراء الدارسين لأمور المغرب، ومن أصدقاء المَلِك، ومن الذين يعرفون دخائل السياسات الغربية (الفرنسية والأمريكية) بالذات، ويتابعون باهتمام شئون وشجون الشاطئ الآخر من البحر، ثم أصدقاء من المغاربة تَجَذَّرَت تجاربهم فى وطنهم وتواصلت مُتابَعَتُهم لأحواله من قريب.

وفى هذا الجزء من هذا الحديث فأنا لا أنسب قولاً لقائل، وإنما أعرض صُوَراً عامة وخلاصات لأحاديث ممتدة بعضها فى مكاتب رسمية، وبعضها فى فنادق شهيرة، كما أن بعضها جرى أثناء المشى ـ ساعات ـ فى حدائق «التويلرى» (وهى قريبة من فندق «ريتز») وكان «البعض» يفضلونها مكاناً لحديثٍ حُرٍّ فى الهواء الطلق اتقاءً لأبواب عليها عيون، وجدران لها آذان!

....

....

وفيما ظهر أمامى فإن الولايات المتحدة هى التى بدأت تتحقق قبل غيرها من أن صحة المَلِك «الحسن» تتدهور بسرعة، وقد ارتأى الأمريكيون أن إيقاع الحوادث يقتضى مُتابعة نشيطة، وربما أن الفرنسيين أحسوا بما أحس به الأمريكيون، لكنهم (الفرنسيين) قَدَّروا أن أى حركة غير عادية يمكن أن تثير شكوك المَلِك بغير داعٍ فى أجواء أصبح فيها المَلِك زائد العصبية وقابلاً لأن يُسْتَثار بكلمة أو إشارة.

ومهما يكن فإن واشنطن سبقت إلى أجواء البلاط الشريفى الملكى فى الرباط، وراحت تراقب عن قرب وتبحث عن مدخل يتيح لها أن «تساعد» فى التهيئة لانتقال هادئ إذا حانت اللحظة المتوقعة.

وكان داعى القلق وجود ضغوط على المغرب ـ فضلاً عن القلق مما يجرى على جواره فى الجزائر مثلاً ـ وهى ضغوط ترجع إلى أسباب اقتصادية واجتماعية وثقافية تكاد تَخْتَنِق بها مدن المغرب المُكْتَظَّة بكُتَلِ الناس، إلى جانب تفاوتات طبقية بلغت مداها بين الفقراء والأغنياء، إلى جانب تأخر مخيف فى التنمية وفى التحضير لأزمنة مختلفة، مضافاً إلى ذلك كله ظهور حركة ثقافية صاعدة فى المغرب، تشعر أنها صاحبة حَقٍّ فى مناقشة مصائره لكن طاقاتها محجوبة وشبه مصادرة!

وكل تلك ظروف وملابسات قد تنفلت فى لحظة دون أن يَتَحَسَّب لها أحد.

....

....

وكانت طبائع الأمور تقتضى أن تكون التفاتة الاهتمام الأولى مُوَجَّهة نحو وَلِىِّ العهد الأمير «محمد»، فذلك هو التوالى الطبيعى فى انتقال السلطة.

وكان معروفاً من قبل أن علاقة المَلِك بوَلِىِّ عهده ليست سَلِسة (وهذا أخَفُّ وصف يمكن استعماله) - فالمَلِك بتجربته يعرف أن ولِىَّ العهد يستطيع أن يتحرك بعيداً عن والده إذا وجد الفرصة (كذلك فعل «الحسن الثانى» مع «محمد الخامس») - ثم أن المَلِك «الحسن» أبٌ مُتَسَلِّط يريد أن يصوغ ابنه وِفْق ما يريد ناسياً أن الأوقات متباعدة. وكان أن أحس وَلِىَّ العهد أنه معزول عما يجرى حوله لأن المَلِك حَجَّم دوره ودور شقيقه الأمير «رشيد» بحيث لا يتجاوز الظهور فى المراسم الاحتفالية.

ورغم أن بعض أفراد الأسرة حاولوا بعد لَفٍّ ودوران مفاتحته فى الأمر كى يعهد لابنه ببعض المهام تُدَرِّبه على مسئولياته، إلا أن المَلِك فيما يبدو «تشاءم» مما سمع وكأن قائليه يحصون عليه أيامه وأنفاسه.

ثم وصل بعض أفراد الأسرة بعد ذلك إلى حد أنهم وَسَّطوا الرئيس «شيراك» لإقناع المَلِك أن يُعْطى الفرصة لوَلِىِّ عهده وتحت إشرافه وتوجيهه - لكن أحداً لم يعرف ما إذا كان الرئيس «شيراك» استجاب وفعل ولم ينجح، أو أنه استمع لما قيل له بأدب ثم تَحَرَّج فى التَدَخُّل بين الأب وابنه.

ثم حدث نقاش حاد بين المَلِك ووَلِىِّ عهده لأن المَلِك بلغه أن وَلِىَّ عهده قابل واحداً أو اثنين من مثقفى المغرب فى بيت صديق له فى «سلا» (وهى المدينة التوأم على الجانب الآخر من النهر أمام الرباط) - واستشاط المَلِك غضباً.

....

....

ثم جرت بعد ذلك واقعة (تَأكَّدَت لدىّ من مصدرين كلاهما عارف ومطلع على الدخائل) ومؤدى الواقعة أن مشهداً درامياً مُؤَثِّراً إلى الذروة جرى بين المَلِك ووَلِىِّ عهده ولسببٍ لم يظهر داعيه أمام شهوده الذين رأوا المَلِك يحتد على الأمير «محمد» بطريقة أحرجت وأزعجت هؤلاء الشهود.

لقد رأوا المَلِك يفقد أعصابه مع وَلِىِّ عهده، ثم وجدوا وَلِىَّ العهد يواجه والده وهو يحبس الدموع فى عينيه بصعوبة ويقول له ما يكاد منطوقه أن يكون:

«سيدى.. أنت أبى ومَوْلاى ومَلِكى، ومن حقك أن تقول وتفعل معى ما تشاء، لكنى أتوسل إليك أن تتذكر أننى وَلِىُّ عهدك فى نفس الوقت، فإذا أردت فليكن ما تريد بينى وبينك دون شهود وإلا فإن المسألة تتجاوزنى إلى مهابة الأسرة ومهابة العرش».

ويظهر أن المَلِك فوجئ بهذه العبارات يوجهها إليه ابنه ووَلِىُّ عهده، ولثوانٍ تَأخَّر رد فعله، وكان وَلِىُّ العهد قد استأذن بإشارة وانصرف.

وعلى نحو ما فإن الأمير «محمد» أمسك لسانه بعدها ولم يَعُد يتكلم مع أحد، وتَعَلَّم كيف يكبت أحاسيسه ومشاعره، ويمسك ملامحه جامدة كأنها قناع مصبوب على وجهه.

....

....

وهكذا كان التقدير الأمريكى الابتدائى أن وَلِىَّ العهد «مَوْلاى محمد» ليس هو المدخل إلى محاولة ترتيب أمور الخلافة فى المغرب - على الأقل ليس الآن!

وقد لاحظ بعض المكلفين بالأمر من الأمريكيين سكوت الأمير «محمد». وغامر واحد منهم وسأل نظيراً له على الجانب الفرنسى عما إذا كان هناك شىء له قيمة وراء صمت وَلِىّ العهد، أو أن هذا الصمت هو الظاهر والباطن من أمره»؟

وكان رد المسئول الفرنسى أن وراء الصمت شىء يستحق الاهتمام، وأن هذا الصمت الذى يُغَطّى ملامح وَلِىّ العهد وآراءه مجرد حاجزٍ احتمى به وَلِىُّ العهد فى مواجهة ظروف آلمته وقرر أن يكبتها.

....

....

وفى ذلك الوقت بدأ «الحسن الثانى» تجربة سياسة جديدة. وسواء جاءت التجربة بنصيحة من أصدقائه - أو باجتهاد من عنده - فإن «الحسن» أعلن فجأة قبل سنتين أنه سوف يَعْتَمِد نظاماً جديداً فى تنظيم تداول السلطة، وبمقتضى هذا النظام فإنه سوف يُعَيِّن زعيم أكبر أحزاب المعارضة رئيساً للوزراء. ووقع تكليف المَلِك على السيد «عبد الرحمن اليوسفى»، وهو سياسى محترم ينتمى إلى أسرة تقليدية لكن توجهاته الثقافية

قادته مبكرا إلى صفوف اليسار، وكان طوال نشاطه السياسى (رغم اتهامه سابقاً بمحاولة لاغتيال المَلِك بالتعاون مع «المهدى بن بركة») ـ مُلتَزِماً فى العمل السياسى بقواعد لم يخرج عنها وقد أكسبته احتراماً واسعاً.

وحين أبدى المَلِك «الحسن» لـ«عبد الرحمن اليوسفى» إشارة بأن يستعد لتأليف الوزارة تمهيداً لمحاولة ديمقراطية جادة، فإن «عبد الرحمن اليوسفى» كان أول من يدرك أن القصر يصعب أن يكون مصدر الديمقراطية، وإنما مصدر الديمقراطية هو الشعب، ومع ذلك فقد بدا له أن للواقع أحكامه حتى وإن بدت عكس ما يقول به الفكر والفقه السياسى السليم.

واستشار «اليوسفى» أصدقاء له وزملاء، وسمع الرأى ـ ونقيضه.

وقيل له بين ما قيل:

١ـ «لقد آن الأوان لك حتى تخوض البحر وتعيش تجربة الحكم».

[وفى نفس الوقت فقد سمع من يقول له: «أن تخوض البحر وليس لديك ضمانات ـ مُخاطَرة شديدة.. وتَذَكَّر أنك لست طارق بن زياد وراءك بَحْر وليس أمامك أندلس»] !

٢ـ «إنك تستطيع أن تفعل فى السلطة شيئا لجماهير سمعتك تتحدث عن آمالك ولم تشهدك تحقق شيئا من هذه الآمال».

[وفى نفس الوقت فقد سمع من يقول له: «إنك لن تستطيع تنفيذ شىء لا يوافق عليه المَلِك ـ والمَلِك لن يوافق إلا على قليل لا يرضيك ولا يرضى الناس»].

٣ـ «إنك تعرف أحوال المَلِك الحسن وتستطيع إذا كنت فى السلطة أن تساعد فى انتقال سلمى مأمون وإلا فإن العواقب قد تكون وخيمة».

[وكانت هذه الحجة الأخيرة هى القول الفصل الذى أقنع «اليوسفى» بقبول رئاسة الوزراء، ومعها القبول بواقع أن القصر الملكى قد يكون مصدر الديمقراطية هذه الأيام !!]

وعلى أى حال فإن رئاسة «اليوسفى» للوزارة أضافت توازناً مَعْقولاً إلى أوضاع مقلقلة !

والشاهد أن «اليوسفى» من موقع رئاسة الوزارة أعطى للتيارات السياسية المدنية فى المغرب دوراً فى توجيه الأمور ينفع إذا ما استجدت طوارئ.

....

....

وكانت هناك ثلاثة مراكز حساسة للسلطة غير الوزارة:

المركز الأهم هو وزارة الداخلية وفيها السيد «إدريس البصرى». ولأن المَلِك «الحسن» فى زمان ما بعد «أوفقير» و«الدليمى» لم يعد يثق بالجيش فإن سلطات كثيرة ـ سيادية وأمنية ـ انتقلت إلى وزارة الداخلية.

وكان «إدريس البصرى» رجلا عاش تجربة حافلة، وأنشأ صداقات وعلاقات مُتَشَعِّبة. وبكل السلطات التى تركها له المَلِك، ومع تجربته، وعلاقاته ـ فإن وزارة الداخلية فى المغرب أصبحت أهم أركان الدولة.

وكان ذلك داعياً إلى قلق عناصر كثيرة، لكنه فى الظروف الموضوعية الراهنة، وفى الاحتمالات العملية الواردة ـ فإن وزارة الداخلية أصبحت مركزاً بالغ الأهمية فى ساحة وعرة وخطرة!

وكانت القوات الملكية المسلحة هى المركز الحساس الثانى للسلطة ـ لكن ذلك المركز كان ولا يزال يشعر ـ برغم كل ما قام به من تأمين أوضاع المَلِك والعرش والدولة ـ أن الثقة فيه لم تعد إلى ما كانت عليه قبل «أوفقير» و«الدليمى». وكان كبار القادة يراودهم الشعور بأنهم موضع إختبار طول الوقت، كما أن شباب العسكريين تَوَلَّدَت لديهم حساسية صَوَّرَت لهم أن ضباط البوليس أكثر تَمَيُّزا منهم.

وكان المركز الحساس الثالث هو البلاط الملكى من حول المَلِك وبالقرب من وَلِىِّ العهد الأمير «محمد».

وفى هذه الظروف فقد بَرَزَ دور السيد «محمد الشرقاوى» وهو زوج إحدى شقيقات المَلِك.

وكان «الشرقاوى» بين الذين حاولوا إقناع المَلِك إعطاء فرصة لِوَلِىِّ العهد، وكان هو أيضاً الذى حاول أن يقوم بدورٍ ما بين الوزارات الحساسة (الداخلية ـ والحربية) ـ وبين القصر ـ لأن الكل كان يخشى غضب المَلِك خصوصاً فى الشهور الأخيرة من حياته.

وبرغم ذلك فإن المَلِك لم يتردد أثناء مناقشة فى مكتبه حضرها آخرون أن يقول للسيد «الشرقاوى» بحِدّة ما معناه: «اسمع.. إننى زوجتك أختى ولكنى لم أزوجك المملكة»!

ومع ذلك فإن «الشرقاوى» راح يواصل جهوده ـ حتى من وراء ستار ـ لأن النهاية لاحت شواهدها، وكان التَسَرُّب من ساعة الرمل يجرى مُتَسارِعاً ومُتَدافِعاً!

□ □ □

ويـوم ٢٣ يوليـو ١٩٩٩ وقـع ما كان مُنْتَظـراً.

وبدا الوجود الأمريكى فى الجنازة كثيفاً بأكثر مما هو لازم.

وبدا الحضور الإسرائيلى مُزعِجاً بأكثر مما هو مُحْتَمل. وكان بين الصور التى رَوَّجَتها وكالات الأنباء صور للمَلِك الشاب الجديد جالساً ومن حوله نطاق من ثلاثة رجال: رئيس الدولة الإسرائيلى «إيزر وايزمان» جالساً بجوار المَلِك الجديد، و«شيمون بيرين» مائلاً عليه من اليسار، وإيهود باراك» مائلاً عليه من اليمين.

....

....

ولقد كانت التعليقات التى تكررت فى الصحف الغربية كلها وبينها «الإيكونوميست» و«الإندبندنت» فى بريطانيا، وكذلك فى الصحف الإسرائيلية وبينها «ها آرتس» و«الجيروساليم بوست» ـ على سبيل المثال ـ تذهب جميعاً إلى رأىٍ مؤداه أن الدليل الحى على غياب ـ أو غيبوبة ـ الرأى العام العربى هو ذلك الفارق الهائل بين المعلومات المثيرة التى نُشِرَت فى العالم بعد إعلان وفاة المَلِك «الحسن» ـ مُرَكِّزة على علاقاته مع إسرائيل وبالذات جهاز «الموساد» ـ وبين العناوين المؤثرة التى ظهرت عن جنازته وسالت دموعاً ساخنة على صحف العالم العربى، وموجات إذاعاته، وشاشات تلفزيوناته وفضائياته.

....

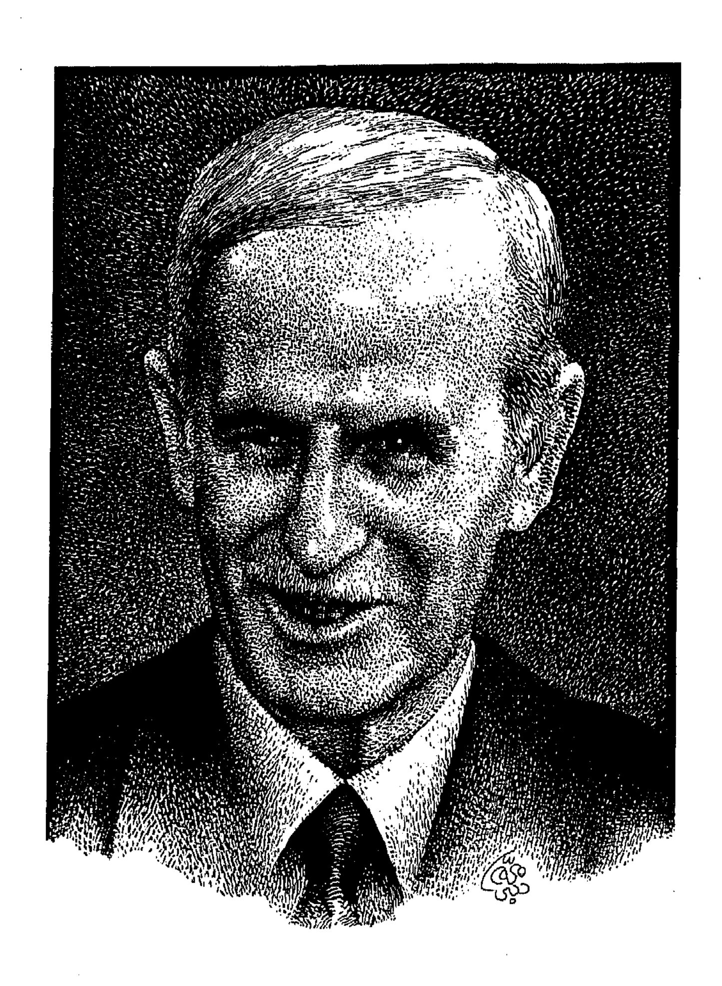
....

وفى النهاية فإن هذه المسافة بين ما هو «مثير»، وما هو «مؤثر» ـ هى بالضبط المساحة المتروكة كى يقيم فيها التاريخ قضاءه وينطق بأحكامه، أو ربما يظهر أن الكلام عن التاريخ فى العالم العربى تهويل لا تتحمله الأحوال الراهنة فيه.

ثم يثبت أن المَلِك «الحسن» كان يعرف أكثر حينما قال ذات يوم للرئيس «شيراك» فى قصر الإليزيه: "Plus ça change, plus c'est la même chose"

لا شىء سوف يتغير، وكله باقٍ على حاله»!!





حافظ الأسد

مفاوضات سوريا وإسرائيل



مفاوضات سوريا وإسرائيل(*)

أسرار سوريا قبل أسرار الاتفاق!

أريد أن أقول من السطر الأول فى هذا الحديث إننى أشعر بتعاطف مع الرئيس «حافظ الأسد» - إذ أراه سائراً على الطريق إلى واشنطن بعد أن سبقته إلى هناك بعثة مُقَدِّمة يقودها وزير خارجيته السيد «فاروق الشرع» - تمهيداً لجولات جديدة من المفاوضات، يُقَدِّرون لها (وهو مُحتَمَل ؟) أن تَصِلَ إلى اتفاق من «نَوْعٍ ما» بين سوريا وإسرائيل.

وقد بدأت هذه الجولات بمَشهَدٍ افتتاحى فى حديقة البيت الأبيض بحضور الرئيس «كلينتون» يوم ١٥ ديسمبر ١٩٩٩، ثم أعقب ذلك سلسلة اجتماعات مُغلقة فى «شِيبردزتاون» فى قلب ولاية غَرب فرجينيا - رعاها الرئيس «كلينتون» باهتمامه، وبحضوره وبمشاركته عَمَلياً فى طَرحِ الأوراق والصياغات، وإدارة المناقشات حولها وتوجيهها إلى نقط التقاء!

وقد أضيفُ أن التعاطف مع طَرَفٍ من الأطراف فى موقف سياسى مُعَيَّن لا يتأتى من التَوافُقِ معه على موقع نظر واحد - لكنه قد يتأتى أيضاً من تَفَهُّمِ الدواعى والدوافع التى استَوْجَبَت مَوقِفَه حتى مع اختلاف مواقع النظر.

وبتعبيرٍ أوضح فإنى أستطيع أن أتَفَهَّم موقف الرئيس «حافظ الأسد»، دون أن يعنى ذلك أننى شديد الحماسة لهذا الموقف مُقتنعٌ به ظاهِراً وباطِناً!

وربما أن المأزق الحقيقى أمام كل الناس أنه فى ربع القرن الأخير تَفَتَّحَت أمام العَرَب أبواب كثيرة، ثم جرى إغلاقها واحداً بعد الآخر. كذلك لاحَتْ لهم خيارات مَعقولة لكنها ضُيِّعَت خياراً بعد خيار، ثم إن أضواءً لَمَعَت هنا وهناك، لكن القرار السياسى العَرَبى تَرَكَ الرياح تعصف بالمشاعل ويَسودُ الظلام!

(*) فبراير ٢٠٠٠م.

وظنى - وذلك أهم أسباب تعاطفى مع الرئيس «حافظ الأسد» - أن مشاعره ليست بعيدة عما وَصَفْت، والفارق بينه وبين غيره أنه هو «رَجُلُ الدولة المُضطَرُّ إلى السَيْر» بعد صَبْرٍ طالَت حِباله وبعد انتظارٍ أصبح مُملاً، ثم تَبَيَّنَ له أن الصَبْرَ والانتظارَ كليهما ضِدَّهُ وليسا لصالحه، لأن الأحوال العامة فى العالم العربى مُتَحَجِّرة على ما هى عليه منذ المُفاجآت الكبيرة التى لحقت بانتصار أكتوبر (١٩٧٣) - وهذه المُفاجآت بترتيب وقوعها: مَهْرَجان زيارة الرئيس «السادات» للقدس (١٩٧٧) - ومأساة الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠) - وخطأ دخول العراق إلى الكويت (١٩٩٠) - وخطيئة تدمير العراق بدلاً من تحرير الكويت (١٩٩١).

ثم زادَ فوق ذلك ما تَرَتَّبَ عليه، وتَداعى منه، حتى جاء اليوم الذى استبان فيه للرئيس «حافظ الأسد» (وللمُحيطين به كلهم أو معظمهم) وقد بَلَغَ القرن العشرون نهايته - أن الصَبْرَ ليس الحَلُّ ولا الانتظار، فالسنون تَمُرُّ (هو الآن فوق السبعين) - وصِحَّتُه تتأثر (لديه مشكلة قلب) - وهو يَشُكُّ أن بعض زُوّارِه من الوُسَطاء - ومن غَيرِهِم - يستعملون أجهزة حديثة مَوْصولة خِفْيَةً بأيديهم - تُمَكِّنهم حين يُصافحون يَدَهُ أن يحصلوا على رَسمٍ كاملٍ لقلبه (وهو يحس بالقَلَقِ عندما يَتَصَوَّر أن هناك من يُطِل بحُرِّيّة داخله إلى عُمقٍ لا يريد لأحدٍ أن يكشِفَه).

....

....

[يلحق بهذا النوع من الجاسوسية الطبية المُقلقة ما نَشَرَتْه صحيفة «الصنداى تيمس» (عدد الأحد ٩ يناير ٢٠٠٠ - صفحة ٢٥ - لمراسلها فى تل أبيب «أوزى مهنايمى») من أن المخابرات الإسرائيلية (الموساد) حصلت بالتعاون مع المخابرات الأردنية على عَيِّنة من «بول» الرئيس «الأسد»، وذلك عندما قضى يَوْماً فى عَمّان اشترك خلاله فى تشييع جنازة المَلِك «حسين».

وكانت خطة الحصول على تلك العَيِّنة شديدة البساطة، فقد اعتَمَدَت فيها مخابرات الأردن وإسرائيل على أن الرئيس «الأسد» سوف يحتاج إلى دخول حَمّام فى وقتٍ ما خلال الساعات الست التى سوف يقضيها فى عَمّان، وتَوَقَّعَت أن يحدث ذلك بعد ساعتين سوف يَنْتَظِر فيهما الضيوف الكبار مراسم التشييع. وعندما نقل أحد مُوَظَّفى المراسم السوريين إلى زميل له أردنى رَغبة الرئيس «الأسد» فى الوصول إلى حَمّام، كان هذا الحَمّام قريباً

ولائقاً ولم يكن قد استَقبَلَ أحَداً قبله. ودَخَلَه الرئيس «الأسد» ولم يكن يعرف أن بالوعة الحَمّام تخفى تحتها أنبوباً زجاجياً طِبِّياً جاهزاً للاستقبال، وخَرَجَ الرئيس «الأسد» من الحَمّام، وفى دقائق كان الأنبوب الحاوى للعَيِّنة فى طريقه إلى المطار تنتظره طائرة هليكوبتر لتحمله إلى مَعمَل تحاليل فى حالة طوارئ!

وعن طريق تحليل هذه العَيِّنة حصلت المخابرات الإسرائيلية (الموساد) على معلومات كثيرة عن الأحوال الصِحِّيَّة للرئيس «الأسد»، بما فيها قائمة كاملة بكل الأدوية التى يستعملها، ونظام الطعام الذى يلتزمه!]

....

....

وبصرف النظر عما عَرَفَتْه إسرائيل أو لم تَعرِفه، فإن الرئيس «حافظ الأسد» - أخيراً - ومهما كانت مشاعِرُه - لم يجد أمامه غير أن يتصرف بمنطق أنه «لا بُد مما ليس منه بُد»، ومن ثم يستجيب لنداء تليفونى أخير وَجَّهَه إليه الرئيس «بيل كلينتون» (ضمن حملة سياسية واسعة - معظمها بالتليفون، طالَت مكالمة منها أكثر من ساعتين! - وقد وَظَّفَ فيها الرئيس الأمريكى سُلطَتَه ومَواهِبَه كى يُقنِع الرئيس السورى أن السنة الباقية له («كلينتون») فى البيت الأبيض هى نافذة الفرصة الأخيرة قبل أن تَتَغَيَّر الأولَوِيَّات فى دُنيا مُتَحَفِّزة لأولَوِيَّات مُختَلِفة مع زَحفِ القرن الواحد والعشرين) - وكان أن الرئيس «الأسد» أبلغ «مادلين أولبرايت» فى أثناء زيارتها الأخيرة لدمشق (٧ ديسمبر ١٩٩٩) باستِعدادِه مرة أخرى لتجربة التفاوض الرسمى مع إسرائيل - ولعله فعلها وهو يَتَصَوَّر أنه يستطيع التَصَرُّف على خلاف ما تَصَرَّف به غيره، مُعتَمِداً فى ذلك على «ظروف سوريا الخاصة».

بمعنى أنه إذا كانت الظروف العامة فى الشرق الأوسط وحوله قد أملَت عليه أنه «لا بُد مما ليس منه بُد» - فإن «ظروف سوريا الخاصة» فى الإقليم ووضعها الفريد فى العالم العربى قد يُوَفِّر مجالاً أوسع للحركة، وأرضية أفضل لما تقتضيه تجربة التفاوض من الأخذ والعطاء، وبالتالى فإن المُفاوِض السورى يستطيع أن يجعل «ما ليس منه بُد» مقبولاً منه أكثر مما كان مقبولاً من غيره - على الأقل «قابلاً للبَلْعِ»، فى حين أنه كان من غيره عَظْمة انحَشَرَت فى الحَلْق!

□ □ □

والحاصل أن سوريا لها فى المنطقة وَضْعٌ «فَريدٌ» لا يماثله وَضْعُ طرف آخر على خريطتها ـ خصوصاً بالنسبة لمشكلة فلسطين، وبالتالى بالنسبة لمُعضلة إسرائيل.

ولَعَلَّ الوَضع الفريد لـ«سوريا» على خريطة المنطقة يَتجلَّى أكمَل إذا وَقَعَ استذكار الاسم الأشهَر والأشمَل للمنطقة قبل الحرب العالمية الأولى وهو اسم: «الشام».

....

....

كان «الشام» بهذا الوصف الأشهَر والأشمَل، هو ذلك الإقليم الذى تَنحَدِر إليه مُرتَفَعات آسيا، خارِجة من وديان الفرات، واصِلة من أقصى الشرق إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وهو الإقليم الذى يَمتَدُّ على شاطئ هذا البحر الأبيض قادماً من سفوح جبال الأناضول، قاصِداً إلى رمال سيناء وتلالها وممراتها التى تَنتَصِب عند الطرف الغربى لصحراء سيناء وكأنها بَوّابات تَحرُس وادى النيل.

ثم إن هذا الإقليم ـ «الشام» ـ كان بؤرة ظهور ولقاء حضارات نشأت وانتَشرَت واحتَكَّت ببعضها، ونَتَجَ عن تَفاعُلاتِها مُحيطٌ إنسانىٌّ شديدُ الغِنى، مُتَنَوِّع المَلَكات، مُتَعَدِّدُ المعارف والخبرات، فَوّارٌ بالمُعتَقَدات والطقوس والأساطير.

[وتلك طبائع البُؤَر الحضارية، تُحَقِّق بالعِلمِ ما تستطيع تحقيقه، وتَستَكمِل بالوَهْمِ ما يَعجَز عِلمُها عن تفسيره لأنها لا تريد فى حياتها فراغات أو فَجوات ـ وفيما بعد يكون خط تقدمها هو الصراع بين العِلمِ والوَهْمِ، ومعيار ارتفاعها أو نزولها هو أيهما يغلب: عِلمها أو الوَهْمِ ؟]

وزادَ أن هذه الأرض ـ هذا الإقليم ـ «الشام» ـ أصبح المسرح الذى دارت عليه الصراعات بين الإمبراطوريات الأولى التى عَرَفها تاريخ الشرق الأدنى: مصر وفارس واليونان.

وتلى ذلك أن هذا الإقليم ـ «الشام» ـ أصبح المُتَّكأ الأساسى للإمبراطورية الرومانية التى وَرَثَت الإمبراطوريات القديمة، والمَقَرَّ شِبْه الرَسمى للإمبراطورية فى شرق البحر عندما تَصارَعَ قياصرة روما وانقَسَمَت إمبراطوريتهم بين غَربٍ مَركزه روما وشَرقٍ مَركزه القسطنطينية.

....

....

وعندما جاء عصر الرسالات السَماوِية وكُتُبها فإن اليهودية تَوَجَّهَت إلى فلسطين، وهى منطقة جنوب «الشام».

ثم إن المسيحية ظَهَرَت فى نفس المنطقة بميلاد «المسيح» فى «الناصرة» كما تقول بعض الروايات، أو فى «بيت لَحم» كما تقول روايات أخرى. لكنه سواء كانت «الناصرة» أو «بيت لحم» فهو جنوب «الشام» أيضاً.

مثل ذلك «إلى حَدٍّ كبير» وَقَعَ فى التاريخ الإسلامى، ففى حين أن الرسالة الإسلامية تَنَزَّلَت فى «الحجاز»، فإن الإمبراطورية الإسلامية قامت فى «الشام» بدولة «الأمَويين» التى امْتَدَّت من الأندَلُس إلى الصين. وكان انتقال حَيَوِيّة الإسلام من قلب الصحراء إلى شاطئ البحر حَتمِيّاً، ذلك أن البَرَّ يُناسِب الرسالات والمُجتَمَعات حين تكون فى مرحلة الدفاع عن نفسها ومَأمَنُها أن «تَتَحَصَّن» فى العُمْقِ وراء المَتاريس، لكنه عندما تكون الرسالات فى حالة تبشير، وتكون المُجتَمَعات فى حالة تَوَسُّعٍ إمبراطورى، فإن الوصول أو الانتقال إلى شواطئ البحر تُصبِح له قوة المغناطيس!

وعندما تَعَطَّلَ التَبشير، وتَوَقَّفَ التَوَسُّع، ووَقَعَ الانكفاء من العَقائد إلى الفِرَق، ومن الدعوة إلى الطائفة، ومن الإمبراطورية إلى التبعية - فإن مُحيطَ «الشام» أصبح ساحةً للجَدَلِ بين المُتَعَصِّبين ومَقولاتهم وطُقوسهم إلى دَرَجَة الحرب الأهلية والقتل.

وكان هذا هو المُناخ المَشحون الذى أطلَقَ فيه فَيْلَسوفُ «المَعَرّة» وشاعِرُ «الشام» الجليل (سجين المحبسين: بيته والعَمى) - قصيدَتَه الشهيرة الحائرة يتساءل فيها قائلاً:

فى اللاذقية فتنة

ما بين طه والمَسيح

هذا بناقوسٍ يَدُقُّ

وذا بمِئذَنَةٍ يَصيح

كُلٌّ يُزَكّى دينَه

يا ليت شعرى ما الصحيح؟

(وكان كتاب «المعَرّى» العظيم «رسالة الغفران» هو الذى ألهَمَ شاعِر التنوير الأوروبى «دانتى» كتابه «الكوميديا الإلهية»، وكان ذلك الكتاب من فواتِح عصر التنوير).

....

....

إن «الشام» بعد ذلك أصبح أرض الوحشة الإسلامية بين الدَولة العباسية (الثانية) فى العراق والأمَراء الأتراك المُستَبِدّين بخلفائها - وبين الدولة الفاطمية فى مصر وولاتها الذين طاحوا فيها بالغَرائِب والبِدَع ! - وفى هذه الوَحشة التى نَشَأت بالقطيعة بين القاهرة وبغداد فقد تَبَعثَرَ «الشام» ممالك وإمارات ومَشيَخات، وكذلك عاشت المنطقة من الموصل إلى حلَب ومن دَمشق إلى غَزّة عُصوراً من الاقتتال والصراع والدسائس والمؤامرات، حتى انقَضَّت جيوش الصليبيين - ملوكهم ورعاعهم ! - على المنطقة، وتَواصَلَت عاصفة الغَزوة الصليبية قرناً كاملاً لم تتقاتل فيه السيوف المسيحية والإسلامية فحسب، وإنما تقاتَلَت السيوف الإسلامية مع بعضها، والسيوف المسيحية مع بعضها، ثم تقاتَلَت المُدُن والقُرى والبيوت - والعائلات والأشِقاء أيضاً !

....

....

وأيام الخلافة العثمانية فإن «الشام» لعب دَوْرَ الطريق الإمبراطورى بين الأقاليم والأطراف، وكان مُستَقَرَّ الحاميات، ومعبَرَ الحَمَلات، والمُرتَكز الأساسى لسلطة الدولة خارج موطنها الأصلى فى الأناضول.

وفى القرن العشرين فإن تقسيم الإرث العثمانى فى الشرق الأوسط بمقتضى معاهدة «سايكس بيكو» كان فى حقيقة الأمر تقسيماً للشام: من المُنتَصَفِ إلى الشَمال سوريا وفى حُضنِها وليس فى قَبْضَتِها - لبنان - وفى الجَنوبِ فلسطين مقسمة إلى ثلاثة كيانات: دَوْلة يهودية (بمُقتَضى وَعد «بَلفور»)، إمارة فى شَرقِ الأردن (بمُقتَضى العلاقة الخاصة بين الإنجليز والهاشميين)، ثم مَحمِيّة فى بقية فلسطين (بمُقتَضى الاحتياجات العسكرية المُتَوَقَّعة للإمبراطورية البريطانية بعد انتهاء الحرب، خصوصاً فى الخليج).

....

....

وفى طبائع الأمور، وكذلك فى واقع الحال، فإن سوريا ظَلَّت الوريث التاريخى لفِكْرَة «الشام». فهى الجزء الأكبر منه جغرافياً، والمَوْطِن الرئيسى لوارثيه إنسانياً، و - إلى حَدٍّ

كبير - استمرار دَوره جغرافياً باعتبارها ذلك الموقع الوَسَط بين وديان الفرات ووديان النيل، وبين صحارى الحجاز وشواطئ البحر الأبيض، ثم استَجَدَّ أنه حين تَحَقَّقَ مشروع الدولة اليهودية، فإن قيامَ إسرائيل أحدَثَ فى المنطقة زلزالاً - كانت سوريا بحقائق الأشياء هى الأكثر تَعَرُّضاً لعَواقِبِه باعتِبارِها الأقرب إلى مركزه.

□ □ □

وبنتائج هذه التَراكُمات فإن سوريا الحديثة أصبَحَت هَدَفَ صراعات الشرق الأوسط، كما أصبح الطريق إلى دمشق أكثر الطُرُق الإستراتيجية فى المنطقة زِحاماً، وتَبَدَّت الحَرَكة عليه ذِهاباً وإياباً مِقياساً أكيداً لسِباقِ النفوذ فى المنطقة!

وقد تَوالَت بالفِعل سباقات النفوذ على طريق دمشق طوال القرنين التاسِع عَشَر والعشرين:

- ومَثَلاً فإنه طوال القرن التاسِع عَشَر كان «الشام» ميدان معركة بين الخِلافة العثمانية والإمبراطوريتين الغربيتين (بريطانيا وفرنسا) - كلٌ منهما يريد أن يكون له الحَظ الأوفر.

وبالتوازى مع ذلك فإن «الشام» أصبح أيضاً ميدان معركة بين الخلافة العثمانية المُتَداعِية وبين القوة المصرية الصاعِدة ثم المُتَراجِعة، بظهور «محمد على» وسقوطه.

- ومَثَلاً فإنه حتى بعد اتفاقية «سايكس بيكو» التى جَعَلَت سوريا من نصيب فرنسا، فقد ظَلَّت السياسة البريطانية فى فترة ما بين الحربين العالميتين تَسعى للسيطرة على «الشام»، وكان ضابط المخابرات الشهير الجنرال «إدوارد سبيرز» مسئولاً مُكَلَّفاً بالتخطيط والإعداد لفَتْحِ وشَقِّ طريق إلى دمشق - قلب «الشام» - بصرف النظر عن الوِفاق مع فرنسا، والتحالف، ورِفْقَةِ الخَنادِق فى حربين عالميتين!

- وبالتوازى مع ذلك وفى نفس الوقت فقد كان التنافس المحلى بين الأنظمة التى ظهرت فى المنطقة مُباراة حامية للوصول إلى «الشام»: أرضه أو عقله أو قلبه، وكان ذلك مطلب الأُسَرِ المالكة فى العالم العربى: الهاشميين خصوصاً فى بغداد، والسعوديين فى الرياض، وأسرة «محمد على» فى مصر. وبين الجميع كانت دمشق فى حَيْرة - أرضها رجراجة، وعقلها مُوَزَّعٌ، وقلبها لا يستَقِر على قرار.

- وباستغلال هذا السباق المَلَكى إلى دمشق، فإن الغرب - وفى مقدمته الولايات المتحدة

الأمريكية التى وَرَثَت الإمبراطورية القديمة وحلَّت محلها - راحَ يرسم سياساته فى المنطقة مُعتَمِدا على بغداد، بعد أن تَمَنَّعَت القاهرة.

- وإذا كانت السياسة الأمريكية قد حَدَّدَت أهدافها بعد الحرب العالمية الثانية بأنها: البترول - وإسرائيل - والموقع الإستراتيجى - فقد كان مُحَتَّماً أن سوريا - مرة أخرى - هى مُلتَقى الطُرُق المطلوب للسيطرة على المنطقة.

ما زالت قلبَ الأرض العربية بالجغرافيا وبالتاريخ السياسى والاجتماعى والفكرى.

وهى (أو كانت بخطوط الأنابيب) طريق البترول من الخليج إلى البحر الأبيض.

وهى الموقع العربى الأقرب مباشرة ودون حواجز إلى عُمْقِ إسرائيل، إذا كان لإسرائيل عُمْق.

....

....

[وأتذكر لقاءً مع «جون فوستر دالاس» وزير خارجية الولايات المتحدة العتيد على عهد رئاسة الجنرال «دوايت أيزنهاور»، وكان اللقاء فى فندق «والدورف أستوريا»، وكان التاريخ ٢١ نوفمبر ١٩٥٥ (بعد صفقة الأسلحة مع الاتحاد السوفيتى بستة أسابيع) - ولَفَتَ نظرى أن «دالاس» بدا فى حديثه معى مَشغولاً بأثرِ صفقة الأسلحة فى سوريا أكثر مما كان مَشغولاً بأثرها فى مصر، وكان رأيه أن «الصفقة سوف تُشَجِّع عوامل التَطَرُّف فى سوريا وتجعلها تظن أن لحظة إلقاء إسرائيل فى البحر قد حانت، ولم يَبْق إلا فَتْح النار».

وقد كَرَّرَ أكثر من مرة تعبيراً استوقفتنى صورته، وهو قوله إن: «سوريا موقع حاكم فى الشرق الأدنى. هذه أكبر حاملة طائرات ثابتة على الأرض فى هذا الموقع الذى هو نقطة التَوازُن تماماً فى الإستراتيجية العالمية».

ثم يضيف «دالاس»: «هذا موقع لا يجازف به أحد... ولا يلعب فيه طَرَف»!]

....

....

□ □ □

كانت مصر قد سبقت المنطقة إلى فكرة الدولة الوطنية، وكانت البداية مشروع «محمد على» لتأسيس خلافة عَلَوِيّة تحل فى إستانبول محل الخلافة العُثمانية فى قصور «يَلدِز»، وعندما ضُرِب مشروع «محمد على» فإن ما بَقِى منه كان شِبْه دولة داخل حدود مصر خاضعة لسلطان الخليفة العُثمانى، حتى وإن مَلَكَت نوعاً من الاستقلال الإدارى عن بابه العالى. ثم جاءت تجربةُ «رفاعة رافع الطهطاوى» ومَدرَسَتُه فتَوَلَّت تحويل شِبْه الدولة الخاضعة للسلطان العثمانى - إلى شِبه دولة حديثة تُجَرِّب مَقولات الفصل بين الدين والدولة، وبين السلطات وبعضها، وبين سيادة القانون وسَطوة الحاكِم أياً كان لَقَبُه: أميرا أو «خديوى»- سُلطانا أو مَلِكا!

وتَعَثَّر تَصَوُّر «رَفاعة رافع الطهطاوى» ومَدرَسَتُه لأن القرن العشرين وحروبه العالمية، وأزماته الاقتصادية، واختراقاته العلمية والتكنولوجية، أثبت أن أجنحة الدولة القُطرية لا تستطيع أن تُحَلِّق وتطير عالياً وإلى بعيد.

....

....

وفى بدايات القرن كان الفكرُ السياسى فى «الشام» قد سَبَقَ - إلى فكرة القومية العربية تأصيلاً تاريخياً وعَمَلِيّاً لواقِعٍ ومُستَقبَلِ أمّة، وفى نفس الوقت فقد كانت هذه الفكرة حَلاً صائباً لتصحيح أوجُه القُصور فى مشروع الدولة القُطرية. وكان أن خَرَجَت الدول العربية كلها - أو مُعظمها - من الحرب العالمية الثانية مُقتَنِعة بالفكرة القومية، وكان أهَمُّ توقيع على ميثاق الجامعة العربية هو توقيع «مصطفى النحاس» (باشا) زعيم حِزب «الوفد» المصرى، وكان معناه أن الدولة الأسبق فى تجربة الدولة الوطنية قد وَصَلَت إلى قبول الفكرة القومية أرضِيَّةً لمرحلة حضارية تَخوض امتحان عُصور مُستَجَدّة.

ولم يكن إنشاء جامعة الدول العربية بكل دلالاته اكتشافاً وَقَعَ فجأةً، فقد سبقته مُباشَرَةً ومَهَّدَت له حركة قديمة جديدة لم يَتَوَقَّف مَسْعاها وإن تَعَطَّلَ أحياناً، وهى حَرَكة تَصِلُ إلى نَوْعٍ من شبه الالتحام (الأمنى والثقافى والاقتصادى والإدارى) بين مصر والشام. وكانت العلامات البارزة لهذه الحركة القديمة الجديدة نشأة الصحافة العربية فى مصر (فى القرن التاسع عَشَر)، ونشأة المسرح، والانتقال فى الترجمة عن أوروبا من

مجال الأدب والقانون («موليير» إلى «فولتير») إلى مجال العلوم ونظرياتها («داروين» إلى «آينشتين»).

....

....

وعندما احتَدَم الصراع زَمَن الأحلاف العسكرية الغربية بين القاهرة وبغداد، فإن الصراع كان على «الشام» - أى سوريا وما حولها. وكان مُخَطَّط حِلف بغداد أنه إذا دخلته سوريا فقد دخله لبنان ولو مُتَرَدِّداً، ودخله الأردن دون تَلَكُّؤ وحتى مُتَعَجِّلاً. ومن ثم يَتَحَقَّق حسم الصراع فى الشرق الأوسط لصالح الولايات المتحدة وحلفائها.

وتكاثفت الضغوط واشتدت على سوريا، وتصورها الاتحاد السوفيتى والموالون له فى المنطقة - بالدَعاوى الماركسية أو بالانتهازية السياسية - فرصة للقفز إلى قلب العالم العربى فى دمشق، وكلهم يَعتَمِدُ على حركة شيوعية نشيطة مَدَّت فروعها من الحياة المدنية بطوائفها إلى الحياة العسكرية بأسلحتها.

وكذلك فإنه فى سنة ١٩٥٧ دَخَلَ إقليم الشرق الأوسط كله فى لحظة مواجهة خطرة بسبب سوريا.

وفى حين أن الهاشميين فى بغداد رأوا إنقاذ سوريا من الخطر الشيوعى بتحريض تركيا على غَزوِها - بالتَواطُؤ مع رئيس الوزراء التركى وقتها «عدنان مندريس»...

فإن القاهرة اتَّسَقَت مع التاريخ حتى قبل نضوج عوامله الموضوعية، وقبلت بوحدة اندماجية مع سوريا كان دافِعُ القاهرة إليها فى ذلك التَوْقيت خوفها على سوريا من حركة فِعل ورَدِّ فِعل بين مطامع الشيوعية العالمية - ومَطالِب الهَيْمَنة الأمريكية.

....

....

[ويَوم وَقَّعَ «جمال عبد الناصر» مع «شكرى القُوَّتْلى» (رئيس جمهورية سوريا) اتفاقية الوحدة بين مصر وسوريا (فبراير ١٩٥٨) فإن أقلام التوقيع لم تكد تفلت من أصابع الذين وَقَّعوا حتى صاح «شكرى القُوَّتلى» قائلا لـ«جمال عبد الناصر»: «الآن وقد وَقَّعت (اتفاقية الوحدة)، أريدك أن تعرف ماذا تَسَلَّمْت ؟

تَسَلَّمْت شعباً نِصفُهُ من الساسة المُحتَرِفين .. ورُبْعُهُ من القادة والزُعماء».

وتَرتَفِع نَبْرة صَوْت «شكرى القُوَّتلى» ويُضيف: «والرُبْع الباقى ـ لعلمك ـ رُسُلٌ وأنبياء، أو هكذا يَتَصَوَّرون...

هنيئاً لك»!]

....

....

□ □ □

فى خضم هذا القَوَران أصبحت دمشق فى الوِجْدان العربى المعاصر: «قلبَ العروبة» الذى يَدُق ـ والوَطَن الأكثر تَسَيُّساً من غيره ـ والموقع الأطول صموداً لأنه مَكمَنُ الوعى، وهكذا فإنه لم يصبح بؤرة الصراع فحسب وإنما دائرة الخطر أيضاً. وهنا كان اختِلاف سوريا عن غيرها.

وعلى سبيل المثال فإن طبيعة مصر تجعلها بعيدة، وأحياناً متباعدة. وهى فى أحوال كثيرة مُتَأثِّرة بعزلتها وراء سيناء وعلى ضفاف النيل الذى تحاصره الرمال من كل ناحية، وهو ما رَسَّخَ سلطة الدولة المركزية فيها. ثم إن مصر من مَطالِعِ هذا القرن مأخوذة بميراثها الفرعونى يُخَيِّل إليها أن لديها شيئاً لم يتوافر لغيرها ـ وهو العُمْق الحضارى (ناسية أن المنطقة عاشت حضارات أخرى لا تَقِلُّ عُمْقاً، لكن تلك الحضارات كما يحدث عادةً صَبَّت ما عندها فى المَخزونِ المُشتَرَك للإنسانية كلها).

ويَتَرَتَّب على ذلك أن مصر على استعداد فى بعض الأحيان لأن تعزل نفسها عن الإقليم (بدعوى التَفَرُّد) قبل أن يقوم الآخرون بعزلها (بمطلب الانفراد خصوصاً بالشام).

....

....

ثم حَدَثَت نَقلة مُهِمّة وهى أن ظروف البلدين (مصر وسوريا) تلاقت مع مزاج الرجلين اللذين تصادف وجودهما على القمة (فى القاهرة ودمشق) خلال لحظةٍ حَرِجَةٍ من تاريخ الأمة (١٩٧٠-١٩٧٣).

□ أحدهما وهو الرئيس «الأسد» كان بالتعليم والتكوين عسكرياً مارس الخِدمة عِلماً وتجربةً فِعليّة.

(وهو هنا يختلف عن الرئيس «السادات» مثلاً الذى دَرَسَ العسكرية سِتّة شهور (بسبب

الحاجة المُلِحّة إلى تَخريج ضُبّاط فى ظروف الحرب العالمية الثانية)، ثم مارَسَ الخدمة سنة واحدة فُصِلَ بَعدها من الجيش).

□ يَلحَق بذلك أن الرئيس «الأسد» انتَظَمَ عقائدياً فى إطار حِزبٍ قومى هو حزب البعث العربى الاشتراكى.

(وهنا أيضا يختلف الرئيس «الأسد» عن الرئيس «السادات» الذى كانت نشاطاته السياسية جَوّالة - من التعاون مع الألمان - إلى العَمَل مع رجال القصر - إلى الالتحاق بحركة الضباط الأحرار).

ومُؤَدّى ذلك أن الرئيس «الأسد» كان أقرب إلى نَوْعٍ من «الثبات»، فى حين أن الرئيس «السادات» كان - طِبْق وَصفٍ استَعمَلَه عنواناً لقصة حياته - مَشغولاً بـ«البحث عن الذات».

وبالتقاء مزاج الرئيس «الأسد» مع ظروف «الشام» التاريخية - فإن التصالح مع إسرائيل كان نوعاً من شِبْهِ المُسْتَحيلات.

وأما بالتقاء مزاج «الباحِث عن الذات» مع ظروف مصر المُتَرَدِّدة فى أمر هويتها - فإن القفزة الواسعة لم تكن مُسْتَحيلة!

وبالتالى فإن الرئيس «السادات» فى مصر كان يستطيع أن يعقد اتفاقاً مع إسرائيل وتكون من ذلك صدمة لبقية الأمة العربية، ويكون بعد الصَدمة انفراد مصر بحَلٍّ يؤدى إلى استحالة الحرب بين العرب وإسرائيل، دون أن تَعنى استحالة الحرب بالضرورة نهاية الصراع العربى - الإسرائيلى. وأما «حافظ الأسد» فى سوريا فقضية أخرى:

لأن سوريا هى الجَسَد التاريخى الذى تَنبض فيه حياة «الشام» المُسْتَوعِبة لفِكرة وتاريخ المنطقة.

- وفلسطين «سُرَّة» هذا الجَسَد بوصفها جنوب «الشام».

- وحتى إذا تفاوض الفلسطينيون مباشرة مع إسرائيل وتوصلوا إلى اتفاق، فإن أى نفاذ إسرائيلى على الأرض يحتاج كى يُؤَمِّن نفسه إلى إعادة هَندَسة جَسَد «الشام» التاريخى وإعادة تَركيبه ولو بجِراحة زرع الأعضاء أو إعادة تخليقها بحَقن الخلايا!

ومن ثم فإنه إذا صالَحَت مصر تَعَطَّلَت إمكانية الحَرب، وأما إذا صالَحَت سوريا تَعَطَّلَ

الصراع - ويزيد على ذلك أنه إذا صالح «الشام» - لم يَعُد لغيره حجة فى استمرار الخصام!

....

....

وعلى هذه الأرضية، وأمام هذه الخلفية، تَصَوَّرَ الرئيس «حافظ الأسد» أن ظروف سوريا تعطيه شيئاً لم يُتَح لغيره من المتفاوضين مع إسرائيل (مصر - الأردن - منظمة التحرير)، وذلك أنه حين يَتَحَرَّك الآن بمنطقِ «لا بُد مما ليس منه بُد» لا يقف تماماً فى الموقف الذى وَقَفَ فيه غيره ممن سبقوه إلى تلك المائدة التى تنتظر فى حديقة البيت الأبيض، والتى تَمَّت عليها من قبل ثلاثة تَوْقيعات: مصرية، ثم أردُنية، ثم فلسطينية!

والسَبَب أن سوريا، «الشام»، كَيانٌ من نَوْعٍ آخر، وبَصمَةٌ غير عادية!

دمشق وهواجسها بين الانتظار والحركة!

لم تكن هناك ـ فيما أحسب ـ مفاجأة فى القرار السورى الذى أُبْلِغَ إلى «مادلين أولبرايت» أثناء زيارتها لدمشق ولقائها بالرئيس «حافظ الأسد» يوم ٧ ديسمبر ١٩٩٩، لأن المفاجآت لا تحدث إلا عندما تَنكَشِف الأسرار رغم حِرصِ أصحابها على إخفائها. وفيما يتعلق بسوريا فإن إخفاءَ الأسرار صَعبٌ لسببٍ رئيسى ينطبق عليها كما يَصدُق مع غيرها ـ ومُلخَّصه أنه حين تكون الضرورات الإستراتيجية لبلدٍ من البلدان مرئية بالكامل للعيان وفى إقليم أوسع من رُقعَةِ هذا البلد، ثم يكون التأثير فى نفس الوقت مُتَبادَلاً بين هذا البلد وبين الإقليم المحيط به ـ فإن السياسات الإستراتيجية يصعب أن تكون سرّاً، وما يمكن إخفاؤه فى هذه الأحوال هو شكل التفاصيل وليس مجمل الموضوع، وهو اتِّساع الخطوة وليس اتجاه الحركة.

ويمكن أن يقال أن إستراتيجية سوريا تحت حكم الرئيس «حافظ الأسد» مَرَّت بثلاث مراحل ـ كانت كلها ظاهرة فى شكلها الإجمالى بصرف النظر عن غيبة بعض التفاصيل:

□ مرحلة أولى ـ بَدَأت من التحضير لحرب أكتوبر ١٩٧٣ إلى اغتيال الرئيس «السادات» سنة ١٩٨١.

□ ومرحلة ثانية ـ بدأت من أعقابِ ذلك الاغتيال سنة ١٩٨١ إلى سنة ١٩٩٠ـ حين دَخَلَ العراق إلى الكويت.

□ ومرحلة ثالثة ـ بدأت من مشاركة سوريا فى قوات التحالف ضد العراق سنة ١٩٩٠ ـ ومَشَت إلى نهاية التسعينات.

□ □ □

فى المرحلة الأولى (١٩٧٣ ـ ١٩٨١) استطاع «حافظ الأسد» و«أنور السادات» أن يقيما بينهما علاقة سوية وبالتالى قوية لأنها مَلَكَت كافة شروط العلاقة السوية القوية، وبينها:

ـ أن تكون العلاقة بين أطراف مُتَكافِئين، يعرف كل منهم حدوده وحدود الآخرين.

- وأن يكون الجامع بين الأطراف هَدَفاً واضحاً، لكلٍ منهم مصلحة فيه مُتَّفقة.

- ثم أن يكون دَور كل طَرَفٍ فى تحقيق الهَدَف واضحاً على الأرض بغير التِباسٍ أو افتِعال.

وبالنسبة لـ«السادات» و«الأسد» فإن رحيل «جمال عبد الناصر» سنة ١٩٧٠ - وهذه إحدى مفارقات القَدَر - غَيَّبَ عن الساحة رَجُلاً كان يَشغَل حيزاً غير عادى فى تَقديرِ الأمة وفى تَقديرِ العالم، وكان هذا الحيز غير العادى - حتى ولو لم يشأ صاحبه - يؤدى إلى حصر وتهميش آخرين - رغم مزايا قد تكون عندهم.

وبعد الانفصال بين مصر وسوريا سنة ١٩٦١ - لم يكن فى مقدور أى رئيس سورى أن يتعامل نداً لند مع «جمال عبد الناصر»، ولعل ذلك هو السبب الذى فرض على السياسة السورية بعد الانفصال أن تُؤجِّل البَتَّ فى موضوع رئيس الجمهورية، وأن تكتفى بـ«ترتيب مؤقت لرئاسة الدولة» ظَلَّ باقياً حتى رحيل «جمال عبد الناصر»، وحينئذ فقط عاد منصب رئيس الجمهورية ليطرح نفسه على السياسة السورية، وهنا أصبح «حافظ الأسد» رئيساً بعد وضعٍ مُلتبسٍ طالَ تِسع سنوات.

وكذلك فقد كان من السهل على رئيس جديد فى سوريا هو «حافظ الأسد» أن يتعامل مع رئيس جديد فى مصر هو «أنور السادات».

وهكذا كان عنصر المساواة متحققاً، وكذلك وِحدة الهدف - وفى الحقيقة فإن شرعية الرجلين: «الأسد» فى سوريا و«السادات» فى مصر - أصبحت شرعية واحدة مُعلَّقة بمعركة بدأ الاستعداد لها من اليوم التالى لنكسة سنة ١٩٦٧.

وفى ذات الوقت فإن طبائع الجغرافيا أعطَت لكل واحدٍ من الرَجُلين جَبْهَةً يعمل عليها بتنسيقٍ مُلتَزِمٍ مع الجبهة الأخرى، ودون حاجة إلى ما هو أكثر من التنسيق والالتزام.

وإنصافاً للرجلين فإن العلاقة بينهما توطدت بثقة أعطاها كل منهما للآخر، خصوصاً عندما بدا للجميع فى أوائل سنة ١٩٧٣ أن الاحتكام إلى السلاح هو الخيار الوحيد الذى لم يَعُد منه مَفَر!

....

....

وأستأذن هنا فى الانتقالِ إلى رواية شخصية مُباشِرة...

....

....

ففى صيف سنة ١٩٧٣ لم يَعُد لدىّ شَكٌّ فى أن «أنور السادات» داخِلٌ إلى معركة، لكن الهواجس ظلَّت تراودنى أحياناً فيما إذا كان نفس الشىء ينطبق على الرئيس «حافظ الأسد».

وأشهد أن الرئيس «السادات» كان أكثر يقيناً وأصدق حُكماً، وكان رأيه باستمرار: «إن حافظ سوف يدخل المعركة معى فى نفس الدقيقة»!

وحَدَثَ بيننا (سنة ١٩٧٣) مَشهَدٌ ـ سَمَحتُ لنفسى فيما بعد (سنة ١٩٧٥) ـ أن أرويه للرئيس «حافظ الأسد».

....

....

كنا فى الأسبوع الأول من شهر سبتمبر ١٩٧٣ ـ قبل موعد المعركة بشهرٍ كاملٍ أو أكثر ـ فى استراحة «برج العرب»، وقد وصلت إليها وكان الرئيس «حافظ الأسد» يغادرها بالهليكوبتر إلى مطار «جاناكليس» يركب طائرته الكبيرة التى تنتظره هناك عائداً إلى دمشق. ولقيت الرئيس «السادات» عائداً من الموقع الذى تهبط فيه وتُقلِع منه طائرات الهليكوبتر («هليوباد») ـ داخل حَرَم استراحة «برج العرب»، وبادرنى الرئيس «السادات» ـ ربما رداً على سؤالٍ لم ينطق به لسانى بَعد لكنه تَوَقَّعه: «لقد اتفقنا على كل شىء. حتى يوم بدء المعركة، ولم يبق غير ساعة الصفر وقد تركناها لآخر لحظة يُحَدِّدها أحمد (يقصد الفريق «أحمد إسماعيل على») مع شكّور (يقصد اللواء «يوسف شكّور» رئيس هيئة أركان حرب الجيش السورى، وكان هو الذى وَقَّعَ على الخُطَطِ مع الفريق «أحمد إسماعيل على»)».

ولاحَظَ الرئيس «السادات» سكوتى عن التعليق، ودعاه ذلك إلى ملاحظةٍ سألنى فيها عما يَجول فى فكرى.

وقلت ما معناه: «المشكلة أننى حتى الآن لا أستطيع أن أطمئن بالكامل إلى حزب البعث»؟

ثم استدركت: «لعلها مواريث تجارب سابقة فى التعامل مع الحزب فى سوريا قبل الوحدة وأثناءها وبعدها».

ثم أضَفتُ بعد ذلك قائلاً إنه «يصعب علىّ أحياناً أن أرى الناس يتصرفون خارج الظروف الموضوعية التى تحيط بهم، ويخطر ببالى أنه من الصعب علىّ أن أرى الرئيس «حافظ الأسد» كما تراه أنت». ثم زِدتُ على ذلك بما عَنَّ من هواجِسى!

واحتَجَّ «أنور السادات» علىَّ بصوتٍ عالٍ ونحن ما زلنا نمشى عائدين من مهبط الهليكوبتر («هليوباد») نحو مبنى استراحة فى «برج العرب» قائلا: «لا... لا... لا... أنت «غَلطان»... حافظ نَوْعٌ آخر تماماً».

....

....

وظُهر يوم السبت ٦ أكتوبر ١٩٧٣ تَركتُ قاعة اجتماع مجلس تحرير «الأهرام» فى الساعة الثانية عشرة والنصف، وعُدتُ إلى مكتبى ألوذُ به حتى لا يبوحُ تَصَرُّفٌ أو تَفلت منى كلمة ـ بالسِرِّ الذى كان على وَشَك أن يُعلِن عن نفسه بالنار فى المنطقة بعد ساعةٍ ونِصفِ الساعة تماماً.

وكنت مُتَأكِّداً أن صوت الانفجار سوف يدوى على قناة السويس ـ لكنى حتى هذه اللحظة لم أكن مُتَأكِّداً أن نفس الصَوْت سوف يدوى فوق هَضَبَة الجولان.

وقبل الساعة الثانية بسَبع دقائق مشيت من مكتبى إلى القسم الخارجى أقِف بجوار أجهزة الـ«تيكرز» الموصولة بوكالات الأنباء العالمية.

وفى الساعة الثانية إلا دَقيقة واحدة هَروَلَ إلى حيث كنت أقِف الأستاذ «ممدوح طه» رئيس قسم الأخبار وفى يَدِه إشارة التقاط نقلها قسم الاستماع عن إذاعة القاهرة تُعلِن بدء عملياتٍ على الجبهة المصرية (قيلَ أنها لصدٍّ هجومٍ إسرائيلى «على مَواقِعِنا»)، وتظاهرت بقراءة النَص، فقد كنت أعرف ما فيه لأنى شاركت مع السفير «أشرف غربال» ـ المستشار الصحفى للرئيس «السادات» وقتها ـ فى إعدادِ صيغته قبلها بثلاثة أيام.

وفجأة دَقَّ جَرَسُ جهاز الـ«تيكرز» التابع لوكالة الأنباء الفرنسية ـ ولحقه على الفور جهاز وكالة «الأسوشيتد برس» ـ وكلاهما يُنَبِّه إلى أن المُدَرَّعات السورية تَتَقَدَّم على هضبة الجولان مُندفعة فى اتجاه السفوح الواصلة إلى بحيرة «طبرية».

....

....

وتَطَوَّرت الظروف ـ أو تَدَهْوَرَت ـ بعد ذلك، حتى جاءت النتائج مختلفة عن المُقَدِّمات وآلَت قضية الحرب والسلام فى الشرق الأوسط إلى عُهْدَةِ «هنرى كيسنجر»، ثم وَقَّعَت مصر اتفاقية فَك الارتباط الأولى مع إسرائيل، وكانت تلك بداية الحلول المُنفَرِدة فى الصراع العربى الإسرائيلى.

وساءت وتَوَتَّرَت العلاقات بين الرجلين: «أنور السادات» و«حافظ الأسد».

....

....

ثم تَصادَفَ أننى التقيت بالرئيس «حافظ الأسد» فى شهر فبراير ١٩٧٥.

وكنت قد تَرَكتُ مكانى فى الأهرام مُخْتَلِفاً مع الرئيس «السادات» ـ لكننا حتى ذلك الوقت حَرِصنا على حفظ الصِلة بيننا بحيث لا تنقطِع ولا تَظهَر قطيعة أمام الناس [وذلك لسوء الحظ ما حَدَثَ بعد ذلك ابتداءً من اتفاق فك الارتباط الثانى ـ أغسطس ١٩٧٥ ـ حتى تَفَجَّرَ الخِلاف بعد توقيع اتفاقية «كامب دافيد» فى ٢٦ مارس سنة ١٩٧٩].

وهكذا فإننى حين التقيت الرئيس «حافظ الأسد» (لحوار طالَ ستِ ساعات) فى فبراير سنة ١٩٧٥ ـ كان ظاهر الأمور يشير إلى أن الصِلة بين الرئيس «السادات» وبينى قائمة رغم خِلافاتٍ حول سياساته.

....

....

ولعله من ظاهر استمرار الصِلة بين الرئيس «السادات» وبينى ـ أن الرئيس «الأسد» فَتَحَ معى موضوع علاقته مع صديقه وحليفه فى المعركة، وأسهَبَ وأطال لأنه كان حريصاً على أن تكون صورة الوقائع من ناحيته جلية وكاملة.

وقد بدأ الرئيس «الأسد» فى ذلك الاجتماع فأثار القصة الشهيرة لما يُسَمِّيه «خديعة الرئيس السادات» له فى تنفيذ خُطَط المعركة ـ ومُلَخَّصها: أنه اتَّفَقَ معه ـ تَوقيعاً على خرائط ـ أن يكون تَقَدُّم الجيوش المصرية إلى خط المضايق (طِبْق الخطة «جرانيت ٢»).

وعلى هذا الأساس تَقَرَّرَ مدى اندفاع المدرعات السورية نحو بحيرة «طبرية» ـ وإلى اتجاه الجليل.

لكنه فى يَوْمِ المعركة تَبَيَّنَ أن أمـر الرئيس «السادات» للفريق «أحمد إسماعيل على» كان التَقَيُّد بخطة «جرانيت ١»، أى العبور بقوة خمس فِرَق مُوَزَّعة على رؤوس ثلاثة كبارى. إلى الضفة الشرقية للقناة والتمسُّك بها فى حماية حائط الصواريخ.

ونتيجة لذلك التغيير فى الخُطَطِ وِفْق تقدير الرئيس «الأسد» فإن القوات الإسرائيلية استطاعت أن تُرَكِّز مجهودها الرئيسى خلال الأيام الثلاثة الأولى للمعركة على الجبهة السورية وحدها.

واعـتَـبَرَ الرئيس «الأسـد» أن ذلك «مُنـاقضٌ للاتفـاق بينه وبين الرئيس السـادات»، إلى جانب أنه «مُـخالفٌ لروح التحالف بين جيشين تحت قيادة واحدة بمقتضى خطة واحدة»، فضلاً عن أنه «تَفريطٌ فى التضامن القومى ودواعيه المصيرية».

وصـحـيح أن الرئيس «السـادات» حـاول أن يتدارك خطأه الأول بتطوير الـهـجـوم على الجبهة المصرية يوم ١٤ أكتوبر. لكن الوقت كان متأخراً لأن التركيز على القوات السورية فى الأيام الثلاثة الأولى اسـتطاع أن يُؤَثِّر على قُـوَّة المدرعـات السـورية، التى انفَـرَدَ بهـا الطيَران الإسرائيلى وأصابَها بخسائر جسيمة.

....

....

(ولسـوء الحظ فإن فَـهمى للقُوَّة التعـاقُدية لخُطط عُسْكرية مُشـتركة لجيوش أوطان متعددة تحت قيادة واحدة، والنَظَر إلى ساحة إستراتيچية، ومدى إستراتيچى - أوسع - كان يَجعلنى أقرب إلى فَـهْم الرئيس «الأسـد»، وبالفعل كانت تلك واحدة من النقاط السـاخِنة فى مناقشـاتى تلك الأوقات مع الرئيس «السادات»).

....

....

[وكانت وِجْـهَة نَظر الرئيس «السـادات» أثناء مناقشـاتنا - ومن حَقِّه أن أُسَجِّلَها له لأن القضية دقيقة وحَسَّاسة - تَتَلَخَّص فيما يلى:

١- أن أمـرَهُ إلى الفـريق «أحـمـد إسـمـاعـيل على» كـان تنفـيـذ هذا الجـزء الأول من الخطة (جرانيت ١) والرجوع إليه بعد ذلك لإعادة تقدير الموقف على ضوء التطورات (وذلك سِرُ ما سُمى فى ذلك الوقت «وقفة تَعبَوِيَّة للجيش المصرى»).

٢ـ أن نجاح عمليات العُبور فاق كل تَصَوُّر، وأصبح من الضرورى كأولوية تسبق غيرها ـ العَمَل على تدعيم رءوس الكبارى للمُحافَظة عليها من أى هَجَمات إسرائيلية مُضادة.

٣ـ أن شُغلَه الشاغل فى تلك الساعات الأولى للحرب كان وفق تعبيره «المُحافظة على حَجْم انتصارى» (يقصد حَجْم نجاح العُبور) لكى لا يتأثر بأى «مُغامرة» إضافية، ثم تَتَبَدد ثِقَة تَوَلدت فى نفوس كل الناس نتيجة نجاحُ العُبور.]

....

....

والآن ـ فبراير ١٩٧٥ ـ لم أشأ أن أصُبَّ على النار زَيْتاً يزيد اشتعالها.

وهكذا كان اقتراحى على الرئيس «الأسد» أن ما يثيره الآن مَضى زمانه، والأوْلى منه بالاهتِمام ما هو جارٍ الآن.

....

....

وانتقل الرئيس «الأسد» فى حديثِه إلى «ما هو جارِ الآن»، وأهمه المفاوضات لتحقيق فك اشتباك أول على الجبهة السورية، وفك اشتباك ثانٍ على الجبهة المصرية تعقبه خطوة مماثلة على الجبهة السورية طبقاً لسياسة الخطوة خطوة التى اقترحها، وفَرَضَها، «هنرى كيسنجر». وكان رأيه أن الرئيس «السادات» بادى اللهفة، شديد العَجَلة ـ وهذا يُوقِعه فى المَزالِق، فإذا اعترَضَ عليه أحَدٌ تَفَجَّرَت عَصَبيَّتُه.

وهنا تَوَقَّفَ الرئيس «الأسد» عند خاطِرٍ تَداعى إلى فِكرِه، وكان تَوَقُّفُه طويلاً بما يُظهِر مَدى اهتمامه ـ أو ضيقه ـ بما تَرَدَّت إليه العلاقات بينه وبين صديقه القديم، فقال ما مُؤَدَّاه: «إن الرسائل التى يتلقاها من السادات تحمل عبارات لا يصح استعمالها فى المُراسَلات بين رؤساء الدُوَل».

وأضاف الرئيس «الأسد»: «إننى قلت له أكثر من مرة أننى أقبل منه كأخ وصديق أن يُصارِحَنى حتى بأدَقِّ مشاعره، لكنه مُطالَب بأن يفعل ذلك بنفسه أو عن طريق رسول مَوْثوق بيننا، ولكن أن تُكتَب مثل هذه العبارات بواسطة موظف على «الآلة الطابعة» «فهذا لا يصح»».

وقلت للرئيس «الأسد»: إننى أقَدِّر وجهة نظره وأراها صحيحة، لكنى أعرف «أكيداً» أن الرئيس «السادات يعتبره صديقاً حميماً، يحبه، ويثق فيه قَوْلاً وعَمَلاً.

ثم رَوَيْت له ما دار بينى وبين الرئيس «السادات» (سبتمبر ١٩٧٣).

وبدا أن الرئيس «حافظ الأسد» استغرب بعض ما سمعه مما زدت فيه، وكان تعليقه العفوى باللهجة السورية الحلوة: «شو... هيك قلت له؟»

ورَدَدتُ مُعتَذِراً: «الحقيقة أن ذلك ما قلته، وعلى أى حال فقد أثبَتَت تجارِب الأيام خطأ رأيى وصِدقَ رأى أنور السادات».

وضحك الرئيس «حافظ الأسد». وكانت تلك شهادة لسماحته وتَشَوُّقِه إلى تفاهُمٍ مع «أنور السادات»، ثم قُدرَتِه على أن يَضَع أحاديث المُناسَبات ومفارقات القَوْل فى حجمها الطبيعى.

□ □ □

والشاهد أن الرئيس «حافظ الأسد» تَصَرَّفَ طوال هذه المرحلة (من ١٩٧٣ إلى ١٩٨١) - بكفاءة مَدَّت خطوطه من لبنان إلى إيران، وهى خطوط جَعَلَت موقفَه عنصراً حَيَوِياً فى مُعادَلة إستراتيجية دقيقة فى الإقليم.

وربما أن إحساسه بفكرة «الشام التاريخى» هو الذى أعطاه الفُرصة كى يَتَحَرَّك فى المجال الذى مَدَّ خطوطه فيه.

لكنه كان يُواجِه مُعضِلة عويصة لأنه يحتاج أن يكون أكثر من عُنصُرٍ فى مُعادَلة إستراتيجية واسعة، بمَعنى أنه كان يحتاج إلى إستراتيجية لصراعاته هو فى «الشام»، وليس إلى دَوْرٍ فى إستراتيجية المنطقة بعُموم. لكن المُعضِلة أنه لم يكن من سوريا وحدها يستطيع أن يرسم إستراتيجية (للشام كله)، وإنما قصاراه أن يعطى نفسه حرية فى الحَرَكة التاكتيكية واسعة. ذلك أنه بدون وسائط للقوة الشاملة من ضمنها «إمكانية الحرب» - مجرد الإمكانية - لا يَقدِر بَلَدٌ من البلدان على رَسْمِ ما يمكن أن يُسَمَّى «إستراتيجية». ومع خروجِ مصر من أرضِ الصراع فإن أياً من كان فى دمشق لا يملك أن يُعطى نفسه خيارات إستراتيجية تَحمِل قدراً كافياً من المِصداقية.

وكان ذلك بالضبطِ مأزق الرئيس «حافظ الأسد» رغم أنه تَصَوَّرَ فى بعض سنوات تلك المرحلة (من ١٩٧٤ إلى ١٩٨١) - أنه يستطيع تعويض مصر، وأن يرسم إستراتيجية «من نوعٍ ما» فى غيابها.

وقد مَرَّ تفكيره فى ذلك على ثلاث محطات:

□ جَرَّبَ مع العراق - لكن التعقيدات الظاهرة والخفية بين جناحى البعث فى سوريا والعراق قَضَت على المحاولة بعد أسابيع.

□ وجَرَّبَ مع إيران - لكنه يَشعُر - وإن كان لا يقولها أبداً - أن الثورة الإيرانية تحاول دفعه إلى أبْعَدِ مما يُريد، ثم إن الدولة الإيرانية - بعد تَراجُعِ الثورة أمام ضرورات الدولة - أصبحت لها حساباتها، تلتقى أحياناً وتختلف أحياناً مع الحسابات السورية، لكنها فى كل الأحوال تَتَحَرَّك بمنطق قُوة أصيلة فى الإقليم من فجرِ تاريخه، لها فيه جذورها الحضارية، ولها فى ترتيب أوضاعه أولويات.

وعلى سبيل المثال فإنه بينما كانت طهران مُتَشَوِّقة إلى دمشق وقت الحرب العراقية الإيرانية، فإن إيران الدَوْلة - وذلك منطق الأمور - أبدَت فيما بعد شَوْقاً للقاهرة يُسابِق شَوْقَها لدمشق.

□ ثم كانت هناك - وطول الوقت - التجربة الإستراتيجية الأكبَر للرئيس «حافظ الأسد» مع الاتحاد السوفيتى، لكن سوء الحظ قضى أن القوة الأعظم الثانية فى العالم (الاتحاد السوفيتى) - تَهاوَت إلى حال يرثى لها. وكان التعامل مع موسكو فى أغلب الأحوال صعباً - لكن التعامل مع موسكو وثلوج الحرب الباردة تذوب - أصبح خطراً لا يستطيع طَرَفٌ أن يراهن عليه استراتيجياً (ولا حتى تاكتيكياً فى مسألة الإمداد بالسلاح).

وبرغم فَشَل هذه المحاولات الثلاثة لرسم إستراتيجية تحفظ نوعاً من التوازن مع القوة الإسرائيلية، فإن الرئيس «حافظ الأسد» ظَلَّ يحاول، وربما كانت لديه إلى جانب رؤاه الإستراتيجية ضروراته، مُتَعَدِّدة أسبابها ودَواعيها:

١- أن فكرة «الشام التاريخى» - فيما أحسَسْتُ - ماثلة فى فِكرِه وفى وِجدانِه، وخِشيَتُهُ أنه لو تخلى عنها باتفاق سورى إسرائيلى - أضاع من أرصدة سوريا ما يَستَحِق المحافظة عليه لظروفِ أخرى وليَوْمٍ آخر!

٢- أنه إذا توصَّلَ إلى حَلٍّ من نوع الحلول التى راجت فى المنطقة وقتها، فقد يُتَّهَم بالنظرة الضيقة تحافظ على السلطة للحزب (البَعث) وللطائفة (العَلَويين)، وهو أول من يدرك أنه إذا انفتح باب التَحَزُّب، وإذا انفتح باب التَشَيُّع للطائفة (فى الظروف السورية الراهنة) فإن «الشام التاريخى» قد ينفَرِط وبآثارٍ مُدَمِّرة على الأمة العربية كلها.

٣ـ كانت هناك ضرورة أكبر، وإن كانت الدعايات الإسرائيلية تحاول تحويل الأنظار عنها بكل الوسائل. تلك الحقيقة هى أن هضبة الجولان ليست مُجَرَّد تضاريس جغرافية، وإنما هى مَوْطِن ومَعاش لحوالى ثلاثمائة ألف سورى يسكنون فى مائتى قرية وضَيْعَة، والجزءَ الأكبر منهم الآن نازحون بعيداً عن بيوتهم وأهلهم. وللتغطية على محنَتِهِم ـ وقد مَرَّ عليها الآن أكثر من ثلاثين سنة ـ تحاول إسرائيل إن تُرَكِّزَ اهتمام العالم على بِضعة ألوف من المُستَوْطِنين الإسرائيليين يُقال إنهم لم يعودوا يطيقون فُراق الجولان بعد أن ألِفوا أجواءه (وتَعَلَّموا فيه تَربية التَماسيح!ـ وبالفعل فإن واحدة من المُسْتوطنات الإسرائيليات ـ «سالى بن شوشان» ـ أقامت فى إحدى بُحيْرات الجولان الصغيرة، مَزرَعة كبيرة رَبَّتْ فيها بِضع عائلات من التماسيح).

ومن المُدهِش أنه بين المقترحات الإسرائيلية الأخيرة اقتراح يقضى بأن تَقْبَل سوريا ـ حتى إذا عادت السيادة فى الجولان إليها ـ باستمرار وجود هؤلاء المُسْتَوطِنين فيها على أساس ترتيب من نَوْعٍ ما قبلت به الصين فى «هونج كونج» من بريطانيا، وفى «ماكاو» من البرتغال.

٤ـ وأخيراً فإن الرئيس «حافظ الأسد» الذى كان بنفسه وزيراً للدفاع فى سوريا سنة ١٩٦٧ حين تَمَكَّنَت إسرائيل من احتِلال هضبة الجولان ـ يشعر بمسئولية تكاد أن تكون شخصية عن استرداد كامل التراب الوطنى السورى. كما كان قبل ٩ يونيو ١٩٦٧ حين صَعَدَت الدبابات الإسرائيلية من السفوح إلى سَطحِ الهضبة.

....

....

وفى نهاية تلك المرحلة (١٩٨١)، وحين وَقَعَ اغتيال الرئيس «أنور السادات» ـ فإن الرئيس «حافظ الأسد» تَصَوَّر أن ما جرى على المنصة فى القاهرة تَزكِيةٌ لسياسته وتأكيدٌ لصِحَّة مُنطلقاتها.

ولعله خَطَرَ بباله أنه الآن فى موقف أفضل ـ مُتَمَسِّكٌ بالمبدأ ـ ثابتٌ على العهد ـ حاملٌ بمسئولية العروبة فى الشام التاريخى ـ حريصٌ على تأثيره ودَوْرِه فى الحركة العامة للقومية العربية.

وربما كان ظنه فى ذلك الوقت أنه «حتى لو تأخرت التفاعلات التى تَبَدَّت مقدماً اغتيال الرئيس «أنور السادات» ـ فإنه مُطالَبٌ بألا يُفَرِّط فى حق، وإذا كان لا يسد

الظروف الملائمة لاسترداد هذا الحق، فإن واجبه أن لا يُفَرِّطَ فيه بالتوقيع «على أى حَلٍّ والسلام»، والأنسَب من ذلك أن يترك الأمر لأجيال قادمة تستطيع توفير ظروف ملائمة - خصوصاً أن تواجد الجيش السورى بقوة فى لبنان يُؤَمِّن له نوعاً من سَدِّ الثغرات المحيطة بدفاعاته وخطوطها الحصينة.

وكذلك انتهت المرحلة الأولى (١٩٧٣-١٩٨١).

□ □ □

ومَضَت الشهور والسنون (فى المرحلة الثانية ١٩٨١-١٩٩٠) والأمور تمشى بعد اغتيال الرئيس «السادات» - كما كانت تمشى قبله.

وكان «حافظ الأسد» يتابع باهتمام مشاهد ظهَرَت أمامه قريبة وبعيدة، ثم يسمع ويصيخ السمع.

□ فالصُوَر تنقل إليه أن مصر تحتفل باستعادة سيناء. والأنباء تصله بأن الخلاف حول طابا تراضى - بعد التحكيم - على تَرتيبات قَبَلَ بها الأطراف. وهو يسمع كلاماً كثيراً عن إصلاح مالى. واستعداد لإعادة تعمير بِنْيَة أساسية، وأبواب مفتوحة للاستثمار. وما هو أهَمُّ من ذلك فهناك مناخ دولى يَتَغَيَّر ويظهر من بعيد أن مصر موجودة «فى مَواسِم الاعتِدال» مع الولايات المتحدة، ثم إن هناك رِياحاً غربية تحمل المساعدات إليها - لطيفة ومُنعِشة!!

□ وعلى الناحية الأخرى إلى الشرق، فإن الحرب العراقية - الإيرانية تَحَوَّلَت إلى عملية تدمير مُنَظَّم، وبالتالى فليس لدى سوريا على جناحها الشرقى سَنَدٌ إستراتيجى تستطيع الاعتماد عليه (هذا على فَرضِ أن العلاقات بين دمشق وبغداد فى هذه الظروف يمكن أن تَسمَح بتنسيقٍ إستراتيجى على أى مُستَوى!)

وفى الإطار الإستراتيجى الأوسع فقد تَأَكَّدَ له أن الاتحاد السوفيتى لم يسقط فقط، وإنما انفَتَحَ بدون عَوائق أو مَوانِع أو حتى تَحَفُّظات أمام الولايات المتحدة الأمريكية.

....

....

[وكان ذلك كابوساً لم يَخطُر على بالِ أحَد من الذين كانوا يزورون الاتحاد السوفيتى على مواقع القمة، ويسكنون قصور الكرملين، ويقفون على المنصة التى تعلو مقبرة

«لينين» وسط الميدان الأحمر ليشهدوا استعراضات الجيش السوفيتى، وفى المُقدِّمة منها كالعادة وحدات الصواريخ الثقيلة عابرة القارات ومُختَرِقة الفضاء إلى آفاق النجوم].

□ □ □

كان مَشهَدُ السقوط السوفيتى كله مُزعِجاً، بل إن المشاهد كلها كانت مُزعِجة.

وكذلك بدأ الرئيس «حافظ الأسد» يُدرِك يوماً بعد يوم أن حركة التاريخ لا تَتَجَمَّد فى انتظار لحظة تَتَبَدَّل فيها موازين القوى. خصوصاً إذا كانت لحظة لا يعرف أحد متى تجىء ؟!

ومرة أخرى عاد الرئيس «الأسد» يَفتَح سَمْعَه، وبالفعل سَمَعَ، وسَمَعَ من كثيرين.

....

....

وكانت الولايات المتحدة الأمريكية (خصوصاً وقت «هنرى كيسنجر») أكثر الراغبين فى الوصول إلى سَمْعِه عن تقدير علمى صحيح لفكرة «الشام التاريخى». وكانت واشنطن تعرف يقيناً أنه إذا انفَتَحَ «الشام التاريخى» المحيط بفلسطين (وهى جنوبه)، فإن مُعادلات الصراع سوف تتغير.

وفى الواقع فإنه يمكن أن يقال إن السياسة الأمريكية فى ذلك الوقت كانت تهدف قبل كل شىء إلى إخراج سوريا السياسية من إطار «الشام التاريخى»، وحينئذ تَتَغَيَّر معظم المُعادَلات!

وكان الرئيس «الأسد» يستَقرِئ النوايا، ويُعاوده تَوَجُّسُه.

وكانت تلك هى الظروف التى قال فيها «كيسنجر» عبارته المشهورة: «إننى أحِبُّ السادات ولكنى أحتَرِم الأسد».

والذى حَدَثَ بالفعل أن إدارات أمريكية مُتَعاقِبة: إدارة الرئيس «ريتشارد نيكسون»، وإدارة الرئيس «جيرالد فورد»، وإدارة الرئيس «جيمى كارتر»، وإدارة الرئيس «رونالد ريجان»، وإدارة الرئيس «جورج بوش»، وإدارة الرئيس «بيل كلينتون». اتَّفَقَت جميعاً على رأى واحد مُلَخَّصه أن المسار السورى هو الاتجاه الأساسى الذى يجب أن يحدث عليه الاختراق الرئيسى لأزمة الشرق الأوسط إذا كان لا بُد أن يَحدُثَ اختراق!

وكانت هناك أصواتٌ كثيرة من العالم العربى تَنصَح واشنطن بأن «المسار الفلسطينى» وليس «المسار السورى» هو طريق الحل، وبمنطق أنه إذا تَمَّت التسوية بين منظمة التحرير وإسرائيل فإن حالة «القداسة» (شبه الدينية) المحيطة بأزمة الشرق الأوسط سوف تنفك عقدتها، وبها تتنازل قيمة هضبة الجولان إلى مجرد «قطعة من العقار» سِعرُها مُتَهاوِد وسوقها تستطيع أن تنتظر - إذا زالَت عنها «قداسة» القضية!

وبرغم ذلك فإن الإدارات الأمريكية جميعاً ظلَّت على قَناعَتِها فى شأن سوريا وواصلَت الإلحاح، وكانت سوريا تصيخ السمع، سواء لما يجيئها من واشنطن مباشرة أو لما يجىء عبر وُسَطاء كَلَّفَتهُم واشنطن بالسَعىِ، وسَعوا بهِمَّةٍ أو سَعوا بفتور، وكانت دمشق تُفَكِّر وتُوازِن، وتَهِمُّ ثم تَقعُد.

....

....

[ومن العجائب أن واحِدًا من أهَمِّ الوسطاء فى تلك الظروف - وعلى أيام «بنيامين نتنياهو» - كان «رون لودر» أحد أصحاب شركة «إستى لودر» لصناعة مستحضرات التجميل - وقد ذهب «رون لودر» بعد عِدة زيارات لدمشق وتل أبيب لمقابلة الرئيس الأمريكى «بيل كلينتون» فى البيت الأبيض يَعرِضُ عليه مسوَدة اتفاق نهائى بين سوريا وإسرائيل، مؤَكِّدًا أنه حصل على موافقة الطَرَفين عليها - ثم تَبَيَّنَ أن المسودَة فيها من مَساحيق التجميل وألوانها ومن العُطور وأنواعها أكثر مما فيها من عناصر اتفاق سياسى ينتَهى به صِراعُ أقدار ومصائر!]

....

....

ثم بدأت الأنباء تَتَسَرَّب بأن مسالك انفَتَحَت وخطوطاً امتَدَّت بين منظمة التحرير الفلسطينية وبين الحكومة الإسرائيلية - لكن التقدير فى دمشق كان أن المُنظمة لا تستطيع بدون غطاء سورى من قلب «الشام التاريخى». وحاولت دمشق أن تبدو مُطمَئِنَّة واثقة، ثم رَجَحَت لديها كَفَّة الطمأنينة والثقة بقيام الانتفاضة، ولم يخطر ببال دمشق أن نفس هذه الانتفاضة سوف تكون الغطاء المطلوب لاتفاقٍ فلسطينى إسرائيلى سوف يجىء بعد سنتين!

□ □ □

وفجأة بدأت مقدمات التوتر فى الخليج... ثم كان يوم ١ أغسطس ١٩٩٠ حين اقتَحَمَ الجيش العراقى حدود الكويت، وبَدَت حكومات كثيرة فى المنطقة مُسْتَفَزّة، كما ظَهَرَت قطاعاتٌ من الرأى العام العربى مُسْتَثارة. والأخطر أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت مُتَحَفِّزة، والرئيس الأمريكى «جورج بوش» يرسم خطه المشهور على الرمال، ويطلق مقولته بأن «ذلك لن يستمر» (يقصد الاحتلال العراقى للكويت)، ثم يقوم التحالف الدولى الواسع، وتقوم بعض الدول العربية فيه بإعطاء شرعية للتدخل العسكرى الأمريكى تقنع نفسها أنه تفويضٌ لتحرير الكويت ثم تكتشف مُتأخِّراً أنه تفويض لتدمير العراق (وعلى أى حال فإنه لم يكن هناك اهتمام كبير بالاكتشافات العربية المتأخرة، ذلك أن رأى الدول العربية لم يَعُد مطلوباً بعد أن أعطت تفويضها!)

وفى هذه الأجواء، وترتيباً طبيعياً على تطوراتها وحقائقها، تأهَّبَت مدريد لاستقبال وفود «الصُلح التاريخى» -!- بين العرب وإسرائيل.

وقَصَدَ إلى مدريد وفدٌ سورى برأسه السيد «فاروق الشرع»، وكان خطابه العنيف المُوَجَّه إلى «إسحاق شامير» رئيس وزراء إسرائيل أيامها نوعاً من الاعتذار السياسى لفكرة «الشام التاريخى» لأن وريثته الطبيعية - سوريا - تَمَلمَلَت من طولِ الصبر وقَرَّرَت أن تختَبِر إغراء ما وراءه.

....

....

وكانت فترة ما بعد مدريد تجربة شبيهة بألعاب الـ«لونابارك»: سيارات صغيرة تتصادم على أرضية مُكهْرَبة، وعربات مُعَلَّقة على شكل خيول وطيور تلف حول محور، وأراجيح ترتفع وترتد براكبيها، ثم تلك اللعبة التى يسمونها «القطار الروسى» تصعد بركابها كأنها فى الطريق إلى قمة جَبَل ثم تهوى بهم كأنهم إلى عُمقِ قاع - وهكذا.

وقد بدأت المفاوضات بعد مدريد لقاءات مباشرة على مَسارات مختلفة: مَسار سورى - ومَسار لبنانى - ومَسار أردنى - ومَسار فلسطينى (وكله على أرض «الشام التاريخى»). والمَسارات كلها تبحث فى مشاكل الأرض والحدود، والأمن، والمياه، والسلاح، إلى آخره.

ثم مفاوضات مُتَعَدِّدة الأطراف علنية تشارك فيها أطراف مختلفة تمثل قارات الأرض جميعا، وهى تبحث فى أوجه من التعاون الإقليمى يبدأ فى معظمه وينتهى على هَدَفِ دمج

إسرائيل سياسياً واقتصادياً وثقافياً فى المنطقة، ثم ترك عوامل النفوذ والقوة تلعب أدوارها!

وكان التركيز الرئيسى بالطبع على المسارات المباشرة والتى انتقلت من وزارات الخارجية (الأمريكية فى معظم الأحيان) - إلى شبه مخابئ سِرِّيَة فى بيوت نائية واستراحات معزولة بينها «وايت بلانتيشن» (الذى استضاف السوريين أولاً - ثم استضاف الفلسطينيين - وبين الاثنين زاره الأردنيون).

□ □ □

وكان المُحزِن - وهذا ما رآه الرئيس «حافظ الأسد» وشعر بالقلق منه - أن المسارات العربية راحَت تتنافس مع بعضها، وكل واحد منها يريد الوصول مع إسرائيل إلى حَلٍّ يسبق به غيره.

وأسوأ من ذلك، فإن المسارات العربية كلها حرصت على السرِّيّة تجاه بعضها، وبالتالى فإن المفاوض الإسرائيلى وحده كان يعرف صورة كاملة لما يجرى على كل المسارات، فى حين أن كل طَرَف عربى لم يَزِد علمه على ما يجرى فى مساره - بل لقد كان من المشكوك فيه أن كل أعضاء وفد عربى شاركوا فى مسار - عرفوا ما فيه الكفاية مما يجرى عليه، لأن رؤساء الوفود كانوا يخفون أدَقَّ التفاصيل عن زملائهم، ثم إن بعض الوفود العربية لم تكن تعرف ما كان يجرى بين قياداتها السياسية وبين إسرائيل خارج «المسار»، ومن ذلك ما فوجئ به الوفد الفلسطينى المفاوض فى واشنطن حين تَفَجَّرَ من وراء ظهره نبأ اتفاق أوسلو (١٩٩٣).

....

....

وكان إعلان اتفاق أوسلو صدمة للرئيس «حافظ الأسد»:

- خرج مركز القضية (فلسطين) من إطاره الأوسع (الشام التاريخى).

- حَدَثَ ذلك بالانقِضاضِ ودون عِلمٍ مسبق منه.

- ثم إنه (انقضاض أوسلو) تَقاطع مع لحظة تَصَوَّر نفسه فيها قريباً (بنسبة ٨٠٪ كما قيل) من حَلٍّ مَع إسرائيل كان يريده شاملاً لالتزامات سوريا فى إطار «الشام التاريخى».

....

....

وتَبَيَّنَ الرئيس «الأسد» أن الحكومة الأمريكية لم تكن وراء اتفاق «أوسلو»، لم تكن مُحَرِّضة عليه ولا كان لديها عِلمٌ مسبق عنه. وذلك خَفَّفَ من صدمة المفاجأة عليه، ثم إنه تلقى من واشنطن ما يُفيد أنها ما زالت تعطى الأولوية الأكبر للمسار السورى، ومع أنه أحَسَّ بالضيق فإن شيئاً فى داخله أحَسَّ بالراحة، ربما لأنه تَخَفَّفَ من عِبءِ القداسة التى تثقل القضية الفلسطينية. وربما أيضاً لأنه لم يكن قد استطاع أن يُؤَقلِم نفسه بعد على اتفاق عَلَنى مع إسرائيل يجرى توقيعه على منصة فى الحديقة الخلفية للبيت الأبيض، كما فَعَلَ «السادات» قبله، وكما سوف يفعَل «عرفات» الآن (وكما سوف يفعل الهاشميون فى الأردن بعد أسابيع حين يَحزِمون أمرهم أخيراً على العلانية فى علاقاتهم مع إسرائيل).

....

....

وعندما لاحظ الرئيس «الأسد» أن اتفاق «أوسلو» يَتَعَثَّر (رغم ما فيه من سوء). وأن ما يحصل عليه الفلسطينيون لا يَزيد عن كيان دولة صغيرة تَمَزَّقَت أوصالها. وأن السياسة الإسرائيلية القائمة على فرض الأمر الواقع والتوسع فيه أصبحت بعد «أوسلو» أكثر شراسة مما كانت قبلها. فإن نَوْعاً من السكينة عاوَدَه لأنه لم يفعل مثل غيره، ولم يَندَفِع، ولم يَشرُد بعيداً كما فَعَلَ آخرون من قبل!

....

....

ثم تابَعَ الرئيس «الأسد» وحواسه كلها مُتَيَقِّظة حوادث الانفجارات المُتتالية فى القدس وتل أبيب ونهاريا (بفِعل المقاومة الإسلامية). ثم تابع اغتيال «إسحاق رابين» رئيس وزراء إسرائيل فى القدس، وتَقَدَّم «شيمون بيريز» لخلافته، واستحالة استمرار «بيريز» فى الحكم بتَواصُل الانفجارات، ثم أحَسَّ الرئيس «الأسد» بالنار تقترب منه بعد مذبحة «قانا» التى أظهرت «بيريز» مُتَطرِّفاً أكثر من كل المُتَطرِّفين. ثم كان أن أسفرت الانتخابات العامة فى إسرائيل عن فَوْزِ اليمين مُمَثَّلاً فى «بنيامين نتنياهو»، وبدا أن اللعبة الإسرائيلية تواصل دورتها كالعادة:

● اليمين الإسرائيلى (مُمَثَّلاً فى الحاخامات) يُحَقِّق بالاستيطان كل ما يمكن الحصول عليه من الأرض.

● واليسار الإسرائيلى (مُمَثَّلاً فى الجنرالات!) يُحَقِّق بالمفاوضات كل ما يمكن الحصول عليه من الأمن.

وفى الغالب فإن الرئيس «الأسد» لم يَشعُر بالصَدمة حين اندَفَعَ «شيمون بيريز» رئيس الوزراء الإسرائيلى (المنحوس فى كل انتخابات خاضها) إلى إظهار إحباطه بإعلان وَقف المفاوضات على المسار السورى مدعياً أن المفاوضات لا يمكن أن تسير جنباً إلى جنب مع القنابل - بل ربما أن الرئيس «الأسد» - بصرف النظر عن آمالٍ راوَدَتْهُ - لم يغضب كثيراً لتَوَقُّفِ المفاوضات مع إسرائيل.

ولعله فى تلك الفترة لم يجد بأساً فى العودة إلى سياسة الصبر والانتظار: فعَواصف البَرق والرَعد فوق المنطقة تُنذِر بتغييرات فى الطقس، وقد يَكتَشِف العالم العربى أن التَقَبُّل العاجز للعبة اليمين واليسار فى إسرائيل يحتاج إلى وقفة!

كان الصبر (على حركة الصراع تفعل فعلها المنطقى) وكان الانتظار (لحركة التاريخ تؤدى دورها السياسى) - لعبة «الأسد» المفضلة، وقد عادت الظروف إلى فَرضِها الآن عليه فَرضاً، وهو مُتَهَيِّئ نفسياً لقبولها. وأما الآخرون الذين تَعَجَّلوا، فهم المسئولون الآن أن يَجِدوا لأنفسهم غطاءً أو مَهْرَباً!

الإشـارة تصـدر من دمشق!

بعد شهور قليلة عادَ اتجاه الحوادث فى منطقة الشرق الأوسط يكشف مرة أخرى أن الصبر ليس سياسة لأن التطورات لا تكف عن التدافع (وإذا أراد طَرَفٌ أن يكف نفسه فهذا حقه، ولكن الحوادث سوف تواصل جريانها بطبائع الحياة). وفى نفس الوقت فإن الاعتماد على قوانين التاريخ صحيح ولكنه يحتاج معه إلى إدراك أن حركة التاريخ لا تقع من ذات نفسها (وهى شأن كل حركة تحتاج وقوداً، ووقود حركة التاريخ طاقة فِعلٍ إنسانى).

والشاهد أنه بعد أقل من سنة من توقف المفاوضات بين سوريا وإسرائيل وبقرارٍ من «شيمون بيريز» - بدا أن دمشق تبذل جهوداً محسوسة لتطويع مشاعرها الموروثة للواقعِ المُسْتَجَد حولها، مُحاوِلةً أن تَتَعلَّم - وقد تَتَأقلَم - على الحياة فى أجواءٍ جديدة.

● كان ملحوظاً - على سبيل المثال - أن سوريا جَرَّبَت مختلف المسالك إلى واشنطن، ثم بدا أنها تَوَصَّلَت إلى قناعة مُتَّفِقة مع عصر السوق تُحَبِّذ الاتصال مباشرة، وذلك أسلوبٌ راجَ فى عصرٍ أصبح فيه التعامُل على الخط "on line" الإلكترونى بالإنترنيت - ودون وَساطة - هو الأكفأ بين أى طرفين راغبين فى أى اتفاق.

وكانت إشارات التعامُل المباشر ملموسة أحياناً، مَحسوسة فى أحيانٍ أخرى.

● وعلى سبيل المثال فإن مندوبين سوريين حضروا مراسم توقيع اتفاقات بين أطراف عربية وبين إسرائيل - ولم تكن تلك هى العادة ولا كان ذلك هو المألوف - لكنه كان طلباً من الرئيس «كلينتون» للرئيس «الأسد» مُرفَقاً بابتسامةٍ تُضىءُ أمَلاً - ومُلحَقاً بإشارةٍ تُومِئُ إلى رسالة.

○ إن الرئيس «الأسد» احتفظ (سواء بحُسْنِ الظنِّ أو بحُسْنِ الفِطَن) برأى طيب ومعلن فى الرئيس الأمريكى «بيل كلينتون»، وحتى فى اللحظات التى هَوَت فيها سُمعة «كلينتون» إلى الحضيض فإن «الأسد» لم يَتَوَقَّف عن إظهار إعجابه بـ«كلينتون».

● ثم إن الرئيس «حافظ الأسد» بَذَلَ جهوداً هائلة لاحتواء استفزازات كان يمكن أن تؤدى إلى مضاعفات تنفلت بها أحوال الإقليم (مثلما حَدَثَ عندما أصابت الطائرات الإسرائيلية مواقع سوريّة بالعَمْدِ أو بالخطأ)، وفى ذلك فإنه كان يثبت لواشنطن أن سوريا هى عَقْلُ «الشام التاريخى»، كما هى قَلْبُه!

● تَرَتَّبَ على ذلك أن الجو أصبح مُعَبَّأً بإيماءات لم يحددها أحد بصراحة لفظاً بلفظ وحرفاً بحرف. لكن المعنى الإجمالى لها هو أن «السلام مع سوريا» سلامٌ عامٌ فى المنطقة، فإذا فتحت سوريا أبوابها فإن بقية الأبواب من الخليج إلى شمال إفريقيا سوف تَنْفَتِح، بما فى ذلك أن الأبواب المفتوحة سِراً سوف تَنْفَتِح جَهْراً، وذلك يضيف فارقاً نوعياً جديداً فى علاقة إسرائيل بالعَرَب جميعاً.

....

....

[وذلك ما أشارَ إليه «إيهود باراك» فى حديثه إلى تلفزيون الـ «سى. إن. إن» يوم الأربعاء ١٢ يناير ٢٠٠٠ حين قال «إنه من المفهوم أن الاتفاق مع دمشق سوف يَفْتَح أبواب «شِبْه الجزيرة العَرَبية» و«المَغرِب» كلها أمام إسرائيل سياسياً واقتصادياً».

(ومُعظَم المَغرب مَفتوح، بل وربما أن أبواب المَغرب سوف تكون هى المَدخَل إلى أبواب شِبْه الجزيرة العَرَبية، وذلك سَبَب زيارة وزير خارجية إسرائيل للمَلِك «محمد السادس» - مُباشَرَةً عَقِب عودته مع «باراك» من جَوْلَة المفاوضات الثانية يوم ١٢ يناير الأخير)].

....

....

□ □ □

كانت هناك بالإضافة إلى المَحسوسِ الملموسِ شواهد مرئية. لَمَحتُ بعض انعكاساتها فى زياراتٍ عديدة أخيرة لبيروت ودمشق.

□ بينها أننى قابَلتُ الرئيس «الأسد» مَرّتين فى تلك الفترة التى تَوَقَّفَت فيها المفاوضات بين سوريا وإسرائيل: مرة عند أول الوُقوف، ومرة أخرى قرب نهايته.

● فى المرة الأولى كان معظم حديث الرئيس «الأسد» عن تاريخ الصراع العربى

الإسرائيلى، وأحوال الأمة، ودور سوريا الخاص، والحوادث والرجال فى الإقليم، وكان شاغِلُه المُلِح: «ثم ماذا ؟ ـ وإلى أين ؟ ـ وما العمل ؟»

● وفى المرة الثانية كانت لدى الرئيس «الأسد» شَواغِل طارئة، وقد لَفَتَ نظرى أن الموعد الذى تَحَدَّدَ لى معه وأُبلِغَ لى كان الثانية عشرة ظهراً ـ لكن المرافق العسكرى للرئيس جاء إلىّ فى فندق شيراتون قبل الموعد بساعة ونصف الساعة يبلغنى أن «فَخامة الرئيس» ينتظرنى بعد رُبْعِ ساعة.

وحين التقينا قال الرئيس «الأسد» بابتسامته الهادئة وصوته الأكثر هدوءاً: «لقد كنت خَصَّصتُ لك هذا اليوم بطوله، وقد استيقظت مُبَكِّراً فى الصباح عارِفاً أنك أيضاً تنتظر موعدنا، وقلت لنفسى لماذا نُضَيِّعُ وقتاً؟ وهكذا أرسلت إليك «ولعلنا لم نُزعِجك» ؟

وقلت للرئيس بصدق: «إنه على العكس خيرا فَعَل، فقد جئت إلى دمشق للقائه، وبعد خروجى من مكتبه فإنى مُتَوَجِّهٌ إلى الحدود ـ إلى بيروت لساعات، ثم عائِدٌ إلى القاهرة..».

وطالَ حديثنا ذلك اليوم فاستغرق ثمانى ساعات، لكنه هذه المرة لم يتوقف طويلاً أمام تاريخ الصراع العربى الإسرائيلى، ولا عند دور سوريا الخاص، ولا عند حوادث الإقليم ورجاله ـ وإنما اتجه الرئيس «الأسد» إلى أحوال العالم والعصر. وتَعَرَّض تفصيلاً لأسباب وظروف ما جرى فى الاتحاد السوفيتى، وانفراد الولايات المتحدة بقمة العالم وسيطرتها، وظاهرة النمور الآسيوية وأزمتها، وتَفَوُّق صناعة الخدمات على صناعة الحديد والصلب. ثم حامَ (بمَزيجٍ من الدهشة والإعجاب) حول وسائل الاتصال الحديثة ودروبها السريعة على بحار الإنترنيت ومحيطاتها. ثم تَوَقَّفَ بأناةٍ وتدقيق أمام قضيتين كان لديه كثير فيهما يريد أن يَسْمَع عنه ويُناقِش: ـ عوامل صنع القرار فى الولايات المتحدة.

ـ عناصر صنع القرار فى إسرائيل.

....

....

[وقد بدا لى فى بعض اللحظات أن الرئيس «الأسد» يَسْتَغرِبُ حقيقة أن كل المفاوضين الأمريكيين الذين التقاهم من اليهود: «هنرى كيسنجر» فى البداية..

«مادلين أولبرايت» فى النهاية.

وبين الاثنين كتيبة يهودية بالكامل تَضُمُّ اثنين من مستشارى الرئيس «كلينتون»

للأمن القومى، أولهما «أنتونى ليك»، ثم خلفه «صموئيل بيرجر»، وبعدهما السفراء «مارتن أنديك»، و«صمويل لويس»، و«دنيس روس»، و«آرون ميللر»، و«دان كيرتز» (السفير الأمريكى فى مصر الآن).

وكان مَلَفُّ الشرق الأوسط أمريكياً - ولا يزال - فى أيدى هؤلاء - وبدون أى عَداءٍ لليهود فقد كانت هناك إشكالية مُعتَقَدات، وإشكالية ولاءات، وحتى إشكالية أولَوِيّات].

....

....

وبصفة عامة فقد بدا الرئيس «الأسد» يومها مشغولاً بالمستقبل أكثر من انشغاله بالماضى، وكان واضحاً أنه يختبر فى فكره إمكانيات يراها، ويقيس خطى تَستَدعيه.

وقصارى ما يمكن تَرجيحه أن الرجل بدا وكأنه يُقَلِّب خياراته مُعتَرِفاً - فيما يظهر - أن الصبر والتاريخ كليهما يحتاج الآن إلى إضافة إنسانية ضرورية.

□ □ □

□ من الشواهد المرئية - أيضاً - أننى فى زيارة أخيرة لبيروت التَقَيْتُ رَجُلين بينهما - جملة وتفصيلاً - مسافات شاسعة، لكن كلام كل منهما كان يشير إلى ذات الاتجاه.

كان الرَجُلُ الأول هو الشيخ «حسن نصر الله» - الأمين العام لـ«حزب الله».

وكنت قد تَعَوَّدت كل مرة أذهب فيها إلى بيروت أن ألتقى بقيادات «حزب الله»، وأولهم بالطبع أمينه العام، وهو قائده الفعلى ومدير نشاطه.

وكانت أحاديث الشيخ «حسن نصر الله» فى الغالب تُرَكِّز - وهذا طبيعى - على عمليات «حزب الله» فى الجنوب، وعلى مقاتليه، وعلى تَطَوُّر أساليبهم فى «مواجهة العدو».

وفى بعض الأحيان كنت أدفع الحديث إلى «أحوالِ الإسلام السياسى» أو الإسلام «الجهادى»، كما يحب الشيخ «حسن نصر الله» أن يسميه. وكان ذلك يقودنا مرات عديدة إلى الثورة الإسلامية فى إيران ومرجعياتها، وإلى ما يجرى فى أفغانستان وما حولها.

والشيخ «حسن نصر الله» مُحَدِّثٌ مُقتَدِرٌ عن مَعرِفة، والجلوس إليه تجربة تُعَوِّضُ كثيراً عن مغامرة الوصول إلى مَقَرِّه، فهو مُتَغَيِّرٌ كل مرة، لكنه حيثما كان فهناك مَتاريس الحديد بعَرضِ الطُرُق، ومدافع الـ«كلاشنيكوف» مُعَلَّقة على الأكتاف، وهناك هَمْسُ

المُرافقين بكلمة السرِّ - لكن هناك أخيراً حَيَوِيَّة الشيخ الفَريدة المُتَمَثِّلة فى «مُقاتِلٍ يَعرِف كيف يَبْتَسِم».

وكان الواضِح باستمرار أن «حزب الله» من خلال وجوده فى ميدان النار - أقدَر من غيره على استشعار درجة الحرارة فى الإقليم.

وفى لقائنا الأخير لَفَتَ نظرى أن الشيخ «حسن نصر الله» بدا مشغولاً باحتمالات ما بعد التسوية بين سوريا وإسرائيل؟ هل هى قادِمة؟ وبأى شروط؟ وفى أى إطارٍ زَمَنى؟ ثم ماذا بعدها؟

● وكان الرَجُل الثانى الذى لقيته فى بيروت هو رأس الدولة اللبنانية - رئيس الجمهورية العماد «إميل لَحّود» - والعماد «لَحّود» وافِدٌ جديدٌ على المَشهَد السياسى العربى، ولذلك فإن عَيْنَه قادرة أن تلمح أشياء تَختلِف عن «العادى المألوف» الذى إطمأن إليه غيره فى إطار هذا المَشهَد، ثم فَقَدوا فضولهم لإعادة النظر فيه، وكأن الشُخوص الحَيَّة تَحَوَّلَت إلى تماثيل من الرخام تَجَمَّدَ فِعلُها حتى وإن أعطتها بَراعَةُ المَثَّال إيحاءَ الحركة!

كان العماد «لحود» - كما بدا فى أول لقاء بيننا فى قصر «بعبدا» وفى نفس المكتب الذى جَلَسْت فيه قبله إلى ستة من الرؤساء اللبنانيين - مفاجأة طيِّبة، فقد تَبَدّى شباباً فى ملامحه وفى استجابته وفى تعبيره عن نفسه. وتَحَدَّثَ مُلِمّاً بأحوال الإقليم وسياساته بطريقة منظمة، مُدرِكاً لطبيعة العلاقة بين سوريا ولبنان سواء فى إطار المقاومة، أو التفاوض، أو احتمالات السلام - لكننى أحسست أن الهاجس المُتَكَرِّر والراجع إلى حديثه بين فترة وأخرى هو «مشكلة التوطين» (توطين اللاجئين الفلسطينيين فى لبنان إذا لم يَجْرِ حَلٌّ لقضية اللاجئين ضمن ما هو مقترح فى الحلول النهائية للشأن الفلسطينى)، وكانت مخاوف «العِماد» أن يَتِمَّ الوصول إلى اتفاق دون حَلٍّ لمشكلة اللاجئين، ثم يُؤَدِّى ذلك إلى تَوْطين ثلاثمائة ألف لاجئ فلسطينى فى لبنان (معظمهم من المُسْلِمين السُنَّة) ويكون من ذلك ضَغطٌ إضافِىٌّ على «الصيغة اللبنانية» للعيش المُشترَك فى لبنان، وهى صيغة حَسّاسة من يَوْمِها، ثم إن سلسلة تجارب قاسية امتَحَنَتها بعُنفٍ وقَسوة!

وهكذا بين دمشق وبيروت فقد وجدتنى أمام رجال ثلاثة يعرفون، أو يشعرون، أو يتوقعون: رئيس سورى يُقَلِّب خياراته، وزعيم فدائى تشغله احتمالات الاتفاق، ورئيس لبنانى يشغله ما بعد الاتفاق!

□ □ □

كان الرئيس السورى الذى يُقَلِّب خياراته هو الطَرَف الذى يملك قرار الخطوة الأولى، وكان عليه أن يتحرك نحو نُقطةٍ يختارها على الأُفُق.

وفى وجود حكومة الليكود وبرئاسة «بنيامين نتنياهو» فإن الأُفُق بدا مُلَبَّداً بالضباب. ومن استقراء بعض الظواهر فإن الرئيس «الأسد» تَرَكَ نَفَراً من المُتَطَوِّعين بالوساطة يتكلمون، ثم رَكَّزَ جهدَه هو على علاقته المباشرة بـ«بيل كلينتون» حَريصاً على تَواصُلها وليونَتِها، حتى فى أوقاتٍ انقَطَعَت أو تَصَلَّبَت فيها علاقات الرئيس الأمريكى مع كل الناس بما فيهم زوجته!

وحتى بالهَمسِ مع نفسه فقد كان الرئيس «الأسد» يُقَدِّر أن أى علاقة يقيمها مع «كلينتون» نصف دائرة لا تكتمل إلا ببقية ـ هى فى صميمها التمهيد الضرورى «لما ليس منه بُدّ».

وفى ذلك الوقت جَرَت الانتخابات العامة فى إسرائيل وسَقَطَ «بنيامين نتنياهو» ونَجَحَ «إيهود باراك». ورأى الرئيس «الأسد» فيما يظهر أنها اللحظة المناسبة، ثم صَدَرَت من مكتبه الإشارة.

....

....

وكان التعبير السورى الأول استجابة للإشارة ـ خطوة بَدَت للبعض مُتَسَرِّعة، وفى ظنِّهم أنها وَقَعَت بسبب نقص المرونة فى جهاز دولة أقلَمَ نفسه على انتظار حركة الصراع وفِعلها وقوانين التاريخ والصبر عليها. وعندما طُلِبَ إلى هذا الجهاز أن يَتَصَرَّف على عكس ما تَعَوَّدَ عليه، جاءت استجابته أشبه ما تكون بآلة ارتَجَّت فى مكانها مُحدِثة صوت فرقعة لم يلحق بها دوران عَجَلة.

هكذا نُقِلَت تصريحات للرئيس «الأسد» نَسَبَها إليه الصحفى البريطانى «باتريك سيل».

....

....

(ومن المُفارَقات أن «باتريك سيل» وهو صحفى قدير، يَهودىٌّ مَولودٌ فى حَلَب، هاجَرَت أسرته إلى بريطانيا وهناك تَعَلَّمَ واحتَرَفَ الصحافة، وأصدَرَ عدَّة كُتُب معظمها عن سوريا، بينها واحدٌ لا غِنى عنه لأى مُهتَم بسياسات الشرق الأوسط عنوانه «الصراع على

سـوريـا»، وبينها كتـابٌ آخـر يحكى قِصـَّة حيـاة الرئيس «الأسـد». ولم يكن «باتريك سـيل» صـحفياً قديراً فقط لكنه أيضـاً كان يعـيش حياة شِبْه سـوريَّة فى لندن بـحُكمِ زواجه من السيدة «رنا قَبّانى»، وهى ابنة أخ للشاعر السورى الكبير «نزار قَبّانى»، وهى نفسـها كاتبة مَرْموقة).

وكانت المشكلة فيما نَسَبَه «باتريك سيل» إلى الرئيس «الأسد» غداة إعلان فَوْز «إيهود باراك» فى الانتخابات وقيامه بتشكيل وزارة جديدة فى إسرائيل- أنه بَدا دُفْعة مقدمة بالغة السخاء على الحِساب تُراهِن بأرصِدة كبيرة على مجهولٍ لم تَظهَر بَعد معالمُه!

....

....

كان الرئيس «الأسـد» فيما نُسِبَ إليه يتحدث دون تمهيد عن «باراك» كـ«رجلٍ أمينٍ ونَزيهٍ وقادرٍ على التفاوض من موقف يُؤمن بالسلام». ولم تكن هناك سواء فى برامج «باراك» أو برامج حكومته الائتلافية، أو سجِلِّ الرَجُل أو حياته العَمَلية- بَوادِر تُبَرِّر كل هذا القَدر من الثقة به، خصوصاً عندما تجىء من القصر الجمهورى فى دمشق.

ومَضَت أسابيع وظَهَر أن تَوَجُّهات «باراك» قد لا تختلف كثيراً عن تَوَجُّهات «نتنياهو»، إن لم تكن أشَدُّ سوءاً مع فارقٍ أن «نتنياهو» يُؤمِن بسياسة «أعلن ما تريد وقُم بتنفيذه كما تريد»، وأما «باراك» فهو يعتمد سياسة «قُم بتنفيذ ما تريد وأعلن عنه كما يريدون»!

....

....

وربما كان أفضل مثال لهذا الاختلاف فى مذاهبِ السياسة الإسرائيلية هو ما حَدَثَ بالنسبة للمُستوطنات الجديدة حول القدس: أعلَنَت الحكومة الإسرائيلية عن طرح عطاءات جديدة على المقاولين لعمليات بناء هذه المُستَوطنات. وقامت القيامة، وأحَسَّت الولايات المتحدة بالحَرَج، وأعلن «إيهود باراك» «إلغاء طرح العطاءات الجديدة»، وهدأت أعصاب الجميع. ولم يلتَفِت أحَد بالقدر الكافى إلى أن «باراك» ألغى طرح العطاءات الجديدة لكنه لم يَعدُل عن بناء المستوطنات الجديدة، بل كان قراره إسناد المشروعات الجديدة إلى نفس المقاولين القائمين بمراحلِ سابقة فى بناء المستعمرات المحيطة بالقدس دون داعٍ لطرح عطاءات جديدة على مقاولين قد يكون بعضهم جدداً!

....

....

والذى حَدَثَ بعد أسابيع من تصريحات الرئيس «الأسد» كما نَقَلَها عنه «باتريك سيل» أن كثيرين، حتى فى سوريا نفسها، بدأوا يتساءلون عما إذا كان ما بَدَرَ منسوباً إلى الرئيس «الأسد» تفاؤلاً سابقاً لأوانه، ثم ما إذا كان على دمشق - الآن - أن تُراجِع تقديراتها وتُخَفِّض سَقفَ تَوَقُّعاتها.

وضاعَفَ من اللبْسِ أن عَدَداً من أركان النظام فى سوريا، وممن سبقت لهم أدوار فى السياسة السورية خلال مراحل سابقة - لم يجدوا وسيلة لاستعادة زمام المبادرة إلا بالتشكيك فى حَجْمِ التفاؤل الذى نُسِبَ إلى الرئيس «الأسد»، وقَوْلَهِم إنه «حَجْمٌ يُسْأل عنه «باتريك سيل» ولا يُسأل عنه غيره».

لكن تلك كانت حَيْرة رجال لم يعرفوا أن الإشارة بالحَرَكة صَدَرَت بصرف النظر عما إذا كانت الخُطوة الأولى بعدها جاءت سَيّالة وسَلِسة، أو أنها أصيبَت بالتَلَبُّكِ من «دَسامة» المفاجأة!

والواقع أن إشارةً صَدَرَت سواء كان أركان الحُكم فى سوريا جميعاً فى الصورة، أو أن بعضهم كان خارج إطارها لسَبَبٍ أو آخر.

□ □ □

وفى ذلك الوقت وردت من دمشق تعبيرات أخرى فى نفس الاتجاه، وكان أول هذه التعبيرات إلحاحاً مُتَكَرِّراً عن: «استعداد سوريا لاستئناف المفاوضات من حيث تَوَقَّفَت تماماً».

وكان كثيرون ما زالوا يذكرون أنه عندما توقفت المفاوضات لم يكن مجمل الحلول المقترحة مُبَشِّراً أو واعِداً، وخصوصاً فى مجال ترتيبات الأمن. فقد كان بين الشروط الإسرائيلية مطالب بإعادة هيكلة الجيش السورى - أى تحديد سلاحه نوعاً وقوةً ومدى - ومطالب بإعادة تمركز الجيش السورى بحيث تَبْتَعِد تشكيلاته الرئيسية إلى أقصى الشرق على الحدود مع العراق، أو إلى أقصى الشمال على الحدود مع تركيا، وكانت مطالب إعادة الهيكلة وإعادة التمركز تشمل منطقة دمشق نفسها وهى قريبة (٤٥ كيلومترا) من هضبة الجولان - ويومها شاع تعبير نُسِبَ إلى الرئيس «الأسد» قال فيه إن «إسرائيل تريد أن تترك الجولان وتأخذ سوريا كلها»!

ونفس الشىء وقع بالنسبة لمصادر المياه فى الجولان، التى تَقول إسرائيل وتُكَرِّر أنها أهَمُّ ما تتمسك به فى أى تسوية مع سوريا، فهذه المياه (التى اختلفت تقديرات كميتها ما بين ثلاثمائة إلى سبعمائة مليون متر مكعب) دَخَلَت فى نظام الرَىّ الإسرائيلى ومن الصعب أن تخرج منه. وخلال جلسات المفاوضات بين سوريا وإسرائيل فقد طُرِحَت بشأن حَل قضية المياة حُلولٌ غريبة بينها «اقتراح حَل وَسَط يقضى أن تعترف إسرائيل لسوريا بالسيادة على المياه فى مقابل أن تحصل إسرائيل على امتيازٍ لاستعمالها لمُدَّة تسعة وتسعين سنة».

(ويَنطبِقُ نفس الشىء على فَترةِ تنفيذ أى انسِحابٍ من الجولان، ثم تَوافُقِ مراحل هذا الانسحاب مع مراحل «التطبيع» فى العلاقات).

وفى وقتٍ من الأوقات ذاعَ فى واشنطن أن مشاكل الأمن يمكن الالتفاف حولها بوسائل الرقابة الإليكترونية الحديثة، وكذلك بوسائل العزل عن طريق تواجد قوات أمريكية خصوصاً على قِمّة «جَبَل الشيخ» (مثلما حَدَثَ فى سيناء). ثم إن مشاكل المياه يمكن أيضاً تَسْوِيَتُها فى إطار تعاون إقليمى يَكفل «تَوْزيع مَوارِد المياه ويَضمَن عدالة اقتسامها».

وبعد ذلك فإن القضايا المُعَلَّقة الأخرى. كتزامُنِ الانسحاب مع التطبيع مثلاً. هى مما يمكن حَله.

لكن أى ترتيبات للأمن وللمياه وللتطبيع ولغير ذلك. لا بُد أن تُرسَم داخل حُدود، ومَعنى ذلك أن خطوط الانسحاب هى البداية التى لا غِنى عنها.

□ □ □

وفى ربيع عام ١٩٩٩، وفى فترة تقليب الخيارات والبحث عن طريقٍ للعودة إلى مائدة المفاوضات، ظَهَرَ فى بيروت نقلاً عن دمشق تعبيرٌ مُسْتَحدَثٌ لم يُنسَب إلى الرئيس «الأسد» وإنما إلى بعض مساعديه، وهو تعبير «الوديعة»، ثم أضيفت إلى التعبير صفة تمييز بحيث أصبح «الوديعة الرابينية» نِسْبَة إلى «إسحاق رابين».

كان وصف «الوديعة الرابينية» هو المُسْتَحدَث، وأما الموصوف نفسه فقد كان معروفاً ومُثاراً من قبل، وكان يَخُصُّ ما تَرَدَّدَ من أن الرئيس «كلينتون» أبلغ الرئيس «الأسد» أن لديه وَعداً سِرِّيّاً من «إسحاق رابين» بتاريخ مارس ١٩٩٣ مُؤَدّاه أنه يَتَعَهَّد بالانسحاب من

الجولان (وليس فى الجولان كما كانت إسرائيل تقول من قبل) - وذلك شرط قبول سوريا بكل ضمانات الأمن التى تريدها إسرائيل.

وكان ملخص ذلك طبقاً لتعبير كَرَّرَه وزير خارجية سوريا - أنه «الانسحاب الكامل، مُقابل السلام الكامل» ! - ثم تَرَدَّدَ أن ذلك ما تَعَهَّدَ به «رابين» كتابةً للرئيس الأمريكى، وأن أساس هذا التَعَهُّد كان حوارات طويلة بين «رابين» و«كلينتون» - قال فيها رئيس وزراء إسرائيل للرئيس الأمريكى: «إن الانسحاب الكامل أمرٌ يمكن قياسه على الأرض بالكيلومِتْر والمِتْر وحتى السَنتيمِتْر، ولكن السلام الكامل ليس كذلك - فإذا أمكن قياس السلام بنفس الطريقة فى الواقع (بالكيلومتر والمتر والسنتيمتر) فإن إسرائيل فى هذه الحالة تستطيع أن «تُعطى عُمقاً فى الانسحاب يَتَوازى مع العُمقِ فى السلام».

ولقد أثارت هذه الرواية جَدَلاً فى إسرائيل، وقيل إن ذلك التَعَهُّد كان لعِلمِ «كلينتون» وأنه لم يكن مُخَوَّلاً بنقله إلى الرئيس «الأسد»، وإذا فَعَلَ فقد كان عليه أن يُوَضِّح أن الاقتراح من عنده، لكن لديه ما يَسْمَح له بأن يَعتَقِد أن إسرائيل سوف تَقبَل به.

وقيل أيضاً فى دمشق أن المفاوض السورى من خلال الاتصالات مع الولايات المتحدة أصَرَّ على نقطتين إضافيتين: أولاهما: أهمية وضع خطوط عامة تحكم التسوية - وذلك حَدَث.

والثانية: أهمية أن يبين أن الانسحاب الإسرائيلى إلى خطوط ما قبل يونيو سنة ١٩٦٧ وليس إلى حدود سوريا المَرسومة من سنة ١٩٢٣. والفرق بين الخطين هو منطقة «الحمة» التى تقع عند سفوح مرتفعات الجولان والتى تصل إلى شواطئ بحيرة طبرية أهم خزان للمياه فى المنطقة - وكانت سوريا قد دَخَلَت بقواتها إلى المنطقة بعد الاستقلال مُعتَبِرَةً أن المنطقة حَيَوِيّة بالنسبة لها، وقد عَزَّزَت وجودها فيها أثناء معارك فلسطين سنة ١٩٤٨.

وفى تلخيص ما يعنيه ذلك كله فقد قيل أنه إذا اعتَرَفَت حكومة «إيهود باراك» بـ«الوديعة الرابينية» فإن الطريق يُصبِح مفتوحاً لاستئناف المفاوضات.

□ □ □

وبصَرفِ النظر عن تَماسُكِ الموقف التفاوُضى السورى - حتى هذه اللحظة - فلا بد من القَوْلِ إن هذه الحكاية عن «الوديعة الرابينية» ليست «مُقْنِعَة» لأسباب عديدة: أولها - أن المُطالَبة بـ«وديعة رابينية» - شرطٌ يقوم على غير قاعدة.

ذلك أن العَودة إلى المفاوضات من حيث تَوَقَّفَت مُتَوافِرةٌ دون شروطٍ مُسْتَجَدَّة: فالطَرَفان فى المفاوضات هما نفس الطَرَفين (بل إن الرجال هُم نفس الرجال).

والظروف التى جَرَت فيها المفاوضات بين الطَرَفين هى نفس الظروف.

ثم إن الراعى الأول والوحيد للمفاوضات ما زال يقوم بدَوْرِه، بل إنه الآن أكثر استِعداداً وتَحَمُّساً.

ولم تكن سوريا هى التى قَطَعَت المُفاوضات فى المرة السابقة احتجاجاً على شروطٍ لم تستطع قبولها، وإنما كانت إسرائيل هى التى قَطَعَت. ولم يكن القطعُ لتَعَثُّرٍ فى تلك المفاوضات، ولكن أسبابَ القطع كانت داخلية فى السياسة الإسرائيلية، ذلك أن «شيمون بيريز» الذى جاء لرئاسة الوزارة بعد مَقتَلِ «إسحاق رابين» طَلَبَ من الرئيس الأمريكى «كلينتون» ترتيب اجتماعٍ على مستوى القِمّة مباشرة بينه وبين الرئيس «الأسد» مُعتَقِداً أن تلك فُرصَته ليكسب الانتخابات. ورأى «الأسد» من ناحية أخرى أن مثل هذا الاجتماع سابِقٌ لأوانِه، ولا يُبَرِّرُه حجم ما جرى من تَقَدُّمٍ على مائدة المفاوضات. وقَفَزَ «شيمون بيريز» ـ لَصالِحِه الانتخابية ـ من دَوْرِ الراغِب فى صُنعِ سلام إلى دَوْرِ القادِر المُسْتَغنى بالقوة عن كل الأطراف، وأعلَنَ ـ ضِمن ما تَوَرَّط فيه وقتها من سياسات العُنف ـ وَقْفَ المفاوضات مع الطَرَفِ السورى على أساس أن رَغبة سوريا فى السلام لا تَستَقيم مع سكوتِها عن العَمَلِيات الفِدائية لـ«حزب الله» فى جنوب لبنان.

وكان تقدير الرئيس «الأسد» صائباً لأن «بيريز» خَسَرَ الانتخابات، وأثبَتَ أن أى رهانٍ عليه ـ مُسالِماً أو مُحارِباً ـ رهانٌ فاشِلٌ.

وذلك كله ـ من أوله إلى آخره ـ لا علاقة له بالمفاوضات، ولا بالنقطة التى تَوَقَّفَت عندها، ولا بـ«وديعة رابينية» تَرَكَها رئيس وزراء إسرائيل الراحل وَصِيّةً للقادمين بعده إلى رئاسة الوزارة فى إسرائيل!

وثانيها ـ أن الخِطاب الذى سَلَّمَه «رابين» لـ«كلينتون» حملَ فى أكثر من فَقرة منه كلمة «الافتراض» hypothetical، بمعنى أن «رابين» أخطر «كلينتون» بأنه «على فرض أن إسرائيل قبلت بمبدأ الانسحاب من الجولان فإنها تنتظر من سوريا سلاماً كاملاً تَتَحَدَّد خلال

المفاوضات شروطه» ـ ومعنى ذلك أن ما يُسَمّى بـ«الوديعة الرابينية» مُعَلَّقٌ على شروط تستطيع إسرائيل وحدها أن تُحَدِّدَ سقفها.

وثالثها ـ وهو مبدأ يتصل بما سبق، فإنه حين يكون هناك تَعَهُّدٌ مُحَدَّدٌ يقدمه طَرَفٌ من الأطراف فى سَعيِه للاتفاق مع طَرَفٍ آخر مُعَلَّقاً على شروط غير مُحَدَّدة ـ فإن ذلك التَعَهُّد يخلق حالةً «لا يَحدُث فيها اتفاقٌ على أى شىء إلا إذا حَدَثَ اتفاقٌ على كل شىء»، وهذه حالة لا تُؤَكِّد التِزامات ولكن تَفتَح احتمالات، وذلك أسلوبٌ فى المفاوضات الحديثة مُعتَمَدٌ ومعمولٌ به فى بعض الأحيان لتحريك مواقف تبدو لأول وهلة عَصِيَّة متصادمة.

ورابعها ـ فإن أى تفاوض مُسْتَجَد سوف يحكمه ـ فى نفس الظروف، وبنفس الناس، وفى نفس الإطار، ما حَدَثَ فى مفاوضات سابقة. وبالدَرَجَةِ الأولى ـ والأخيرة ـ سوف تحكمه الحقائق الموجودة والواقعة على الأرض، واحتمالات تأثير هذه الحقائق على المستقبل المرئى، فكل تفاوضٍ فى الواقع عقدٌ على أوضاع قائمة أو احتمالات مؤكدة، والباقى كله ـ بما فيه مبادئ القانون الدولى وكذلك ما قيل أمس وأول أمس ـ عبارات وصياغات لا تنطوى لسوء الحظ على قوةِ فعل!

وإذا قيل إن القانون الدولى له هيبة ـ لما كان لإسرائيل اليوم وجود.

وإذا قيل إن التعهدات السابقة لها قيمة، فإن قرارات مجلس الأمن، وتَعَهُّدات رؤساء الولايات المتحدة على مبادئ للتَسْوِية من نَوْعٍ تطمينات مدريد لكل الأطراف العَرَبية المُشارِكة فيها، وتوقيعات رؤساء الولايات المتحدة على ضمان اتفاقيات مع إسرائيل ـ كان لا بُد أن تكون لها شَرعِيَّة أكبر من هذه «الوديعة الرابينية».

وخامسها ـ فإنه عندما جاء «بنيامين نتنياهو» إلى الحكم وعَرَفَ بما يقال فى بعض أروقة السياسة فى الشرق الأوسط (وخارجه) عن «تَعَهُّدات قَدَّمَها رابين»، فإنه بادر بكتابة خطابٍ رسمى إلى «وارين كريستوفر» وزير الخارجية الأمريكية (الذى قيل أنه هو الذى أبلغ الرئيس «الأسد» ـ نقلاً عن الرئيس «كلينتون» ـ بوجود «الوديعة الرابينية») ـ وفى هذا الخطاب فإن «نتنياهو» سأل «كريستوفر» سؤالاً مُحَدَّداً مُلَخَّصه «أنه هو (كريستوفر) الأعرَف بحقائق وتفاصيل كل ما دار بين سوريا وإسرائيل سنة ١٩٩٣، ورئيس وزراء إسرائيل الجديد يريد أن يستوضح منه الآن إذا كان هناك أى شىء فيما تَعَهَّدَ به «رابين» يُمَثِّلُ التزاماً من أى نَوْعٍ على إسرائيل؟» ـ ورَدَّ «كريستوفر» قاطعاً وبوضوح: «إن كل ما دار لا يضع على إسرائيل إلتزاماً من أى نوع»!

....

....

[والواقع أنه عندما حانَت لحظة العودة إلى التفاوض فإن إعلان الرئيس «كلينتون» عنها لم يَرِد فيه أكثر من تعبير «استئناف المفاوضات من حيث تَوَقَّفَت». هكذا دون تحديدٍ لنقطة أو نقاط بالذات تَوَقَّفَت عندها المفاوضات، مع العِلمِ أن تلك المفاوضات السابقة لم تكن لها محاضِر مُتَّفَق عليها بين الجانبين، وإنما كان لكل طَرَفٍ فيها مُذَكِّراته يكتبها وِفق ما فَهَمَ أو استَنتَجَ دون تدقيق يجعل الفَهْمَ أو الاستِنتاج نصوصاً يَرجِع إليها ويَحتَكِم لها].

....

....

وبشكل ما فقد كان وارداً أن الإلحاحَ الزائدَ على «الوديعة الرابينية» يُقصَد منه أن يكون غطاءً للعودة إلى التفاوض.

والأرجَح أنه غطاء لا يحتاجه الموقف التفاوضى السورى. والخَطَر فى الإصرار الزائد عليه أنه قد ينطوى على ثَمَنٍ يدفعه المُفاوِض السورى فى الموضوع - مقابل محاولة لتغطية الشكل.

والشاهد أن نفس المعيار ينطبق على الصخب الذى أثير حول مُصافحةٍ باليَدِ بين رئيس وزراء إسرائيل ووزير خارجية سوريا، وهل تَحدُث أمام العَدَسات أو لا تَحدُث. فقد كان ذلك بِدَوْرِهِ مما لا يحتاجه الموقف السورى.

ذلك أنه حين يكون التفاوض بين بَلَدَيْن (عَدُوَّيْن) قد دار لسنوات، وحين يكون الاتفاق بينهما قد تَحَقَّقَ بنسبة كبيرة (سواء كانت ٨٠٪ كما يقول الطَرَف السورى، أو أقَلَّ كما يزعم الطَرَف الإسرائيلى)، وحين تكون العودة إلى التفاوض رغبة مُلِحّة على كل الأطراف فى الوصول إلى اتفاق - فإن الحديث هنا عن مُصافَحة أو لا مُصافَحة تُصبِح نوعاً من التَظاهُرِ لا تحتمله الحقائق - وهذا التَظاهُرُ بدوره قد يكون له ثَمَن!

وينطبق نفس الشىء على الخطاب الذى ألقاه وزير الخارجية السورى أثناء المؤتمر العَلَنى المشترك على شرفة البيت الأبيض وراء مكتب الرئيس الأمريكى.

والذى حَدَثَ يومها (١٥ ديسمبر ١٩٩٩) أن الرئيس «كلينتون» ألقى كلمة عامة، وكذلك فَعَلَ رئيس وزراء إسرائيل. وحين جاء الدور على وزير خارجية سوريا فقد بدا أن حديثه المُتَشَدِّد مفاجأة.

وبالنسبة لأى مُراقِب مُتابِع فإن هذا الخطاب «المُتَشَدِّد» يَصعُب أن يكون مُفاجِئاً سواء للطَرَف الأمريكى أو للطَرَف الإسرائيلى.

ذلك أنه مما لا يقبل الشك أن قواعد الممارسة السياسية الأمريكية لا تسمح لأى زائر أن يلقى أمام رئيس الولايات المتحدة كلاماً لا يَعلَم به مسبقاً هو ومستشاروه.

وإذن فإن الرئيس «كلينتون» كان يعرف بما سوف يقوله وزير الخارجية السورى.

وكذلك رئيس وزراء إسرائيل. وببساطة فإنه إذا كان «كلينتون» قد عَرَفَ، فإن «باراك» لا بد عَرَفَ هو الآخر.

وفى العادة فإن رؤساء وزارات إسرائيل لا يَقْدِرون على تَحَمُّل أن يقال لهم عَلَناً كلامٌ يحرجهم أمام وزرائهم أو أحزابهم أو معارضيهم، وتلك مسألة معروفة. ولَعَلَّ المرة الوحيدة التى فوجئ فيها رئيس وزراء إسرائيل بشىء قاله مفاوض عربى كان خطاب الرئيس «السادات» فى «الكنيست» سنة ١٩٧٧. وبرغم أن الرئيس «السادات» كان قد أعطى لإسرائيل ما لم تكن تحلم به، وبرغم أن ذهابه إلى القدس نافَسَ فى إبهاره التلفزيونى نزول أول إنسان على سطح القَمَر - فإن «مناحم بيجن» رئيس وزراء إسرائيل وَجَدَ نفسه مضطراً إلى الرَدِّ و«بغلظة» على خطاب الرئيس «السادات»، مُغامِراً إذا اقتضى الأمر بإفسادِ المُبادَرة والإطاحة بها من أول لقاء!

والغالِب أن خطاب وزير خارجية سوريا - الذى عَرَفَ به «كلينتون» و«باراك» - وقَرَّرا تَركَه يَمُر دون تعليق - أراد استعادة خطاب سابق فى مدريد سنة ١٩٩١ - ولكن فى ظروف مختلفة تماماً عن ظروف سنة ١٩٩٩.

والشاهد أن تلك كلها محاولات للتغطية لا يقتضيها واقِعُ الحال...

....

....

ولعله كان يكفى للمفاوض السورى، وحتى يحتفظ لِمَوْقِفِه بتَماسُكِه وهيبته وبتَفَهُّمِ

كثيرين من الناس لدَواعيه، أن يَشرَحَ للكافة اعتِقادَه بأنه أمام رئيسٍ أمريكى يواجِه ظرفاً نادراً ـ فهو رَجُلٌ كان يحلم بمكانة فى كُتُبِ التاريخ لكنه حتى الآن احتَلَّ مساحةً واسعة فى صحافةِ الفضائح ـ وهذا الرجل لديه سنة كاملة يقضيها فى البيت الأبيض، وهو يريد ـ بقوة مقاومة إنسانية، وبقسوة طموح ما زال غلاباً، وبسلطة ضَخمة ما زالت باقية ـ أن يقلب المائدة على خصومه جميعاً (وحتى على التاريخ) ـ ثم يفعل فى سنته الأخيرة ما لم يقدر عليه أحَدٌ ولم يأت به غيره أوائل أو أواخِر!

....

....

وقائع سابقة ووقائع مستجدة

فتحت طريق المفاوضات!

عندما يَتَبَدّى التَوَتُّرُ فى التصرفات السياسية، ويشيع نوعٌ من الحَرَجِ فى التعبير عن هذه التَصَرُّفات، فإن السبب - على الأرجح - يكون فى وجود مسافة مَسكوتٌ عنها بين المُعلَنِ والمَقصودِ.

والظن - دون القطع بيقين - أن هذه المَسافة بالضبط هى السبب فى حكاية «الوديعة الرابينية»، والصخب حول «المُصافحة» أو «اللا مُصافحة»، والنبرة العالية فى ذلك الخطاب الذى ألقاه وزير الخارجية السورى مشدوداً إلى جانب الرئيس «كلينتون»، الواقف بينه وبين رئيس الوزراء الإسرائيلى «إيهود باراك» والذى ظَهَرَ فى صُوَرِ اللقاء الأول فى حديقة البيت الأبيض يلمس ظهر «فاروق الشرع» لافتاً نظره إلى مكانه بمقتضى أسبقية البروتوكول وإلى أنه هو - «باراك» - كرئيس وزراء يقف على يمين الرئيس الأمريكى، بينما مكان وزير الخارجية السورى على يساره.

....

....

[وهنا مسألة تَستَحِقُّ وَقفَة، فرؤساء الوزارات فى إسرائيل عادةً يَتَفاوضون مع رؤساء الدُوَل وليس مع رؤساء الحكومات فضلاً عن وزراء خارجِيَّتهم. ويَتَذَكَّر كثيرون أن الدكتور «مصطفى خليل» عندما كان رئيساً لوزراء مصر فى مفاوضات «كامب دافيد» الثانية - كان يَتَفاوَض مع «موشى ديان» وزير الخارجية وليس مع «مناحم بيجن» رئيس الوزراء.

وعندما واجَهَت المفاوضات مشكلة رأى فيها وزير الخارجية الإسرائيلى أن الأمرَ يقتضى العودة إلى رئيسه أو حضور رئيسه بنفسه للتفاوُض، خصوصاً أنه كان وقتها - بمَحضِ مُصادَفة - فى الولايات المتحدة يَجمَع التَبَرُّعات - فإن «مناحم بيجن» رَفَضَ وأعلَنَ

أنه لا يَتَفاوَض مع أى رئيس وزراء عَرَبى، «لأنهم جميعاً مُعَيَّنون من رؤسائهم، وأما هو فهو رئيس وزراء مُنتَخَب من شَعبه»!

ويلفت النظر أن «إيهود باراك» مُتَأثِّرٌ بـ«مناحم بيجن» ومُعجَبٌ بأسلوب تفاوضه فى «كامب دافيد» الأولى مع الرئيس «السادات»، وكان ذلك هو السَبَب الذى جَعَلَه يَتَوَجَّه إلى مفاوضات «شبردزتاون» من نفس مدرج الطيران الذى تَوَجَّهَ منه «بيجن» إلى مفاوضات «كامب دافيد»، ثم حِرصه على أن يلفت نظر كل مُرافقيه فى الوفد إلى هذه الحقيقة.

لكن «باراك» قَبِلَ وهو رئيس وزراء مُنتَخَب أن يَتَفاوَض - ليس فقط مع رئيس وزراء، وإنما أيضاً مع وزيرِ خارجية مُعَيَّنٍ من رئيسه.

وذلك «قُبولٌ» قد لا يكون تَعبيراً عن براءة إسرائيلية!

وكان «بيجن» هو صاحِب الحِكمة الشهيرة: أنه «ليس هناك شيءٌ مقابل لا شيء».]

....

....

والذى يقوله العارفون - عن وزير الخارجية السورى إنه دبلوماسى مُقتدر واثِقٌ من نفسه، هادئُ الأعصاب. لكنه - ذلك اليوم - بدا رَجُلاً يريد أن يفرغ بأى شكل وفى أسرع وقت من مَشهَدٍ عَصَبىٍّ ثقيلٍ على نفسه، ثم ينتقل بعده إلى مَشهَد آخر أكثر ألفة داخل قاعة مغلقة، يقوم فيه بدَوْرِ المفاوِض وليس بدورِ النَجْم التلفزيونى فى مَشهَدٍ أدَّاه غيره من قبل، وكان هو ناقِداً للمَشْهَد، ناقداً للأداء، حتى جاء اليَوْمُ الذى وَجَدَ نفسه داخِل الإطار ذاته، تحت ذات الأضواء وذات العَدَسات.

كان التَوَتُّر البادى فى التَصَرُّفات - على الأرجح - هو تلك المسافة المسكوت عنها بين المُعلَن وبين المقصود وراء التصرفات والتعبيرات.

□ □ □

والشاهد - مَرَّة أخرى - أن سوريا كان يكفيها للعودة إلى مائدة المفاوضات ذلك الغطاء الذى وَفَّرَه رئيس الولايات المتحدة الأمريكية الذى أعطى أولوية مستمرة للمسار السورى للمفاوضات، والذى واصل إلحاحه مُعلناً استعداده للمشاركة بنفسه إذا استُؤنِفَت المفاوضات، والذى رَهَنَ مَكانَتَه فى العودة إلى التاريخ باتفاقٍ بين سوريا وإسرائيل تَسنِده حِزمة مُساعَدات سَخِيَّة يستطيع «كلينتون تَمريرَها فى الكونجرس الذى لا يُفَكِّر مثل

«كلينتون» فى التاريخ، ولكنه يُفَكِّر فى «الأرشيف» يَتَمَنّى لو أزاح إلى مَحفوظاته كل قَضِيَّة الشرق الأوسط تَرقد مع ذِكرَيات القرن العِشرين ولا تَسحَب نفسها بالإلحاح على القرن الواحِد والعِشرين.

وبصرف النظر عما إذا كان «كلينتون» قادراً - كما يزعم - فى سَنَتِه الأخيرة فى البيت الأبيض على فِعلٍ مُتَوازِنٍ ونشيط - فإن الأهَمَّ من ذلك أن استجابة سوريا له تبدو مَفهومة على الأقل لتخفيف الضغوط السياسية الواقعة عليها، ولتوسيع المساحة التى تَضيق حولها.

والحاصِل أن مصالح الشعوب والدُوَل، ومصائرها، خصوصاً فى أزمنة مُتَغَيِّرة - تقتضى تَنَوُّعاً فى الأساليب لا تغيب عنه الأهداف، حتى دون التزام بالقاعدة الهندسية التى تقول أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين.

وفى السياسة الدولية، وفى التعامل مع حقائق القوة، فإن هناك تنويعات كثيرة تعطى الفرصة للحركة الضرورية شريطة أن يتوافر التزامٌ واعٍ بثوابت نهائية يصبح التنازل عنها إهانة للحركة ذاتها - إذ يجعلها منفصلة عن هَدَفٍ تسعى إليه.

وفى ظروف سوريا فإن هناك وقائع سَبَقَت ووقائع استَجَدَّت، وبعضها موضوعى، وبعضها إنسانى، وفيها جميعاً ما يجعل المسافة المَسكوت عنها بين المُعلَن والمَقصود من التَصَرُّفات والتعبيرات نوعاً من التقية - ربما - حيث لا ضرورة للتقية.

....

....

وفيما سبق مما يتصل بظروف سوريا، فهناك الوقائع التالية:

١- أن كل الأطراف العربية المحيطة بإسرائيل، وهى مصر ومنظمة التحرير الفلسطينية والأردن، سبقت إلى مفاوضات - واتفاقات ومعاهدات - مع إسرائيل، وبقيت سوريا وحدها حتى هذه اللحظة صامِدة - أو مُعانِدة، غير مُتَأكِّدة مما يمكن أن تفعله، وذلك موقف يصعب البقاء عليه فى ظِلِّ أوضاع عربية لا تَبدو مُهَيَّأة للتَغيير فى مُستقبلٍ منظور!

٢- أن الموازين الإستراتيجية فى المنطقة مالت بعيداً عن أى خيارات تُمَكِّن سوريا من الحزم - ولو بغير حسم - لأن خَلَلَ الموازين فى الشرق الأوسط الآن قضية مُسْتَعصِية: إقليمية ودولية.

٣ـ أن الحزم يقتضى حجماً من حشد القوة، والحسم يفترض تَفَوُّقاً فى وسائل القوة، وأول العناصر فى الحالتين سَنَدٌ دولى، وحَليفٌ إقليمى، واقتصادٌ قادرٌ، وعِلمٌ كُفءٌ، وسلاحٌ له الغَلَبة.

٤ـ أن السلاح السورى وَصَلَ ـ فى الأحوال الراهنة ـ إلى سَقفه. ومع سَقف مُحَدَّدٍ فإن هذا السلاح مُعَرَّض للنقص أكثر من قابليَّتِه للزيادة. ولعل العنصر المُؤَثِّر فى السلاح السورى هو الصواريخ وما تملكه سوريا منها وهو فى حدودٍ مقبولة. لكن مشكلة الصواريخ فى غياب رادعٍ حقيقى أن ما يمكن تَحميلها به يَقتَصِر على شحنات بيولوجية أو كيماوية ـ وذلك محظور كما ثَبَتَ فى حرب الخليج الثانية ـ أو متفجرات تقليدية ـ وذلك محدود فى تأثيره كما ثَبَتَ أيضاً فى تلك الحرب.

والشاهد أن سِلاحَ الصواريخ وحدَه مُؤَثِّرٌ نفسِىٌّ أو سياسِىٌّ، وأما فِعلُه الحقيقىُّ النافذُ فإنه يتأتى إذا كان سلاح الصواريخ جزءاً من منظومةِ قوة متكاملة ومتقدمة ـ وذلك نَوْعٌ آخر من الحِسابات!

□ □ □

يجىء الدور بعد ذلك على الوَقائِع التى استَجَدَّت ـ بعد الوَقائِع التى سَبَقَت. وعلى الأرجح فإن هذه الوَقائِع المُسْتَجَدَّة هى الجزء الأكبر فى المساحة المسكوت عنها بين المُعلَن والمقصود فى التصرفات وفى التعبيرات.

والوَقائِع المُسْتَجَدَّة كما يلى:

١ـ إن النظام فى سوريا ـ كما توحى دلائل مُتَعَدِّدة ـ فوجئ بالإنذار الذى وجهته تركيا إلى سوريا فى أكتوبر سنة ١٩٩٨ بأن عليها تسليم «عبد الله أوجلان» (زعيم حزب العمال التركى) أو إخراجه من أراضيها، وإلا...

وكانت «وإلا» مصحوبة باستعدادات وتحركات عسكرية لا بد أن تُؤخَذ جَدّاً خصوصاً فى ظِلِّ العلاقات الحميمة المُتَنامية بين تركيا وبين إسرائيل.

ولقد تباطأ ظهور رَدُّ الفعل فى الساعات الأولى للإنذار، ربما بحكم طبيعة جهاز الدولة ـ لكنه بعد هذه الساعات الأولى ظَهَرَ رَدُّ الفعل السورى مأخوذاً بما لم يكن قد استعدَّ له. وعندما بدأت الفِرَقُ المُدَرَّعة التركية تَتَدَفَّق وهدفها المُباشر «حلب»، بَدَت دمشق ملهوفة لتَجَنُّبِ أى صِدام، وكان ذلك مما يمكن فهمه.

والذى حَدَثَ أن الحكومة السورية لم تَستَجِب فقط لمطلب إخراج «أوجلان» على عَجَلٍ (بما أدى فيما بعد إلى سقوطه فى الأسْرِ بغير بطولة على أى حال) - لكنها قبلت وساطات تَعَدَّدَت دوافعها - أمكن بها ترتيب لقاء بين وفدين عسكريين سورى وتركى. وفيما تَسَرَّبَ عن هذا اللقاء فإن الوفد التركى تَصَرَّفَ بصلافة كان صَعباً قبولها فى ظروفٍ مختلفة - لكن الضرورات فَرَضَت أحكامَها حين تَنَبَّهَت سوريا إلى أنها بين مطرقة وسِندان.

وكان ذلك الوضع من قبل احتمالاً وارِداً عندما بدأ التقارب التركى الإسرائيلى - ولكنه الآن أصبح كابوساً فى عِزِّ النهار!

وعندما انتهت أزمة الإنذار التركى كان على سوريا أن ترسم لنفسها سياسة طَوارِئ.

ومما يمكن فَهْمه فى خطوط أى سياسة طَوارِئ - بعد الإنذار التركى ومطرقته، والسندان الإسرائيلى وكتلته - أن تَبْحَث سوريا لنفسها عن جِسرٍ من نوعٍ ما مع الولايات المتحدة الأمريكية.

٢- إن الواقعَ المُسْتَجَدَّ الثانى - كما توحى دلائل مُتَعَدِّدة - هو تَعَهُّد رئيس وزراء إسرائيل الجديد (أو الذى كان جديداً وقتها) أمام الكل وأولهم قيادات الجيش الإسرائيلى، بأن قواته سوف تَخرُج من جنوب لبنان قبل يوليو سنة ٢٠٠٠. وعندما يَتَعَهَّد رئيس وزراء إسرائيل أمام جَيْشٍ إسرائيل بشىء فإن تَعَهُّدَه لا بُد أن يُؤخَذَ جَداً لأن الجَيشَ الإسرائيلى - بصَرفِ النَظر عن كل «حِكايَة» الديمقراطية - هو المُؤَسَّسة النافِذة حتى هذه اللحظة فى الدولة اليهودية.

والذى حَدَثَ هو أن جنوب لبنان أصبح لسنوات طويلة جبهة المواجهة العَرَبية التى تستحق الاحترام أمام صَلَفِ القوة الإسرائيلية، فهناك - وأمام المقاومة اللبنانية - دَفَعَ الجيش الإسرائيلى خسائر تَفوق استعداده للتَحَمُّل، وراحَت قياداته تَتَمَلمَل عَلَناً وتَتَبَرَّم!

واعتَمَدَ «إيهود باراك» - كرئيس للوزراء - سياسة كان «إيهود باراك» - كرئيس للأركان - قَدَّمَها لكل من «إسحاق رابين» و«شيمون بيريز»، وجَوْهَرها أن الجيش الإسرائيلى يستطيع أن ينسحب من جانب واحد من جنوب لبنان مع إعلان نوايا مُؤَدّاه أنه إذا حَدَثَ من المقاومة الإسلامية فى الجنوب هُجومٌ فإن إسرائيل سوف تَرُدُّ بضربات مُوَجَّهة إلى منشآت البنية الأساسية فى لبنان وفى سوريا أيضاً - وإلى مجموعة مُختارة من المواقع الاقتصادية التى يكون الضرب فيها مَدعاة لألَمٍ حقيقى.

وكان منطق «باراك» يستند إلى أن «حزب الله» لا يقدر على تنفيذ عملياته ضد إسرائيل

أو ضد جيش لبنان الجنوبى العامل بإمرتها - إلا برضا سورى. حتى وإن كان الرضا بالسكوت.

والآن مع اقتراب سنة ٢٠٠٠، ثم مع بداياتها - كان «إيهود باراك» يملك تحويل اقتراحاته السابقة - إلى سياسة لاحقة لإسرائيل فى جنوب لبنان: انسحابٌ من جانبٍ واحد - ثم رَدٌّ فى العُمْقِ على أية عمليات وحيث يكون الرَدُّ مُوجِعاً.

وكان ذلك يواجه سوريا بمكارِه شديدة: السكوت عليها خسارة، والرَدُّ خطر!

وكان الحَلُّ أن تَجِدَ سوريا وسيلة لتَوَقّى المَكارِه والمخاطِر عن طريق طَرَفٍ يملك كلمة مسموعة، أو يمكن أن تكون مسموعة، إذا أفلَتَ جنون القوة الإسرائيلية وأطلق العنان لحماقاته.

ولسوء الحظ - وفى الواقِعِ العَمَلى الآن - فإن «واشنطن هى الحَلُّ» - أو هكذا يبدو فى زَمَنٍ لا يملك فيه مجتمع الدُوَل أكثر من الكلام، ولا يملك فيه العالَم العربى أكثر من الصمتِ، وبعض الصمت عَجْزٌ - وليس بعيداً أن يكون بَعضُه إلى جانب العَجزِ - شَماتة!

٣ - والواقعُ المُسْتَجَدُّ الثالث - كما توحى دلائل مُتَعَدِّدة - وهو ليس مُسْتَجَداً تماماً، ولكنه الآن وَصَلَ إلى حالة تستحق اهتماماً أكثر - هو لبنان. والحاصل أن لبنان حتى الآن شاعرٌ بالجميل لسوريا أنها ساعَدَتْه على وَقفِ حَربٍ أهلية كَلَّفَت الشعب اللبنانى مائة ألف رَجُل وامرأة وطفل، فضلاً عن دمارٍ عمرانى واقتصادى وسياسى كاد أن يعصف بالوَطَنِ.

لكن الشعوب لا تعيش إلى الأبد أسيرة شعورها بالجميل، خصوصاً ولبنان يطمح إلى دَوْرٍ إنسانى وثقافى واقتصادى، وهو بَلَدٌ سَبّاقٌ فى اقتصاد الخَدَمات الذى هو الآن صيحة التنمية الجديدة: خَدَمات التجارة والمال والسياحة والثقافة والإعلام والترفيه. ولبنان يريد أن يعود إلى حياته فى ظروف تختلف عما كان، عندما دَخَلَ لبنان - أو أُدخِلَ - طَرَفاً فى صراعات عربية - دولية، وعربية - عربية.

والذى حَدَثَ - سواء كان طبيعيًا أو انطباعيًا - أن فى لبنان شعوراً بأن هذا البَلَد عومِلَ بأقلِّ من قيمَته، بما فى ذلك أن قرارَه لم يَعُد بيَدِه.

وكان ذلك مَقبولاً - وإن على مَضَض فى وقتٍ من الأوقات - لكنه مع مُرورِ الوقت، ومع انتهاء الحرب الأهلية، ومع الأمَلِ فى إعادة الإعمار، ومع تَشَوُّق لبنان إلى دوره - فإن العلاقة مع سوريا - وهى بالفعل علاقة مصيرية - تقتضى تنظيماً يجعل العلاقة الوثيقة بالضرورة بين البَلَدَين مقبولة - بالرضا الحُرِّ - من كليهما.

وعندما بدأت الحركة على المسار السورى حثيثة فى اتجاه واشنطن - فإن لبنان بدا غير متأكد مما يَتَعَيَّن عليه أن يفعله. ولولا واقعية رجالٍ فى لبنان حاولوا أن يُخَفِّفوا من تصادُم الضرورات، لأصبح لبنان مشكلة سورية تُضاف إلى قائمة المشاكل.

٤- وتوحى دلائل مُتَعَدِّدة أيضاً أن هناك عاملاً مُسْتَجَدًّا آخر على الأقل فى حسابات رئيس الدولة السورى وأولوياته.

بداية هذا العاملِ إدراك ضرورى بأن طول بقاء النظام فى السلطة (ثلاثين سنة على الأقل) - أدى، وكان لا بد أن يؤدى، إلى تَجاوُزات ومَزالِقٍ - وفى دمشق وفى بيروت معاً حكايات كثيرة وتفاصيل وشواهد تَستَحِقُّ التحقيقَ والقَطعَ فيها بيقين.

وفى الغالب أن الرئيس «الأسد» بدأ يقتنع أن أجهزة النظام فى سوريا وبمرور السنين فى السُلطة فَقَدَت شهيتها إلى التغيير والتجديد فى عالمٍ اختلفت وتختلف كل ظروفه الآن وغداً عما كان بالأمس وقبل الأمس!

وربما أن الرئيس «الأسد» يُدرك - كذلك - أن التغيير والتجديد فى حاجة إلى إعداد وتخطيط، لكنه فى نفس الوقت يشعُر أن الزَمَنَ الذى فات أطوَلُ من الزَمَنِ الذى هو آت، كما أن إيقاعَ الزَمَن الجديد ضاغطٌ ومُلِحٌّ.

لكن المأزق أن اللهفة إلى التغيير والتجديد صَنَعَت - فى عديد من المواقع السياسية فى دمشق - أوهاماً شديدة بينها أن «العَولَمة» قطارٌ سريع تقفز إليه بسرعة أو تَقَع تحت قُضبانه فى لحظة. وتلك أوهامٌ تحتاج إلى مُراجَعات، فالانتقال فى سوريا سوف يكون اختباراً صَعباً - عَنيداً ومُكَلِّفاً!

٥- هناك بعد ذلك عنصرٌ مُستَجَدٌّ خامِسٌ، وهو أن الرئيس «الأسد» وَجَدَ نفسه أمام مشكلة «خِلافة».

وفى العالم الثالث كله - وحيث السلطة عادةً فى يَدِ رَجُلٍ واحد - فإن الخلافة مشكلة، خصوصاً عندما تَطول مُدَّة سُلطة الرَجُل الواحِد وتَسْتَحكِم دَرَجَة كثافتها وتركيزها!

والظاهر أن الرئيس «حافظ الأسد» عندما فَكَّرَ فى هذه المشكلة فى ظروف سبقت، فَعَلَ ذلك بِرَدِّها إلى قيادة حزب البعث أو إلى قيادة الجيش السورى. ثم حَدَثَ سنة ١٩٨٣ ما جعله يُعاوِد التفكير.

فى تلك السنة تَعَرَّضَ الرئيس «الأسد» لنَوْبة قلبية شديدة غَيَّبَته عن موقع القرار أسابيع مُتَّصِلة، وحَدَثَ وقت غيبته أن شقيقه السيد «رفعت الأسد» (وتحت إمرَته ميليشيات سرايا الدفاع) حَرَّك قواته واحتَلَّ دمشق بسلاحه، وراح يَسْتَعِد لتَوَلِّى السلطة فى أية لَحظة.

وكانت أسرة الرئيس «حافظ الأسد» والأقربون منه يرون ما يجرى ويشعرون أن الأخ يريد أن يَرِثَ أخاه وهو على قَيْدِ الحياة. وعندما اجتاز الرئيس «الأسد» أزمته الصحية فإن ما جرى فى غيبته بدا عِظَة أمامه، وكان تفكيره - أو هكذا يَظهَر - أن ابنَه له الأوْلَويّة على شقيقِه. وكان ابنه الأكبر، وهو العقيد «باسل الأسد»، مُرَشَّحَه الطبيعى للخلافة. وسنة ١٩٩٤ تَعَرَّضَت أحلام «حافظ الأسد»، أباً ورئيساً، لمأساةِ حُزنٍ كبير، فابنه «باسل» توفى فى حادثة مُفجِعة داخل سيارة كان يقودها من دمشق إلى مطار «المزة».

وكانت الصدمة قاسية على الأب وعلى الرئيس. وفى حين أن الأب تَحَمَّلَ آلامه بشجاعة، فإن الرئيس تَحَرَّك بآماله تُسابِقُ الآلام نحو حَلٍّ لمشكلة الخلافة واتَّجَهَ رَجاؤُه إلى ابنه الثانى «بشار» وهو طبيب عيون كان يدرس مهنته فى بريطانيا.

وتَرَكَ الدكتور «بشار» مُستقبله الطبى الذى اختاره - ليلحق بمُستقبلٍ سياسى اختاره والده.

والأب الرئيس يريد أن يُرَتِّب لابنه «بشار» ولاية العهد حين تجىء الساعة ويُنادى القَدَر، وهو من هذا الاعتبار - فيما يُقال - حريصٌ على اتفاقٍ مع إسرائيل، بظَنٍّ أن رصيدَه يسمح له إذا وَجَدَ شروطاً مناسِبة بتَوْقيعِ مثل هذا الاتفاق، مُتَمَنِّياً لو استطاع تجنيب ابنه مخاطر قرار قد لا يكون - بحكم حركة الموازين - مثاليا!

....

....

وربما أنه بين كل الوَقائِع المُسْتَجَدّة فى الحسابات السورية، وفى المساحة المَسكوت عنها بين المُعلَن والمَقصود من التَصَرُّفات - فإن قَضيَّة الخِلافة هى المَسألة الأصعَب!

ويُقال إن الدكتور «بشار الأسد» يَتَمَتَّع بمزايا إنسانية يُقَدِّرُها الذين عَرَفوه عن قُرب - لكن تلك قضية أخرى غير قضية مُستقبل سوريا فى حالة شبه الحرب أو حالة شبه السلام، وهو قصارى ما يمكن أن يَصِلَ إليه أى اتفاق بين سوريا وإسرائيل فى الظروف الراهنة وفى ظِلِّ موازينها.

والراجح أن أوضاعَ سوريا - وضَروراتَها - تحتاج إلى ترتيبات للتغيير والتجديد أكبر من انتقال رئاسة الجمهورية فى إطارٍ عائلى!

....

....

أقول ذلك كله بتعاطُف مع الرئيس «الأسد» وبتَفَهُّمٍ للصعوبات الهائلة التى تُواجِه خياراته فى ظروفٍ بالِغة التَّعقيد ابتداءً من الظرفِ الإستراتيجى وحتى الظرفِ الإنسانى.

□ □ □

وتبقى بعد ذلك كله عِدّة نقط ختامية.

....

....

□ النقطة الأولى - أنه فى أية مفاوضات فإن ضمان سلامة المواقف يتأثر كثيراً بقصر المسافة - وليس باتساعها - بين المسكوت عنه والمُعلَن من تصرفات الأطراف.

والحقيقة أن أسلَمَ موقف تفاوضى هو أن تكون أهداف المفاوض دَليل أقواله بغير مسافة كبيرة بين الاثنين، لأن ذلك ما يعطى المفاوض مصداقية مطالبه، وما يُجَنِّد وراءه القوى الواسعة الراغِبة فى تَفَهُّمِ ظروفه، والمُسانِدة لخطوطِه الحمراء إذا وَصَلَ إليها.

□ النقطة الثانية - أن هذه الجولة الجديدة من المفاوضات بين سوريا وإسرائيل تجربة مُعَرَّضة لكل الاحتمالات.

وهناك عَوامِل تُرَجِّح الاتفاق، فى مقدمتها لقاء الأطراف الثلاثة فيه على ضرورته. ومع ذلك فكل الاحتِمالات وارِدة.

- فالرئيس الأمريكى يريده بقسوة (لكن السؤال: هل يقدر؟)

- ثم إن الرئيس السورى يريده بضرورات وقائع سابقة ولاحقة (لكن المشكلة أن إسرائيل أيضاً ترى الوقائع قديمها وجديدها - وكله له حِساب!)

- ورئيس وزراء إسرائيل يريده لأنه نهاية مَنطِقية لإستراتيجية إسرائيلية وَصَلَت إلى ذروة قُوَّتها، ولم يَعُد أمامها تَهْديدٌ تخشى عواقبه، ومن ثم فإن المُهِمّة المعقولة أمامها هى الوصول إلى تسوية حتى وإن طَرَحَت من فواتيرها نِسْبَةَ خَصم تُغرى بالصَفقة. [ولكن

السُّؤال: أى نَوْعٍ من الاتفاق يريد «باراك»، ويقبله وزراؤه، ويقبله الكنيست، ثم يقبله الناخِبُ الإسرائيلى فى استِفتاء - على مَبْدَأ الانسحاب من الجولان - سوف تُحيط به أجواء عاصِفة فى ظِلٍّ تَضَخُّمٍ زائد للقوة الإسرائيلية يُغرى بالحَماقة، خصوصاً مع إدارةٍ أمريكيةٍ يَقودها رئيسٌ لم يَبْق له أمَلٌ، ولم يَبْق له زَمَنٌ لأن صلاحية رئاسته (عَمَلياً) مستمرة لثلاثة شهور قبل أن تبدأ معركة انتخابات الرئاسة الجديدة، ويَتَحَوَّل «كلينتون» من «بَطَّة عَرجاء» (كما يَصف هو نفسه الآن) إلى «بَطَّة كَسيحة» تماماً (عندما يَخلفه رَجُلٌ آخر فى البيت الأبيض يُهِمُّه مهما كان حِزبُه أن يُقيمَ جِداراً عالياً بين عَصرَيْن. بين إدارَتَيْن)!]

....

....

وفى الغالِب فإن هناك نوعاً من حوار الطرشان يجرى بين الأطراف الثلاثة، فكلٌّ منهم له أسلوب وله اتجاه: - سوريا تتفاوض مع إسرائيل، ولكنها تريد أن تُعطى ما تعطيه للولايات المتحدة وليس لإسرائيل!

- وإسرائيل تتفاوض مع سوريا، ولكنها تقصد «الشام التاريخى» وليس سوريا وحدها، فهناك فى هذه المنطقة الأوسع والأشمل مطالبها الحقيقية خصوصاً إذا انعَزَلَت مصر، وانكفأ العراق.

- والولايات المتحدة - أو لعله رئيسها الحالى قبل غيره يسعى بالتوفيق تليفونيا وشخصيا بين سوريا وإسرائيل، لكن هَدفه الأول ليس تذكرة إلى السلام فى الشرق الأوسط، وإنما تذكرة سفر إلى التاريخ، وربما يستطيع «كلينتون» أن يحصل على تذكرة سَفر، ولكن المشكلة إذا كان يَملك تأشيرة دخول إلى التاريخ. ولعله يريد أن يَفعل مثل المُهاجِرين العَرب والأفارقة المسَاكين الذين يُحاولون الهَرَب عبر البحر الأبيض إلى أوروبا بَحثًا عن مُستقبل، لكن المَخاطر تَتَرَبص بهم بَحرًا وشاطِئًا، والظروف تلاحقهم بعد الدخول إلى البرِّ لأنهم لا يعرفون كيف يُديرون حياتهم. وفى حالة الرئيس «كلينتون»، فإن تكاليف مُحاولة التسلل إلى التاريخ غالية.

والظاهر أن الولايات المتحدة - بصرف النظر عن رئيسها - تريد أن تزيح التكاليف - أكثرها أو كلها - إلى آخرين يهِمُّهُم سلام الشرق الأوسط لسَبَبٍ أو آخر، وبينهم دُوَل أوروبا، واليابان إذا كانوا يريدون شراء إمداداتهم من النفط من سوقٍ مأمونة، وبينهم

كذلك بعض الدُوَلِ العربية المُنتِجة للنفط إذا كانت تريد أن تشترى راحة بالها نهائياً من الصراع العربى الإسرائيلى (مع ارتفاع طارئ على أسعار النفط!)

(هذا مع العِلمِ أن إسرائيل وَحدَها تريد فَوْراً ما بين ثلاثين إلى ستِّين بليون دولار حتى تَقبَل بالانسِحاب من أى مَوْقِعٍ فى الجولان. وسوريا تُراودُها آمال بمُساعَداتٍ لا تَقل عما تظن أن مصر حصلت عليه!)

....

....

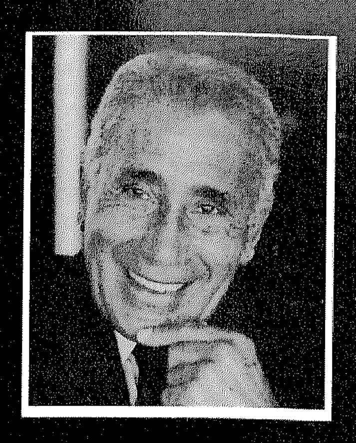
تَظَلُّ هناك نقطة ثالثة لا علاقة لها بسوريا أو بالتفاوض بينها وبين إسرائيل - وتلك هى أن مرحلة من التاريخ العربى وَصلَت إلى نهاياتها مع نهاية قرنٍ جديدٍ - وهناك زمانٌ عربىٌّ قادِمٌ ينتظر صياغةَ آماله، وينتظر تحديدَ مهامه، وينتظر رجالَه.

وحيوية الأمة وحدها هى الكفيلة بتحديد مدة الانتظار!

محتويات الكتاب

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى - ت:٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس:٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)



كلام فى السياسة

"... وخطر لى والأمة على أبواب ألفية ثالثة من التقويم الميلادى المصطلح عليه فى زماننا العالمى ــ أننا نحتاج إلى وَقفة لإطالة التفكير ولإعمالِ العقل فى أناة. وقد تَمَنَّيْتُها وَقفة نتأملّ فيها دون أن نتعطَّل، ونُراجع فيها دون أن نتكبَّر، ونتعمَّق ــ ولو قليلاً دون أن نَغْرق ــ ذلك أن الاندفاع الذى يسوقنا الآن إلى حيث لا نعرف خطرٌ، والاستمرار فيه سباقٌ نحو كارثة ــ ومجال الأفكار هو الأفُق الرَحب، و«الكتاب» ــ كما كان على طولِ مَسار الحضارة ــ لا زال مُستَوْدَع الرؤى ومَخزون التجارِب"

محمد حسنين هيكل